مواد الادب العربي

المقررة في المنهج الرسمي للسنتين الرابعة والخامسة

التي اشتمل عليها كتاب

«التعريف في الادب العربي»

بقلم الاستاذ رئيف خوري

•

يشتمل هذا الكتاب على كلّ مواد الادب المقررة في منهج التعليم الرسمي في لبنان للسنة الخامسة ، وهذه هي :

١ – **مقدمة**: معلومات عامة في الادب والفن والجمال واصول البلاغة. التمييز بين الادب وتاريخ الادب . تقويم الذوق الادبي بالاستناد الى درس النصوص .

٢ – **نظرة تاريخية في تسلسل عصور الادب**[١] : الجاهلية ، صدر الاسلام ، العصور العباسية ، عصر الانحطاط، عصر النهضة.

٣ – **درس النصوص التالية وفقاً للفنون الادبية** : القصة . الحكاية. الرواية . الخبر . السِيَر : تحديدها وشروطها ، سيرة عنترة ، الف ليلة وليلة . نهضة القصة العصرية . الامثال والحكم (علي بن ابي طالب ، ابن المقفع). التاريخ والجغرافيا والرحلات(المسعودي،

١ مع مراعاة ملحوظة المنهج : ان هذا القسم التاريخي انما يُدرس على اعتباره اطاراً ضرورياً لدرس الادب ، لا يقصد لذاته ، بل لما يسهله من درس النصوص ، وهي الاس المهم في فهم الادب وتذوقه ، وفي العمل على تقويم الذوق وانشاء الثقافة .

ابن بطوطة ، امين الريحاني) . الابحاث العلمية (الجاحظ ، القزويني ، ابراهيم اليازجي ، يعقوب صروف) . الشعر الغنائي : تحديده وانواعه (ابو فراس الحمداني) . الشعر الوجداني او الشخصي (ابو فراس الحمداني ، المعتمد بن عباد ، المتنبي : قصيدته في مرضه بالحمى). الرثاء (المهلهل ، الخنساء ، جرير ، ابن الرومي) . الفخر (عنترة ، المتنبي ، الشريف الرضي) . الشعر الحكمي والتعليمي : تحديده (المعرّي ، زهير ، لبيد ، عدي بن زيد ، ابن الوردي ، ناصيف اليازجي) . الامثال (النابغة الذبياني ، احمد شوقي) .

يفرض على الطالب ان يدرس مثالاً واحداً من آثار كل من الادباء الذين ذكرت اسماؤهم ، مع التعمق بدرس ثلاث شخصيات : ابن المقفع ، ابن الرومي ، ابي فراس الحمداني .

انشاء : موضوعات اخلاقية . ابحاث ادبية . نقد ادبي . ترجمة وتعريب[1] .

•

ويشتمل هذا الكتاب كذلك على **معظم مواد الادب المقررة** ، في منهج التعليم الرسمي في لبنان ، **للسنة الرابعة** ، وهذه هي :

١ – قراءة : منتخبات من آثار الكتاب والشعراء في مختلف العصور .

٢ – انشاء : موضوعات اخلاقية وتاريخية وادبية ، توسيع فكرة ومناقشتها ، تمارين في النقد الادبي وفي الترجمة والتعريب .

٣ – قواعد : حروف المعاني ، المسند والمسند اليه ، الفصل والوصل ، التشبيه والاستعارة ، لمحة في اوزان الشعر .

٤ – الادب العربي : ١) ماهيّة الادب ، تعريفٌ بالفنون الادبية : الشعر الملحمي ، الشعر الغنائي ، التمثيل ، الشعر الحكمي ، القصة ، الوصف ، النقد الادبي . ٢) لمحة تاريخية في تسلسل عصور الادب : الجاهلية (النابغة الذبياني) ، صدر الاسلام (الاخطل) ، العصر العباسي (ابن الرومي ، المتنبي ، ابن المقفع ، الجاحظ) ، عصر النهضة (ابراهيم اليازجي ، سليمان البستاني) .

١ لما كان مثل هذا الباب يخرج عن نطاق كتاب في التعريف بالادب العربي لم نتعرض له .


شبه جزيرة العرب
باللون الاحمر : القبائل العربية
باللون الاسود : اقسام الجزيرة ومدنها
بحر الروم
دمشق
القدس
بطراء
عذره
تنوخ
بادية السماوة
الحيرة
ذوقار
الانبار
نهر دجلة
نهر الفرات
اياد
تغلب
بكر
قضاعة
تيماء
فدك
ذبيان
عبس
أسد
طيء
كندة
خيبر
الحجاز
المدينة
الأوس والخزرج
هوازن
نجد
تميم
هجر
اليمامة
طسم وجديس
الربع الخالي
خليج فارس
عمان
مسقط
قريش
عكاظ
مكة
ثقيف
الطائف
همدان
مذحج
نجران
تهامة اليمن
الاحقاف
عاد
الشحر
حضرموت
مأرب
اليمن
صنعاء
حمير
ظفار
عدن
المحيط
الهندي

رئيف خوري

استاذ الادب العربي في الكلية العاملية في بيروت

التعريف في الأدب العربي

للصفوف التكميلية

يشتمل على مادة الادب المقررة في المنهج الرسمي في لبنان

لجنة التاليف المدرسي

الطبعة الاولى ، بيروت — لبنان ، تشرين الاول ١٩٥١

كلمة الناشر

هذا الكتاب في واقعه جملة من كتب ، لا كتاب واحد .

هو تاريخ للأدب العربي يعطي صورة صالحة من مجموع عصوره ، ومن اشهر من برّز فيها من اعلام الشعر والخطابة والكتابة ،

وهو يكاد يكون خلاصةً لتاريخ العرب تتخللها لُمَعٌ من تاريخ الشعوب التي اشتركت في ابداع الأدب العربي ،

وهو مختارات من أجود النصوص الأدبية العربية شرحت شرحاً غير مثقل ، وعُلِّق عليها بما يوضّح أمرها توضيحاً يقطع كل سبيل على اللبس والغموض أن يُفسِدا ما حملت من فائدة ومن لذة ،

وهو كتاب في النقد يشتمل على مبادىء في العروض والبيان لا غنى عنها في تذوّق الأدب ، وأصحّ ما يكون درسها اذا قرن بدرسٍ جيّدِ النصوص الادبية ،

ثم هو الى ذلك كتابٌ في النقد يشتمل على تقسيمٍ وتحديد للفنون الادبية بِحَسَب ما كانت مفهومة في الأدب العربي قديماً ، وبحسب ما اصبحت مفهومة لدينا اليوم بعدما تأثّرنا خطى الاوروبيين في درس الأدب ... وهذا شيء لم يسبق ان حواه كتاب عربيّ واحد ، مع أنه ضروري للمقارنة بين الأدب العربي وآداب الامم ، وضروري لادراك الوجوه التي ابدع فيها الادب العربي والوجوه التي قصّر فيها . ولسنا نغالي اذا قلنا ان عمل المؤلف في هذه الناحية قد كان عمل الرائد المستكشف الذي يشق طريقاً ما زال وعراً لم يعبّد.

ذلك فضلاً عما اشتمل عليه الكتاب من توجيهات في النقد ، وفي تقدير قيمة الادب، لا من حيث يكون الأدب تعبيراً جميلاً وحسب ، بل من حيث هو في الدرجة الاولى غذاء عُقول وارواح ، وبالتالي : مَبْعَثٌ للتفكير في القضايا التي يمسها تفكيراً غيرَ مُنْقَطِع عن العصر . فما من شكّ ان الأدب الصحيح ابن الحياة ، والحياة امّه ، وبينه وبينها اخذ وعطاء على استمرار، فينبغي إذاً لدرس الأدب ان يكون على مثل تلك الصلة الحميمة بالحياة ، والا تثقل على الدارس والمطالع معاً .

وهكذا ترانا نقدّم هذا الكتاب الى الطلاب وجمهور القراء ونحن على يقين من انه يمتاز

في مادته بصفات لا يجمعها كتاب آخر في موضوعه ،

ثم يمتاز بمنهج تأليفه ، وقد سلك فيه المؤلف سبيل التدرّج ، وحرص على ربط الفصول بعضها ببعض وان تعرّض أحياناً لشيء من التكرير ،

كما يمتاز بالاسلوب الذي انشأه به مؤلفه : اسلوبِ المعلم الذي يحاضر الطلاب ويناقشهم في حلقة الدرس، واسلوبِ المحدث الذي يروي للقراء ويباحثهم في مجلس... مع الحرص على اجتناب اللفظ المطلق الذي يحتمل كثرة التأويل .

وبالطبع لم يكن بد في مثل هذا الكتاب ، الذي أريد للطلاب ، كما اريد لجمهور القراء ، أن يؤكد فيه المؤلف على قسم من البرنامج الرسمي لآداب اللغة العربية في الجمهورية اللبنانية ، وهو القسم المُخَصَّصُ بما سُمِّي برنامج السنة الخامسة ، او ما يعادل الصفين الثالثَ والثانيَ قبل البكالوريا الأولى .

وبعد ، فلم نشأ ان ندفع بهذا الكتاب الى الطلاب وجمهور القراء إلا بعد عناية باخراجه على الوجه الانيق الدقيق، وبعد تزويده بالخرائط والرسوم، وكثير منها قد هيىء له خصوصاً .

وإننا بلسان انفسنا ولسان المؤلف ، لنرحب بكل اقتراح ونقد من شأنه ان يعين على تحسين هذا الكتاب غيرةً على موضوعٍ جليل نُحِب ان يزيد طلابَنا وجمهور قرائنا إقبالاً عليه وانتفاعاً به واستمتاعاً .

بيروت ، في ١٠ ايلول ١٩٥١ . لجنة التأليف المدرسي

الجزيرة العربية مهد الأدب العربي

(اقرأ هذا الفصل وانت تراجع خارطة : شبه جزيرة العرب ، المضمومة الى هذا الكتاب)

موقعها وحدودها . — خذ لك خارطةً تصوّر العالم ، وانظر منها الى الطرَف الجنوبي الغربي من آسيا . فانك واجدٌ بلاداً عظيمةَ الرقعة ، تندقّ كالاسفين الضّخم بين قارتي آسيا وأفريقيا ، ويُقدّر مجموع مساحتها بربعِ مساحة اوروبا ، او بما يساوي مساحة لبنان اكثر من مائة وثمانين ضِعْفاً .

تلك هي الجزيرة العربية ، تحوطها البحار الا من الصوبِ الشمالي حيث تتصل بالبر الآسيوي . فهي في الواقع شِبهُ جزيرة ، وانما غلب عليها اسمُ الجزيرة .

يحدّها جنوباً المحيط الهندي ، وغرباً البحرُ الاحمر (او بحر القُلزُم) .

وتبدأ حدودُها الشمالية بخليج العَقَبة ، في شمالي البحر الاحمر ، ثم تمرّ بشرقي الاردن ، فباديَةِ الشامِ ، حتى تبلغَ العراق .

وتبدأ حدودُها الشرقيةُ بجنوبي العراق ، ثم تمر بخليج فارسَ ، فخليجِ عمّان ، حتى تبلغ المحيط الهندي .

اقطارها الجنوبية والشمالية . — ومنذ القِدم وهذه الجزيرةُ مقسومةٌ بِحسَبِ أهلها قسمين رئيسيين : جنوبياً وشمالياً .

واشهرُ اقطار القسم الجنوبي **اليمن** على البحر الاحمر والمحيط الهندي ... وفي اليمن ظهر أقدمُ مَظْهرٍ نعلمه للحضارة في الجزيرة العربية ، فقامت فيها الدول قبلَ الميلاد بنحو من ثلاثةَ عشرَ قرناً كما تدلّ نقوشٌ كشفَها الرّحالةُ المحدثون وفي مقدّمتهم عالمٌ اسمهُ هاليفي *Halévy* وآخر اسمه غلايزر *Glaser*. وازدهرت في اليمن المدنُ من مثل **صنعاء** ومـا برحت هي عاصمتها الى اليوم ، وبها قصرُ غُمْدان الأثريّ الشهير ، ومن مثل **مأرب** **وظفار** ، ثم **نجران** التي كانت قاعدةَ الديانة المسيحيةِ في الجزيرة العربية . وأنشئت في اليمن السدودُ الكثيرة تخزَن فيها المياه لِريّ الارض ، وأشهرُها وأضخمُها **سد مأرب** .

وإنما بلغت اليمنُ قديماً هذا المبلغ من الحضارة لوقوعها على طريق التجارة بين **الهند** وناحيتنا من العالم ، ولوَفرَة حظها من المطر ، وصلاح أرضها للزراعة . **وكان اليونان**

والرومانُ يدعونها بلادَ العربِ السعيدة *Arabia Félixa* .

وفي اليمنِ سلسلةٌ من جبال عالية تُشبه جبالَ لبنان ، بجودها المطر بنظام ، وتجري أوديتها بالسيول .

ويَلي اليمنَ في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية، قُطرُ **حضرموت** على المحيط الهندي، ويلي حضرموت **عمان** في مقابل الهند ، وأكبرُ مدنِ عمان **مسقط** .

وهذه الاقطارُ الثلاثة كانت تؤلف شرياناً تجارياً عظيماً . كانت تُنقلُ التجارةُ بالبحر من الهند الى عمان ، ثم تحمل في قوافل الى حضرموت فاليمن، ومنها تُسيّر شمالاً في طريق البر ايضاً لصعوبة الملاحة عهدَئذ في البحر الاحمر .

وأما القسم الشمالي من الجزيرة العربية فأهم أقطاره الحجازُ على البحر الاحمر ، ثم نجدٌ في الوسَط ، ثم البحرين على خليج فارس .

والحجاز قطر قليل الحظ من المطر . ومدينته الرئيسية **مكة** ، ومن اسمائها ام القرى ، وهي في وادٍ غير ذي زرْع وإن هطلت عليها احياناً أمطارٌ مفاجئة احدثت بها سيولاً سريعة النضوب والزوال . ومن ارض الحجاز ما هو بركاني وذلك في قسمِه الشرقي . وتسمّى هذه الارض : **الحرة** ، وجمعها حِرَار ، وهي سوداء ذات حجارة نَخِرة .

وقلما يصلح الحجاز للزراعة الا في بقاع منه مثل **الطائف** في جنوبي مكة ، **ويثرب** (أو المدينة ١) في شماليّها ، **وخيبر** في شمالي المدينة. وفي خيبر والمدينة كانت منازل بعض اليهود. وأشهر الشّجر المثمر في الحجاز : النخْل .

وللسبب الذي من اجله قَويت نهضة اليمن قديماً ، نهض الحجاز ولكن في زمن متأخرٍ عن اليمن. فأصبحت عاصمته مكة مركزاً تجارياً تَرِدُه القوافل وتَصدُر عنه، وعظمت فيها شوكة قريش. وفي مكة ايضاً **البيت الحرام** ، او **الكعبة** ، وكان الوثنيون من اهل الجزيرة يعظّمون هذا البيت لاشتماله على اصنامهم ، ويزورونه ، فتزيد الاعمال في مكة نشاطاً على نشاط .

ثم لما ظهر الاسلامُ كان الحجـــازُ مَهْدَه وبيئتَه الأولى ، وطُهّرت فيه الكعبة من الاصنام وأصبحت محج المسلمين . فالحجاز هو الارض المقدسة للاسلام .

وفي الحجاز **جبال السراة** ، وبها سمّي الحجاز حجازاً لانها تحجُز بين ارض الشاطىء على البحر الاحمر وارض الداخل .

١ المقصود مدينة النبي ، غلب عليها الاسم لدى ظهور الاسلام وهجرة النبي اليها .

وقطر **نجد** في وسط الجزيرة هو أوسع أقطارها وهو مرتفعُ الارض . ومعنى نجد في اللغة العربية الارض المرتفعة . وفي نجد سلسلة جبال شمّر ، ومنها جبلا أجا وسلمى .

ويمتاز هذا القطر بانه اوفر من الحجاز حظاً من المطر . فأرضه التي ينبتُ فيها العشب ، وتصلح لرعي الماشية ، فسيحة الانحاء ، فضلاً عن صحة الهواء وجمال الطبيعة فيها . وبهواء نجد تغزّل الشعراء وأكثروا من ذكر الصَّبا ، وهي ريح شرقية ناعمة ، وتغزلوا بمناظر نجدٍ ولاسيما منابت الخُزامى والعَرار .

وفي الجنوب الشرقي من هذا القطر الارضُ التي تسمى **اليمامة** ، وهي من اخصب بقاع الجزيرة . وفي نجد ايضاً كان مدرجُ اعظمِ الشعراء الجاهليين .

وقطر **البحرين** على الخليج الفارسي ، في جوار العراق ، هو قطر التمر واللؤلؤ . ومن مدُنه **هجر** التي قيل فيها : كمُهدي التمر الى هجَر ، وهو مثلٌ يُضرب لمن يحمل بضاعةً الى حيث تكثر تلك البضاعة ، ولا يهتم لها الناس . ومن مدن البحرين ايضاً قطَر ، وفيها مغاوص اللؤلؤ .

وفي البحرين نبغ عددٌ من كبار الشعراء الجاهليين . وكان هذا القطر في الجاهلية اوسع منه اليوم . فكانت جميع الارض التي تمتد من عمان الى جنوبي العراق تسمى البحرين . ولذلك كان يدخل فيه الاقليم الذي يسمى **الاحساء** اليوم . والاحساء في الحقيقة اسمٌ لنوع من الارض ، ومفردها الحِسي وهو ارض الرمل التي يوجد تحتها الماء .

فهذه هي اشهر اقطار الجزيرة العربية في قسميها الشمالي والجنوبي .

سطح الجزيرة : انخفاضه وارتفاعه وكثرة صحاريه . — ويبدأ سطح الجزيرة بانخفاض في الغرب يحاذي البحر الاحمر على طول الشاطىء ، ويسمّى مجموع هذه الارض الغائرة : التهائم ، مفردها **تهامة** . وتهامة في اللغة العربية نقيض نجد .

ثم ترتفع اعظم سلسلة من الجبال في هذه الجزيرة تمتد من الحجاز الى اليمن ، وهي في الحجاز تسمّى السراة على ما ذكرنا .

ويمكث سطح الجزيرة على ارتفاع في نجد ، ولكنه ادنى ارتفاعاً منه في الحجاز واليمن . وتعود الارض الى الانخفاض على شواطىء الخليج الفارسي ، وخليج عمان ، ولكنها ربما ارتفعت فجأة الى علو شاهق على مثال **الجبل الاخضر** في عمان .

والصحاري توشك ان تغطي سطح الجزيرة في وسطها من الشمال الى الجنوب . وفي الشمال الصحراء العظيمة التي تسمّى **النفود** وهي رمال بيضاء تضرب الى الحمرة . وفي الجنوب

صحراء اعظم منها تسمى **الدهناء**، وهي رمال حمراء وقد اصطلح على تسميتها **الربع الخالي**، والجانب الغربي منها يسمى **الاحقاف** حيث كانت قديماً منازل عادٍ من العرب البائدة.

وتطاير رمال الصحاري بعصف الريح، ثم تحط وتتراكم. فاذا تلالٌ تقوم في حيث كانت الارض منبسطة، واذا بسائط تنسطح في حيث كانت الارض تلالاً. وتلة الرمل تسمى **كثيباً ودعصاً**، وهما من الالفاظ الشائعة في الشعر القديم.

مناخ حار ومياه قليلة. — ولكثرة الصحاري في الجزيرة العربية اشتد عليها الجفاف وحرارة المناخ. والعام الذي لا يسقط فيه المطر يسمى سنة، فيقول الناس: اصابتنا سنة، وحطمتنا سنة. وفي مثل هذا الوقت يكثر تراثي السراب او الآل، وهو عبارة عن ماء وهمي يترقرق في نظر المسافر الذي أحرقه الظمأ ونهكه العياء. فيسعى اليه وهو يبتعد عنه. وقد اكثر الشعراء من ذكر السراب ولمعه، شبهوا به كل شيء يتراءى جميلاً ولا حقيقة له.

ويكثر في الجزيرة هبوب الرياح، فاذا استثنينا الصبا التي ذكرناها مع ما يجري مجراها، كان اكثر تلك الرياح قاسياً في حرّه وبرده. والريح الحارة اللافحة التي تهب صيفاً تسمى السَموم. والريح الباردة التي تهب شتاء تسمى الشَمال.

ولكن حتى صحاري الجزيرة لا تعدم حظاً ولو يسيراً من مطر، فتكتسي الارض في الربيع بساطاً اخضر، وتمتلىء القيعان فتأكل الماشية وتشرب. وقد تتكوّن ينابيع شحيحة في جوف الارض تُحفر لها الآبار. وربما ظهر من هذه الينابيع مقدار في بقعة يجعلها صالحة للزراعة، فتسمى هذه البقعة واحة. ومن اشهر واحات الجزيرة خيبر والطائف **ووادي العقيق**[1] في الحجاز.

بعض شجر الجزيرة وحيوانها. — وطبيعي ان لا يكثر النبات والشجر في الجزيرة العربية، وان لا تعرض فيها مشاهد الخضرة الا في اوقات كفصل الربيع، أو في مواضع معينة من مثل الواحات وارض اليمن واليمامة. لكن لا تخلو الجزيرة من مقدار يذكر من **النخل** وقد اشرنا اليه، ومن بعض الكرم والرمان ولاسيما في الطائف. ويتردد كثيراً في الشعر القديم ذكر الغضا، وهو شجر برّي مشهور بصلابة خشبه وبحطبه الجزل الذي يستعر جمره طويلاً قبل الخمود، وذكر الاثل والطلح والسدر والضال والطرفاء، وكلها اجناس

[1] واد يلحق بالمدينة، وقد اكثر الشعراء من ذكره.

متقاربة ، وذكر الحنظل المشهور بالمرارة ، والحنـــاء التي يتخذ منها الخضاب ، والشيح والقيصوم والعرار والخزامى والسعدان ، وهذا الاخير نبات شائك تحب أكله الابل ، ومن هنا قيل : مرعىً ولا كالسعدان ، أي مرعىً طيب .

وأما طيور الجزيرة فأشهرها القطا ، وهو رشيق المشية ، والعقـــاب والغراب والهدهد والحمام . واما الحيوانات فأشهر الداجن منها **الابل** وهي من مقوّمات حياة الانسان في تلك الارض ، يأكل لحمها ودَرَّها ، ويرتدي وبرها ، وينتقل عليها لصبرها على العطش ، ثم الخيل والضأن والكلب والعَير (الحمار). وأشهر الوحشي من حيوانات الجزيرة الظباء والآرام والمها والثيران والبقر الوحشية ، وهذه كلها يكثر ذكرها في الشعر القديم وهي مطلوبة للصيد ، وعيونها مشهورة بالسعة والجمال ، ثم الاسود والذئاب والثعالب والضباع والحيات والضباب ، وبذنب الضبّ تشبّه المسائل المعقّدة فيقال : مسألة أعقد من ذنب الضبّ .

أثر طبيعة الجزيرة في اللغة والادب . — وكان ضرورياً هذا القسط من المعرفة بالجزيرة العربية لانها طبعت اللغة العربية ، وبالتالي الادب العربي بطابع قويّ عميق . وليس من سبيل الى فهم كثير من طرق التعبير العربي الا مع هذه المعرفة بالجزيرة العربية .

فنحن ما زلنا نقول : الغيث ، ونعني المطر . والغيث مشتق من الجذر نفسه الذي اشتقّت منه الاغاثة اي المعونة والمساعدة . ولولا طبيعة الجزيرة العربية وتوقف الحياة فيها على الماء والمطر لما سُمّي المطر غيثاً .

وكذلك نقول : ماء الوجه ، ونعني نضارته ، وماء الكلام ، ونعني رونقه . ولولا قيمة الماء الحيوية في الجزيرة العربية لما عبّرنا بهذا التعبير عن النضارة والرونق .

وكان الشعراء العرب اذا مدحوا شخصاً قالوا : هو ربيع الناس ، يعنون انه منعم عليهم محسن اليهم . ولم يكن يستقيم هذا التعبير لولا ان الربيع في الجزيرة العربية فصلُ خير يرزق فيه الناس والمواشي .

العَرَبُ وعصرُ الجاهِلية الأُولى

العرب واقسامهم. — العرب، سكان الجزيرة العربية، شعبٌ كبير قديم النشأة من الجنس الساميّ، الذي يرى بعض العلماء أنه ظهر أصلًا في الجزيرة العربية، ويرى بعضهم الآخر انه انتقل اليها في عصرٍ سحيق.

والخلافُ قائم ايضاً على لفظ العرب. فمن العلماء من يقول ان الكلمة من الاصل الساميّ، ومعناها الصحراء او أهل الصحراء، اي البدْو. غير ان العرب أنفسهم يجعلون التسمية مشتقة من عَرِبَ الرّجل، أو عَرُبَ، اي صار فصيحاً بيّن الكلام. ويقولون ان البدو انما هم الاعرابُ لا العرب عامة.

لكن مهما يكن من شيءٍ، فللعرب تاريخٌ عريق جداً. وهم منذ أبعد العصور ينقسمون عرب شمال وعرب جنوب، وبين العرَبين قديماً فرقٌ في اللغة ومنافسةٌ وخصومة.

ثم ينقسم كل عرب منهما قبائلَ وفروعها، والرابطةُ في القبيلةِ وحدةُ الدّم او ما يتصوّر اهلها من رجوعهم الى جد واحد وفي أحيان الى امّ واحدة.

ثم يختلفون في اوضاعهم الاجتماعية تبعاً لاحوال المعيشة والبيئة.

فمنهم الحَضر — وقد يُسمون اهل المَدَر[١] — يجتمعون في المدن والقرى ويسكنون في البيوت المبنية بنياناً ثابتاً.

ومنهم البدو — وقد يُسمون اهل الوَبَر[٢] — يعيشون في الخيام، وهم ابداً في حِلّ وترحالٍ، يتتبعون منابت الكلأ[٣] ومواقع الماء، وتقتتل قبائلهم واكثر قتالها على هذا الماء والكلأ.

ومن الحَضَر اوساط زراعية ومنهم اوساطٌ تجارية.

ومن العربِ الوثنيون، ومنهم بعض من عرفوا الديانات الالهية من يهودية ومسيحية.

على ان العرب لم يكونوا في مدى تاريخهم الاقدم عرباً بالمعنى الذي نألفه. ومن هنا

١ أي اهل الطين، لان الطين يدخل في بناء البيوت وقد تُبنى كلها منه. ٢ هو شَعر الجمال. ويُسمى البدو اهل الوبر لانهم يسكنون في بيوت من الشَعر ويرتدون ملابس منسوجة منه. ٣ الكلأ: العشب الاخضر الذي ترعاه الماشية.

اصطلح مؤرخوهم على ان يقسموهم طبقتين وهم يعنون جيلين: العرب البائدة والعرب الباقية. ومن ثم يقسمون العرب الباقية جيلين : العرب العاربة والعرب المستعربة .

العرب البائدة . — وهم الذين انقرضوا ولم يبقَ من اخبارهم الا ما ورد للعبرة في القرآن الكريم،وما توسّع فيه الرواة . ومن هذا الجيل من العرب عادٌ وثمود وجُرْهم وطسْم وجديس .

ويجعل المؤرخون ديارهم في منازل شتى من الجزيرة العربية ، فعادٌ في الأحقاف في حضرموت ، وثمود في شمالي الجزيرة في الحِجْر (او مدائن صالح اليوم)، وجرهم في مكة ، وطسم وجديس في اليمامة .

العرب العاربة . — وهم الأصلُ في العرب ، ويُنعتون بالخُلّص والصرحاء[١]، والمقصود بهم عرب الجنوب او اهل اليمن . يُرجعون نسبهم الى جد لهم اسمه قحْطان ويجعلون انفسهم في فرعين كبيرين : **حمير و كهلان** .

كانوا حضراً في الاغلب،وكان مجتمعهم زراعياً تجارياً قائماً على الرقّ المجتَلَب. ونهضت لهم دول ذات شأن في عهود مبكرة من التاريخ لقيامهم على طريق التجارة مع الهند ولصلاح ارضهم للزراعة .

ومن دولهم سَبَأ التي يجعل المؤرخون ابتداءها بالقرن العاشر قبل الميلاد . وسبأ هذه هي التي حكمتها الملكة بلقيس المذكورة في التوراة والقرآن . وكانت لسبأ لغة خاصة تدعى السّبئية وهي شقيقة للغتنا العربية ولكنها تختلف عنها .

ومن دولهم **حميرُ** ، والى حمير هذه تنسب اللغة الحميرية وهي شقيقة السبئية وشقيقة للغتنا العربية ولكنها تختلف عن كلتيهما .

ومن حميرَ **دولةُ التبابعة** التي اشتُهر منها التبّع اسعد كامل أبو كرب وابنُه حسّان تُبّع .

وقد سبقت لنا الاشارة الى ما ازدهَرَ لعَرَب الجنوب من مدُن كبيرة : صنعاء ومأرب وظفار ، ومن سدود اعظمها سدّ مأرب ، وقصور أعظمها غُمدان في صنعاء .

ولكن عرب الجنوب بدأوا يتعرّضون للانحطاط منذ زمن بعيد يرتدّ الى القرن الاول

١ الصريح هنا هو الذي لم يخالطه عنصر غريب .

بعد الميلاد ، حين استطاعت دولة الرومان ان تذلّل البحر الاحمر للملاحة وتحوّل اليه شريان التجارة مع الهند. فقلّ على توالي الاحقاب ما كان يجنيه عرب الجنوب من مكاسب التجارة. ثم ساءت احوال زراعتهم لنشوب الصراع السياسي بين رؤسائهم والحاح التعصب الديني عليهم، ذلك التعصب الذي ادّى الى تحريق اصحاب الأخدود من نصارى نجران سنة (٥٢٣م) حرّقهم ذو نؤاس آخر ملك تُبّعي مستقلّ ، وكان قد نوى اكراه البلاد على التهود .

وهكذا فقد القوم استقلالهم ، وحكمهم الاحباش . وفي اثناء حكم الاحباش لليمن ، حمل القائد الحبشي أبرَهةُ الاشرم على مكة لهدم الكعبة ، وجعل مقدمة جيشه فيلاً ، ولكن أبرهة انقلب خائباً ... وكان ذلك في سنة ٥٧٠ م ، السنة التي عرفت بعام الفيل ، عام وُلد النبيّ محمد .

ثم انتهى حكم الاحباش لليمن بان نهض من بقية التبابعة اميرٌ اسمه سيفُ بن ذي يَزَن ، فاستعان كسرى أنوشروان، فأمدّه بجيشٍ طرد الاحباش، ولكن الفرس أقاموا مُسيطرين على البلاد حتى نهضة الاسلام .

وطوال عهود هذا الاضطراب والانهيار في ملك عرب الجنوب ، نزحت منهم قبائل كثيرة الى الشمال ، وخالطت اهله . وأصحاب الاخبار يقرنون هذا النزوح بانفجار سد مأرب العظيم ، ويروون في ذلك قصة مشهورة خلاصتها ان ملك اليمن في ذلك العهد ، واسمه عمرو بن عامرٍ ماء السماء الملقّب مُزَيقيا ، كانت له زوجة يقال لها ظريفة تكهّنت له بخراب السدّ، وجعلت له علامةً انه يرى جرذاً ينقُبُه. فلم يلبث عمرو ان رأى الجرذ يُدحرج من بناء السدّ حجراً ضخماً لا يُحرّكه الاخمسون رجلاً ، فأيقن بصدق زوجته ، واحتال لبيع املاكه وغادر البلاد بحشودٍ عظيمة . واذا بالسدّ ينفجر ويُغرّق طوفانه اليمن !

وظاهرٌ ان القصة انما هي تفسيرٌ اسطوريّ لما كان من نزوح عرب الجنوب الى الشمال في اثناء الانحلال الذي أصاب اليمن .

وهنا يهمنا ان نعلم ان القبائل الجنوبية التي رحلت الى الشمال ما لبثت ان تحوّلت مع الزمن عن لغتها الحميرية فأخذت بلغتنا العربية (وهي لغة اهل الشمال) .

وسنعلم كذلك ان بعض هذه القبائل الجنوبية استطاع ان يقيم في الشمال دولاً ، او دويلات، تركت أثراً في الادب العربي ، منها دولة المناذرة في الحيرة (العراق)، والغساسنة في البلقاء وحوران ، وكندة في نجد .

العرب المستعربة . — وهم الذين خالطتْهم عناصر دخلت في العرب . والمقصود بهم

أهل الشمال ، او عَربُ الحجاز ونجد والبحرين مما يشارف شرقي الاردن وسوريا والعراق .
ويُرجعُ هؤلاء نسَبَهم الى جَدٍّ اسمه **عدنان** ، ويجعلون أنفسهم في فرعين كبيرين : **مُضَرَ ورَبيعة** .

وهناك بعض دول نشأت قديماً على التخوم الشمالية للجزيرة العربية واشترك فيها عرب الشمال اشتراكاً قوياً .

منها **دولةُ الأنباطِ** الى شمالي الحجاز ، ازدَهرت بِقيامِها على طريق التجارة ، وبقيت حتى مطلع القرن الثاني بعد الميلاد حين قضى عليها أسيادُها الرّومان في عهد امبراطورهم تراجان. ومن أشهر ملوكها الحارثُ الثالث الذي انتزع دمشق من السلوقيين وألحقها بملكه. وعن الانباط هؤلاء أخذَ الخط العربي المعروف بالخط النسخي . وكانت عاصمةُ الأنباط **بطراء** ، ومعناها المدينة الصخرية لانها منحوتةٌ في الصخر ، ولا تزالُ آثارُها شاخصةً الى اليوم في الوادي الذي سماه العربُ واديَ الرَّقيم وهو الآن وادي موسى في شرقي الأردن.

ومنها **دولةُ تَدْمُرَ** في البادية بين سوريا والعراق. ازدَهرت بقيامها على طريق التجارة كذلك، وبقيت حتى سنة ٢٧٢م حين قضى عليها اسيادها الرومان كما قضوا من قبلها على دولة الانباط . وما برحت آثار عاصمتها تدمرَ ماثلةً الى اليوم .ومن أبطال هذه الدولة أُذَيْنَةُ ابنُ السَّمَيْدَع ، وهو الذي اشتدت على عهده الحربُ بين الفرس والرومان ، فاستطاع كسرى سابور الاول ان يحتل جزءاً كبيراً من سوريا وان يأسر الامبراطورَ فليريانَ، فانبرى له أُذَيْنَةُ بمن معه من جيوش عربية ورومانية ، فهزمه وطارده حتى أسوارِ عاصمته المدائن . ولكن اذينةَ ما لبث ان اغتيل في حمْص ، فتولت الحكمَ من بعده زوجتُه **زنوبيا** بطلةُ تدمرَ الشهيرة . وشاءت ان تخلع سلطان الرومان . الا ان الامبراطور أوريليانَ جرد عليها الحملة التي خربت المدينة العظيمة ، وساقت ملكتها اسيرة الى روما .

وعربُ الشمال يذكرون أذينة ، ويذكرون زنوبيا ، ولكن باسم الزبّاء، ويُخرجُون قصتها مخرجاً غريباً (راجع قصة الزباء وجذيمة الابرش وقصير في المنتخبات التابعة لهذا الفصل) .

على ان عرب الشمال كانوا، في الجملة، أقل إعراقاً في الملك والحضارة من عرب الجنوب. وبرغم انهم لم يعدموا بعض اوساط زراعية وبعض اوساط تجارية بلغت مبلغاً في التقدم،فان اكثرهم كان على البداوة وما تستتبعه البداوة في نظام المعيشة ومستوى الادراك .

ومع ذلك،فالدلائلُ تدل على ان عرب الشمال كانوا يتمخضون بنهضةٍ في الوقت الذي انحطّ فيه عربُ الجنوب .

ومن هذه الدلائل ما وقع في اواخر القرن الخامس الميلادي حين انتصر عربُ الشمال على عربِ الجنوب في معركة خَزَازَى ، وخلعوا ما كان هؤلاء عليهم من سُلطانٍ سياسي . وتذكر الاخبارُ ان رئيس عرب الشمال في ذلك اليوم كان كليبَ وائلٍ سيدَ قبيلةِ تغلب .

وعَرَبُ الشمال هؤلاء، مع من نزح اليهم ونَزَل بينهم وتعلّم لُغَتَهم من عرب الجنوب، هم المقصودون بعد الآن بقولِنا العَرَب .

ففي وسط من هؤلاء العرب، وعلى حالتهم التي وجدوا عليها في القرن السادس الميلادي، وفي مواطنهم في شمالي الجزيرة العربية، نشأ هذا الادب العربي الذي ندرسه اليوم ، وتم تكوين اللغة العربية التي نكتب بها .

ويسمى هذا القرن (أي : السادسُ الميلاديّ) مع ما تقدّمه قليلاً وتأخّر عنه قليلاً في تاريخ العرب ، عصرَ الجاهلية الاخيرة .

وكل ما سبَقَ هذا القرن وما قاربه في تاريخ العرب يسمى عَصرَ الجاهلية الاولى .

ولكن هنا يعرض سؤال : لماذا ندرس عصر الجاهلية الاولى في تاريخ ادبنا العربي ؟

أثر الجاهلية الاولى في الآداب العربية . — قلنا انّ العرب البائدة لم يتركوا آثاراً فيتركوا أدبا . والعربُ العاربة قبل استيطانهم الشمال ، وقبل القرن السادس الميلادي ، لم يورثونا أدباً تصح نسبته الى انفسهم ، بل لقد كانوا يتكلمون بغير لغتنا العربية . ثم لم يتحوّلوا الى لغتنا العربية الا بعد وقت . وكذلك العرب المُستَعرِبة في عهد الانباط وتدمر لم ينحدّر الينا منهم ادب عربي .

ومع ذلك فنحن نعنى بامر الجاهلية الاولى لان العربَ — وسواءٌ منهم أهل الشمال والجنوب — قد وعوا اخباراً كثيرة عن الجاهلية الاولى وبَنَوا عليها أقوالاً وأمثالاً وقصصاً وأشعاراً لحقت بهذا الادب العربي الذي ندرسه اليوم .

فنحن ما برحنا نقول : «أقدمُ من عاد» ، ونقصدُ المبالغةَ في وصف قِدَمِ الشيء . ونقول « العاديات » ونعني بها الآثارَ القديمة . ونضرب المثل بارَمَ ذات العِماد ، ونحن نعني عبث الاشياء وعقمها اذا بُنِيت على البَغي والبطر والفساد، لان إرَمَ هي المدينة التي شادها الطاغيةُ شدّاد بن عاد مُتحدّياً بها دعوة النبي هود الى الحق ، فأخذتها الصواعقُ ، فخربت وهلك اهلها . وكذلك نشبّه بلُقمان بنِ عاد وأنسُرِه ، ونحن نعني الحرصَ على طول العُمرِ وشدة التعلّق بالبقاء ، لان لقمان لما خُيّرَ اختار ان يُعمر مقدار سبعة أنسر ، ولكنه مات ولم يشبع حياة .


الفتوحات العربية فى أوجها
الحدود
البحر الأسود
القسطنطينية
آسيا الصغرى
بحر خوارزم
" آرال "
المغرب
القيروان
القاهرة
مصر
بيت المقدس
دمشق
بغداد
همذان
البصرة
المدينة
مكة
جزيرة العرب
بلاد فارس
اصفهان
شيراز
كرمان
هراة
كابل
غزنه
بلخ
سمرقند
بخارى
المحيط
الهندى

وكل هذه الامثال والاقوال لم تكن في اللغة العربية وأدبها لولا عاد .

ومما يدخل في هذا الباب قولنا : تفرّق القوم أيدي (او أيادي) سبأ ، نعني انهم تشتتوا لكارثة اصابتهم، وهذا المثل مبنيّ على خراب سدّ مأرِبَ وتفرّق الكثير من عرب الجنوب في الشمال . (راجع في المنتخبات، في آخر هذا الفصل، أبياتاً للشاعر الاعشى أشار فيها الى انفجار سدّ مأرب وتفريق سبأ).

وفي المنتخبات التي نثبتها في الفصول الآتية قصيدة في التحريض عنوانها :« لو كنا رجالاً وكنتم نساءً » نظمها شاعرها على لسان المرأة البَطَل في قصة طَسْم وجديس ، وقد روينا القصة مع نص القصيدة،ولولا طسم وجديس لما كانت لنا القصيدة ولا القصة في الادب العربي.

ويكاد لا يكون شيء مما ذكرنا في الجاهلية الاولى الا وقد اتصلت به في ادبنا قصص يلحق بها شعر كثير ، اتصلت بتدمر قصة الزباء وجذيمة الابرش وقصير (راجعها في المنتخبات في آخر هذا الفصل)، واتصلت بعهد التبابعة قصة التبّع اسعد كامل ابي كرب، وهو بحسب القصة : فاتح عظيم حمل على بلاد فارس وقهرها وبلغ بحر قزوين واحتلّ في عودته الحجاز .

وكذلك اتصلت بعهد التبابعة **قصة الملك سيف بن ذي يزن**، وقد سلف ذكره،وقصص خراب سد مأرب ، ونزوح القبائل اليمنية الى الشمال وما وقع لهذه القبائل من تجارب وأحداث.

واكثر هذه القصص لذيذ شائق ذو عِبرة ، برغم ما فيه احياناً من مبالغة فجّة ، ومن سذاجة في تجاوز كل معقول . وكثير من الشعر الذي يلحق بها جيد لا بأس به (راجع في المنتخبات التابعة لهذا الفصل ابياتاً منسوبة الى احد التبابعة يصف بها اليمن) .

وكيف دار الامر ، فهذه القصص المتعلقة بعصر الجاهلية الاولى مادة من الادب العربي الذي ندرسه . وما برحت اوساطنا الشعبية تقرأها وتتأثر بها .

لذلك نذكر عصر الجاهلية الاولى في تاريخ الادب العربي ، وان يكن الادب الذي اضيف اليه مُختَرَعاً لا شك في اختراعه ، قد وضعه القصّاصون ونظَم له الشعراء المقاطع والقصائد في عصور متأخرة عن الاسلام مدفوعين بالمفاخرة القَبَلية او بالرغبة في العظة والامتاع.

منتخبات

من وحي الجاهلية الاولى في الادب العربي

ومأرب عفى عليها العرم

لا تزال انقاضُ سد مأرب باقية الى اليوم في اليمن ، وكان يُعدّ من عجائب الدنيا السبع ، ويُمكنُ مشاهدة انقاضه في وادٍ يُسمى اذنة على مقربة من موقع مأرب شرقي صنعاء . ولا ريب ان السد تعرض مراراً للتصدع والخرابِ في مدة اضطراب اليمن وانهيار ملكها القديم . وأكبر الظن ان آخر انفجار حل به انما وقع على عهد الاحباش في اليمن ، قبل الاسلام بنصف قرن ، وأشار اليه القرآن الكريم .

واما الاعشى الذي نوه بهذا الانفجار العظيم ، في ابياته الآتية ، فهو شاعرٌ من شعراء الجاهلية الاخيرة ، شهد ظهورَ الاسلام ، ومدحَ النبيّ ، ومات بعدَ الهجرة ، فيُعقل جداً أن يكون آخرُ انفجارٍ اصاب السدّ قد وقع في طفولية الشاعر او قُبيل مولدِه . ويُعقَلُ جداً ان يكون الشاعرُ قد زار خرائب السد لانه كان كثير التطواف في الجزيرة العربية . والاعشى هذا من قبيلةِ بكر ، ويُعرَفُ بالاعشى الاكبر ، وسنعود الى ذكره .

قال الاعشى :

وَفي ذاكَ لِلمُؤتَسِي أُسوَةٌ ، وَمَأْرِبُ عَفّى عَلَيْهَا العَرِمْ [1]
رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَرٌ إِذا جاءَ مَوَّارُهُ لَمْ يَرِمْ [2]
فَأَرْوَى الزُّرُوعَ وَأَعْنابَها ، على سَعَةٍ ، مَاؤُهُمْ إِذْ قُسِمْ [3]

١ المؤتسي: هو الذي يرى العبرة وينتفع بها . أسوة: عبرة ، مثال يُتشبه به . العرم: نعت للسيل العظيم. عفى عليها : احربها ، غطاها . ٢ رُخام: يعني انه سد مبني بالرخام . مواره : ماؤه الدافق الغزير . ويقصد

فَصَارُوا أَيَادِيَ مَـا يَقْدِرُو نَ مِنْهُ عَلَى شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ [٤]

يدعو الاعشى في هذه الابيات الى العظة بما اصاب مأربَ من طُغيان الماء عليها . ثم يصف السدَّ كيف بنتهُ حميرُ بالرخام، وكيف كان ينصبُّ فيه الماءُ الموّار ، فيقتسمه الناس لري الزروع والاعناب ، ثم كيف تفرّقوا الى غير اجتماع ، وكيف ضاع الماء فلم يبقَ منه شربةٌ لطفل مفطوم .

وهذا الشعر هو من وحي الجاهلية الاولى في الادب العربي . ومَغزاهُ التذكير بان الاشياء صائرةٌ الى الفناء . وكثيراً ما نلحظ أثراً من هذا المعنى يَتَرَدَّدُ في الادب الجاهلي كلّه وفي الادب العربي عامة . ومن اسباب ذلك ان الادب العربي انما أفاق في الجاهلية الاخيرة على عصرٍ ينتهي وتنقرضُ أمجادُه هو عصر الجاهلية الاولى .

ان آثارنا تدل علينا

شِعرٌ على لسانِ احدِ التبابعة يصفُ به مدينتي صنعاءَ ومأربَ وجنائن اليمَن . ويقيننا أنه من الشعر الذي نظمه عربُ الجنوب فيما بعد، بلغة عرب الشمال، للفخرِ بقومهم . وآخر بيت من هذا الشعر شائعٌ جداً في افواه الناس، سائرٌ مسيرَ المثَل .

دَارُنَا الدَّارُ ، مَا تُضَامُ اهْتِضَاماً مِنْ عَدُوٍّ ، وَدَارُنَا خَيْرُ دَارِ [١]
إِنَّ قَحْطَانَ إِذْ بَنَاهَا بَنَاهَـا بَيْنَ بَرِّيَةٍ وَبَيْنَ بِحَارِ [٢]
نُطِقَتْ بِالْكُرُومِ وَالنَّخْلِ وَالزَّرْعِ وَأَصْنَافِ طَيِّبِ الأَشْجَارِ [٣]
وَتَسِيحُ العُيُونُ فِيهَا ، فَمَا يُسْمَعُ إِلَّا تَسَلْسُلُ الأَنْهَارِ [٤]
لَيْسَ يُؤْذِيهِمِ بِهَا وَهَجُ الحَرِّ وَلَا القُرُّ فِي زَمَانِ اقْتِرَارِ [٥]

السيول التي كانت تندفع من الجبال لتجتمع في الوادي حيث السد . لم يرِمْ : لم يبرح المكان، اي : حُبس هناك. ٣ إشارة الى ان اهل اليمن كانوا يقسمون ماء السد لسقي الارض . وأروى : سقى . على سعَة : على كثرة وغزارة . ٤ فصاروا أيادي ، أي : فرقاً مشتتة لا تجتمع . ومعنى بقية البيت: ان اهل اليمن اضاعوا الماء حتى باتوا لا يستطيعون ان يسقوا منه طفلاً مفطوماً .

١ ما تضام : ما تُذَلّ . والاهتضام : الظلم وأكل الحقوق غصباً . ٢ قحطان : الجدّ الذي ينتسب اليه عرب الجنوب . والمقصود بالبحار مياه السدود . ٣ نُطقت بالكروم ، اي : احاطت بها الكروم وطوقتها . ٤ العيون : عيون الماء . وتسيح : يجري ماؤها . وتسلسل الانهار : جريانها . ٥ وهج الحر : تلهبه . القرّ : البرد ، ومثله الاقترار .

طابَ فيها النَّباتُ والماءُ والنَّومُ وليلٌ مُطَيَّبٌ كالنَّهارِ
إنَّ آثارَنا تدلُّ علينا ، فانظُروا بعدَنا إلى الآثارِ !

الزباء وجذيمة وقصير

كانت زَنوبيا ، البطلة الشهيرة في التاريخ ، زوجاً لاذَينة بن السميذع امير تدمر . فلما اغتيل أذينة في حمص ، تولت هي من بعده الملك ، واشتد الخلاف بينها وبين روما ، فصمدت زنوبيا صموداً رائعاً حتى غلبها الامبراطور أورليان واسرها واخرب تدمر سنة ٢٧٢ م .

على ان العرب عرفوا زنوبيا ، باسم الزباء ، اي باسم قائد من قوادها يدعى زباي . وجعلوا اذينة الذي ورثت عنه الملك اباً لها ، لا زوجاً ، واقاموه ملكاً على الجزيرة (والمقصود هنا بالجزيرة ارض بين نهري الفرات والدجلة) . ثم جعلوا قاتل ابيها ملكاً عربياً اسمه جذيمة الوضاح ، او الابرش [١] ، وجعلوا الزباء تنتقم لابيها من جذيمة هذا ، ثم جعلوا وزير جذيمة يدبر الانتقام من الزباء في قصة ممتعة من قصص الادب العربي التي تتصل بعصر الجاهلية الاولى .

ولكن هذه القصة التي تصرفت بتاريخ زنوبيا هذا التصرف العجيب ، لا تخلو من أساس صحيح . فجذيمة الوضاح كان اول ملك من العرب في العراق ، اتخذ قاعدة لملكه مدينة يقال لها بقة على شاطىء الفرات ، وقد ولاه هذا الملك كسرى أردشير بن بابك الفارسي ، في القرن الثالث الميلادي (فيكون جذيمة سلفاً للمناذرة وبقة سابقة للحيرة) .

ثم لم تلبث الحرب ان نشبت بين ابن اردشير ، سابور الاول ، وفاليريان امبراطور الرومان . فهزم سابور فاليريان ، واحتل قسماً من سوريا حتى انبرى له أذينة بن السميذع ، امير تدمر وزوج زنوبيا ، فدحره وطرده الى اسوار عاصمته .

وهذا يعني ان أذينة قد عبر الفرات الى ما بين النهرين حيث المدائن عاصمة الفرس ، وحيث بقة عاصمة جذيمة . ويعني كذلك ان جذيمة ينبغي له ان يكون نصر الفرس في تلك الحرب ، على اذينة — والفرس هم الذين ملكوا جذيمة .

١ الابرش : الابرص . والوضاح هنا بمعناها .

فالقصة العربية لم تنشط حين جعلت زنوبيا ملكة الجزيرة ، وزنوبيا وارثة اذينة ، واذينة قد احتل الجزيرة . ثم لم تنشط القصة حين جعلت جذيمة ، قاتل اذينة ، واذينة قد قُتل وكان جذيمة عدوه . بل ليس يستبعد ان تكون الزباء ، او زنوبيا ، قد قتلت حقاً جذيمة الوضاح لطمعها في ان تلحق ملكه بملكها ، وتتقوى بمن في العراق من العرب ، وهم شعب زوجها اذينة ، على الفرس والرومان معاً ، اذ كانت تنوي الاستقلال التام .

وبعد ، فهذه قصة الزباء وجذيمة وقصير ، القصة التي حفلت بالاقوال الجارية مجرى الامثال ، واشهرها « لامر ما جدع قصير انفه » وهو مثل يُضرب لمن يحتمل الاذى في شخصه ويحتال لينال الثقة من خصمه ، ثم يبطش به ... ومن غريب الاتفاق ان تكون الحيلة التي استعملها قصير ليُدخل الرجال في حصن الزباء تشبه الحيلة التي استعملها عولس البطل اليوناني لدخول طروادة اذ خبأ بعض رجاله في حصان خشبي .

كان جذيمةُ قد ملك ما على شاطىء الفرات ، وكانت الزباء ملكةَ الجزيرة ، وكان جذيمة قد وَتَرها[1] بقتل ابيها . فلما استجمع أمرُها ، وانتظم شمل ملكها ، أحبت ان تغزوَ جذيمة . ثم رأت ان تكتب اليه : انها لم تجد مُلك النساء الا قبحاً في السماع ، وضعفاً في السلطان ، وانها لم تجد لمُلكها موضعاً ، ولا لنفسها كفؤاً غيرَك ، فأقبِل اليّ لاجمع ملكي الى ملكك ، وأصِل بلادي ببلادك ، وتَقَلّد أمري[2] مع أمرك .

فلما أتى كتابُها جذيمة ، وقدِم عليه رُسلُها ، استخفّه[3] ما دَعته اليه ، ورغب فيما أطمعته فيه ، فجمع أهل الحجا[4] والرأي من ثقاته — وهو يومئذ ببَقّةَ من شاطىء الفرات — وعرضَ عليهم ما دعته اليه وعرضت عليه ، فاجتمع رأيهم على ان يسيرَ اليها فيستولي على ملكها .

وكان فيهم قصيرٌ — وكان أريباً حازماً أثيراً عند جذيمة[5] — فخالفهم فيما اشاروا به ، وقال : رأي فاترٌ ، وغدر حاضر[6] . ثم قال لجذيمة : الرأي ان تكتب اليها ، فان كانت صادقة في قولها فلتُقبِل اليك ، والا لم تمكنها من نفسك ، ولم تقع في حبالتها ، وقد وَتَرتها

١ وترها : جعل لها عنده ثأراً . ٢ تقلد الامر : تولاه وحكم فيه . ٣ استخفه : حركه وابهجه . ٤ الحجا : العقل ٥ اثيراً عند جذيمة : صاحب حظوة عنده . ٦ الرأي الفاتر هو الرأي البليد الذي لا صواب فيه . و « رأي فاتر وغدر حاضر » مَثل يضرب لمن يرى رأياً خطأ في موقف خطر .

وقتلت اباها . فلم يوافق جذيمة وقال له : رأيك في الكنّ لا في الضحّ [١] .

ودعا جذيمةُ عمرو بن عديّ [٢] ابن اختِه ، فاستشاره ، فشجّعه على المسير ، وقال : ان قومي مع الزّباء ولو رأوك صاروا معك. فأحب جذيمة ما قاله ، وعصى قصيراً ، فقال قصير: لا يُطاع لقصيرٍ امر [٣] .

واستَخلَفَ جذيمةُ عمرو بنَ عَديٍّ على ملكه وسلطانه ، وسار في وجوه اصحابه [٤] ، فأخذ على شاطىء الفرات من الجانبِ الغربي ، فلما نزل دعا قصيراً فقال : ما الرأي يا قصير ؟ فقال قصير : ببقّة خلّفتُ الرأي [٥] . قال : وما ظنك بالزّباء ؟ قال : القول رِداف ، والحزم عثراته تُخاف [٦] .

واستقبلته رسُل الزباء بالهدايا والالطاف ، فقال : يا قصير ، كيف ترى ؟ قال : خطبٌ يسيرٌ في خطبٍ كبير [٧] . وستلقاك الجيوش ، فان سارت امامك فالمرأة صادقة ، وان أخذَت جنبَتيك [٨] ، وأحاطت بك من خلفكَ ، فالقومُ غادرون بك ، فاركب العصا فانها لا يُشقّ غُبارها [٩] — وكانت العصا فرساً لجذيمةَ لا تُجارى — واني راكبُها ومسايرك عليها [١٠] .

فلقيته الخيولُ والكتائب ، فحالت بينه وبين العصا ، فركبَها قصير ، ونظر اليه جذيمةُ على متن العصا مولّياً ، فقال : ويل امه حَزماً على متن العصا [١١] . وجرت به الى غروبِ الشمس ثم نفقَت [١٢] ، وقد قطعَت أرضاً بعيدة .

وسار جذيمةُ ، وقد احاطت به الخيلُ ، حتى دخل على الزباء ، فلما رأته قالت : أشوار [١٣] عروسٍ ترى ؟ فقال : أمرَ غدرٍ أرى . ثم دعت بالسيف والنطع [١٤] ، وقالت : ان دِماء الملوكِ شفاءٌ من الكَلَب . فأمرَت بطستٍ من ذهَب قد أعدّته له ، وسقَته الخمرَ حتى

١ الكنّ هو الوقاء والستر، والضحّ هو ضوء الشمس الطلق . والعبارة مثل يقال لمن يفضل التوقي والتستر على التعرض والمغامرة . ٢ هو الذي ولي ملك العرب في العراق بعد جذيمة ، فكان اول الملوك المناذرة . ٣ مثَل يُضرب لمن يرى الرأي الصواب ويخالَف فيه . ٤ وجوه اصحابه، أي: اعيانهم واصحاب الوجاهة فيهم . ٥ مثَل يضرب لمن يتأخر في قبول النصيحة ثم يطلبها بعد الفوات . ٦ القول رداف ، اي يتبع بعضه بعضاً ، والعبارة كلها مثل. ٧ اي : ما اقل هذا الذي تتفضل به الزباء عليك من الاكرام في جنب ما تريده لك من الشر . والعبارة مثل . ٨ جنبتيك : جانبيك . ٩ لا يشق غبارها : لا تلحق . ١٠ مُسايرك عليها، اي: سائر معك على قربٍ منك . ١١ اي : ما اعظمه من رجلٍ حازم وهو على ظهر الفرس. والعبارة مثل . ١٢ نفقت : ماتت. ١٣ الشوار : الزينة . ١٤ النطع: بساط من جلد يوضع عليه من يحكم عليه بالقتل .

سكر ، وأخذت منه الخمرُ مأخذها ، فأمرت براهشيه [١] فقطعا ، وقدّمت اليه الطست ، وقد قيل لها : انْ قطرَ من دمه شيءٌ في غيرِ الطست طُلِب بدمه . فلما ضعُفتْ يداه سقطتا فقطرَ من دمه في غير الطست ، فقالت : لا تُضيّعُوا دمَ الملك . فقال جذيمةُ : دَعُوا دماً ضيّعه أهله [٢] . فهلك جذيمة .

وخرج قصير من الحيّ الذي هلكت العصا بين أظهُرِهم [٣] ، حتى قدم على عمرو بن عدي — وهو بالحيرة — فقال له قصير : أثائر أنت ؟ قال : بل ثائرٌ سائر [٤] .

ووافق قصيرٌ الناسَ وقد اختلفوا ، فأصلحَ بينهم ، ثم قال لعَمْرو بنِ عدي : تهيّأ واستعد ، ولا تَطلّنّ دمَ خالك [٥] . قال : وكيف لي بها وهي أمنعُ من عُقاب الجو [٦] ؟

وكانت الزباء سألتْ كاهنةً لها عن هلاكها ، فقالت : أرى هلاككِ بسببِ غُلام مَهين [٧] غير أمين ، وهو عمرو بن عدي ، ولن تموتي بيده ، ولكن حتفك بيدكِ ، ومن قِبَله [٨] ما يكون من ذلك .

فحذرَت عمراً ، واتّخذتْ لها نفقاً من مجلسها الذي كانت تجلسُ فيه الى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : ان فاجأني امرٌ دخلتُ النفقَ الى حصني . ودعَت رجلاً مصوراً من أجوَد أهل بلاده تصويراً ، وأحسنهم عملاً ، فجهزته وأحسنتْ اليه ، وقالت : سِرْ حتى تقدمَ على عمرو بن عدي متنكراً ، فتخلوَ بحَشَمِه [٩] فتنضمّ اليهم ، وتُخالِطهم وتعلمهم ما عندكَ من العلم بالصوَر ، ثم أثبِتْ لي عمرَو بن عدي مَعرفةً [١٠] ، فصوّرْه جالساً وقائماً وراكباً ومتفضلاً [١١] ومتسلحاً بهيئته ولبسته ولونه ، فاذا أحكمتَ ذلك فأقبِل الي .

فانطلق المصوّر حتى قدمَ على عمرو بن عدي ، وصنَع الذي أمرته به الزّباء ، وبلغ من ذلك ما أوصته به . ثم رجع الى الزباء بعلمِ ما وجهتهُ له من الصورةِ على ما وصفتْ وأرادت أن تعرف عمرو بنَ عدي [١٢] ، فلا تراه على حالٍ الا عرفته وحذرته ، وعلمت علمَه .

وقال قصيرٌ لعمرو بن عدي : اجدَع أنفي ، واضرب ظهري ، ودَعني واياها . فقال عمرو : ما أنا بفاعل ، وما أنت لذلك مستحقاً عندي . فقال قصير : خلّ عني اذاً وخلاك

١ الراهشان : العرقان الكبيران في باطن الذراعين . ٢ ذهبت مثلاً يقوله لنفسه من يخاطر بها ويتعرض للموت . ٣ بين اظهرهم : اي بينهم . ٤ ثائر سائر : مثل يقال لمن ينوي ثأراً ويكون على استعداد للبدء بالعمل . ٥ ولا تطلن دم خالك : ولا تتركه يذهب عبثاً . ٦ مَثَل . ٧ مهين : لا قيمة له . ٨ من قِبَله : من ناحيته ، من جهته . ٩ حشم الملك : هم خدمه واهل بطانته : ١٠ اثبت لي عمرو بن عدي معرفة ، اي : عرفني به تعريفاً محققاً ثابتاً . ١١ متفضلا ، اي : لابساً الثياب الخفيفة للنوم . ١٢ معنى الجملة : ان المصور رجع الى الزباء بصور عمرو بن عدي كما طلبت منه .

ذمّ [١] . فقال له عمرو : فأنت أبصَر . فجَدعَ أنفه وأثّرَ آثاراً بظهره ، فقالت العرب: لامرٍ ما جَدع قصير أنفه [٢] .

ثم خرج قصير كأنه هارب ، وأظهر ان عمراً فعل ذلك به ، وانه زعم أنه مكر بخاله جذيمةَ وغرّه . فسار [٣] حتى قدم على الزباء ، فقيل لها : ان قصيراً بالباب . فأمرت به فأدخلَ ، فاذا أنفُه قد جُدع ، وظهرُه قد ضُرب . فقالت : ما الذي أرى بك يا قصير ؟ قال: زعم عمرو أني قد غررتُ خاله ، وزينتُ له المصيرَ اليك، وغشَشْتُه ومالأتك [٤] ، ففعل بي ما ترَين . فاقبلتُ اليكِ ... فأكرمتهُ ، وأصابت عنده من الحزْم والرأي ما أرادت .

فلما عرف انها استرسَلت اليه [٥] ، ووثقت به ، قال : ان لي بالعراق اموالاً كثيرة وطرائفَ وثياباً وعِطراً، فابعثيني الى العراق ، لاحملَ مالي واحملَ اليك من بزّها وطرائفها وثيابها وطِيبها ، لتُصيبي من ذلك ارباحاً عظيمة ، وبعضَ ما لا غنى للملوك عنه . وكان اكثر ما يُطرفها [٦] من الصرَفان [٧] ، وكان يعجبها ، فلم يزل يزيّن ذلك حتى أذِنت له ، ودفعت اليه اموالاً ، وجهزت معه عبيداً .

فسار قصيرٌ بما دفعتْ اليه حتى قدم العراق ، وأتى الحيرةَ متنكراً ، فدخل على عمرو ابنِ عدي ، فأخبره الخبر ، وقال : جهّزْني بصنوف البزّ والامتعة لعلّ الله يمكِنُ من الزباء فتصيبَ ثأرك ، وتقتلَ عدوّك . فاعطاه حاجته .

فرجع بذلك الى الزّباء ، فأعجبها ما رأت وسَرّها ، وازدادت به ثقةً ، وجهّزته ثانية ، فسار حتى قدم على عمرو ، فجهّزَه وعاد اليها .

ثم عاد الثالثةَ وقال لعمرو : اجمعْ لي ثقاتِ أصحابك ، وهيِّء الغرائرَ [٨] واحمل كل رجُلَين على بعيرٍ في غرارتين ، فاذا دخلوا مدينة الزباء أقمتُك على باب نفقها ، وخرجت الرجالُ من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، فمَن قاتلهم قتلوه ، وإن أقبلت الزباء تريدُ النفق جلّلتها بالسيف [٩] .

ففعل عمرو ذلك ، وحمل الرجالَ في الغرائر بالسلاح ، وسار يَكْمُنُ النهار ويسري بالليل ، فلما صار قريباً من مدينتِها تقدّم قصير فبشّرها ، وأعلمَها بما جاء به من المتاع

١ وخلاك ذم : وبرئتَ من الذم . ٢ راجع تفسير هذا المثل في خاتمة مقدمة القصة. ٣ فسار ، اي : فسار قصير . ٤ مالأه ، اي : وافقه على مكيدة . ٥ استرسلت اليه : اطمأنت اليه . ٦ يطرفها : يُتحفها ٧ الصرفان : التمر الصلب السمين المتلىء . ٨ الغرائر : جمع غرارة وهي الكيس الكبير . ٩ جللها بالسيف : علوتها بالسيف فقتلتها.

والطرائف ، وقال لها : آخرُ البزّ [1] على القَلوص [2] . وسألها أن تخرج فتنظر إلى ما جاء به، وقال لها : جئتُ بما صَاءَ وصَمَت [3] .

ثم خرجت الزباء فأبصرتِ الابلَ تكادُ قوائمُها تَسُوخُ [4] في الارض من ثقل أحمالِها ، فقالت : يا قصير ،

ما للجِمالِ مَشْيُها وئيدَا [5] أجَنْدَلاً [6] يحمِلْنَ أمْ حَدِيدا
أم صَرَفاناً تارزاً [7] شديدا ؟

فقال قصير في نفسه : بل الرجالَ قُبَّضاً [8] قعوداً .

فدخلت الابلُ المدينةَ حتى كان آخِرُها بعيراً مرَّ على بوّاب المدينة ، وكانت بيده مَنْخَسة [9] ، فنَخَس الغِرارة ، فأصابت خاصرة الرجل الذي فيها، فسمع له صوتاً، فقال : شرٌّ في الجوالق [10] .

فلما تَوَسَّطتِ الابلُ المدينةَ أُنيخَتْ ، ودلّ قصير عمراً على باب النَّفَقِ الذي كانت الزبّاء تدخله ، وأرته إياه قبل ذلك ، وخرج الرجالُ من الغرائر ، فصاحوا بأهل المدينة ، ووَضَعوا فيهم السِّلاح [11] ،وقام عمرو على باب النَّفَق ، وأقبلت الزبّاء تريده ، فأبصرت عمراً فعرفتْهُ بالصورةِ التي صوّرت لها ، فمصّتْ خاتَمَها - وكان فيه السُّمّ - وقالت : بيدي لا بيدِ عمرو [12]. وتلقّاها عمرو فجلّلها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينةِ وأهلِها ، وانكفأ [13] راجعاً إلى العراق .

حاشية : **« مجمع الامثال » و « جمهرة الامثال »** . - وردت قصّةُ « الزبّاء وجذيمة وقصير » في كتبٍ كثيرة في الادب العربي ... ولكن اشهر المؤلفات التي اشتملت على

١ البزّ : الثياب الفاخرة . ٢ القلوص : الناقة الفتية الشابة . و« آخر البز على القلوص » مثل يقال على سبيل التهكم ، لمن ينبغي له ان ينتظر مصيبة تأتيه . ٣ صاءَ : احدث صوتاً ، وهي ضد صمت ، والمقصود : جئتك بكل شيء ، والعبارة مثل . ٤ تسوخ : تنغرز . ٥ وئيد : متمهل ، بطيء . ٦ الجندل: الصخر. ٧ تارزاً: يابساً شديداً. ٨ قُبَّضاً ، أي : منقبضين مجتمعين على انفسهم لكي يتسع لهم الموضع ، ويمكن ان تعني قابضين على السلاح . ٩ منخسة : حديدة حادة الرأس من مسلة او مخرز قبضا او ما اشبه . ١٠ الجوالق: هو ما نسميه بالعامية البالق. وقوله: شر في الجوالق، مثل يضرب لمن يتوجس شراً مخفياً . ١١ وضعوا فيهم السلاح: سلطوا عليهم السلاح واخذوا في قتلهم. ١٢ بيدي لا بيد عمرو : مثل يضرب لمن يقتل نفسه لكي لا يقتله عدوه. ١٣ انكفأ : انقلب .

هذه القصّة : كتابُ « مجمع الأمثال » و « جمهرة أمثال العرب » . وكلاهما مطبوع . وأوّلهما يُعَدّ أنفسَ المؤلفات في الامثال العربية ، ومؤلفه عالمٌ اسمه المَيْدَاني ، وُلد في بلاد فارس في مدينة نَيْسابور ، وتوُفي في القرن الثاني عشر بعد الميلاد . وثانيهما كتابٌ نفيس لاديبٍ اسمُه أبو هلالٍ العَسْكري ، وُلِدَ في بلاد فارس وتوُفيَ في اوّل القرن الحادي عشر الميلادي .

تمرين

اجمع الامثال الواردة في هذه القصة واشرح معانيها .

العرب وعصر الجاهلية الأخيرة

في وَسطٍ من عرب الشمال ، ومن نزل بينهم وتعلّم لغتهم من عرب الجنوب ، وعلى الحالة التي وجد عليها اولئك العرب جميعاً في القرن السادس الميلادي (وحوالى هذا القرن)، نشأ الادب العربي وتم تكوينُ اللغة العربية .

الى هذه الحقيقة انتهينا في الفصل السابق .

والحالةُ التي وجد عليها اولئك العرب من أهل الشمال وأهل الجنوب معاً ، في هذا العصر الذي سميناه عصر الجاهلية الاخيرة ، تحتاج الى وصفٍ خاص في نواحيها السياسية والاجتماعية والاخلاقية والفنية والعقلية والدينية .

وهذا وصف لها على الوَجه المُختصر .

حالة العرب السياسية في ذلك العصر . — في النّاحية السياسية تظهر لنا ثلاثُ دُوَل ، او دُويلاتٍ ، كانت للعرب في ذلك العصر .

١ — المناذرة : وكان مبدأ أمرِ هذه الدولة ان جَمْهَرةً من قبائل الجنوب تسمى **تنوخ**، اقبلت في القرن الثالث الميلادي فحلت في شواطىء الفرات في العراق . والامبراطورية الفارسية تعاني عهدئذ حرباً أهلية أسفرت عن انقلابٍ في الاسرة المالكة واستيلاء اردشيرَ ابن بابك أول الملوكِ الساسانيين على العرش. فنصبَ اردشير هذا جذيمةَ الوضاح ، او جذيمة الابوش [١] ، ملكاً على من سكن في العراق من العرب . واتخذ جذيمة عاصمةً له مدينة بقة . (راجع قصة الزباء وجذيمة وقصير في المنتخبات ، آخر الفصل السابق) .

ثم خلف جذيمةَ ابن اخته عمرو بن عَدِيّ ، من بني لخم، فكان اول المناذرة . واتخذ عاصمة لملكه مدينة **الحيرة** ، وموقعها اليوم على نحو ثلاثة اميالٍ من الكوفة . وظل الملوك المناذرة يتعاقبون على الحكم حتى الفتح العربي الاسلامي سنة ٦٣٣ م . وكانوا جميعاً داخلين في طاعة الملوك الفرس .

ومن اشهر المناذرة النعمانُ الاول باني قصرَي الخوَرْنق والسدير . ثم المنذرُ الثالث

١ الوضاح والابوش بمعنى الابرص .

الذي حكم في الشطر الاول من القرن السادس الميلادي ، وحارب الكنديين والغساسنة . فتغلب على الكنديين وقتل ملكهم الحارثَ بن عمرو . ولكن تغلب عليه الحارثُ الاعرج الغساني في يوم حَليمة وقتله . والمنذرُ الثالث هو صاحب يوم البؤس الذي كان يقتل فيه أولَ من يطلع عليه ، وصاحب يوم النعيم الذي كان يُجيز فيه اول من يلقاه .

ومن ملوك المناذرة **عمرو بن هند** الذي قتله عمرو بن كلثوم التغلبي . ومنهم ايضاً النعمان الثالث ، أبو قابوس ، بممدوحُ **النابغة الذبياني** ، وهو الذي اعتنق المسيحية ، وانتهت حياته دوساً بأرجل الفيلة في المدائن عاصمة الفرس بعدما غضب عليه كسرى أبرويز .

وقد ازدهرت الحيرةُ بحضارة مرموقة ، تلاقت فيها المجوسية الفارسية والوثنية العربية والديانة المسيحية ، كما تلاقى فيها الاثر الفارسي والعربي واليوناني . ويقال ان باني الخَوَرْنَق والسدير كان معماراً يونانياً اسمُه سِنِمار وهو المقصود في المثل العربي : « جَزاني جزاءَ سِنِمار . » (راجع المنتخبات في آخر الفصل) .

وكانت الحيرة منزلاً لكثير من النصارى النساطرة . وهؤلاء يُسَمون في الحيرة العِباد ، ومنهم الشاعر **عدي بن زيد العبادي** .

ومن الحيرة تعلّم العرب الكتابة حتى تعلمها اهل مكة قبل الاسلام .

ويُروى ان اهل الحيرة حفظوا كثيراً من اشعار الجاهليين مدوّنة في الطنوج[١] .

٢ – الغساسنة : وكان مبدأ أمر هذه الدولة ان فريقاً ممن هاجر من عرب الجنوب اقبل على مشارف سوريا فحلّ في البلقاء وحوران . وسمي هذا الفريق غسان لنزوله على ماء بهذا الاسم . وكان على رأس ذلك الفريق مُزيقيا ، عمرو بن عامر ماء السماء ، الذي خرج من اليمن بحشود من العرب قبيل انفجار سد مأرب . وكان لمزيقيا هذا ولد يدعى جفنة ، فأسس جفنة ملك الغساسنة فهم يُعرفون بآل جفنة .

ولم تكن لهم عاصمة واحدة ثابتة ، فطوراً هي الجابية او جولان ، وطوراً هي جِلّق في جوار دمشق .

وكان الغساسنة داخلين في طاعة البيزنطيين . وأشهر ملوكهم الحارث بن جبَلة ، الأعرج ، الذي ولاّه الامبراطور يوستنيانوس ، سنة ٥٢٩م ، ملكاً على جميع من سكن في سوريا من العرب . ووقعت بين الحارث هذا والمنذر الثالث ملك الحيرة ، معارك طاحنة . وأسر المنذر ولداً للحارث فذبحه ضحية للالهة العزّى . على ان الحارث ما لبث ان انتقم في يوم

١ كلمة فارسية بمعنى الكراريس .

حليمة فصرع المنذر .

وقصد الغساسنة عدد من شعراء العرب بينهم حسان بن ثابت والنابغة الذبياني .

وكان آخر ملك غساني جبلة بن الأيهم الذي شهد فتح العرب المسلمين لسوريا .

وبلغ الغساسنة مبلغاً عظيماً في الحضارة فاق المناذرة في الحيرة . وتجلى في هذه الحضارة الاثر العربي واليوناني.غير ان العمران الذي تركه الغساسنة أهمل من بعدهم فدُرست معالمه.

٣ – كندة : وقاعدتها نجد . وكان مبدأ امرها ان حسان تبّع حمل على اواسط الجزيرة في الشطر الاخير من القرن السادس الميلادي ، فأخضع بعض القبائل . وكان يرافقه في حملته رجال من كندة يقودهم اميرهم حجْر الملقب آكل المرار، فنصّبه حسان ملكاً على القبائل الشمالية التي اخضعها ، ومن تلك القبائل بنو اسد .

وقويت شوكة كندة حتى استطاع ملكها الحارث بن عمرو ان يقهر المنذر الثالث ملك الحيرة من بني لخم ، ويحتل عاصمته في اوائل القرن السادس الميلادي. ولكن ظفره سرعان ما انقلب هزيمة عليه ، فبطش به المنذر وبجماعة من الامراء الكنديين .

ثم انهارت كندة في القرن السادس الميلادي ، بانهيار ملك التبابعة وهم مؤيدوها . وقتل بنو أسد آخر الملوك الكنديين وهو حجر والد **امريء القيس** الشاعر المشهور ، وصاحب القصيدة الاولى في المعلقات .

وللكنديين فضل في ادخال الكتابة على الحجاز ، ادخلها رجل منهم اسمه بشر الكندي كان قد تعلمها من مدينة الانبار في العراق .

وكان معنى انهيار كندة ، وما سبقه من انهيار التبابعة في اليمن ، ان العرب فقدوا آخر كيان لهم منظم في دولة مستقلة او شبه دولة .

ذلك بان المناذرة والغساسنة لم يكونوا مستقلين بل كان المناذرة في طاعة الامبراطورية الفارسية والغساسنة في طاعة الامبراطورية البيزنطية . وكلتا هاتين الامبراطوريتين كانت تضطهد العرب الذين يلحون على التخوم العراقية والسورية في طلب الماء والارض الخصبة ، وتستعمل المناذرة والغساسنة اداةً في هذا الاضطهاد ، ثم تستعمل المناذرة على الغساسنة والغساسنة على المناذرة ، وهكذا .

فاذا شئنا ان نلتمس كياناً للعرب نشأ مستقلاً في ذلك العصر، او كان في طريق النشأة، فالى مكة ، موطن قريش ، ينبغي لنا ان نوجه النظر .

٤ – ومكة : لم تكن قبل القرن الخامس الميلادي سوى قرية قليلة الشأن. ولكنها نهضت حتى اصبحت في اواسط القرن السادس الميلادي مدينة عظيمة،ولعلها اصبحت اعظم

المدن في الجزيرة العربية كلها .

وكان السبب في نهضة مكة مركزها الديني والتجاري .

وقام مركزها الديني على **الكعبة** وما اجتمع فيها من أصنام العرب ، وقيل انها بلغت ثلاثمائة وستين صنماً أعظمها هُبَل وكان صنعُه من عقيق احمر على هيئة انسان . وصاغت له قريشُ يداً من ذهب اذ أدركته وهو مكسور اليد .

وكان العرب يحجون الى الكعبة في الاشهُرِ الحرُم . فكانت تلك مناسبةً يكفون فيها عن الغزو والسلب والحرب وسفك الدم . وفي تلك المناسبة كانت تزدهر اسواق الادبِ والتبادلِ التجاري بين القبائل ، وأشهر تلك الاسواق **عكاظ** على مقربة من مكة .

واما المركز التجاري فقد نشأ لمكة من موقعها على طريق التجارة البري بين الهند وجنوبي الجزيرة وسوريا ومصر .

وبرع القرشيون في التجارة، وتعودوا ان يرحلوا في أغراضهم التجارية رحلتهم كل سنة: رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى ديار الشام ، وهم آمنون على اموالهم وارواحهم بقوة الغنى ، وبحرمة الدين مذ كان منهم حُجّاب الكعبة وسَدَنتُها .

وتعلم القرشيون الكتابة ، وصُقِلت لهجتهم وفاقت باقيَ اللهجات العربية الشمالية ، واتسع جاههم ، واقتنوا العبيدَ ، وظهرت فيهم الطبقات الاجتماعية القائمة على التفاوُت في ملكية الثروة ، وتعاطوا الربا الفاحش ، ومنهم من كان يستولي على بضائع المستضعفين غصباً – الامر الذي دعا الى حلف الفضول ، وهو محاولة كانت في اواخر الجاهلية لمنع اقوياء قريش من سلب المستضعفين بضائعهم .

وفوق ذلك أخذ القرشيون ينظِّمون في مدينتهم نواة دولة . فأفردوا لهم ندوة ازاء الكعبة يجتمعون فيها ويتشاورون، وأنشأوا لواءً للحرب او نوعاً من قيادة عسكرية، وجعلوا وظيفة لحراسة الكعبة دَعوها الحِجابة والسدانة ، وفرضوا خراجاً لسدِّ ما يعرضُ من نفقات في تدبير المدينة والكعبة ، وتولوا سِقاية الحجيج واطعامه .

قيل وكان اول من جمع الرئاسة على هذا النحو قُصي بن كلاب بن مرّة القرَشي ، ثم ابنه عَبدُ مَناف ، ثم تقاسمها ولد عبدِ مناف واشتد بينهم التنافس ، وبذلك كان مَبدأُ العداوة التي نشهدها فيما بعد بين الامويين والهاشميين .

حالتهم الاجتماعية . – واما في الناحية الاجتماعية ، فاذا استثنينا بعض بيئات المناذرة والغساسنة ومكة وبعض الواحات، وجدنا اكثر اولئك العرب على البداوة. وبالطبع وجدنا

القبيلة اساساً لمجتمعهم . وتقوم القبيلة — كما قلنا — على رابطة الدم ، ولكنها ربما رضيت ان ينتسب اليها غريب بالولاء .

ولكل قبيلة رئيس او سيد نافذ القول . وتتألف القبيلة من أسر تكون الكلمة العليا فيها للاب . ويجمع اهلَ القبيلة الواحدة عصبيةٌ لقبيلتهم وحمية لها عمياء او كالعمياء ، على نحو ما يتجلى في قول فارسهم دُريد بن الصِمّة :

وَهَلْ أنَا إلّا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ [1]

ولأهل القبيلة حرص على انسابها وتفاخر بها عظيم .

والفرد مسؤول عن قبيلته ، وهي مسؤولة عنه ، فاذا عظمت جرائم الفرد وأبت القبيلة ان تتحمل التبعة نبذته وتبرأت منه ، فطلب له قبيلة اخرى ينتسب اليها بالولاء ، فان لم يجد اصبح من الخلعاء وصار من الصعاليك ، رزقه في حد سيفه وسنان رمحه .

وهكذا عاشت الى جانب نظام القبيلة نزعة فردية قوية الاثر ... قال الشنفرى ، الشاعر الصعلوك ، في القصيدة المشهورة بلامية العرب يخاطب قومه :

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ : سِيدٌ عَمَلَّسٌ وأَرْقَطُ زُهْلُولٌ ، وعَرْفَاءُ جَيْأَلُ [2]

هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِرِّ ذائِعٌ لَدَيْهِمْ ، وَلا الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ !

والمعنى : لئن ضقتم بي ذرعاً فان لي اهلاً غيركم : الذئب والنمر والضبع ، اولئك اهل لا يبوحون بسر صاحبهم اذا استودعهم سراً ، ولا يسلمونه للعقاب اذا جنى جناية . وظاهر ما في هذا المعنى من نزعة فردية وتحدٍّ لمجموع القبيلة .

والقبائل كلها تقتتل — كما ذكرنا — على أبسط اسباب الرزق من عشب وماء وماشية في هذا المحيط الذي شحّت فيه اسباب الرزق واتخذ فيه الزحام على البقاء اشكالاً ضارية، وارتكز فيه الحق بصورة سافرة على قوة العضل وفتكة السيف . وفي هذه الحياة المهموكة بالغزو وردّ الغزو يقول دريد بن الصمة :

١ يقول : انا واحد من قبيلة غزية . اذا اخطأت قبلتي وافقتها على الخطأ . واذا سلكت طريق الصواب سلكتها معها .

٢ ولي دونكم اهلون : ولي اهل غيركم . سيد عملس : ذئب سريع قوي . والارقط : صفة النمر . والزهلول : الاملس . والجيأل : الضبع . والعرفاء : ذات العرف الطويل .

يُغَارُ عَلَيْنَـا وَاتِرِينَ فَيُشْتَفَى بِنَا إِنْ أُصِبْنَا، أَوْ نُغِيرُ عَلَى وِتْرِ [١]
قَسَمْنَا بِذَاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا فَمَا يَنْقَضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ [٢]

واذا وقع دم بين قبيلة وأخرى لم يكن بدٌّ من الثأر، ويزعُم أهلُ القتيل ان طائراً كالبوم يخرج ليلاً من قبر قتيلهم، ولا يزال يصيح: اسقوني، حتى يُراق دمٌ بدم.

ولربما اصطرعت القبائل عشرات السنين في سبيل الثأر على نحو ما وقع في **حرب البسوس** بين بكر وتغلب، بعد مقتل كليب سيد تغلب، وعلى نحو ما وقع في **حرب السباق** بين عبس وذبيان، بعدما قتل زهير العبسي ولداً لحذيفة بن بدر الذبياني.

وتسمي القبائل حروبها أياماً، ومن اشهرها ايام خزازى، والبسوس، والسباق، وحليمة، وذي قار.

وعدّة القبائل في هذه الحروب: السيف والرمح والنشّاب والدّرع والخيل.

وتغار القبائل على اعراضها. وفي ساعة لقاء العدو تعتبر القبيلة نساءها عنواناً لكرامتها، وتتحمس جداً لاقوالهن وأناشيدهن، وتجعلهن وراء المقاتلين لئلا يقعن في السبي... ومع ذلك فليست حالة النساء بالتي تحمد. فقد يدفنهن الاب ساعة الولادة لضيق ذات يده، ويُسمى ذلك **الواد**. وقد يُسبَيْنَ ويُغنمن في غزو او حرب على نحو ما تُغنم الماشية. وقد يرى ثريّ ان يتزوج منهن اي عدد شاء، واذا مات استطاع ابنه ان يستولي على نساء ابيه ان يعضلهن، اي يمنعهن من الزواج.

حالتهم الاخلاقية. — واما في الناحية الاخلاقية، فاولئك العرب متأثرون تأثراً عميقاً بما أوجبه عليهم مجتمعهم ومحيطهم. والتناقض سافرٌ شديد في طبائعهم. فبينا تراهم، في بعض المواقف، كرماء لا يقيمون وزناً لشيء يقتنونه، اذا بهم يَذبحون ويُذبحون من اجل شاة. وبينا تراهم رقاق القلوب يحبون حتى يفنوا حباً ويتفجعون للميت تفجعاً عظيماً، اذا بهم قساة غلاظ الاكبادِ يئدون البنات ويُسرعون الى سفك الدماء لأهون الاسباب.

ومع ذلك فقد تصور هؤلاء القوم مثلاً أعلى في الاخلاق الرجولية سموه **المروءة**. وينطوي

١ و ٢ واترين، نصبت على الحال، اي: يغار علينا ونحن واترون، ووتر فلان فلاناً، اي: آذاه وجعل له عنده ثأراً. والمعنى: ان القوم يغيرون علينا وقد آذيناهم وجعلنا لهم ثأراً عندنا، فيدركون ثأرهم اذا اصابونا ويشتفون منا. ثم نغير نحن على القوم وقد اصبح لنا ثأر عندهم. وهكذا قسمنا الدهر نصفين بيننا وبينهم، ففي نصف نشن عليهم الغارة، وفي نصف يشنون علينا الغارة، فلا يمر بنا وقت الا ونحن في قتال وغزو.

تحت هذا المثل الاعلى خلقُ الكرمِ وحسن مُعاملة الضيف والشجاعة والوفاء والحمية للاهل والقبيلة، والغيرة على العرض، واباء الضيم، مع الحلم أو سعة الصدر، ومع الصبر على الشدائد والاكتفاء باليسير من القوت والكساء. فاذا دعت الحاجة او أمكنت الفرصة،أقبلوا بأنفس محرومة نهِمَة على تعاطي اللهو واللذة ، ولاسيما شرب الخمر ، وافتخروا بكثرة ما يتحمّلون من شربها وبكثرةِ ما ينفقون في سبيلها .

ومن خير ما يُصور المثلَ الاعلى في الاخلاق الجاهلية ما قاله دُريد بن الصمة يصف أخاه وهو يرثيه.(انظر المنتخبات في آخر هذا الفصل).

حالتهم في الفنون . — فاما في الناحية الفنية فكان اولئك العرب يغنون غناء فطرياً، منه **الحداء** الذي ينشطون به أنفسهم على السير في الصحراء . وكانت لهم معرفة ببعض الآلات الموسيقية ومنها العود . ولم تخلُ حياتهم من الرقص .

الا ان هذا كله لا يُذكر الى جانب الفنين اللذين ضربوا فيهما بسهم وافر : الشعرِ والخطابة . ولشدّما أحب العرب الشعر ، ولشدما احتفلت القبيلة للشاعر ينبغ فيها فينشر مكارمها ويوقظ هممها ويجادل عنها اعداءها. ولشدما شغف العرب بالخطابة واهتزوا لفصيح القول وبليغه يُرتجَلُ ارتجالاً فيضَ الطبع ووَحي البديهة .

حالتهم العقلية . — واما في الناحية العقلية ، فكانوا على الجملة اميّين ، قليلي الحظ من المعرفة العلمية الثابتة ، الا ما استطاعوا تحصيله بفطنتهم الحادة وطول اختبارهم ، او تناهى اليهم من علم من سبقهم او ممن اتيح لهم ان يتصلوا به من فرس وروم .

اخذ اولئك العرب بأوّليات في الطب البشري والبيطري ، واشتهر منهم الطبيب الحارث بن كلدة الثقفي الذي تخرّج في مدرسة جنديسابور الفارسية . وأحاطوا بشيء من احوال النجوم يستطلعون بها وجهات السير وما يهبّ من ريح او يكون من مطر او حرّ او برد . وألمّوا بمسائل من وصف الارض واصول القيافة او تتبّع الاثر . وعرفوا بعض اخبار صادقة في التاريخ والانساب .

ولكنهم جمعوا الى ذلك الايمان بالخرافات ، فاعتقدوا بالجنّ ، وصدّقوا الزّجرَ وهو الاستدلال باصوات الحيوان وحركاته على مستقبل الامور . وكان لهم انقياد للكهّان والعرّافين يؤمنون ان هؤلاء قد أوتوا علم الغيب . ومن اسماء كهانهم المشهورين شِقّ وسَطِيح .

حالتهم الدينية . — فأما حالتهم الدينية فانهم عرفوا الديانات الموحّدة ، فانتشرت النصرانية في كثير من قبائلهم وانتحل بعضهم اليهودية .

الا ان غالبيتهم كانت على الوثنية . فألّهوا الاصنام وذبحوا لها الذبائح ، واستقسمو عندها بالازلام[١] ، وعبدوا فيها مظاهر الطبيعة من حيوان وشجر ونجوم . فكان لهم إله اسمه يعوق جعلوا صنمه على هيئة الخيل ، وكذلك اتخذوا معبوداً لهم شجرة تدعى بذات أنواط ، كما اتخذوا الهاً للقمر اسمه ودّ .

ومن اشهر آلهتهم ُهبَل وقد ذكرناه . وكان يحمل بيده سبعة قداح هي سهام الحظ ، لكل يوم من ايام الاسبوع ِقدْحٌ منها ، وكان الناس يضربون عنده بتلك القداح ، اي يستقسمون بها . ثم اللات والعُزّى ومناة . وقيل : العزى هي كوكب الزُهَرَة ، وكانت معبوداً لقريش ، ومناة الهة المنيّة او المصير الانساني . والله ايضاً كان اسماً لصنم من اصنامهم .

ومن هذه الاصنام ما كان مشتركاً بين العرب كلهم ، ومنها ما كانت تفشو عبادته في قبيلة دون اخرى ، فتقيم على اسمه حمى ، او حرماً ، لا ُيقطع فيه شجر ولا ُيصاد حيوان ولا يراق دم انسان .

ولقد كان منتظراً من اولئك الوثنيين ان تكون لهم اساطير آلهة على نحو ما كان لليونان ، وان يتجلى أثر وثنيتهم في أدبهم . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . ويرى فريق من الباحثين ان الاسلام قد عفى على ما كان في ادبهم من اثر للوثنية . ويرى فريق ثان ان عبادة الاصنام كانت دخيلة على العرب ، أدخلها على الكعبة رجل اسمه عمرو بن ُلحَيّ ، فلم تفعل في نفوسهم فعلاً قوياً راسخاً . ويذهب فريق ثالث الى ابعد من هذا كله فيرى ان الايمان الديني جملة لم يبلغ مبلغاً عميقاً من ضمائر القوم واكثرهم على البداوة .

والواقع اننا لا نراهم في ادبهم يصدرون حقاً عن شعور ديني ، او عن تأمل في المصير الانساني ، الا في بعض قصائد تنسب اليهم في استسقاء المطر ، والا في فكرة سيطرت على اذهانهم وداروا حولها كثيراً : فكرة الدهر الذي ُيصيّر الناس والاشياء الى فناء محتوم . (راجع في موضوع استسقاء المطر قصيدة في المنتخبات آخرَ هذا الفصل) .

١ الازلام ، وتسمى القداح ، هي السهام التي يطلب بها معرفة الحظ . والاستقسام هو ان يضرب المرء بالازلام عند الصنم فيستدل من اوضاعها ، بعد الضرب بها ، على حظه هل يجري سعداً ام نحساً ، وهل يقدم المرء على عمل ينويه ام لا ؟ و ُروي ان امرأ القيس الشاعر لما قتل ابوه استقسم عند صنم في مكان يدعى تبالة ، فنهته القداح عن طلب الثأر ، فضرب بها وجه الصنم وقال له : لو ابوك قتل ما عقتني !

مظاهر نهضة . — والخلاصة ان الحالة التي وُجدَ عليها العرب في جاهليتهم الاخيرة لا تبدو في مجموع نواحيها حالة راقية .

ومع ذلك فلم يكن أمرهم يخلو — كما قلنا — من مظاهرَ تدلّ على انهم يتمخضون بنهضة ويتهيأون للخروج من طورٍ الى طور .

فقد عُرف منهم من قاوم وأد البنات ، قبل الاسلام ، كصعصعة جدّ الفرزدق الشاعر .

وعُرف منهم من سفه هذا التذابح بين القبائل على نحو ما فعل الشاعر **زهير بن ابي سلمى** في شجب حرب السباق .

وكذلك عُرف منهم من دعا الى ترك الاصنام وان لم يَصرْ الى اللحاق بديانة موحدة ، وهؤلاء هم فئة الحنفاء .

واخيراً ، عُرف منهم من تجرأ على الجنود الامبراطورية التي كان يصطدم بها العرب كلما خرجوا الى الماء والارض الخصبة على تخوم جزيرتهم ، فاستطاع بنو بكر في فواتح القرن السابع الميلادي ان يُنزلوا هزيمة بالجنود الكِسروية الفارسية في وقعة ذي قار في العراق .

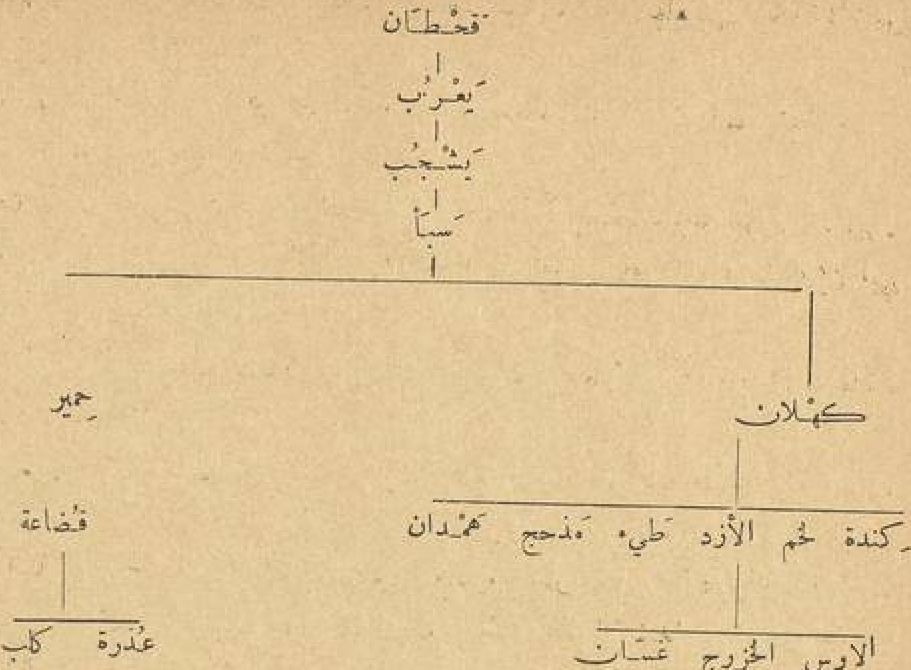
فهذا كله دل على استعدادٍ جديد في العرب . وشهد بذلك الاستعداد ايضاً ما كان لهم في هذا العصر من ابداعٍ شعري .

ملحق

(اقرأ ما يلي وعد الى خارطة شبه جزيرة العرب المضمومة الى هذا الكتاب) .

اشهر القبائل العربية . — نلحق بخاتمة هذا الفصل جداول باشهر القبائل من جنوبية وشمالية ، ونُعلّق على اسمائها بما يُعين على تذكرها ومعرفتها ، وان أدّى ذلك الى بعض التكرير .

وهذا جدولٌ أول باشهر القبائل الجنوبية :



كندةُ هي التي تُنسب اليها دولةُ كندة في نجد ، وقد سبق ذكرها . وبعد انهيار ملكها عاد اكثر القبيلة الى حضرموت في الجنوب .

ولخم هي التي قامت بدولة المناذرة اللخميين في الحيرة . نزحت من اليمن وحلت في شواطىء الفرات، في جملة من قبائل أطلقت على نفسها اسم تَنُوخ ، واشتركت مع النصارى الذين يقالُ لهم العباد ، في بناء الحيرة . ومن تنوخ هذه من هاجر ، فيما بعد ، الى لبنان.

والازد هم الذين تروي الاخبارُ انهم رحلوا الى الشمال مع مُزيقيا ، عمرو بن عامر ماء السماء ، لما أحس بانفجار سد مأرب . وقد أقبل منهم الاوسُ والخزرجُ على الحجاز ، فنزلوا يثرب ، وكانوا ، فيما بعد ، أنصار النبي محمد . وتابع الطريق جماعةٌ منهم شمالاً ، فحلوا بلقاء وحوران ، فكان هؤلاء هم الغساسنة ، وفريق منهم ذهب الى عمان فعرف بازد عمان .

وطيء هي التي ينسب اليها حاتم الطائي مضربُ المثل في الجود عند العرب . وكانت منازلها على الاغلب في نجد . ومن طيءٍ ايضاً بو تمام والبحتري الشاعران المشهوران .

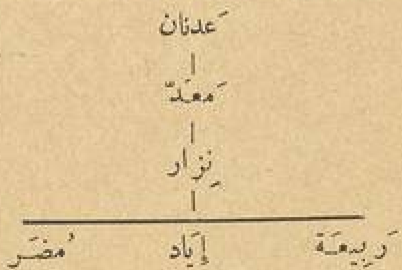
وكلا مذحج وهمدان من اكبر القبائل الجنوبية . ولمذحجٍ فروعٌ منها جُعفى التي نبغَ فيها ابو الطيب المتنبي ، ولكنه نُسب الى كندة لانه ولد في حيٍّ بمدينة الكوفة كانت تقيم فيه كندة . ومن همدان حسن بن أحمد الهمداني ، مؤلف « الاكليل » و « صفة جزيرة

العرب » وهما كتابان نستمد منهما كثيراً من علمنا باخبار عرب الجنوب وبجغرافية الجزيرة العربية .

وعذرة هي القبيلة المشهورة بمذهب **الحب العذري** أو الحب العفيف الثابت. ومنها كثيرٌ من شعراء الرقة والغزل أمثال **جميل بثينة** .

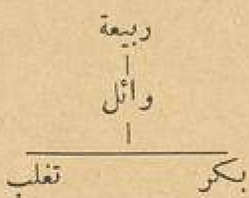
وكلب قبيلة شائعة الذكر ، دخلت مشارف سوريا قبل العهد الاسلامي ، ثم اصبحت في ايام الامويين ممثلة للحزب اليمني الذي أيد بني أمية على القيسيين ، أي على قبائل قيس عيلان المضرية التي يأتي ذكرها .

فاما القبائل الشمالية فهذا جدول يُبيِّنُها حتى ظهور ربيعة ومضر :



وإياد هي قبيلة قس بن ساعدة الايادي الذي تنسب اليه خطبةٌ مشهورة تلاها في سوق عكاظ في الجاهلية . واصل اياد في الحجاز، ثم خرجت الى العراق في اوائل القرن الرابع الميلادي ، واصطدمت بملك الفرس كسرى سابور الثاني ، وناضلته نضالاً شديداً ، فكان ينزع اكتاف رجالها حتى لُقب بذي الاكتاف .

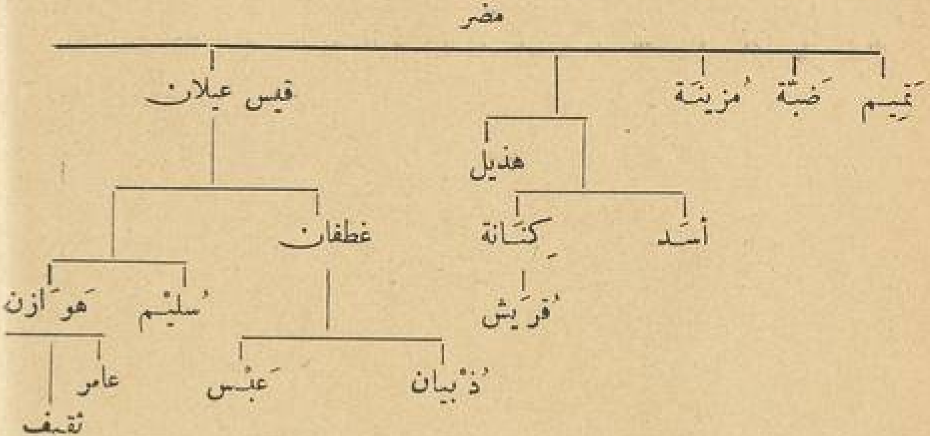
ثم هذا جدولٌ بقبائل ربيعة خاصة :



وبكر وتغلب هما القبيلتان اللتان نشبت بينهما حربُ البسوس في الجاهلية . وبكر خاصة هي التي هزمت جنود الفرس في وقعة ذي قار في العراق. وتغلب هي التي جمع رئيسها كليب حلفاً من عرب الشمال وهزم عرب الجنوب في وقعة خزازى . ولبكر وتغلب

ذكرٌ كثيرٌ في الادب العربي ، وفي التاريخ العربي جملة . ومن تغلب الامراء الحمدانيّون فيما بعد ، ومن هؤلاء سيف الدولة صاحبُ حلب والشاعر أبو فراس . وبعض التغلبيين جاز سوريا ودخل لبنان واستوطنه .

ثم هذا جدولٌ بقبائل مُضر خاصة :



وكانت تميمٌ في الجاهلية تنزل ارض نجد على الاغلب . ومنها الشاعران الفرزْدقُ وجرير في الاسلام . وقبيلةُ ضبّة منها العالم المشهور : المفضلُ الضبي صاحب مجموعةٍ نفيسةٍ اختارها من الشعر القديم وسماها **المفضليات** ، وهي مطبوعة .

ومُزينة هي قبيلة الشاعر الجاهلي زُهير بن ابي سلمى صاحب المعلقة .

وأسد هم الذين ثاروا بحُجر آخر ملوك كندة ، ووالد امرىء القيس الشاعر ، فقتلوه .

وأما قريشٌ فهي قبيلةُ النبي محمد . وكانت سيدة مكة في الجاهلية الاخيرة على ما ذكرنا . ولشغلها بالتجارة سبقت عَرب الشمال جميعاً في مبلغها في التحضر . ولغتها هي التي نزل بها القرآن ، وبنيت عليها لغتنا العربية . ومن قريش الخلفاء الراشدون الذين تولوا الحكم بعد النبي ، ومنها خلفاءُ بني أمية في الشام والاندلس ، ثم خلفاء بني العباس في بغداد .

وقيس عيلان هي القبيلة الامّ التي تُنسبُ اليها العصبيةُ القيسية المشهورة في التاريخ العربي وفي التاريخ اللبناني . وضدها العصبيةُ اليمنية .

وعبس وذبيانُ ، من قيس عيلان ، هما القبيلتان اللتان نشبت بينهما حَربُ السِباق او حربُ داحسَ والغبراء في الجاهلية . ومن عبس الفارسُ الشاعر **عنترة بن شداد** صاحب المعلقة . ومن ذبيان النابغةُ الذبياني .

وعامر هي قبيلة الشاعر الجاهلي لبيد ، وثقيفُ قبيلةُ شاعر جاهلي آخر يدعى أمية بن ابي الصّلت ، وقبيلةُ **الحجاج بن يوسف** احد الساسة والخطباء المقدمين في الدولة الاموية .

منتخبات

جزاء سنمار

بنى سِنِمّار الرومي قصر الخَوَرْنق للنعمان الاول ملك الحيرة ، فأتى البناء آية في الفخامة، وسُرّ به النعمان سروراً عظيماً .

واراد سنمار ان يزيد في اعجاب الملك بقدرته ودقة فنه ، فقال له : ها هنا في القصر آجُرّة لا يعلم مكانهـــا غيري ، اذا نزعت من موضعها تداعى القصر كله للسقوط . فما كان من النعمان الا ان أمر بسنمار ، فحُمل الى أعلى القصر ، فقُذف به ارضاً فمات . وكان ذلك جزاءه على ما أتقن من بناء الخورنق .

وأصبح سنمار ، من بعد ، رمزاً لضحايا العقوق ونكران الجميل ، وصار جزاء سنمار مثلاً يُضرب لمن يحسن في خدمة سلطان او انسان ، فيجزيه شراً .

وكان احد الشعراء لقي شراً من رجل احسن اليه، فتذكر قصة سنمار ، ونظمها بهذه الابيات :

جَزاني – جَزاهُ اللهُ شَرَّ جَزائِهِ – جَزاءَ سِنِمَّارٍ وَما كانَ ذا ذَنْبِ [1]
سِوَى رَصِّهِ البُنْيانَ سَبْعِينَ حِجَّةً يُعلَّى عَلَيْهِ بِالقَرامِيدِ والسَّكْبِ . [2]
فَلَمَّا رَأى البُنْيانَ تَمَّ سُحُوقُـهُ ، وآضَ كَمِثْلِ الطَّوْدِ ذي البَاذِخِ الصَّعْبِ [3]
وَظَنَّ سِنِمَّارٌ بِهِ كُلَّ حَبْوَةٍ ، وَفازَ لَدَيْهِ بِالمَـوَدَّةِ وَالقُرْبِ ، [4]
فقال: اُقْذِفُوا بِالعِلْجِ مِنْ رَأسِ شَاهِقٍ ، فَذاكَ لَعَمْرُ اللهِ مِنْ أَعْظَمِ الخَطْبِ ! [5]

١ جزاه الله شر جزائه ، اي : ادعو الله أن يعاقبه بمثل الشرّ الذي قابلني به . وهـذه الجملة في البيت اعتراضية . ٢ رصّ البنيان : قوّاه ، بناه متيناً . سبعين حجة : سبعين سنة . يعلى عليه : يوضع فوقه. السكب: يقصد بها المعادن من رصاص ونحاس ونحوه . ٣ السحوق : البعد ، والمقصود هنا : البعد في الفضاء ، اي : الارتفاع . آض : صار . الطود : الجبل . الباذخ: العالي ، والمعنى أن القصر صار كالجبل ذي الرأس العالي الصعب المرتقى . ٤ حبوة : حظوة وإكرام . ٥ العلج : كلمة تقال للاهانة والتحقير .

صفة المروءة في الجاهلية

دُريد بن الصمة من أشجع فرسان الجاهليـــة ، وأبعدهم صيتاً ، وأجودهم شعراً يمثّل اخلاق الجاهليين . عاش حياةً ملؤها الغزو ، وعمّر حتى أدرك الاسلام ، ولكنه قُتِل قبل ان يُسلم.

وكان لدُريد أخ يدعى عبد الله ، سقط صريعاً في احـدى الغزوات . وشهد دريد ذلك اليوم فدافع عن أخيه دفاع الشجعان حتى جُرِحَ جرحاً بلغاً . على انه استطاع النجاة من الموت ، فنظم قصيدة رائعة وصف بها القتال وكيف لقي أخوه حتفه .

وهذه نخبة من قصيدة دريد يذكر فيها أخلاق اخيه عبد الله ، وهي الاخلاق التي تُعتبر مَثَل الرجولة الاعلى في الجاهلية . قال :

فَإنْ يكُ عَبدُ اللهِ خلّى مَكانَهُ ، فَلَمْ يَكُ وَقّافاً ولا طَائِشَ اليَدِ ١
ولا بَرِماً ، إذا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ، بِرَطْبِ العِضَاهِ والهَشِيمِ المُعَضَّدِ ٢
كَمِيشُ الإزارِ ، خَارِجٌ نِصفُ سَاقِهِ ، بَعيدٌ مِنَ الآفاتِ ، طَلّاعُ أَنجُدِ ٣
قَليلُ التَّشَكّي للمصيباتِ ، حَافِظٌ مِنَ اليومِ أعْقابَ الأحاديثِ في غَدِ ٤
تَرَاهُ خَمِيصَ البَطْنِ والزَّادُ حَاضِرٌ عَتِيدٌ ، وَيَغْدُو في القَمِيصِ المُقَدَّدِ ٥
وإن مَسَّهُ الإقْوَاءُ وَالجَهْدُ زَادَهُ سَمَاحاً وإتْلافاً لِمَا كَانَ في اليَدِ ٦
صَبَا ما صَبا حَتَّى عَلا الشَّيْبُ رَأسَهُ ، فَلَمَّا عَلاهُ قالَ لِلْبَاطِلِ أبْعَدِ ! ٧

١ عبد الله : اسم المرثي . خلى مكانه ، أي : ترك مكانه من الدنيا ، مات . الوقاف : المتردد في الامور لجبن او ضعف . الطائش اليد : المسرع الى الضرب والفتك عن طيش وبطر . ٢ البرم : المتضجر ، بَرِمَ بالشيء : ضاق به ذرعاً . تناوحت الرياح : هبت متقابلة ، وهذا كناية عن الجدب . العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . ورطب العضاه : العضاه الاخضر . الهشيم المعضد : القش اليابس المقطع . يقول : ان عبد الله لم يكن يضيق ذرعاً ، اذا اشتدت الرياح وعظم البرد ، بشجر أخضر وبهشيم يستوقد به النار . واستيقاد النار كناية عن تهيئة الطعام للضيوف . ٣ كميش الازار : منشمر الثوب ، وفي تشمير الثوب كناية عن الاقدام والسعي . « بعيد من الآفات طلاع أنجد » ، اي : انه خـــال من العيوب يرتقي المراقي الصعبة . ٤ اعقاب الاحاديث : ذيول الاخبار . يقول : ان عبد الله يسلك في يومه سلوكاً يحميه من تقولات السوء في غده ، فلا يقول عنه الناس الا ما يشرفه . ٥ خميص البطن : ضامر البطن . والزاد : الطعام والاكل . وعتيد : بمعنى حـــاضر . ويغدو في القميص المقدد ، اي : يمشي في القميص المقطع لعدم اكتراثه بالمظاهر الغرارة . ٦ الاقواء : الفقر . والجهد : الضنك والمشقة . ٧ صبَا : بمعنى طلب اللهو والمتعة .

يقول دريد : لئن خلا موضع عبد الله من الدنيا ، فلم يكن عبدُ الله رجُلًا هيابةً جباناً ولا طائشاً أرعَن . كلا ، ولا كان يضيق ذرعاً بالشجر الاخضر العظيم ، وبالقشّ اليابس يوقد بهما ناراً لاستقبال الضيوف اذا هبّت الرياح مُتقابلة وأجدب الناس وقلّ الرزق .

لقد كان عبدُالله ابداً مُنشمر الثوب عن ساقِه ، بريئاً من العِلل والعيوب ، يجدّ مصعّداً في المراقي الصعبة لعظم همته ، الخ...

تمرين

تابع نثرَ الابيات الباقية من قصيدة دريد بن الصمة .

الهنا ، أغثنا بغيث منك !

من اقدم عادات العرب الاستسقاء. ذلك ان بهم ظمأ دائماً الى الماء. فالماء حلمهم الذهبي. وبالمطر حياةُ ماشيتهم ، وبالتالي حياتُهم .

وللاستسقاء عندهم مراسيمُ دينية وأشعارٌ يقولونها فيه . ونحن لا نكاد نرى البدويّ يرقّ في الضراعة لربه الا حين يُحبسُ عنه المطر . بل قيل ان البدوي لا ينظر مُتخشعاً الى السماء الا حين تعوزُه سحابة ماطرة .

وهذا الشعرُ الذي نرويه في الاستسقاء قديم . ولكن واضحٌ أنه ليس بشعر وثني . واما ناظمه فيُزعمُ انه رجلٌ اسمُه الخزازة العامري خرج مع قومه يستسقي ، فقال يناجي ربه :

رَبِّ ، نَدعوكَ فَٱسْتَجِبْ ، فَبِكَ الدَّ ... هرَ عَنِ الْخَلْقِ تُكْشَفُ الغَمَّاءُ[1]
إنَّ أَيُّوبَ ، حينَ نَاداكَ ، لَمْ يُحْ ... جَبْ لِأَيُّوبَ ، رَبِّ ، عَنكَ النِّداءُ
مَسَّهُ الضُّرُّ ، فَٱسْتَجَبْتَ لهُ الدَّ ... عوَةَ لَمَّا بِهِ أَضَرَّ البَلاءُ[2]
إنَّ هٰذَا الْجُمُودَ لَلسَّنَةُ الشَّهْ ... باءُ ، وَٱلْمُصْمَئِلَّةُ الدَّهْيَاءُ[3]
فَأَغِثْنا ، إلٰهَنا ، وَلَكَ الحَمْ ... دُ ، بِغَيْثٍ تَجُدُّهُ الأَنْوَاءُ[4]

١ ربِّ : منادى حذفت منه ياء المتكلم . الدهرَ : نصبت على الظرفية . تكشف الغماء : تزول الشدة .
٢ مسّه الضرّ : نزل به البلاء . ٣ الجمود : انقطاع المطر . السنة الشهباء : السنة التي يشهب فيها الزرع، أي : يتغير لونه لانقطاع المطر . والمصمئلة : الشديدة . الدهياء : التي تقع فيها المصائب . ٤ الانواء : نجوم يستدل بغروبها وطلوعها على الرياح والامطار ، ومن هنا سميت الرياح والامطار : أنواء .

يُنْعَشِ النَّاسُ في السَّوَارِحِ وَالوحـ ـشِ ؛ وَتَحْيَ الْجُدَيْدَةُ الغَبْرَاءُ [١]

فَلَكَمْ ثَمَّ ، كَمْ رَأَيْتُ غُيُوثاً لَكَ تَقْتَادُهَا الرِّيَاحُ الرُّخَاءُ [٢]

١ ينعش الناس ، اي : يدر لهم الرزق . وجزمت « ينعش » لانها جواب الطلب في « أغثنا ». الجديدة: تصغير « جَدد » ، والجدد ، من معانيها : الارض الصلبة الغليظة . والغبراء الارض ، والارض التي اغبرّ لونها لقلة المطر . والسوارح هي الماشية. يقول: اغثنا اللهم بمطر من لدنك فيدرّ لنا الرزق في مواشينا وفي الوحوش التي نصطادها وتحيا الارض الصلبة التي اغبرّت لفقرها الى الماء . ٢ تقتادها: تجلبها. الرياح الرخاء :الرياح التي تهب برفق .

تقسيم عصور الأدب العربي

عمر الادب العربي : اربعة عشر قرناً . — بين القرن السادس الميلادي (وهو القرن الذي تمت فيه نشأة الادب العربي وتم تكوين اللغة العربية) والقرن العشرين اليوم يبلغ عمر الادب العربي نحو اربعة عشر قرناً ، ظهر فيها هذا الادب في شمالي الجزيرة العربية ثم انتشر ، فيما بعد ، شرقاً وغرباً حتى تناول جميع هذه الاقطار التي نسميها اليوم بالاقطار العربية ، بل تخطاها شرقاً الى اصقاع آسيا الوسطى وغرباً — عبر افريقيا — الى الاندلس في اسبانيا والى صقلية في ايطاليا .

لماذا قسم تاريخ الادب عصوراً . — ومذ كان التطوّر والتغير سُنّة في الوجود ، فان تاريخ الادب لم يرسخ على حالة واحدة في مدى هذه القرون الطوال التي انقضت من عمره بل تقلّب على شتّى حالات من ضيق واتساع وانحطاط وازدهار .

لذلك نظر المؤرخون في تلك القرون التي اشتمل عليها تاريخ الادب العربي ، فاصطلحوا على تقسيمها عصوراً ، كلّ عصر منها يُمثّل حالة من حالات هذا الادب ومرحلة من مراحل سيره .

العصر الجاهلي (الجاهلية الاخيرة) ، (القرن السادس الميلادي) . — وطبيعيّ ان يكون اول عصور الادب العربي هو عصر نشأته في شمالي الجزيرة العربية ، في القرن السادس الميلادي . وهذا العصر — على ما قلنا — يُسمّى الجاهلية الاخيرة تمييزاً لها من الجاهلية الاولى التي لم تُنتج أدباً عربياً ولكنها أورثت اخباراً موفورة اصبحت موضوعاً لامثالٍ وأشعار وقصص كثيرة دخلت في مادة الادب العربي وصارت جزءاً منه لا يُفصل عنه .

والمقصود بالجاهلية الاخيرة مدة قبل الاسلام تُنيف على القرن قليلاً ، وقد أسلفنا وصف الحالة فيها .

وأما الادب الذي تركه لنا هذا العصر **فكثرته الساحقة من الشعر** ، وهو يوصف **بالجاهلي وبالقديم .**

هذا – وانما سُميت الجاهلية جاهلية في القرآن ، والسبب ما كان فاشياً فيها من الوثنية، وما كان سائداً من اختلال النظام والعصبية والنزق .

عصر النبوة والراشدين (٦١٠–٦٦١ م) (–٤٠ هـ).– ولكن حدثاً تاريخياً عظيماً وقع للحياة العربية فبدل مجراها تبديلاً كان له ابعد الاثر واعمقه ، ذلك هو **مبعث النبي محمد** في الحجاز ، في اوائل القرن السابع الميلادي (سنة ٦١٠ م) ونزول القرآن ، وانتشار الاسلام في الجزيرة كلها ، وقيام العرب بالفتوحات الكبرى في آسيا وافريقيا واسبانيا .

فكان ذلك خاتمة للعصر الجاهلي وفاتحة لعصر جديد في تاريخ الادب العربي دُعي عصر النبوة والخلفاء الراشدين[١] ، او عصر الصدر الاول من الاسلام. **واكثر الادب الذي اورثه هذا العصر بقي شعراً ، وقد سمي بالقديم الاسلامي الاول** . وغلبت على هذا العصر الروح الدينية ، وطالت مُدته نحواً من نصف قرن انتهى بسنة ٦٦١ م (٤٠هـ) حين تولى الخلافة معاويةُ بن ابي سفيان وقامت دولةُ بني أمية .

وربما سمي هذا العصر بعصر **المخضرمين** ايضاً ، لانه أقبل عَقِبَ الجاهلية فكان أبرز شعرائه جاهليين ادركوا الاسلام وعاشوا فيه . وهذا هو معنى المخضرم[٢] : جاهليٌّ أدرك الاسلام .

العصر الاموي (٦٦١–٧٥٠ م) (٤٠–١٣٢ هـ) .– وبقيام دولة بني امية سنة ٦٦١م (٤٠ هـ) ابتدأ العصر المسمى في تاريخ الادب العربي بالعصر الاموي ، او عصر الصدر الثاني من الاسلام .

امتدّ نحواً من تسعين سنة ، نُقلت فيه قاعدة الدولة الى **دمشق** في سوريا ، وازدادت الفتوحات اتساعاً ، وتهيأ للعرب تماسٌّ أقوى بغيرهم من الشعوب ، وتوافر لهم قسط من الحياة الحضرية في المدن لم يسبق لهم بمثله عهد .

وفي الوقت نفسه ، اشتد الصراع السياسي على الخلافة التي جعلها معاوية وراثية لسلالة الامويين ، ونشأت الاحزاب السياسية ومنها القائم على تأييد اسرة او شخص او قبيلة ،

[١] هم : ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب .

[٢] وكل من طالت حياته حتى وصلت بين عهدين تاريخيين يصحّ ان يقال له مخضرم ، ولكن على شرط تعيين العهدين اللذين وصلت بينهما حياته . فاذا عاش شاعر في دولة الامويين وادرك دولة العباسيين جاز لنا ان نسميه من مخضرمي الدولتين .

ومنها القائم على تأييد المبادىء والعقائد .

فأما الادب الذي أنتجه هذا العصر ، فيوصف بانه **آخر القديم الاسلامي** ، **واكثره بقي شعرا** .

الادب العربي ينقسم شطرين : شرقياً واندلسياً . – وكان من اعظم البلاد التي فُتحت في العصر الاموي قطر الاندلس في اسبانيا ، افتتحه القائد طارق بن زياد .

وانما خصصنا هذه الحادثة بالذكر لان قطر الاندلس نهضت فيه دولة أموية مستقلة بعد سقوط الامويين في الشام . وبذلك استقل عصر زاهر في تاريخ الادب العربي عُرف بالعصر الاندلسي .

وانشطر الادب العربي شطرين : **الادب في الشرق** (سوريا ، العراق ، فارس ، الخ ...) **والادب في الاندلس وصقلية والمغرب** (تونس ، مراكش ، الخ ...)

الاعصر الاندلسية (٧٥٦–١٤٩٢م) (١٣٨ – ٨٩٧ هـ) . – يبتدىء العصر الاندلسي بسنة ٧٥٦م (١٣٨ هـ) حين استطاع الامير الاموي عبد الرحمن الملقّب بالداخل ، وبصقر قريش ، ان يفر بعد انهيار دولة بني امية في الشرق ليؤسس في الاندلس دولة اموية جديدة جعل عاصمتها **قرطبة** – المدينة التي لبثت دهراً في القرون الوسطى وهي طليعة مراكز الحضارة والعلم في اوروبا .

وتراخت مدة العصر الاندلسي اكثر من سبعة قرون ونصف القرن . فهو في الواقع أعصرٌ لا عصر واحد . ولم تستمرّ السيادة على مدى ذلك الدهر الطويل للامويين ، فقد ضعفوا ، وألغِيت خلافتهم في النصف الاول من القرن الحادي عشر الميلادي .

فحلّ في مكانهم ملوك من اُسر شتى عرفوا **بملوك الطوائف** . ومن اشهر هؤلاء بنو عبّاد وعاصمتهم أشبيلية ، ومنهم الملك الشاعر **المعتمد بن عباد** .

وغشي الاندلس البربر من شمال افريقيا في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي . وللبربر يومئذ دولة يقال لها دولة المرابطين ، أو الملثّمين ، وأشهر امرائها يوسف بن تاشفين . وقامت بعد المرابطين دولة الموحّدين وهم قوم من البربر ايضاً .

ذلك كله ، واهل اسبانيا الاصليون يعملون على تقويض دول العرب والاسلام فيها ، الى ان كانت سنة ١٤٩٢م (٨٩٧ هـ) فسقطت مدينة غرناطة وفرّ صاحبها ابو عبد الله الصغير ، فذهبت كل سيادة عربية واسلامية من اسبانيا .

ويوصف الادب الاندلسي بانه **مولّد**. وهو تعبير نشرحه في ما يتبع من كلام على الاعصر العباسية.

الاعصر العباسية (٧٥٠–١٢٥٨ م) (١٣٢–٦٥٦ هـ). – انتهى العصر الاموي في الشرق – على ما أسلفنا – بسقوط الدولة الاموية في دمشق، وذلك في سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ). وكان سقوط الامويين بثورة عسكرية تجنّد لها الفُرس خاصة، وقادها رجل فارسي اسمه ابو مسلم الخراساني.

ومن وراء هذه الثورة كان العباسيون ابناء العباس، عم النبي، والطالبيون – او الشيعة – الذين رأوا ان الخلافة حق للامام علي بن ابي طالب دون غيره، ووقف على ذريته من فاطمة بنت النبي.

على ان العباسيين كانوا هم الذين انفردوا بالخلافة بعد سقوط الامويين، وقد أقصوا عنها المطالبيين وتحوّلوا بها الى العراق وجعلوا عاصمتها **بغداد**: المدينة التي اختطها ابو جعفر المنصور ثاني الخلفاء من بني العباس، فأصبحت من اعظم حواضر الدنيا في القرون الوسطى.

وهكذا ابتدأ في تاريخ الادب العربي عصر جديد اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر العباسي، واعتبروه العصر الذهبي للادب العربي.

وهو عصر زخر بالآداب واعتراك الافكار واحتكاك الاذواق. فيه ازدهرت المدن، ونمت الحضارة نمواً كبيراً، واتسعت آفاق الاطلاع على ما أورثته المدنيات السالفة من معارف وفلسفات، **وعظمت حركة التأليف**، واشتدّ اختلاط العرب بالشعوب الاخرى، **واتقن كثير من ابناء الشعوب الغريبة اللغة العربية** على اختلاف اجناسهم واديانهم، ونبغ منهم فيها الشعراء والكتاب وبرّز **تراجمة** نقلوا اليها المؤلفات الاجنبية.

فكان من ثمرةِ هذا كله ان ترقت اللغة العربيةُ وعظُمت ثروتها وحفلت خزائنها بادب عرف باسم **الادب المولد او المحدث** تمييزاً له من الادب القديم. وانما سمي كذلك **لانه تولد من انتقال بداوة الى حضارة ومن تمازج شعوب واذواق وافكار**، بحيث اختلف عن الادب القديم وظهرت عليه صفات جديدة.

وفي مطلع العصر العباسي أخذ النثر العربي في الازدهار.

وزيادةً على غزارةِ الانتاج الادبي في هذا العصر، تراخت مدته حتى استغرقت أكثر من خمسة قرون تبدلت فيها الاحوال بين عهد وآخر.

ولذلك عمد المؤرخون الى تقسيم ذلك العصر أربعةَ أعصر:

العصر العباسي الاول: عصر القوة والزهو. يبتدىء بقيام الدولة العباسيّة، ويمتد نحواً من قرن فينتهي بموت الخليفة المأمون بن الرشيد، سنة ٨٣٤م (٢١٨هـ). وكان النفوذ الغالب على الدولة فيه هو **النفوذ الفارسي**، لان الفرس – بحسب ما أسلفنا القول – تجندوا للعباسيين في ثورتهم على الامويين فعظمت مكانتهم في الدولة الجديدة.

العصر العباسي الثاني: يمتدّ كذلك نحواً من قرن. وفيه اخذت تبرز علائم الضعف والتصدّع في الدولة بعدما غلب عليها **نفوذ اتراك ما وراء النهر**، وهم قوم استقدمهم خليفة المأمون وشقيقه: المعتصم بن الرشيد، من وراء نهر جيحون [١]، واستخدمهم جنوداً مرتّقة ليدفع بهم نفوذ الجنود الفرس. لكنهم استبدوا بشؤون الدولة حتى دخل البُوَيهيّون بغدادَ سنة ٩٤٥م (٣٣٤هـ).

العصر العباسي الثالث: او العصر الذي سيطر فيه على الدولة **نفوذ بني بويه**. وكان هؤلاء امراء لقبائلَ تسمى الدَيلم تسكن في جنوبي بحر الخزر (بحر قزوين اليوم)، فأسّسوا دولة لهم في بلاد فارس عاصمتها شيراز، ثم احتلوا بغداد – على ما ذكرنا – فبسطوا يدهم على الخليفة فيها وأحلّوا سيادتهم في موضع سيادة الاتراك.

وفي هذا العصر – الذي امتد كذلك نحواً من قرن – اشتدّ انحلال الدولة العباسيّة فأمست وليس لها من السلطة الا الاسم، فكثُرت الدولُ التي انسلخت عنها واستقلت في الاقاليم الى شرقِ العراق وغربه حتى دُعي هذا العصر عصرَ الدولِ المستقلة.

فمن هذه الدول التي قامت شرقي العراق:

الدولة البويهية وقد أسلفنا ذكرها،

والدولة السامانية وفي ظلها ازدهرت مدينتا بخارى وسمرقند، وأصبحتا قاعدتين للعلوم والآداب، وفي عهدها (القرن الحادي عشر الميلادي) أصبحت اللغة الفارسية الحديثة لغة أدبية يكتبُ بها أبناؤها كما كانوا يكتبون بالعربية.

والدولة الغزنوية وكانت قاعدتها مدينة غزنةَ في البلاد التي تسمى اليوم افغانستان، وطالت مدتها من اواسط القرن العاشر الميلادي الى اواخر القرن الثاني عشر. وأعظم ملوكها هو محمود بن سبكتكين الغزنوي الذي افتتح اقاليمَ واسعة في غربي الهند، والذي

١ نهر عظيم في اواسط آسيا. يسمى اليوم بـ «الاموداريا». وهو ينصب في بحر آرال المعروف قديماً ببحر خوارزم.

أظهر الفردوسي في عهده كتاب الشاهنامة اي : سِيَر الملوك ، وهي ملحمة في ستين الف بيت من الشعر بالفارسية.

فأما الدول التي قامت غربي العراق فمنها :

الدولة الحمدانية التي أسسها في الموصل بنو حمدان وهم عرب من قبيلة تغلب . اتسعت رقعتها حتى ضمت شمالي سوريا واتخذت حلب عاصمة لها، وبطلها هو الامير سيف الدولة ممدوح **المتنبي** ، ومن اعلام رجالها الشاعر الفارس **ابو فراس الحمداني** .

والدولة الاخشيدية في مصر ومن كبار حكامها كافور الاخشيدي الذي خلده المتنبي بأهاجيه .

والدولة الفاطمية في مصر ايضاً ، وهي اعظم الدول المستقلة التي سطع نجمها في هذا العصر . سُميت بالفاطمية نسبة الى فاطمة بنت النبي محمد وزوج الامام علي بن ابي طالب . فهي دولة شيعية ، كان مبدأ أمرها في الشمال الافريقي ثم اتسعت الى أن انتزعت مصر من الاخشيديين ، وانشأت مدينة **القاهرة** عاصمة لها . وطالت مدة الفاطميين حتى سنة ١١٧١م (٥٦٢هـ) . والى عهدهم يعود إنشاء **الجامع الازهر** الشهير بالعلوم الاسلامية .

العصر العباسي الرابع: او آخر الاعصر العباسية ، تمتد مدته على القرنين وسيطر فيه على الدولة نفوذ **السلجوقيين** ، وهم جنس من الاتراك أزالوا دولة بني بويه واحتلوا بغداد سنة ١٠٥٥م (٤٤٥هـ) ، ولبثوا يصرفون شؤون الحكم على نحو ما يشاؤون حتى كانت سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) ، فأطبق على بغداد جيش من المغول التتار زاحف من اعماق آسيا بقيادة هولاكو ، فدمر العاصمة العباسية وقتل المستعصم آخر الخلفاء ومحق الخلافة العباسية .

وفي اثناء هذا العصر ، بدأ على الشرق هجوم آخر غير الزحف المغولي ، نعني الهجوم الاوروبي المعروف بالحملات الصليبية .

اعصر الانحطاط (١٢٥٨–١٧٩٨م) (٦٥٦–١٢١٣هـ).– وبسقوط بغداد وسيطرة المغول والحروب التي استتبعتها الحملات الصليبية ، خيّم على افق اللغة والادب العربي ليل تكاثف حتى أظلم جداً . ودخل تاريخ اللغة وادبها في عصر ، بل اعصر طوال من الانحطاط ، امتدت اكثر من خمسة قرون بين اواسط القرن الثالث عشر الميلادي واوائل القرن التاسع عشر .

ومن الدول التي حكمت في اثناء اعصر الانحطاط :

دولة الايوبيين في مصر وسوريا ، قامت على انقاض الدولة الفاطمية ، وبطلها هو القائد المشهور صلاح الدين الايوبي ،

دولة المماليك في مصر وسوريا ايضاً ، قامت على انقاض الدولة الايوبية ،

ودولة الاتراك العثمانيين الذين احتلوا القسطنطينية في القرن الخامس عشر بعد الميلاد ، واتخذوها عاصمتهم ، وسموها الاستانة ، ثم انتزعوا سوريا من المماليك سنة ١٥١٦م (٩٢٣هـ) وظلوا يحكمون اكثر البلاد العربية حتى خاتمة الحرب العالمية الاولى (١٩١٨ م) .

الانبعاث والعصر الحديث (القرن التاسع عشر وما بعده) . — ولكن في اثناء العصر العثماني ، طفقت تبدو مظاهر انتعاش ادبي تمثلت أول الامر في **لبنان** . ثم حصلت في سنة ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) حادثة اعتبرها المؤرخون تمهيداً للعصر الحديث في تاريخ الادب العربي ، تلك هي حملة بونابرت على مصر . عدّها المؤرخون فاتحة عصر الانبعاث والنهضة ، لما عقب هذه الحادثة من ظهور **محمد علي الكبير** واستقلاله بمصر وتشجيعه اللغة العربية ، ولما تجلى بعد ذلك في اكثر الاقطار العربية من مظاهر النشاط الادبي والتقدم السياسي والاجتماعي نتيجة يقظة الشعور القومي والحركات الاستقلالية ، والانحلال في الامبراطورية العثمانية ، والاتصال باوروبا .

وبهذا يكمل التقسيم الذي اصطلح عليه المؤرخون لعصور الادب العربي .
وهو تقسيم يحسن ان نجمله بهذا الجدول ليبقى ماثلاً في الذهن .

جدول مختصر بعصور الادب العربي

العصر الجاهلي (الجاهلية الاخيرة)	مدتُه القرن السادس الميلادي ، حتى ظهورِ الاسلام في القرن السابع. مركزُ الادب فيه شمالُ الجزيرة العربية . ويوصف الادب فيه بالقديم الجاهِلي .
عصر النبوة والراشدين	مدتُه نحوٌ من خمسينَ سنة في اواسط القرن السابع الميلادي (الاول الهجري). مركزُ الادب فيه شمال الجزيرة العربية . ونهايتُه بِتولي معاويةَ بن ابي سُفيان الخلافة في دمشق سنة ٦٦١م (٤٠هـ) . ويوصف الادب فيه بالمخضرم، وبالقديم الاسلامي الاول .
العصر الاموي	مدتُه حوالى تسعين عــاماً من ٦٦١ الى ٧٥٠ م (٤٠ – ١٣٢ هـ) . المركز الرئيسي للادب فيه دمشقُ . ونهايتُه بخلعِ الامويين وانتقال الخلافةِ الى بني العباس . يوصف الادب فيه بانه خاتِمة القديم الاسلامي الاول .

•

ولدى انقضاء العصر الاموي ، انشطر الادب العربي شطرَين : الادبَ في الشرق ويوصف بالمُوَلَّدِ العباسي ، والادب في المغرب والاندلس وصقلّية ويوصف بالمُوَلَّد الاندلسي .

•

الاعصر الاندلسية	مدّتُها سبعةُ قرونٍ ونصفُ القرن من ٧٥٦ الى ١٤٩٢م (١٣٨–٨٩٧هـ) . ابتداؤها بقيام الخلافةِ الاموية في الاندَلس ، وعــاصمتُها قرطبة ، وانتهاؤهــا بسقوط غُرناطة آخر قاعدةٍ لملوك الطوائِف . والمركزُ الرئيسي للادب، في هــذه الاعصر ، قطرُ الاندلس في اسبانيا .

مدتها اكثر من خمسة قرون ، من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٨م (١٣٢–٦٥٦هـ) . والمركزُ الرئيسي للادب فيها بَغدَادُ في العراق . وتقسيمها أربعةُ أعصر :

الاعصر العباسية

الاول : يغلِب فيه النفوذُ الفارسي ، وينتهي بخلافةِ المأمون .

الثاني : يغلِب فيه نفوذُ اتراك ما وَرَاء النهر ، وينتهي باحتلال البُويهيّين بغداد .

الثالث : يغلب فيه النفوذ البويهي ، ويكثر نهوضُ الدولِ المستقلةِ في الاقاليم ، ومنها الدولةُ البويهية في فارسَ والعراق ، والسامانية في بخارى وسمرقند ، والغزنوية في غَزنة (افغانستان) ، والحمدانية في حلب ، والاخشيدية في مصر ، والفاطمية في المغرب ومصر . وينتهي هذا العصر باحتلال السَّلجُوقينَ بغداد .

الرابع : يغلب فيه النفوذُ السلجوقيّ ، وينتهي بسقوط بغداد أمام الزحف المغولي التتاري سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) .

اعصر الانحطاط

مدتها اكثرُ من خمسةِ قرونٍ مع ما فيها غزوات المغول والحملاتُ الصليبية وحكمُ الايوبيين ، ثم المماليك ، ثم الاتراك العثمانيين . انتهت هذه الاعصرُ بالقرن التاسع عشر الميلادي . ولم يكن للادبِ فيها مركزٌ رئيسي .

الانبعاث والعصر الحديث

ابتداؤه في مركزين : لبنانَ ومِصرَ . ومدته من اوائل القرن التاسع عشر الى أيامنا .

تعريف باللغة والأدب

مادة الادب العربي وسبب تسميته . — ينتج لنا مما مر في الفصل السابق ان الشعب العربي الذي أنشأ الادبَ العربي، في القرن السادس الميلادي ، في شمالي الجزيرة العربية ، قد اختلطَ اختلاطاً شديداً — ولاسيما أثناء الاعصر العباسية وبعدها — بشعوب أخرى نبغ منها رجالٌ متفرقو الاجناسِ ، متعددو الاديان ، أتقنوا العربية و كتبوا بها ادباً لحق بالتراث الادبي العربي .

فالادب العربي ، اذاً ، انما سميَ عربياً لهذا السبب الرئيسي : ان لغته هي العربية . وأما مادة هذا الادب فانها مجملُ ما أنشئَ باللغة العربية من آثار تُعتبرُ أدباً في مدى العصور الطوال التي اشتمل عليها تاريخه ، وفي منفسحِ هذه الاقطار التي تتكلم بالعربية .

ولكن هنا تعرض أسئلة : ما اللغة العربيةُ وما خصائِصُها ؟ بل ما اللغاتُ بوجهٍ عام؟ ثم ما الادب ؟ ومن الاديب ؟

اللغات . — اللغات اصوات منظمة رتبها البشر للتفاهم . ولا لغةَ الا بالنطق الذي هو خاصة انسانية . والنطق هو القدرة على اخراج أصغر المقاطع الصوتية التي تُدعى حروف الهجاء ، والتي منها تتألف مفردات اللفظ، فيتألف من هذه المفردات القولُ او الكلام .

وفاعل النطق اللسان . ومن هنا سميت اللغة لِساناً أيضاً .

وللبشر لغات كثيرة نشأت في تاريخهم الطويل ، وتعدّدت بتعدد اجناسهم وقومياتهم ، وتطوّرت بتطور مدنياتهم ونمو عقولهم واتساع حاجاتهم ، كما ان من هذه اللغات ما انحط او مات بانحطاط هذه المدنيات او موتها ، وبضعف هذه الاجناس والقوميات او ذوبانها وانقراضها .

ويقسم الباحثون ارقى اللغات الى اسرتين عظيمتين :

اسرة اللغات السامية ، وهي التي تتكلم بها الشعوب المنسوبة الى سام بن نوح .

واسرة اللغات الآرية ، وهي التي تتكلم بها الشعوب المعروفة بالهندية الاوروبية كاللاتين والجرمان الخ ...

اللغة العربية . — فاللغة العربية من اسرة اللغات السامية ، لان العرب شعب سامي .

ولها شقيقات هي الفينيقية والآرامية والسريانية والعبرانية الخ ...

ولقد ذكرنا ان هذه اللغة العربية التي انشِئَ بها الادب العربي القديم، وما زال يُنشأ بها الادب العربي الحديث، انما ظهرت في القسم الشمالي من شبه الجزيرة، وبلغت في نموها حداً يقارب الكمال في القرن السادس الميلادي.

فهي تُسمّى **اللغة العربية الشمالية** تمييزاً لها من اللغة العربية الجنوبية التي كانت تختلف عن اللغة الشمالية.

ولقد انقرضت اللغات العربية الجنوبية كلها، وآخرها لغة حِمْيَر. تكامل انقراضها في العصر الجاهلي بعدما رحل الكثير من عرب الجنوب الى الشمال على نحو ما قدّمنا. فلما نزل القرآن وظهر الاسلام في مفتتح القرن السابع الميلادي، كانت العربية الشمالية قد اصبحت هي لغة العرب قاطبة.

وتسمى العربية الشمالية **اللغة العدنانية** ايضاً نسبة الى عدنان، وهو الجد الذي ينتمي اليه عرب الشمال.

ولم تكن اللغة العربية موحدّة في اول الامر، بل مفرّقة في لهجات على ألسنة القبائل، كلُّ قبيلة لها لهجتها التي تمتاز بها من غيرها باسلوب في النطق، وأحياناً ببعض ألفاظ تتفرد بها. فتوحدت هذه اللهجات كلها بظهور الاسلام ونزول القرآن، وغلبت على اللغة العدنانية **لغة قبيلة قريش** خاصة: اللغة التي بها نزل القرآن والتي اصبحت هي المقصودة بقولنا اللغة العربية (الفصحى).

خصائصها. — وللعربية خصائص، منها وفرة حروفها الهجائية. وبين هذه الحروف ما تستقلّ به وهو حرف الضاد حتى سُمّيت لغة الضاد. والاملاء بها سهل لان الكلمات تُهَجّى كما تلفظ. الا ان القراءة بها صعبة وان كانت الكلمات تلفظ كما تُهَجّى، لان الحركات لا تُرسم فيها بالحروف، بل بعلامات فوق الحروف او تحتها على نحو سائر اللغات السامية. وكثيراً ما تُهمَل هذه الحركات وتترك لتحصيل القارىء، فيرتكب الاغلاط إلا ان يكون عالماً متمكّناً.

ومن خصائص العربية — على وفرة حروفها — قلة الاحرف التي تُبنى بها كلماتها الاصلية، او جذورها. والقاعدة في هذه الاحرف ان تكون ثلاثة. مثال ذلك: الشين والعين والراء. تُرتّب على صورة فاذا هي شَعَرَ، وعلى صورة ثانية فاذا هي شَرعَ[1]، وعلى ثالثة فاذا هي

١ شرع: سنّ شريعة.

وَعَشَ[١]، وعلى رابعة فاذا هي عَرَشَ[٢] . والصور الاربع ألفاظٌ مستعملة في اللغة .

ومن خصائص العربية انها **لغة أعراب** . والمراد بالاعراب معرفة ما يعرض للكلمات من رفع ونصب وجرٍ وجزم ، بحسب العوامل الداخلة عليها في الجملة ، ومعرفة ما يوافق ذلك من عوامل تُلحق بالكلمة من مثل تغيير حرف فيها ، او تسكين آخرها ، او تحريكه بضمة او فتحة او كسرة . ولهذا الباب علمٌ مستقل يدعى النحو ، كان اول من انصرف اليه رجل بصري اسمه **ابو الاسود الدؤلي** ، عاش في عصر النبوة والراشدين ، وأدرك عصر بني أمية .

ومن خصائص العربية انها **لغة اشتقاق وتصريف** على قياسات مقررة في علم يقال له الصرف . فمن مادة اللفظ الواحد تُصنع ألفاظ كثيرة ، لكل لفظة منها معنى مُتصل بالمعنى الاصلي إلا انه خاص . مثال ذلك مادة : كَتَبَ ، يُصنع منها كَاتَبَ ، واسْتَكْتَبَ ، وكتابٌ ، ومَكْتُوبٌ ، ومَكْتَبٌ ، ومَكْتَبَةٌ ، وكاتِبٌ ، وكُتُبِيٌّ ، ومُكاتَبَةٌ الخ ... وكل لفظة قد صيغت بحساب قياس صرفي ، وكل لفظة لها معناها الخاص وان كان يتصل بالمعنى الاصلي .

ومن خصائص العربية ان مادة اللفظ الواحد منها تُنقل من معنى الى آخر مختلف كل الاختلاف بحيث تكتسب الالفاظ المشتقة من تلك المادة نفسها معاني شتى لا قرابة بينها الا ما يمكننا تحصيله بالتأويل . ويسمى هذا : **المجاز** . مثال ذلك فعل : شَجَرَ . منه يقال : أشجرَتِ الارض ، معناه : أنبتت الشجر . ومنه يقال : تشاجر القوم ، معناه : تنازعوا . وهكذا نرى أي انتقال بعيد وقع في المعنى بين لفظ ولفظ من مادة واحدة . وتأويل هذا الانتقال ان القوم اذا تشاجروا ، أي : تنازعوا ، فانهم يشتبكون اشتباك الاشجار وأغصانها وفروعها .

وفي أحيان لا تحتاج اللفظة الواحدة الى أدنى تصريف كيما تُنقل من معنى الى معنى آخر . مثال ذلك لفظة : العين ، فهي عضو البصر المعروف في الرأس . ولكنها تعني الجاسوس ايضاً . والوجه في انتقالها من المعنى الاول الى الآخر ان العين أهمّ جزء في الجاسوس لانه مكلف ان يرقب مواقع العدو وحركاته ، فسمي شخصه كله باسم أهمّ جزء فيه .

ومن خصائص العربية غناها بالالفاظ وغنى ألفاظها بالمعاني . فرب شيء يُعبّر عنه بجملة من ألفاظ ، كالاسد يقال له : الغضنفر والرئبال والليث والضرغام . وتسمى هذه : **مترادفات** . ورب معنى واحد تختلف جهاته فتُفرد لكل جهة منه لفظة خاصة كالحسن اذا كان في البشرة ،

١ وعش : اهتز واخذته الرعدة . ٢ عرش : لها معان بحسب ما يليها . عرش البيت : بناه . وعرش الكرم : رفع دواليه على الخشب . وعرش المكان : اقام فيه .

فهو الوضاءة ، واذا كان في الوجه فهو الصباحة . وربّ لفظة تقوم باكثر من معنيين كالرقيق تعني : نقيض الغليظ ، وتعني : العبد المملوك . والكتاب الذي يشتمل على مجموع ألفاظ اللغة مبوّبة مشروحة يسمى : **المعجم** او القاموس . وللعربية معاجم كثيرة قديمةٌ وحديثة، من اشهرها **الصحاح** لعالم يدعى **الجوهري** ، عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

ومن خصائص العربية مرونة الانشاء بها . فليست جملها محصورة بقوالب ضيقة او جامدة ، بل يمكن افراغ الجملة الواحدة في قوالب عدة ، نتيجة التقديم والتأخير ونزولاً عند مطلب المعنى . نقول مثلاً : « من الشرارة الصغيرة تندلع النار العظيمة » . ويمكننا ان نقول : « النار العظيمة تندلع من الشرارة الصغيرة » ، او « تندلع من الشرارة الصغيرة النار العظيمة » ، او « النار العظيمة من الشرارة الصغيرة تندلع » . والعلوم التي بها يتعلق هذا الباب وغيره من ابواب التفنن في الانشاء تسمى **علوم البيان** .

ازدهار اللغة العربية وطول ثباتها . — هذا ، وتعد العربية اقرب اللغات الى امها السامية الاولى ، لان نشوءها في ارض منقطعة ، او كالمنقطعة ، وفي شعب لم يشتد اختلاطه قديماً بغيره من الشعوب ، قد حفظها على الاصل او قريب من الاصل . ومع ذلك فالعربية أرقى اللغات السامية لحداثة سنها بالقياس الى شقيقاتها .

ولقد مات اكثر اللغات السامية ،وتضاءل شأن باقيها، الا اللغة العربية ، فانها ازدهرت في القرون الوسطى ازدهاراً عظيماً فأصبحت لغة عالمية ، بل اللغة العالمية للمعرفة والثقافة ، وأثرت تأثيراً كبيراً في عدد من اللغات[١] .

ثم استطاعت بهذا الماضي الغني الخصب ، وبفضل ارتباطها بالقرآن ، ان تخترق عصور الانحطاط وتنهض في العصر الحديث وتبقى على صيغتها الفصحى لغة الكتابة والخطابة في البلاد العربية وان تكن انبثقت منها عاميّةٌ اخرجتها من دائرة التخاطب اليومي .

على ان هذه العاميّة ما زالت بعيدة عن ان تكون لغة بالمعنى الوافي . فلم توضع لها قواعدها الاساسية من صرف ونحو ، ولا صُنّف معجمها ، ولا انشيء بها مقدار من الآثار الادبية القيّمة ، ولا تأتى لها ان تعبر الا عن شؤون التخاطب اليومي ، عدا انها تختلف بين وطن عربي وآخر ، فهي عاميات متعددة ، والفصحى واحدة تشمل الاقطار العربية كلها .

١ كالتركية والفارسية والاسبانية ، فان اللغة العربية زودتها كثيراً من الالفاظ .

ما الادب؟ ومن الاديب؟ — من غرائب المأثورات[١] الادبية ، في الكتب العربية القديمة ، ما يأتي : « ان آدمَ ، لما غرس الكرمة ، جاء ابليسُ فذبح عليها طاووساً فشربت دمه . فلما طلعت اوراقها ، ذبح عليها قرداً فشربت دمه . فلما طلعت ثمرتُها ذبح عليها اسداً فشربت دمه . فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه . »

وقد يبدو هذا الكلام ، لأولِ وهلة ، ضرباً من ضروب الهذيان . غير اننا اذا تأملناه وجدناه بعيداً عن ان يكون هذياناً او تحريفاً . فالكرمة هي أم الخمرة . والخمرة اذا شربها المرء ، فبالغ في شربها ، دَرّجَتهُ من حال الى حال في الشر . فيشعر في اول السكر بغرور يخالِط نفسه فيزهو ويتباهى . ولما كان الطاووس مثالاً للغرور وللزهو ، فان الذي صنع هذا الكلام دفع بابليس ان يسقي الكرمةَ أولَ غرسِها بدم طاووس .

ثم ينقلب السكران من حالة الزهو والغرور الى العبث والخفة شأن القرد ، ثم الى العربدة والفتك شأن الاسد ، ثم الى التبذل والتمرّغ شأن الخنزير . ومن هنا رأينا الذي صنع هذا الكلام قد دفع بابليس ان يسقي الكرمة ، على مراحل نموها ونضج ثمرها ، بدم قرد ، ثم أسد ، ثم خنزير .

والمعنى في هذا كله ، والقصدُ من ورائه ، نهيٌ عن ادمان الخمرة وتحذيرٌ من وخامة عواقب السكر .

فهذا الكلام ، اذاً ، ينطوي على معنى مفهوم وقصد معلوم . والكلام ، اذا انطوى على المعنى المفهوم ، فهو عبارةٌ وتعبير ، او بيانٌ وابانة وتبْيين ، او اعرابٌ او افصاح[٢] او اداء[٣] .

ولكن كيف عبر هذا الكلام عن المعنى المراد ؟ **بالفاظ مخصوصة** انتقاها لهذا الغرض من معجم اللغة ، ثم رتبها ترتيباً مخصوصاً بحسب قواعد اللغة ، ثم سلك بها **طريقة مخصوصة فتفنن** في اداء المعنى ليجعله **اوقع في النفس** ، فتخيّل حكاية بطلُها ابليس يسقي الكرمة سقياً يدس في عصير ثمرتها الرذائل . وصوّر هذه الرذائل من غرور وخفة ، وفتك وتبذل ، بما يرمز اليها من بهائمَ ينحرها ابليس على ساق الكرمة لتشرب دماءها .

وهكذا رأينا هذا الكلام يُعبّر اولاً عن معنى مفهوم .

ورأينا قِوَام هذا التعبير ألفاظاً مُنتقاةً قد رُتّبت ترتيباً صحيحاً .

١ الكلام المأثور هو الذي يحفظ لقيمته . ٢ أعرب عن شيء : أظهره . ومثلها : أفصح .

٣ الاداء مصدر ادّى . وادى الشيء : وصله وابلغه .

ورأينا خيالاً وتصويراً (تفنناً) في طريقة الوصول الى المعنى .

واما المعنى نفسه فانه شيء مما يقع للانسان بالاختبار .

من هذا يظهر لنا ان **الادب** كلام أجيد انتقاء لفظه من معجم اللغة ، ورتب ترتيباً صحيحاً بحسب قواعد اللغة ليعبر عن المعاني ، التي يحصلها العقل ويدركها الشعور، تعبيراً فيه تفننٌ وله تأثير ووقع في النفس ... وكلما كانت المعاني اصدقَ واعمقَ كانت افضل ، وكان الادب أنفس وأبدع .

واما **الاديب** فهو القادر على ان يصنع كلاماً تجتمع فيه الصفات التي قدمناها ، ومقدرته على صنع مثل هذا الكلام تتهيأ له :

من استعداد في فطرته .

ومن اتقان اللغة وطول ممارسة الانشاء .

ومن الخبرة بالحياة والتحسس من الطبيعة .

ومن الثقافة العامة التي يحتفظ بها جيد الكلام ، ويتبسط ما استطاع ، ويتعمق ما اقتدر في آفاق المعارف البشرية من فلسفة وتاريخ ، ومن فنونٍ ، ومن علوم اجتماعية وطبيعية ، لان الاديب ينبغي له ان يتعلق بكل علم .

ما الحاجة الى الادب ؟ وما فائدته ؟ — وهكذا يتضح ان الادب ليس بالعمل اليسير، وان مُهمةَ الاديب ليست بالهينة . بل انما ينطوي العمل الادبي على كدٍ وجهد ، وتستلزم مهمة الاديب مواظبةً وعناء .

فيجب ،اذاً ، ان تكون بالناس حاجةٌ الى الادب ، وأن تكون للادب فائدةٌ وغاية كيما يعبأوا به ويتكلفوا له هذا التكلف .

فما الحاجة الى الادب ؟ وما فائدته وغايته ؟

ان الانسان اذا باشرَ الوجودَ وشاركَ في الحياة الاجتماعية وتأملَ الطبيعة من حوله فانما تعرض له شؤون وموضوعات كثيرة تَهُمُ عقله وتهز ضميره وتثير خياله ، فيطلب التعبير قولاً وكتابة عما احتشد عليه من المعاني .

ولكن بديهي ان العقولَ تتفاوتُ في حظها من الفطنة والتحصيل ، وان الضمائر تختلف في نصيبها من دقة الشعور وحدته ، وان قوة الخيال ليست بمقدار واحد لدى البشر جميعهم . وهذا ايضاً هو شأن المقدرة على التعبير، فانها تتفاوت تفاوتاً عظيماً بين الناس بمقدار التفاوت في حظوظهم من سخاء القريحة وجَودة الذوق ، ومن العلم باللغة وبسائر العلوم .

ومن هنا أصلُ الحاجة الى الادب ، **يلبي به الاديب حاجة نفسه** اذ يعبّر عما يقوم في صدره من المعاني في شأن او موضوع من موضوعات الطبيعة والحياة .

ثم **يلبي به الاديب حاجة غيره** ممن يُحسِنون او لا يحسنون التعبير مثله، ويستطيعون او لا يستطيعون ان يبلغوا عمق افكاره وقوة شعوره وبُعْد خياله .

وبكلام آخر، الحاجةُ الى الادب جزءٌ من حاجة البشر الى النطق بأفكارهم وعواطفهم وسوانح خيالهم ، وجزء من حاجتهم الى اشتراك بعضهم في اختبارات بعض ذلك الاشتراك المؤدي للمعرفة ، وجزء كذلك من حاجتهم الى الجمال .

واما فائدة الادب فأدناها **تقويم اللسان وتجويد الانشاء** ، واعلاها صقل الذوق واذكاء الحس والسمو بالخلق وتنشيط الخيال وتنوير العقل .

للادب غاية تهذيبية ــ فللادب، اذاً، غاية تهذيبية تكميلية للانسان. وبهذا المعنى وردت كلمة ادب في قديم اللغة العربية . فكان الادب هو التهــذيب والتعليم ، وكان المؤدبُ هو المهذِب والمعلم . ونحن ما زلنا حتى اليوم نقول : فلان لا ادب له ، نقصد انه فاقدُ الصفات التي تجعل منه انساناً سويّ المسلك .

ولقد حاول جماعة من الادباء ان يفصلوا بين الادب ومغزاه التهذيبي ، فزعموا ان الادب انما غايته محض المتعة بحلاوة الكلام ، ومحض اللذة برونق صُوَرٍ وتخيلات .

ولكن دراسة الاثار الادبية تُثبِت ان كل ادب جيّد، ورفيع قيم ، لا يقتصر على المتعة واللذة بحلاوةٍ في الكلام او برونق في الصوَر والتخيلات،بل يشتمل كذلك على غاية تهذيبية بما يصقل الذوق ويعلو بالخلق ، ويُرهِف الشعور ، ويروّض الخيال ، وينوّر العقل في سبيل تربية انسان افضلَ ومجتمع ارقى .

وشاهِدُنا تلك الحكايةُ عن ابليس وسقيِه الكرمةَ بدماء طائفة من البهائم .ففي الحكاية كلام جيد ، وفيها صور غريبة . الا انها لو خلت من الغاية التهذيبية لما زادت ان تكون محض اوهام مُلفّقة للتسلية، ولكان اقصى قيمتها ان تسلي صغار العقول .

•

وهنا فلنختر لنا مثالاً ادبياً ندرسه،لنرى كيف انطبق عليه ما قدّمنا من صفات الادب. وليكن هذا المثال قصيدة للاعشى ، الشاعر الجاهلي ، مدح بها شُرَيحاً بن السموأل ، وأتى فيها على القصة الشهيرة : قصة وفاء السموأل.

درس مثال أدبي

الأعشى يصف وفاء السموأل

السموأل وقصة وفائه . — في القرن السادس بعد الميلاد (أي : في العصر الجاهلي) ، ظهر في تيماء — وهي قرية حجازية تقع على طريق القوافل — اميرٌ اسمه **السموأل** ، كان صاحب حصن منيع عرف بالابلق ، وكان شاعراً ورجلاً ذا مروءة .

وفي العصر نفسه ، نبغ الشاعر المشهور امرؤ القيس صاحب القصيدة الاولى في المعلقات ، وكان اميراً ايضاً ، ولكنه فقد ملكه لان بني اسد ثاروا على ابيه — ملك كندة — فقتلوه . فخرج امرؤ القيس مطالباً بثأر ابيه ، مطالباً بملكه . غير انه لم يجد الى ذلك سبيلاً . فقصد السموأل في حصن الابلق في تيماء يستعينه على امره ، فأكرمه السموأل ووعده خيراً .

وكانت للسموأل صلة بدولة الغساسنة في الشام . وهؤلاء تابعون لدولة الروم في القسطنطينية . فنصح السموأل لامرىء القيس ان يسافر الى الشام ، وزوّده برسالة الى ملك غسان يوصيه فيها ان يعين الامير الكندي على متابعة السفر الى القسطنطينية ، وان يطلب له النجدة من قيصر الروم يوستنيانوس .

وعلى ذلك رحل امرؤ القيس عن تيماء بعدما ترك اهلاً له ودروعاً ومالاً في ذمة السموأل في حصن الابلق .

وطبيعي ان امرأ القيس كان له اعداء يرقبون حركته ويخافون ان يجمع قوة فيعود الى قتالهم ويسترد ملكه . واول اعداء امرىء القيس كان ملك المناذرة في الحيرة . فلما علم هذا ان امرأ القيس قد لجأ الى السموأل ، وانه اودعه اهله ودروعه وماله ، وسار الى الشام ليواصل منها الرحلة الى القسطنطينية في طلب النجدة ، جرّد كتيبة من خيله على حصن الابلق في تيماء ، وأمر قائد الكتيبة ان لا يعود الا وقد تسلم من السموأل ما تركه لديه امرؤ القيس من وديعة ولاسيما الدروع !

وزحفت الخيل على تيماء ، يقودها رجل اسمه الحارث . ورأى السموأل ان لا طاقة له بلقاء الحملة ، وكره ان يُسلم وديعة امرىء القيس ، لان الودائع انما تُرد لاصحابها لا لاعدائهم ، فأقفل حصنه وامتنع في داخله وهو يعلم ان العدو لن يستطيع تطويل الحصار عليه لقلة الزاد والماء .

ولكن اتفق ان كان للسموأل ولدٌ يافعٌ[١] خرج للصيد قبل قدوم الحملة. فلما رجع الولد بصُرَ به الحارث ، قائد الحملة ، فأسره ووقف على مقربة من الحصن ونادى السموأل . فأطل السموأل ، فنظر الى مشهد مؤلم مثير ... رأى ابنه اسيراً يضطرب في قبضة العدو والسيف مسلّط عليه !

وصاح قائد الحملة بالسموأل : هوذا ابنك في يدي ، تحت رحمتي . فادفع اليّ بالدروع وإلا ذبحته الساعة وانت تنظر .

وعرف السموأل ان عدوه فظّ لن يرعى حُرمَةَ أسيره ولن يرحم صباه . وعزّ عليه ان يسلم ولده ، فلذة كبدِه ، للذبح . ولكن عز عليه ان يخفِرَ ذمته[٢] ويفرط بالامانة . وهكذا آثر ان يتخلى عن ابنه ويتركه فريسة لسيف العدو .

فذهب عمله مثلاً من الامثال في روعة الوفاء . واصبح العرب يقولون : وفاءٌ سموألي ، او وفاء كوفاء السموأل ، وتسامروا طويلاً بهذه القصة الخارقة .

الاعشى والمناسبة التي نظم فيها قصيدته . — وكان في هذا العصر الذي حفل بالشعراء شاعرٌ آخر ، سبق ذكره ، هو الاعشى ... وانما لقب بالاعشى لضعفٍ شديد في بصره ، كما لقب بصنّاجة العرب لانه كان حسَنَ الصوت ينشد الشعر غناء .

كان من دأب الاعشى ان ينتقل من موضع الى آخر ، يقصد الرؤساء يمدحهم ويحرز عطاياهم ، ويهجو من يسيء اليه منهم أو يبخل عليه ، وربما هجا من لم تسبق له به معرفة ، كما فعل برجل من بني كلب حتى أحقده[٣] عليه ، فطفق الرجل يبحث عنه ليقتص منه .

فحدث ليلةً ان بات الشاعرُ في بعض القبائل. وحدث ان أغار الرجل الكلبي على اولئك القوم ، فأسر منهم نفراً بينهم الاعشى نفسه . ولكن الرجل لم يكن يعرف الاعشى ، وان كان الشاعرُ عرفه ساعة اسره .

وخاف الشاعر على نفسه خوفاً شديداً ، وهو أسير لدى الكلبي . ولبث على مثل احر من الجمر ، لا يعلم ما يكون مصيره ، ولا من اين يأتيه الفرج .

واذا بضيف ينزل بالكلبي فيستقبله الرجل في اكرام وتعظيم . ويقول قائل : هذا شُرَيحُ بنُ السموألِ صاحب الابلق الفرد في تياه . ويسمعُ الاعشى ، فيخطرُ له خاطر

١ يافع : في اول سن الشبية . ٢ أخفر الذمة : نقض العهد . ٣ أحقده : زرع في نفسه حقداً .

يتوسل [١] به للخلاص من الاسر .

وتأتي ساعة ٌ يتحرك فيها شُريح للانصراف . ويمر في طريقه بالمكان الذي وضع فيه الرجل الكلبي أسراه . فيغتنم الشاعر الفرصة ، ويأخذ بالغناء . وماذا يغني ؟ قصيدة أسرع الى نظمها ، يستغيث فيها بشريح ، ويذكره مروءة أبيه السموأل ، وكيف وفى بوديعة امرىء القيس ، وكيف آثر ان يُذبح ولده على ان يخفِرَ ذمته .

فتحركت أريحيةُ شريح لهذا الشاعرِ الذي يطلب شفاعته ، ويثني على أبيه بهذا الثناء المجيد . واسرع شُريحٌ الى الرجل الكلبي فقال له : لديك أسير مضرور [٢] . أجابه الكلبي على الفور : قد وهبته لك .

فاخذ شريح الاعشى ففك عنه الوثاق وقال له : امضِ معي فأكرمَك . قال الاعشى : بل تعطيني ناقة ناجية [٣] وتخليني الساعة ، فهذا تمامُ احسانك عندي .

فاعطاه شريح ما اراد . فركب الاعشى الناقة وانطلق غائباً بين سمع الارض وبصرها . وكأن قلب الشاعر كان دليله ، فان الكلبي علم ان الاسير الذي رضي اطلاقه انما هو الاعشى لا سواه ، فندم وعجل رسولاً الى شريح يقول له : ردّ اليّ الاسير الذي وهبته لك فاني اريد اكرامه . فأجابه شريح : قد مضى !

وهكذا أفلت الاعشى ، بعد ما نظم في ليلة اسره هذه القصيدة التي استغاث فيها بشريح بن السموأل ، وقص عليه فيها قصة وفاء أبيه العجيبة .

١ يتوسل بالشيء : يتخذه وسيلة . ٢ مضرور : مصاب بالضرر ، ولعل المقصود : ضرير ، أي : أعمى أو مقارب العمى . ٣ ناقة ناجية : تسرع في السير للنجاة بصاحبها .

قصيدة الاعشى

قال الاعشى :

شُرَيحُ ، لا تَتْرُكَنّي بَعْدَ ما عَلِقَتْ حبالكَ اليومَ بعدَ القِدِّ أَظْفاري ! [١]
قد سِرْتُ ما بين بلْقاءَ الى عدَنٍ ، وطال في العُجْمِ تردادي وتَسْياري [٢]
فكان أكرمَهم عهداً ، وأوثقهم عقداً ، أبوكَ بعُرْفٍ غيرِ إنكار
كالغيث ما اسْتَمْطَرُوه جاد وابِلُه ، وفي الشدائدِ كالمُسْتَأْسِدِ الضّاري [٣]
كُنْ كالسَّموأل إذ طاف الهمامُ به في جحْفَلٍ كهَزِيعِ الليل جرّار [٤]
بالأبلق الفَرْدِ منْ تَيماءَ منزلُه حِصْنٌ حَصينٌ ، وجارٌ غيرُ غدّار
إذ سامَه خُطّتَيْ خَسْفٍ ، فقال له : قل ما تشاء فاني سامعٌ ، حارِ [٥]
فقال : غَدْرٌ وثُكْلٌ انت بينهما ! فاُخْترْ ! وما فيهما حظ لِمُختار !
فشكَّ غيرَ طويل ثم قال له : اقتُلْ أسيركَ ، اني مانعٌ جاري ! [٦]
أنا له خَلَفٌ ان كنتَ قاتلَه ، وإن قتلتَ كريماً غيرَ خوّار [٧]
وسوف يُعْقِبُنِيهِ ان ظفرت به ربٌّ كريم ، وقومٌ أهلُ أطهار [٨]
فقال تَقْدِمَةً اذ قام يقتله : أشرفْ سموألُ فانظرْ للدمِ الجاري ! [٩]
أأقتلُ ابْنكَ صبراً ، أو تجيءُ بها طوعاً ؟ فأنكر هذا أيَّ انكار [١٠]

١ القدّ : السير من جلد يُستعمل لتقييد الاسير . علقت حبالك اظافري : وضعت فيك آمالي لتنقذني . ٢ البلقاء : مكان شرقي نهر الاردن . عدن : مدينة في اليمن على المحيط الهندي . ٣ الوابل : المنهمر من المطر ، وهو هنا عبارة عن الكرم . ٤ الهمام ، هنا ، عبارة عن الملك او قائد الجيش . جحفل : جيش . الهزيع : القسم من الليل . ٥ سامه : كلّفه . وفاعل « سام » ضمير يعود الى الهمام . خسف : ذل ومهانة . حار ، أصلها : حارث ، حذف آخرها على الترخيم ، وكأنه قال : اني سامع يا حارث ، وحارث اسم قائد الجيش . ٦ فشك غير طويل : فأطرق متحيراً ، ولكن مدةً وجيزة . ٧ خَلَف : وارث . خوار : جبان ضعيف القلب . ٨ وسوف يُعقبنيه : وسوف يعطيني عوضاً من ولدي . قوم اهل اطهار : قوم نقيون من العيب . ٩ تقدمة : مقدماً . أشرف : أطل . ١٠ قتله صبراً : قتله على علم من المقتول بأنه سيقتل ، فهو يترقب وقوع السيف عليه.

فشدَّ أوداجه والصدرُ في مَضَضٍ عليه مُنطوياً كالذِعِ بالنار [١]
واُختار أذرَاعه كي لا يُسبَّ بها، ولم يكن عهدُه فيها بختّار [٢]
وقال : لا نشتري عاراً بمكرُمةٍ، واختار مكرمة الدّنيا على العار !

تحليل القصيدة . – كانت لدى الشاعر فرصة قصيرة يرسل فيها الخطاب . فان الذي يخاطبه قد لا يصبر عليه اذا استوقفه طويلاً . لذلك أقبل فوراً على ذكر غايته ، فاستصرخ شريحاً بقوله : « لا تتركنّي اسيراً مقيداً بهذا السير من جلد . اني مددت يدي فتعلّقت بحبالك ، وغرَزت فيها اظفاري . »

ويقال : تعلق فلان بحبال فلان ، اذا اعتمد عليه في مساعدته وعظمت به ثقته . على ان الاعشى لم يقنع بهذا التعبير ، فأضاف ان اظفاره قد غُرزت في حبال شريح ، وغرْزُ الاظفار لا يكون الا مع شدة التمسك ، ومع الخوف من الافلات ، والوقوع في خطر عظيم .

وهكذا صوّر الاعشى ، دفعة واحدة ، مبلغ ثقته بمروءة شريح ، ومبلغ قلقه وضيق صدره في الاسر .

ثم مضي يذكره بأبيه ليقينه ان الاب تكون له حرمة في نفس ابنه ، ولعلمه ان والداً كالسموأل إنما يفتخر به ولده ويطمع في ان يسير سيرته . وهكذا أنبأ الاعشى شريحاً بانه قد سافر بعيداً في ديار العرب – من البلقاء في اقصى الشمال الى عدن في اقصى الجنوب – وانه تنقل طويلاً في ديار العجم ، فوجد أوفى الناس قاطبة : السموأل ، رجلاً كريماً كالغيث المدرار ، وفي الشدائد مقداماً كالاسد !

ومن هنا اندفع الاعشى يمثل لشريح موقف ابيه الرائع في الوفاء . ناداه بقوة : « كن كالسموأل » ، ثم رفع لعينيه لوحةً مهيبة تتحرك عليها صور سريعة بارزة نابضة بالحياة ...

ها الحصن ، حصن الابلق ، وقد حُصر فيه السموأل وقبض العدو في خارج الحصن على احدبنيه . وها السموأل يُطلّ فتقع عينه على مشهد رهيب : جيش جرّار كأنه لكثافته قطعة من الليل . وولده ، فلذة كبـــده ، في يد العدو . والحارث ، قائد الجيش ، يدعو السموأل فيجيبه برباطة جأش : قل ما تشاء ، فاني سامع . فيقول له القائد : إما ان تسلم الدروع ، واما ان اقتل ابنك ، فاختر . ولكن اي حظ لمن يختار ؟ وكلتا الخطتين ذل وعار .

١ شد أوداجه : قطع العروق الرئيسية في رقبته . المضض : الالم . ٢ ختار : غدّار .

خطة الغدر والخيانة ؛ وخطة هي الثكل ولوعة فقد الولد ... ويُطرق السموأل متحيراً . ولكن اطراقه لا يطول . فهو يعلم اي الخطتين يليق به ان يسلك . ولذلك يجيب بقوة : أقتل أسيرك ، فاني اؤثر الوفاء لجاري على حياة ابني ، ولن تكون قد قتلت الا كريماً شجاعاً . وما دام لي رب وقوم ، فسيكون لي عوضٌ من ولدي ! فيعيد القائد عليه الكرة . يقول له وهو يريد ارهابه ، لعله يلين : واذاً فانظر يا سموأل الى الدم الجاري ! ويهم بقتل الولد . ولكن السموأل لا يزداد الا رفضاً وتمنعاً . فينطوي القائد على الولد انطواء الدرع بالنار ، ويثني عنقه وينحره .

وهكذا اختار السموأل الامانة وحفظ الذمام ، وخَلَصَ من المسبة ، واستطاع ان يقول مفتخراً بحق : لا نشتري العار بالمكرمة !

الادب في القصيدة : جمال عبارتها وسمو مغزاها . — وعند هذا الحد امسك الشاعر ، وهو على يقين أنه قد أسمع شريحاً ما تخشع له نفسه ، وتهتز له مروءته ، فينقذه من بليته . ولم تُخطىء فراسةُ الاعشى ، فان شريحاً شفع به وخلصه من الاسر وخطر الانتقام . وبقيت القصيدة التي انشدها لهذه المناسبة اثراً ادبياً رفيعاً قيّماً .

ولماذا ؟

لان هذه القصيدة تعبر عن معانيها بعبارة واضحة قوية جميلة ، فيها **تضلع من اللغة**[1] مشفوع[2] بمقدرة على النظم ، وفيها **خيال** ماهر في التصوير ، **وفن** بارع في قص الحوادث.

فلننظر مثلاً الى هذا البيت :

فشكَّ غير طويلٍ ثمَّ قال له   اقتل اسيرك اني مانع جاري

أفلا يمثّل السموألَ تمثيلاً واضحاً قوياً كيف أطرق يُوازِن بين تسليم الدروع وتضحية ابنه ، وكيف انتهى سريعاً الى هذا الجواب الجازم : « اقتل اسيرك ، اني مانع جاري » ، عدا ما في البيت من حُسن الالفاظ ووضوحها واحكام نظمها ؟

ولكن هذا السبب بمفردِهِ لم يكن كافياً ان يجعل من القصيدة أثراً ادبياً قيماً رفيعاً . والحق اننا ما نكاد نمضي في تِلاوة القصيدة حتى ننسى ان وراءها شاعراً أسيراً يطلب الشفاعة لنفسه ، فيغيب عنا ذكرُ الاعشى وذكرُ شريح ، بل ننسى حتى جمالَ اللغة والنظم ، لنستغرق في الموضوع الذي دارت عليه القصيدة ، فنتأمل السموألَ وقصة ذلك الامتحانِ القاسي لرجولةِ الرجل بين قلبٍ يُناديه وشرَفٍ يدعوه !

[1] التضلع من اللغة : معرفتها معرفة تامة وثيقة. [2] مشفوع : مصحوب.

فالاعشى قد صوّر بهذه القصيدة صِراع العاطفة والواجب صراعاً مختصراً رهيباً انتهى بانتصار الواجب رُغمَ عِظم التضحية .

ومن هنا ، من هذه العبرة والمغزى الجليل ، اكتسبت قصيدته اعظمَ روعتها وجمالها.

وهكذا يتضح ان الادبَ القيمَ الرفيع لا يمكن ان يفرغَ من غاية تهذيبية سامية .

وقد لا يكون الاعشى قصَد قصْداً بشعره الا ان يستغيثَ بشريح ويحرّك أريحيته لينقذه من الاسر . قد لا يكون فطن الى شيء من ذلك المغزى الجليل : مغزى انتصار الواجب على العاطفة رُغمَ عِظم التضحية .

ولكن هذا أمرٌ — على غرابته — يقع في الادب فرب قصيدة، أو خطبةٍ ، يقولها الاديب في مناسبة خاصة ، لغاية شخصية محدودة ، فاذا بالقصيدة ، أو الخطبة ، تسمو بمغزاها عن تلك المناسبة الخاصة ، وتمتد الى غاية أبعد من الغاية الشخصية المحدودة ... وبعد ، أفلم نذكر ان الاديب لا يلبي بادبه حاجة نفسه وحدها ، بل حاجة غيره من الناس في الموضوعات التي تتصل بالحياة وبتغذية العقل والشعور لتربية انسان أفضل ومجتمع أرقى !

ولقد كان الاعشى هو هذا الاديب في قصيدتِه التي وصف بها روعة وفاء السموأل !

ما هو تاريخ الادب ؟ — بقي تنبيه يحسن ان نجعل هنا موضعه : اننا حين نستعرض الفصل السابق ، نرى اننا احتجنا فيه اوّل شيء الى التعريف بالسموأل وقصة وفائه ، فلم يكن لنا بُدٌّ من العودة الى التاريخ لنعلم من السموأل ، ومن امرؤ القيس ، ولنذكر دولة كندة، ودولتي المناذرة والغساسنة ، ودولة الروم ، ثم لنعلم كيف جرت القصة التي اشتهر فيها السموأل بالوفاء . كذلك نرى اننا احتجنا الى ان نعرف مَن الاعشى ، وما المناسبة التي نظم فيها قصيدته ، فعدنا الى التاريخ ايضاً .

ولو اننا جهلنا هذه المعلومات التي امدّنا بها التاريخ لما فهمنا القصيدة حق الفهم ، ولما ادركنا كل قوتها وجمالها .

فهذه المعلومات وأمثالها تسمى **التاريخ الادبي** .

فالتاريخ الادبي ، اذاً ، فنٌّ يطلعنا على سِيَر الادباء ، والظروف التي انشأوا فيها ادبهم ، ومجموعِ العصور التي مرّ بها ادبُ امة من الامم او لغةٍ من اللغات .

وتاريخ الادب العربي ، خاصة ، هو بحثُ العصور التي مرّ بها ادب اللغة العربية في مدى اربعة عشر قرناً ، ومعرفة كتّاب اللغة وشعرائها الكبار والآثار التي خلدت ذكرهم .

ومن هذا يتضح ان تاريخ الادب مستقلّ عن الادب نفسه .

فالذي يكتب تاريخاً ادبياً ينبغي له ان يكون همّه الاول احـاطة بالوقائع والحقائق وشرحها وتعليلها ، شأنه في ذلك شأن كل من يكتب تاريخاً ما .

على ان مؤلفات التاريخ الادبي (والتاريخ جملة) قابلة لان تصبح أدباً اذا استطاعت ان تجمع ، الى الوقائع وشرحها والحقائق وتعليلها ، عبارة صحيحة جميلة وتفنناً يبلغ مبلغاً من التأثير في نفس القارىء .

والتأريخ للادب ضرب قديم من ضروب التأليف عند العرب . ويمكن القولُ انه بدأ باولئك الرواة الذين نشأوا في العصر الاموي ، مع انتشار الكتابة ، ففكروا في جمع أشعار الجاهليين وتدوينها بعدما كان حفظُها بالذاكرة فقط . وأسبقُ من نعرف من اولئك الرواة الكاتبين عالمٌ عراقيّ ، فارسي الاصل ، اسمه **حماد الراوية** ، عاش في عصر بني أمية وأدرك بني العباس . ولم يصل الينا من حمادٍ هذا كتابٌ مُصنّفٌ ، ولكن المعروف انه هو الذي جمع القصائد السبع الطوال المعروفة بالمعلقات . ثم كثر بعـد حماد مصنفو المجموعات الشعرية وشراحُها .

وعلى هذا النحو بدأ التأليف في التاريخ الادبي بجمع نصوص الشعر القديم . ولكن هذه الخطوة التمهيدية عقبتها خطوة بظهور المؤلفين الذين انصرفوا الى تدوين اخبار الشعراء وترتيبهم بحسب عصرهم ومنزلتهم مع شيءٍ من البحث والتعليق . وفي طليعة من نعرف من هؤلاء عالمٌ اسمه **محمد بن سلام الجمحي** حُفِظَ لنا من آثاره كتابُه القيم : « طبقـاتُ الشعراء » .

وكان ابن سلام عراقياً بصرياً عاش في العصر العباسي الاول .

ولكن أعظم ما ورّثنا القدماء من كتب التاريخ الادبي : كتاب « **الاغاني** » وصل الينا منه واحد وعشرون جزءاً كبيراً . ومؤلفـه هو ابو الفرج الاصبهاني من افذاذ الادباء في العصر العباسي الثالث . ويعتبر « الاغاني » شاهداً رائعاً على المؤلفات التاريخية التي تجمع بين الادب وتاريخه ، بناه ابو الفرج في الاصل على اخبار المغنين والاصوات التي يغنونهـا . ثم تطرق فيه الى اصحاب هذا الشعر الذي يُغنى ، فأحاط بسِيَر العشرات من الشعراء وبغير ذلك من اخبار في مدى زمان يمتد من الجاهلية الى عصر المؤلف (القرن الحادي عشر الميلادي ، الرابع الهجري) .

هـذا ـ وفي خزائن التراث العربي القديم مُصنّفـات كثيرة ، أخرى ، في موضوع التاريخ الادبي . وكتُبنا اليومَ في هذا الموضوع انما تعتمد في المعلومات وفي كثير من الآراء

والاحكام على تلك الكتب الامّات ١ .

غير ان فهمنا اليوم لتاريخ الادب اصبح يختلف عن فهم القدماء. ومرجع هذا الاختلاف الى تأثّرنا بالثقافة الحديثة، وبمناهج البحث الحديث، تأثراً كشف لنا آفاقاً جديدة من الحقائق ومن اسلوب تناول الحقائق . فنحن اليوم لا نؤرخ للأدب باعتباره مجردَ شعراء و كتّاب يتتابعون في عصر بعد عصر ، ينظمون وينثرون في هذا الموضوع او ذاك ، وبهذه الطريقة او تلك ، فيجيدون ويقصّرون ، و كأنما ذلك كله بمصادفة . بل نحن اصبحنا نعتبر الادب مظهراً عقلياً شعورياً فنياً ، يتأثر بخصائص الامة وأوضاع المجتمع في كل عصر ، ويمثل دوراً في تقوية هذه الخصائص والاوضاع او تبديلها . وعلى هذا الضوء العام اصبحنا نؤرخ للأدب ، واصبحنا نرى انه يتصل بشؤون واسباب كثيرة ينبغي لنا فهمها مع فهم الادب . فنبحث ، مثلا ، البيئة الجغرافية التي ينشأ فيها الادب ويعيش الاديب ، ونبحث النظامَ الاجتماعي الذي يحيط بالادب وبالاديب ، والظروف السياسية، ومستوى العلوم والفنون ، واتجاهات الاذواق والافكار ، وحالة الناس عامّة ، لعلمنا ان ذلك كله مما يؤثر في الادب ويتأثر به الادب .

وبكلام آخر: نحن اليوم نؤرخ للادب باعتباره جانباً خاصاً من التاريخ العام للأمة . او نحن على الاصح نؤرخ للادب ، باعتباره **تاريخاً عاماً للامة على نحو ما يتجلى هذا التاريخ في ذلك المظهر الخاص : المظهر العقلي ، الشعوري ، الفني ، الذي نسميه الادب .**

وان تاريخ الامة على نحو ما يتجلى في تاريخ أدبها — اذا عُرف تاريخ ادبها وفُهم بشمول وعمق — ليتفرّدُ بميزة خاصة هي انه يُصور الامة لا كما كانت، او كما هي في الواقع، بل كما أحبت او تحب ان تكون. ذلك ان الادب بطبيعته ليس مجرد نقل للواقع او تسجيل له، ولكنه رضى عن هذا الواقع او شوقٌ الى افضلَ منه . وربما لم تكن قصيدةٌ كقصيدة الاعشى في وفاء السموأل نقلاً او تسجيلاً لواقع حدث حقاً ، الا انها برغم ذلك تبقى قطعة من تاريخ تمثل، على لسان شاعرٍ عربي ، وجهاً من وجوه المروءة والبطولة كما فهمها العرب ، وبالتالي كما أحبوا ان يكونوا .

١ الامّات: جمع أمّ لغير العاقل . والكتاب الأم هو كل كتاب رئيسي في موضوعه ، تأخذ عنه بقية الكتب.

الفنون الأدبية

الشعر والنثر

معنى الفن . — لفظةُ الفن من اوسع الفاظ اللغة انتشاراً ، تُستعمل كثيراً في موضوع الادب وفي غيره من الموضوعات ، ولها الوان من المعنى يجب النظر فيها .

اذا قلنا : فن البناء ، مثلاً ، كان المعنى صناعة البناء .

ولكن صناعة البناء تقتضي علماً به، وقدرة على عمله، وحسن تصرف وابتكار في العمل .

فالفن ، اذاً ، **صناعةٌ** ، مع كل ما ينطوي تحت الصناعة — اذا أجيدت — من علم ومن ابتكار ومهارة في العمل .

فهذا معنى من معاني الفن .

على ان للفن معنى آخر هو **النوع والصنف** . نقول : هذا فن من البناء ، أي : نوع من انواعه وصنف من اصنافه .

ولفظة الفن اذا كانت بهذا المعنى تُجمَعُ وجمعها على : فنون .

وبهذا المعنى نقول : الفنون الادبية، أي: انواع الادب وأصنافهُ وضروبه . فالشعر فن من الادب لانه نوع منه ، وكذلك النثر .

ولكن ما العلاقة بين هذين المعنيين في لفظة الفن : معنى الصناعة (مع كل ما ينطوي تحتها) ، ومعنى النوع ؟

العلاقة وثيقة ، وهي ان الفنون (بمعنى الانواع) تحتاج الى الفن (بمعنى الصناعة) . فالبناء ، مثلاً ، فنون (أي: أنواع) بِحسَبِ الغرض الذي يُبنى له والطريقة التي يبنى عليها والمادة التي يُبنى بها الخ ... فيقال: بناءٌ مدرسي أو مسرحي ، وبناء عربي او روماني ، وبناء حجري او إسمنتي . ولكن لا بد لكل فن من فنون البناء (أي:انواعه) من فن (أي : صناعة) في اخراجه واتقانه .

الفنون الادبية والفنون الجميلة .—فالفنون الأدبية — على ما ذكرنا — هي، اذاً ، أنواع الادب واصنافه وضروبه .

وتحتاج فنون الادب (أي : انواعه) الى الفن (اي : الصناعة) بمقدار ما تحتاج

فنون البناء التي ضربناها امثلة . فللنثر صناعة" وللشعر صناعة مع كل ما تقتضي الصناعة — اذا أجيدت — من علم ومن مهارة وابتكار في العمل.

على اننا نحتاج ُ هنا الى تفريق اساسي . فاذا كان الفن صناعة ، فان من الصناعة ما يَقصد فيه الانسان بالدرجة الاولى ، الى **الانتفاع المادي**. ومن الصناعة ما يقصد فيه الانسان الى **الانتفاع المعنوي**. فالنجارة، مثلاً، صناعة غايتها الرئيسية الانتفاع المادي بما يصنع النجار من كرسي نجلس عليه ،او باب يحفظ البيت ، او خزانة تقي الملابس . ولْيتأنق النجار وليبتكر ما شاء في صنع البـاب او الخزانة او الكرسي ، فلا قيمة لعمله الا ان يسد به حاجتنا الى الجلوس وحفظ البيت ووقاية الملابس.

ولكن الرسم ،مثلاً،صناعة انما غايتها الانتفاعُ المعنوي بجمال ما يُبدعه الرسام من لوحات نفيد منها غذاءً للعقل ولذة للروح . ويخلو عملُ الرسام من كل قيمة اذا لم يشتمل على هذا الجمال الذي يُغذي عقلنا ويلذ روحنا .

وتلك الصناعات والفنون التي يُقصَدُ فيها الى الانتفاع المعنوي تسمى « الفنون الجميلة » من مثل الرسم والنحت والموسيقى والرقص ، وعدّوا في طليعتها الشعر ، والشعر أدبٌ بل أول مظهر للأدب على ما سوف نعلم .

ومعنى هذا اننا حين نقول : فنون الادب ، فانما نقصد فنوناً جميلة ، وحين نقول: صناعة الشعر او صناعة النثر الادبي ، فانما نقصد نوع الصناعة التي غايتها الانتفاع المعنوي بما يغذي العقل ويلذ الروح .

كيف قُسمت الفنون الأدبيّة . — وهنا نذكرُ أننا حين عرّفنا الادب ، تحدثنا فيه عن معنى، وعن تعبير يبلّغ المعنى.

ونزيد هنا : ان كل تعبير لا بد له من ان يُصاغ في قالب او مبنى .

ولذلك قيل : **الأدبُ يتألف من عنصرين : المعنى والمبنى .**

فاذا امتاز [1] عمل ادبيٌّ بصفاتٍ وشروط تتعلق بمعناه ومبناه معاً ، فُصِل على اعتبارِه فناً ادبياً مستقلاً .

ولكن من الفنون الادبية ما يمتاز بصفات وشروط تتعلق بالمعنى فقط وبالموضوع ،فيسمى غرضاً ادبياً .

١ امتاز الشيء : انفرق عن بقية الاشياء .

ومن هذه الفنون ما يمتاز بصفات وشروط تتعلق بالمبنى على حِدَة، فيُسمّى **شكلاً ادبياً**.

الفنان الرئيسيان في الادب: الشعر والنثر . — جاءَ في كتاب « كليلة ودمنة » الذي نقله **عبدُ الله بن المُقفّع** أعظم كُتّابِ العصر العباسي الاول:

« ان الريح الشديدة لا تَعبأ بضعيف الحشيش . لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر وتقلع الدَّوحة العاتية [١] من موضعها . »

وجاء في الكتاب نفسه :

« كما تدين تدان . ولكل عمل ثمرة من الثواب والعقاب [٢] . وهما على قَدَره في الكثرة والقلة ، كالزرع اذا حضر الحصد أعطى على حَسَبِ بذره . »

وقال ابن الرومي ، وهو من شعراء العصر العباسي الثاني :

عَذَرْنا الوَرْدَ في إبداء شوكٍ يذودُ به الأناملَ عن جَناهُ [٣]
فما للعوسجِ الملعون أبدى لنا شوكاً بلا ثمرٍ نراه ؟
تُراه ظَنَّ فيه جَنًى كريماً فأبدى عُدَّةً تحمي حماه ؟ [٤]
فلا يَتَسَلَّحَنَّ لدفع كفٍّ كفاهُ لُؤْمُ مَجْناهُ ! كفاهُ ! [٥]

ننظر في كلام ابن المُقفّع ، فنجد ألفاظاً مناسبة مأنوسة ، قد صيغت في جُملٍ سليمة ، لم يُراعَ فيها الا قوانين اللغة ، وحسن ايصال المعنى الى فهم السامع او القارىء.

ولكننا ننظر في كلام ابن الرومي فنلحظ ، اول شيء ، انه مقسم اسطراً مُتوازية ، وان كل سطر مقسومٌ شطرينِ ، وانه ينتهي بخاتمة تضارع خاتمة السطر السابق . ثم نلحظ لدى الاستماع لهذا الكلام ان له **ايقاعاً موسيقياً** في الاذن حصل من ترتيبه على نظام مُعيَّن .

فكلام ابن المقفع هو النثر .

وكلام ابن الرومي هو الشعر .

والشعر والنثر هما الفنان الرئيسيان ، بل الاساسيان ، في الادب .

النثر . — وانما سُمي النثر نثراً لانه محلول من كل قيد ، الا ما يقيده به شرط صحة اللغة وجودة التعبير وضبط المعنى ، وهو شرط عام في الكلام كله . فالنثر ، اذاً ، لا يُحبَس

١ العاتية : القوية . ٢ الثواب : المكافأة . والعقاب : القصاص . ٣ يذود : يصد ، يمنع . جناه ، هنا ، يعني : زهره . ٤ جنى : ثمر ، شيء يقطف . عدة : سلاح . ٥ مجناه : قطفه .

في قالب ضيّق بل يأتي طليقاً ، حتى ليمكن التغيير في الفاظه وتحويلها عن مواضعها دون ان يلحق بنظامه الخلل . فلو ان ابن المقفع بدل شيئاً من كلامه فقال : « ان الرياح العاصفة لا تبالي الاعشاب الضعيفة » ، ولو قال : « تدينُ كما تُدان » ، لبقي كلامه على سلامته واستقامته.

فمن صفات النثر اذاً انه اوسع حرية واطلق مجالاً للتصرف بالالفاظ والمعاني .

الشعر . — على ان ابن الرومي لو حوّل شيئاً من كلامه فقال : « عَذَرْنا الورد حين ابدى شوكاً يدفع به الانامل عن زهره » ، لاختل كلامه فوراً من حيث هو شعر .

ذلك بان الشعر تُزاد فيه شروط اخرى على سلامة اللفظ واستواء العبارة والمعنى .

وتلك الشروط هي ان يُوَقّع الكلام على نظام يسمى **الوزن** ، وان يقسم سطوراً متوازية تُسمى ابياتاً ، وان ينتهي كل بيت **بقافية** ، اي : بلفظة يتكرر في آخرها الحرف [١] الذي انتهى به البيت السابق .

فالشعر اذاً اضيق قالباً من النثر ، وأدعى الى الايجاز والاختصار . ومن صفاته ان يكون اكثر موسيقى ، واسرع الى الرسوخ في الذاكرة .

السجع . — هذا ، وفي العربية كلام متوسط بين الشعر والنثر ، لا يُقيّد بوزن الا ما جاء عفواً ، ولكن يُقْصَدُ فيه الى القافية ، على نحو قول البديع الهمذاني من ادباء العصر العباسي الثالث :

« طلبتُ العلمَ فوجدته بَعيد المرام ، لا يُصاد بالسهام ، ولا يُرى في المنام ، ولا يورث عن الآباء والاعمام ، ولا يُستعار من الكرام . فتوسلت اليه بافتراش المدر [٢] ، ورد الضجر ، وركوب الخطر ، وإدمان [٣] السهر ، وإعمال الفِكَر . ووجدته شيئاً لا يصلح الا بالغرس ، ولا يُغرَسُ الا في النفس . »

ويسمى هذا الكلام سجعاً . ظهر اول امره في الجاهلية على ألسنة الكهان يخاطبون به اتباعهم ، يُرَجّمون لهم بالغيب [٤] او يَعظونهم او يُهوّلون عليهم .

ايكون الشعر والنثر محض شكلين ادبيين ؟ — وبعدُ ، فان الذي قلناه في تحديد النثر والشعر ، وفي التفريق بينهما ، انما يتعلق كله بقالب الكلام : قالبِ الكلام الذي يسمى نثراً ، وقالبِه الذي يسمى شعراً . فهل ينتج عن هذا ان الشعر والنثر انما هما شكلان ادبيان لا غير؟

١ وفي احيان يجب ان يتكرر اكثر من حرف واحد كي تتم القافية . ٢ المدر : الطين .
٣ ادمن الشيء : واظب عليه . ٤ رَجم بالغيب : تكلم بما لا يعقله .

كلا ، فان القالب وحده لا يتمم حقيقة الشعر ولا النثر ، بل لا يكفي لتعيين الفرق بينهما . ومن هنا وقع القدماء في النقص حين عرّفوا الشعر بانه هو الكلام الموزون المقفى . فرب كلام استوى فيه الوزن والقافية ، ولكنه ليس من الشعر في شيء ، على نحو قول استاذ لتلميذه يريد ان يُثبِتَ في ذهنه قاعدةً نحوية :

لا تنسَ قطّ مقالي وكن من الاذكياءِ
لا جرّ في الافعال لا جزم في الاسماءِ

فهذا نثر برغم الوزن والقافية .

ولكن لنتأمل هذا الكلام **لجبران خليل جبران** ، وهو من أبرز ادبائنا وفنانينا في العصر الحديث ، قال :

« في الحلم رأيت شحروراً يُغرّدُ فوق فوهة بركان ثائر . ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج . ولما استيقظت ، ونظرت حولي ، رأيت البركان هائجاً ، ولكني لم اسمع الشحرور مغرداً ولا رأيته مرفرفاً . ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والاودية ساتراً باكفانه البيضاء أجسام الزنابق العارية . »

فهذا شعر برُغم أنه فاقد الوزن والقافية . لانه يعتمد على الخيال والصور في اداء غرض احسه صاحبه احساساً قوياً عميقاً . ونحن لا نعلم المناسبة التي ارسل فيها جبران هذا الكلام ، الا اننا ندرك أيّ شعور بخيبةٍ مُرّة قاسية كان يعانيه جبران حينذاك . لقد مثّل بالشحرور الذي يغرد فوق فوهة البركان ، وبالزنبقة التي ترفع رأسها فوق الثلوج ، حالةً من حبور وانس وازدهار تعقب حالةً من وحشة وغم وخراب . على ان هذا الامل الجميل في نفس الشاعر ما لبث ان أفسدته عليه اليقظة وكذبه الواقع ، فاذا بالبركان يبقى هائجاً ولا شحرور ، واذا بالثلوج تمضي في تكفين الحقول ولا زنابق !

وهكذا يثبت ان النثر والشعر ليسا محضَ شكلين أدبيين بل هما فنان ، اذا افترقا في القالب ، فانهما يفترقان كذلك في صفاتٍ وخصائصَ تتعلق بالمعنى وبالتعبير عن المعنى .

تحديد الشعر وخصائص فارقة بينه وبين النثر . — سُئِل احد قدماء العرب : « ما الشعر ؟ » فقال : « شيء يختلج في صدري ، فينطق به لساني . » ولِيمَ على قوله الشعرَ لانه كان فقيهاً ، فاعتذر هو عن نفسه ، او اعتذرَ عنه غيره ، بقوله : « لا بد للصدر ان ينفث ! » وسئل احد الاعراب : « لم كانت المراثي اجود اشعاركم ؟ » فاجاب : « لأنّا نقولها واكبادنا تحترق ! »

وخلاصةُ هذا ان الشعر فنٌّ وليد انفعال شديد وعاطفة جيّاشة في النفس .

ولذلك يَمتاز الشعر من النثر في ان **عمل العاطفة والخيال في الشعر أقوى** ، وفي ان حظ **الشعر–ولاسيا الشعر العربي–من الموسيقى اوفى**، وفي ان **الشعر ادعى للاختصار والايجاز**[١].

وعلى هذا نرى الموضوعات الشعرية هي التي تكون اكثر تحملاً لوثب الخيال، وللتفنن في الصور ، ولحرارة العاطفة ، ولترك التطويل .

يهتز الانسان لعمل من اعمال البطولة والمروءة، او يحتقر فعلاً من افعال الدناءة ،او يثيره ظلم، او تهوله كارثة تصيب قومه وتُحزنه فاجعة تنزل بأحبائه ، فينفجر بالشعر او يحس حاجة الى الانفجار بالشعر، لانه لا يجد من القول ما يشفيه الا القول الشعري ! ويرتاع الانسان لجلال الجبال او عظمة البحار او بهاء النجوم او وحشة الليل والصحاري ، او هو يُسحَرُ بالجمال في وجه جميل ، او يَفرح برونق الربيع ويطرب لتغريد الطير ، او هو يؤخذ بحكمة وعبرة تنكشفان له ، فينفجر بالشعر او يحس حاجة الى الانفجار بالشعر لانه لا يجد كلاماً يفي بما يثور في صدره الا الكلام الشعري !

ونتيجةَ ذلك يستقل الشعر بضروب من اللفظ وبطُرُق من التعبير خاصة ، فيقال: هذا اللفظ والتعبير شعريّان ، او هذان لا يمتان الى الشعر بقرابة .

بينما حظ النثر من عمل العقل والمنطق هو الأوفى . ولذلك يكون النثر **اوسع مجالاً للتصرف بالالفاظ وللتبسط في المعاني**. وتكون موضوعات النثر هي التي تقتضي مناقشة وتحليلاً وتدقيقاً وتفصيلاً .

اي كان اسبق الى الظهور: الشعر ام النثر؟ – المعقول ان نتوهم ان النثر كان اسبق الى الظهور من الشعر . لان الشعر يبدو صعباً مركباً بما يُشترط فيه من وزن وقافية، بينما يبدو ارسال النثر سهلاً بسيطاً . والقاعدة في نشأة الاشياء ان تتدرج من البسيط الى المُركّب .

وهذا بالفعل ما تَصوّره بعض العلماء ، فقال : ان النثر الطليق كان اول مظهر للادب . ثم قُيِّد الكلام بالوزن والقافية فكان الشعر .

وصحيح ان البشر تكلموا نثراً اول ما تهيأ لهم النطق بلغة . على ان ذلك لم يكن الا للتخاطب العادي في الشؤون وفي المصالح اليومية .

فاما في الادب فقد **نظموا شعراً قبل ان يطلقوا النثر** . فكان **الشعر اسبق مظهر للادب**

١ الايجاز : قول المعنى باقل ما يستطاع من اللفظ .

في تاريخ الشعوب . يَصْدُق ذلك على العرب كما يصدق على غيرهم .

ولأقدمية الشعر اسباب . منها ان الشعوب في عهودها الاولى تكون على الفطرة . والبشر مع الفطرة يتحركون بالعاطفة اكثر مما يتحركون بالعقل ، ويذهبون مع الخيال اكثر مما يثبتون على المنطق والتحليل . ولقد عرفنا أن الشعر أمضى في التعبير عن العاطفة واقوى على تحمّل الخيال . وكلام الشعر ، بما يُشترَط فيه من وزن وقافية ، اوقع في السمع وفي النفس . وهو يُرضي حاجة الفطرة الى الايقاع الموسيقي ، ويساعد على اللحن والغناء ، وطلبُ اللحن والغناء شيء راسخ في الغرائز .

ثم ان الشعوب في عهودها الاولى لا تكون لها كتابة . ولكنها تحتاج طبعاً الى حفظ اخبارها وتناقل حوادثها وتجاربها . فاي سبيل لها الا ان تعيَ ذلك كله بالذاكرة ؟ وكلامُ الشعر اعلقُ بالذاكرة واطول فيها بقاء من كلام النثر .

فلهذه الاسباب كان الشعرُ اسبق الى الظهور من النثر الادبي .

منتخبات

فارس يصف جمال الرجولة

كان عمرو بن مَعدي كَرِبَ الزُبيديّ فارساً وشاعراً مشهوراً في الجاهلية والاسلام ، وقصيدته هذه التي يصف فيها جمال الرجولة ، تعتبر من أجود الشعر العربي الجاهلي . قال:

لَيسَ الجَمالُ بِمِئزَرٍ ، فاعلمْ ، وإنْ رُدِّيتَ بُرْدا ١
إنَّ الجَمالَ مَعادِنٌ ، وَمَناقِبُ أَوْرَثْنَ مَجْدا ! ٢
أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثانِ سا ـ بِغَةً ، وعَدّاءً عَلَنْدى ٣
نَهْداً ، وَذا شُطَبٍ يَقُدُّ ـ البَيْضَ والأَبْدانَ قَدّا ، ٤
وَعَلِمْتُ أَنّي يَوْمَ ذا ـ كَ مُنازِلٌ كَعْباً وَنَهْدا ٥
قَوْمٌ ، إذا لَبِسُوا الْحَدِيـ ـدَ تَنَمَّرُوا ، حَلَقاً وَقِدّا ٦
كُلُّ امرِئٍ يَجري إلى يومِ الهِياجِ بِما استعدّا ٧
لَمّا رَأَيْتُ نِساءَنا يَفْحَصْنَ بالمَعْزاء شَدّا ، ٨
وبَدَتْ « لَمِيسُ » كَأَنَّها بَدْرُ السَّماء إذا تَبَدّى ، ٩

١ المئزر : الثوب . رديت : ألبست . البرد : ثوب مزين بالخطوط والنقوش . وقوله : «فاعلم» ، جملة معترضة . ٢ المعادن : الاصول ، ويقال : معدن الانسان ، أي: اصله . والمناقب : الاخلاق الكريمة . ٣ اعددت : هيأت. الحدثان : حوادث الايام . سابغة : واسعة، ويقصد بها الدرع. والعداء : السريع الجري، والعلندى : الضخم المتين ، والمقصود بالعداء والعلندى : الجواد . ٤ نهداً: صفة للجواد ، تتبع «علندى»، ومعناها : الضخم الطويل . وذا شطب ، اي : سيفاً له في صفحتيه خطوط نائتة كالاضلاع . يقد : يفلق . البيض: الخوذ . ٥ كعب ونهد : اسما قبيلتين . ٦ تنمروا : تشبهوا بالنمار . لبسوا الحديد : لبسوا الدروع من حديد . والحلق : زرد الدرع . والقد : جلد متين كانوا يصنعون منه الدروع اذا لم يجدوا الحديد . ٧ يوم الهياج : الحرب . ٨ يفحصن : يسرعن وهن يضربن الارض بارجلهن . المعزاء : الارض الصلبة . شداً : سعياً . ٩ لميس : اسم امرأة . تبدى : ظهر .

وَبَدَتْ مَحاسِنُها التي تَخْفَى ، وكان الأمرُ جِدّا ،
نَزَلتُ كَبْشَهُمُ ، وَلَمْ أرَ من نِزالِ الكَبْشِ بُدّا ! [١]
هُمْ يَنْذِرُونَ دَمي ، وَأَنْذِرُ إنْ لَقِيتُ بأنْ أشُدّا ! [٢]
كم من أخٍ لي صالحٍ بَوَّأتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدا ، [٣]
ما إنْ جَزِعْتُ ، ولا هَلِعْتُ ، ولا يَرُدُّ بُكايَ زَنْدا ، [٤]
ألْبَسْتُهُ أثْوابَهُ وخُلِقْتُ ــ يومَ خُلِقْتُ ــ جَلْدا ، [٥]
أُغْني غَناءَ الذاهبينَ : أُعَدُّ للأعداءِ عَدّا ، [٦]
ذَهَبَ الذين أُحِبُّهُمْ ، وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيفِ فَرْدا ! [٧]

وفيما يأتي قطعة من نثر بُنيت على معاني هذه القصيدة :

اعلمْ أن الجمال ليس بثوب ترتديه وان لبست أبهى أثواب مُخطَّطة منقشة . فما أبعد الجمال عن ان يكون مظهراً تظهر به . ولكنه شيءٌ في الاصل الكريم، وفي الخصال النبيلة ، وفي الشرف الذي يأتيك من كرمِ الاصل ونُبل الخصال .

ذلك هو الجمالُ عندي .

ومذهبي في الجمال هو الذي دعاني ان أتيقّظ لحوادث الايام، وأن أعدّ لمواجهتها درعي الواسعة ، وجوادي السريع القويّ ، العظيم الهيكل ، وسيفي المُشطّب الذي يَقُدّ خوذةَ الفارس ويشطر جسمه بضربة من ساعدي .

وكنت أعلم اني سألقى يوماً بني كَعْبٍ وبني نَهْدٍ في معركة حامية دامية. واولئك قوم يشتدّون في القتال كأنهم النار ، ويرتدون الدروع من حديد ومن جلد متين ... وهكذا يقبِلُ كل امرىء على المعركة بما هيّأه لنفسه من العدة والسلاح .

١ الكبش ، هنا : القائد في الحرب . ٢ ينذرون دمي : يقسمون ان يقتلوني . اشد : اهجم . ٣ بوأته : اسكنته، انزلته . ٤ ولا يرد بكاي زنداً : ولا يجدي بكائي شيئاً . ٥ اثوابه : المقصود بها اكفانه . جلداً: صبوراً على المصائب . ٦ اغني غناء الذاهبين : اقوم مقام من يذهب بهم الموت . اعد للاعداء عدا ، اي : أحسب عند لقاء الاعداء كأني عدد من الفرسان ، لا واحد . ٧ شبه نفسه ، اذ بقي وحده في الحياة ، بالسيف الذي لا يوضع معه سيف آخر في قرابه .

حتى اذا رأيت نساءنا قد خرجن منطلقات في الارض الصلبة ، وبينهن امرأتي لميس قد برزت بوجهها الذي يشبه بدر السماء المشرق ، وهي كاشفة لهول الموقف عن محاسنها التي تسترها في العادة ، أيقنت ان الامر جدٌّ لا لهوٌ فيه ، وان ذلك هو مجال الفروسية والبأس ، وانني مضطر ان انازل قائد الاعداء فما يليق بي ان انازل سواه . فقصدته وبادلته طعناً بطعن وضرباً بضرب . والاعداء يقسمون ان يسفكوا دمي اذا لقوني ، وأقسم انا اذا لقيتهم ان احمل عليهم بكل ما اوتيت من بأس وشجاعة ودربة في القتال .

فاذا خرّ في المعركة منا قتيل – وكثيراً ما يُصرع لي اخوان صالحون – عُدت في آخر المعركة فحفرت له لحداً بيديّ وكفنته ودفنته ، والجزع والهلع لا يعرفان الى قلبي سبيلاً ؛ لاني خُلقتُ – يوم خُلقتُ – رابط الجأش صبّاراً على المصائب ، أعلم ان ليس يجدي بكائي وعويلي شيئاً على من مضى بهم الموت من اخواني ، بل اني لأجعل قصارى همي ان أقوم مقامهم ، وان اكون معدوداً بعشرات الفرسان وان لم اكن غير فارس واحد .

ان الحرب قضت على من أحبهم فخلفتني في الحياة وحيداً ، والسيف في قرابه لا يكون الا فرداً !

•

انشاء ادبي

اكتب انشاء أجب فيه عن الاسئلة الآتية :

ما الاخلاق الرجولية التي يمجدها الفارس الجهلي في هذا الشعر ؟ وهل هي جديرة بان نتخلّق بها اليوم ؟ ولماذا ؟ وأي كان أوقع في نفسك : الكلام المنثور الذي حوى معاني القصيدة ام القصيدة نفسها ؟ ولماذا ؟ وفي أي القطعتين كانت المعاني أوضح لك ، واكثر ترابطاً بعضها ببعض ، وكيف ؟

أشر في خلال انشائك الى أبيات أعجبتك ، او لم تعجبك ، للفظها او لرنتها الموسيقية او لمعناها .

الشعر العربي

نشأته . بناء أوزانه . بعض أشكاله

مراحل مفقودة في نشأة الشعر العربي . ـ اذا عدنا نتأمل نظم القصيدة التي قص فيها الاعشى خبر وفاء السموأل ، كفانا ابسط المعرفة بالشعر العربي ان نشهد انها على صورة شعرنا الذي نقرأه اليوم . فهي مقسمة ابياتاً كتقسيم الشعر المعاصر ، وهي تجري مثله على وزن وقافية . ومتى دخلنا في درس الوزن وجدنا ان اساسه في هذه القصيدة لا يختلف عنه في الشعر المعاصر . بل وجدنا ان البحر الذي نظمت عليه القصيدة ما زال هو وباقي الابحر القديمة ، مقياساً لنظم شعرنا اليوم .

فما معنى هذا ؟ معناه ان **الشعر العربي ، شأنه شأن اللغة العربية ، كان قد جاز طور نشأته الاولى في القرن السادس الميلادي .** ولما كانت نشأة فن كالشعر لا تقع طفرة بل ينبغي فيها التدرج ، فلا ريب ان المرحلة التي بلغها الشعر العربي في الجاهلية ، قُبيلَ الاسلام ، قد سبقتها مراحل من التطور استوى في اثنائها نظم الكلام على وزن وقافية ، وتم تقسيمه الى ابيات .

على ان تلك المراحل التمهيدية مفقودة كلها من علمنا . ولكن لبعض الباحثين تقديرات حاولوا ان يفسروا بها كيف نشأ نظم الشعر العربي ، فزعموا ان العرب انما استنبطوا الوزن اول الامر من خَطو الابل وهي تسير سيراً وئيداً في الصحراء .

اثر الموسيقى والغناء والرقص في نشأة الشعر عامة . ـ غير ان الذي نعلمه من تاريخ نشأة الشعر عند الامم ان ظهوره قارن الموسيقى وما يصحبها من غناء ورقص . تُبنى الموسيقى على الايقاع المنظم . وعلى الموسيقى يبنى الغناء . ولكن لا بد في الغناء من كلام يُغنّى. فينبغي اذاً لهذا الكلام ان يكون لفظه طائعاً لتقطيع يأتلف مع الايقاع الموسيقي. وكذلك الرقص اذا رافقه انشاد من الراقص ، او ممن يعزفون له ، او من الجانبين معاً ، فلا بدّ فيه من كلام ينشد ويوافق تقطيعه كُلّاً من الايقاع الموسيقي ومن حركات الراقص.

واذاً، فمن هذا الكلام الذي يوافق تقطيع لفظه الايقاع الموسيقي فيصلح لان يغنّيه المغني ولأن يُنشده الراقص ، كان مبدأ نظم الشعر وبالتالي مبدأ الوزن والقافية .

وهذا هو السبيل الذي اتخذته نشأة نظم الشعر في تاريخ الشعوب وفي تاريخ العرب ايضاً. وأقرب دليل على هذه الصلة بين فن الشعر في نشأته وبين الموسيقى وما يقارنها من الغناء والرقص، ان الامم تفرد في لغاتها لتلاوة الشعر لفظاً مخصوصاً بالالحان. فاليونان والرومان يقولون: «غنّى شعراً»، كما يقولون: «غنّى لحناً». والعرب يقولون: «أنشد شعراً» ويقولون: «أنشد لحناً». وأنشد الشعر بمعنى غنّاه او تلاه على نمط الغناء. وقد أسلفنا ان الاعشى كان يغني شعره حقاً، وكان حسن الصوت، فسمّي صنّاجة العرب. وكان الشاعر المخضرم حسّان بن ثابت يقول:

تَغَنَّ بالشِّعْرِ، إمّا كُنْتَ قائِلَهُ، إنَّ الغِناءَ لهذا الشِّعْرِ مِضْمارُ [١]

الموسيقى والغناء والرقص وظهور اول شعر عربي. — على ان علمنا بما كان للعرب في الجاهلية من موسيقى وغناء ورقص ضئيل جداً مضطرب جداً. ومن هنا كان مصدر كثير من الغموض الذي أحاط بنشأة الشعر العربي. ومع ذلك فنحن نعلم ان العرب كان لهم شيء من ايقاع موسيقي، وكانت لهم معازف[٢] مثل الطبل والدف والصنج والعود. ونعلم انهم كانوا يطوفون باصنامهم للعبادة، ويُنشدون أصنامهم او يناجونها بما يشبه الانشاد، وان كُهّانهم كانوا ينشدون اتباعهم او يقرأون عليهم بما يشبه الانشاد. وكذلك نعلم ان العرب كانوا يُغنّون ابلهم في سيرها، وغناؤهم هذا هو الحداء، ويغنون اطفالهم وهم يُرقّصونهم. ونعلم ان فارسهم كان ينشد ساعة ينبري للمبارزة، او يشتبك بالمعركة، وان نساءهم كن ينشدن ويرقصن لتحميس الفرسان في الحرب.

نعلم هذا كله، ونعلم ان كلاماً عربياً قد نشأ مُتّصلاً بهذا كله، ومرتجلاً ارتجالاً[٣]، منه ما يقال له السَّجْع — او سجع الكهّان بالتخصيص — ومنه ما يقال له **الرجز**. فأما السجع فقد مرّ ذكره وهو الكلام المقفّى الا انه غير موزون. واما الرَّجَز: فهو كلام مُقيّد بالقافية ومنظوم على وزن. ومن العلماء من يعتبر ان الرجز قد تطوّر من السجع. لكن مهما يكن من امر، فأكثر العلماء مجمعون على ان الرجز هو اقدم الابحر العربية، ويميزون الشعر المنظوم عليه من سواه من الشعر، ويُسمّون صاحبه راجزاً ورجّازاً ورجّازة،

١ اما، اصلها: ان ما. وما زائدة. مضمار: مجال، ميدان. يعني: اذا كنت قائلا الشعر فتغنّ به تغنياً، فالغناء مجال الشعر. ٢ المعازف: آلات للعزف اي الضرب الموسيقي. ٣ الارتجال: هو قول الشيء دون سابق اعداد له كتابة.

والقطعة منه ارجوزة (جمعها اراجيز) .

وفي المنتخبات ، في آخر هذا الفصل ، امثلة من الرجز تشتمل على اراجيز قصيرة أثِرت عن العرب في حدائهم بالابل،وفي غنائهم لترقيص الاطفال ، وفي انشادهم في مواقف القتال.

بناء الاوزان العربية . — وكان حقاً ان ننتقل فوراً الى درس هذا البحر ، نعني الرجَز الذي نُظم عليه اول شعر عربي . لكن لا بد لنـــا من ان نُوجِّه ذلك لنمهّد له بدرس القاعدة في بناء الاوزان العربية عامة .

اسلفنا ان مبدأ نظم الشعر ، وبالتالي : مبدأ الوزن ، كان من هـذا الكلام الذي يمكن تقطيع لفظه بحَسَب الايقاع الموسيقي ، فيصلح لغناء المغني ولانشاد الراقص .

ومعلوم ان ادق اجزاء اللفظ العربي هو الحرف ، وان الحروف يستحيل النطق بها لولا الحركات التي تتخللها السكنات ، ولكن شرط ان لا تتوالى سَكْنَتان .

فعلى الحركات والسكنات ، اذاً ، بني تقطيع الكلام العربي في النظم ، وبنيت الاوزان الشعرية ليُنْظم عليها الكلام .

وكما اصطلح علماء الصرف على لفظ « فَعَلَ » ،فاشتقوا منه القياسات لاغراضهم الصرفية، كذلك اصطلح علماء العَروض (وهو علم أبحر الشعر)على هذا اللفظ نفسه فاشتقوا منــه القياسات لحاجاتهم وسمّوها « تفعيلات » او « تفاعيل » (مفردها : تَفعيل) ،وركّبوا من هذه التفعيلات الابحر الشعرية ، وقالوا : فعّل هذا الكلام المنظوم اي : قطّعه على تفاعيل البحر ، وانظر صحّته او خلَله في مطابقة الوزن .

وعدد هذه التفاعيل ثمانية ، وهي : فَعُولُنْ . مَفَاعِيلُنْ . مُفَاعَلَتُنْ . فَاعِلاتُنْ . فاعِلُنْ . مُسْتَفْعِلُنْ . مُتَفَاعِلُنْ . مَفْعُولاتُ .

وكل تفعيل منها ليس في الواقع سوى عبارة عن مجموعة من الحركات والسكنات مُرتّبة على نظام معيّن ، لان العمدة في بناء الاوزان العربية انما هي — كما قلنا — على الحركات والسكنات .

كيفية تفعيل الكلام . — أما تفعيل الكلام ، اي : تقطيعُه على هذه التفاعيل ، فانما يكون بان نرى هل يتوافق ترتيب حركات اللفظ وسكناته مع ترتيب حركات التفعيل وسكناته . ولا عبرة بان تختلف الحركةُ بين ضمة وفتحة وكسرة ، **فالحركة تقابل الحركة**

اية كانت .

ان « فعولن » مثلاً تبدأ بحركتين متعاقبتين ، يليهما سكون ، فحركة، فسكون. فكل لفظ يبدأ بحركتين ، يليهما سكون فحركة فسكون ، يكون منطبقاً على "فَعُولُنْ" . ف« كَلامٌ » مثلاً و « لماذا » و « يُحِبُّ » و « جَمِيلٌ » و « أماني » و « بقايا » و « عُلُومٌ » و « صَبُورٌ » ، كلها بقياس « فَعُولُنْ » .

والكلام حين يُقطَّع على تفاعيل الوزن لا يُعتَدّ بصورته في الكتابة ، وانما يُعتد بلفظه . وعلى هذا يعني كل تنوين سكوناً في آخر اللفظة ، ويعني التشديد سكوناً وحركة. وتُسقَطُ همزة الوصل من كل حساب اذا اتصل الكلام . وتسقط أل التعريف جملةً ، ويحل محلها تشديد اذا اتصل الكلام وكانت أل داخلةً على حرف شمسي . همزة الوصل في قولنا : « بزغ الفجرُ » لا يؤبه لها عند التفعيل ، بل يقطّع الكلام كأنه « بَزَغَلْفَجْرُ ». ومثلها : أل التعريف لا يُؤبَهُ لها في قولنا : « طلع الصباحُ » ، بل يقطّع الكلام كأنه « طَلَعَصَّباحُ » .

والحركة ، في آخر البيت ، تعتبر حركة وسكوناً ، لان الانشاد يقضي بالاستراحة عليها واشباعها في اللفظ . فاذا قرأنا مثلاً قول ابي تمام من شعراء العصر العباسي الثاني :

كم مَنْزِلٍ في الأرضِ يألفُهُ الفتى وحنينُهُ أبداً لأولِ مَنزِلِ

أشبعنا لفظة القافية فكأنها « مَنزِلِي » . ولو كانت القافية مفتوحة ، لألحقنا بها الفاً تظهر في اللفظ والخط معاً. فلفظنا وكتبنا: «مَنزِلا». وتسمى هذه الالف المزيدة الف الاطلاق.

ولأن المعتاد في لفظ « أنا » ان تخطف الالف من آخره خطفاً ، فقد رجح العروضيون اهمال هذه الألف في النظم ، بحيث تُعتبر لفظةُ انا حركتين متتابعتين فقط .

ولكن لأن ضمير الغائب للمفرد المذكر لا يُخطَفُ في اللفظ اذا جاء متحركاً، مسبوقاً بمتحرك، فقد اوجب العروضيون في هذه الحالة ان يُعتبر في النظم كأنه حركة يليها سكون. فاذا كان هذا الضمير متحركاً وما قبله ساكناً اجازوا اعتباره حركة وسكوناً او حركة فقط . فلفظ : « كتابُهُ » معتبر في النظم « كتابُهُو » باشباع الهاء . الا ان لفظ « بقاياهُ » يجوز اعتباره على ما هو عليه ، ويجوز اعتباره « بقاياهُو » .

وهكذا يتضح ان **العمدة في تقطيع الكلام المنظوم انما هي لفظ الكلام اي : صورته في النطق لا صورته في الكتابة.**

وليس ضرورياً في الكلام المنظوم ان تُوافِق نهايةُ كلِّ تفعيل نهايةَ لفظة تامة، بل

كثيراً ما تُجزأ اللفظةُ الواحدة بين تفعيلين في الوزن ، او كثيرا ما لا تكفي اللفظة الواحدة لتتميم التفعيل ، فنستعير له جزءاً من اللفظة التالية .

لِنُقطّعْ مثلاً قول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى :

وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لا يُكَرَّمِ

وهو من البحر المُسمّى الطويل ، وتفاعيله : فَعُولُنْ مَفاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفاعِلُنْ . وتقطيعه على ما يأتي :

ومن لا : فعولن

يكرم نف : مفاعيلن

ـسه (و) لا : فعولن

يكرم (ي) : مفاعلن

ولننظر ما صنع التقطيع بلفظة « نَفْس » ، فقد قُسِمَت بين تفعيلين ، فوقعت النون والفاء نصيب « مفاعيلن » ، والسين نصيب « فعولن » .

تغيرات في التفاعيل . — والتفاعيل الثمانية التي ذكرناها ليست ثابتة كل الثبات على صُوَرِها الاصلية في جميع البحور ، بل يصح ان تطرأ عليها تغيرات معينة . وتسمى هذه التغيرات **الزحافات والعلل** . فهنا متحرك يُسكَّن ، وهنا ساكن يُحذف ، وهنا متحرك او ساكن يُزاد ، وهلمّ جراً . يجوز في « فعولن » مثلاً ان يُحذف سكونها الاخير فتصير « فعولُ » ، ويجوز في « فاعلن » ان تصبح « فَعِلُن » بحذف سكونها الثاني ، وفي « مفاعلتن » ان تسكن لامها فتصير « مُفاعَلْتُن » اي « مفاعيلن » . ويجوز في « متفاعلن » ان تنقلب « متفاعلاتُنْ » ، بزيادة متحرك وساكن على آخرها . والمبدأ في تسويغ هذه التغيرات انها تخفف عن الشاعر ضغط قوالب الوزن ، ولا يختل معها الايقاع الذي بُني عليه البحر .

خلاصة في ابحر الشعر العربي . — واذاً فمن هذه التفاعيل رُكِّبت موازين الابحر الشعرية . ركب بعضها من ترديد تفعيل واحد او تفعيلين ، في مصراعين ، اي : شطرين متساويين يدعى اولهما : **الصدر** ، وثانيهما **العجز** . وعجز البحر يكون دائماً تكريراً حرفياً لصدره او تكريراً فيه تعديل طفيف في الضرب وهو التفعيل الذي يشتمل على القافية .

وفي العربية ستة عشر بحراً تاماً . ويكون البحر تاماً اذا ذُكرت تفعيلاته بكاملها ،

فاذا استغني عن شيء منها قيل ُجزىء البحر وهذا مجزوؤه . ولا تخلو الابحر الرئيسية من ان يكون لها مجزوء او اكثر من مجزوء دائر في استعمال الشعراء. وهكذا يربو عدد الأوزان العربية ، ويتنوّع الايقاع فيما بين بحر وبحر ، وبحزوء ومجزوء . فهذا له ايقاع َفخمٌ جليل ، وذاك ايقاعه عذب رقيق ، وذلك يحمّس والآخر ُيشجي .

وبحسب هذا الايقاع وانواعه ، اختيرت الاسماء لهذه البحور ، فدل ذلك على صلتها الوثقى بالموسيقى والغناء . فقيل بحر « الهَزج » مثلاً ، من قولهم : هزج المغني ، اي ترنم . وقيل بحر « الرمل »، والرمل اسم للحن موسيقي .

وعلى حسن اختيار البحر الذي يتناسب ايقاعه مع المعنى والموضوع، تتوقف ناحية من نواحي توفيق الشاعر وعبقريته .

استنباط علم العروض . — ولقد كان شعراء العرب في الجاهلية ، وفي عصر النبوة والراشدين ، والعصر الأموي ، يستعملون أكثر هذه البحور، ويستعملون بعض مجزوءاتها، واعتمادُهم في ذلك لا على العلم المُدوّن المُنظم ، بل على السماع والسليقة .

فلما كان العصر العباسي الاول ، انصرف عالم بَصْريّ اسمه: **الخليلُ بن احمدَ** ، الى وضع علم مخصوص بالاوزان الشعرية، استنبط اصوله من نصوص الشعر القديم ، وسماه **العروض** ، وكان عارفاً بالموسيقى ، فأعانه ذلك على عمله .

ومما ُيروى عنه انه تَنَبَّه الى هذا العلم بما سمعه في احدى سِكَكِ البصرة من وقع مطارق الحدادين والنحاسين. فقد لحظ كيف تختلف أصوات الضرب بالمطارق: « دَقْ، دقْ» (حركة فسكون يتكرران) و « دَقَقْ ، دَقَقْ » (حركتان فسكون تتكرر) الخ ... فقال لأضعن على هذا المعنى علماً غامضاً . وجعل في منزله ُيكثِرُ من ترديد : « فَعولُن ، ومُسْتَفْعِلُن » وهلم، حتى ظن ولدُه انه ُجن . فخاطبه الخليل ببيتين :

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عذرتَني ... أو كنتُ أجهلُ ما تقولُ عذلْتُكا[١]
لكن جهلتَ مقالتي ، فعذلتني ... وعلمتُ أنك جاهلٌ ، فعذرتكا !

واستطاع الخليل ان يستخرج خمسة عشر بحراً ، ثم استخرج عالم آخر ، اسمُه الاخفش ،

١ عذلتك : لمتك .

البحرَ السادس عشر .

وشعراءُ العرب الى يومنا هذا ينظمون على هذه البحور نفسها تامة او مجزوءة ، الا انهم منذ ابتداء الاعصر العباسية والاندلسية أكثروا من التفنن في مجزوءاتها .

وسوف نتدرج في معرفة اشهر هذه البحور ومجزوءاتها في أثناء هذا الكتاب. ولنبدأ بالرجز .

بحر الرجز . — وهو — على ما ذكرنا — أقدمُ الأبحر العربية. **وبناؤه على «مُسْتَفْعِلُن» مكررة ست مرات** اذا كان تاماً ، ثلاثاً في الصدر وثلاثاً في العجز، على هذه الصورة :

مُسْتَفْعِلُنْ مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

والتغيرات الجائزة في تفاعيله كثيرة جداً حتى سُمّيَ « حِمارَ الشعر » لانه يطيق ما لا يطيقه بحرٌ غيره من التصرف به .

فيجوز في كل من « مستفعلن » ان تصير مُتَفْعِلُنْ (أي : مَفاعِلُن) ، وأن تصير «مُسْتَعِلُنْ» (اي : مُفْتَعِلُنْ) ،وان تصير مُتَعِلُنْ .ويجوز في مستفعلن التي هي ضرب البيت ، اي ختامه ، ان تحوّلَ الى مَفْعُولُن وفَعُولُنْ .

وفوق ذلك يجوز جَزْءُ هذا البحر بحذف « مستفعلن » واحدة من صدره ومن عجزه ، فيصبح وزنه :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

قال أبو العتاهية ، وهو من شعراء العصر العباسي الاول :

ما انْتَفَعَ المرءُ بِمِثْلِ عَقْلِهِ وخَيْرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فِعْلِهِ [١]

وتقطيعه :

ما انتفع ال (مَسْتَفْعَلْ) : مفتعلن

مرء بمث : مفتعلن

ل عقله (ي) : مفاعلن

وخير ذخ : مفاعلن

ر المرء حس : مفاعلن

ن فعله : مفاعلن .

وقالت الاعرابية التي غضب زوجها لانها لم تكن تلد له الا البنات :

١ ذخر المرء : الشيء الذي يكنزه الانسان لوقت الحاجة.

ما لِأبي حَمزَةَ لا يَأتِينا يَظَلُّ في البَيْتِ الذي يَلِينا

تقطيعه :

ما لأبي : مفتعلن

حمزة لا : مفتعلن

يأتينا : مفعولن

يظل في الـ : مفاعلن

بيت الذي : مستفعلن

يلينا : فعولن .

ولقد ذكرنا في اي اغراض وموضوعات كان العربُ الجاهليون ينظمون على هذا البحر . غير ان الشعراء ، منذ ابتداء الاعصر العباسية ، تحولوا به عن تلك الاغراض **فنظموا عليه الحكم والامثال** ، ثم سخروه لموضوعات لا تتحمل شعراً من مثل النحو والطب .

وذكرنا كذلك ان الشعر المنظوم على هذا البحر يُسمى الرجزَ تمييزاً له من سواه من الشعر ، اي : القصيد . وذكرنا ان المنظومة الواحدة من الرجز تسمى الارجوزة .

الارجوزة . — والأُرجوزَةُ شكلٌ من اشكال الشعر العربي . وانما دعوناها شكلاً لان اختلافها عن غيرها من الشعر العربي يتعلق بقالبها فقط .

وتختلف الارجوزة عن سائر الشعر العربي في انها لا تُقسَم مثله ابياتاً ، بل مصاريع ، وتختلف عنه في أمر الوزن والقافية . فهي لا تُنظمُ الا على بحر الرَّجز ، **وهي اما ان تلتزم قافية واحدة في المصاريع كلها ، واما ان تلتزم قافية واحدة في كل مصراعين** ، ثم تتغير القافية في المصراعين التاليين ، وهكذا الى خاتمة الشعر[1] .

واذا نظرت في ما اثبتناه لك من الرجز في منتخبات هذا الفصل وجدته رجزاً يلتزم قافية واحدة في المصاريع كلها . ولنورد لك هنا مثالاً من ارجوزة تتغير القافية فيها بين كل مصراعين . قال ابو العتاهية من ارجوزته التي قطّعنا احد ابياتها :

انَّ الفراغَ والشبابَ والجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلمَرْءِ ، أيُّ مَفْسَدَهْ ![2]

---

١ قد يُنظم الرجز ابياتاً تتقيد كالشعر العادي بقافية واحدة، ولكن ذلك قليل جداً . وفي الآثار العربية شكل من الرجز يسمى المقصورة، وهي ارجوزة تتألف كالقصيدة من ابيات، وتبنى قافيتها على الالف المقصورة.

٢ الفراغ : البطالة . الجدة : كثرة الغنى .

يَا لَلشَّبَابِ المَرِحِ التَّصَابِي ، رَوَائِحُ الجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ !

وبعد ، فمن صفة الاراجيز انها أهون في الارتجال ، واكثر تحملاً لُلحمة الموضوع . ويعود ذلك الى سعة الجوازات في بحرها .

القصيدة . — الا ان الشكل الغالب على الشعر العربي ليس هو الارجوزة بل القصيدة. وشعر القصيدة يقال له **القصيد**، تمييزاً له من الرجز. فالشعر عند العرب الاوائل اما رجز واما قصيد [١] . وظهور القصيد متأخر عن ظهور الرجز في تاريخ الشعر العربي . والقدماء ينسبون اختراعه الى **المهلهل بن ربيعة** بطل حرب البسوس المعروف عند العامة بالزير. ولكنّ ظاهرة كالقصيد ، او كالرجز ، تُستَبعد نسبتها الى شاعر واحد ، لان استكمال شروطها يستدعي زمناً طويلاً من التطور ومن جهد جماعة لا فرد .

والقصيدة ، او المنظومة من القصيد، تأتي موزونة على الابحر كلها من تامة او مجزوءة الا بحر الرجز .

وينبغي في القصيدة التقيّد بالوزن الواحد، وبالقافية الواحدة. ومطلعها يسمى **الاستهلال**، ويستحسنُ فيه ان تطابق قافية صدره قافية العجُز ، وتسمى هذه المطابقة **التصريع** .

ويكون عدد ابيات القصيدة سبعة فما فوق الى اقصى ما يمتد نفَسُ الشاعر وتُلبّيه القافية . فاذا قلّت الابيات عن السبعة سميت مقطعاً او مقطوعة.

وكل بيت في القصيدة ينبغي له ان يكون مستقل البناء عن تاليه . **وقلما استقرت القصيدة العربية على موضوع واحد** . فالشاعر يبيح فيها لنفسه ان ينتقل من غرض الى غرض دونما تمهيد ، وكثيراً ما يجمع في قصيدته الواحدة بين الغزل ووصف الناقة والتغني بمكارم الممدوح. وقد عيب هذا التفكك على القصيدة العربية ، وحاول بعض الشعراء — ولاسيما المعاصرين — ان يجتنبوه .

الموشح . — وهو شكلٌ مولدٌ من اشكال الشعر العربي ، لا أثر له في الجاهلية، او عصر النبوة والراشدين ، او عصر بني امية . وانما ظهر في الاعصر الاندلسية . ولعل عربَ الاندلس اهتدوا الى شكله متأثرين بالشعر الاوروبي الذي لم يكن مقيداً بالقافية تقييد الشعر العربي .

وينفرد الموشح في أنه يقسم أدواراً، لا ابياتاً كما تُقسم القصيدة ، وفي ان **قوافيه تتغير بين دور ودور** .

١ ومنهم من يقول : «قريض» بمعنى القصيد ايضاً . ومنهم من يقول ان القريض اسم آخر للشعر يطلق على الرجز والقصيد معاً .

ولا تنظم الموشحات على الابحر التامة الا في النادر ، بل تنظم على مجزوءات وأوزان مختصرة قد حذف الشاعر من تفعيلاتها وتصرف بها مـــا شاء ، ولم يراع الا غرض اللحن . والموشحات انما قيلت أصلاً للغناء ، وفي موضوعات تناسبُ الغناء من مثل الغزل بالطبيعة وتشوق الاحباب والاوطان .

وكان ممن سبق الى الموشحات الوشّاح[1] الاندلسي المقدّمُ بن مُعـــافرٍ الفريري ، من شعراء القرن العاشر الميلادي (الثالث الهجري) . فهو الذي تفنن فيها ، وهو الذي وضع لها اسم الموشحات تشبيهاً لها بوشاح المرأة[2] لما يتخلله من خطوط تطريز وترصيع ، تماثل ترتيبَ الكلمات وتقسيمها في الموشح .

واشهر اشكال الموشح ان يستهل الشاعر نظمه بمقطع يسمى **اللازمة** ، يتألف من بيت او اكثر . ومنه ينتقل الشاعر الى ادوار الموشح فيجعلها متساوية في عدد الابيات ، ويلتزم فيها قوافي مستقلة ، لكنه ينتهي في كل دور الى **قفلة** يرجع فيها الى قوافي اللازمة .

وقد اثبتنا في المنتخبات ، آخرَ هذا الفصل ، قطعة من موشح صيغ في هذا القالب ، يصف به شاعره مطلع الصباح في يوم ربيعي ماطر .

المخمس .— وهو ، كالموشح ، شكل مولّد في الشعر العربي ، الا انه اقل قيمة من الموشح . وأصل التخميس ان يتناول شاعر قصيدة شاعر آخر ، فيزيد في اول البيت منها ثلاثة مصاريع يتخذ لها قافية تطابق ختام صدر البيت في قصيدة الشاعر التي يُخمّسها ، على نحو ما فعل صفي الدين الحلّي — وهو من شعراء اعصر الانحطاط — بقصيدة السموأل اللاميـــة الشهيرة . قال السموأل :

تُعيِّرُنا أنّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها : ان الكرامَ قليلُ

فقال صفي الدين الحلّي :

وعُصبَةِ غدرٍ أرغمَتها جدودُنا فباتت ومنها ضدُّنا وحسودنا ،
إذا عجزت عن فعلِ كيدٍ يكيدُنا تُعيِّرُنا أنّا قليلٌ عديدُنا
فقلتُ لها : إن الكرامَ قليلُ

ثم رأى الشعراء — ولاسيما المحدثون — ان يجعلوا المصاريع الخمسة كلهـــا من نظمهم ،

[1] الوشاح : الشاعر الذي ينظم الموشحات . [2] وشاح المرأة : ملبوس لها تشده بين عاتقها وخصرها .

ويستعملوا هذا الشكل من الشعر للقصص ، على نحو ما فعل الشاعر المعاصر خليل مطران في قصيدته : « الجنين الشهيد » .

تنبيه في درس الشعر العربي

ونحن بعـد الآن مقبلون على كثير من النصوص الشعرية، لان الادب العربي انما يبدأ بالشعر شأنه شأن آداب الامم الاخرى. فيحسن هنا التنبيه الى ان الشعر العربي، ولاسيما القديم منه ، صعب المتناول. ولذلك كان افضل الطرق لدرسه **حله : اي تحويله الى نثر** ، مع تبسيط الفاظه ومع الحرص على دقائق معانيه وصوره . وقد اتبعنا نحن هـذه الطريقة ما اتسع لنا المجال. ونصيحتنا لمن يمارسون تعليم الادب ان يكثروا من تمرين الطلاب عليها . فبرغم ان الشعر - كما يقول **ابو عثمان الجاحظ** اديب العصر العباسي الثاني- اذا حُوّل ذهب حسنُه وسقط موضع التعجب منه لما يفقد من موسيقى الوزن وغير ذلك من اسرار سحره ، فان حل الشعر العربي ضروري جداً لفهمه ، وليس يمكن الانتفاع بشيء ولا تذوقُه ولا إدراك قيمتِه إلا بان يُفهم أولاً حق فهم.

منتخبات

امثلة من الرجز

حداء عاشق مفارق

هذا عربي وناقته يُجدّان في الصحراء . وقد فارق الفتى حبيبته وعز عليه الفراق ، فهو يحس في نفسه ألمَ الشوق ولذع الحنين . والناقة قد طفقت تبعثُ في سيرها صوتاً رقيقاً أشبهَ بالانين . والمسافةُ طويلة ومشاهد الطريق قلّ ان تتغيرَ في هذا المنبسط من الرمل .

واذا بالعاشق المفارق تشتهي نفسه الغناء ، يُعَبّر به عما يوحشه من الفرقة ، ويحدو بناقته وقد تصوّرها مثله مُفارقةً حزينة وتمنى لو بقي له قلب يُواسيها به . هاكَه يقول :

دَعِ المطايا تَنْسَمُ الجَنُوبا
إنَّ لها لَنَبأً عجيبا [١]
حنينُها وَما اشتكتْ لُغُوبَا [٢]
يشهَدُ أن قد فارقت . حبيبا
ما حملت إلّا فَتًى كئيبا
يُسِرُّ مِمّا أعلَنَتْ نَصِيبا [٣]
لو ترك الشَّوْقُ لَنا قُلُوبا
إذاً لآثَرْنا بِهِنَّ النِّيبا [٤]
إنَّ الغَريبَ يُسْعِدُ الغَريبا !

١ المطايا : جمع المطية وهي ما يركبه الراكب من ناقة او غيرها . تنسم : تتنسم ، تتنشق بمنخرها . الجنوب : الريح التي تقابل ريح الشمال . نبأ : خبر . ٢ لغوب : تعب . ٣ يُسِرّ : يضمر ، يخفي . ٤ النيب : النياق . ونون الاناث في « بهن » راجعة الى القلوب . وآثرنا بهن النيب : أعطينا قلوبنا للنياق مساعدة لها على ما تكابد .

ام تغني بنتها

تزوج عربي يُدعى أبا حمزة ، فأكثرت له امرأته من ولادة البنات . ولم يكن العرب ، ولا سيما الجاهليون ، يرغبون في البنات بل ربما وأدهن اهلُ الجاهلية ، أي : دفنوهن عند الولادة وهن في قيد الحياة .

ولذلك حنق ابو حمزة على امرأته . فلما ولدت له آخرَ بنت ، استقلَّ هو بخيمة ونبذها في خيمة هي وبُنَيّتها . فجعلت تغني طفلتها بهذا الرجز اللطيف وترفع صوتها لتُسمع الزوج الحانق :

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا !
يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبانَ أن لا نلِدَ البنينا ،
تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخُذُ ما أُعطِينَا

حاتم طي يستوقد عبده نارا للضيوف

كان حاتم الطائي شاعراً فارساً في الجاهلية ، اشتهر بكثرة العطاء وحُسن الضيافة . وهو عنوان الجود عند العرب ، وبه يُضرَبُ المثل فيقال : كريم كحاتم طي .

يروى عنه أنه كان اذا أقبل شتاء البادية ، وبرَدَ الجو وعَصفتِ الريح ، أمر عبداً له ان يقوم ليلاً على باب خيمته فيُضرمَ ناراً عظيمة لتهدي اليه الضيوف ممن يضلون الطريق وينهكهم الجوع والعطش . وكان يستحثّ عبده على إضرام النار بهذا الرجز :

أَوْقِدْ فإنَّ اللّيلَ ليلٌ قَرٌّ ١
والريح يا واقِدُ ريح صِرٌّ ٢
عسى يرى نارَكَ من يَمُرّ
إن جَلَبتْ ضَيفاً فأنتَ حُرّ

١ الليل القرّ : الليل الشديد البرد . ٢ الريح الصرّ : الريح العاصفة الباردة .

نشيد نسائي لمواقف القتال

في اواخر العصر الجاهلي ، حوالى سنة ٦١٠م ، وقعت بين بعض القبائل العربية والفرس معركة سميت بذي قار ، وذو قار موضع في العراق على مقربة من مدينة الكوفة . حالف النصر القبائل العربية في ذلك اليوم ، فكان اول نصر أحرزه العرب على الفرس .

وقبل نشوب القتال احتشدت القبائل العربية وجعل بعضها يحضّ بعضاً على الصبر والاقدام والتضحية . وقامت النساء بدور كبير في تحميس الرجال . وهذا رجزٌ كان ينشده النساء في ذلك الموقف يقلن به لأزواجهن : اذا هزمتم العدوّ عانقناكم حباً لكم ، واعتزازاً بكم ، وفرشنا لكم الوسائد تستريحون عليها . لكن اذا هزمكم العدوّ فارقناكم وقد كرهناكم . فليعلم كل هارب ان امرأته طالق ، وان نصيبه العار الدائم .

نَحنُ بَنَاتُ طَارِقْ ،
نَمشي عَلى النَّمارِقْ [١]
مَشْيَ القُطِيِّ البَارِقْ ،
المِسْكُ في المَفارِقْ [٢]
والدرُّ في المَخانِقْ [٣]
ان تهزِمُوا نُعانِقْ ،
ونفرشِ النَّمارِقْ ،
او تُهزَمُوا نُفارِقْ
فِراقَ غيرِ وامِقْ [٤]
عِرسُ المُوَلّي طالِقْ ،
والعارُ منه لاحِقْ ! [٥]

١ النمارق : جمع نمرقة ، الوسادة . ٢ القطيّ ، جمع قطيّة وهي القطاة الصغيرة ، طائر يشبه الحمام ويضرب به المثل في حسن المشية . والبارق : المتلألئ . والمفارق : مفارق الشعر في الرأس. ٣ المخانق : يقصد بها الاعناق . ٤ غير وامق : غير محب . كاره . ٥ قد ذكر هذا الرجز على ألسنة النساء العربيات في معارك كثيرة في الجاهلية . ويظهر انه كان مما تتناقله الافواه كالاناشيد العامة اليوم .

ردوا علي الخيل !

وفي اواخر القرن الخامس الميلادي ، نشبت بين قبيلة بكر وأختها تغلبَ حرب البَسُوس ، كان سبب نشوبها أن جساس بن مرة البكري قتل كليباً سيد تغلب . وقد رجحت أولَ الامر كفةُ التغلبيين . فعزم البكريون على ادخال نسائهم في المعركة ، فزودوهن بالماء وسلحوهن بالهراوات ، وأوصوهن ان يطفن ساحة الحرب فمن وجدن من البكريين جريحاً سقينه ونعَشْنَه ، ومن وجدن من التغلبيين جريحاً أجهزن عليه بالهراوات . وجعل البكريون علامةً بينهم وبين نسائهم أنْ حلقُوا رؤوسهم . فسُمِّي ذلك اليومُ يومَ التحاليق (أو تحلاق اللمم) . ولكن كان من البكريين فارسٌ اسمه جَحدَر قصيرٌ ، دميمُ الخلقة على ما به من بأس وشجاعة ، إلا أنه حَسَنُ الشَعْر . فكره أن يحلقوا شَعرَه ويشوّهوا به . فانشد قومه هذا الرجز قبل المعركة :

قد يَتِمَتْ بِنتي وآمَتْ كَنَّتي[1]
وشَعِثَتْ بَعْدَ الدِّهَانِ جُمَّتي
رُدُّوا عليَّ الخيلَ إن ألَمَّتِ ،
إنْ لم أُناجِزْها فجُزُّوا لِمَّتي[2]
قد عَلِمَتْ وَالِدةٌ ما ضَمَّتِ
ما لَفَّفَتْ في خِرَقٍ وشَمَّتِ
اذا الكُماة بالكُماة التَفَّتِ
أَمُخْدَجٌ في الحربِ أم أتَمَّتِ[3]

يقول : فلتحسب بنتي نفسَها بعد اليوم يتيمةً ، ولتحسب زوجي نفسَها بعد اليوم ارملة ، وليملأ شعري الغبار بعد الطيب . دعوا خيل العدو تكرّ عليّ اذا طلَعت ، فان لم أعاجلها

١ كنتي : يقصد بها امرأته . آمت : اصبحت أرملة ، واستعمل هنا صيغة الماضي لاعتباره أن ما سيقع قد وقع . وشعثت : اغبرت . الجمة : مجتمع شعر الرأس . ٢ اناجزها : اعاجلها بالقتال .
٣ مخدج : ناقص .

بالقتال فعندئذٍ جزّوا شعري... منذ يوم ضمتني فيه امي طفلاً ولفّتني بالخِرق وشمّتني، لقد كانت تعلم انها ولدت فارساً تاماً لا نقص فيه حين يشتبك الفرسان بالفرسان.

واستطاع جحدر ان يستنقذ شعره بهذا الرجز، وبرّ بعهده في القتال. ولكن شَعرَه جرّ عليه البلاء، لانه سقط جريحاً في المعركة فلم تعرفه البكريات فأجهزن عليه بالهراوات.

وغى! وغى!

وفي ذلك اليوم نفسه، يوم تحلاق اللمم بين البكريين والتغلبيين، برزت بنتا الفند الزماني، وهو أحد أبطال بكر، فجعلتا تنشدان الرجال هذا الرجز الحماسي:

وغىً وَغىً، وغىً وغى! [1]
حرّ الحِرارُ والتظى، [2]
ومُلِئَتْ منهُ الرُّبى، [3]
يا حبّذا المحلّقون بالضحى! [4]

تقولان: هي الحرب! هي الحرب! لقد اشتعلت بها الارض وملئت الربى وهج نار. فنعْم ابطالنا الذين غدوا الى حلق شعورهم (استعداداً للقتال).

خل سبيل الحرة

وهذا رجزٌ جاء على لسان ربيعةَ بن مكدم، أحد فرسان العرب المعروفين في الجاهلية. وكان ربيعةُ يصحب يوماً ظعينةً، أي: امرأة في هودج، فتصدى له فارسٌ يريد أخذها، فصرعه ربيعة وهو ينشد:

خَلِّ سبيلَ الحُرَّةِ المنيعهْ
إنّك لاقٍ دونها ربيعه

١ الوغى: الحرب. ٢ حر: اشتدّ حرّه. الحرار: الارض ذات الحجارة السوداء النخرة كأنها محروقة بالنار. والتظى: التهب. ٣ الربى: جمع ربوة، الارض العالية. ٤ المحلقون: الذين حلق شعرهم. والضحى: اول النهار.

في كَفِّهِ خَطِّيَّةٌ مُطيعه [١]
أَوْ لا ، فَخُذْها طَعْنَةً سريعه !
الطَّعْنُ مِنّي في الوغى شريعه !

تمرين

عيّن في هذه المنتخبات الارجاز التي نُظمت على « التام » من الرجز ، والتي نُظمت على المجزوء .

١ خطية : رمح . ومطيعة : لينة .

مثال من الموشحات

قابل الصبح الدجى فانهزما

من أروع المشاهد في الطبيعة مشهد النهار كيف يولد من الليل ، ومشهد النور كيف ينبلج من الظلمة ويغمرها .

وقف لدى هذا المشهد شاعر من اهل المغرب يُعرف بابن خَلّوف ويبدو ان الفصل كان ربيعاً ، وان الصباح رافقه بردٌ زاد في جلاء الافق ، ومطر زاد في رونق الارض المكسوة زهراً . فوصف ابن خلوف ذلك المشهد الرائع في موشح له . وأجمل ما في موشحه صورة الصبح « وقد مدّ يداً بيضاء يحا بها احاديث الليل في لوح النهار » ، ثم صورة الفجر « وقد نادى في الشرق : هيّا ! هيّا ! فأسرع الليل ملتجئاً الى كهف المغرب وتوارى فيه » .

قال ابن خلوف (وقد اشرنا في كتابة الموشح الى كل من اللاّزمة والدّور والقفلة) :

لازمة

قَابَلَ ٱلصُّبْحُ ٱلدُّجى ، فَٱنْهَزَما وَمَحَا بِٱلسَّيْفِ أُفقَ ٱلْغَلَسِ [1]
وَجَلا ٱلْغَيْمَ بِبَرْقٍ رَقَمَا ثَوْبَ دِيبَاجٍ ، بِهِ ٱلجَوُّ كُسِي [2]

دور

نَسَخَ ٱلصُّبْحُ أَحَادِيثَ ٱلدُّجى بِيَدٍ بَيْضَاءَ ، في لَوْحِ ٱلنَّهَارْ [3]
وَلِكَهْفِ ٱلْمَغْرِبِ ٱللَّيْلُ ٱلْتَجا حِينَ نَادى ٱلْفَجْرُ في ٱلشَّرْقِ : بَدَارْ [4]
وَجَلا ٱلصُّبْحُ جَبِيناً أَبْلَجَا ، فَٱخْتَفَى مِنْ نُورِهِ ٱلنَّجْمُ وَغَارْ [5]

قفلة:
وَبَكَى ٱلْقُمْرِيُّ لَمَّا ٱبْتَسَما عَاطِرُ ٱلزَّهْرِ بِثَغْرٍ أَلْعَسِ [6]
وَعَلَى ٱلْخَدِّ بِخَالٍ رَسَما نُورَ بَدْرٍ جَلَّ عَنْ مُقْتَبِسِ [7]

١ المقصود بالسيف : البرق ، شبهه به للمعانه وامتداده . والغلس : ظلمة آخر الليل. ٢ رقم الثوب : حلاّه بنقش . ٣ نسخ ، هنا ، بمعنى : محا . ٤ بدار : هنا ، هلم . ٥ أبلج : مشرق ، مضيء . غار : توارى . ٦ القمري : طائر من الحمام شجي الصوت . والثغر الالعس : هو الفم الذي في شفته سواد مستحسن . ٧ اقتبس النور : اخذ منه .

دور

رَقَمَ ٱلْغَيْمُ عَلَى رُدْنِ ٱلنَّسِيمْ ، بِسَنَا ٱلْبَرْقِ ، طِرَازاً مُعْلَما [١]
وَٱكْتَسَتْ خُودُ ٱلرُّبَى ثَوْبَ ٱلنَّعِيمْ فَزَهَتْ جِيداً وَطَابَتْ مَبْسِما [٢]
فَٱمْحُ بِٱلرَّاحِ دُجَى ٱللَّيْلِ ٱلْبَهِيمْ ، فَبِأُفْقِ ٱلْكَأْسِ خِلْنَا أَنْجُما [٣]

قفلة
وَٱسْأَلِ ٱلسَّاقِي لِمَاذَا خَتَمَا قَهْوَةَ ٱلرِّيقِ بِثَغْرِ ٱلْلَّعَسِ ؟ [٤]
وَزَهَا خَدُّ ٱلرُّبَى فَٱنْسَجَما دَمْعُ عَيْنِ ٱلْعَارِضِ ٱلْمُنْبَجِسِ ! [٥]

١ الردن : مقدم الكم من الثوب . وسنا البرق : ضوؤه . والطراز المعلم : النقش الانيق في الثوب .
٢ خود الربى : يقصد بها الربى البهية المنظر . شبهها بالخود ، اي : بالصبايا الحسان الزاهية الجيد الطية المبسم .
٣ الراح : الخمرة . والانجم في افق الكأس ، اراد بها : حباب الخمرة ، اي : فقاقيعها .
٤ القهوة : الخمرة ايضاً .
٥ انسجم : انصب . والعارض المنبجس هو الغيم الذي ينفجر بالمطر .

فنون الشعر الرئيسية
الملاحم والشعر العربي

قسمنا الادب الى فنيه الرئيسيين : الشعر والنثر .

ثم تكلمنا على الشعر وعلى الاوزان العربية وبعض اشكال الشعر العربي ، ولكننا في اثناء ذلك كله لم نذكر ان الشعر ، وان كان فناً ، فانه يتفرع بدوره جملة فنون ، كل فن منها يتشعب جملة اغراض . وهذه حقيقة من الاهمية بمكان في درس الشعر وفهمه .

الشعر بين قصصي وغنائي وتمثيلي . — وليس ثمة جدال في ان اشهر من بوّبوا فنون الشعر من القدماء انما هم اليونان، ولاسيما فيلسوفهم **ارسطوطاليس** الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، ووضع كتاباً في علم الشعر بعنوان *Poétique*[١] عرفه العرب في الاعصر العباسية وسموه بوطيقيا ونقلوه الى العربية، نقله على الارجح أحد علماء المنطق أبو بشر متى بن يونس، ولكن لا يبدو ان شعراء العرب وكتابهم قد انتفعوا من هذا الكتاب بما يذكر .

قسم ارسطوطاليس الشعر في كتابه هذا ثلاثة فنون رئيسية : **قصصي** *Narrative* **وغنائي** *Lyrique* **وتمثيلي**[٢] *Dramatique* . ومازالَ هذا هو الاس العام المتبع في تقسيم الشعر حتى اليوم .

فلنتعرف بكل من هذه الفنون الثلاثة الرئيسية في الشعر .

الشعر القصصي . — يسمى الشعرُ قَصَصِيّاً اذا كان الشاعر يَروي فيه قِصة .

والقصةُ هذه قد تكون **تاريخية** حصلت بالفعل في موضع وزمان. وقد تكون **موضوعة** اخترعها الشاعر ، أو قد تكون مما نقل الشاعر نقلاً وافرغ في قالب من نَظمه. ثم قد تكون **خُرافية** لا يرتضيها العقل الا اذا اعتبرها رمزاً يخضع لتأويل، كما انها قد تكون **معقولة محتملة الوقوع** . والقصة الخرافية ترمز الى حكمة سائرة تسمى مثلاً .

١ لم يصل الينا سوى جزئه الاول والباقي مفقود . ٢ قصصي ، غنائي ، تمثيلي — هذه الالفاظ الثلاثة بمعانيها اليوم هي من وَضع العصريين ، لان العرب لم يأخذوا قديماً بهذا التقسيم للشعر .

وفي الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، أمثلةٌ من هذه القصص كلها ، عرفنا منها قصة وفاء السموأل من نظم الاعشى ، وهي تاريخية او هي – على الاقل – محتملة الوقوع . وأثبتنا في المنتخبات التابعة لهذا الفصل قصة بعنوان «الضيافة العربية» منسوبة الى الحُطَيْئة الشاعر المُخَضرَم وهي موضوعةٌ ، اخترعها الشاعر وان يكن استلهم فيها محيطه البدوي الصحراوي .

وشفعنا قصة الحطيئة بقصة للنابغة الذبياني يأباها العقل على انها حقيقة ، ولكن يقبلها على انها خرافة ترمز الى حكمة ، فهي مثل .

ثم اثبتنا قصة « حوّاء والحيَّة » لِعَدي بن زيد العِبادي ، وهي مما نقل الشاعر عن التوراة .

على ان هذه القصص كلها ، مع اشباهها مما نصادفه في الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، تشترك في صفة عامة انها تجري الى مدى قصير ، وتدورُ في نطاقٍ ضيق ، تروي حوادث مُفرَدَة ، ولا تشتمل على مركّب من حوادث كبيرة ، خطيرة الشأن ، يمتزج فيها تاريخُ شعب وتقاليده بأساطيره ، وترتدي فيها الحقائق عجائب التخيلات . وبعبارةٍ اخرى : ليست هذه القصص ملاحم ، وان يكن في قصة « وفاء السموأل » للأعشى موقف ملحمي الا انه مختصر جداً .

فما هي الملحمة اذاً ؟

الملحمة . – الملحمة شعر قصصي . ولكن القصة فيها تمتدّ وتتشعّب وتُحبك من قصص عدة تروي حوادث عصيبة ، يشترك فيها اشخاص فائقون مدهشون وتدور بمجملها على محور من فكرة جليلة . **فحوادث الملحمة وتجاربها هي في العادة معارك هائلة[١] ، وهي في الاقل محن قاسية ، واشخاصها ابطال فوق البشر ، ومرماها عظة سامية .**

ويكون **للملحمة اصل في واقع التاريخ** ، الا انها تختلط بالاساطير مما ولّدته مُخيّلة شعب وتصطبغ بصبغة الخوارق والاعاجيب .

وتصوّر الملحمة شعباً ومثله ومطامحه وعصراً وعقليته ، واذا كانت ملحمة وثنية صوّرت تدخّل آلهة متعددة في مصائر البشر .

وللملحمة اوج ترتفع اليه في حوادثها . وذلك حين تتأزم حوادثها ويرتبك القوم بحيث لا يعلم احد كيف تنجلي الامور وأي مدارٍ تدور ، وبحيث يتوقف المصير كله على شيء واحد يفلحون فيه او لا يفلحون . وهذا الاوج يكون أقوى ما في الملحمة وأشدّه احتباساً

١ ولذلك سميت الملحمة باسمها . والملحمة مكان يشتد فيه الالتحام ، والمقصود التحام المتحاربين واشتباكهم .

لأنفاس السامع والقارىء .

وبالقياس الى وفرة المادة التي تستوعبها الملحمة ، فانها تكون أطول المنظومات وأرحبها نطاقاً ، ويكون شعراؤها أطول الشعراء نَفَساً واكثرهم اطنـــاباً في تصوير الحوادث ووصف المواقف . وبالقياس الى روعة الموضوع يُشترط في الشعر الملحمي ان يكون جدّيّ المعاني فخم الوقع والتعبير .

• ولما كانت الملحمة قصة فانها **تصاغ بقالب اخباري** على نحو ما فعل عديّ بن زيد في قصيدته « حواء والحيّة » :

سَعَى الرَّجِيمُ الى حَوَّا بِوَسْوَسَةٍ   غَوَتْ بِها وغَوَى مَعْها أبو البَشَرِ !

وهكذا الى آخر القصة .

والقالب الاخباري **يقضي على الشاعر بان يواري شخصه خلف حوادث القصة واشخاصها** . فالحوادث هي التي تظهر مُجسّمة ، والاشخاص المشتركون في الحوادث هم الذين يبرزون ، لا شخص الشاعر ولا حديثه عن نفسه او وصفه لعواطفه الخاصة . وهذا هو **الفرق بين الشاعر الملحمي والشاعر الغنائي** الذي يدور بنا صراحة على محور من ذاته ، ويخاطبنا كثيراً بضمير المفرد المتكلم ، ويدعونا الى الشركة في ما ينتابه من لذة او ألم .

ولكن قولنا ان الملحمة تصاغ بقالب اخباري لا ينفي منها الحوار . فقد يُخاطب البطل نفسه في موقف من مواقف الملحمة ، وقد يُلقي على غيره سؤالاً او يجيبُه عن سؤال . فيورد الشاعر نص خطاب البطل لنفسه ، او نص سؤاله وجوابه لغيره . الا ان الشاعر مُلزم حين يفعل ذلك بان يضع في مقدمة كل نص جملة تفيد من الذي نطق بذلك الكلام ، على نحو ما صنع الأعشى حين وضع جملة « قال » قبل كل حوار دار بين السموأل والقائد الذي ذبح ابنه . فتذكّرْ ذلك ، انه من الاهمية بمكان ، لانه يعني ان الملحمة ايضاً ربما اشتملت على شعر غنائي ، بل هي في الواقع لا غنى لها عن مقاطع من هذا الشعر . فترى فارساً فيهـــا يناجي نفسه بشعر يبثّ به غضبَه او ندمَه لامر من الامور ، او ترى امرأة ترثي قتيلاً عزيزاً عليها ، حبيباً اليها . ويكون ذلك كله من الشعر الغنائي الذي دخل في صُلب ملحمة .

نوعا الملاحم .ــ والملاحم نوعان : الشعبية (او القومية) والمُصْطَنَعَة .

فاما الشعبيةُ فهي اقدم الملاحم ، تنشأ مع العصر الذي تصوّره وتدور فيه حوادثها . وتتألف الملحمة الشعبية مما يُولّده شعب بمجموعه وأحياناً مما ينظمه جيل كامل من الشعراء ، الى ان تتخذ صيغتها النهائية على يد شاعر واحد تُنسب اليه .

والاصل في شعر الملاحم الشعبية ان ينشده الشاعر انشاداً في جمهور من المستمعين ، وان يصحب انشادَه عَزْفٌ بآلة موسيقية .

واما الملحمة المصطنعة فتظهر متأخرة عن العصر الذي تصفه وتجري فيه . ويكون ناظمها شاعراً واحداً لا شك في حقيقته ، قد صنع ملحمته مُقلّداً بها الملاحم الشعبية تقليداً، وهو لم يشهد العصر الذي اختاره موضوعاً لملحمته ولا عرفه الا من خلال الدرس والبحث ، وهو لم ينظم شعره ليُنشَد انشاداً مع عزف بآلة موسيقية ، بل ليقرأه القراء .

وأشهر مثال للملاحم المصطنعة ملحمة الاينياد لفرجيل . فان هذا الشاعر الروماني الذي عاش في عهد اوكتافيوس قيصر بنى ملحمته على مآتي البطل اينياس ، والحقبة التي انتهت الى تأسيس روما ، وعلى اساطير القوم في تلك الحقبة . ولكن في اي عهد صنع فرجيل ذلك ؟ صنعه بعدما كانت روما قد تطوّرت تطوراً عظيماً ، وبعدما كان العصر قد تبدّل غير العصر. على ان عبقرية فرجيل وَقَتْه الاخفاق وان لم تضمن له ابداعاً يضارع به الملاحم الشعبية .

ومثال الملاحم الشعبية الالياذةُ والأوذيسيا اليونانيتان، والرامايانا والمهابهاراتا الهنديتان. وأشهرهن جميعاً الالياذة والاوذيسيا ، وهما ملحمتان شقيقتان تُنسبان الى هوميروس الشاعر اليوناني الذي يقال انه عاش في جاهلية اليونان العريقة ، قبل الميلاد بعشرة قرون .

ومن المستحسن ان نتريّث هنا قليلاً لننظر في الالياذة بشيء من التفصيل ، فنتعرّف بالملحمة معرفة مُطبّقة على هذا الاثر الخالد ، ونطّلع على تُحفة عالمية نقلها شعراً الى العربية عَلَمٌ من الادباء اللبنانيين في العصر الحديث اسمه سليمان البستاني .

نظرة في الالياذة .— مدار الالياذة على وقائع الحرب الضَّروس التي نشبت بين الطروادين واليونان الاقدمين اثناء حصار طروادة . وكانت طروادة مدينة حصينة مُسوّرة من مدن آسيا الصغرى ، فقدّر الباحثون موضعها في جنوبي مضيق هِلاّس[1] وقدّروا زمنها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وسواء أكانت هذه المدينة واقعاً تاريخياً بالذات ، او افتراضاً من افتراضات الخيال؛ فلا شك ان تلك الشواطىء من آسيا الصغرى كانت معمورة في تلك الحقبة النائية ، ثم لا شك ان حرباً دارت رحاها بين أهلها وبين غُزاة طلعوا عليها من الارخبيل اليوناني .

١ مضيق هلاس هو اليوم بوغاز الدردنيل .

وكان لطروادة ملكٌ شيخ اسمه بريام ، له ولدان احدهما : بارِس ، والآخر : هِكتور. فحدث ان انطلق بارس في زيارة لملك مدينة اسبارطة اليونانية. فأكرم ملك اسبارطة وفادته ، ولكن بارس فُتن بهيلانة امرأة الملك لروعة جمالها، فحملها وفرّ بها الى طروادة. فلما سمع اليونان بخطف هذه المرأة الرائعة الجمال ، مع ما في ذلك من اهانة لهم ، حتى هبّوا جميعاً الى السلاح . ووفدوا من كل فجّ في اليونان .واحتشدت النخبة من أبطالهم ورأسوا عليهم أغاممنون شقيق الملك الذي خُطِفت زوجته ، وركبوا البحر من جُزرهم الى آسيا الصغرى فضربوا طوقَ حصار شديد على طروادة .

وكان في جملة ابطال اليونان فَطرُقْل (باترو كلوس) وأوذيسيوس (عولس) وأجاكس وغيرهم ، الا ان اعظمهم جميعاً كان أخيلُ صديق فطرقل الحميم .

وطال الحصار واستمر القتال حامي الوطيس بين الجانبين حتى اتفق لليونان ان سطوا على قرية الى جانب طروادة وغنموا منها الغنائم . وكان في جملة غنائمهم فتاتان جميلتان قسمت احداهما حصة للملك أغاممنون ، والاخرى حصة لأخيل ، ولكن الفتاة التي اخذها أغاممنون كانت بنت كاهن أبولون في معبد القرية التي غزاها اليونان. ورفض أغاممنون ان يُعيد الفتاة الى والدها الذي أقبل يستعطفه ويبذل له الفِدية . فرفع الكاهن صلاة حارّة سمعها أبولون في جبل الاولمب ، وأبولون إله الحرب ، والاولمب مسكن الآلهة . وبغضب ابولون تعس حظ اليونان ، وفشا فيهم الوباء اذ طفق الاله الغاضب يرميهم بسهامه .

فأوحت هيرا امرأة زَفس ، رب الارباب ، الى أخيل ، فقال لزعماء اليونان: لنبحث في سبب هذا الويل الذي يصبه علينا أبولون .

فنهض حكيم وقال : ينبغي للملك أغاممنون ان يُعيد ابنة الكاهن الى إبيها والا ساء مصيرنا ... فامتقع وجه أغاممنون غيظاً وأجاب : يا لك من مُتنبّىء بالسوء ! ولكن ان لم يكن مفر من ارجاع الفتاة فارقتها وأرجعتها الى ابيها. غير اني اطلب لنفسي حصة من الغنائم. فأحضروا لي حصة اخرى سوى الفتاة .

فتصدى له أخيل صائحاً: ومن أين لرجالنا البسلاء ان يُحضروا لك غنيمة في هذا الوقت، والغنائم قد قسمناها كلها ؟ فأعد الفتاة الساعةَ الى ابيها ، ونحن نقسم لك ثلاث حصص او اربع حصص ، حين نفتتح طروادة .

فأجابه اغاممنون : كلا، كلا، يا أخيل . لا تحاول خداعاً ! تريد ان تحتفظ انت بغنيمتك، وتدعوني الى تسليم غنيمتي ! ثق اني لا أتزل عن حقي في حصة من الغنائم . وثق اني حين أعيد فتاتي فسآخذ الفتاة التي قُسِمت لك .

فصاح به أخيل : أيْ صاحب القلب الجشع ! ايها الوقاحة المجلببة بجلباب الملوك ! تهددني بان تسلبني جائزتي التي حققت لي بجهدي ، والتي منحني اياها الجيش ؟ ان أشدّ القتال وأثقله ليقع على عاتقي، ومع ذلك فحين يستولي رجالنا على مدينة فان نصيبي من الغنائم لا يساوي نصيبك. فلأنصرفَنّ عائداً الى بيتي .

فأجابه اغامنون : انصرف ! انصرف ان كنت تشاء . لن تراني جاثياً استعطفك ان تبقى .

فعصف الغضب بأخيل وقلقل حسامه في قرابه ، وهمّ بقتل اغامنون ، ولكن الالاهة أثينا ، ربة الحكمة ، نهته عن عزمه ، فاكتفى بأن زأر بوجه اغامنون : أيها السكير بعينين كعيني الكلبة ... ما أراك ابداً تحمل سلاحك وتنطلق مع رجالك الى المعركة . وأنّى تفعل وليست لك الشجاعة ؟ انك تؤثر ان تقبع في خيمتك وتسلب كل من يجسر ان يجهر بالحق بين يديك . فاسمع هذا القسَم الرهيب : كما ان هذه العصا المقطوعة من غابات الجبال لن تنمو بعد اليوم ولن تورق ولن تفرع ، فكذلك سيأتي يوم تطلب فيه الامة أخيل فلا تجده . وستعجز انت ان تغيث الامة في شيء ، بينما يتساقط ابناؤها امام هكتور الظامىء الى الدم . ولتندمَنّ لانك لم تحترم خير الرجال .

وهكذا أغلظ أخيل في القول لأغامنون ، واعتزل الحرب ، موغر الصدر ثائر النفس ، وترك اليونان لمصيرهم .

وبهذا تبدأ الالياذة ... تبدأ بغضب اخيل فيقول الشاعر :

أُنشدي ربّة الشعر غضبَ أخيل ،
الغضبَ الذي جرّ ويلات لا حدّ لها على الآخيين ، [١]
وقذف الى هاديز [٢] بكثرة من الارواح الباسلة ،
وكثرةٍ من الابطال أهدى جسومهم فرائس للكلاب وجوارح الطير .

وصال هكتور بطل الطرواديين على اليونان ، وأوقع في نفوسهم الرهبة والذعر ، وقتل من ابطالهم نفراً ، فقال اليونان : لا بد لنا من استرضاء أخيل والا محقنا الطرواديون او اضطرونا الى الاقلاع والهزيمة . وانطلقوا الى أخيل في وفد يقنعه بوجوب العودة الى المعركة .

وهنا تبلغ الالياذة اوجها . فقد اصبح الموقف عصيباً جداً ، وكل شيء يتوقف على افلاح

١ هم اليونان . ٢ هاديز : مكان خيالي في الاساطير اليونانية يقابل جهنم .

الوفد في اقناع أخيل ، وما يدري احد هل يقتنع البطل ام يصر على استيائه وعزلته .

الا ان اخيل يقتنع نصف اقتناع ، فيأذن لصديقه فطرقل ان يلبس درعه ويمضي لمنازلة هكتور . ولكن هكتور يصرعه ايضاً . فلا يتحمل أخيل هذا الرزء الجسيم ، وينبري الى ساحة الحرب فيصرع هكتور ويشد جثته الى عربة ويجرها حول اسوار طروادة .

وحزن الشيخ بريام ، ملك طروادة ، حزناً عظيماً على ولده هكتور ، وساءه ان لا تكون جثته بين يديه فيكرمها بما هو حق الميت ، ويقيم فوقها هضبة أو ربوة . وخرج بريام الى اخيل بهدايا ، والتمس منه جثة ولده ، فسلمه اخيل الجثة .

وأقام الطرواديون مناحة لبطلهم أنشدت فيها اندروماك زوجته، وأنشدت امه، المراثي من شعر غنائي بديع .

وهكذا تنتهي الالياذة ولم تستسلم طروادة . ثم تنقضي عشر سنين على حصارها ، ويموت اخيل والمدينة لم تستسلم ، حتى كان سقوطها آخر الامر بحيلة ابتدعها اوذيسيوس (عولس) ، اذ بنى حصاناً خشبياً أكمن في جوفه جماعة من محاربي اليونان ، ثم ترك الحصان في خارج المدينة وامر جميع اليونان فتواروا عن الانظار. فظن الطرواديون في الحصان غنيمة عظيمة، وتوهموا ان الحصار قد رفع عنهم وان اليونان قد أقلعوا بسفنهم . ففتحوا ابواب مدينتهم وجرّوا اليها الحصان ، فاندفع المحاربون من جوفه وسطوا على المدينة. وانضم اليهم رفاقهم فدخلوا طروادة وأحرقوها ودكوها . وقد أصبح هذا الحصان الخشبي الذي ابتكره اوذيسيوس لفتح طروادة مثلاً يُضرب للحيلة التي يؤخذ بها العدو عن طريق التسلل الى قلب صفوفه. وعلى تجارب اوذيسيوس ومغامراته في ايابه الى ارخبيل اليونان، وعلى ما وقع لامرأته بنيلوب في تغيبه ، بُنيت ملحمة الاوذيسيا شقيقة الالياذة .

وهكذا نرى من هذا التلخيص السريع للالياذة كيف تكون قصص الملاحم بطولية اسطورية تمتزج بشيء من التاريخ، ونرى كيف تصوّر شعباً وعقلية عصر، وكيف تجري حوادثها حتى تبلغ أوجاً تتأزم فيه، وكيف تصاغ بقالب اخباري مع اشتمالها على الحوار بين ابطالها وعلى مقاطع من الشعر الغنائي . ثم نرى — اذا كانت الملحمة وثنية — كيف تتدخل الآلهة في مجرى حوادثها .

لم خلا الشعر العربي من الملاحم ؟ — على ان الملحمة — وسواءٌ منها الشعبية والمصطنعة — مفقودةٌ في الشعر العربي القديم. وكان ممن فطِن الى هذا النقص ضياء الدين بن الاثير، أديبٌ عاش في اعصر الانحطاط ، زَمَنَ الدولة الايوبية، ووضع كتاباً في اصول الادب والانشاء

سماه : « المثل السائر في صناعة الكاتب والشاعر » . قال ابنُ الاثير :

« ان شاعرهم (اي : العجم) يذكرُ كتاباً مصنفاً من اوله الى آخره شعراً ، وهو شرحُ قصصٍ واحوال ... كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بِشاهْنامه، وهو ستون الف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس... وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعبِ فنونها وأغراضها ... »

ولقد ظل الشعر العربي خِلواً من الملاحم حتى يومنا ، فبقي هذا النقص ماثلاً في شعرنا الحديث ايضاً وان ظهرت فيه قصائدُ مطولات كقصيدة خليل مطران في الطاغية نيرون وحريق روما . وربما سمّى بعضهم هذه المطولات ملاحم ، الا انها تسمية لا تصح ، فالطول وحده لا يُتمم شرط الملحمة .

ويذهب الباحثون مذاهِبَ شتى في تفسير خلو الشعر العربي من الملاحم . فيقول بعضهم ان ارتكاز الشعر العربي على القصيدة ، وتَقَيُّدَ القصيدة بالقافية الواحدة والوزن الواحد ، قد حكم على الشعر العربي بضيق النطاق وجعل مستحيلاً على الشعراء ان يستوعبوا في هذا النطاق الضيق قصة رئيسية كبيرة وقصصاً تتفرع عنها كالتي تستلزمها الملاحم .

غير ان فريقاً آخر من الباحثين يعتمد على تفسير آخر ، فيقول ان الملاحم وثنية في الاصل ، تتدخل آلهة متعددة في تسيير حوادثها وفي التحكم بمصائر البشر . ويبدو ان العرب الجاهليين الذين وصل الينا ادبهم لم تتملكهم وثنيتهم ، ولم يقم عليها بناء من اساطير ، بحيث توحي اليهم بالملاحم ، حتى اذا ظهر الاسلام قطع السبيل على كل صنيع ادبي تشتم منه رائحة الوثنية . ومما يؤيد هذا الرأي ان الشاعر الفارسي ابا القاسم الفردوسي ، قد لقي عنتاً من شيوخ الدين ، لانه اشاد بابطال من المجوس في ملحمته الشاهنامة . فنظم قصة يوسف وزليخا من قصص القرآن . واقر في قصيدته الجديدة بالذنب على نفسه حين اشاد بابطال مجوسيين في الشاهنامة . غير ان شيوخ الدين لم تصفُ له قلوبهم حتى ليقال انهم امتنعوا من دفنه في مقابر المسلمين .

ولكنْ ثمة فريقٌ ينصرف الى تعليل مختلف لخلو الشعر العربي من الملاحم ، وهو ان العرب قد اعجبوا بأدبهم اعجاباً لا حد له ، واعتقدوه اكمل الآداب وافضلها ، فلما لم يرثوا الملاحم عن الجاهليين لم يكلفوا انفسهم تعمقاً في آداب الامم ولاسيما اليونان ، وبالتالي لم يعرفوا الملاحم معرفةً تذكر ولا وجدوا داعياً يدعوهم للنظم على غِرَارها .

وأخيراً ، نرى من الباحثين من يذهبون الى ان الآداب الساميّة عامة ، وفي جملتها الادب العربي ، لا تُعنى بالملاحم ، ويفسرون ذلك بما توجبه الملاحم من محو شخصية الشاعر

في حوادث القصة واشخاص ابطالها ، والساميون فرديون وشاعرهم غنائي يصدر عن فرديته في كل ما يقول . فهو لا يتحمل محو شخصيته على النحو الذي تقضي به الملاحم .

وهكذا تتشعب مذاهب الباحثين في اسباب خلو الشعر العربي من الملحمة . وهي اسباب تتجاوز المناقشة فيها حدود هذا الكتاب .

على ان الذي لا شك فيه ان تاريخ الشعوب العربية وقصصها يحفل بالمواد التي تصلح لبناء الملاحم . كما ان الرجز المبني على شطرين شطرين ، يشتركان في قافية واحدة ، يتسع لما يشاء الشاعر من اطالة في النظم ، ومن تسلسل في الموضوع الواحد ، وبالتالي يتسع للملاحم ويطاوع الاسلوب القصصي خير مطاوعة .

ومن الشخصيات المهيأة في التاريخ العربي واساطيره ، لان تكون موضوع ملحمة : شخصية الشاعر البطل عنترة بن شداد العبسي ، أبعد الجاهليين صيتاً وأحبهم الى الشعب . والواقع ان الادب العربي لم يخلُ من استغلال هذه الشخصية ، النادرة المثال ، لمحاولة خلقٍ ادبي وان يكن فجاً . وهكذا وُجدت القصة الشهيرة بقصة عنترة ، وسنعود الى ذكرها . وبعض الباحثين يُسمّيها ملحمة العرب ، على انها ليست بملحمة ، بل قصة حب وفروسية تُعدّ في الفن المُسمّى بالانكليزية *Romance* .

مظاهر ملحمية في الشعر الجاهلي . — ولكن اذا ثبت خُلُوّ الشعر العربي من الملاحم التامة ، فلا يجوز الحكم بأنه خلا من مظاهر ملحمية ومن مقاطع تصلح جداً للمواقف الملحمية .

فالأبيات الجاهلية التي روى فيها الاعشى خبر وفاء السموأل هي من معدن الشعر الملحمي ، ووجه القرابة بينها وبين الشعر الملحمي أنها تصوّر ضرباً من بطولة نادرة ، وان نظمها فخم العبارة فخم الوقع . الا أنها تبعد جداً عن ان تكون ملحمة بمقدار ما تبعد الصَدَفة المملوءة ماء عن ان تكون بحراً . فلقد جارت هذه الابيات على قصة طويلة ، او تحتمل ان تكون طويلة ، فقلّصتها تقليصاً شديداً ، ثم لم تصف الموقف العصيب بين السموأل والقائد الذي ذبح ابن السموأل الا وصفاً اقتُضِب كذلك بشدة وبعنف ، على ما فيه من روعة .

ومما يجري في سياق شعر الاعشى في وفاء السموأل قصيدةُ عديّ بن زيد العباديّ التي روى فيها قصة « حواء والحية » الشهيرة في التوراة ، وهي قصة خليقة بان تكون من قصص الملاحم لولا ان الشاعر قلّصها ذلك التقليص الشديد وأسرع فيها هذا الاسراع الخاطف . (انظر المنتخبات في آخر هذا الفصل) .

ولهذا نقول ان شعر الاعشى في وفـــاء السموأل ، وشعر عديّ بن زيد في خبر حواء والحية ، انما هو مظهر ملحمي لا غير .

وكان منتظراً ان تكثر المظاهر الملحمية في الشعر العربي ، ولاسيما ما اتصل منه بموضوع الوقائع والمعارك ... وكانت الجاهلية عصراً حفل بالوقائع بين قبيلة وقبيلة ، وقد سميت هذه الوقائع اياماً ، ونظمت فيها طائفة من الشعر سميت حماسة[١] . و كثير من العصور بعد الجاهلية كان حافلاً بالمعارك : معارك الحروب الاهلية ، وحروب الفتح او الدفاع ، وقد قيلت فيها اشعار احتلت جانباً من دواوين الشعراء . فذلك كله كان خليقاً بان يؤلف جواً تبرز فيه المظاهرُ الملحمية .

لكن هذه المظاهر – ولاسيما في العصر الجاهلي – تشكو مثل النقص الذي لمسناه في قصيدة الاعشى في وفاء السموأل ، وقصيدة عدي بن زيد في قصة حواء والحية ، فالمظاهر الملحمية الجاهلية ترسم ابداً صورة سريعة خاطفة للوقعة كلها او لحادثة مخصوصة منها ، فلا تصوير فيها لمجرى القتال بتفصيل وتدقيق ، ولا تمديدَ للابطال ، ولا إطناب في وصف اشخاصهم وأخلاقهم ، او في نقل حركاتهم ومحاوراتهم .

ويضيق المجال جداً على من يلتمس مظاهر ملحمية في الشعر الجاهلي صيغت بالقـــالب الاخباري الذي تتوارى خلفه شخصية الشاعر توارياً تاماً ، والذي لا يكتفي بالايماءات والاشارات في قصّ الحوادث . ذلك بان اكثر هذا الشعر الذي كان مرشحاً لان تتجلى فيه المظاهر الملحمية ، انما قاله شعراء اشتركوا بانفسهم في الوقائع ، فهم يقصّون فيه اخبار تلك الوقائع على سبيل الفخر في أغلب الاحيان ، ويجعلونه على لسان ضمير المفرد المتكلم ، او ضمير الجمع (اذا قصدوا قبيلتهم) ، ثم لا يكادون ينصرفون فيه الى قصّ الوقائع حتى يعدلوا الى بثّ عواطفهم الخاصة ، فيأتي شعرهم غنائياً ملحمياً بين بين . ولكنه لو أخضع لبعض التحويل والتغيير لرجح فيه العنصر الملحمي .

ولنضرب مثلاً هذه الابيات من معلّقة عنترة ، قال :

١ وفي تاريخ الادب العربي عدد من شعراء جمعوا قصـــائد مختارة في هذا الفن ادرجوها في كتب او في ابواب من كتب سموها الحماسة. واشهر هذه الحماسات: حماسة ابي تمام الطائي من كبار شعراء العصر العباسي الثاني. والحماسة اقرب الاسماء القديمة الى الملحمة *Epopée*. ولكن يتضح بعد النظر ان هذا الاسم لا يفي بمعنى الملحمة بل هو اقرب الى ان يشتمل على ما يدعى بالانكليزية : *Ballad* او *Lay* . وتسمى *Ballad* كل قصيدة تقص حادثة حربية او حادثة عصبية . وتسمى *Lay* كل قصيدة من هذا النوع ، الا ان القصة فيها تمتزج بميل الشاعر الى هذا او ذاك من البطلين المتنافسين .

وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزَالَهُ لا مُمْعِنٍ هَرَباً وَلا مُسْتَسْلِمِ
جَادَتْ لَه كَفِّي بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ
بِرَحِيبَةِ الفَرْغَيْنِ يَهْدِي جَرْسُها بِاللَّيْلِ مُعْتَسَّ الذِّئابِ الضُّرَّمِ
فَشَكَكْتُ بِالرُّمحِ الأَصَمِّ ثِيابَه لَيسَ الكَرِيمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ
فَتَرَكْتُه جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَه يَقْضِمْنَ حُسْنَ بَنانِه والمِعْصَمِ

فلقد كان ينبغي لمن نظم هذا الشعر ان يكون غير عنترة بطل هذه الوقعة . واذاً لكان حرياً ان يقول الشاعر ما معناه :

« وبرز في الميدان فارسٌ قد غطّاه السلاح ، يهابه الفرسان ويكرهون قتاله . فانبرى له عنترة ينازله . وجعل الفارس يبتعد ، لكن لا بحيث يظهر كأنه قد أمعن في الفرار . ثم يدنو ، لكن لا بحيث يظهر كأنه يريد الاستسلام . وانما يتنحى وينحرف ثم يعاود . ولكن عنترة سرعان ما تمكّن منه فأدركه برمحه المعتدل المتين المقبض المحدّد السن . وطعنه طعنة سريعة في مقتل واسع فار معها الدم ، وارتفع صوت من تلك الاصوات التي تهدي الذئاب الجائعة السارحة ليلاً ، الى موضع طعام لها . ونفذت الطعنة في الفارس الكريم ، فهوى ، وما زال الكرام عرضة لطعن الرماح . وانصرف عنه عنترة وتركه للضواري تنهشه وتقضم اطراف اصابعه اللدنة ومعصمه الحسن . »

على ان في الشعر الجاهلي مقاطع غنائية يصعب التصرّف بها على نحو ما تصرّفنا بابيات عنترة ، او يستحيل مثل هذا التصرف بها لانها تخلو مــــن كل أثر للقصة . ومع ذلك فمن الممكن ان تكون شعراً ملحمياً . اكثر هذه المقاطع فخرٌ من الشاعر بنفسه ، او فخرٌ بقبيلته ، او رثاء بطل عزيز ، او خطاب تحريض او تهديد او تقريع او عتاب او جدال . اما كيف تكون هذه المقاطع ملحمية فذلك بان نعتبر شعراءها ابطالاً او اشخاصاً في ملاحم ، وان نجعل الشعر كلاماً في افواههم ينشدونه في الهنيهة المناسبة في مجرى الملحمة .

ولنضرب مثلاً هذه الابيات من معلقة عمرو بن كلثوم :

أَبا هِنْدٍ ، فَلا تَعْجَلْ عَلَينا ، وأَنْظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقِينا :[1]

١ ابو هند : ملك الحيرة عمرو بن هند . انظرنا : امهلنا .

بأنّا نوردُ الرّاياتِ بيضاً ونُصدرُهنّ حُمراً قد روينا [١]
بأيّ مشيئةٍ ، عمرو بنَ هندٍ ، نكونُ لِقَيلِكُمْ فيها قطينا ؟ [٢]
بأيّ مشيئةٍ ، عمرو بنَ هندٍ ، تُطيعُ بنا الوُشاةَ وتزدرينا ؟ [٣]
تهدّدنا وأوعدنا رويداً ، متى كنّا لأُمّكَ مَقتوينا ؟ [٤]
فإنّ قناتنا ، يا عمرو ، أعيَتْ على الأعداءِ قبلَكَ أن تَلينا [٥]

وكان عمرو بن كلثوم شاعراً وفارساً معدوداً في اواسط القرن السادس بعد الميلاد ، وسيداً لقومه بني تَغلِب . وتَغلِب هي القبيلة التي نشبت بينها وبين شقيقتها بَكر ، تلك الحرب الطويلة المعروفة بحرب البسوس . ومذ كانت تغلِب وبكرٌ تنزلان من الجزيرة العربية اقليم البحرين ، المُداني للعراق ، فقد اهتمت دولة المناذرة في الحيرة لهذه الحرب ، وتدخّل المنذر الثالث بن ماء السماء فأوجب ان يوضع حدٌّ للمعارك والمناوشات . وبقي بلاط الحيرة في زمن عمرو بن هند (ابن المنذر الثالث) يبسط نوعاً من الاشراف على العلاقات بين القبيلتين ويدعوهم الى المحاكمة بين يديه . ويبدو انه كان متحاملاً على التغلبيين لشدة اعتزازهم وصعوبة مراسهم ، فكان يُحبّ ان يكسر من شوكتهم ، ويُلين من نفوسهم .

قال الرواة : فأرسل عمرو بن هند يوماً الى عمرو بن كلثوم يدعوه لزيارته ، وطلب منه ان يصطحب امه ، وهي ليلى بنت المُهَلهِل التغلبي (بطل حرب البسوس المعروف عند العوام بالزير) . فأقبل ابن كلثوم على الحيرة مع امه وجماعة من اصحابه ، فنزل ضيفاً على الملك ، ونزلت امه على هند والدة الملك . واذا بابن كلثوم يسمع امه تصيح في اثناء الوليمة : واذلاه ! يا لتغلب ! فثار الدم في وجهه ، فوثب فاستلّ سيفاً معلقاً على جدار فأطاح به رأس الملك . وعُلم فيما بعد ان الملك كان قد اوصى والدته هنداً بان تُكلّف ليلى القيام بين يديها كالخَدَم اذلالاً للتغلبيين ، فطلبت اليها ان تُناولها طَبَقاً ، فاستنجدت ليلى بابنها فأسرع الى الفتك بالملك ثم نظم لهذه المناسبة معلّقته او جزءاً من معلقته ، خاطب فيه عمرو بن هند بما كان يثور في نفوس التغلبيين من كبرياءٍ ومن مقتِ الملك وسخطٍ عليه .

فلو فرضنا ان شاعراً ابتدأ بنهاية حرب البسوس فاستعان بالتاريخ ، وبالاساطير المرويّة

١ نورد الرايات : نحملها الى الحرب . ونصدرها : نرجع بها . روين : تشربن دماً . ٢ بأي مشيئة : بأي ارادة ، بأي حكم . القيل : السيد ، الرئيس . القطين : العبيد والخدم . ٣ الوشاة : الذين ينقلون الاخبار الكاذبة . تزدرينا : تحتقرنا . ٤ مقتوين : عبيداً مملوكين . ٥ اعيت : عصت . و « اعيت قناتنا ان تلين » أي : عاندنا من يريد قهرنا واذلالنا فلم نخضع له .

وبخياله ، لتأليف ملحمة يقص بها كيف تطوّرت الازمة بين التغلبيين والمناذرة حتى قتل بطل التغلبيين بطل المناذرة، لكانت الابيات التي رويناها لعمرو بن كلثوم من الشعر الملحمي الذي يصحّ ان يوضع في فم بطل الملحمة ، مُخاطباً به الملك عمرو بن هند .

وهنا ندعوك الى مراجعة رجزٍ[١] أثبتناه لفارس بكريّ خاطب به قومه قُبيل معركة من معارك حرب البسوس . وهو شعر يناسب جداً ان يوضع في فم بطل ملحمي. وكذلك راجع في المنتخبات ، آخر هذا الفصل ، قصيدة الحارث بن عَبادٍ حين عقد العزم على خوض حرب البسوس ، فانها من الشعر الذي يصلح لان يقوله بطلٌ في موقف ملحمي.

المظاهر الملحمية في الشعر العربي بعد الجاهلية . — اما المظاهر الملحمية في الشعر العربي بعد الجاهلية ، فان اغلب الشعراء اللاحقين انما نسجوا في هذا الفن على منوال الجاهليين فقلّدوا طريقتهم تقليداً ، مع العلم ان شعراء قلائلَ بعد الجاهلية ، كانوا يجمعون بين الشعر والفروسية او كانوا يعرفون الحرب من قرب ، وانما كانوا في الاكثر مدّاحين ، فكانت المظاهر الملحمية تتخلل قصائد المدح بينما كانت المظاهر الملحمية في الجاهلية تتخلل اغراضاً اخرى من الشعر ولاسيما الفخر .

على ان شاعرين تأخرا زمناً عن الجاهلية ينبغي لهما اعتبار خاص فيما يتعلق بالمظاهر الملحمية في الشعر العربي، وهما ابو تمّام الطائي وأبو الطيب المُتنبي . فعند هذين الشاعرين تجلت اقوى المظاهر الملحمية في الشعر العربي . تجلت عند ابي تمام في قصيدته التي مدح بها المعتصم حين فتح قلعة عمورية في آسيا الصغرى وانتزعها من البيزنطيين، ومطلع القصيدة :

السَّيفُ أصدَقُ أنْباءً مِنَ الكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

ولكن ابا تمام لم يكن الا ممهداً للمتنبي الذي يعد اغنى شعراء العرب اطلاقاً بالمظاهر الملحمية في شعره. على ان تفصيل البحث في هذا الموضوع يخرج بنا عن حدود هذا الكتاب.

١ انظر صفحة ٩٢ .

منتخبات

من الشعر القصصي القديم

الضيافة العربية

جَرْوَل بن أوس ، الملقب بالحُطَيئة لقِصره ، شاعرٌ جاهلي منسوب الى بني عبس . طالت حياته فادرك الاسلام وعصر الراشدين فهو مُخَضْرم . كان رأس ما اشتهر به الهجاء ، ولكن رُويت له هذه القصيدة القصصية الفذة ، قال :

وَطَاوِي ثَلَاثٍ، عَاصِبِ البَطْنِ ، مُرْمِلٍ … بِبَيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَسْمَا ١
أَخِي جَفْوَةٍ فِيهِ مِنَ الإِنْسِ وَحْشَةٌ … يَرَى البُؤْسَ فِيهَا مِنْ شَرَاسَتِهِ نُعْمَى ٢
وَأَفْرَدَ فِي شِعْبٍ عَجُوزاً إِزَاءَهَا … ثَلَاثَةُ أَشْبَاحٍ تَخَالُهُمُ بَهْمَا ٣
حُفَاةً عُرَاةً ، مَا اغْتَذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ … وَلَا عَرَفُوا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْمَا ٤
رَأَى شَبَحاً وَسْطَ الظَّلَامِ فَرَاعَهُ، … فَلَمَّا رَأَى ضَيْفاً تَشَمَّرَ وَاهْتَمَّا ٥
فَقَالَ : هَيَا رَبَّاهُ ! ضَيْفٌ وَلَا قِرَى! … بِحَقِّكَ لَا تَحْرِمْهُ تَا اللَّيْلَةَ اللَّحْمَا ٦
فقال ٱبْنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحَيْرَةٍ : … أَيَا أَبَتِ ٱذْبَحْنِي وَيَسِّرْ لَهُ طُعْمَا ٧

١ طاوي: جائع. ثلاث، اي: ثلاث ليال. عاصب البطن: اشارة الى عادتهم في الجاهلية ان يشدوا البطون بعصبة اذا طال جوعهم . مرمل ، مثل مُترِب، بمعنى فقير عادم القوت . رسما : علامة او أثراً . ٢ اخي جفوة : صاحب غلظة وفظاظة . الانس : البشر . وحشة : نفور . شراسته : سوء خلقه وحاله . نعمى : بركة ونعمة . ٣ أفرد : لقي على انفراد . شِعْب : موضع . اشباح : اشخاص. تخالهمُ : تحسبهم . بهما: اولاد البقر والمعز والضأن . ٤ ما اغتذوا : ما اكلوا . خبز ملة : الخبز الذي يخبز في الرماد الحار. البر: القمح. ٥ يظهر ان الضمير في رأى راجع الى الشيخ زوج العجوز . راعه : افزعه . تشمر : رفع ذيول ثوبه علامة الاهتمام . ٦ هيا : حرف نداء . القِرى : طعام الضيف . تا : اسم اشارة للمؤنث القريب . ٧ يسّر : هيء . طعما : طعاما .

وَلا تَعْتَذِرْ بِالعُدْمِ عَلَّ ٱلَّذِي طَرَا   يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوسِعَنَا ذَمَّا ١
فَرَوَّى قَلِيلاً ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً   وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا ٢
فَبَيْنَا هُمَا ... عَنَّتْ عَلَى البُعْدِ عَانَةٌ   قَدِ ٱنْتَظَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمَا ٣
عِطَاشاً تُرِيدُ ٱلْمَاءَ ، فَٱنْسَابَ نَحْوَهَا   عَلَى أَنَّهُ مِنْهَا إِلَى دَمِهَا أَظْمَا ٤
فَأَمْهَلَهَا حَتَّى تَرَوَّتْ عِطَاشُهَا   فَأَرْسَلَ فِيهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمَا ٥
فَخَرَّتْ نَحُوصٌ ذَاتُ جَحْشٍ سَمِينَةٌ   قَدِ ٱكْتَنَزَتْ لَحْماً ، وَقَدْ طُبِّقَتْ شَحْمَا ٦
فَيَا بِشْرَهُ إِذْ جَرَّهَا نَحْوَ قَوْمِهِ   وَيَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَى ٧
وَبَاتُوا كِرَاماً قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ   وَمَا غَرِمُوا غُرْماً ، وَقَدْ غَنِمُوا غُنْمَا ٨
وَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَباً   لِضَيْفِهِمِ ، وَٱلأُمُّ مِنْ بِشْرِهَا أُمَّا

فتأمل كيف افرغ الشاعر في هذه الابيات قصة تامة ، وكيف روى حادِثتها ووصف ما اشترك فيها من انسان وحيوان . فصور بدوياً متشرداً بائساً لم يذق طعاماً منذ ليالٍ ثلاث، وهو يتيه في صحراءَ مُقفرة قد عميت عليه مسالكُها...حتى أتى منزل عجوز لديها ثلاثة صِبيةٍ كأنهم الاشباحُ لِشدة الهزال ، لم يعرفوا للخبز طعماً مذ خُلقوا . فما لمحه الشيخ ، زوج العجوز ، مُقبِلاً في الظلام حتى ارتاع . ثم عرف الشيخُ انه ضيفٌ جائع فاهتم له لأن العربي مضياف . وصاح : هيا رباه ، ضيفٌ ولا قِرى عندي له ! بحقك لا تحرمه اللحم... وسمع احد الصبيةِ دُعاء والده الشيخ ورأى حَيرته وغمهُ فقال له : اذبحني واطعم ضيفنا ، ولا تعتَذِر بما نحن فيه من فقر ، فقد يَظنّنا الرجل اصحابَ مالٍ غير اننا

١ العدم : الفقر . طرا ، اصلها : طرأ ، خُففت همزتها ، ومعناها : دخل علينا . ٢ روى : تروى وفكر . احجم : تردد. همّ : اوشك . ٣ فبينا هما ، أي: فبينا هما على هذه الحال . عنت: ظهرت. عانة : قطيع من حمر الوحش . مسحلها : حمار الوحش الذي يقود القطيع . ٤ فانساب نحوها : انسل عليها في حيطة وحذر لئلا ينفرها ، والضمير في « انساب » عائد الى الشيخ زوج العجوز . أظما : اشد عطشاً . ٥ تروت : امتلأت ماءً ونقعت ظمأها . كنانته : جعبة سهامه . ٦ خرت : سقطت صريعة . نحوص : سمينة . اكتنزت : امتلأت. طبقت شحما : جعلته طبقات بعضه فوق بعض . ٧ فيا بشره : يا سروره. كلمها: جرحها . يدمى: يسيل دماً . ٨ قضوا حق ضيفهم : قاموا بالواجب لضيفهم. وما غرموا غرماً : وما لحقهم اذى او خسارة . وقد غنموا غنما ، اي : ربحوا وظفروا .

بخلاء فيذُمنا ويُلحِقُ بنا العارَ . فتردّد الشيخ وتألم . ثم همّ بذبح ابنه !..

وإذا أتانٌ من الأُتن الوحشية تظهرُ في هذا الموقف العصيب خَلْفَ صف من بنيها . لقد أقبلت عطشى تريد الماء ، فأمهلها الشيخُ حتى شربت واطفأت غلّتها . وكان قد أخرج قوسه وركب فيها السهم، فرماها فقتلها . وهرع اليها فوجدها سمينة مكتنزة اللحم والشحم فجرّها الى اهله والفرحُ يملأ قلبه . وابتهج أهله اذ رأوا جرحَها يسيل دماً .

ثم قعد الجميع على طعام شهي رُزِقوه في غير أذى او مشقّة . وجعل الشيخ يُؤنس ضيفه كأنه أبٌ له وجعلت العجوزُ تخدمُ ضيفها كأنها أمٌّ له .

وبعد... فتأمل كيف لبثَ الحطيئة في هذه الابيات كلها خارجَ دائرةٍ من نفسه فلم يعرض مباشرة لتصوير عواطفه وأحاسيسه الخاصة ، بل قصر همّهُ على تصوير حادثة مؤثرة ان لم تكن وقعت بالفعل فان الحياة الصحراوية والضيافة العربية تحتملان وقوعها .

حاشية : بحر هذه القصيدة . — نظم الحطيئة قصيدته هذه على الطويل ووزنه :

فَعُولُنْ مَفَاعِيلُن فعولن مفاعلن　　فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

يجوز في « فعولن » ان يحذف سكونها الاخير فتصبح فعولُ ... قال الحطيئة :

فأمهلها حتى تروّت عطاشُها　　فأرسل فيها من كنانته سهما

تقطيعه :

فأمـ	هلها حتّى	تروّت	عطاشُها
فعولُ	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

فأرسـ	لَ فيها من	كنانـ	ته(ي) سهما
فعولَ	مفاعيلن	فعولُ	مفاعيلن

وتأتي «مفاعيلن» الاخيرة على ثلاث صوَر: ١ — مفاعيلن ، ٢ — مفاعِلنْ ، ٣ — فعولْ . ويجب مع الصورة الثالثة والاخيرة، ان يُحذف السكون الاخير من « فعولن » التي تسبقها، فتصبح : فعولُ .

وأيّما صورة استعملها الشاعر من هذه الصور الثلاث في نظمه على الطويل،فعليه ان يلتزمها في القصيدة كلها .

مثل الحية والاخوين

من القصص الخرافية التي تؤثر عن الجاهليين : ان اخوين نزلا وادياً مكلئاً [١] يرعيان فيه الابل . فعرضت لاحدهما حية فنهشته فمات . فقال اخوه : والله ما في الحياة بعد اخي خير ، فلأطلُبَنّ الحية ولاقتلنها او لاتبعن اخي ! وأقام يسعى في طلب الحية ، فلما لقيها قالت له : ألست ترى اني قتلت اخاك ؟ فهل لك في الصلح فأدَعك بهذا الوادي وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ؟ قال : فاني افعل ... وحلف واعطاها المواثيق لا يضرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله حتى صار من احسن الناس حالاً .

ثم انه ذكر اخاه فقال : كيف ينفعني العيش ، وانا انظر الى قاتل اخي ؟ ثم عمد الى فأس فأحدّها [٢] وقعد بحيث تمر الحية فضربها فأوجعها في رأسها ولكنه لم يقتلها . وانسابت الحية مسرعة فدخلت في جُحرِها .

ثم انها خرجت من الغد معصوباً رأسها وليس معها شيء . فقال لها الرجل وهو نادم لفقد الدينار : اني والله ما رضيت ما بدر مني ، فهل لك ان نعود الى ما كنا عليه ؟ فقالت له : لا ! لان نفسك لا تطيب وانت ترى قبر اخيك ، ونفسي لا تطيب وأثر الشجة في رأسي !

وانما سُمِّيَتْ هذه القصة خُرافة لانها مما لا يُعقل حدوثه في الواقع ، فالحيات لا تنطق ولا تعاهد الناس ولا تعاملهم بالمال . ولكن هذه الخرافة هي ايضاً مثل لانها ترمز الى مغزى أو عبرة . ومغزاها ان الوثوق باصحاب الضغائن ليس من الحكمة ولا حسن السياسة في شيء ، لان الضغائن لا تلبث ان تتجدد وتثور .

وكان النابغة شاعراً جاهلياً وجيهاً اتصل ببلاط المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام . وكان مُحنكاً مجرباً في الامور ، ومقدماً في قومه بني ذبيان يمُدّهم بالنصيحة . والذي يبدو ان الذبيانيين عقدوا مع بعض القوم صلحاً كرهه النابغة . فضرب لهم مثل الحية والاخوين ليقول لهم : ان صلحهم مع اولئك القوم انما يشبه صلح الحية للرجل الذي نهشت اخاه [٣].

قال النابغة :

وَإِنّي لَلاقٍ مِن ذَوي الضِّغْنِ نكبةً ... بلا عَثْرَةٍ ، والنفسُ لا بُدَّ عاثِرَهْ ! [٤]

كما لقيت ذاتُ الصَّفا من حليفها ، ... وما انفكّتِ الامثالُ في الناس سائره [٥]

[١] الوادي المكلئ هو الذي فيه الكلأ اي : العشب . [٢] أحدها : جعلها حادة قاطعة . [٣] اختلف الرواة كثيراً في نص هذه الابيات . وكان جل اعتمادنا في روايتها على النص الذي اورده الجاحظ في كتابه الحيوان : الجزء الرابع . [٤] يعني ان ذوي الضغن سيلحقون به الاذى بلا عثرة عثرها ، اي بلا ذنب اقترفه ، مع ان النفوس تذنب . [٥] ذات الصفا : كناية عن الحية .

فقالت له : أدعوكَ للعَقْلِ وافراً ، ولا تَغْشَيَنِّي مِنكَ للظلم بادره [١]
فواثقهـا بالله حين تراضيـا ، فكانت تَدِيهِ المَالَ خفياً وظاهره [٢]
فلما تَوَفّى العَقْلَ الا أَقلّه ، وجارت به نَفْسٌ عن الخير جائره [٣]
تَفَكَّرَ أنّى يجعلُ اللهُ فُرْصَةً فيُصْبِحَ ذا مالٍ ويَقْتُلَ واتِره [٤]
أَكَبَّ على فأسٍ يُحِدُّ غُرابَها لِيَقْتُلَهَا ، والنَّفسُ للقتلِ حاذِره [٥]
فلمَّا وقاهـا الله ضَرْبَةَ فأسِه ، وللهِ عَيْنٌ لا تُغَمَّضُ ساهره
دعاها : تَعالَيْ نَجْعَلِ اللهَ بيننا على العقلِ حتى تُنْجِزي لِيَ آخره [٦]
فقالت : يمينُ اللهِ أفعلُ ، إنني رأيتُكَ خَتَّاراً يمينُكَ فاجره [٧]
أبى لك قبرٌ لا يزال مُواجِهاً وضَرْبَةُ فأسٍ فوق رأسيَ فاقِره [٨]

حواء والحية

هذه القصيدة النادرة بموضوعها في الادب العربي نظمها الشاعر الجاهلي عدي بن زيد وقد بناها على القصة المعروفة في التوراة ،قصة الحية كيف اغرت حواء . وكان عدي عِبادياً والعباديون هم نصارى الحيرة في الجاهلية . وكان من اعظم الناس ثقافة في عصره (القرن السادس الميلادي) ومن اوجههم في بلاط المناذرة في الحيرة وبلاطِ الاكاسرة من بني ساسان في المدائن . وتسنم عديّ اعلى المناصب غير ان مكايد البلاط انتهت به الى السجن حيث لقي مصرعه.

قال عدي :

١ العقل : هو دية القتيل او ما يُدفع ثمن دمه . ٢ تديه المال : تعطيه المـــال على سبيل الدية . ٣ توفى العقل : قبض الدية كاملة. وجارت : حادت . ٤ أنى : كيف . والواتر: هو الذي يكون في عنقه الثأر . ٥ يحد غرابها : يصقل طرفها ويسنه . ٦ تنجزي : تكملي . ٧ « يمين الله افعل » ، اي : اقسم بالله اني لا أفعل . والختار : الغدار . ٨ تقول الحية : ان القـــبر الذي لا يزال مواجهاً لك (تعني قبر اخيه) يأبى عليك ان تصفو لي . وكذلك ضربة الفأس التي اردتها ان تفقر رأسي تأبى علي ان اصفو لك .

سَعَى الرَّجِيمُ إِلَى حَوَّا بِوَسْوَسَةٍ غَوَتْ بِهَا وَغَوَى مَعْهَا أَبُو الْبَشَرِ ١
خَلْقَانِ مِنْ مَارِجٍ أَنْشَا خَلِيقَتَهُ وَآخَرٌ مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ وَالْمَدَرِ ٢
أَنْشَاهُمَا لِيُطِيعَاهُ ، فَخَالَفَهُ إِبْلِيسُ عَنْ أَمْرِهِ لِلْحَيْنِ وَالْقَدَرِ ٣
فَأَبْلَسَ اللهُ إِبْلِيساً ، وَأَسْكَنَهُ دَاراً مِنَ الْخُلْدِ بَيْنَ الرَّوْضِ وَالشَّجَرِ ٤
فَاغْتَاظَ إِبْلِيسُ مِنْ بَغْيٍ وَمِنْ حَسَدٍ ، فَاحْتَالَ لِلْحَيَّةِ الرَّقْطَاءِ وَالطَّيَرِ ٥
فَأَدْخَلَاهُ بِأَيْمَانٍ مُؤَكَّدَةٍ أَعْطَاهُمَا بِيَمِينٍ كَاذِبٍ غَدِرِ ٦
هُنَاكَ سَارَ إِلَى حَوَّا بِوَسْوَسَةٍ أَرْدَتْ بِغَرَّاتِهَا مَعْهَا أَبَا الْبَشَرِ ٧
فَأُهْبِطُوا مِنْ مَعَاصِيهِمْ ، وَكُلُّهُمُ نَائِي الْمَحَلِّ فَقِيدُ الْعَيْنِ وَالْأَثَرِ ٨
وَأَهْبَطَ اللهُ إِبْلِيساً وَأَوْعَدَهُ نَاراً تَلَهَّبُ بِالْإِسْعَارِ وَالشَّرَرِ ٩
وَأَنْزَلَ اللهُ لِلطَّاوُوسِ رَخْمَتَهُ مِنْ صَوْتِهِ وَرَمَى رِجْلَيْهِ بِالنُّكُرِ ١٠
وَأَعْقَبَ الْحَيَّةَ الْحَسْنَاءَ حِينَ عَفَتْ مَسْحَ الْقَوَائِمِ بَعْدَ السَّعْيِ كَالْبَقَرِ ١١
وَأَعْقَبَ اللهُ حَوَّا بِالَّذِي فَعَلَتْ (بِوَجَعِ) الطَّلْقِ وَالْأَحْزَانِ وَالْفِكَرِ ١٢

حاشية : بحر هذه القصيدة . —نظم عدي بن زيد قصيدته هذه على البسيط . ووزنه

١ الرجيم : ابليس . غوت : سلكت طريق الضلال. ابو البشر: آدم. ٢ مارج : شعلة النار العظيمة. والمدر : الطين . يقول : خلق الله خلقين ، فواحد من نار هو ابليس ، وآخر من تراب وطين هو آدم . ٣ وخلق الله هذين الخلقين ليطيعاه، ولكن ابليس خالفه وذلك ليقع الموت ويتم القدر في العالم. ٤ ابلس الله ابليساً : قطع حجته ونفاه من رحمته ، والضمير في « أسكنه » يقصد به آدم . ٥ الطَيَر : هو الطَيْر، وحرّك للشعر . والمقصود بالطير هنا الطاووس الذي كان يقال في بعض الاساطير انه ساعد الحية على ادخال ابليس الجنة واغواء حواء . ٦ ادخلاه : اي الحية والطاووس ادخلا ابليس الجنة وقد حلَف لهما يميناً مؤكدة ولكنها كاذبة غادرة . ٧ اردت : اهلكت . والغرات : جمع غرة وهي الخدعة . ٨ فاهبطوا من معاصيهم ؛ اي : اخرجوا من الجنة بسبب معاصيهم . ونائي المحل : بعيده . فقيد العين : شخصه مفقود . ٩ أوعده : هدده بالعقاب . الاسعار : تضرم النار . ١٠ رخمة الصوت : لينه ورقته . النكر : يقصد بها القبح . ١١ اعقب الحيّة : أورثها ، سبب لها . عفَت، بمعنى : قلت وتضاءلت، وفي هذا البيت اشارة الى ما يُعتقد من ان الحية كانت قبل اغواء حواء تمشي على قوائم كالبقر والجمال ثم مسح الله قوائمها قصاصاً لها . ١٢ الطلق : هو ما يصيب المرأة من ألم عند الولادة . والفِكَر : جمع فكرة ، ويقصد بها شغل البال والهم .

التام :

ُمسْتَفْعِلُنْ َفاعِلُنْ ُمسْتَفْعِلُنْ َفعِلُنْ مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

قال عدي :

خلقـــان من مارج أُنشا خليقته وآخر من تراب الارض والمدر

وتقطيعه :

خلقان من	مارج (نْ)	أنشا خلي	قته (و)	
مستفعلن	فاعلن	مستفعلن	فعلن	
وآخرٌ	من ترا	ب الارض وال	مدر (ي)	
مَفَاعِلُنْ	فاعلن	مستفعلن	فعلن	

وهكذا نلحظ ان مستفعلن، يجوز فيها حذف السكون الاول فتصبح ُمتَفْعلن، اي : مفاعلن . ولا يجوز حذف هذا السكون الا من مستفعلن في اول الشطر .

ويجوز كذلك حذف السكون الاول من « فاعلن » فتصبح فَعِلُنْ . وفعِلن في آخر البيت ، يجوز فيها تسكين العين فتصبح : فعْلُن، وعلى الشاعر عندئذ ، ان يلتزم هـــذه الصورة في قصيدته كلها ، كما فعل الاعشى في قصيدته التي مدح بها وفاء السموأل .

شعر يصلح للملاحم

قربا مربط النعامة مني

كان السبب المباشر الذي من أجله أقدم جسّاس بن مرة على قتل ُ كلَيب سيد تغلب يسيراً هيّناً . فان كليباً قتل ناقة للبسوس عمة جساس او لضيف البسوس ، وكانت الناقة قد رعَت ارضاً حرّمها كليب . واستفزّت البسوس غضب ابن أخيها جساس فصادف كليباً فطعنه طعنة ذهبت بنفسه .

فاندلعت نار الشر بين بكر وتغلب . ورأى الحارث بن عبـــاد (رئيس عشيرة من البكريين) ان جساساً انما فعل َفعلةً شنعاء رعناء حين قتل سيداً مثل كليب بناقة من النياق . ولزم الحارث الحَيْدَة في القتال وهو في اثناء ذلك يقترح الصلح ، ويسعى له . وفي هذا السبيل بعث يوماً بابن اخيه ُبجَيْر الى المُهَلهِل شقيق كليب ، وكان المهلهل فارس تغلب وأشدّ المطالبين بتقتيل بني بكر أخذاً بالثأر. فما لقي ُبجيراً حتى بطش به وقال

له : بُؤْ بِشِسع نعل كليب (اي : مت في مقابل الرباط الذي كان يربط به كليب نعله).
فلما علم الحارث بصرع ابن اخيه قـال : نِعْمَ الدمُ دمُ ابننا اصلح بين الفريقين وحسم الحرب وشرها . ولكن قيل للحارث : انما قتل المهلهل ابن اخيك ، لا في مقابل كليب ، بل في مقابل شسع نعله !

فثار الحارث وقد جرح في كرامته ذلك الجرح البليغ . وكما استعظم بالامس ان يقتل رجل مثل كليب بناقة ، فقد استعظم اليوم ان يُقتل فتى كابن اخيه بُجير بشسع نعل . ومنذ تلك الساعة عقد العزم على خوض الحرب ، وانشد قومه القصيدة الحماسية التي نُثبتُ منها نخبةً فيما يأتي . ولو ان شاعر هذه القصيدة كان غير الحارث ، وكان قد وضع ملحمة في حرب البسوس ، وجعل الحارث من ابطالها ، لصَلُحَ هذا الشعر كلاماً يُخاطِب به البطل الملحمي قومَه وقد اجتمعوا بعد مقتل بجير ليقرروا اي خطة يسلكون .

اول شيء ، يقطع الحارث عهداً بان يثأر لبجير :

يا بُجَيرَ الخَيْراتِ لا صُلحَ حَتّى   نَمْلأَ البِيدَ مِنْ رُؤُوسِ الرِّجالِ ١

ثم يَصف موقفَه السابق من الحرب التي جُرّ اليها ظلماً وعَنوةً :

لم أَكُنْ مِنْ جُناتِها عَلِمَ اللهُ   وإنّي بِحَرِّها اليَوْمَ صَالِ ٢
قَدْ تَجَنَّبْتُ وائِلاً كَيْ يُفِيقُوا   فَأَبَتْ تَغْلِبُ عَلَيَّ اعْتِزَالي ٣
وَأَشابُوا ذُؤَابَتي بِبُجَيْرٍ   قَتَلُوهُ ظُلْماً بِغَيْرِ قِتالِ ٤
قَتَلُوهُ بِشِسْعِ نَعْلِ كُلَيبٍ   إنَّ قَتْلَ الرِّجالِ بِالشِّسْعِ غَالِ ! ٥

الى ان يقول مهدداً بني تغلب :

يا بَني تَغلِبٍ قَتَلْتُمْ قَتِيلاً   مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِهِ فِي الخَوالي ٦

١ البيد جمع بيداء : الصحراء . ٢ الضمير ، في جناتها ، راجع الى الحرب ، وجناة الحرب هم مسبّبوها . صال : محترق . يقول: لم اكن من مسبّبي هذه الحرب ولكنني اليوم محترق بنارها . ٣ وائل: قبيلة بكر وتغلب . يُفيقوا : يرجعوا الى عقولهم . فأبت : فرفضت . اعتزالي : انفرادي وقعودي عن الحرب. ٤ ذؤابتي : شعري ، والمقصود : ان مقتل بجير احزنني حتى شاب رأسي . ٥ الشسع : رباط النعل . « ان قتل الرجال بالشسع غال » ، معناه : ان قتل الرجال فدى لرباط النعل شيء يعز على النفس قبوله . ٦ الخوالي: الازمان الماضية .

يا بَني تَغلِبٍ خُذُوا الحِذْرَ إنّا قَدْ شَرِبنَا بكَأسِ مَوتٍ زُلالِ ![1]

ثم يصيحُ مطالباً اثنين من قومه ان يقربا اليه فرسه النعامةَ وسلاحه :

قَرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَةِ مِنِّي ، لَيسَ قَولي يُرَادُ لَكِنْ فَعالي
قَرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لأَعْتَاقِ الأَبطَالِ بالأَبطَالِ[2]
قَرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَا نَبِيعُ الرِّجَالَ بَيْعَ النِّعَالِ
قَرِّبَاهَا وَقَرِّبَا لأَمَتي دِرْعاً دِلَاصاً تَرُدُّ حَدَّ النِّبَالِ[3]
قَرِّبَاهَا بِمُرْهَفَاتٍ حِدَادٍ لِقِرَاعِ الأَبطَالِ يَوْمَ النِّزَالِ[4]
رُبَّ جَيْشٍ لَقِيتُهُ يُمطِرُ المَوْ تَ عَلَى هَيْكَلٍ خَفِيفِ الجِلَالِ[5]

١ خذوا الحذر : احذروا وتنبهوا . قد شربنا بكأس موت زلال : قد تعودنا انْ نشرب كأس الموت ونستلذ طعمها . ٢ لاعتاق الابطال بالابطال ، اي : ليوم يشتبك فيه الابطال بالابطال. ٣ درعاً دلاصاً : درعاً لينة ملساء . النبال ، جمع نبلة : هي الرأس من الحربة او السهم . ٤ المرهفات : السيوف . الحِدَاد : القاطعة . لقراع الابطال : لمصادمة الابطال . النزال : المبارزة والحرب . ٥ يمطر الموت ، اي : يرسل الموت غزيراً على العدو . هيكل ، يقصد بها هنا : الفرس والجواد . الجلال : السرج .

الشعر الغنائي
المتنبي ، أبو فراس

خصائص الشعر الغنائي . — تعود تسمية الشعر الغنائي *Poésie Lyrique* الى ان قدماء اليونان كانوا ينظمون بعض الشعر لكي يتغنوا به مع التوقيع على آلة موسيقية تدعى **Lyre** وهي اشبه بالقيثارة .

فالشعر الغنائي اذاً ، هو في اصله الشعرُ الذي يُغنى مع العزف على آلة موسيقية خاصة هي القيثارة تمييزاً له من الشعر الذي يغنى مع العزف على آلات موسيقية أخرى، ذلك بان الشعر كلّه انما نشأ — كما علمنا — وثيق الصلة بالغناء وبالعزف . فالشعر الملحمي كان يُغنيه شاعره او راويته ، ويضرب على آلة موسيقية فيما يغنيه . والشعر التمثيلي كان يُغنّى وما زال حتى اليوم يغنى في المسرحية الملحنة المغنّاة : *Opéra* .

أبو الطيب المتنبي



ذراني والفلاة بلا دليل
ووجهي والهجير بلا لثام

وهكذا لا يكون الشعر الغنائي قد فُصِلَ من بقية الشعر ، واعتُبر فناً مستقلاً لمجرد انه يُغنى ، بل لخصائص تميزه في موضوعاته ومعانيه والفاظه .

وأبرز خصائص الشعر الغنائي أنه **عاطفي ، يصور به الشاعر المه ولذته وشوقه ووحشته وسخطه ورضاه ، الى آخر ما تنفعل به النفس من الوان العواطف ويجيش به الصدر من اشتات الخواطر** .

ومن هنا ربما سمّي الشعر الغنائي وجدانياً ايضاً ، لان صاحبه انما يصدر فيه عن محض

وجدانه ، اي : حسه ، تلقاء ما يَعرضُ له في حياته الخاصة والعامة من احداث .

وتَشيعُ **في الشعر الغنائي الألفاظ التي تصلح لتمثيل حالات الشعور .**

ويكون الشاعر الغنائي ذاتياً قوي النزعة الفردية ، يطوف عادةً في جوٍّ من نفسه ، ويرى المظاهر والاحداث حوله من خلال انفعالاته الذاتية ، ويخاطب قارئه او سامعه بلسان من ضمير المُفرَد المتكلم .

واكثر الشعر العربي غنائي . بل لقد ابتدأ الشعر العربي غنائياً بالجاهلية ، ومن ثم ، ظل الفن الغنائي مسيطراً عليه في شتى عصوره ، وظلت النزعة الغنائية غالبة على الشاعر العربي غلبة فائقة . وفيما يتبع من منتخبات ، نعرفك ببعض الشعر الغنائي العربي ، لشاعرين متعاصرين بلغ كلاهما مبلغ الابداع في هذا الفن .

منتخبات

حمى وثورة نفس

المتنبي .— في سنة ٩١٥ م (٣٠٣ هـ)، أبصر النور في مدينة الكوفة طفل خلّده التاريخ باسم احمد بن الحسين ، أبي الطيب المتنبي ، أوسع الشعراء العرب شهرة على الاطلاق ، واعظمهم جميعاً في رأي الكثير من كبار الادباء والنقاد . ألف فيه الباحثون ، قديمهم وحديثُهم ، مئات الفصول والكتب ، واختلفوا بين تعظيمه منتهى التعظيم وتجريده من كل ميزة . مراراً شرحوا ديوانه ومراراً طبعوه، وقرأ شعره القراء الذين لا يُحصى لهم عدد، وعلقت من اقواله باذهان الخواص والعوام ابيات وشطور كثيرة ما برحوا يرددونها امثالاً في المجالس والاسواق كقوله :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ ، وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرّدا

وقوله : « تجري الرياح بما لا تشتهي السفن » و « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وافق زمن المتنبي العصر العباسي الثالث ، وهو العصر الذي اشتد فيه ضعف الخلافة العباسية فقامت بجانبها ، الى شرق العراق وغربه ، دولٌ كثيرة تدين لها شكلاً ولكنها مستقلة عنها فعلاً ، بل مسيطرة عليها احياناً كما كان يسيطر عليها بنو بُوَيْه في زمن المتنبي.

وكان العرب قد قلّ نفوذهم في ذلك العصر ، واصبحت العناصر غير العربية ، من ترك وفرس ، تتجاذب حبل السيادة في الدولة تجاذباً عنيفاً . ومع ذلك فيمكن القول ان العرب اجتمع لهم شيء من النفوذ عصرَئذٍ تجلى في الدولة الحمدانية التي نهض بها سيف الدولة في حلب الى اوج قوتها وازدهارها .

وكان المتنبي عربياً ، شديد النزعة ، فكان ذلك سبباً من اسباب حبه الحار لسيف الدولة ومدحه اياه اروع المدح .

وتنقسم حياة المتنبي اربعة ادوار .

حياته قبل اتصاله بسيف الدولة وانقطاعه اليه .— ومدتها نحو اربع وثلاثين سنة ، عاشها الشاعر عيشة قلقة مضطربة ، ذاق فيها السجن[1] والكثير من الوان الحرمان والفقر والمشقة .

١ قيل : انه سجن لادعائه النبوّة ، ومن هنا لقب بالمتنبي ، ولكن المرجح انه طمع طمعاً سياسياً فسجن ، اما لقب المتنبي فلعله لصق به لتشبيه نفسه بالأنبياء .

حياته في صحبة سيف الدولة . — ومدتها نحو عشرة اعوام تبدأ بسنة ٩٤٨ م وتنتهي بسنة ٩٧٥ م ، حين رحل الشاعر عن عاصمة بني حمدان وفي نفسه عتبٌ شديد على سيف الدولة .

حياته في مصر عند كافور الاخشيدي . — ومدتها نحو اربع سنوات ، بعد رحيله عن حلب، مدح فيها المتنبي كافوراً لامله ان يوليه ولاية، ولشد ما كان المتنبي يحلم بالولاية ! لكنه خرج من مصر خِلسة ، وهو غاضب على كافور ، هاجٍ له ، لانه خيب أمله .

حياته في العراق وبلاد فارس . — ومدتها نحو ثلاث سنوات بعد عودته من مصر، قضى اكثرها في مسقط رأسه الكوفة، ثم زار في السنة الاخيرة بغداد فمدينتي ارّجان وشيراز، وقتل وهو عائد الى الكوفة سنة ٩٦٥ م (٣٥٤ هـ) ، فيكون قد عاش خمسين سنة او جاوزها قليلاً .

ولقد ابدع المتنبي في كثير من اغراض الشعر الغنائي العربي. أبدع في المدح والحكم والهجاء والفخر والعتاب والرثاء ، ويمتاز شعره بفخامة العبارة وبعمق المعاني في تأمل الحياة والبشر.

قصيدته في مرضه بمصر . — فاما القصيدة التي نثبتها له ، هنا ، فتعتبر مثالاً رائعاً من الشعر الغنائي بأتم معاني الكلمة . ذلك ان المتنبي انما نظم هذه القصيدة لنفسه وحدها ، فهي شعر غنائي شخصي محض لم يقلها لمناسبة مدح ولا هجاء ولا رثاء ولا غير ذلك من المناسبات التي يقول فيها الشاعر شعراً بِقصْدِ ان ينشده غيرَه من الناس. وانما نظمها لنفسه، كما أسلفنا، في الدور الثالث من حياته وهو مقيم بمصر ، قد أصابته الحمى ، وقد أدرك انه لن ينال من كافور الولاية التي يحلم بها، فعوّل على الرحيل ولكن كافوراً لم يأذن له لخوفه ان يجاهر بهجوه وبتحريض الناس عليه .

وهكذا كان المتنبي مريضاً حين نظم هذه القصيدة ، وكان يشعر انه كالسجين في ارض مصر ، وان لم يُحبَس وراء قضبان الحديد بين اربعة جدران ، وكان ثائر النفس ضيق الصدر بهذا المليك الذي لا يُنيله مطلبه ولا يأذن له بالرحيل ، وبهذه الحمى التي تواظب على زيارته ودس نفسها في عظامه ، وبهذا الفراش الذي لزمه حتى مله ، وبهذا الطبيب الذي لا يفهم ان علته نفسيةٌ ليست من شراب او طعام ، وبهذا الجهل والنقص والخداع في الناس .

ذلك كان مزاج المتنبي حين قال هذه القصيدة: مزاج من المرض والسخط والألم والخيبة. فصوره بهذه القصيدة تصويراً بليغ الاثر ، بلفظ قوي على عادته ونظم موسيقي خلاب الرنة .

وفي اثناء ذلك صوّر حُمّاه وأعراضها بقطعة من الوصف الدقيق الفني البارع،حتى استطعنا بعد الف سنة ان نفهم انها حمّى الملاريا .

وكان مزاج المتنبي أبعد شيء عن ان يكون مزاجاً مُنسحقاً مستسلماً. كان الشاعر عاقد العزم على السفر ، موقناً انه يستطيع ان يجد مخرجاً من مصر برغم كافور ، واثقاً بنفسه

انها تتغلب على المحنة . وهذا هو بالنتيجة افضل غذاء روحي نستمده من هذه القصيدة .

واما اقوى عاطفة فيها ، فانها الشوق الى السفر ، الى الضرب في فُسَح من الارض وفي سوح الحرب. انها عاطفة الشوق الى الانطلاق والتحرر من جو يأخذ بمخنقه ويثقل روحه بثقل هائل .

وبعد ، فهذا هو نص هذه القصيدة الغنائية الشخصية التي جمعت مع الروعة فخراً وشكوى للزمان وحكمة وتفنناً في الوصف .

يستهل المتنبي قصيدته بمخاطبة صديقين يتصور انهما يلومانه على طلب الرحيل ، ويُصعّبان عليه مراده ، فيقول لهما :

مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلامِ ، وَوَقْعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الكَلامِ ١
ذَرَانِي وَالفَلاةَ بِلا دَلِيلٍ ، وَوَجْهِي وَالهَجِيرَ بِلا لِثَامِ ٢
فَإِنِّي أَسْتَرِيحُ بِذِي وَهَذَا ، وَأَتْعَبُ بِالإِنَاخَةِ وَالمُقَامِ ٣
عُيُونُ رَوَاحِلِي إِنْ حِرْتُ عَيْنِي ، وَكُلُّ بُغَامِ رَازِحَةٍ بُغَامِي ٤
فَقَدْ أَرِدُ المِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ ، سِوَى عَدِّي لَهَا بَرْقَ الغَمَامِ ٥

١ الملوم : الذي يقع عليه اللوم ، ويقصد بالملوم نفسه . يجِلّ : يعظم . فعـاله : فعله . يقول لصديقيه : ان هذا الذي تلومانه على عزمه ان يرحل ، وتحاولان تثبيط همته بذكر المخـاوف ، لهو اعظم من اللوم ، وفعله في مرتبة اعلى من ان ينالها كلام اللائمين . ٢ ذراني : اتركاني ، دعـاني . والواو : واو المعية ، اي اتركاني اصحب الفلاة واسلك القفار . والهجير : حر الظهيرة وهو اشد الحر . واللثام : القناع ، وهو هنا القنـاع الذي يضعه من يسلك الفلوات ليقي وجهه شدة الحر . يقول : اذاً ، فاتركاني امض في الفلاة ولا دليل يهـديني ، وحر الظهيرة يشوي وجهي ولا قناع يقيني . ٣ ذي : اشارة الى الفلاة . وهذا: اشارة الى الهجير . الاناخة : النزول . المقام : الاقامة . يقول : اني اجد راحة في الفلاة وان سلكتها بلا دليل ، واجد راحة مع الهجير وان عرضت له وجهي بلا لثام ، ولكنني اجد تعباً مرهقاً في الاقامة هنا. ٤ الرواحل : النياق. حرت : وقعت في الحيرة وضلت الطريق . بغام : صوت الناقة اذا أنّت انيناً متقطعاً . ورازحة : قصد بها الناقة التي ترزح ، اي تبرك من شدة التعب . وقد اختلف الشراح في معنى هـذا البيت ، لكن اقرب معانيه انه يقول : عيني تقوم مقام عيون نياقي اذا لم تبصر نياقي الطريق ،وصوتي يقوم مقام اصواتها اذا هي رزحت فلم تستطع ان ترفع صوتاً ليهتدي الى مكاننا شخص ينقذنا وقد تهنا . ٥ بغير هاد : بغير دليل يرشدني . سوى عدي لها برق الغمام : سوى ان اعد، أي : احصي ، البرَقات التي تلمع في الغمام. يقصد بهذا البيت انه خبير بالسير في الفلوات ، فطالما استطاع ورود الماء بلا هادٍ يهديه، وذلك بان يرى السحاب ويعد برقاته. وكان العرب اذا برق السحاب سبعين برقة او مئة ايقنوا بالمطر .

يُذِمُّ لِمُهْجَتي رَبّي وَسَيفي ، إذا ٱحْتاجَ الوَحيدُ إلى ٱلذِّمامِ ١
وَلا أُمسي لِأَهلِ ٱلبُخلِ ضَيفاً وَلَيسَ قِرًى سِوَى مُخِّ ٱلنَّعامِ ٢

وهنا ينتقل المتنبي الى تفكير في بعض امور انسانية تفكيراً يظهر عليه طابع من حالته النفسية المتشائمة حين نظم القصيدة. ولكنه مع ذلك يُرسل حكماً بليغة ويوجه توجيهاً اخلاقياً عالياً ، لولا انه يضرب في البيتين الاولين من هذا المقطع مثلاً قبيحاً في المصانعة والمداهنة ومقت الناس جميعاً .

وَلَمّا صارَ وُدُّ النّاسِ خِبّاً جَزَيتُ عَلى ٱبتِسامٍ بِٱبتِسامِ ٣
وَصِرتُ أَشُكُّ فيمَنْ أَصطَفيهِ لِعِلمي أَنَّهُ بَعضُ ٱلأَنامِ ٤
يُحِبُّ العاقِلونَ عَلى التَّصافي ، وَحُبُّ الجاهِلينَ عَلى الوَسامِ ٥
وَآنَفُ مِنْ أَخي لِأَبي وَأُمّي إذا ما لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الكِرامِ ٦
أَرى ٱلأَجدادَ تَغلِبُها كَثيراً عَلى ٱلأَولادِ أَخلاقُ ٱللِّئامِ ٧
وَلَستُ بِقانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضلٍ بِأَنْ أُعزى إلى جَدٍّ هُمامِ ٨

١ يذمّ : يعطي الذمّة وهي العهد بالحفظ والحماية. المهجة: النفس . الوحيد : الذي يكون وحده. الذمام: مثل الذمّة . يقول : اذا احتاج الرجل ، الذي يكون وحده ، الى من يعطيه العهد بحفظه ، فاني لا احتاج الى احد وانا في ذمة ربي وسيفي. ٢ القِرى : طعام الضيف . المخّ : ما يكون في داخل العظم ، والنعام مشهور بان ليس في داخل عظمه مخ . والذي يطعم ضيفه مخ النعام لا يطعمه شيئاً . يقول : أفضل كل هذا الذي سبق ذكره من تعب في الفلوات وتعرض للاخطار على ان ابيت ضيفاً لبخلاء لا يقدمون القِرى . وقصد بأهل البخل كافوراً . ٣ ود الناس : صداقتهم . الخِبّ : المخادعة والكذب . جزيت على ابتسام بابتسام : اصبحت اقابل الابتسام بالابتسام ، اي : اخادع واكذب كما يخادع الناس ويكذبون . ٤ اصطفيه : اختاره صديقاً مخلصاً . وقوله : لعلمي ، يعني : بسبب علمي . والانام : الناس. ويروى عن المتنبي انه قال: كان كافور اذا دخلت عليه بشّ في وجهي حتى سمع مني هذين البيتين فما رأيته بعدها يبتسم في وجهي ، فعجبت من فطنته. ٥ التصافي، اي : تصافي القلوب والاخلاص المتبادل . الوسام ، ومثله الوسامة : جمال الصورة . يقول : ان العقلاء ينظرون الى تصافي القلوب اذا ارادوا الحب ، ولكن الجهال يحبون لجمال الصورة وحسن المنظر . ٦ آنف : اشمئز وابتعد . وقوله : أخي لابي وامي ، يعني اخاه الذي ولد واياه من ابوين لم يختلفا . ما ، بعد اذا ، زائدة . يقول : شرط في اخي، ولو كان من ابي وامي، ان يكون كريماً والا نبذته . ٧ تغلبها : تنتصر عليها . والمقصود بالاجداد ، الاجداد الكرام . يقول : ان اخلاق الاولاد اذا كانت لئيمة تغلبت على اثر اجدادهم فيهم وان كان اجدادهم كراماً . يعني : ان شرف الاصل لا يصلح المرء اذا كان في نفسه فاسد الاخلاق . ٨ أعزى : أنسب . والهمام : الكريم الشجاع . يقول : لا اقنع بان يكون فضلي كله انني من نسل جد كريم .

عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدٌّ وَحَدٌّ ، وَيَنْبُو نَبْوَةَ القَضِمِ الكَهَامِ [١]
ومن يَجِدُ الطَّرِيقَ إلى المَعَالي فلا يَذَرُ المَطِيَّ بلا سَنَامِ [٢]
وَلَمْ أَرَ في عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ [٣]

وبعد هذه التأملات والخواطر ، ينصرف المتنبي الى وصف مرضه في مصر ، ووصف الحمى التي كانت تصدقه مواعيدَ الزيارة ، فجعلته يؤكد ان الصدق شرّ اذا جلب الضرر العظيم على هذا النحو .

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلا وَرَائي تَخُبُّ بِيَ الرِّكَابُ ، ولا أَمَامِي [٤]
وَمَلَّنِيَ الفِرَاشُ ، وَكانَ جَنْبي يَمَلُّ لِقَاءَهُ في كُلِّ عَامِ [٥]
قَلِيلٌ عَائِدِي ، سَقِمٌ فُؤادِي ، كَثِيرٌ حَاسِدِي ، صَعْبٌ مَرَامِي [٦]
عَلِيلُ الجِسْمِ ، مُمْتَنِعُ القِيَامِ ، شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ المُدَامِ [٧]
وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً ، فَلَيْسَ تَزُورُ إِلّا في الظَّلامِ [٨]
بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ والحَشَايا ، فَعَافَتْهَا وبَاتَتْ في عِظَامِي [٩]

١ قد الانسان : قامته . حدّه : بأسه . ينبو : كلمة تستعمل للسيف اذا لم يقطع . القضم : السيف اذا تكسّر حده . الكهام : الذي لا مضاء فيه . يقول: اني اتعجب من الانسان اذا كانت له قامة مديدة وكان صاحب بأس كيف يرتدّ كالسيف المثلوم فلا يقدم على الامور ولا يمضي فيها . ٢ من ، في صدر البيت ، معطوفة على مَن في البيت السابق . يذر: يترك. المطي: جمع مطية، وهي ما يُركب من الابل. السنام: ما ارتفع من ظهر الجمل. يقول: واني اتعجب ممن يجد الطريق التي تؤدي الى المعالي فيقعد عن السير ولا يركب مطاياه ، مستمراً في ركوبها حتى يذيب ظهورها . ٣ التمام الكمال. والبيت من أبيات المتنبي السائرة على السنة الخواص والعوام. ٤ تخبّ: تسير خبباً، والخبب نوع من اسراع الابل والخيل . الرّكاب: قصد بها الابل. يقول: اقمت بارض مصر كأني مقعد ، لا تتحرك بي الابل في جهة . ٥ يقول: لطول مرضي سئمني الفراش، وكنت انا الذي يسأمه، ولو لم اكن أضع عليه جنبي الا مرة واحدة في العام، يعني انه كان متواصل الاسفار . ٦ العائد: الذي يزور المريض. يعني: ان زواره في مرضه قلائل، لانه غريب في مصر. سقم: بمعنى سقيم، اي: مريض. والمقصود هنا السقم بكثرة الهموم . وقوله : صعب مرامي ، فيه اشارة الى ما كان يحلم به من ولاية . ٧ ممتنع القيام : ممنوع على ان انهض من فراشي. وقوله شديد السكر من غير المدام، يعني به الدوار الذي كان يصيبه من الحمى ومن كثرة همومه ، فكأنه سكران من غير ان يشرب خمراً. ٨ زائرتي: قصد بها الحمى. وقد شبهها بفتاة تزوره، فلا تأتيه الا ليلاً لشدة حيائها من ان يراها الناس . ٩ المطارف: جمع مُطرف، وهو كساء من خز . الحشايا: جمع حشية، وهي الشيء المحشو من فراش ونحوه. عافتها: تركتها.

يَضِيقُ الجِلْدُ عَنْ نَفَسِي وعنها   فَتُوسِعُهُ بأَنْواعِ السَّقامِ ١
كأَنَّ الصُّبحَ يَطرُدُها فتَجْرِي   مَدامِعُها بأَرْبَعَةٍ سِجامِ ٢
أُراقِبُ وَقْتَها مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ   مُراقَبَةَ المَشُوقِ المُستَهامِ ٣
وَيَصْدُقُ وَعْدُها ، وَالصِّدْقُ شَرٌّ   إذا أَلْقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ ٤
أَبِنْتَ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ ،   فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الزِّحامِ ٥
جَرَحْتِ مُجَرَّحاً لَمْ يَبْقَ فيهِ   مَكانٌ لِلسُّيُوفِ ولا السِّهامِ ٦

ثم يعود المتنبي الى الرغبة العظيمة التي كانت تدور في رأسه حين نظم القصيدة ، وهي ان ينطلق من مصر ويتحرر من ظل كافور . وفي هذا المقطع يعطي المتنبي مثالاً من الفرق بين ذهنيتي العالم والشاعر . فالطبيب العالم لا يرى في مرض المتنبي وحالته المعتلّة في مصر الا اثراً من آثار الطعام والشراب ، بينما المتنبي الشاعر ينسب علته الى اكراهه على البقاء مع ما يعانيه من ثورة النفس وضيق الصدر .

أَلا يا لَيْتَ شِعْرَ يَدِي أَتُمْسِي   تَصَرَّفُ في عِنانٍ أَوْ زِمامِ ؟ ٧

١ يقول : ان هذه الزائرة التي تدخل في عظامي تذيب لحمي بما تحدثه لي من انواع السقام ، فيتسع علي جلدي ويفرغ تحته مكان لها ولانفاسي . ٢ المدامع : مجاري الدمع . واربعة : قصد بها اربعة ادمع تجري من اطراف العينين . وسجام : منسكبة . والمعنى ان الحمى تقلع عنه في الصبح ، وتكون علامة ذهابها عنه كثرة العرق على جسمه. وقد اعتبر هذا العرق دموع الحمى التي تبكي لفراقه . ٣ اراقب وقتها : اراقب وقت زيارتها . المستهام : الذي اشتد به العشق. يقول : تراني اراقب الوقت الذي تأتيني فيه هذه الزائرة كأني مشتاق متيم برغم اني لا اشتاقها . ٤ وهي تصدق في مواعيدها ويا له من صدق فيه شر لانه يضر . ٥ بنت الدهر: كناية عن المصيبة ، وبنات الدهر المصائب ، والشعراء العرب يتحدثون كثيراً عن الدهر وتقلباته وينسبون اليه الاذى ويشكون ظلمه . يخاطب المتنبي الحمى فيقول لها : ايتها المصيبة من مصائب الدهر، ان مصائب الدهر كلها محتشدة علي ، فكيف استطعت الوصول الي من ذلك الزحام الشديد ؟ ٦ المجرّح: الذي اصابته الجراح الكثيرة . يقول للحمى : انك جرحت رجلاً كثير الجراح ، لم يبق منه موضع تستطيع السيوف والسهام ان تُحدث فيه جرحاً جديداً . والمقصود بالجراح ما هو فيه من مصائب وآلام . ٧ ليت شعري تعبير معناه : ليتني اشعر ، اي : اعلم . وليت شعر يدي ، اي : ليت يدي تعلم . تصرف : اصلها تتصرف، حذفت منها التاء . العنان: سير اللجام وهو للفرس . والزمام: المقود ويغلب استعماله للناقة . يقول : ليت يدي تعلم هل تمسي قابضة على عنان فرس او زمام ناقة تخرج بي من هذا البلد !

وَهَلْ أَرْمِي هَوَايَ بِرَاقِصَاتٍ مُحَلَّاةِ الْمَقَاوِدِ بِاللُّغَامِ ١
فَرُبَّتَمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي بِسَيْرٍ أَوْ قَنَاةٍ أَوْ حُسَامِ ٢
وَضَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا خَلَاصَ الْخَمْرِ مِنْ نَسْجِ الْفِدَامِ ٣
وَفَارَقْتُ الْحَبِيبَ بِلَا وَدَاعٍ ، وَوَدَّعْتُ الْبِلَادَ بِلَا سَلَامِ ٤
يَقُولُ لِيَ الطَّبِيبُ أَكَلْتَ شَيْئاً وَدَاؤُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طِبِّهِ أَنِّي جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجَمَامِ ٥
تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبِّرَ فِي السَّرَايَا ، وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ ٦
فَأُمْسِكَ لَا يُطَالُ لَهُ فَيَرْعَى ، وَلَا هُوَ فِي الْعَلِيقِ وَلَا اللِّجَامِ ٧

وهكذا يستنفد المتنبي ما في نفسه من ثورة ، فيقبل على ختام القصيدة بهذه التأملات التي تخلع عليه صفة فيلسوف هادىء الطبع :

فَإِنْ أَمْرَضْ فَمَا مَرِضَ اصْطِبَارِي ، وَإِنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمَّ اعْتِزَامِي ٨

١ الراقصات ، قصد بها : الابل التي تسير كأنها راقصة . المقاود: جمع مقود ، اي : الزمام . اللغام: الزبد الذي يخرج من فم الابل اذا اجتهدت في السير. وقوله : وهل ارمي هواي براقصات، يعني : هل افعل ما اشتهي. والبيت تتمة لمعنى البيت السابق، يقول : وهل افعل ما اشتهي، راكباً ظهور نياق قد حلى الزبد مقاودها لاجتهادها في السير ؟ ٢ ربتما : ربما . قناة: يقصد بها الرمح . غليل الصدر : لهفته وحرقتـــه وعطشه . وشفيت غليل صدري : اطفأت حرقتي وبلغت مقصدي . ٣ الفدام : المصفاة من قماش رقيق توضع عـــلى فم الابريق لتصب ما فيه صافياً . يقول: ربما ضاق علي الامر فاستطعت ان اخلص منه نقياً من كل شائبة كما تخلص الخمر رائقة من المصفاة . ٤ يقصد انه يسافر فجأة ، ولا يعوقه وداع الحبيب ولا السلام عـــلى البلاد ، لانه في سبيل الخلاص من الضيم يضحي كل عاطفة . ٥ قوله : وما في طبه، يعني : لا يمكنه طبه ان يعلم. الجواد : الفرس الكريم . الجمام : الراحة . يقول : ولا يستطيع الطبيب بطبه ان يعلم اني لم امرض لكوني تناولت نوعـــاً من شراب او طعام بل لكوني جواداً اضرت به الراحة . ٦ السرايا :جمع سرية وهي القطعة من الجيش .ويغبر: يثير الغبار ، والمقصود انه يخوض الحرب . القتام : الغبار . والبيت متابعة وصف الجواد الذي اضرت به الراحة ، وعنى بالجواد نفسه . ٧ امسك : ربط في مكانه . لا يطال له فيرعى ، اي : لا يمد له في الحبل ، فيستطيع التجوال في المرعى . ولا هو في العليق ولا اللجام ، اي: ولم يقدم العليق لهذا الجواد، ولا ترك في اللجام ينطلق سائراً . وكنى المتنبي بحالة هذا الجواد عن حالته مع كافور. ٨ وان احمم : وان اصب بالحمى. يقول: لئن مرضت في جسمي فاني لم امرض في صبري وتجلدي، ولئن اصبت بالحمى في بدني فاني لم اصب بالحمى في عزيمتي واقدامي.

وَإِنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبْقَى ، وَلٰكِنْ سَلِمْتُ مِنَ ٱلْحِمَامِ إِلى ٱلْحِمَامِ [١]
تَمَتَّعْ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ ، وَلا تَأْمُلْ كَرًى تَحْتَ ٱلرِّجَامِ [٢]
فَإِنَّ لِثَالِثِ ٱلْحَالَيْنِ مَعْنًى سِوَى مَعْنَى ٱنْتِبَاهِكَ وَٱلْمَنَامِ [٣]

حاشية: نُقِلَ نَصّ هذه القصيدة من كتاب **«العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب»** وهو شرح لديوان المتنبي بدأه الشيخ ناصيف اليازجي أحد اعلام اللغة والشعر من اللبنانيين في القرن التاسع عشر ، ثم اتمّه ولده الشيخ ابراهيم اليازجي وذيّله ببحث نفيس في نواحٍ من شعر الشاعر . و«العرف الطيب» من افضل الكتب التي يقتنيها الراغب في مطالعة شعر المتنبي وفهمه .

من شاعر اسير الى امه

ابو فراس الحارث بن سعيد الحمداني ، أمير وفارس قائد من امراء الدولة الحمدانية وفرسانها وقادتها ، ولكن الذي حفظ ذكره على الدهر روحه العذبة وشعره الرقيق .

كان ابن عم لسيف الدولة ومعاصراً للمتنبي وخصماً له . عاش عمراً قصيراً جداً : مات مقتولاً في الخامسة والثلاثين ، في خلاف شجر بينه وبين ابن سيف الدولة . وكان يقول الشعر في اغراضه النفسية الخاصة لا يتخذه حرفة للتكسب . فهو شاعر غنائي شخصي محض .

واعمق الحوادث أثراً في حياته وقوعه في اسر البيزنطيين ، في معركة من تلك المعارك المستمرة على الحدود بين الدولتين البيزنطية والحمدانية .

وسيق ابو فراس اسيراً حتى بلغ القسطنطينية ، وتأخر ابن عمه سيف الدولة عن افتدائه بالمال ، فطال اسره . وفي هذه البرهة من حياته قال افضل طائفة من القصائد في ديوانه [٤] وهي القصائد التي عرفت بـ **الروميات** لانه نظمها في ارض الروم ، ومن تلك البلاد

١ الحمام : الموت . يقول : على اني اذا سلمت من الحمى فلن اخلد ، بل ستكون سلامتي من الموت اليوم لاقع فريسة الموت في غد .   ٢ تمتع : خذ حظاً واهنأ . السهاد : السهر . الرجام : حجارة تقام على القبر . يقول : اهنأ بما شئت من سهر او نوم ما دمت حياً ، فانك تحت حجارة القبر لن تهنأ بنوم ولا سهر .   ٣ ثالث الحالين ، قصد بها الموت الذي اعتبره حالة ثالثة خاصة بين السهر والنوم . يقول : ان الموت له معنى غير معنى يقظتك ورقادك . ولكن المتنبي لم يعين هذا المعنى ، وكانت عادته ان يثير المسائل فيما يتعلق بالمصير وراء الحياة ثم لا يجيب .   ٤ لابي فراس ديوان مطبوع .

وجهها الى ابن عمه سيف الدولة في حلب ، والى امه العجوز في منبج بقرب حلب، والى اهله وخلانه .

وأحر عاطفة واقواها في شعر ابي فراس ، في الاسر ، عاطفة العتب الشديد على ابن عمه سيف الدولة لابطائه عنه في دفع الفدية ، وعاطفة الحنين الى امه، وهو وحيدها ، وهي التي ربته طفلاً يتيماً فبقيت على تعلقها به كأنه طفل ، وبقي على تعلقه بها يشتاقها ويناجيها وفي شوقه ونجواه كثير من عذوبة ما يكون بين الاطفال وامهاتهم .

والابيات التي نثبتها فيما يلي ، مقطوعة من شعره خاطب بها في وحشة الغربة وضيق الاسر امه العجوز الملتاعة في منبج .

ويتجلى ابو فراس في هذه الابيات شاعراً غنائياً، كما وصفناه، رقيقاً عذب الروح. ولكن عذوبة روحه لا تعني ضعفاً في وجه هذا البلاء الذي يتمرس به . فهو حريص ان يقول – لكي يفهم ابن عمه سيف الدولة – ان مطالبته اياه بالفدى لم تكن عن دناءة ولا انكسار نفس بل نزولاً عند رغبة هذه الام اللهفى المحزونة. ثم يصف امه ويدعو لها ويناجيها باسهل الالفاظ وباقرب المعاني التي تفهمها والتي تعينها على العزاء ، وهو في اثناء ذلك كله يتحاشى ان يذكر لها سوء حاله ، برغم ما يعاني من سوء الحال ، لئلا يزيد في غمها وحزنها .

قال ابو فراس :

لَوْلَا العَجُوزُ بِمَنْبِجٍ مَا خِفْتُ أَسْبَابَ المَنِيَّهْ ،
وَلَكَانَ لِي عَمَّا سَأَلْـ ـتُ مِنَ الفِدَى نَفْسٌ أَبِيَّهْ ! [١]
لٰكِنْ أَرَدْتُ مُرَادَهَا ، وَلَوِ انْجَذَبْتُ إِلَى الدَّنِيَّهْ ! [٢]
أَمْسَتْ بِمَنْبِجَ حُرَّةٌ بِالْحُزْنِ مِنْ بَعْدِي حَرِيَّهْ [٣]

١ يقول : ولكانت نفسي تأبى ان افعل ما فعلت ، فاسأل الفدى . ٢ الدنية : الفعل الدنيء . وسمى ابو فراس طلبه للفدى فعلاً دنيئاً لما رأى من مماطلة ابن عمه له . يعني ابو فراس : ما دام ابن عمي مماطلاً بهذا المقدار ، فلم يكن مستحقاً ان اطلب منه الفدي ، وفدي الاسير يعتبر عملاً من اعمال المروءة، ومن ماطل فيه لم يكن كريماً. وهكذا يكون في قول ابي فراس : « ولو انجذبت الى الدنية » تعريض شديد بابن عمه سيف الدولة.
٣ حرية : جديرة ، خليقة .

لَا زَالَ يَطْرُقُ مَنْبِجاً مَعْ كُلِّ غَادِيَةٍ تَحِيَّه [1]
فِيهَا التُّقَى والدِّينُ مَجْمُوعَانِ فِي نَفْسٍ زَكِيَّه [2]
يَا أُمَّتَا ! لا تَحْزَنِي ، وَثِقِي بِفَضْلِ اللهِ فِيَّه [3]
يَا أُمَّتَا ! لَا تَيْأَسِي ، لِلهِ أَلْطَافٌ خَفِيَّه [4]
أُوصِيكِ بِالصَّبْرِ الْجَمِيـلِ ، فَإِنَّهُ خَيْرُ الوَصِيَّه !

الشاعر الأسير والحمامة النائحة

ومن رقائق ابي فراس ، من شعره في الاسر ، قوله وقد سمع في سجنه هديل[5] حمامة :

أَقُولُ ، وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ : أَيَا جَارَتَا ! لَوْ تَعْلَمِينَ بِحَالِي ! [6]
مَعَاذَ الْهَوَى ، مَا ذُقْتِ طَارِقَةَ النَّوَى ؛ وَلَا خَطَرَتْ مِنْكِ الْهُمُومُ بِبَالِ . [7]
أَيَا جَارَتَا ، مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا ، تَعَالَيْ أُقَاسِمْكِ الْهُمُومَ ، تَعَالِي ، [8]
تَعَالَيْ ، تَرَيْ رُوحاً لَدَيَّ ضَعِيفَةً تَرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذَّبُ بَالِ . [9]

١ يطرق : يزور . الغادية : السحابة المقبلة صباحاً وفيها غيث . وجمعها : الغوادي . والعرب اذا قالت : زارتك الغوادي ، وسقتك الغوادي ، فانما تعني الدعاء بالخير والرحمة . ٢ نفس زكيّة : نفس فاضلة لا خبث فيها . ٣ يا أمتا : يا أمي ، والمقصود هنا بهذه الصيغة من النداء ، التحبب . والتاء : تاء التأنيث، تلحق بالأم والاب عند حذف ياء المتكلم ،فيقال : يا أمةُ ويا ابتُ . والهاء في قوله: فيه، مزيدة للقافية. ٤ الطاف ، بمعنى : مراحم . ٥ هديل الحمامة : صوتها ، ويكون كثيباً . وفي الاساطير القديمة عند عوام العرب ان الهديل اسم لذَكَر حمامة، اضاعته ، فما برح الحمام منذ ذلك الحين يدعو بهذا الصوت الشجي الباكي. ٦ جواب «لو» في قوله : لو تعلمين بحالي ، محذوف ، وتقديره : فماذا كنت تصنعين . يعني : انها تنوح وهي حرة في الفضاء الطلق ، فماذا كانت صانعة لو انها اسرت وسجنت مثله ؟! ٧ الهوى : الحب . معـاذ الهوى ، اي : أجل الهوى ان تعرفيه وانت لا تعقلين كما يعقل البشر . النوى : الفراق . طارقة النوى : المصيبة بالفراق. يقول لها : الهوى اجلّ من ان تعقليه انت ، وعذاب الفراق شيء لا تحسينه ، والهموم بعيدة عن ان تخطر ببـالك . وقد انتقدوا ابا فراس في هذا المعنى ، فقالوا : ان الحمام من بين الطيور كلها يحب ويحس الم الفراق . ولكن لعل الذي قصده ابو فراس ان تلك الحمامة التي سمع نوحها لم يكن لها حق في النوح وهي على حالها حرة سعيـدة .
٨ ما انصف الدهر بيننا : لم يحكم بيننا حكماً عادلاً . وكسر همزة اللام في تعـالي للقافية ، وهو جـائز .
٩ تردد : تتردد ، حذفت التاء من اولها ، وهو جائز . ومعنى تردد، هنا : تجول.

أَيَضْحَكُ مَأْسُورٌ، وَتَبْكِي طَلِيقَةٌ، وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ، وَيَنْدُبُ سَالٍ؟! [1]
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكِ بِالدَّمْعِ مُقْلَةً، وَلٰكِنَّ دَمْعِي فِي الحَوَادِثِ غَالٍ! [2]

تمرين

- انثر هذه الابيات لابي فراس في مناجاة الحمامة .
- ماتت أم ابي فراس وكان ما يبرح اسيراً في القسطنطينية ، فقال يرثيها . اضبط هذه الابيات بالشكل واشرح معانيها :

أيا ام الأسير

أيا أم الأسير ! سقاك غيث ، بكره منك ما لقي الأسير
ايا أم الأسير ! سقاك غيث ، الى من بالفدى يأتي البشير ؟
اذا ابنك سار في بر وبحر ، فمن يدعو له ، او يستجير ؟
حرام ان يبيت قرير عين ، ولؤم ان يلمّ بــه السرور
وقـد ذقت الرزايا والمنايا ولا ولد لديك ولا عشير
وغاب حبيب قلبك عن مكان ملائكة السماء له حضور !
ليبكك كل مضطهد مخوف أجرتيه ، وقد قلّ المجير .

•

أيا أماه ! كم سر مصون بقلبك مات ليس له ظهور
أيا اماه ! كم بشرى بقربي أتتك ، ودونها الأجل القصير
الى من اشتكي ؟ ولمن اناجي ؟ اذا ضاقت بما فيها الصدور
بأي دعاء داعيـة أوقى ؟ بأي ضياء وجـه أستنير ؟

١ سال : اسم فاعل من سلا ، يسلو ، اي : نسي الهم والحزن والحب. ٢ اولى : احق واجـدر . غال : عزيز، غير رخيص . يقول : انه كان احق من الحمامة بالبكاء ولكنه لا يبذل دموعه رخيصة في الحوادث . وابو فراس يكرر هذا المعنى في شعره .

حاشية : بحر هذه القصيدة . — نظم ابو فراس قصيدته هذه على **الوافر** ، ووزنه التام :

مُفَاعَلَتُنْ مفاعلتن فعُولُنْ   مفاعلتن مفاعلتن فعولن

ويجوز في « مفاعلتن » تسكين اللام فتصبح مُفَاعَلْتن ، اي : مفاعيلن .

اخترْ بيتاً من هذه القصيدة وقطّعه . بماذا تصف رنة الكلام المنظوم على الوافر ؟

انظر على اي بحر نظم المتنبي قصيدته : « حمّى وثورة نفس » .

١ – أشهر أغراض الشعر الغنائي

ولم يقتصر الشعر الغنائي العربي على غرض واحد ، ولكنه تشعب في اغراض كثيرة وفقاً لحركات النفس الانسانية تلقاء المجتمع والطبيعة . وهذه اشهر اغراض الشعر الغنائي في الادب العربي ، مع تحديدها وذكر تاريخ ازدهارها والتعليق عليها بشيء من النقد .

الغزل . – وموضوعه الحب والعشق[١] . ومنه **النسيب والتشبيب** ، وهما ذكر المرأة والتعريض بحبها واستعادة ايام الشباب .

وليس في عصور الشعر العربي عصر لم يعرف الغزل . الا ان هذا الغرض من اغراض الشعر **ازدهر بوجه خاص في العصر الاموي** .

والغزل العربي طريقتان: **العذرية والحضرية** . وشاعت الطريقة الاولى في البادية، وكان زعيمها جميل بن معمر العذري، وانتشرت الطريقة الاخرى في الحجاز ، وكان زعيمها عمر بن ابي ربيعة القرشي: شاعر من طبقة ارستوقراطية ،عربية اسلامية،تكونت في العصر الاموي، وانصرفت عن السياسة طوعاً الى التجارة وجمع الثروة ، او هي صُرفت عن السياسة باكراه او اغراء من الامويين ، فاتخذت هذا الغزل الذي عرف بالغزل الحضري ألهوة تتلهى بها.

اذا اقتصر الشاعر على شرح الاشواق وشكوى الفراق ، كان غزله محتشماً عذرياً ، نسبة الى بني عذرة وهم القبيلة التي ذكرنا انها ذهبت مذهب العفة في علائق المحبين . ويدخل في هذا الباب **غزل الفرسان** ، وهو الشعر الذي ينظمه شاعر فارس يناجي به الحبيب في اثناء وصف الوقائع الحربية .

ويسمى الغزل العذري **غزلاً بدوياً** ايضاً لانه شاع ، كما ذكرنا ، في البادية ، واهلها يعلقون اهمية كبرى على الاعراض فلا يتسامحون في ان يبين الشاعر عن محاسن المرأة بشعره ، بل طالما ابوا عليه زواجها لمحض انه ذكرها في قصائده وعرّض برغبته فيها .

واذا تطرف الشاعر في وصف محاسن الحبيب ولذّات اللقاء كان غزله اباحياً او حضرياً

١ ومن الغزل ما يكون موضوعه الحب والعشق الالهي . فيتغزل الشاعر بالعزة الالهية ويستعير الفاظ الغزل العادي وكثيراً من معانيه . ويعرف هذا الشعر بالصوفي ، وابرز شعرائه : ابن الفارض ، عاش بين القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، في مصر ، ايام الايوبيين .



جميل بثينة

نسبة الى الحضر، وهم اضعف غيرة. واذا كان المجتمع الذي يعيشون فيه مجيزاً للرق، كثر اقتناء النساء الجواري واستبيحت في مخالطتهن ، وفي الغزل بهن ، ضروب من الاباحة والخلاعة على نحو ما حدث من بعدُ في الاعصر العباسية .

وبعض الغزل الحضري يبلغ فيه الشاعر مبلغ التهتك ، فيسمى غزلاً مجونياً وهو هزيل القيمة في ميزان الادب العالي وأكثر المجون في الشعر عباسي او هو يتصل بذوق عباسي .

ومن خصائص الغزل – وسواء منه العذري والحضري – **ان يكون رقيق الالفاظ جميل الصور تتجلى فيه حرارة العاطفة ولطف الحس .**

ومن رقيق الغزل البدوي قول جميل بثينة :

لَقَدْ فَرِحَ الوَاشُونَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلِي ... بُثَيْنَةُ ، أَوْ أَبْدَتْ لَنَا جَانِبَ ٱلْبُخْلِ ١
يقولونَ : مَهْلًا يا جَمِيلُ ، وإِنَّني ... لَأُقْسِمُ ما لي عَنْ بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلِ !
وَلَوْ تَرَكَتْ عَقْلِي مَعِي ما طَلَبْتُهَا ، ... ولكنْ طِلَابِيهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي ٢
اذا ما تَرَاجَعْنَا الذي كانَ بَيْنَنَا ، ... جَرَى ٱلدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْ بُثَيْنَةَ بِالكُحْلِ ٣
فَيَا وَيْحَ نَفْسِي ، حَسْبُ نَفْسِي الَّذي بِهَا ، ... وَيَا وَيْحَ أَهْلِي ، ما أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي ! ٤

١ الواشون : جمع الواشي ، وهو من ينقل الاخبار الكاذبة بين المتحابين. ٢ طلابيها: طلبي اياها.
٣ ما ، هنا، زائدة. تراجعنا : رجعنا الى الماضي وتذكرناه . ٤ حسب نفسي الذي بها : يكفي نفسي ما بها من عذاب .

خليليَّ ! فيما عِشتُما ، هَل رأيتُما قتيلاً بَكى مِن حُبِّ قاتِلِهِ قبلي؟[1]

ومن لطيف الغزل الحضري قول عمر بن ابي ربيعة :

وَلَوْلا أنْ تُعنِّفَني قُرَيْشٌ ، وَقَولُ ٱلنَّاصحِ ٱلأَدْنى ٱلشَّفِيقِ[2]
لَقُلْتُ : إذا ٱلتَقَيْنَا قَبِّلِيني ، وَلَوْ كُنَّا عَلَى ظَهرِ ٱلطَّرِيقِ !

المدح او المديح. —وهو اوسع الاغراض انتشاراً في عصور الادب العربي جملة، الا انه كان في الجاهلية اقل. والاصل في المدح **ان يمجد الشاعر رجلاً او قوماً بصفات وافعال تعجب .**
وافضل الصفات ما كان **معنوياً** في الممدوح من مثل الكرم والشجاعة والوفاء والعدل. وافضل الافعال ما صدر فيه فاعله عن مثل تلك الصفات .

وكان الممدوحون الذين يذوقون الشعر ويفهمونه حقاً، يأنفون ان يُمدحوا الا بالصفات المعنوية . ولذلك غضب الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان على عبيد الله بن قيس الرقيّات حين مدحه بقوله :

يَعتَدِلُ ٱلتَّاجُ فَوقَ مَفرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كأنَّهُ الذَّهَبُ

وكان عبيد الله بن قيس شاعراً في العصر الاموي منحازاً الى الزُّبيريّين الذين نازعوا الامويين الخلافة. فقال له عبد الملك : ويك، تمدحني بالتاج وتشبّه جبيني بالذهب، أما مصعب ابن الزبير فتقول فيه:

إنَّما مُصْعَبٌ شِهَابٌ من الله تَجلَّتْ عَنْ وَجهِهِ الظَّلْماءُ

اراد عبد الملك : ان مدحه بالتاج على رأسه ، ثم بتشبيه جبينه بالذهب ، ليس من المدح في شيء لانه لا يتعلق بصفات تَفضُل في نفسه وأعماله . فرب رأس عليه تاجٌ والرأس فارغ ! والجبين الشبيه بالذهب ، ان كان جمالاً في الخِلقة ، فالنساء يُمدَحن بجمال الخلقة لا الرجال !
وكثيرٌ من الشعراء تعرّض لسقطات كتلك التي تعرّض لها عبيد الله بن قيس الرقيات في مدح عبد الملك بن مروان. وللمتنبي سقطات من هذا النوع، غير انه كان اذا مدح بدافع

١ فيما عشتما : أي طول حياتكما . ٢ تعنفني : توبخني. و « قول الناصح الادنى الشفيق » ، اي ما ينصحني به الاقرباء المشفقون .

حب واعجاب واخلاص ، فطن لاشيـــاء عجيبة في دقة المدح وروعته . مثال ذلك قوله لسيف الدولة :

أَلجيشُ جيشُكَ ، غيرَ أنَّكَ جيشُهُ في قلبِهِ ويمينِهِ وشمالِهِ [١]
تَرِدُ الطِّعانَ المُرَّ عن فرسانِهِ ، وتُنازلُ الأبطالَ عن أبطالِهِ [٢]
كُلٌّ يُريدُ رِجالَهُ لِحَياتِهِ يا مَنْ يُريدُ حياتَهُ لِرِجالِهِ !

فتأمل كيف بدأ بقوله لسيف الدولة : انت صاحب الجيش ، وهو مدح ضعيف جداً ، ثم كيف خلص الى ذلك المعنى العظيم من معاني المدح في البيت الاخير .

هذا ، وليس يحسن المدح الا ان يكون صادقاً لم يكذب فيه الشاعر ولم يبالغ ،ولم يغلُ فيه على نفسه ولا على الممدوح ولا على الناس ، اما لطمع او خوف . **والصدق هو الذي حمل القدماء على الاعجاب بطريقة الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى في المدح**، فقالوا : كان لا يمدح امرءاً الا بما فيه .

ولو ان الشعراء واظبوا على هذا الصدق لكان غرضُ المدح من أجلّ الاغراض الشعرية ، لان الشاعر حين يمدح امرءاً بفضائل ومآثر حقيقية فانما يضرب قدوة للنـــاس تسمو بهم . ولكن شعراء كُثراً جعلوا المدح تكسّباً من الملوك والاثرياء، وتملّقاً لاصحاب النفوذ ، وتزلفاً [٣] في سبيل منفعة شخصية ، وذلك بعدمـا عظم شأن الدولة وشأن البلاط في ايام بني أميّة وبني العباس . فنـــافق كثير من الشعراء على انفسهم وعلى الناس في مدح من لا يستحقون مدحاً ، فخسّت قيمة هذا الغرض الجليل .ولكن فريقاً من الشعراء لم يرض عن تلك السيرة فذمها ونبذها ، كما يظهر في قول عمران بن حطان احد شعراء الخوارج :

أيُّها المادِحُ العِبادَ لِيُعطى ، إنَّ لِلّهِ ما بِأيدي العِبادِ !
فاسألِ اللّهَ ما طلبتَ إليهِمْ ، وارْجُ فضلَ المُقسِمِ العوّادِ [٤]
لا تقُلْ في الجَوادِ ما ليسَ فيهِ ؛ وتُسمِّ البَخيلَ باسمِ الجَوادِ ! [٥]

١ القلب واليمين والشمال : من اقسام الجيش . ٢ ترد ، مضارع وَرَدَ ، وهي هنا بمعنى : تستقبل ، فتلقى . المر ، هنا ، بمعنى: الشديد . ٣ تزلفاً : تقرباً . ٤ المقسم العواد ، يقصد به : الله . ٥ الجواد : الكريم .

وتسمى قصائد المدح مدائح واماديح . وقد اوشك ان يكون لهذه القصائد مَنهجٌ مرسوم في الشعر العربي ، وذلك بان يستهل الشاعر قصيدته بمقدمة قبل الدخول في موضوع المدح ، واكثر ما تكون تلك المقدمة غزلاً أو وقوفاً على ديار الاحبة الراحلين ، او وصفاً للفلوات يقطعها الشاعر على ناقته سعياً الى الممدوح .

(انظر في منتخبات هذا الفصل مقطعين في المدح لزهير بن ابي سلمى والنابغة الذبياني) .

الاعتذار . — وهو باب **من ابواب المدح** ، سُمّي بالاعتذار لان الشاعر يعتذر فيه عن اساءة الى الممدوح . وأشهر من تعاطى هذا الغرض النابغة الذبياني ، الشاعر الذي غضب عليه ملك الحيرة النعمان الثالث أبو قابوس ، فنظم في استرضائه جملة من قصائد عُرفت **بالاعتذاريات** ، تجد منها اعتذارية في المنتخبات الملحقة بهذا الفصل .

الرثاء . — وهو نوعان : **رثاء خاص** ، كرثاء ابن الرومي لولده الاوسط ، يصف به الشاعر حزنه ولوعته على عزيز فُجعَ بفقده ، **ورثاء عام** يشيد فيه الشاعر بمآثر عظيم ادركته المنية ويصف فادح المصيبة فيه .

وقد عرف الشعر العربي الرثاء في جميع عصوره . ومن المعاني التي تتردد كثيراً في الرثاء العربي صولةُ الموت وسلطانُ الفناء الذي أباد غابر الاجيال ، والذي يبيد كل الاجيال ولا تنجع[1] فيه حيلة. وبهذا المعنى ، كثير من الرثاء العربي يدفع الى القنوط ، واذا عزّى فعزاء اليأس ، مع ان خير الرثاء ما قضى حق الميت وعزى الاحياء دون ان يقنطهم من الحياة.

وقد توسّع علماء الشعر في معنى الرثاء فألحقوا به الشعر الذي يُتفَجّع به لكارثة شعب او دولة او مدينة . مثالُ ذلك قصيدة ابن الرومي في البكاء على البصرة حين ثارت الزنج في اواخر القرن التاسع الميلادي — ايام العباسيين — فدخلوها واخربوها .

والرثاء كالمدح لا يجود الا بان تصدق فيه عاطفة الشاعر ، وبان يكون المرثي اهلا لما يُذكر عنه من مناقب .

والقصيدة في الرثاء تسمى المرثاة وجمعها المراثي . (انظر في منتخبات هذا الفصل قصائد في الرثاء للمهلهل بن ربيعة والخنساء وجرير) .

[1] تنجع : تفيد ، تجدي.

الهجو او الهجاء . — وهو ضد المدح . يُصوّر فيه الشاعر فرداً او جماعة او عادة من العادات ، او شيئاً من اشياء الوجود ، **بصور قبيحة ماسخة** . وغاية الهجاء تنفير النفس من المهجوّ وحملها على احتقاره والهزؤ به . والهجو من الاغراض التي عرفها الشعر العربي في جميع عصوره ، الا انه ازدهر في العصر الاموي بوجه خاص ، فكان واسطة للمقارعة بين القبائل والاحزاب والاشخاص .

والهجاء يوصف **بالموجع** حين ينال من المهجو نيلاً شديداً ، وينعت **بالمُقذع** حين يستعمل اللفظ البذيء . وأخفّ درجات الهجاء ، ما كان **عبثياً** يذهب فيه الشاعر الى مداعبات تُضحك القارىء وتُضحك حتى المهجوّ نفسه .

ومن الصفات التي تحمد في الشاعر الهجّاء **مرارة اللسان و المقدرة على السخر والتهكم** . وأفضل الهجاء ما تصدّى فيه الشاعر لتقبيح خصلة مرذولة كالذلّ وقبول الرشوة ، او لتقبيح شخص يوقع ضرراً بالمجموع كالحاكم الظالم .

وتُسمّى القصيدة الهجائية ، أهْجوّة ، وجمعها أهاجي . واذا نظم شاعر قصيدة في هجاء شاعر آخر ، فردّها عليه الآخر بمثلها ، على نحو ما كان يفعل الفرزدق وجرير والاخطل وغيرهم في العصر الاموي ، عُدّت القصيدتان في **النقائض** ، أي : الشعر الذي ينقض بعضه بعضاً ، وكثيراً ما تكون النقيضتان من الوزن نفسه والقافية نفسها . (انظر في منتخبات هذا الفصل : امثلة من الهجاء) .

التحريض . — ومداره على **استنهاض الهمم** لدفع عدو ورفع ضيم . (انظر منتخبات هذا الفصل) .

العتاب . — ومداره على شكوى الشاعر من سوء معاملة يلقاها ، او يلقاها اهله او قومه . فاذا اتي العتاب لطيفاً ناعم اللهجة سمي **العتاب الرقيق** . واذا صار فيه الشاعر الى الخشونة والتخديش عرف **بالعتاب الجافي** وقرب من الهجاء . واذا انقلب فيه الى الانذار والوعيد سمي **تهديداً** . واذا كان العتاب موجهاً الى الدهر وتقلب الايام عرف بشكوى الزمان .

ومن اشهر شعراء العتاب في الادب العربي : ابو فراس الحمداني . وسنعقد له فصلاً خاصاً .

منتخبات

مثالان في المدح

مجالس قد يشفى باحلامها الجهل

طالت حرب السباق في الجاهلية بين قبيلتي عبس وذبيان ، وعظم سفك الدم بين القبيلتين حتى سعى في الصلح سيدان هما : هرم بن سنان والحارث بن عوف ، فتبرعا بدفع ديات القتلى منعاً للثأر . فقال زهير بن ابي سلمى يمدح هرم والحارث:

تَدَارَكْتُمَا الأَحْلَافَ ، قَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا ،
وَذُبْيَانَ ، قَدْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ ١
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ سَبِيلُكُمَا فِيهِ ــ وإنْ أَحْزَنُوا ــ سَهْلُ ٢
إِذَا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ بِالنَّاسِ أَجْحَفَتْ وَنَالَ كِرَامَ النَّاسِ فِي السَّنَةِ الأَكْلُ ٣
رَأَيْتَ ذَوِي الحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ قَطِيناً بِهَا ، حَتَّى إِذَا نَبَتَ البَقْلُ ٤

١ تدارككما : تلافيتما ، انقذتما . الاحلاف : القوم المتحالفون . ويُقصد بهم هنا : عبس ومن نصرها في الحرب من أسد وطيء . ثُلّ عرشها : هُدِم . وجملة : ثل عرشها في محل نصب على الحالية. زلت باقدامها النعل: عثرت واصيبت بمكروه . والجملة في محل نصب على الحالية ايضاً . ٢ منها ، اي : من السلم التي سعيتما في عقدها . احزنوا: ساروا في الارض الغليظة التي يصعب السير فيها. وقوله هذا كناية عما نزل بالمتحاربين من بلاء. يقول لهرم والحارث : انكما اصبحتما في خير موطن بهذه السلم التي سعيتما في عقدها ، واصبح سبيلكما سهلاً ، بينما اصاب المتحاربين بلاء شديد . ٣ الشهباء : البيضاء . والمقصود بالسنة البيضاء التي لا يكون فيها نبات لشدة الصقيع والبرد . والسنة ايضاً ، تعني عام الجدب والقحط . اجحفت بالناس : ضيقت عليهم وجارت. الاكل ، تصد به : ما يضطر اليه الناس من اكل ابلهم وجميع مواشيهم في اعوام الجدب . ٤ قطيناً بها : سكاناً فيها لا يفارقون . ونبت البقل : كناية عن الخصب . يقول : ان اصحاب الحاجات يقيمون في بيوت هؤلاء الكرام على طعام وشراب ، فلا ينصرفون الا عند نبات البقل وذهاب الازمة ؟

هُنالِكَ إنْ يُستَخبَلوا المالَ يُخبِلوا ،
وإنْ يُسألوا يُعطُوا ، وإنْ يُيسِروا يُغلُوا [١]

وفيهِمْ مقاماتٌ حِسانٌ وُجوهُهُمْ ، وأنديَةٌ يَنتابُها القَوْلُ والفِعلُ [٢]
على مُكثِريهِمْ رِزقُ مَنْ يَعتَريهِمِ ، وعِندَ المُقلّينَ السَّماحَةُ والبَذْلُ [٣]
وإنْ جِئتَهُمْ أَلفَيتَ حَولَ بُيُوتِهِمْ مَجالِسَ قَدْ يُشفَى بأحْلامِها الجَهلُ [٤]
وإنْ قامَ فيهِمْ حامِلٌ قالَ قاعِدٌ رَشَدْتَ ، فَلا غُرمٌ عَلَيكَ وَلا خذلُ [٥]
سَعَى بَعدَهُمْ قومٌ لِكَيْ يُدرِكُوهُمُ ، فَلَمْ يَفعَلوا، وَلَمْ يُلامُوا، وَلَمْ يَألُوا [٦]
وَما يَكُ مِنْ خيرٍ أَتوهُ فإنَّما تَوارَثَهُ آباءُ آبائِهِمْ قَبلُ [٧]
وَهَلْ يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلّا وَشيجُهُ وَتُغرَسُ إلّا في مَنابِتِها النَّخلُ ؟ [٨]

النابغة الذبياني يمدح الغساسنة

ومن اشعار المدح الشهيرة قول النابغة الذبياني يمدح الامير الغساني عمرو بن الحارث

---

١ المال ، يقصد به هنا : الابل . يستخبلوا المال : تطلب منهم اعارة الابل للانتفاع بالبانها واوبارها . يخبلوا، اي : يعطوا الابل التي تطلب منهم . ييسروا : يلعبوا بالميسر وهو ضرب من القمار . يغلوا: يبذلوا الغالي. ٢ مقامات : مجالس . والضمير في وجوههم ، عائد الى اصحاب المجالس . والاندية ، جمع ناد ، بمعنى المقامات . ينتابها : يطرقها ، والمقصود هنا : يتم فيها . ٣ مكثريهم : اصحاب المال الكثير ، الاغنياء . يعتريهم : يقصدهم . المقلين : الفقراء . يقول: على الاغنياء من هؤلاء القوم ان يرزقوا كل من قصدهم. والفقراء منهم ايضاً يسمحون ويبذلون ولا يبخلون. ٤ الفيت : وجدت. قد، هنا، للتحقيق وان دخلت على المضارع. احلامها: عقولها . يقول : ان مجالسهم تشفي من يحضرها من الجهل ، برجاحة عقولهم . ٥ الحامل ، قصد به الرجل الذي يقوم بكفالة ما. والقاعد : الذي لا يكون مشاركاً في تلك الكفالة. يعني: اذا كفل احدهم امرأ، فصعب عليه، عد الآخر نفسه شريكاً في الكفالة فقال لصاحبه: لا تندم على ما فعلت، انك اصبت ، ولسنا نتخلى عنك فتحمل الغرم وحدك . أي انهم متكافلون متضامنون جميعاً . ٦ لم يفعلوا : لم يفلحوا . ولم يألوا : ولم يقصروا في الجهد . والمعنى ان قوماً سعوا ليبلغوا مرتبة هؤلاء في الكرم، فلم يستطيعوا مع انهم لم يقصروا في السعي، ثم لم يلمهم احد لان مرتبة هؤلاء الكرام لا تنال. ٧ يعني ان الخير ليس مستحدثاً في هؤلاء القوم، بل ارث لهم يتناوله اب من جد . ٨ الخطي: الرماح ،وسميت بالخطي نسبة الى الخط وهي جزيرة بالبحرين ترسي فيها السفن المحملة رماحاً . الوشيج : القصب الملتف الذي تتخذ منه قناة الرمح . ومعنى البيت : ان الشيء لا يكون الا من معدنه .

الاصغر ، وفيها مدح الغساسنة جملة :

إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم عصائبُ طيرٍ ، تهتدي بعصائبِ ؟ ١
جوانحَ قد أيقنّ أنّ قبيلَهُ ، إذا ما التقى الجمعانِ ، أوّلُ غالبِ ٢
لهنّ عليهم عادةٌ قد عرفنها إذا عرّض الخطّيُّ فوق الكواثبِ ٣
ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ ٤
تُوُرِّثْنَ من أزمانِ يومِ حليمةٍ إلى اليومِ ، قد جُرِّبْنَ كلَّ التجاربِ ٥
تقدُّ السلوقيَّ المضاعفَ نسجُه ، وتوقدُ بالصفّاحِ نارَ الحُباحبِ ٦
لهم شيمةٌ لم يُعطِها اللهُ غيرَهم من الجودِ والأحلامُ غيرُ عوازبِ ٧
مجلّتُهم ذاتُ الإلهِ ، ودينُهم قويمٌ ، فما يرجون غيرَ العواقبِ ٨

١ عصائب الطير : اسرابه . والمعنى : ان اسراب الطير الجوارح تتبع جيش الغساسنة الى ساحات القتال سرباً بعد سرب ، لعلمها انهم سيفتكون بالعدو ويتركون لها جثث قتلاه تنعم باكلها . ٢ جوانح ، حال من عصائب الطير ، والمقصود : انها تطير مائلة . والهاء في قبله ، راجعة الى الامير الغساني الذي مدحه الشاعر بهذه القصيدة وهو عمرو بن الحارث الاصغر . ومعنى البيت : ان اسراب الطير تتبع جيش الغساسنة ليقينها ان الغساسنة غالبون ، اي : منتصرون . ٣ لهن ، أي : للطير . عليهم ، أي : على الغساسنة . عرض : ظهر . الخطي : الرمح . الكواثب ، جمع كاثبة ، وهي أعلى متن الفرس . والمعنى : ان الطير لها عادة على الغساسنة اذا خاضوا الحرب ، وهي ان ينتصروا ويطعموها لحم العدو . ٤ الكتائب : قطع الجيش . قراع الكتائب : محاربتها ومصادمتها . الفلول : ما يصيب السيف من تثلم في حده . وللبيت فيه براعة بيانية ، فانه أوهم ، عند ذكره العيب ، انه سيشير الى عيب حقيقي في الممدوحين . على ان العيب الذي اشار اليه انما جاء توكيداً لمدحهم بالشجاعة . ولذلك تسمى هذه البراعة البيانية : توكيد المدح بما يشبه الذم . ٥ يوم حليمة : المعركة الشهيرة بين الغساسنة والمناذرة ، وفيها انتصر الغساسنة ، وحليمة اسم الاميرة الغسانية التي حمّست الفرسان قبل المعركة . يعني ان هذه السيوف متوارثة من تلك المعركة ، وقد جربت كل التجارب في ساحات القتال . ٦ السلوقي ، يقصد بها : الدرع . المضاعف نسجه : الذي نسج حلقة فوق حلقة . الصفاح : الحجارة ذات الصفحة كأنها البلاط . الحباحب : الشرر ، وهو اسم ايضاً لحشرة معروفة ذات بصيص بالليل . يقول : ان هذه السيوف تقد درع الفارس وجسمه وحصانه حتى تبلغ الارض وتضرب حجارتها فينقدح منها الشرر . ٧ عوازب : غائبة ، ذاهبة . يقال : عزب عقله ، أي : ذهب . الاحلام : العقول . والواو قبل الاحلام ، رابطة للحال . يعني ان شيمتهم الجود وهم في تمام الصحو والادراك ، لان الذي يجود وهو ذاهب العقل لا فضل له لانه لا يقدر ما يفعل . ٨ مجلتهم ، اي : الانجيل ، وكان الغساسنة على المسيحية . العواقب ، جمع عاقبة ، وهي النهاية والآخرة . وعاقبة العمل : ما يستتبعه من نتيجة .

رِقَاقُ النِّعَالِ ، طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ، يُحَيَّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ ١
تُحَيِّيهِمِ بِيضُ الوَلَائِدِ بَيْنَهُمْ ، وَأَكْسِيَةُ الإِضْرِيجِ فَوْقَ المَشَاجِبِ ٢
يَصُونُونَ أَجْسَاماً قَدِيماً نَعِيمُهَا بِخَالِصَةِ الأَرْدَانِ خُضْرِ المَنَاكِبِ ٣
وَلَا يَحْسَبُونَ الخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ وَلَا يحسبون الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِبِ ٤

تمرين

بِمَ يمدح زهير بن ابي سلمى هرم بن سنان والحارث بن عوف وقومها في قصيدته اللامية ؟

وبم يمدح النابغة الغساسنة في بائيته ؟ هل تجد في معاني الشاعرين ما يعيبه الغلو او ما لا يصح ان يكون مدحاً ؟ اذكر هذه المعاني وبيّن السبب . أي المدحين يضرب لنا مثالاً في الخير ارقى وادنى الى اعجابنا ؟

١ الحجزة : معقد الازار ، يعني انهم يعقدون ملابسهم على طيب وعفة في اجسامهم . يوم السباسب : هو اليوم المعروف عندنا بالشعانين . ٢ الولائد : جمع وليدة وهي الصبية التي تكون أمَة ، أي : خادماً . الاضريج : ضرب من الحرير ، احمر . المشاجب ، جمع مشجب ، وهو ما يعلق عليه الثوب . ٣ المناكب : الاكتاف . الاردان ، جمع رُدْن ، وهو اول الكم . ويقصد بخالصة الاردان : ان اكمامهم بيضاء ، شديدة البياض . ٤ ضربة لازب ، بمعنى : ضربة لازم ، أي : الشيء الثابت الذي لا مفر منه . يعني انهم يتيقظون لحوادث الايام ، فلا يغفلون في اوقات الخير عن امكان وقوع الشر ، واذا وقع الشر لم ييأسوا ، ولم يعتبروه شيئاً ثابتاً لا يزول .

مثال في الاعتذاريات

فانك كالليل الذي هو مدركي

ابو امامة زياد الذبياني – الذي لقب بالنابغة لنبوغه في الشعر فجأة بعد كبره – يعتبر هو وزهير بن ابي سلمى ، مؤسسَي غرض المدح في الشعر العربي ، الا ان دافع التكسب عند النابغة أوضح منه عند زهير .

كان النابغة – على ما ذكرنا – شريفاً في قومه ، وكان وجيهاً بشعره لدى ملوك العرب في الجاهلية من غساسنة ومناذرة . وكان يسعى في مصلحة قومه لدى الملوك ، كما يدعو لمصلحة الملوك بين قومه . وعظمت ثروته فصار يأكل في صحاف الذهب والفضة .

وفي مدة انقطع الشاعر الى النعمان الثالث ، ابي قابوس ، آخر ملوك المناذرة في الحيرة ، ولكن ما لبث ان عكّر الصفاء بينهما سعي المفسدين . فغضب الملك على شاعره اشد غضب . وقيل : كان غضبه عليه لانه تغزل بامرأته المتجردة غزلاً أراب النعمان . الا ان الاغلب على الظن ان الملك اللخمي انما غضب على النابغة لسبب سياسي ، هو اتصاله بالغساسنة ، والغساسنة الدّ اعداء المناذرة .

وفر النابغة من وجه النعمان ولحق بالغساسنة ولاذ بهم [1]. ولكن عَظُمَ عنده ان يغضب عليه النعمان ذلك الغضب الشديد . وقيل : بل عظم عنده ان يفارقه فيحرم عطاياه ولاسيما النياق العصافيرية التي كان يهبها له النعمان ، وهي افضل النياق واثمنها .

وطفق النابغة ينظم القصيدة تلو القصيدة في الاعتذار الى سيد الحيرة وفي مدحه واستعطافه ، وهو في كل من تلك القصائد يذكر وعيد النعمان له ، ويصف مبلغ قلقه وذعره في لياليه . فطوراً يصور نفسه متململاً على فراش من حسك وشوك ، وتارة يصور نفسه عرضة لافعى تهم بنهشه ، وحيناً يصور نفسه هارباً من شيء لا مناص منه كالليل الذي يدرك الانسان بظلمته ووحشته اينما كان حتى

١ لاذ بهم : استظل بحمايتهم .

ضُرب المثل بـ « الليلة النابغية » وهي الليلة التي لا نوم لصاحبها ولا امن له ولا قرار . والنابغة ، الى هذا كله ، يصف عظمة النعمان وقدرته على البطش ، فيجعل من وعيد النعمان له زئيراً كزئير الاسد ، ومن غضب النعمان هياجاً كهياج امواج الفرات التي تضرب شطي النهر وتتقاذف زوارق الملاحين.

ولا شك ان النابغة كان عالماً بنفسية النعمان ، ونفسية الملوك كافة ، وكان سياسي الطبع ، يدرك ان مثل معانيه يُعجب النعمان ويقع من الملوك موقع الرضى والقبول . ولكن ذلك التهويل بعظمة سيد الحيرة ، وذلك الالحاح والاغراق في وصف خوفه منه ، امور عيبت على النابغة في اعتذارياته برغم ان الشاعر افلح في اداثها اداءً فنياً رائعاً . فالنابغة شاعر من الطبقة الاولى : وصاف دقيق ، وناظم متين السبك ، مشرق اللفظ ، قادر على تطويع الكلام للمعاني .

وهذه هي اعتذارية النابغة التي اتخذنا عنوانها من اروع بيت فيها : فانك كالليل الذي هو مدركي الخ ...

قال النابغة :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ ... أَتَانِي ، وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ ١

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ ... مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ ٢

أَتَانِي ، أَبَيْتَ اللَّعْنَ ، أَنَّكَ لُمْتَنِي ، ... وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ ٣

مَقَالَةُ أَنْ قَدْ قُلْتَ : سَوْفَ أَنَالُهُ ... وَذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ ٤

لَعَمْرِي ، وما عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ ، ... لَقَدْ نَطَقَتْ بُطْلاً عَلَيَّ الْأَقَارِعُ ! ٥

١ راكس والضواجع ، كلاهما اسم لمكان . وقوله : في غير كنهه ، يعني : دونما وجه استحققت به ذلك الوعيد والتهديد . ٢ السم الناقع : السم الذي يقتل فوراً . الرقش : جمع رقشاء ، وهي صفة الحية ذات الجلد المرقش . ضئيلة : هزيلة ، وتكون الحية اذا هزلت اقتل سماً . ساورتني : واثبتني تريد لسعي . ٣ أبيت اللعن : دعاء ، معناه انك تأبى فعل ما تستحق به لعناً . وتلك التي تستك منها المسامع ، اي : وتلك المقالة منك هي التي تقرع السمع قرعاً شديداً وتخيف . ٤ مقالة ، في صدر البيت ، فاعل اتاني ، في البيت السابق . رائع : مخيف ، هائل . ٥ لعمري : اقسم لك بحياتي . بهين : برخيص . الاقارع : اسم القوم الذين وشوا بالشاعر الى ملكه .

النابغة الذبياني



فــانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ُان المنتأى عنك واسع

أتاكَ أمرُؤٌ مُستَبطِنٌ لي بِبغضَةٍ لَهُ مِن عدُوٍّ مِثلِ ذلكَ شَافِعُ ١
أتاكَ بِقَولٍ هَلهَلِ النَّسجِ كاذبٍ ، ولم يَأتِ بِالْحَقِّ الذي هُوَ نَاصعُ ٢
أتاكَ بِقَولٍ لم أكُنْ لِأقولَهُ وَلَوْ كُبِلَتْ في سَاعِدَيَّ الجَوامِعُ ٣
حَلَفتُ فلَمْ أترُكْ لِنَفسِكَ رِيبَةً ، وهل يأثَمَنْ ذُو إمةٍ وَهوَ طَائِعُ؟ ٤

١ مستبطن لي بغضة : يضمر علي الحقد والضغينة . له من عدو مثل ذلك شافع ، اي : يعاونه رجل مثله يضمر علي الحقد . ٢ هلهل النسج: ضعيف النسج ، واهٍ . ناصع: ساطع واضح . ٣ الجوامع: جمع الجامعة ، وهي القيد . كبلت : شدت ، احكم ربطها . ٤ الريبة : الشك . الامة : اتباع المرء لسيد بسوده . يقول له : اقسم لك قسماً " لا يترك في نفسك شكاً في اني بري » ، وكيف يأثم رجل له سيد وهو يطيعه؟

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ ، كَذِي ٱلعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ [١]

فَإِنْ كُنْتُ ، لَا ذُو ٱلضِّغْنِ عَنِّي مُكَذَّبٌ ،

وَلَا حَلِفِي عَلَى ٱلبَرَاءَةِ نَافِعُ ، [٢]

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ ، وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ [٣]

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الذي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ [٤]

أَتُوعِدُ عَبْداً لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةً ، وَيُتْرَكُ عَبْدٌ ظَالِمٌ وَهْوَ ظَالِعُ ؟ [٥]

١ يقول : نسبت الي ذنباً اقترفه رجل غيري ، وتركت ذلك الرجل في امن وراحة، فكان مثله مثل الجمل الاجرب يُكوى غيره بينا هو يسرح ويمرح . وكانت تلك عادتهم في الجاهلية ، اذا جرب جمل في القطيع كووا القطيع وتركوا الجمل الاجرب . وقول النابغة : كذي العر يكوى غيره وهو راتع ، كلام سائر مسير المثل ، يضرب لمن يرتكب الذنب فينال غيره القصاص . ٢و٣و٤ هذه الابيات الثلاثة متصلة المعنى . يقول : اذا كنت تصدق عدوي في كل ما يلفق عني ، واذا كانت اليمين التي اقسمها لا تجدي في اظهار براءتي ، واذا كنت متهماً في كل شيء اقوله ، لانك قد عقدت النية على امر تفعله بي ، فماذا الذي استطيعه وانت كالليل الذي يدركني مهما تبعد بيني وبينه المسافة ! ٥ ظالع : غير مستقيم في مشيته ، أي : متذبذب ، غير امين ولا مخلص .

امثلة من الرثاء

دعوتك يا كليب !

المهلهل . — لما قتل جساس بن مرة كليباً ، سيد تغلب ، كان همام ، اخو جساس ، والمهلهل ، اخو كليب ، يتنادمان على الشراب . واذا برجل يقبل فيهمس في اذن همام بوقوع الخطب الجسيم ، فتغير وجه همام ، فسأله المهلهل عما به ، فكشف له النبأ ، فقال له المهلهل : لا عليك ، يد جساس اقصر مما نقل اليك !

ثم ثبت صدق الخبر ، فكان ذلك حداً فاصلاً بين عهدين في حياة المهلهل ...

كان المهلهل من قبل شديد العكوف على لذته ، لا يأبه لجد الامور حتى لقبه اخوه كليب بزير نساء (اي : الرجل الكثير الزيارة للنساء) . فاصبح ولا همّ له بعد اليوم الا الحرب والثأر من بني بكر .

وكان لا ينظم من الشعر الا المقاطع في الغزل والخمر ، فاصبح وقد تفجرت نفسه قصائد رثاء يتفجع بها على اخيه ويعدد مآثره ومناقبه ، ويقسم ان يثأر له من البكريين ، وان يواظب على حربهم حتى يبيد رؤساءهم .

وشعر المهلهل في رثاء اخيه مأنوس جداً يوشك ان يكون شعراً عصرياً ، وهو يكثر فيه من تكرير الالفاظ والمعاني .

وتعتبر المرثاة التالية من اجود ما قاله المهلهل في كليب . ويقال انه انشدها على قبره ، بعد مصرعه بوقت قصير ، والحزن ما زال متقداً في نفس الشاعر والغضب ما زال عاصفاً باعماقه .

وهي قصيدة تنقسم اربعة مقاطع :

في المقطع الاول : يصف المهلهل سهره ولوعته .

وفي الثاني : يناجي كليباً ويصف مكارم اخلاقه وينتهي الى التسليم بحتمية الموت .

وفي الثالث : يعود المهلهل الى وصف فجيعته باخيه وكيف زار قبره .

وفي الرابع : يسائل كليباً هل يكون معه في الحرب من اجل الثأر ؟ ثم

المهلهل على قبر اخيه



ولست بخالع درعي وسيفي   الى ان يخلع الليل النهار

يحرض تغلب على الحرب . ثم يقسم لاخيه قسماً رهيباً بانه لن يُلقي السلاح حتى يفني زعماء بكر .

وهذا نص المرثاة :

أَهَاجَ قَذَاءَ عَيْني ٱلإِذِّكَارُ   هُدُوءًا ، فَٱلدُّمُوعُ لَهَا ٱنْحِدَارُ ؟ ١

١ الهمزة في أهاج، للاستفهام . وهاج : هيّج وحرّك . قذاء : قذى. الاذكار : التذكر . هدوءاً ، اي ، الليل . يقول : اترى عنت لي ذكرى اخي ، فانحدرت الدموع من عيني كأن فيها القذى ؟

وَصارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلاً عَلَيْنا ؛ كَأَنَّ اللَّيلَ لَيسَ لَهُ نَهارُ [١]

وَبِتُّ أُراقِبُ الجَوزاءَ حَتّى تَقارَبَ مِنْ أَوائِلِها انْحِدارُ [٢]

أُصَرِّفُ مُقلَتي في إِثْرِ قَومٍ تَبايَنَتِ البِلادُ بِهِمْ فَغاروا [٣]

وَأَبكي وَالنُّجومُ مُطَلَّعاتٌ كَأَنْ لَمْ تَحْوِها عَنّي البِحارُ [٤]

عَلى مَنْ لَو نُعيتُ، وَكانَ حَيّاً لَقادَ الخَيلَ يَحْجُبُها الغُبارُ ! [٥]

•

دَعَوتُكَ يا كُلَيبُ فَلَمْ تُجِبْني ؛ وَكَيفَ يُجيبُني البَلَدُ القِفارُ ؟ [٦]

أَجِبْني يا كُلَيبُ ، خَلاكَ ذَمٌّ ، ضَنيناتُ النُّفوسِ لَها مَزارُ [٧]

أَجِبْني يا كُلَيبُ ، خَلاكَ ذَمٌّ ، لَقَدْ فُجِعَتْ بِفارِسِها نِزارُ ! [٨]

سَقاكَ الغَيثُ ، إِنَّكَ كُنتَ غَيثاً ، وَيُسْراً ، حِينَ يُلتَمَسُ اليَسارُ [٩]

أَبَتْ عَيْنايَ بَعْدَكَ أَنْ تَكُفّا ، كَأَنَّ غَضا القَتادِ لَها شِفارُ [١٠]

وَإِنَّكَ كُنتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجالٍ ، وَتَعفو عَنهُمُ وَلَكَ اقْتِدارُ ، [١١]

١ معناه : ولفنا ليل مظلم طويل، كأن النهار قد زال من الوجود . ٢ الجوزاء: من ابراج النجوم. وانحدار ، هنا ، بمعنى غروب . يقول: وبت انظر الى الجوزاء حتى اوشكت اوائل نجومها تغرب. ٣ اصرف مقلتي: أجيل نظري . في اثر قوم : في طلب قوم . تباينت البلاد بهم فغاروا : بعدت بهم البلاد فاختفوا . ٤ والنجوم مطلعات: والنجوم طالعات . والمعنى: انه لا يزال يرى النجوم طالعة برغم انها قد غربت في البحار. ٥ يقول : بكائي على رجل لو كان حياً ونعيت اليه لاندفع يثأر لي بخيل عليها الفرسان تثير غبار الحرب حتى يحجبها . ٦ البلد القفار : البلد الخالي . يقصد ان البلد اصبح مقفراً بعد مقتل كليب . ٧ « خلاك ذم » جملة معترضة ، اي: برئت من كل ما يعيبك . و«ضنينات النفوس لها مزار » يعني بها ان النفوس الكبيرة التي يُبخل بها، كنفس كليب ، انما تزار لكثرة الحاجة اليها. ٨ نزار: جد جامع لعرب الشمال. ٩ سقاك الغيث ، أي : سقى قبرك الغيث، وهو عند العرب دعاء بالرحمة للميت. وقوله : كنت غيثاً ، معناه : كنت رزقاً للناس لان الغيث سبب الرزق . واليسر واليسار : الغنى والبحبوحة في العيش . ١٠ ان تكفا ، أي : تنقطعا عن ارسال الدمع . وغضا القتاد: الشوك الشديد المؤلم . والشفار: منبت شعر الاجفان. يقول: لا تنقطع عيناي عن ارسال الدمع ، كأن شفارهما من شوك القتاد لا من شعر . ومعلوم ان العين اذا مسها الشوك دمعت. ١١ تحلم : تصبر وتصفح عن زلاتهم . وقوله : « ولك اقتدار » استدراك جميل ، لان العفو لا قيمة له الا عند المقدرة .

وَتَمْنَعُ أَنْ يَمَسَّهُمُ لِسَانٌ   مَخَافَةَ مَنْ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ . [١]

•

وَكُنْتُ أَعُدُّ قُرْبِي مِنْكَ رِبْحاً   إِذَا مَا عُدَّتِ ٱلرِّبْحَ ٱلتِّجَارُ ، [٢]
فَلا تَبْعَدْ ، فَكُلٌّ سَوْفَ يَلْقَى   شَعُوباً يَسْتَدِيرُ بِهَا ٱلْمَدَارُ ، [٣]
يَعِيشُ ٱلْمَرْءُ عِنْدَ بَنِي أَبِيهِ ،   وَيُوشِكُ أَنْ يَصِيرَ بِحَيْثُ صَارُوا . [٤]
أَرَى طُولَ ٱلْحَيَاةِ ، وَقَدْ تَوَلَّى ؛   كَمَا قَدْ يُسْلَبُ ٱلشَّيْءُ ٱلْمُعَارُ [٥]
كَأَنِّي إِذْ نَعَى ٱلنَّاعِي كُلَيْباً   تَطَايَرَ بَيْنَ جَنْبَيَّ ٱلشَّرَارُ [٦]

•

فَدُرْتُ ، وَقَدْ عَشَا بَصَرِي عَلَيْهِ ؛   كَمَا دَارَتْ بِشَارِبِهَا ٱلْعُقَارُ ، [٧]
سَأَلْتُ ٱلْحَيَّ : أَيْنَ دَفَنْتُمُوهُ ؟   فَقَالُوا لِي : بِسَفْحِ ٱلْحَيِّ دَارُ !
فَسِرْتُ إِلَيْهِ مِنْ بَلَدِي حَثِيثاً ،   وَطَارَ ٱلنَّوْمُ وَٱمْتَنَعَ ٱلْقَرَارُ [٨]
وَحَادَتْ نَاقَتِي عَنْ ظِلِّ قَبْرٍ   ثَوَى فِيهِ ٱلْمَكَارِمُ وَٱلْفَخَارُ [٩]
لَدَى أَوْطَانِ أَرْوَعَ لَمْ يَشِنْهُ ،   وَلَمْ يَحْدُثْ لَهُ فِي ٱلنَّاسِ عَارُ [١٠]

•

أَتَغْدُو يَا كُلَيْبُ مَعِي إِذَا مَا   جَبَانُ ٱلْقَوْمِ أَنْجَاهُ ٱلْفِرَارُ ؟ [١١]

١ ان يمسهم لسان ، أي : ان يقول السوء فيهم احد . والمقصود بقوله : « من يجير ولا يجار » كليب نفسه ، أي : انه كان يحمي من يستجير به من كل اذى ، ولا يجسر احد ان يحمي منه فاعل سوء . ٢ ما بعد « إذا » زائدة . التجار : التجّار . يقول : كان قربي منك ربحاً لي اكتفي به ، اذا كانت التجار لا تكتفي الا بربح المال . ٣ الشعوب : المنية ، وسميت شعوباً لانها تفرق الشمل . والمقصود بالمدار : مدار العمر . و« يستدير بها المدار » اي: تتم بها حلقة العمر. ٤ قوله: بحيث صاروا: كناية عن القبر والموت. يعني ان المرء لا بد له من اللحاق باهله الذين سبقوه الى التراب . ٥ تولى : انتهى . و« قد » الداخلة على « يسلب » هي للتحقيق . يقول : تنتهي الحياة مهما تطل كما يُسترد الشيء المعار . ٦ « تطاير بين جنبيّ الشرار »: كناية عن حرقة الحزن التي احسها بعد مصرع اخيه. ٧ وقد عشا بصري: وقد سقط على بصري ما غشاه لشدة الحزن والتأثر . والعقار : الخمر . يقول: درت لا ابصر جلياً ما حولي وكأنني في نوبة سكر . ٨ حثيثاً : مسرعاً . والقرار : السكون والراحة . ٩ ثوى : رقدَ . ١٠ الاروع : الشهم الذكي والحسن الطلعة . لم يشنه : لم يعبه . ١١ انجاه الفرار : انقذه الهرب من المعركة . يقول : اتراك تكون معي غداً يا كليب حين أوقدها حرباً لأثأر لك ، وحين لا يجد الجبان السلامة الا في الهرب ؟

أَتَغْدُو يَا كُلَيْبُ مَعِي إِذَا مَا ... حُلُوقُ ٱلْقَوْمِ يَشْحَذُهَا ٱلشِّفَارُ ؟ [١]
أَقُولُ لِتَغْلِبٍ ، وَالعِزُّ فِيهَا : ... أَثِيرُوهَا ، لِذَلِكُمُ ٱنْتِصَارُ [٢]
تَتَابَعَ إِخْوَتِي وَمَضَوْا لِأَمْرٍ ... عَلَيْهِ تَتَابَعَ ٱلْقَوْمُ ٱلْخِيَارُ [٣]
خُذِ ٱلعَهْدَ ٱلأَكِيدَ عَلَيَّ عُمْرِي ... بِتَرْكِي كُلَّ مَا حَوَتِ ٱلدِّيَارُ ، [٤]
وَهَجْرِي ٱلغَانِيَاتِ وَشُرْبَ كَأْسٍ ، ... وَلُبْسِي جُبَّةً لا تُسْتَعَارُ [٥]
وَلَسْتُ بِخَالِعٍ دِرْعِي وَسَيْفِي ... إِلَى أَنْ يَخْلَعَ ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارُ ، [٦]
وَإِلَّا أَنْ تَبِيدَ سَرَاةُ بَكْرٍ ، ... فَلَا يَبْقَى لَهَا أَبَداً أَثَارُ ! [٧]

١ الشفار : جمع شفرة وهي نصلة السيف . ويشحذها ،هنا، بمعنى يحزّها ويبريها . يقول له: أتراك تكون معي غداً حين أعمل السيوف في رقاب القوم أحزها حزاً ؟ ٢ أثيروها ، أي : اشعلوا نار الحرب . فلكم انتصار ، أي : النصر لكم . ٣ تتابع اخوتي : ماتوا واحداً بعد آخر . والقوم الخيار هم افضل القوم . يعني ان اخوته ماتوا كما يموت خيار القوم في سبيل الغايات الكريمة . ٤ عمري، منصوب على الظرفية ، والمقصود طول عمري . يقول : خذ عليّ عهداً مؤكداً ما دمتُ حياً باني سأترك كل ما حوته الديار ، وبأنه لن يقرّ لي قرار حتى اثأر لك. ٥ يتعهد المهلهل لاخيه ان يهجر النساء والشراب، وان يقيم على لبس الجبة التي لا تستعار ، اي : الدرع . ٦ يقول : انه لن ينزع عنه درعه وسيفه ما دام النهار لا يخلع الليل حتى يعود وما دام الليل لا يخلع النهار حتى يرجع . والمعنى انه سيحارب ابد الدهر . ٧ سراة القوم : وجهاؤهم . والأثار بمعنى الاثر والبقية .

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس


الخنساء

الخنساء . — قبل ظهور الاسلام ، في مطلع القرن السابع للميلاد ، بزغ نجم امرأة عربية نبغت بقول الشعر ، اسمها تماضر ولقبها الخنساء[١] . مات شقيقاها في الجاهلية مطعونين بالرمح ، فحزنت عليهما حزناً محرقاً ، وبكتهما طويلاً ، قبل الاسلام وبعده ، حتى عميت عيناها . كانت وفاتها في اوائل العصر الاموي . وهي تعتبر اكبر الشواعر[٢] العربيات . قالت ترثي اخاها صخراً :

يُؤَرِّقُنِي ٱلتَّذَكُّرُ حِينَ أُمْسِي فَأُصْبِحُ قد بُلِيتُ بِفَرْطِ نُكْسِ [٣]
على صخرٍ ، وَأَيُّ فَتًى كَصَخْرٍ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَطِعَانِ حِلْسِ [٤]
فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ رُزْءًا لِجِنٍّ ولم أرَ مثله رزءًا لِإِنْسِ [٥]
يُذَكِّرُنِي طلوعُ الشَّمْسِ صَخْراً وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ
ولَوْلا كَثْرَةُ ٱلبَاكِينَ حَوْلِي على إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

١ قيل : انما لقبت بذلك لجمالها، وقيل لتأخر انفها عن وجهها مع ارتفاع قليل في ارنبته . ٢ الشواعر : جمع شاعرة . ٣ يؤرقني : يمنعني النوم . النكس : رجوع العلة بعد ذهابها . والمقصود هنا عودة الحزن الى قلب الشاعرة . ٤ الكريهة : الحرب . الحلس : الفارس المدرّب في الطعن . ٥ الضمير في « مثله » راجع الى الرزء . والرزء : هو المصيبة . والانس : البشر .

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلٰكِنْ أُعزّي ٱلنَّفسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي [١]

فَلا وَاللهِ لا أَنساكَ حَتّى أُفارِقَ مُهْجَتِي وَيُشَقَّ رَمْسِي ! [٢]

ومعاني الابيات واضحة ، تتحدث فيها الشاعرة عما يجدّ لها من ذكرى شجية اذا هبط المساء ، وعما يعاودها من حزن وحرقة حتى تصبح مضعضعة منهوكة . والذكرى هي ذكرى شقيقها صخر . والحزن هو حزنها عليه . ثم تسأل سؤال تعظيم : وأي فتى كصخر في الحرب ومشاهد القتال ؟.. وتشاء الشاعرة ان تصوّر فادح مصيبتها فتقول : ذلك رزءٌ لم يقع مثله لا في ابناء الجن ولا في ابناء الانس . ان ذكرى صخر لتعاودني مع الشمس اذا طلعت ومع الشمس اذا غربت . فأبكي ثم أبكي . ولولا اني ارى كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلتُ نفسي . ولكن أتشبّه بهم وأتعزّى وان لم يكن اخوانهم كأخي ولا مصيبتهم كمصيبتي . أيْ صخر ! لن أنساك حتى أموت ويُحفرَ قبري .

وكل هذه المعاني تستمدّ من عاطفة فطرية متفجّعة ملتاعة . فهذا الشعر للخنساء في الرثاء مبتلّ بدموعها لا يتردّدُ فيه الا اصداءُ شهقاتها . انه شعر امرأةٍ منقادةٍ بمحض العاطفة الى البكاء والاعوال ، وقلّ ان يعرض لها تعمقٌ في التفكير لدى مصيبتها .

يا صخر

على ان شعر الخنساء في الرثاء لا يقتصر كله على محض التفجّع والنحيب ، بل كثيراً ما تستطرد فيه الى وصف شقيقها المرثي فتصوّره امرءًا بكل معنى المروءة في الجاهلية .

مثال ذلك قولها في الابيات الثانية الاخيرة من هذه القصيدة :

قَذًى بِعَيْنِكِ ، أَمْ بِالعَيْنِ عُوَّارُ ؟

أَمْ ذَرَفَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِها الدَّارُ ؟ [٣]

كَأَنَّ دَمْعِي لِذِكْرَاهُ إِذا خَطَرَتْ ؛ فَيْضٌ يَسِيلُ عَلَى الخَدَّيْنِ مِدْرَارُ [٤]

١ التأسي : التشبه بالغير تهويناً للمصيبة . ٢ الرمس: القبر. ٣ هذا البيت استفهام ، حذفت الهمزة من أوله، وتقديره : أقذى بعينك الخ ... والقذى هو ما يقع في العين فيدمعها . ومثله العوار . وذرفت العين : سال دمعها بلا انقطاع . تسائل الخنساء نفسها فتقول : أأصاب عينك قذى ام عوار فهي تدمع دمعاً متواصلاً ، أم بكت عينك حين خلت الدار من اهلها لوقوع الموت ؟ ٤ اذا خطرت : اذا عنت ومرت بالبال . والفيض: التدفق الغزير . والمدرار : الغزير المتواصل .

تَبْكي لِصَخْرٍ هِيَ العَبْرَى ، وَقَدْ وَلِهَتْ ،
وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أَسْتَارُ [١]

تَبْكي خُنَاسُ فما تَنْفَكُّ ، مَا عَمَرَتْ ،
لَهَا عَلَيْهِ رَنِينٌ ، وَهْيَ مِفْتَارُ [٢]

وَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوٍّ تُطِيفُ بِهِ   لَهَا حَنِينَانِ : إِصْغَارٌ وَإِكْبَارُ [٣]

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ ، حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ   فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ [٤]

لَا تَسْمَنُ الدَّهْرَ في أَرْضٍ ، وَإِنْ رُبِعَتْ
فَإِنَّمَا هِيَ تَحْنَانٌ وَتَسْجَارُ [٥]

يَوْماً ، بِأَوْجَدَ مِنِّي حِينَ فَارَقَنِي   صَخْرٌ ، وَلِلدَّهْرِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارُ [٦]

يَا صَخْرُ ، وَرَّادَ مَاءٍ قَدْ تَنَاذَرَهُ   أَهْلُ المَوَارِدِ ، مَا فِي وِرْدِهِ عَارُ [٧]

مَشْيَ السَّبَنْتَى إِلَى هَيْجَاءَ مُعْضِلَةٍ ،   لَهُ سِلَاحَانِ : أَنْيَابٌ وَأَظْفَارُ ! [٨]

١ العبرى : الممتلئة بالعبرات اي الدموع ، تعني عينها . ولهت : اشتد جزعها . ودونه من جديد الترب أستار ، أي : ان تراب قبره لا يزال جديداً ندياً . ٢ خناس: اسم معدول عن الخنساء للتحبب . ما عمرت: ما عاشت . رنين : بكاء واعوال . مفتار : واهنة القوة منكسرة القلب . ٣ العَجول : الام التي يموت ولدها صغيراً . والبوّ : جلد فصيل الناقة اذا مات سُلخ وحُشي تبناً وأدني من امه لتدر اللبن . تطيف به : تدور حوله . الحنين: الصوت الممتلىء كآبة أو طرباً . وقولها : « لها حنينان: اصغار واكبار»، أي : تحن اليه بصوت ضعيف وصوت مرتفع . ٤ ترتع : تسرح وترعى. ادكرت: تذكرت. وقولها:« فانما هي اقبال وادبار» يعني: اخذت تقبل وتدبر باحثة عن ولدها. ٥ لا تسمن الدهر: لا تسمن وان طال عليها الدهر وهي ترعى. وربعت : رعت الربيع وهو فصل الخصب. والتحنان : الحنين. والتسجار: اشد الحنين . وقولها: « فانما هي تحنان وتسجار » يعني انها تواصل الحزن والحنين ولذلك لا تسمن . ٦ وصفت الخنساء في الابيات السابقة ناقة مات ولدها صغيراً ، ثم عادت في هذا البيت تشبه نفسها بتلك الناقة ، فتقول : ان تلك الناقة الثكلى ليست باشد حزناً منها حين فارقها اخوها صخر . وأوجد : اشد وجداً ، اي : حزناً ولهفة . وللدهر احلاء وامرار ، أي ان الدهر فيه الحلو والمر . ٧ يا صخر، وراد ماء ، اي : يا صخر، يا وراد ماء ... قد تناذره :قد انذر بعض القوم بعضاً بصعوبة وروده . تعني ان شقيقها صخراً كان يرد الموارد الصعبة التي حفت بالاخطار دون ان يكون في ورودها عار . ٨ السبنتى : النمر . والهيجاء: الحرب . والمعضلة: الصعبة. ولما شبهت اخاها بالنمر جعلت له سلاحين من الانياب والاظفار.

وَإِنَّ صَخْراً لَكَافِينَا وَسَيِّدُنَا ، وَإِنَّ صَخْراً إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ ! [١]
وَإِنَّ صَخْراً لَمِقْدَامٌ إِذَا رَكِبُوا ، وَإِنَّ صَخْراً إِذَا جَاعُوا لَعَقَّارُ ! [٢]
وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ ! [٣]
جَلْدٌ جَمِيلُ ٱلْمُحَيَّا كَامِلٌ وَرِعٌ ، وَلِلْحُرُوبِ غَدَاةَ ٱلرَّوْعِ مِسْعَارُ ! [٤]
حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ ، هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ ، شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ ، لِلْجَيْشِ جَرَّارُ ! [٥]
لَمْ تَرَهُ جَارَةٌ يَمْشِي بِسَاحَتِهَا لِرِيبَةٍ حِينَ يُخْلِي بَيْتَهُ ٱلْجَارُ ! [٦]

١ كافينا ،اي: يحمينا من الجوع والشر . نشتو : ندخل في الشتاء . ونحار : ذباح الغنم والابل كي يطعم الاهل والضيوف. ٢ مقدام ، اي :شجاع في الحرب . وقولها: اذا ركبوا، يعني اذا ركبوا الخيل للقتال. وعقّار بمعنى نحّار في البيت السابق . ٣ تأتمّ : تقتدي . الهداة : الذين يتقدمون في السير ويدلون على الطريق . وعَلَم : جبل . وهذا التشبيه بالعَلَم الذي تشتعل في قنه النار أصبح مثلاً يُضرب للشهرة والهداية .
٤ جلد : صبور . ورع : تقيّ . والرّوع : الفـزع . مسعار : صيغة مبالغة من سعّر ، أي : أوقد وأضرم .
٥ الالوية : جمع لواء ، والمقصود لواء الحرب . وهبّاط أودية ، اي : ينزل في الاودية ويحتلها . وشهّاد اندية ، اي : يحضر مجالس القوم وتسمع فيها كلمته . وجرّار للجيش ، أي : يسحبه وراءه ويقوده . ٦ ريبة : لأمر منكر . تعني : انه يحفظ عرض جاره اذا غاب عن بيته.

« ولزرت قبرك والحبيب يزار »

جرير .— يعد جرير بن عطية الخطفى احد الثلاثة المقدمين في شعراء العصر الاموي ، وهم جرير والاخطل والفرزدق ... اشتهر جرير بخبث الهجاء، وعظمت المهاجاة بينه وبين الفرزدق ثم الاخطل ، وغيرهما من شعراء زمانه . الا انه كان اعرابياً حساس المزاج، رقيق العاطفة، فابدع كذلك في الغزل والرثاء. وكان شديد الحب لزوجه خالدة بنت سعد ، وهو كثير الذكر لها في قصائده ، يذكرها بكنيتها ام حزرة ، وحزرة اكبر اولاده . فلما ماتت بعدما تقدمت به السن رثاها بهذا الشعر الجميل الذي عز مثله لشاعر قديم في رثاء زوجه.

ويظهر ان الفرزدق وهو يهجو جريراً ، كان قد تعرض لذكر ام حزرة بما لا يليق ، فرد عليه جرير بقوله : « افأم حزرة يا فرزدق عبتم » ثم خلص من رثاء زوجه الى هجائه هجاء مراً موجعاً على عادته .

قال جرير :

لَوْلا ٱلْحَيَاءُ لَعَادَنِي ٱسْتِعْبَارُ ، وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ، وَٱلْحَبِيبُ يُزَارُ ! ١
وَلَهِتَ قَلْبِي إِذْ عَلَتْنِي كَبْرَةٌ ، وَذَوُو ٱلتَّمَائِمِ مِنْ بَنِيكِ صِغَارُ ٢
نِعْمَ ٱلْقَرِينُ ، وَكُنْتِ عِلْقَ مَضِنَّةٍ وَارَى بِنَعْفِ بُلَيَّةَ ٱلْأَحْجَارُ ٣
عَمَرَتْ مُكَرَّمَةَ ٱلْمَسَاكِ ، وَفَارَقَتْ مَا مَسَّهَا صَلَفٌ وَلَا إِقْتَارُ ، ٤
فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ بِبُرْقَةِ ضَاحِكٍ هَزِمٌ أَجَشُّ وَدِيمَةٌ مِدْرَارُ ٥

١ استعبار : مصدر استعبر ، أي : ملأ الدمع عينيه . عادني : اصابني . ٢ ولهت قلبي : حيّرت قلبي من شدة الحزن . كبرة : ضعف وتقدم في السن . التمائم : جمع تميمة وهي تعويذة تعلّق على الصبي خوف أن تصيبه العين . ٣ نعم القرين : نعم الزوج . والعلق : الشيء النفيس . والمضنّة : الشيء الذي يحرص عليه حرصاً شديداً لقيمته . والنعف : سفح الجبل . وبليّة : اسم الموضع الذي دفنت فيه . يقول لها : كنت نعم الزوج ، وكنت كنزاً ثميناً سترته عني الاحجار في سفح بليّة . ٤ عمرت : عاشت . المساك : الامساك ، والمقصود : حسن تدبيرها لمنزلها . ما مسّها : ما عابها . صلف : ادعاء وتكبر فارغ . اقتار : بخل . ٥ صدى ، هنا: جثمان الميت . الجدث : القبر . برقة ضاحك : اسم موضع . وكل ارض غليظة يقال لها : برقة . هزم : صفة للسحاب الراعد . والأجش : الشديد والغليظ الصوت . والديمة : السحابة الماطرة في سكون وتتابع . مدرار : غزير .

كَانَتْ مُكَرَّمَةَ ٱلْعَشِيرِ، وَلَمْ يَكُنْ   يَخْشَى غَوَائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَارُ [١]
وَلَقَدْ أَرَاكِ كُسِيتِ أَجْمَلَ مَنْظَرٍ   وَمَعَ ٱلْجَمَالِ سَكِينَةٌ وَوَقَارُ [٢]
وَالرِّيحُ طَيِّبَةٌ إِذَا ٱسْتَقْبَلْتِهَا   وَالعِرْضُ لا دَنِسٌ وَلا خَوَّارُ [٣]
وَإِذَا سَرَيْتُ رَأَيْتُ نَارَكِ نَوَّرَتْ   وَجْهاً أَغَرَّ يَزِينُهُ ٱلإِسْفَارُ [٤]
صَلَّى ٱلْمَلائِكَةُ ٱلَّذِينَ تُخُيِّرُوا   وَالطَّيِّبُونَ عَلَيْكِ وَالأَبْرَارُ [٥]
لا يُلْبِثُ ٱلْقُرَنَاءَ أَنْ يَتَفَرَّقُوا   لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمِ وَنَهَارُ [٦]
أَفَأُمَّ حَزْرَةَ يَا فَرَزْدَقُ عِبْتُمُ   غَضِبَ ٱلْمَلِيكُ عَلَيْكُمُ ٱلْقَهَّارُ [٧]
كَانَتْ إِذَا هَجَرَ ٱلْحَلِيلُ فِرَاشَهَا   خُزِنَ ٱلْحَدِيثُ وَعَفَّتِ ٱلأَسْرَارُ [٨]

١ العشير : الصاحب. والغوائل : جمع غائلة وهي الفساد والشر. يقول: كان من يعاشر ام حزرة مكرماً، وكان جارها يأمن ان يصيبه منها شر او فساد . ٢ يقول انها كانت جميلة في منظرها وكانت تجمع الى الجمال رزانة وعقلاً وطبعاً هادئاً . ٣ والريح طيبة اذا استقبلتها: يقول ان الريح اذا مرت بها لم تحمل عنها رائحة خبيثة . خوّار : مريب، فيه شبهة. ٤ سريت : سرت ليلاً . نوّرت : أضاءت . وجهاً أغرّ : وجهاً حسناً له غرة . والاسفار : رفع الحجاب . يعني ان رفعها الحجاب عن وجهها يزيده جمالاً . ٥ تُخيّروا : اختارهم الله وانتقاهم . الابرار : جمع بار ، ومعناها : الصالحون . ٦ لا يُلبث : لا يُمهل . القرناء : الازواج والاصحاب . يقول : ان الليل والنهار اللذين يتتابعان على الناس سرعان ما يفرّقان شمل الاحباب. ٧ عبتم: ألصقتم بها العيب وشنّعتم عليها . المليك القهّار : الله . ٨ الحليل : الزوج . يقول : انها كانت عفيفة ولم تكن تتحدث عن زوجها حديث سوء .

انشاء ادبي

أبسط المعاني التي يرثي بها جرير زوجه في هذه القصيدة ... قيل : ان جريراً قد رسم في هذا الرثاء صورة لربة البيت الفاضلة ، فهل توافق على هذا الراي ؟

مثالان في الهجاء

رجل لا يأمنه جاره

نشبت في العصر الاموي بين الشاعرين : جرير والفرزدق مهاجاة شخصية عنيفة جداً . وكان الفرزدق قصيراً بديناً ميالاً الى الشراب واللهو بالنساء . فقال مرة شعراً يصف فيه مغامرة غرامية وقعت له ، فذكر انه صعد الى منزل شاهق فدخل على امرأتين دلتاه بعد ذلك بحبل وزنبيل من علو ثمانين قامة فهبط الارض كأنه باز كاسر ، ادكن لون الريش :

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَّ بَازٌ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهْ

فلما سمع جرير الشعر انتهز الفرصة لهجاء خصمه وتعييره سوء الاخلاق ودمامة المنظر بهذه الابيات :

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الفَرَزْدَقِ فَاجِراً فَجاءَتْ بِوَزْوازٍ قَصِيرِ القَوائِمِ ١
يُوَصِّلُ حَبْلَيْهِ إِذا جَنَّ لَيْلُهُ لِيَرْقَى إِلى جاراتِهِ بِالسَّلالِمِ ٢
أَتَيْتَ حُدُودَ اللهِ مُذْ أَنْتَ يافِعٌ وَشِبْتَ فَمَا يَنْهاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ ٣
تَتَبَّعُ في الماخُورِ كُلَّ مُرِيبَةٍ وَلَسْتَ بِأَهْلِ المُحْصَناتِ الكَرائِمِ ٤
رَأَيْتُكَ لا تُوفي بِجارٍ أَجَرْتَهُ ولا مُسْتَعِفّاً عن لِئامِ المَطاعِمِ ٥

١ الفاجر : ضد الرجل العفيف . الوزواز : الخفيف . قصير القوائم : قصير الرجلين . ٢ يوصّل حبليه : يربط حبلاً بحبل . اذا جُنّ ليله : اذا أظلم ليله . السلالم : جمع سُلّم . ٣ أتيت حدود الله : خالفت وصايا الله . اليافع : المقارب سن العشرين . ينهاك : يردعك . اللهازم ، جمع لهزمة : الشعر في الرأس . ٤ الماخور : مكان الفحش والسكر . مريبة : يقصد بها المرأة المتهمة في اخلاقها . ولست بأهل المحصنات ، اي : لست كفؤاً لمخالطة النساء المصونات ٥ لا توفي بجار اجرته : لا تحفظ عهد جار قطعت له عهداً بان تحسن جواره . مستعف : متعفف .

تدلَّيتَ تزني من ثمانينَ قامةً وقصَّرتَ عن شبرِ العُلى والمكارمِ

يقول جرير في الفرزدق : ان امه ولدته قبيح الخلقة خفيفاً قصير القوائم محباً للفجور ، لذلك تراه اذا اظلم ليله اخذ حبلين فوصل واحدهما بالآخر ليجعل منهما سلماً يرقى بهـا الى جاراته .

ثم ينصرف الى خطابه فيقول له : ويحك ! تطاولت على اوامر الله ونواهيه منذ قاربت العشرين . واليوم ادركك الشيب فما اتعظت ولا ارتدعت . تدعي انك تعاشر النساء الكريمات المصونات ، وهل مثلهن يقبل معاشرتك ؟ بل مكان مثلك في الماخور تخالط فيه النساء المريبات . ولست تحفظ عهداً لجار وان قطعت له وعداً بحفظ العهد . ولست تعف عن تناول اخبث الطعام . وبعد ، فانت تفتخر بانك تدليت من علو ثمانين قامة لترتكب الفحشاء . والله صدقت ! غير انك في مجال المجد والعمل الكريم تقصر عن ان تتحرك شبراً واحداً .

وهكذا يهجو جرير الفرزدق بعاهات معنوية ، فيصفه بانه متهالك على شهواته غادر بجيرانه دنيء النفس مقصر عن الافعال الحميدة . وكل تلك اخلاق ممقوتة جديرة بان تهجى ... فاما مرارة لسان جرير في ابياته فغنية عن البيان . وسخريته في البيت الاخير أوضح وألذع من ان يشار اليها .

بقي تعييره الفرزدق دمامةَ الخلقة . وليست دمامة الخلقة في الحقيقة موضوع هجو ، لان الانسان لا يد له في قبح طلعته او جمالها . الا ان جريراً وجد من هذا الباب سبيلاً على خصمه فعبث به وصوّر الفرزدق صورة مسخ قصير القوائم وزواز . ووفق جداً في اختيار لفظة الوزواز .

الحاكم الظالم المنافق

وقال احد الشعراء يهجو اميراً كثير الجور على الرعية كثير التظاهر بالعبادة والتقوى :

قَدْ بُلينَا بِأَميرٍ ظَلَمَ النَّاسَ وَسَبَّحْ

فَهوَ كَالجَزَّارِ فِينَا يَذْكُرُ اللهَ وَيَذْبَحْ !

وهذا من الهجو الجدّي الذي يفضح به الشاعر الحكام الظالمين ، الاولى يستبدون في احكامهم ، ثم ينافقون امام الناس بحرصهم على تتميم الطقوس الدينية تغطية لظلمهم

واستبدادهم ، كالجزار الذي يحمل السكين بيده ويذكر الله بشفتيه ويذبح الضحية .

فاذا قابلنا هذين البيتين بابيات جرير السابقة في هجو الفرزدق وجدناهما في المعنى والغاية انفس من قول جرير ، لان جريراً – وان يكن هجا اخلاقاً تهجى – فانه لم يقبّح بذلك الا شخصاً نطاقُ ضرره محدود . بينما قبّح الشاعر الآخر الظلم والنفاق في حاكم يتناول ضرره الناس ، فكان هجوه ضرباً من الاصلاح العام ، وكان فيه تعليم للناس أن لا يغترّوا بالمظاهر .

مثل في التحريض

لو كنا رجالاً وكنتم نساء

طسم وجديس قبيلتان من العرب البائدة، اي: عرب الجاهلية الذين انقرضوا. وتروى عن العرب البائدة هؤلاء، اساطير كثيرة، منها ان قبيلتي طسم وجديس كانتا تنزلان اقليم اليمامة من شبه الجزيرة العربية، والسيادة فيها لطسم. فقام ملك طسمي غاشم[1] اسمه عمليق، اشترط على بني جديس ان لا تتزوج منهم فتاة الا حُملت اليه قبل ان تحمل الى زوجها. فأنفت هذا العار عذراء جديسية اسمها الشموس[2]. فلما حُملت الى الملك عمليق اخفت في ثيابها خنجراً طعنته به فقتلته. ثم انشدت هذه الابيات تحرّض بها قومها على ظالميهم:

أَيَجمُلُ ما يُؤتَى إلى فَتَياتِكُمْ ... وَأَنْتُمْ رِجالٌ فِيكُمُ عَدَدُ الرَّمْلِ [3]
فَإِنْ أَنتُمُ لَمْ تَغْضَبُوا بَعْدَ هٰذِهِ ... فَكونُوا رِجالاً لا تَغِبُّ مِنَ الكُحْلِ [4]
وَدُونَكُمُ ثَوبَ العَرُوسِ فَإِنَّما ... خُلِقْتُمْ لأَثْوابِ العَرُوسِ وللغُسْلِ [5]
فلو أَنَّنا كُنَّا رِجالاً، وَكُنْتُمُ ... نِساءً، لكُنَّا لا نُقِرُّ بِذا الذُّلِّ [6]
فَمُوتُوا كِراماً أَوْ أَمِيتُوا عَدُوَّكُمْ ... وكُونُوا كَنارٍ شُبَّ بِالحَطَبِ الجَزْلِ [7]
وإلا فَخَلُّوا ظَهْرَها وتَحَمَّلُوا ... الى بَلَدٍ قَفْرٍ، وهزلٍ من الهزلِ [8]
فَلَلْمَوتُ خَيْرٌ مِنْ مُقامٍ عَلَى أَذىً ... ولَلْهَزْلُ خَيْرٌ من مُقامٍ على ثُكْلِ [9]
فَدِبُّوا إِلَيْهِمْ بِالدُّرُوعِ وبِالقَنَا ... وكُلِّ حُسامٍ مُحْدَثِ العَهْدِ بِالصَّقْلِ [10]

١ غاشم: ظالم، مستبدّ. ٢ الشموس: النافرة، يقال: دابة شموس، أي: نافرة جامحة. ٣ أيجمل ما يؤتى الى فتياتكم: أيحسن؟ أيليق ما يُصنع بفتياتكم؟ ٤ لا تغبّ من الكحل، اي: لا يمضي يوم لا تتكحل فيه ولا تتزين شأن النساء. ٥ ودونكم ثوب العروس، أي: البسوا ثوب العروس لانكم بالنساء أشبه. ٦ لا نقرّ بذا الذلّ: لا نعترف بهذه المهانة. ٧ الحطب الجزل: الحطب الصامد الذي يدوم احتراقه طويلاً. ٨ ظهرها: المقصود به ظهر الارض. وتحملوا: ارحلوا. وهزل من الهزل، أي: ضعف وجدب وقحط. ٩ اللام في «للموت» لام الابتداء. الثكل: اصل معناها فقد الولد، وتُستعمل لكل من يُبتلى بفقد عزيز عليه. ١٠ فدبوا اليهم: ازحفوا اليهم. القنا: الرماح. محدث العهد بالصقل: حديث العهد بالصقل والسنّ.

٢ – أشهر أغراض الشعر الغنائي

الفخر . – وحقيقته انه مدح ، ولكنه **مدح للنفس** ، يُظهر به الشاعر فضائل شخصه فيخاطب سامعه بلسان من ضمير المفرد المتكلم ، او هو يجاوز فضائل شخصه ليصف فضائل قبيلته او قومه ، وعندئذ يخاطب سامعه بلسان من ضمير الجمع المتكلم .

والفخر قد صحب الشعر العربي في عصوره كلها ، على انه ازدهر ازدهاراً عظيماً في الجاهلية وفي العصر الاموي .

ولا يجمل الفخر الا اذا تمدح [1] فيه الشاعر بمثال رفيع من الاخلاق وحسن السيرة ، ويزداد الفخر جمالاً اذا صدق الشاعر في نسبة ذلك المثال الرفيع الى شخصه او قومه .

وفي الفخر العربي معانٍ اصبحت اليوم باطلة مرذولة كالفخر بالنسب فانه يتصل بمجتمع اما بدوي ، واما اقطاعي .

ومن اشد عيوب الفخر المغالاة ، فانها تُدخله في باب الغرور الفارغ .

ومن اشهر شعراء الفخر في الادب العربي عنترة بن شداد ، والفرزدق ، وابو الطيب المتنبي ، والشريف الرضي . وعنترة احبهم جميعاً الى النفس في هذا الغرض من اغراض الشعر .

(انظر : امثلة على الفخر ، في منتخبات هذا الفصل) .

الشعر الحكمي . – **وهو الشعر الذي يتأمل فيه الشاعر نظام الوجود وأخلاق البشر ومجرى التاريخ فيجرد من ذلك كله الفكر والعبر والعظات .**

وربما سُمي الشعر الحكمي **تأملياً** لانه قائم – كما قلنا – على تأمل نظام الوجود واخلاق البشر ومجرى التاريخ .

فاذا أصبحت تلك الفكَر والعظات التي يجرّدها الشاعر من تأملاته أقوالاً يرددها الناس في المناسبات دُعيت **امثالاً** .

واذا عمّق الشاعر تأملاته ، فتناول بها مسائل اساسية مثل ماهية الحقيقة ، والكون ، والعدم ، والحرية ، والعدل ، والجمال ، الخ ... ورتب ذلك في نظرة جامعة شاملة ، اصبح

١ تمدح : مدح نفسه ، قرظها .

شعره الحكمي **فلسفياً** نسبة الى الفلسفة ، وهي كلمة يونانية معربة معناها حب الحكمة .

واذا غلب على الشعر الحكمي صرف الناس عن الدنيا ودعوتهم الى التقوى والتوبة عُرف **بشعر الزهد** ، واكثره يوحش النفس ويعطل الهمة لما يدور عليه من فكرة الموت وتصوير ظلام القبور .

والشعر العربي قد عَرَف الشعر الحكمي في كلّ من عصوره ، بل كاد لا يكون شاعر عربي خلا شعره من ابيات حكمية . ولكن غلبت بالحكم شهرة زهير بن ابي سلمى ، وعدي بن زيد العبادي ، ولبيد بن ربيعة العامري في الجاهلية . ثم ظهر في العصر العباسي الاول ابو العتاهية الذي وقف شعره على القول في الزهد . واشتهر في العصر العباسي الثالث ابو الطيب المتنبي الذي سارت ابياته الحكمية على ألسنة الخواص والعوام. واشتهر بعده في العصر نفسه ، ابو العلاء المعري ، وقد مس في شعره بعض مسائل فلسفية .

والحكم في الشعر الجاهلي اقرب الى الفطرة ، ثم ظهرت عليها آثار من التعمق الثقافي عند ابي العتاهية والمتنبي وابي العلاء ، ولابي العلاء مزايا يتفرد بها من كل شاعر سواه من شعراء الحكمة عند العرب .

والشعر الحكمي العربي كثيراً ما يأتي خواطر في البيت والبيتين موزعة في قصائد الشاعر ، فنلقى الحكم مختلطة بالرثاء والفخر والمدح الخ... ولذلك بقي اكثر شعر الحكمة في اللغة العربية شعراً غنائياً تغلب عليه انفعالات نفس الشاعر .

ولكن الادب العربي لم يخلُ من شعر **حكمي تعليمي** تمثل في بعض اراجيز جمعت نصائح ووصايا في الاخلاق والسلوك . ومن اشهر هذه الاراجيز واحدة لابي العتاهية في العصر الاول ، واخرى للشيخ ناصيف اليازجي في عصر الانبعاث .

ويلحق بالشعر الحكمي التعليمي[١] القصص المنظومة امثالاً ، واعظم من اشتهر بها قديماً **ابن الهبارية** ، من شعراء العصر العباسي الرابع ، وهو صاحب كتاب «الصادح والباغم» على نحو كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، الا ان كتاب ابن الهبارية رجز لا نثر . فاما في العصر الحديث فاشهر من نظم الامثال احمد شوقي. (انظر في المنتخبات: امثلة من الشعر الحكمي).

وصف الطبيعة والعمران.—وله موضوعان: **التغني بمباهج الطبيعة** وخَلقها، من مثل الزهر

١ يجب التفريق بين الشعر الحكمي التعليمي والنظم التعليمي . فالنظم التعليمي ليس بشعر ولكنه مجرد قواعد علم من العلوم أفرغت في قالب الوزن ليهون حفظها .

والشجر والانهار ، **والتغني بآثار العمران** كالقصور والبِرَك والمدن .

وشعر التغني بآثار العمران كاد يكون معدوماً في الجاهلية وفي العصر الاموي . ولكنه ازدهر في العصر العباسي الثاني وفي بعض الاعصر الاندلسية ، تبعاً لتقدم الدولة وشيوع الترف والاكثار من المباني الفخمة .

وكذلك ليس في الشعر الجاهلي تغنٍّ بمظاهر طبيعية مشرقة ناضرة ، والسبب ما يغلب على طبيعة الجزيرة من الجفوة والغلظة . ولكن حين انتقل الشعر العربي الى بيئاته الاخرى على ضفاف الانهر ، في العراق والاندلس ، اخذ يصور الطبيعة حوله بصور زاهية فتانة مبهجة . وسنعرض في الفصل الذي نعقده حول الوصف لأمثلة من شعر الوصف في مختلف عصور الادب العربي .

الخمريات . — ومدارها على **وصف الشراب ومجالس اللهو والنشوة بالخمر.** وهذا الغرض من الشعر صحب القصيد العربي منذ نشأته في الجاهلية. واشهر من نظم الخمريات في ذلك العصر الاعشى . واشتهر بالخمريات في العصر الاموي الاخطل التغلبي ، والخليفة الاموي الوليد ابن يزيد .

ولكن **شعر الخمر في الادب العربي بلغ اوجه في العصر العباسي الاول** . واعظم من يمثله ابو نواس . وليس في الخمريات كبير غناء من حيث هي وصف للشراب ولونه واثره في الشاربين ، او من حيث هي وصف للكأس والساقي وغير ذلك. ولكن قيمة الخمريات في ان **الشعراء اتخذوها وسيلة لاثارة القضايا الجدية وهم يعبثون.** وخمريات ابي نواس ملأى بالقضايا الجدية التي اثارها في عصره او حكم عصره باثارتها [١]. وهو موضوع سيتاح لنا ان نعود اليه.

الاخوانيات . — وموضوعها **الحنين الى الاصدقاء والخلان** ووصف طيب العيش في صحبتهم . وكان ممن اشتهر بالاخوانيات ابو فراس الحمداني، وسنضرب مثلاً من اخوانياته في الفصل الذي نعقده له .

الشعر السياسي . — وهو ما قيل **لغاية من غايات السياسة** ، يدعو به الشاعر لدولة او حزب او سلالة او قبيلة او شخص ، او هو يدعو لمبدإ متعلق بالسياسة . ومن هنا قسم هذا الغرض من اغراض الشعر قسمين : فمنه ما يدعو دعوة سياسية لمجرد عصبية او قرابة او

١ وكما عمد المتصوفة من الشعراء الى استخدام الفاظ الغزل ومعانيه في سبيل اغراضهم الصوفية ، كذلك عمدوا الى شعر الخمريات فطوعوا الفاظه ومعانيه لتلك الاغراض.

منفعة ، ومنه ما يدعو دعوة سياسية لمبدإ او فكرة .

واكثر الشعر السياسي نلقاه في الادب العربي القديم، في العصرين الاموي والعباسي الاول. ففي عصر بني امية اندلعت نيران العصبية القبلية بعد سكونها اول عهد الاسلام، واستؤنفت الخصومة بين عرب الشمال وعرب الجنوب او قيس ويمن . وفي هذا العصر حوّلت الخلافة الى منصب وراثي ، ونشأت الاحزاب واقواها : الحزب الاموي ، ثم الحزب الشيعي الذي كان يرى الخلافة حقاً لاولاد علي من فاطمة، ثم الحزب الزبيري الذي يقوده عبد الله بن الزبير واخوه مصعب ، ثم الحزب الخارجي وهو اقرب الاحزاب الى ما اصبحنا نفهم اليوم بالحزب المبدئي ، كان لا يرى الخلافة وقفاً على الامويين او على قريش ، بل يراها حقاً لأيما مسلم بايعه الناس .

وفي العصر العباسي الاول اشتدت المنافسة بين العناصر من رعايا الدولة، ولاسيما الفرس والعرب، وقويت الشعوبية وهي عبارة عن حركة معارضة للعرب سرت في العناصر التي غلبها الفتح العربي على امرها ، وتجلّت في مظاهر سياسية وادبية وذوقية مردّها كلها الى النيل من العرب .

وقد انبرى لكل عصبية ، ولكل حزب او عنصر، شاعر او شعراء يدعون لاصحاب تلك العصبية او ذلك الحزب ، او العنصر، ويقارعون الخصوم والمنافسين[1]. **وهكذا كان الشعر السياسي في حقيقته اغراضاً عدة ، مجموعة في غرض واحد** . ففي الشعر السياسي يمدح الشاعر ويهجو ويرثي ويحرض ويفتخر ويعتذر وينظم الحكم والامثال ، ويُخضع ذلك كله لتوجيه سياسي ينصر به جانباً او رأياً سياسياً ويقاوم به رأياً او جانباً سياسياً آخر . (انظر في منتخبات هذا الفصل مثلاً لاحمد شوقي نظمه في غرض سياسي) .

الشعر الاجتماعي .- والحقيقة ان الشعر كله ، أياً كان فنه وغرضه ، لا يمكن ان يخلو من اثر للمجتمع الذي ينشأ فيه . فالشعر بهذا المعنى كله اجتماعي ، ولكن خُص بعض الشعر فوصف بانه اجتماعي، اذا كان **يعرض صراحة لقضية من قضايا المجتمع** من مثل العدالة الاجتماعية ، وحقوق المرأة ، واشاعة التعليم الخ... وهو على الجملة غرض مستحدث في

[1] كان الاخطل شاعر الحزب الاموي ، والكميت بن زيد الاسدي شاعر الشيعة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر الزبيريين ، وعمران بن حطان شاعر الخوارج ... والشعوبية شعراء كثر في العصر العباسي الاول.

الشعر العربي كثر في العصر الاخير نتيجةَ التنبه لوجوب الاصلاح الاجتماعي في الاقطار العربية . (انظر في منتخبات هذا الفصل أبياتاً لحافظ ابراهيم في المرأة) .

الوطنيات . — وهي الشعر الذي **يدور فيه قائله على موضوع الوطن** ، فيصف محاسن طبيعته ومكارم اهله ويصوّر وحشة الغربة عنه وجمال الذكريات فيه وشدة الحنين اليه . وكانت هذه هي المعاني الغالبة على الشعر الوطني قديماً ، فكان هذا الغرض من الشعر اشبه بالاخوانيات وشعر الطبيعة .

فاما في العصر الحديث فقد جدت في هذا الباب معانٍ اخرى تتعلق بالدعوة الى استقلال الوطن وحريته واصلاح شؤونه ، بحيث امتزج شعر الوطنيات بالشعر الاجتماعي والسياسي. (انظر في المنتخبات امثلة على شعر الوطنيات) .

منتخبات

امثلة في الفخر

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك

عنترة بن شداد العبسي . — حكى الرواة ان سيداً جاهلياً من بني عبس ، يقال له شداد، أبعد في طلب الغزو حتى بلغ جنوبي الجزيرة، فغنم في ما غنم امة حبشية ، او زنجية ، تسمى زبيبة ، عاد بها الى منازل العبسيين في نجد فأولدها طفلاً اسود افلح[1]، قادح العينين ، بخيف المنظر ، فكان هو عنترة ، وكان مولده في اواسط القرن السادس الميلادي .

وكره شداد، رعياً للتقاليد، ان يعترف اول الامر بأبوته لهذا الصبي الاسود. فصرفه الى رعاية الابل وجعله عبداً من عبيده ، فتألم عنترة لذلك التحقير يصيبه من ابيه واحس بالجرح الموجع المحرق في صميمه . وادرك ان لا سبيل له الا التحرر وخلع عار الرق الا اذا اوجب احترامه وتعظيمه بما يكتسب من صفات الرجولية . فانصرف الى الفروسية يبرع فيها والى الشعر يتقنه . واوتي عنترة قوة بدن وشجاعة نفس وجودة قريحة اعانته كلها على البراعة في الفروسية ، وعلى اتقان الشعر .

ثم وقعت حادثة اكرهت اباه على ان يعتقه ويعترف به ابنـــاً له . ذلك ان حياً من احياء العرب انتهزوا فرصة فاغاروا على بني عبس واستاقوا ابلهم ، فجدّ العبسيون في استنقاذ مالهم ونشبت بين الجانبين معركة شديدة . واحتاج العبسيون الى النجدة فقال شداد لعنترة : كرّ يا عنترة ! فاجاب عنترة : العبد لا يحسن الكر ، وانما يحسن الحلاب والصر[2]. فصاح شداد بابنه وهو يرى حرج الموقف : كر وانت حر ! وهكذا انتزع عنترة من ابيه الكلمة التي كان ينشدها ، فكر وأبلى في القتال بلاء رائعاً وهزم العدو !

واصبح عنترة منذ ذلك اليوم حراً وابناً لسيد من سادات عبس . وصار هو الفارس المعدود في قبيلته ، ثم سما حتى صار فارس العرب الاشهر ، وحتى احتل في تاريخ العرب واذهانهم منزلة البطل القومي الاسطوري وعُقدت على سيرته القصة الشهيرة بقصة عنترة وهي

[1] الافلح: المشقوق الشفة السفلى ، ومنه لقب عنترة بالفلحاء .
[2] الحلاب: حلب الناقة . والصر : هو شد ضرعها لكي لا يرتضعها سقبها اي فصيلها الصغير .

من اعظم الكتب انتشاراً في بيئاتنا الشعبية .

ولكن عنترة لم يستطع في حياته ان يخلص من تعييره بالعبودية ، ولا ان يزيل العقبات التي اقامها في وجهه سواد لونه وضعة نسبه من ناحية امه . فكره عمه مالك ان يزوجه ابنته عبلة وقد أحبها الفارس الشاعر حباً رقيقاً سامياً ، وتغزّل بها غزل الفرسان وخلّد ذكرها على الاجيال .

وهكذا كان شعر عنترة مرآة لحياته وأخلاقه ولما تنازع نفسه من عوامل . فافتخر بفروسيته وبمزاياه الرجولية ودفع عنه ما كان يعبّر به من سواد اللون ومن ضعة النسب ، وعاتب قومه عتاباً شديداً مراً ، جافياً في احيان ، وتحبّب الى عبلة وعاتبها عتاباً عذباً شجياً ، وشرح لها أشواقه في عفّة ، والتمس السبيل الى قلبها بما كان يصوّر لها من شجاعته وكرمه .

وفي ايام عنترة نشبت حرب السباق بين عبس وذبيان ، وكان عنترة من فرسانها وقد قتل فيها ضمضماً الذي أشار اليه في معلقته ، وأشار الى ما كان يهدده به ابنا ضمضم من القتل .

ولعنترة ديوان مطبوع ، نُحِل [1] فيه الشاعر كثيراً من شعر غيره . ولكن أجود ما لعنترة معلقته وقد سبق منها مقطع في فصل الملاحم . وشعر عنترة سهل اللفظ سهل النظم وفيه من الشعر الغنائي حلاوة الرنّة .

وهذه مقاطع اخرى من معلقته ، في الفخر :

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ ، فَإِنَّنِي سَمْحٌ مُخَالَقَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمِ [2]
فَإِذَا ظُلِمْتُ ، فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ ، مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ، كَطَعْمِ العَلْقَمِ [3]

•

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ [4]
بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ ، قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فِي الشِّمَالِ مُفَدَّمِ [5]

١ نُحِل : نُسب اليه وهو ليس له. ٢ إثني عليّ ، اي : اشكريني. والخطاب موجه الى عبلة . مخالقتي: معاشرتي . يقول : اشكريني بالذي عرفته مني ، لانني رجل حسن المعاشرة اذا انصفني صاحبي فلم يبخس حقي. ٣ باسل : شديد ، عنيف . العلقم : ثمر يضرب به المثل في المرارة . ٤ المدامة : الخمرة . ركد : سكن وخف . الهواجر : جمع هاجرة ، وهي الظهيرة التي تشتد فيها الحرارة . المشوف : اسم مفعول من شاف ، بمعنى : جلا . والمعلم : الدينار . ٥ زجاجة ذات أسرة : يقصد قدحاً مخططاً . ازهر : ابيض، والمقصود به ابريق الخمر . والمفدم : الموضوع عليه الفدام وهو قماشة لتصفية الخمر. وقوله: في الشمال ، اي وضع في مهب ريح الشمال ليبرد .

عنترة بن شداد العبسي



فشككتُ بالرمح الأصمّ ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرّم

فَإِذا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ   مَالي ، وعِرْضِي وافِرٌ لم يُكْلَمِ ١
وَإِذا صَحَوْتُ فَمَا أُقصِرُ عَنْ نَدًى ،   وكما عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي ٢

•

هَلاَّ سَأَلْتِ الْخَيْلَ يَا ٱبْنَةَ مالِكٍ   إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي ٣

١ لم يكلم : لم يجرح ، لم ينله العيب. والمعنى : انه يشرب فينفق ماله ولكنه لا يسكر فيعرض نفسه للمهانة والهزؤ. ٢ يقول ، عطفاً على البيت السابق : واذا صحوت بقيت على الكرم الذي اظهرته واناشرب ، لان الكرم خُلق فيّ وليس اثراً من آثار الشراب. الشمائل : الصفات الحميدة. ٣ هلا : التحضيض ، وجوابها : يخبرك ، في البيت اللاحق . وابنة مالك : عبلة .

يُخبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوقيعةَ أنَّني اغشى الوغى، وأعِفُّ عندَ المَغْنَمِ ١
فأرى مَغانِمَ لو أشاءُ حَوَيْتُها فيَصُدُّني عنها الحَيا وتكرُّمي ٢

•

لَمّا رأيتُ القومَ أقبَلَ جَمْعُهُمْ يَتذامَرُونَ، كَرَرْتُ غيرَ مُذَمَّمِ ٣
يدعون عَنْتَرَ والرماحُ كأنّها أشطانُ بِئْرٍ في لَبانِ الأدهَمِ ٤
ما زِلْتُ أرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِهِ ولَبانِهِ حتّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ ٥
فازْوَرَّ من وَقْعِ القَنا بِلَبانِهِ، وشكا إليَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ ٦
لو كانَ يَدْرِي ما المُحاورةُ اشْتَكَى، ولكان لو علمَ الكلامَ مُكَلِّمِي ٧
ولقد شفى نفسي وأبْرَأَ سُقْمَها
قِيلُ الفَوارِسِ: وَيْكَ عَنْتَرَ، أقْدِمِ! ٨

•

ولقد خَشِيتُ بأنْ أموتَ ولم تَدُرْ لِلحَرْبِ دائِرَةٌ على ابْنَيْ ضَمْضَمِ ٩
الشّاتِمَيْ عِرْضي، ولم أشْتُمْهُما، والنّاذِرَيْنِ إذا لَمْ ألْقَهُما دَمي ١٠
إنْ يَفْعَلا فلقد تَرَكْتُ أباهُما جَزَرَ السِّباعِ وكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ! ١١

١ اغشى الوغى واعف عند المغنم، اي: انني لا احارب في سبيل الكسب. ٢ البيت تفسير لما سبقه. ٣ يتذامرون: يحمس بعضهم بعضاً على خوض المعركة. غير مذمم، اي: من رآني حمد موقفي ولم يجد فيّ عيباً يذمه من جبن او تردد. ٤ أشطان البئر: الحبال التي تدلى بها الدلاء في البئر لاخراج الماء، شبه بها رماح العدو في صدر حصانه لانها طويلة وتفجّر منه الدم. ولبان الادهم: صدر الحصان الاسود. ٥ تسربل بالدم: لبس ثوباً من الدم. ٦ ازور: مال وحاد. العبرة: الدمعة. والتحمحم: صوت الفرس. يقصد ان الفرس ضاق بوقع الرماح في صدره فمال وحمحم ليرق له قلب فارسه. ٧ يقول: لم يكن يعوز فرسي الا النطق، فلو استطاع لشكا اليّ ما يقاسيه من ألم الجراح في المعركة. ٨ أبرأ، بمعنى: شفى. والقيل، بمعنى: القول. يعني: ان ليس يرضيه شيء كصياح الفرسان: أقدم يا عنترة. ٩ ضمضم: هو الذي قتله عنترة في حرب داحس والغبراء. دارت عليه دائرة الحرب: غُلب فيها وصُرع. ١٠ الشاتمي عرضي: نعت لابني ضمضم. وقوله: اذا لم القهما، هجاء مر للرجلين، يريد انهما لا يوعدانه الا وهو غائب عنهما. ١١ ان يفعلا: ان يكثرا من الوعيد والتهديد في غيابي. جزر السباع: طعاماً للسباع. النسر القشعم: النسر المسن.

حاشية : بحر معلقة عنترة.

نظم عنترة معلقته على **الكامل** ، وهذا وزنه التام :

مُتَفاعِلُن متفاعلن متفاعلن   متفاعلن متفاعلن متفاعلن

يجوز في متفاعلن تسكين التاء ، فتصبح مُتْفاعلن أي : مستفعلن . ويجوز في متفاعلن الاخيرة (أي: ضرب البيت) ان تصير مُتَفاعِلْ ، او مُتْفاعِلْ ، أي: مفعولن . وللشاعر ان يتنقل بين هاتين الصورتين في ضرب البيت ، شرط ان يلتزمها في القصيدة كلها .

اختر بيتاً من معلّقة عنترة وقطّعه .

فضيلة الحلم

الشريف الرضي محمد بن الحسين، يُعـدّ في فحول الشعراء الذين نبغوا بعد المتنبي وأبي فراس في العصر العبّاسي الثالث، له ديوان شعر كبير طُبـع في مجلدين، ومن قصائده ما بلغ الشهرة العظيمة كقصيدته التي رثى بها صديقه الاديب ابا اسحاق الصابي ومطلعها:

أَعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأَعْوادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادي؟ [١]

وقصيدته التي يتغزّل فيها ومطلعها:

يا ظَبْيَةَ البانِ، ترعى في خمائِلِهِ لِيَهْنِكِ اليَوْمَ أَنَّ القَلْبَ مَرْعاكِ [٢]

ومنها قوله:

أَنْتِ النَّعِيمُ لِقَلْبي والعَذابُ لَهُ، فَمَا أَمَرَّكِ في قَلْبي وأَحلاكِ!
عِنْدي رَسائِلُ شَوقٍ لَسْتُ أَذكُرُها لولا الرقيبُ لَقَدْ بَلَّغْتُها فاكِ! [٣]

وُلد الشريف الرضيّ في بغداد سنة ٩٧٠م (٣٥٩ هـ)، وكان والده نقيب الطالبيين فيها، فالشريف متصل النسب بالامام علي بن ابي طالب، ومن اجداده الامام موسى الكاظم، ولذلك يُعرف بالشريف الرضيّ الموسويّ. وهو أطول القرشيين باعاً في فنون الادب، جمع بين الشعر والنثر، ثم هو أطولهم باعاً في اغراض الشعر لم يقتصر منه على غرض واحد كعمر بن أبي ربيعة، ولم يكن مقلاً بل مكثراً مع الاجادة، على قصر عمره.

وُعني الشريف بالروائع التي أثرت عن جده الامام عليّ، فكان من ثمرة تلك العناية الكتاب المشهور **بنهج البلاغة** وهو يُعتبر في الطبقة العليا بين تحف البيان العربي.

واستمتع الشريف في عصره بمنزلة عالية فتولى الحجّ بالناس والنظر في المظالم، وكانت مجالسه منتدى الادباء، ولازمه الكثير من طلاب العلم فاتخذ لهم مكتبة وداراً سمّاها دار العلم. وممن تخرّج عليه من الشعراء المبرزين: مهيار الديلمي صاحب القصيدة التي تُغنّى اليوم ومطلعها:

أَعْجَبَتْ بي بينَ نادي قَوْمِها أُمُّ سَعْدٍ [٤]، فَمَضَتْ تَسْأَلُ بي

١ خبا: انطفأ. ٢ خمائله: حدائقه، جنائنه. والجملة: «ترعى في خمائله» في محل نصب حال لظبية البان. ٣ يقصد برسائل الشوق: القبل. ويقول: لولا عين الرقيب لبلّغت هـذه الرسائل فمك، أي: لقبلتك. ٤ حُول النص في الاغنية الى: ذات حسن.

الشريف الرضي



لغير العلى مني القلى والتجنب
ولولا العلى ما كنت في الحب ارغب

ومن حضر مجالس الشريف ابو العلاء المعرّي ، الشاعر الحكيم ، وذلك حين زار بغداد في شبابه .

ولا ريب ان جانباً من علوّ منزلة الشريف قام على وجاهة اسرته ، ولكن لا ريب ان جانباً من علو تلك المنزلة انما قام على ما كان يتحلى به الرجل من الفضل والاباء وسموّ الهمّة والغيرة على العلم والادب . وُعرف عنه انه كان يترشح للخلافة ، ولعلّ نفسه كانت تحدثه بالثورة في سبيلها ، ومن هنا كثُرَ في شعره وصف الوقائع والغارات مع ان القتال لم يكن صناعته ، وانما كان يتصوّر يوماً ينهض فيه مع انصاره من الطالبيين فيستولي على الخلافة ويستعيد حقاً لآل البيت .

وكانت وفاة الشريف سنة ١٠١٥ م (٤٠٦ ﻫ) في مسقط رأسه بغداد ، وعمره خمسة واربعون عاماً .

واما شعره فخير ما يوصف به الرصانة في اللفظ والمعنى . وكثير منه يُذكّر بطريقة الشعر الجاهلي مع زيادة حظّ في التفكير والتأمل نتيجةَ الثقافة التي انتشرت في عصر الشريف فأخذ منها بقسط وافر . ويلوح ان الشريف اعجب بالمتنبي — ولو في سره — فظهرت على شعره آثار من أبي الطيب .

وأفضل شعر الشريف ما قاله في اغراض نفسه الخاصة ، ولاسيما الفخر ، وفي ذكر الاماكن الحجازية المقدّسة ، وكان يحج بالناس اليها على ما أسلفنا .

وهذا مقطع كبير من احدى قصائده ، في الفخر . يصوّر الشريف في هذا المقطع فضائل شخصه ولا يتطرّق الى الفخر بنسبه ، وأعظم ما يفتخر به من مزايا الرجولية : خُلق الحلم وسعة الصدر .

قال الشريف :

لِغَيْرِ ٱلْعُلَى مِنِّي ٱلْقِلَى وَٱلتَّجَنُّبُ ، وَلَوْلَا ٱلْعُلَى ما كُنْتُ فِي ٱلْحُبِّ أَرْغَبُ ١
إذا اللهُ لم يُعْذِرْكَ فيما تَرُومُهُ ، فما النَّاسُ إلَّا عــاذِلٌ وَمُؤَنِّبُ ٢
مَلَكْتُ بِحِلْمِي فُرْصَةً ما ٱسْتَرَقَّهَا ، من الدَّهْرِ مَفْتُولُ ٱلذِّرَاعَيْنِ أَغْلَبُ ٣
فَإِنْ تَكُ سِنِّي ما تَطَاوَلَ بَاعُها ، فَلِي مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَجْدِ قَلْبٌ مُذَرَّبُ ٤
فَحَسْبِيَ أَنِّي فِي ٱلأَعادِي مُبَغَّضٌ ، وأَنِّي إِلَى غُرِّ ٱلْمَعــالِي مُحَبَّبُ ٥
وَلِلْحِلْمِ أَوْقاتٌ ، ولِلْجَهْلِ مِثْلُها ، ولٰـكِنَّ أَوْقاتِي إِلَى ٱلْحِلْمِ أَقْرَبُ ٦
يَصُولُ عَلَيَّ ٱلْجاهِلُونَ وأَعْتَلِي ، ويُعْجِمُ فِيَّ ٱلقــائِلُونَ وأُعْرِبُ ٧
يَرَوْنَ ٱحْتِمالِي غُصَّةً ، ويَزِيدُهُمْ لَواعِجَ ضِغْنٍ أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ ٨
وأُعْرِضُ عَنْ كَأْسِ ٱلنَّدِيمِ كَأَنَّهَا وَمِيضُ غَمامٍ ، غائِرِ ٱلْمُزْنِ ، خُلَّبُ ٩
وَقُورٌ ، فَلا ٱلأَلْحانُ تَأْسِرُ عَزْمَتِي ، ولا تَمْكُرُ الصَّهْباءُ بي حِينَ أَشْرَبُ ١٠
ولا أَعْرِفُ ٱلفَحْشاءَ إِلَّا بِوَصْفِها ، ولا أَنْطِقُ العَوْراءَ والقَلْبُ مُغْضَبُ ١١

١ القلى: الكراهة. والتجنب: الهجر. يقول: اذا كرهت شيئاً، او هجرت شيئاً، فغير العلى والمجد ما اكره. ولولا اني احب العلى والمجد لما كانت لي رغبة في اي حب. ٢ يعذرك: يبلغك العذر. المؤنب: بمعنى العاذل واللائم. يقول: اذا الله لم يبلغك العذر في شيء تبتغيه كان الناس كلهم عاذلين لــك ومؤنبين. ٣ استرقها، هنا، بمعنى نالها، ظفر بها. الاغلب: الذي يتغلب كثيراً على الخصوم. ومفتول الذراعين: كناية عن القوة. يقول: اني بلغت بحلمي ما لم يبلغه القوي بقوته. ٤ سن ما تطــاول باعها: سن صغيرة. قلب مذرب: قلب حاد الفطنة ماض في الامور. ٥ يقول: كفاني فخراً ان الاعادي يبغضونني شديد البغض ولكن المعالي تحبني شديد الحب. يعني ان اعاديه ادنياء. ٦ يقول: للحلم وقت يصلح فيه، وللجهل وقت يحسن فيه، على ان الغالب على اوقاتي هو الحلم وسعة الصدر. والمقصود بالجهل، هنا، شراسة الطبع وتعجيل الانتقام. ٧ يصول عليّ الجاهلون، اي: يعتدي علي السفهاء بما يروّجون عني من اقاويل السوء. أعتلي: يرتفع قدري. يعجم: يقول كلاماً غير مفهوم لسخفه. أعرب: أقول كلاماً فصيحاً مفهوماً. اراد الشريف بهذا البيت ان يظهر الفرق والتناقض بينه وبين اعدائه الجهلة. ٨ لواعج الضغن: نيران الحقد المحرقة. يقول: انهم يغصون، اي: يضيقون ذرعاً باحتمالي، ويزدادون تحرقاً بالبغض لانني لا اغضب. ٩ اعرض: احول وجهي. الوميض: لمع البرق. غائر المزن: لا مطر فيه. خلّب: خدّاع. ورفعت «خلب» على انها نعت وميض. يقول: احوّل وجهي عن كأس النديم، اي لا اشرب الخمر، وانا اعتبرها لمعان برق خادع في سحاب لا مطر فيه. ١٠ الصهباء: الخمرة، سميت بذلك لما يكون في لونها من حمرة او شقرة. وقوله: لا تمكر الصهبــاء بي، اي: لا تخدعني عن وقاري وادراكي، فتحملني على الخفة والطيش والعربدة. والمكر لا يكون الا في العاقل، ولكنه استعمله هنا لغير العاقل. ١١ الا بوصفها: الا بما اسمع عنها. العوراء: الكلمة القبيحة الدالة على السفه.

تَحَلُّمُ عَنْ كَرِّ القَوَارِصِ شِيمَتِي كَأَنَّ مُعِيدَ الذَّمِّ بِالْمَدْحِ مُطْنِبُ [١]
لِسَانِي حَصَاةٌ يَقْرَعُ الجَهْلَ بِالحِجَا إِذَا نَالَ مِنِّي العَاضِهُ المُتَوَثِّبُ [٢]
وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي فُضَالاتُ مَا يُعْطِي الزَّمَانُ وَيَسْلُبُ [٣]
غَرَائِبُ آدَابٍ حَبَانِي بِحِفْظِهَا زَمَانِي، وَصَرْفُ الدَّهْرِ نِعْمَ المُؤَدِّبُ [٤]

انشاء ادبي

اكتب انشاء ادبياً في شعر الفخر، ضمّنه جواباً عن الاسئلة الآتية :

١ – ما المعاني التي يشترك فيها عنترة والشريف الرضي في فخرهما الذي طالعته في هذه المنتخبات ؟

٢ – أي الشاعرين يظهر لك في تلك المعاني أثقف وأرقى ؟ ولماذا ؟

٣ – يقول عنترة :

فاذا شربت فانني مستهلك مالي، وعرضي وافر لم يُكلَمِ

ويقول الشريف :

وقور فلا الألحان تأسر عزمتي ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب !

فأي التعبيرين أروع : قول عنترة : « وعرضي وافر لم يُكلم » ام قول الشريف : « ولا تمكر الصهباء بي » ؟ ولماذا ؟

٤ – اختار عنترة لفخره بحر الكامل، واختار الشريف بحر الطويل، فهل يدلك ذلك على فرق في طبيعة الرجلين ؟

١ الكر : التكرار. القوارص: الشتائم الجارحة. مطنب: مطيل. يقول : اني اصبر على ما اسمع من شتائم شديدة تقال فيّ مرة بعد مرة، كأن الذي يكرر فيّ المذمّة يطيل في مدحي. ٢ الحصاة، هنا، بمعنى: العقل. والحجا ايضاً : العقل. نال مني : شتمني. العاضه : الذي يشتم صريحاً لقحته. المتوثب، هنا، بمعنى الذي لا خلق له يحمله على رعي الحرمات. ٣ الفضالات: بمعنى الفضلات، والبقايا التي لا قيمة لها. ويقصد بالفضالات هنا: ما لا قيمة له من شهوات الدنيا. ٤ آداب، هنا، بمعنى: اخلاق كريمة. حباني : خصني. صرف الدهر : حوادثه. يقول : ان هذه الاخلاق الكريمة خصني بها زماني، والزمان وحوادثه نعم المؤدب للانسان.

عش عزيزا او مت وانت كريم

وهذه قطعة في الفخر **لأبي الطيب المتنبي**، وهي من شعره في الدور الاول من حياته. وكان اعجاب المتنبي بنفسه عظيماً، وله في الفخر بها مبالغات مكروهة. بل لقد ملأت نفس المتنبي عليه الدنيا، فلم يفخر الا بها. لكنه كان لا ينسى في فخره ان يطالب نفسه بما يراه خليقاً بالنفوس الكبيرة من إدراك العز أو الموت ميتة كريمة.

قال المتنبي:

مَفْرَشي صَهْوَةُ الحِصَانِ ولكنَّ   قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ من حَديدِ [1]
أينَ فَضْلي اذا قَنِعْتُ مِنَ الدَّهرِ   بعيشٍ مُعَجَّلِ التَّنْكيدِ؟
عِشْ عزيزاً، أوْ مُتْ وأنْتَ كَرِيمٌ   بينَ طعنِ القنا وخَفْقِ البُنُودِ [2]
فرُؤوسُ الرِّماحِ أذْهَبُ للغَيْظِ،   وأشفى لِغِلِّ صَدْرِ الحَقُودِ [3]
لا كما قد حَيِيتَ غيرَ حَميدٍ،   وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فَقيدِ [4]
فاطْلُبِ العِزَّ في لَظَى؛ ودَعِ الذُّلَّ   ولو كانَ في جِنَانِ الخُلودِ [5]
لا بِقَومي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بي،   وبِنَفْسِي فَخَرْتُ لا بِجُدُودي
وبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا   دَ، وعَوْذُ الجاني، وغَوْثُ الطَّريدِ [6]
إنْ أكُنْ مُعْجَباً فَعُجْبُ عَجيبٍ   لم يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزيدِ
أنا تِرْبُ النَّدى ورَبُّ القَوافي   وسِمَامُ العِدَى وغَيْظُ الحَسُودِ [7]

١ صهوة الحصان: مكان ركوب الفارس من فرسه. وقوله: مفرشي صهوة الحصان، اي: ان ظهر الحصان موضع فراشي الذي انام فيه. مسرودة من حديد: منسوجة منه، والمقصود الدرع. ٢ البنود: الرايات. والمقصود بقوله: بين طعن القنا وخفق البنود، ساحة الحرب. ٣ الغل: الحقد. يقول: ان رؤوس الرماح اقدر على اذهاب ما بالنفس من غيظ، وأقوى على شفاء الحقد في صدر الحاقد. ٤ في هذا البيت يستأنف معنى البيت السابق فكأنه يقول: ان خوضك ساحة القتال افضل لك من حياة تعيشها مذموماً ثم تموت فلا احد يفقدك. ٥ لظى: جهنم. ٦ نطق الضاد، اي: تكلم بالعربية. عوذ الجاني: الملجأ الذي يلجأ اليه مرتكب الذنب فيصبح فوق منال العقوبة. غوث: نصرة، معونة. ٧ ترب الانسان: مساويه في السن. الندى: الكرم. ويقصد بقوله: ترب الندى، انه رفيق الكرم. سمام: جمع سم.

أنا في أُمّةٍ ـ تَداركَها اللهُ ! ـ غَريبٌ كَصَالِحٍ في ثَمودِ [١]

حاشية : بحر هذه القصيدة .

نظم المتنبي قصيدته هذه على **الخفيف**، ووزنه التام :

فاعِلاتُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فاعلاتن   فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

يجوز في « فاعلاتن » حذف سكونها الاول فتصبح فَعِلاتن . ويجوز في « فاعلاتن» التي هي ضرب البيت تسكين عينها ، مع حذف سكونها الاول ، فتصبح فَعْلاتُنْ ، أي: مَفْعولُنْ . وكذلك يجوز حذف السكون الاول من مستفعلن ، فتصبح مفاعلن .

وفي بحر الخفيف يكثر وصل صدر البيت بعجزه .

اختر بيتاً من هذه القصيدة وقطّعه .

١ قوله: تدارکها الله ، دعاء للامة بان يحفظها الله من شر المصير. يشبه المتنبي نفسه في هذا البيت بالنبي صالح ، والامة بقبيلة ثمود البائدة . وقيل انما لقب الشاعر بالمتنبي لهذا البيت الذي ادعى فيه مشابهة الانبياء.

منتخبات

امثلة في الشعر الحكمي

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

زهير بن ابي سلمى المزني . ـ شاعر في الطبقة العليا ، يتفوق شعره ببعده من تعقيد اللفظ وسخف المعاني ، ويجمع بين اشراق البيان وقوته وجمال الفكرة وسموها . وقليل من شعراء العربية من مثل تمثيل زهير **ما ينبغي للشاعر ان يمثله بفنه من دور ايجابي بناء .** ومعنى هذا الكلام يزداد وضوحاً اذا نحن التفتنا الى شاعر آخر ، في عصر زهير ، هو طرفـــة بن العبد القائل :

وَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ لَذَّةِ الفتى ، وَعَيْشِكَ لم أَحفلْ متى قامَ عُوَّدي ١

فَمِنْهُنَّ سَبْقي العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ ٢

وتَقْصِيرُ يَوم الدَّجْنِ ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ،

بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ ٣

وكَرّي ـ إذا نادى المُضافُ ـ مُحَنَّباً كَسِيدِ الغضا ، نَبَّهْتَهُ ، المُتَوَرِّدِ ٤

يقول : طرفة ان الحياة تتفه ٥ لولا هذه الثلاث : الخمرة والمرأة والحرب ! وطرفة بهذا المذهب متشائم ، وهو الى ذلك ابن لعصره الجاهلي . ولا ريب ان المجتمع البدوي الذي عاناه طرفة كان قد اصبح اقل من ان يملأ نفوساً شاعرة متأملة كنفسه . ولم تكن قد ظهرت القيم التي جهر بها الاسلام ونشرها في القوم . فتعلقت نفس طرفة بذلك المذهب

١ وعيشك : أقسم بحياتك . لم احفل : لم ابال . عوّدي : زوّاري في مرضي ، ويقصد مرضه الاخير ، اي موته . ٢ فمنهنّ ، اي : من الثلاث التي ذكرها في البيت الاول . شربة كميت : يعني بها الخمر . تزبد : يحدث لها زبد ورغوة . ٣ يوم الدجن : يوم المطر الخفيف والغيم الرقيق ، وهو من الايام المستحسنة للهو . البهكنة : صفة للمرأة . المعمّد : القائم على اعمدة . والخباء : الخيمة . ٤ المضاف : طالب النجدة . محنباً : عالي الظهر ، والمقصود الحصان . سيد الغضا : الذئب الذي يكون بين شجر الغضا . نبهته ، بمعنى : طردته . والجملة حال من سيد الغضا . المتورّد : الوارد الماء . ٥ تتفه : تكون تافهة .

زهير بن ابي سلمى



وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم!

المتشائم ، وعاش به في الفراغ بين عصرين : عصر الجاهلية المدبر ، وعصر الاسلام المقبل .

وكان زهير خليقاً بان يتعلق تعلق طرفة بذلك المذهب المتشائم ، وان يعيش في الفراغ بين ذينك العصرين . بل لعل زهيراً كان اجدر من طرفة بان يوجه سيرته ذلك التوجيه . ففي ايامه التي طالت ثمانين حولاً على ما يذكر في معلقته ، او اكثر من ثمانين حولاً ، اتيح للشاعر ان يتألم جداً . فهؤلاء بنو غطفان الذين نشأ فيهم — وان كان مزنياً — تندلع نيران حرب مهلكة بين حيّيهم : عبس وذبيان . ولم يكن اصل الشر شيئاً يؤبه له ، وانما تراهن حذيفة بن بدر[1] سيد ذبيان، وقيس بن زهير سيد عبس، على اي فرسيها يسبق، فرس حذيفة : الغبراء ، ام فرس قيس : داحس . فاكمن حذيفة رجالاً نفروا داحساً فسبقته الغبراء ، فغضب قيس وطالب حذيفة بالسبق ، وطالبه حذيفة بالسبق ، فادى اللجاج الى مقتل ولد لحذيفة ، قتله قيس بن زهير . فنشب بين القبيلتين تذابح اخوي ضار

١ وقيل : حمل بن بدر .

كاد يأتي عليها ، لولا ان سعى في الصلح بينهما هرم بن سنان والحارث بن عوف ، واحتملا ديات القتلى التي قيل انها بلغت ثلاثة آلاف بعير واستنفدت مال الرجلين .

وهكذا كان زهير خليقاً بان يتشاءم اشد تشاؤم لهذا السفه والطيش والدم المسفوك . ولكنه لم يفعل . ولعل للسيدين هرم بن سنان والحارث بن عوف يداً في ذلك ، فقد منحها الشاعر خلوداً بشعره ، ومنحاه ايماناً بان العقل والمروءة والمعروف لم تذهب من الناس . وكان ذلك الايمان خير ما اخذه زهير من ممدوحيه ، لا المال . ومجّد زهير بشعره ذينك السيدين العاملين في الصلح ، ومن وراء ذلك مجّد فكرة الصلح بين تلك القبائل المصطرعة دائماً في محيطه ، ومجّد البذل والتضحية والحلم والعقل في سبيل الصلح وحسم الشر ، وقبّح الحرب وصوّر وخامة عواقبها ، وكانت تلك هي خلاصة ما رمى اليه الشاعر الحكيم . وكان زهير في ذلك كله ابناً لعصره الجاهلي ، شأنه شأن طرفة ، الا انه صرف همه الى دور ايجابي بنّاء ، وجَهَد في ان يرفع ادراك قومه الى مستوى اعلى .

ان خير صورة لزهير هي التي توحي بها ابياته في وصف الحرب ، صورة شيخ جليل حكيم هادىء الطبع ، يقف مشرفاً على ساحة قد دارت فيها رحى معركة عنيفة ، وكثرت فيها عظام القتلى ، وحامت فوقها الغربان ، فانشد الجانبين المتعادبين منذراً منبهاً لا شامتاً بمغلوب ولا مهنئاً لغالب ، وانما قصارى همه ان لا يعود الجانبان الى مثل ذلك السفه والطيش والولوغ في الدم ، فيقول :

أَلا أَبْلِغِ الأَحْلافَ عَنّي رِسالَةً ، وذُبْيانَ : هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مُقْسَمِ ؟[1]
فَلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في صُدُورِكُمْ لِيَخْفَى ، ومهما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ[2]
يُؤَخَّرْ ، فَيُوضَعْ في كتابٍ فَيُدَّخَرْ ليوم حِسابٍ ، أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ[3]
وما الحربُ إِلّا ما عَلِمْتُمْ وذُقْتُمْ ، وما هو عنها بالحَديثِ المُرَجَّمِ[4]
متى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً ، وَتَضْرَ إِذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ[5]

١ الاحلاف : عبس والقبائل التي حالفتها في الحرب . هل أقسمتم كل مقسم : هل حلفتم كل يمين ان تعودوا الى الحرب ؟ ٢ يدل هذا البيت وتاليه على ان زهيراً كان اما حنيفياً واما على المسيحية . ٣ ينقم : يُعاقب عليه . ٤ ذقتم : جربتم . الحديث المرجم : المبني على غير اساس . ٥ متى تبعثوها : متى تثيروها مجدداً . تضرى : تشتد . تضرم : تشتعل .

وهاك فيما يأتي حكم زهير الشهيرة التي ختم بها معلقته، واكثرها يبدأ بقوله: «ومَن» ولذلك قال عمر بن الخطاب: ان اشعر الشعراء صاحب: «ومن، ومن»، وهي حِكم جامعة تجري مجرى الامثال:

سئمتُ تكاليفَ الحياة، ومن يعِشْ ثمانين حولاً _ لا أبا لك _ يسأمِ
وأعلمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَهُ ولكنَّني عن علمِ ما في غدٍ عمي
رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ من تُصِبْ تُمِتْهُ؛ ومن تُخطِئْ يُعمَّرْ فيهرَمِ [1]
ومَنْ لم يُصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بمنسِمِ [2]
ومن يَجعلِ المعروفَ في غيرِ أهلهِ يكُنْ حمدُهُ ذمّاً عليه، ويندمِ
ومن يَكُ ذا فضلٍ، فيبخلْ بفضلِهِ على قومِهِ، يُستغْنَ عنهُ ويُذمَمِ
ومن يُوفِ لا يُذمَمْ، ومن يُهدَ قلبُهُ الى مُطمئِنِّ البرِّ لا يتجمجمِ [3]
ومن هابَ أسباب المنايا ينلْنَهُ وان يرقَ أسبابَ السماء بسُلَّمِ
ومن يجعلِ المعروفَ من دُونِ عِرضِهِ يَفِرْهُ، ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتَمِ [4]
ومن لم يَذُدْ عن حوضِهِ بسلاحِهِ يُهدَّمْ، ومن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ [5]
ومن يَغترِبْ يَحسَبْ عدوّاً صديقَه، ومن لا يُكرِّمْ نفسه لا يُكرَّمِ
ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقةٍ، وان خالها تخفى على الناس، تُعلَمِ [6]
وكائنْ ترى من صامتٍ، لكَ مُعجِبٍ، زيادتُهُ أو نقصُهُ في التكلُّمِ [7]
لسانُ الفتى نِصفٌ ونصفٌ فؤاده، فلم يَبقَ الا صورةُ اللحمِ والدمِ!

١ رأيت المنايا خبط عشواء: رأيت الموت يتناول الناس على غير بصيرة كالناقة العمياء تخبط في سيرها. ٢ يضرس بأنياب: يُنهش. منسم: خف البعير، اي قدمه. وقوله: يضرس بانياب ويوطأ بمنسم: كناية عما يصيب الانسان من اذى اذا لم يتساهل في معاشرة الناس. ٣ البر: الخير والصلاح. لا يتجمجم: لا يتردد ولا يتذبذب، ولعل المقصود: في قبول الصلح. ٤ يفر عرضه: يحفظه. ٥ قيل ان في هذا البيت معنى تنافر وحكمة زهير. ٦ خليقة: صفة. ٧ وكائن: وكم.

لبيد بن ربيعة العامري



أليس ورائي ان تراخت منيّتي لزوم العصا تُحنى عليها الاصابع ؟

لبيد بن ربيعة . — شاعر جاهلي ، وفارس وكريم معدود من بني [1] عامر [2] ، من هوازن ، وهو صاحب المعلقة التي مطلعها :

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها [1]

طالت حياته فوصلت بين الجاهلية والاسلام. قيل: كان صبياً في ايام [3] النعمان أبي قابوس ملك الحيرة ، ووفد عليه في صباه ولقي النابغة الذبياني وأنشده شيئاً من شعره فاعجب به

١ . عفت الديار : محيت آثارها . وقصد بالمحل : المكان الذي يُحل فيه وقتاً قصيراً . وبالمقام : الموضع الذي تطول فيه الاقامة . ومنى وغول ورجام : اسماء اماكن . والمعنى : ان كل اثر للديار في تلك الاماكن التي يذكرها قد بلي وامحى .

اعجاباً عظيماً. اما وفاته فكانت بمدينة الكوفة في نهاية عهد الراشدين او في السنة الاولى من خلافة معاوية. فلبيد شاعر مخضرم، على ان اكثر شعره وافضل شعره قاله قبل الاسلام. ويبدو ان روح الشاعر كانت متهيئة قبل ظهور الدعوة النبوية لقبول معتقد جديد يختلف عما كان شائعاً من وثنية.

وهو القائل:

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائقَ بيننا علاّمُها [1]

والقائل:

ألا كُلُّ شيءٍ، ما خَلا اللهَ، باطلُ وكُلُّ نعيمٍ، لا محالةَ، زائلُ! [2]

فلما كان الاسلام أسلم لبيد. وكان كثير من الشعراء قد قاوموا النبي ودعوته، فذمهم القرآن، ولذلك لم يجد لبيد رغبة في الاكثار من قول الشعر بعد الاسلام.

ولبيد هو القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟

واليه يشير احمد شوقي بقوله:

عَجِبْتُ لِلُقْمانَ في حِرصِهِ عَلى لُبَدٍ والنسور الأُخَرْ
وشكوى لَبيدٍ لِطُول الحَياةِ ولو لم تَطُلْ لَتَشَكّى القِصَرْ

يعني شوقي ان حب الحياة غالب، والانسان مفطور على عدم الرضى، فلا نغتر بشكوى لبيد لطول حياته، فلو انها قصرت لوجدناه كذلك يشكو.

ولبيد شاعر حكيم له خواطر يتأمل بها الحياة البشرية والمصير الانساني. وخواطره هذه اكثر ما تتخلل شعره في رثاء اخيه، وكان اخوه اربد حين انتشر نبأ الاسلام قد قصد النبي محمداً في المدينة ولكنه عاد ولم يسلم. واصابته في طريقه صاعقة فمات. فحزن عليه لبيد ورثاه بشعر يضمر لوعة وكآبة، ولكن ظاهره حكمة يعزي بها الشاعر نفسه بان الموت

١ المليك، هنا: الله. الخلائق: الصفات والاخلاق. وعلاّمها: صاحب المعرفة بها، اي: الله.
٢ الذين يثنون قيمة الشعر على حسن معناه الديني يعتبرون هذا البيت اجل ما قاله العرب.

مآل كل حي ومآل كل شيء، وينتهي بالقول ان الانسان لا يعلم ماذا يجيء له غده، فكل ما يدعيه زاجرو الطير من معرفة بالمستقبل ظن لا يقين فيه، وليس يدري احد من يعود من القوم اذا خرجوا في سفر.

وحكمة لبيد تنزع نزعة الزهد، وهي شائعة مألوفة، على ان الحزن الذي يمازجها هو الذي يكسبها وقعاً في النفس، فضلاً عن جمال بعض الصور فيها وسهولة اللفظ ووضوح التركيب على نحو قوله:

وما المرْءُ إلا كالشِّهابِ وَضَوْئِهِ … يَحورُ رَماداً بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِعُ![1]

وهذه عينية لبيد في رثاء اخيه أربد، قال:

بَلِينا وما تَبْلَى النُّجومُ الطَّوالِعُ … وَتَبْقَى الدِّيارُ بَعْدَنا وَالْمَصانِعُ[2]
وَقَدْ كُنْتُ في أكْنافِ دَارِ مَضِنَّةٍ … فَفارَقَني جَارٌ بِأرْبَدَ نَافِعُ[3]
فَلا جَزَعٌ أنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بيننا … فكلُّ امرِىءٍ يوماً به الدَّهْرُ فاجِعُ
وما المرْءُ الا كالشِّهابِ وَضَوْئِهِ … يحورُ رماداً بعدَ إذ هو ساطِعُ
وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعٌ … ولا بُدَّ يوماً ان تُرَدَّ الوَدائِعُ[4]
وما النَّاسُ الا عَامِلانِ، فعاملٌ … يُتَبِّرُ ما يُبْنَى وَآخرُ رافِعُ[5]
فمنهم سَعيدٌ آخِذٌ بنصيبِهِ، … ومنهم شَقِيٌّ بالمعيشةِ قانِعُ
أليس ورائي إن تراخت مَنِيَّتي … لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابِعُ[6]
أُخبِّرُ أخبارَ القرونِ التي مضت، … أدِبُّ كأني كلما قُمْتُ رَاكِعُ[7]

١ الشهاب: يقصد به الشعلة الكبيرة من نار. يحور: مضارع حار بمعنى: تحوّل.
٢ المصانع: يقصد بها المدن والحصون وكل ما عظم بناؤه. ٣ اكناف: جوانب. دار مضنة: دار تستحق الحرص عليها وعلى اهلها. ففارقني جار بأربد نافع: ففارقني جار نافع حين فارقني أربد، والعرب تعظم الجار. ٤ هذا البيت جار مجرى المثل. ٥ يتبر: يهدم. يقول: الناس عاملان: عامل هدم وخراب، وعامل بناء. ٦ تراخت منيتي: تأخر موتي وطال عمري. يقول: أي شيء انتظر مع طول العمر وتأخر الموت غير الشيخوخة والاتكاء على العصا. ٧ يصف بهذا البيت حالته اذا تراخت منيته، يقول: أمسي يومئذ شيخاً يحدث باخبار الماضين ويدب متكئاً على العصا، محني الظهر، كأنه راكع.

فأَصبَحتُ مِثلَ السَّيفِ أخلقَ جَفنَهُ   تَقادمُ عهدِ القَينِ ، والنَّصلُ قاطعُ [١]
فلا تَبعَدَنْ إنَّ المنيَّةَ مَوعِدٌ   علينا ، فدانٍ للطُّلوعِ وطالِعُ [٢]
أعاذلُ ، ما يُدريكِ إلا تَظَنِّيًا   اذا رَحلَ السفَّارُ من هو راجعُ [٣]
أتجزعُ مما أحدثَ الدهرُ بالفتى ؟   وأيُّ كريمٍ لم تُصبْهُ القوارعُ ؟ [٤]
لعمركَ ، ما تدري الضوارب بالحصى   ولا زاجرات الطير ، ما اللهُ صانعُ ! [٥]

انشاء ادبي

زهير حكيم مجتمع ، ولبيد حكيم دين ، وهو في حكمته احسن تصويراً شعرياً .

تناول هذا الموضوع بانشاء ادبي مؤيداً او مخالفاً ما اشتمل عليه من رأي . واضرب براهين مما عرفت من شعر الشاعرين .

١ جفنه ، اي : جفن السيف ، وهو غمده وقرابه . وأخلق : أبلى . والقين : حداد السيوف . وتقادم عهد القين : كناية عن قدم عهد السيف . وفي هذا البيت يتابع الشاعر معنى البيت السابق ، فيشبه نفسه في شيخوخته بسيف بلي قرابه وبقي نصله قاطعاً . يعني : ان الشيخوخة تنال من جسمه ولا تنال من نفسه .
٢ قوله : لا تبعدن ، خطاب لاخيه ، ومعناه : لا تهلك . وطالع ، في آخر البيت ، بمعنى : غائب . يقول : ان المنية موعد على الناس كلهم ، فنهم من حضر الموعد ، ومنهم من لا يزال غائباً ولكنه سيحضر. ٣ أعاذلُ : يا عاذلتي ، يا لائمتي . التظني : الاتكال على الظن والتخمين . ٤ القوارع : المصائب . ٥ في هذا البيت اشارة الى فنهم في الجاهلية حين كانوا يرمون بالحصى طيراً جاثماً ويزجرونه ، فاذا طار يمنة تفاءلوا واذا طار يسرة تشاءموا . يقول لبيد : ان هذا كله لا يعرّفنا بما يريد الله صنعه .

الورق المتناثر في الريح

عدي بن زيد العبادي . — قد اثبتنا لعدي بن زيد قصيدته : حواء والحية ، وهي قصة من قصص التوراة . وعلمنا من امره انه كان من اعظم الناس ثقافة في عصره ، وان مكايد البلاط اللخمي في الحيرة انتهت به الى السجن حيث لقي مصرعه . ولكن شخصية عدي تستحق ان نعلم من امرها اكثر مما علمنا ، وشعره — على قلته ، او قلة ما حُفظ لنا منه — يستحق أن نزداد به معرفة لنطلع على ما اودعه من حكمة .

يُنسب عدي بن زيد الى قبيلة تميم. وقيل : ان اول جد من اجداده في الحيرة قدمها من اليمامة هارباً من قومه ، لانه اصاب فيها دماً ، فاصبحوا يطالبونه بالثأر . وكان اسمه ايوب ابن محروف ، ولذلك سُميت الاسرة بني ايوب.

وعظم شأن هذه الاسرة في عاصمة المناذرة ، فكان زيد ، والد عدي ، متوليَ البريد في الحيرة من قِبَل كسرى انوشروان ، بل تولى الحيرة نفسها وقتاً ، وتولى كذلك تربية النعمان احد اولاد المنذر الرابع . وكان زيد مجيداً للكتابة بالعربية والفارسية .

وعلّم زيد ابنه عدياً الكتابة بالعربية، ثم حرص على تعليمه الفارسية فحذقها عدي نطقاً وكتابة وبرع في لعب الفرس على الخيل بالصوالجة وفي الرمي بالنشاب . وجعله كسرى انوشروان كاتباً له بالعربية في بلاط المدائن ، فكان اول من كتب بالعربية في بلاط الفرس ، واوفده في شأن من شؤون الدولة الى قيصر الروم ، فزار عدي القسطنطينية ومر بدمشق .

وتوفي والده في نحو تلك المدة ، فانصرف عدي الى حياة لهو وصيد ، واحب هند بنت النعمان بن المنذر الرابع فتزوجها .

ومات المنذر الرابع ، فسعى عدي في ان يكون عمه النعمان وارث العرش ، فنجح مسعاه لما كان له من نفوذ في بلاط المدائن ، وهكذا اصبح النعمان عمّ عدي هو النعمان الثالث ابو قابوس ، الذي قال فيه النابغة اعتذارياته .

ويبدو ان بني ايوب — وهم اسرة عدي — كانت بينهم وبين بني مرينا — وهم اسرة اخرى من اسر الحيرة — منافسة شديدة . وكان بنو مرينا يريدون ان يرث العرش بعد المنذر الرابع ولد من اولاده غير النعمان . فحين اصبح النعمان ملكاً جعلوا يتوددون اليه ويهمسون في أذنه ان عدي بن زيد يتيه عليه ويقول انه هو الذي اصطنعه ملكاً . فغضب

عديّ بن زيد العبادي



ثم صاروا كأنهم ورق جـ ـفّ فألوت به الصبا والدبور

النعمان على صهره ، كغضبه على النابغة ، واعتقله وحبسه في الصنّين ، وهو سجن اعده النعمان لمن تنزل بهم نقمته .

ولبث عدي في الصنين زماناً لا يطلقه النعمان . وحُمل نبأ سجن عدي الى كسرى في المدائن — وهو يومئذ كسرى ابرويز — فارسل يأمر باطلاقه ، ولكن النعمان عجّل فقتل الشاعر في سجنه !

غير ان الامر لم يقف عند ذلك الحد . فان عدياً كان له ولد — اسمه زيد — ما لبث ان انتقم لابيه من النعمان بان دبر مكيدة دفعت كسرى ابرويز الى طلب النعمان وطرحه تحت ارجل الفيلة تدوسه وتقتله .

واما هند بنت النعمان وزوج عدي، فقد ترهبت بعد مقتل زوجها وحبست نفسها في دير بظاهر الحيرة يقال له دير هند ، وعاشت طويلاً بعد الفتح العربي الاسلامي ، وخطبها المغيرة ابن شعبة والي الكوفة، فردته .

على ان ما يهمنا من ذلك كله ان عدياً قضى اكثر المدة في السجن وهو ينظم الشعر يبعث به الى النعمان او يبعث به الى اخويه يحثهما على انقاذه . وهنا لا بد للذهن من ان يعود الى النابغة والى شعره الذي كان يخاطب به النعمان . فلقد كانت بين عدي والنابغة مشابهة في الموقف، فكلاهما مبتلى بنقمة الملك ، وكلاهما يطلب رضى الملك. الا ان النابغة طليق وهو يأمن ، بينما عدي سجين عرضة للقتل .

ومع ذلك فنحن اذا وجدنا في الشعر الذي بعث به عدي الى النعمان اعتذاراً وتصويراً لما يقاسيه في الصنين ، ولما يعانيه اهله من الحزن عليه وهو سجين ، فاننا لا نرى فيه ما في اعتذاريات النابغة من مبالغة في وصف هلعه وجزعه ، ومن تهويل بصولة النعمان . بل ان عدياً ليعاتب سيد الحيرة ويذكره بما اسدى اليه من خدمة ، ولا يتردد احياناً ان يفتخر! فعدي اقوى نفساً من النابغة . ولعل شيئاً من ذلك راجع الى انه صهر النعمان وصاحب نفوذ في بلاط الاكاسرة .

غير ان اليقين الذي لا شك فيه ان عدياً لم يكن متهالكاً تهالك النابغة على منفعة ينالها من النعمان ، ولم يكن مأخوذاً بعظمة الملوك ، وهو يدري ان السابقين منهم قد بادوا كما يبيد الناس ، ويدري ان اللاحقين منهم كذلك سيبيدون . وهذا يوصلنا الى حكمة عدي ... وهي حكمة خلاصتها ذكر من سبق من الملوك لمن لحق منهم بقصد دعوتهم الى الاتعاظ والتواضع ، والى ترك البطر والبغي . ولا شك انها حكمة اجتمعت لعدي ثمرة ثقافته وايمانه بمسيحيته[١] .

وبعد ، فعدي بن زيد شاعر مولد في الادب العربي قبل زمن المولدين ، ذلك بانه ابن

١ يروي الرواة ان عدياً حمل النعمان على المسيحية . ويحدثون في ذلك ان الرجلين مرّا بمقبرة ثم بشجرة ، فقال عدي النعمان: أتعلم ما تقول هذه المقبرة، وهذه الشجرة؟ ثم أنشده بلسان كل من المقبرة والشجرة شعراً فيه عظة . فتنصر النعمان ولبس المسوح ، وترك الملك وساح في الارض. ولكن ظاهر ان الرواية على هذا الوجه لا يمكن ان تصح ، مع العلم ان عدم صحتها لا يمنع ان يكون عدي صاحب ذلك الشعر ولا ينفي مسيحية النعمان ، وانما ينفي ان يكون النعمان ترك الملك وتنسك، فالثابت انه قتل في المدائن . واما ملك الحيرة الذي يروى انه لبس المسوح وساح في الارض فهو النعمان الاول ، او النعمان الاعور ، باني قصري الخورنق والسدير ، وكان حكمه في اواخر القرن الرابع الميلادي .

مدينة وابن حضر ، ويجيد كتابة بلغتين . وهو بهذا يختلف عن شعراء الجاهلية الا امية بن ابي الصلت . وشعره ليّن، وربما ضمنه الفاظاً فارسية ، مثل دخدار ، وهي الثوب الجميل القشيب . ومن هنا كان القدماء يقولون عن عدي انه في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ، يعارضها ولا يجري معها مجراها .

وهذه احدى قصائده الشهيرة ، وهي من شعره في السجن يخاطب بها النعمان ابا قابوس ، وفيها خلاصة حكمته ونهجه في نظم الحكم :

وَيقولُ العُداةُ : أَوْدى عديٌّ ، وعَديٌّ ، بِسُخْطِ رَبٍّ ، أسيرُ
أَيُّها الشَّامِتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْـرِ ، أأنتَ المُبرَّأُ المَوفورُ ؟ ١
أمْ لَدَيْكَ العهدُ الوثيقُ من الأيـامِ ؟ بل أنتَ جاهلٌ مَغرورُ ! ٢
إنْ يُصِبْني بعضُ الهَناتِ ، فلا وا نٍ ضعيفٌ ، ولا أكَبُّ عثورُ ٣
من رأيتَ المنونَ خلَّدْنَ ، أمْ مَنْ ذا عليه مِنْ أن يُضامَ خَفيرُ ؟ ٤
أين كسرى ، كسرى الملوكِ أنوشر وانُ ، أم أينَ قبلَهُ سابورُ ؟
وبنو الأصفرِ الكرامُ ، ملوكُ الرُّ ومِ ، لم يَبْقَ منهمُ مذكورُ
وَتَذَكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَقِ إذ أشـرفَ يوماً ، وللهُدى تَبْصيرُ ٥
سَرَّهُ حالُه ، وكثرةُ ما يمـلكُ ، والبَحرُ مُعرِضاً والسَّديرُ ٦
فَارْعَوى قلبُه ، فقال : وما غِبْـطَةُ حيٍّ إلى المماتِ يصيرُ ؟ ٧
ثُمَّ بعد الفلاحِ ، والمُلكِ ، والإمَّـةِ وارَتْهُمُ هُناكَ القُبورُ ! ٨

١ قوله : المبرأ الموفور ، يعني به : المعافى الذي لا يعوزه شيء في صحته او ماله . والمقصود : يا من يشمت بي ، هل أخذت أماناً من الدهر ان لا يصيبك بمكروه ؟ ٢ في هذا البيت استئناف للمعنى في البيت الاول ٣ بعض الهنات: بعض المصائب الطفيفة. فلا وانٍ ضعيف : فلست بمتخاذل ضعيف. والاكب: الذي يكثر عثوره ووقوعه على وجهه. ٤ خفير : حارس . ٥ ويُروى: تفكير. والمعنى ان الهدى ، اي : الرشد او العقل ، يُبَصِّر الانسان في اموره ويرده الى التفكير . وفي هذه الابيات اشارة الى النعمان الاول الاعور وما يروى من انه لبس المسوح ولذلك . ٦ معرضاً : اسم فاعل من أعرض . وأعرض ، هنا ، بمعنى ذهب طولاً وعرضاً. والسدير: القصر المشهور . ٧ فارعوى قلبه : اتعظ ورجع عن غروره . ٨ الامة ، هنا : رغد العيش وخصبه .

ثم صاروا كأنهم ورق جـ ف، فألوت به الصبا والدبور[1]

تمرين

تجد – فيما يأتي – نص الشعر الذي روي ان عدي بن زيد قاله بلسان الشجرة يعظ به النعمان، وهو من الشعر العربي القليل الذي يُنطق به شاعره الجماد . اضبطه بالشكل واشرح معناه :

من رآنا فليحدث نفسه	أنه موف على قرن زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها ،	ولما تأتي به ، صم الجبال
رب ركب قد أناخوا عندنا	يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا الدهر بعيش حسن ،	قطعوا دهرهم غير عجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا	وكذاك الدهر حالاً بعد حال

حاشية : بحر هذه الابيات .

نظم عدي ابياته هذه على **الرمل** ، ووزنه التام :

فاعِلاتن فاعِلاتن فاعِلُن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

يجوز في كل من «فاعلاتن» و«فاعلن» حذف السكون الاول فتصبحان : «فَعِلاتن» و «فَعِلُن» .

ويجوز في «فاعلاتن» التي هي ضرب البيت ان يُحذف سكونها الاخير ، ويُسكّن ما قبله ، فتصبح : «فاعلاتْ» . ويجوز كذلك حذف الساكن الاخير ، مع المتحرك قبله ، فيصبح ضرب البيت «فاعلن» .

وللشاعر ان يبني قصيدته على «فاعلاتن» أو «فاعلاتْ» أو «فاعلن» ، شرط ان يلتزم احدى هذه الصور الثلاث في القصيدة كلها .

اختر بيتاً من الابيات السابقة وقطّعه .

١ الصبا والدبور : ريحان متقابلتان ، وفي هذا البيت تصوير رائع .

لا امام سوى العقل

ابو العلاء ، احمد بن عبد الله ، المعري ، اكثر شعراء العرب انصرافاً الى تأمل الوجود ، والمصير الانساني ، وطبائع البشر ، وأحوال المجتمع . وله ميزة انه يتبع في تأملاته منهباً واضح الخطوط وان تعرّض فيه للتناقض ، وميزة اخرى انه جهد في التوفيق بين مذهبه وسيرته . فهو شاعر حكيم يقارب الفيلسوف ، ولذلك شاع له لقب شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء . وهو ، من بعدُ ، أعظم شعراء العرب شهرة عالمية ، قد حُبّبت أشعاره وافكاره وشخصيته الى الغربيين فدرسوها ، وكان في من عرّف الغربيين به الكاتب اللبناني امين الريحاني الذي نقل مختارات من لزومياته الى الانكليزية نظماً .

وُلد ابو العلاء في مَعَرّة النعمان ، شمالي حلب ، سنة ٩٧٩م (٣٦٣هـ) في وقت عظُم فيه اضطراب الاوضاع السياسية في سوريا بين حمدانيين قد ضعفَ امرهم ، وفاطميين وبَدوٍ وبيزنطيين . وكان مولده في اسرة اشتهرت بالعلم وتولي منصب القضاء .

ولقد استقبلت الدنيا ابا العلاء بغير ما يحب طفل او رجل ان تستقبله به الدنيا ، فما شارف الرابعة من عمره حتى اصابه الجدري ، فطفئت[1] عينه اليسرى وغشي عينه اليمنى بياض ، فاصبح أعمى او كالاعمى . ولكن ذلك لم يحل بينه وبين تحصيل علمي كاد يجمع به ثقافة عصره في اللغة وآدابها ، وفي كثير من المسائل الفلسفية .

وقال ابو العلاء الشعر في سن مبكرة ، فلما مات والده رثاه بقصيدة فيها تلويحات من عبقرية شاعر يتكوّن .

وطاف ابو العلاء في المدن السورية ، واعظم همه طلب العلم ، ثم سافر الى بغداد ، غير انه عاد الى المعرة بعد غيبة قصيرة وقد توفيت والدته واشتد عليها حزنه .

ثم لم يخرج بعد ذلك من المعرة ، بل لم يترك منزله الا مرة حين ألح عليه اهل بلدته ان يشفع لهم الى صالح بن مرداس ، وكان صالح هذا اميراً بدوياً احتل المعرة .

ويوم عاد ابو العلاء الى المعرة من بغداد كان في نحو الاربعين من عمره . وتُعتبر هذه السن الحد الفاصل بين طورين من حياته ، ففي الطور الاول كان اديباً لا يخالف بقية الادباء الا في تلويحات قليلة ، ولكنه في الطور الثاني اصبح هو ابو العلاء الذي استحق لقب شاعر

[1] طفئت : ذهب بصرها .

ابو العلاء المعري



كذب الظن لا امام سوى العقل
مشيراً في صبحه والمساء

الفلاسفة وفيلسوف الشعراء .

وفي هذا الطور سمى ابو العلاء نفسه رهين المحبسين ، يعني : بيته وعماه ، بل رهين المحابس الثلاثة ، يعني : بيته وعمـاه وجسمه . وانصرف الى الدرس والنظم والتأليف ، والى تعليم جمع من التلاميذ كانوا يؤمونه[١] لفضله ، ومن هؤلاء ابو زكريا التبريزي شارح المعلقات العشر . قيل : أتاه أبو زكريا مشياً من بلاد فارس، الى العراق، الى سوريا، وهو يحمل على ظهره مخلاة فيها كتاب مخطوط ، فاستنقع الكتاب بما سال من عرق ابي زكريا حتى امحت سطوره في آخر الرحلة !

وظل دأب ابي العلاء عاكفاً في منزله على التأليف والتعليم حتى توفي سنـــة ١٠٥٧ م (٤٤٩ هـ) وله من العمر اربع وثمانون سنة .

آثار ابي العلاء : وترك ابو العلاء آثاراً وفيرة من شعر ونثر، يتصل بعضها بالطور الاول من حياته ، ويتصل اكثرها بالطور الثاني . واشهر آثاره في الطور الاول ديوان سقط الزند وهو مطبوع . واشهر مؤلفاته في الطور الثاني : **اللزوميات** ، **ورسالة الغفران** ، والفصول والغايات، وكلها مطبوع الا الفصول والغايات فلم يُطبع منها الا جزء واحد امكن العثور عليه، وهو الجزء الاول . ورسالة الغفران والفصول والغايات نثر ، واما الشعر فاللزوميات ، وعليها تقوم ميزته . وهي قصائد ومقاطع جعلها سجل حكمته، وتوخى فيها الصدق كما يقول في مقدمتها . وانما سماها اللزوميات لانه اخذ نفسه في نظمها بلزوم ما لايلزم ، فجعل القافية في حرفين حيث يكفي الحرف الواحد ، وجعلها في ثلاثة احرف حيث يكفي الحرفان .

آراء اشتهر بها ابو العلاء : وقد غلبت على ابي العلاء الشهرة بآراء، منها اقتصاره على الحَبّ

١ يؤمونه : يقصدونه .

والتمر ، ولاسيما العدس والتين ، وتحاميه أكل لحم الحيوان ، أو ما ينتج الحيوان من عسل وبيض . وكذلك عُرف ابو العلاء بشدة التشاؤم ورفض الزواج والنسل وازدراء المرأة ، ونسب اليه خصومه الالحاد .

ولكن الاكتفاء بمثل هذه النظرة الى شيخ المعرة وحكمته تضييع لحق الرجل، وتضييع لحق الاجيال التي تتدارسه . فلابي العلاء شخصية فيها الكثير مما يملأ النفس ويروع ، وله حكمة فيها الكثير مما ينير ، وشعر فيه الكثير مما يخلب .

مبادىء ايجابية في ابي العلاء : كان ابو العلاء جريئاً في الجهر بافكاره ، جريئاً في نقد اولياء الامر من حكام ورؤساء دين . وكان لا يقنع بالآراء والتقاليد الموروثة ، وانما هو روح قلقة متشوفة ، يديم البحث ، ويلح في التساؤل ، ويكثر الشك ، ويأبى الا عقله اماماً يهديه .

وأفضى ابو العلاء في امر الخُلق الفاضل ، والسيرة الحسنة ، والدين الصحيح ، الى مبادىء ايجابية سامية تعلمنا ان حسن السيرة وصحة الدين وفضيلة الخلق ليست بشكل ولا مظهر ، ولكنها جوهرٌ خيّر وفعلٌ خيّر . ان ابا العلاء يلخص كله في انه ثورة على تدجيل المدجلين ومستثمري سذاجة الناس ومحتكري المنافع باسم الدين وباسم السياسة .

على ان المؤسف ان رهين المحبسين قد حاط ما قرره من مبادىء ايجابية سامية باطار أسود كثيف السواد من التشاؤم والسلبية . وهكذا وقع بالتناقض . فهو يعتقد ان البشر لا يرجى منهم صلاح او خير ثم هو يكلف نفسه عناء تعليمهم الصلاح والخير .

شعره : وشعر ابي العلاء الذي تقوم عليه ميزته (وهو لزومياته وبضع قصائد اخرى) شعر يغلب عليه الحرص على اداء الفكرة ، وتكثر فيه ألفاظ يتداولها الفلاسفة او المشتغلون في الفلسفة ، ولكن منه ما يفيض بالعاطفة ومنه ما تملأه الصور الجميلة . واشهر قصائده التي تفيض عاطفةً مرثاته التي مطلعها :

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلَّتي وَٱعْتِقَادِي   نَوْحُ باكٍ وَلا تَرَنُّمُ شادِ

فقد اقام فيها على البشرية والكون اروع مناحة . ان هذه القصيدة موسيقى تابينية وليست بكلمات ، وانها خالدة بخلود الحزن في البشر تلقاء الموت ، ولم يُرَ مثلها شعر عربي استطاع ان يجعل من تأملات الزهد والحكمة غناء له هذا الحظ من الشجو .

واشهر قصائده التي تملأها الصور الجميلة قصيدته التي مطلعها :

عَلِّلاني ؛ فَإِنَّ بِيضَ الأَماني   فَنِيَتْ ، وَالزَّمانُ لَيْسَ بِفَانِ

وفيها يشبه ليله ونجومها المتلألئة بعروس من الزنج ألبست قلائد المرجان :

لَيلتي هٰذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّنجِ عَلَيْهَا قَلائِدُ المَرْجَانِ

وهذه مقاطع مختارة من شعر ابي العلاء الحكمي ، جعلنا اولها اللزومية[1] التي يعلن فيها ان لا امام سوى العقل ، قال :

يَرْتَجِي النَّاسُ أَنْ يَقومَ إمامٌ نَاطِقٌ في الكَتيبةِ الخرساء[2]
كَذَبَ الظَّنُّ لا إمامَ سوى العقلِ مُشيراً في صُبحه والمساء ![3]
إنَّما هذه المذاهبُ أَسبا — بٌ لجَذبِ الدُّنيا إلى الرُّؤساء ![4]

الديانة الحقيقية ترك الطمع

سَبِّحْ ، وَصَلِّ ، وطُفْ بِمكَّةَ جاهداً سَبْعِينَ ، لا سَبْعاً ، فَلَسْتَ بِنَاسِكِ
جَهِلَ الدِّيانةَ من إذا عَرَضَتْ لهُ أَطْماعُهُ لَمْ يُلفَ بالمُتَماسِكِ ![5]

الواعظ الكاذب

رُوَيْدَكَ ، قد غُرِرْتَ وأَنْتَ حُرٌّ بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاء
يُحَرِّمُ فِيكُمُ الصَّهْبَاءَ صُبْحاً وَيَشْرَبُهَا عَلَى عَمْدٍ مَسَاء[6]
يقول لكم : غَدَوْتُ بِلَا كِسَاءٍ ، وفي لَذَّاتِها رهنَ الكِسَاء[7]
اذا فَعَلَ الفتى ما عَنْهُ يَنْهَى فَمِنْ جِهَتَيْنِ ، لا جِهَةٍ ، أَسَاء[8]

١ اللزومية : القطعة من اللزوميات . ٢ الكتيبة : الفرقة من الجيش . وفي البيت اشارة الى ما كان يتمنى الناس في عصر ابي العلاء من ظهور حاكم عسكري يضبط الامور ويزيل الاضطراب . ٣ مشيراً : مرشداً ، قائداً . ٤ جذب الدنيا : كسب منافعها . ٥ اذا عرضت له اطماعه : اذا لقي ما يثير الطمع في نفسه . لم يلف : لم ير . المتماسك : المتمنع الذي لا ينقاد لاطماعه . ٦ الصهباء : الخمرة . ٧ وفي لذاتها رهن الكساء ، أي : رهن ثوبه ليشتري الخمرة ويستمتع بلذاتها . ٨ يعني ان الفتى اذا نهى عن شيء ثم اتاه فقد اساء من جهتين ، أساء لانه خرق قاعدة وسنة ، واساء لانه كذب ونافق .

قيمة الشيء بالقياس الى ضده

والشّيءُ لا يَكثُرُ مُدّاحُهُ الا اذا قِيسَ إلى ضِدِّهِ
لولا غَضا نَجْدٍ وقُلّامُهُ لم يُثْنَ بالطِّيبِ على رَنْدِهِ [1]

دافع الناس المنفعة

تَشتاقُ أيّارَ نُفوسُ الوَرَى وإنّما الشَّوقُ إلى وَرْدِهِ [2]

تعب كلها الحياة[3]

تَعَبٌ كلُّها الحياةُ ، فما أعْجَبُ إلّا من راغبٍ في ازْدِيادِ [4]
إنّ حُزناً ، في ساعةِ المَوْتِ ، أضعافُ سُرُورٍ في ساعةِ المِيلادِ .

الانسان عير البرية [3]

والذي حارَتِ البَرِيّةُ فيهِ حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من جَمادِ [5]
واللّبيبُ اللّبيبُ من لَيسَ يَغْتَرُّ بِكَونٍ مَصِيرُهُ للفَسادِ

والالفاظ : «مستحدث» و«كون» و«فساد» ، في هذين البيتين ، هي من الفاظ الفلسفة .

نحن المذنبون لا الدهر

والدّهرُ لا يَدْرِي بِما هُوَ كائنٌ فيهِ ، فكَيْفَ يُلامُ فيما كانا ؟ [6]

١ الغضا : صنف من شجر له شوك . ونجد : القسم المعروف من الجزيرة العربية . والقلام : ضرب من الشوك . الرند : نبات طيب الرائحة يشبه الآس . ٢ الورى: الناس . والبيت ذاهب مذهب المثل . ٣ هذه الابيات هي من دالية ابي العلاء الشهيرة في الرثاء : « غير مُجْدٍ ...» ٤ راغب في ازدياد ، أي: راغب في ازدياد من الحياة . ٥ البرية : الخلق . مستحدث : مخلوق . ٦ يعني ان الدهر غافل لا يعلم بما يجري فيه الآن ، فكيف يعلم بما جرى فيه من قبل ؟

نَبْكي ونَضْحَكُ ، والقَضاءُ مُسلَّطٌ ، لا الدَّهرُ أَضحَكَنَا ولا أَبكانا !
نَشكُو الزَّمانَ ، وما أَتى بِجِنايَةٍ ، وَلَوِ اُسْتَطاعَ تَـكَلُّماً لَشَكانا ! [1]

بين فيلسوف وربه

إنْ كانَ مَنْ فعلَ الكَبائِرَ مُجْبَراً ، فَعِقَابُهُ ظُلْمٌ عَلَى ما يَفْعَلُ [2]
واللهُ ، إذْ خَلَقَ المَعادِنَ ، عالِمٌ أَنَّ الحِدادَ البِيضَ مِنْها تُجْعَلُ [3]
سَفْكَ الدِّماءِ بِها رِجالٌ أَعْصَمُوا بِالخَيْلِ تُلْجَمُ بِالحَدِيدِ وتُنْعَلُ [4]
لَا تَمْسِ في نارِ الضَّمِيرِ فَراشَةً ، فَضَغائِنُ الصَّدْرِ الحَرِيقُ المُشْعَلُ ! [5]

وهذه الابيات تعدّ في شعر ابي العلاء الفلسفي . ذلك انـــه تعرّض فيها لقضايا تتصل بالفلسفة، ولاسيا الفلسفة الدينية، وهي قضايا الجبر والاختيار ومدى علم الله وتدخله في اعمال البشر ومسؤوليته عن الشرّ . . .

امراؤها أجراؤها

مَلَّ المُقامُ ، فَكَمْ أُعاشِرُ أُمَّـةً أَمَرَتْ بِغَيْرِ صلاحِها أُمَراؤُها [6]
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجازُوا كَيْدَها فَعَدَوا مَصالِحَهـا وَهُمْ أُجَراؤُها [7]

١ في هذا البيت وسابقه تعريض من ابي العلاء بالشعراء الذين يلومون الدهر في كل شيء ويعــاتبونه ويذمونه ويشكونه كأنه عاقل يفهم . ٢ الكبائر: الذنوب. ومجبراً: مكرهاً، مضطراً. ٣ الحداد البيض ، معناها : السيوف الحادة البيضاء لشدة صقلها . و"تجعل" : تصنع ، تعمل . ٤ الضمير في « بها » عائد الى الحداد البيض ، اي : السيوف . اعصموا : امسكوا ، امتنعوا ، اعتصموا . "تنعل : "تلبس نعالاً" .
٥ لا تمس : يخاطب بها نفسه . ومعنى البيت : لا تدخل في ضمائر الناس فان فيها ضغائن مشتعلة ، واذا دخلت فيها كنت كالفراشة التي تتهالك على النار فتموت . يشير ابو العلاء الى ما شمل عصره من جو الفتنة والحقد، والى استعداد الناس الدائم للحرب . ٦ مل المقام : ملت الاقامة في حيث انا مقيم . ٧ استجازوا : اباحوا لأنفسهم. عدوا مصالحها : جاوزوا مصالحها، أهملوها . اجراؤها ، اي : خدامها الذين تدفع لهم اجراً ، يعني : ان احكام الرعية هم خدامها الذين تستأجرهم بمالها ليخدموها حق الخدمة فما بالهم يظلمونها ؟

حاشية : بحر السريع .

قال ابو العلاء :

تشتاق أيارَ نفوس الورى وانما الشوق الى ورده

نظم ابو العلاء هذا البيت على **السريع** ، ووزنه التام :

مُستَفعِلُنْ مستفعلن فاعِلُنْ مستفعلن مستفعلن فاعلن

يجوز في « مستفعلن » حذف سكونها الاول فتنقلب مفاعِلُن . ويجوز حذف سكونها الثاني ، أي الفاء ، فتنقلب مُفتَعِلُن .

وفاعلن ، التي هي ضرب البيت ، يجوز حذف سكونها الثاني ، مع تسكين عينها، فتصبح فَعْلُنْ ، وعلى الشاعر اذا بنى عليها قافية القصيدة ان يلتزمها في القصيدة كلها .

قطّع على السريع بيت المعري المذكور آنفاً .

امثلة على الشعر السياسي

لقد ضاعت رعيتكم!

لم يكن منصب الخلافة وراثياً في عهد الراشدين ، وانما كان مبايعة . فلما تولى الخلافة معاوية بن ابي سفيان ، مؤسس الدولة الاموية ، اخذ البيعة لابنه يزيد وبذلك جعل الخلافة وراثة على نحو ما كان الامر في دولة الفرس الكسروية ودولة الروم القيصرية ، وعلى نحو ما يكون الامر في الدول الملكية . فكان ذلك حدثاً في النظام السياسي الاسلامي ، قال فيه الشعراء شعراً سياسياً ، كلٌّ بحسب نزعته وحزبه . وهاك ما قاله في الموضوع شاعر يدعى عبد الله بن همام السلولي :

فَإِنْ تَأْتُوا بِرَمْلَةَ أَوْ بِهِنْدٍ نُبَايِعْهَا أَمِيرَةَ مُؤْمِنِينَا [١]
إِذَا مَا مَاتَ كِسْرَى قَامَ كِسْرَى نَعُدُّ ثَلَاثَةً مُتَنَاسِقِينَا [٢]
خَشِينَا الغَيْظَ حَتَّى لَوْ شَرِبْنَا دِمَاءَ بَنِي أُمَيَّةَ مَا رَوِينَا [٣]
لقد ضَاعَتْ رَعِيَّتُكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَصِيدُونَ الأَرَانِبَ غَافِلِينَا !

الاسد الذي استوزر حمارا

ولكن الشعر السياسي، وسواء منه ما كان معارضاً او موالياً، ليس كله على مثل ابيات السلولي صراحة في تناول الموضوع ، وليس كله غنائياً على هذا الاسلوب الواضح في اعلان عاطفة الشاعر وميله . بل قد يسلك الشاعر في شعره السياسي سبيلاً يدور دوراناً بالموضوع ، فيعبّر عن عاطفته وميله بمَثَل يضربه ، ويكون المثل قصة، ومع ذلك يبقى الشعر غنائياً [٤]

١ رملة وهند : بنتا معاوية . يقول الشاعر متهكماً : لسنا نقبل مبايعة يزيد فقط ، ولكننا كذلك نبايع اختيه رملة وهند ٢ يقول : صار امرنا كالفرس في دولة الاكاسرة اذا مات كسرى قام كسرى. والثلاثة المتناسقون عنى بهم يزيد واختيه رملة وهند . ٣ ما روينا : ما شفينا عطشنا . ٤ وبهذا الصدد ، نعيد القول ان الشعر العربي لم يستطع ان يخلص من النزعة الغنائية ، ولذلك اسلكنا في الشعر الغنائي كل ما عرف من اغراض الشعر العربي الا بعض المسرحيات .

لانه في الحقيقة قائم على عاطفة شخصية عند الشاعر .

وفيما يأتي مَثَلٌ لأحمد شوقي ، الشاعر المعاصر ، قاله في غرض سياسي ، وفي مناسبة سياسية . وكان قد تولّى الوزارة وزير لم يرضَ عنه شوقي فنظم هذا المثل وكأنما هجاه به، على انه هجوٌ غير مُباشر .

قال شوقي[١] :

الليث ملْك القفار وما تضم الصحاري
سعت اليه الرعايا يوماً بكل انكسار
قالت : « تعيش وتبقى يا دامي الاظفار
مات الوزير ! فمن ذا يسوس أمر الضواري؟»
قال : «الحمار وزيري ! قضى بهذا اختياري»
فاستضحكت ثم قالت: «ماذا رأى في الحمار ؟!»
وخلفته وطارت بضحك الاخبار
حتى اذا الشهر ولى كليلة او نهار
لم يشعر الليث الا وملكه في دمار
القرد عند يمين ، والكلب عند يسار
والقط بين يديه يلهو بعظمة فار
فقال: « من في جدودي مثلي عديم الوقار ؟
اين اقتداري وبطشي وهيبتي واعتباري ؟ »
فجاءه القرد سراً وقال ، بعد اعتذار :
« يا عالي الجاه فينا ، كن عالي الانظار
رأي الرعية فيكم من رأيكم في الحمار!»

١ تركنا النص غير مضبوط بالشكل وغير مشروح لانه سهل ينبغي للطالب ان يستطيع بنفسه ضبطه وشرحه .

مثل على الشعر الاجتماعي

حقوق الام وحرية المرأة

لمع اسم حافظ ابراهيم في مقدمة شعراء العصر الحديث بجانب أحمد شوقي وخليل مطران ... ولد حافظ في القرن الماضي سنة ١٨٧٢ م ، وتوفي سنة ١٩٣٢ م ، وكان يلقب شاعر النيل ، وله ديوان مطبوع فيه كثير من القصائد السائرة .

قال في موضوع حقوق الام وحرية المرأة :

مَن لي بِتَرْبِيَةِ النِّساءِ ، فَإنَّها ... في الشَّرْقِ عِلَّةُ ذٰلِكَ الإِخْفاقِ [١]
الأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذا أَعْدَدْتَها ... أَعْدَدْتَ شَعْباً طَيِّبَ الأَعْراقِ [٢]
الأُمُّ أُسْتاذُ الأَساتِذَةِ الأُلى ... مَلَأَتْ مَآثِرُهُمْ مَدى الآفاقِ
أَنا لا أَقولُ : دَعُوا النِّساءَ سَوافِراً ... بَيْنَ الرِّجالِ يَجُلْنَ في الأَسْواقِ
يَدْرُجْنَ حَيْثُ أَرَدْنَ ، لا مِنْ وازِعٍ ... يَحْشَيْنَ رِقْبَتَهُ ، ولا مِنْ واقِ [٣]
كَلّا ، ولا أَدْعوكُمُ أَنْ تُسْرِفُوا ... في الحَجْبِ والتَّضْييقِ والإِرْهاقِ
لَيْسَتْ نِساؤُكُمُ حُلىً وَجَواهِراً ... خَوْفَ الضَّياعِ تُصانُ في الأَحْقاقِ [٤]
لَيْسَتْ نِساؤُكُمُ أَثاثاً يُقْتَنى ... في الدُّورِ بَيْنَ مَخادِعٍ وطِباقِ [٥]
تَتَبَدَّلُ الازْمانُ في أَدْوارِها ... دُوَلاً وَهُنَّ عَلى الجُمودِ بَواقِ ! [٦]
رَبُّوا البَناتِ على الفَضيلَةِ ، إِنَّها ... في المَوْقِفَيْنِ لَهُنَّ خَيْرُ وِثاقِ [٧]

وظاهر ان حافظاً قد تناول بهذه القصيدة قضية اجتماعية ، ولذلك كان شعره هذا اجتماعياً .

١ الاخفاق : الخيبة ، الفشل . ٢ اعددتها : هيأتها ، احسنت تربيتها . شعباً طيب الاعراق : شعباً كريم العنصر راقياً . ٣ وازع : رادع . رقبته : مراقبته ٤ الاحقاق : جمع حق ، وهو الصندوق الصغير من معدن . ٥ المخادع : جمع مخدع ، وهو الحجرة والغرفة الخاصة . وطباق : جمع طبقة ، والمقصود بها : الخزانة . ٦ الدول ، هنا ، يعني : العهود والادوار . بواقٍ : ثابتات ، راسخات . ٧ خير وثاق : خير ضامن وكافل . وقوله : في الموقفين ، يعني : على كل حالٍ من سفور او حجاب وسراء او ضراء .

امثلة على الوطنيات

ولي وطن آليت ان لا ابيعه

قال ابن الرومي الشاعر العباسي :

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَنْ لا أَبِيعَهُ   وَأَنْ لا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكا [١]
فقد أَلِفَتْه النَّفْسُ حَتَّى كَأَنَّهُ   لها جَسَدٌ إِنْ غابَ غُودِرْتُ هالِكا [٢]
وحبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجالِ إِلَيْهِمِ   مَآرِبُ قَضَّاها الشَّبَابُ هُنالِكا [٣]
إذا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ   عهودَ الصِّبَا فِيها ؛ فَحَنُّوا لِذَلِكا

يقول ابن الرومي : لي وطن اقسمت ان لا ابيعه او ابيح لغيري ان يملكه . فما وطني سوى بدني الذي تعلقت به نفسي . فاذا حيل بيني وبينه هلكت . ثم يقول : انما حبب اوطان الرجال اليهم انهم انفقوا فيها الشباب ، وهو افضل العمر ، وقضوا فيها الاغراض والغايات . فهم لا يسمعون ذكر الوطن الا ذكروا عهد الصبا والشباب ، فثار فيهم الحنين وهزتهم الاشواق .

وامواه لبنان الذ واعذب

قال احمد بن الحسين بن حيدرة ، ويعرف بابن الخراساني الطرابلسي ، يتشوق لبنان وهو نازح بالعراق :

وكيفَ أَلتذّذي ماءَ دِجْلَةَ مَشْرَباً   وأَمواهُ لُبْنانٍ أَلَذُّ وأَعْذَبُ ؟ [٤]

١ آليت : أقسمت . ٢ يقول : لقد ألفت نفسي هذا الوطن حتى كأنه جسد لي اذا انقطعت عنه هلكت ، لان النفس قوامها بالجسد . ٣ مآرب : غايات ، اغراض . ٤ يقول : كيف التذ شرب ماء دجلة وأمواه لبنان الذ منه واعذب ؟

فما لي وللأيامِ — لا درَّ درُّها —
تُشرّقُ بي طوراً وطوراً تُغرّبُ ؟ [١]

ذاك حب الاوطان

وقال نجيب الحداد ، وهو شاعر كاتب من اعلام النهضة الحديثة :

لَيسَ حُبُّ ٱلاوطانِ في لُبسِ خَزٍّ وَٱختيالٍ تُغارُ مِنهُ ٱلنِّساءُ [٢]
وَٱنصرافٍ عَنْ كُلِّ عِلمٍ ، وَتَفرِيقِ قُلوبٍ بِها يَقومُ ٱلنَّماءُ [٣]
وَٱنشِغالٍ عَنِ ٱلبِلادِ بِأهوا ءِ نُفوسٍ قَدْ صَدَّ عَنها ٱلحَياءُ [٤]
وَٱتّخاذِ ٱلمَناصِبِ ٱلغُرِّ أسبا بَ عِداءٍ يُرْمَى بِها ٱلأبرِياءُ [٥]
إنّ حُبَّ ٱلاوطانِ عَدلٌ وَحِلمٌ ، وَثَباتٌ ، وَعِزَّةٌ ، وَوَفاءُ
وَٱصطِبارٌ على ٱلزّمانِ ، وَتأليفُ قُلوبٍ ، وَغَيرَةٌ وَإباءُ [٦]
وَجِهادٌ في كُلِّ فَضلٍ ، وَحُرِّيَّةُ قَولٍ ، وَأنفُسٌ شَمّاءُ [٧]
وَقُلوبٌ لا تَنثَني في ٱلذي تَبغِي ، وَلَوْ حالَ فيهِ نارٌ وَماءُ ! [٨]
وَأكُفٌّ تَعاقَدَتْ تَكتُبُ ٱلمَجدَ لَوَ انَّ ٱلحُروفَ فيهِ دِماءُ ! [٩]
ذاكَ حُبُّ ٱلاوطانِ ، يا أيُّها ٱلنّا سُ ، وَهٰذي صِفاتُهُ ٱلغَرّاءُ !
كُلُّنا واحِدٌ ، لَنا وَطَنٌ فَرْ دٌ ، وَإنْ عُدِّدَتْ بِنا ٱلأسماءُ

١ يشكو الشاعر في هذا البيت جور الايام ، فيقول : بئست هي من ايام ! ما شأنها وشأني ، تبعدني عن وطني يوماً الى الشرق ويوماً الى الغرب . ٢ الخز : الحرير . الاختيال : مشية الكبرياء . تغار منه النساء: يثير الغيرة في النساء. ٣ الانصراف عن العلم: تركه. النماء :النمو والقوة. ٤ صد عنها الحياء: ذهب منها الشعور بالخجل . ٥ المناصب : المراكز . الغر ، يقصد بها : العالية . يُرمى بها الابرياء : يصاب بها من لا ذنب لهم . ٦ تأليف قلوب : جمع قلوب . ٧ شماء : عالية . ٨ لا تنثني: لا ترتد ، لا تتراجع . «ولو حال فيه نار وماء» : ولو كان المانع ناراً تحرق وماء يغرق . ٩ «تكتب المجد لو ان الحروف فيه دماء» : تكتب المجد لو كان عليها ان تخط حروفه بالدماء.

إنّا نحنُ هيكلٌ وٱختلافُ ٱلـ ـإسمِ وَهمٌ ، فكُلُّنا أعضاءُ [1]
وَسبيلُ العُلى قريبٌ ، هُوَ ٱلأُلفةُ ، فيها ٱلمُنى وَفيها ٱلرَّجاءُ [2]

اذا قابلنا معاني هذه الابيات في حب الوطن بمعاني الابيات التي قدمناها لابن الرومي ولابن الخراساني الطرابلسي وجدنا فرقاً بعيداً . فحب الوطن في ابيات ابن الرومي وابن الخراساني انما هو تعلق من الشاعر بارض يستلطف طبيعتها وبذكريات خاصة كريمة عليه . واما حب الوطن في قصيدة نجيب الحداد، فينطوي على التحذير من رذائل اجتماعية سياسية ، كاتخاذ المناصب وسيلة لاضطهاد الابرياء . ثم يشتمل على الترغيب في فضائل اجتماعية سياسية كالعدل والثبات والوفاء والاباء وحرية القول وجمع القلوب والتضحية والفداء . ولشد ما يؤكد الشاعر على وجوب الاتحاد في سبيل الوطن ، فيشبه المواطنين بالجسم الواحد ، ومجموع المواطنين بالاعضاء التي لا قوام للجسم الا بها ... وهذه المعاني كلها في حب الوطن انما هي معانٍ عصرية نشأت بنشأة الشعور القومي الحديث وظهور حركات الاستقلال والاصلاح ضد الاستعمار والتفرقة الطائفية والتقصير في الحكام .

للانشاء

- يرى بعض الادباء ان الشعر الحكمي العربي فن قائم برأسه ، ولكن يرى بعضهم الآخر انه شعر غنائي . اكتب انشاء ابسط به رأيك في الموضوع .

- قيل: « غلب التشاؤم على الحكمة في الشعر العربي.» اشرح هذا القول ، وانفه او ايده بما عرفت من الشعر الحكمي العربي .

١ هيكل ،هنا، بمعنى : جسم. ٢ المنى : الآمال .

الشِعرْ التمثيلي

وهكذا نصل الى الفن الثالث من فنون الشعر الرئيسية ، نعني الشعر التمثيلي ، بالصيغة الفرنسية – *Poésie Dramatique* . وهذا اللفظ : *Dramatique* ، انما هو نسبة – الى لفظ يوناني ، معناه : العمل ، والمقصود ، بالطبع : العمل المسرحي ، او العمل المنقول من مجال الحياة او من مجال الخيال ، الى مجال آخر ندعوه المسرح . وهذا يقودنا الى اقرب تحديد للتمثيل .

فالتمثيل ، اذاً ، هو العمل المسرحي . هو عرض حادثة ، حقيقية او خيالية ، عرضاً شكلياً ، مطابق الاصل ، يشاهد فيه سير الحادثة ، واشخاص الحادثة ، وما يفعله هؤلاء ، وما يقول بعضهم لبعض من كلام او ما يناجي به الواحد منهم نفسه .

فاذا كان ذلك الكلام شعراً سُمي شعراً تمثيلياً . وهو عبارة عما يجري ، متتابعاً ، من خطاب وجواب بين اشخاص الحادثة الممثلة .

خصائص الشعر التمثيلي وشاعره . – ومن هنا كانت ابرز خاصية في الشعر التمثيلي انه **مفرغ في قالب حواري ، لا قالب اخباري** ، لانه لم يُنظم في الاصل ليتلوه شاعره او ليقرأه القارىء ، وانما نظم لكي يتحاور به اشخاص حادثة تُمَثّلُ امام جمهور **فتراها العين** وتشارك فيها الاذن .

وهذه الخاصية الرئيسية في الشعر التمثيلي تستتبع خصائص أخرى تجب فيه وفي شاعره.

فمذ كان هذا الشعر انما نظم ليتحاور به أشخاص حادثة تمثل ، فقد وجب اذاً **ان يكون منظوماً بألسنة اولئك الاشخاص ، يصلح لهم ولادوارهم في الحادثة ، ويقيم كذلك حساباً للجمهور الذي يشهد التمثيل** ، فليس من شاعر كالشاعر التمثيلي يشاركه الجمهور في عمله .

والقول ان الشعر التمثيلي يجب فيه ان يكون منظوماً بألسنة اشخاص الحادثة الممثلة أمر يقضي **على الشاعر ان يواري شخصه خلف اشخاص الحادثة . بل يفرض فيه ان يتقمص كل شخص منهم ، وان يتعدد صوته بتعدد اصواتهم ، وان يستطيع تبديل صوته بين سطر وسطر وفق السرعة التي يتخاطب بها اشخاص الحادثة .**

فاذا اجتمع في اشخاص الحادثة بخيل و كريم ، وغني وفقير ، وملك وصعلوك ، وبطل

ونذل ، ومحب وحاقد، ومخلص ومنافق ، الى غير ذلك من احوال الناس وما يتخلقون به، فحتم على الشاعر التمثيلي ان يكون هو بمفرده اولئك جميعاً وان يُنطِقهم بما يُعقل ان ينطقوا به ، وان يراعي في ذلك حتى الفاظهم واساليبهم في التعبير .

ومن هنا كان الشاعر التمثيلي مُطالَباً بأن يكون حظه من العلم ، ولاسيما العلم بطبائع البشر وضروب النفسيات البشرية، حظاً عظيماً .

واذا كانت الحوادث التي يتناولها تاريخية ، فهو مطالب بان يكون خبيراً بالعصر الذي استمد منه المادة لعمله الادبي .

المسرحية . — والعمل الادبي الذي يخرجه الشاعر التمثيلي بشعره ، يسمى مسرحية او قصة تمثيلية او رواية تمثيلية ، او تمثيلية باختصار .

وتكون المسرحية تاريخية اذا بنيت على قصة مستمدة من التاريخ . وتكون موضوعة اذا اخترع الشاعر قصتها اختراعاً .

وعلى كل حال ، فالقصة هذه يُفرض فيها ، اول شيء، ان تكون حادثة ، **فلا بد في المسرحية من عمل يعمل ، ومن امر يحدث ، فلا تقوم المسرحية بالحوار وحده .**

ولما كان لكل حادثة اول تبتدىء به ، وآخر تنتهي عنده ، وبين أولها وآخرها تتطور الحادثة وتأزم[١] وتنحل[٢]، فقد وجب ان تكون للمسرحية بداءة ونهاية ، بينهما **اوج** ترتفع اليه، وقد وجب ان يكون في المسرحية أزمة وعقدة ، وان تبنى المسرحية وفق تخطيط مرسوم.

ومعنى هذا ان المسرحية تستدعي **تأليفاً** ، والشاعر المسرحي مطالب بأن يكون مؤلفاً يؤلف اجزاء القصة بحيث يُحكِم عقدها من اولها الى آخرها ، وينفي كل زيادة عنها، ويراعي ذلك امراً مهماً هو : امكان تمثيلها ، او اخراجها، في مسرح .

وبهذا الصدد ، لا بد من ذكر **الوحدات الثلاث** التي اشترطها بعض في المسرحية اعتماداً على القواعد التي وضعها الفيلسوف اليوناني ارسطوطاليس للتأليف المسرحي . هذه الوحدات الثلاث هي : وحدة العمل ، ووحدة الزمان ، ووحدة المكان[٢] . ومعنى **وحدة العمل** ، كما يقول ارسطو في كتابه بوطيقيا — الذي أسلفنا ذكره — ان يكون كل شيء مما يحدث في المسرحية مربوطاً بالحادثة التي هي مدار المسرحية ربطاً صميمياً كربط المقدمات بنتائجها الحتمية او المحتملة. والقصد من وراء هذا ان لا يكون في المسرحية حشو ولا استطراد .

١ تأزم : تشتد . ٢ قيل ان ارسطوطاليس انما اشترط هذه الوحدات في المأساة فقط ، ولكن ارسطوطاليس لم ينقد الملهاة ، او ان نقده لها نُقد في ما نُقد من كتابه : بوطيقيا ، ولذلك لا نعلم هل اشترط الوحدات الثلاث في المأساة فقط.

واما **وحدة الزمان** فمعناها ان لا يزيد الوقت الذي استغرقه وقوع حادثة المسرحية عن اربع وعشرين ساعة[١] ، وذلك وفقاً لقول ارسطوطاليس : المأساة تحرص على ان تتم حادثتها مع دورة واحدة للشمس .

فأما **وحدة المكان** فمعناها ان لا تقع حادثة المسرحية في اكثر من مكان واحد . وهذا الشرط الاخير لا يشير اليه ارسطوطاليس ، ولكن بعض النقاد والمؤلفين استنتجـــه من الشرط السابق ، لان وقوع حادثة المسرحية في اربع وعشرين ساعة لا يتيح لاشخاصها انتقالاً بعيداً .

ولقد اختُلف في شأن الوحدتين الاخيرتين ، فتقيّد بهما شعراء تمثيليون عظام من مثل كورني وراسين ، ولم يعبأ بهما شعراء تمثيليون عظام كشكسبير .

على ان الشرط الأهمّ في تأليف المسرحية هو ، بلا ريب ، مراعاة الوحدة الاولى ، أي : وحدة العمل .

هذا ، والمسرحية تقسم في تأليفها فصولاً ، وتقسم الفصول مشـــاهد . وبعد كل فصل يُسدل الستار على المسرح ، فيستريح الممثلون ، ويتجدد نشاط الحاضرين او يزدادون تشوّقاً ، وفوق ذلك كله تتاح فرصة لما قد يوجبه الفصل التالي من تغيير في عُدة المسرح .

بقي ان الحادثة نفسها التي تبنى عليها المسرحية يجب فيها شرط بدهيّ ، ولكنه شرط رئيسي ، تفقد المسرحية قيمتها كلها بفقده ، وذلك ان **تكون الحادثة التي تُبنى عليها المسرحية مستحقة عناء اخراجها في مسرحية** ، لما تنطوي عليه من عبرة ومتعة ، مع العلم ان المتعة ليس معناها مجرد تسلية .

وبعد ، فربما لم يكن فنّ من فنون الشعر ، او من فنون الادب اطلاقاً ، له مـــا للمسرحية والمسرح من امكان تثقيف الجمهور . واذا نحن عدنا الى تاريخ اليونان ، وهم في طليعة الامم التي ازدهر عندها التمثيل والشعر التمثيلي ، رأينا ان المسرح والمسرحية قد كانا مدرسة رائعة للشعب .

غرضا الشعر التمثيلي : المأساة ، الملهاة . — والشعر التمثيلي يتبع بوجه عـــام غرضين : أحدهما يسمى المأساة ، وهي تعريب مستحدث للفظ « تراجيديا » وأصل معنـــاه باليونانية « أغنية ماعزية » ، والآخر يسمى ملهاة ، او مهزلة ، وهي تعريب مستحـــدث للفظ

١ وقيل : اثنتي عشرة ساعة .

« كوميديا » واصل معناه باليونانية « أغنية قروية » .

وانما سمى اليونان التراجيــديا بهذا الاسم الغريب : اغنية ماعزية ، لانهــا نشأت من اعيادهم التي كانوا يقيمونها لالههم باخوس ، ينحرون له فيها مــاعزاً ثم تجتمع حول مذبحه جوقة منهم ، فتنشد الاله أناشيد تروي بها بطولاته الاسطورية ، واحياناً يتلو واحد من الجوقة حديث تلك البطولات تلاوة حتى ادى بهم الامر الى الحوار في موضوع تلك البطولات نفسها.

واما الكوميديا ، وقد نشأت على نحو التراجيديا ، فقد دعيت اغنية قروية لانها انما نشأت من الاعياد التي كان يقيمها قدماء اليونان لالههم باخوس في القرى .

واذا اردنا اجمال الفرق بين التراجيديا ، أي المأساة ، والكوميديا ، اي الملهاة ، كان لنا ان نقول : ان المسرحية المأساة تبنى على حادثة مفجعة مثيرة للألم وتشتمل على انفعالات عاطفية عنيفة ، وتتسم بميسم الجدّ ، بينما المسرحية الملهاة تبنى على حادثة ملؤها المضحكات والمغالطات.

واما غاية المأساة فيمكن القول انها تصوير الانسان في صراعه مع الظروف حوله صراعاً موجعاً عنيفاً ينتهي بالخيبة اكثر الاحيان .

وارسطوطاليس يجعل فائدة المأساة شيئاً يسمّيه « كاتارسيس » ، وهو لفظ يوناني يعني « التطهير » . وقد اختلف باحثو الادب في معنى هذا التطهير الذي قصد اليه ارسطوطاليس. لكن يُحصّل من كلامه في هذا الموضوع ان المأساة في رأيه تجاوب عاطفتين قويتــين في الانسان : عاطفة الشفقة ، وعاطفة الخوف . على ان نقاداً غير ارسطو يرون فائدة المأساة ان تجاوب عاطفتي الغضب والتحدي.

واما الملهاة فيمكن القول ان غايتها تصوير الاشخاص والاشياء بما يحمل على السخرية والعبث بها .

وبعبارة اخرى ، ان بين المـأساة والرثاء تقارباً روحياً ، وكذلك بين الملهاة والهجاء.

كيف تظهر شخصية الشاعر التمثيلي . — سبق لنا القول في هذا الفصل ان الشاعر التمثيلي مُلزَمٌ ان يواري شخصه خلف اشخاص الحادثة التي يسبكها في مسرحية ، ومُلزَم ان يبدل صوته بحسب اصوات اولئك الاشخاص جميعاً ، وان لا ينطقهم الا بما يعقل ان ينطقوا به .

ولكن هنا يعرض سؤال : كيف تظهر اذاً شخصية الشاعر التمثيلي ، وكيف يمكنه ان ينتهي من عمله الادبي الى غاية يتوخاها من عبرة او رأيٍ يراه ؟

والجواب ان الشاعر التمثيلي انما يستطيع اظهار شخصيته بما يختار من موضوعات لعمله

الادبي ، وبمن يختار من ابطال ، وبالمغزى العام الذي يتحصل من المسرحية بمجموعها . فاما ان يتحين الفرص في هذا الموقف او ذاك ، من مواقف مسرحيته ، ليكلف اشخاصها النطق بآرائه ورغباته الخاصة فذلك ينفي عن عمله الادبي صفة الطبعية[1] ويدخل عليه التصنع . ومثال ذلك ما فعله احمد شوقي في مسرحيته : عنترة ، فانه بنى المسرحية على حب عنترة لعبلة ، واجراها في جو بعيد من السياسة ، ثم حمل عبلة فجأة على ان تخطب كلاماً تطالب به العرب حولها ان يتحدوا وان يقيموا لهم دولة . فوضح فوراً ان شوقي انما كلف عبلة ان تردد خاطرة من خواطره انتهز فرصة لدسها في المسرحية .

بين الشعر التمثيلي والملحمي والغنائي . — وهنا يحسن ان نعيد نظرة شاملة الى فنون الشعر الثلاثة الرئيسية كي نجمل ما بينها من فرق او صلة .

ان خاصية الشعر التمثيلي انه يفرغ في قالب حواري ، وينظم بألسنة اشخاص في قصة تُمثل في مسرح ، فيجب فيه اذاً ان لا يجاوز مقداراً معلوماً في طوله ، وان لا يكون في الحادثة التي بني عليها عمل يستحيل القيام بمثله في مسرح .

وخاصية الشعر الملحمي انه يفرغ في قالب اخباري ، وانه يسرد الوقائع الرائعة الجليلة ، وان طوله غير مقيد بمقدار معلوم ، وان الحوادث التي يتناولها غير موقوفة على مسرح يتحملها او لا يتحملها .

ولكن مع ذلك تقوم بين الشعر التمثيلي والملحمي صلة هي ان الشعرين مادتها الاصلية : القصة ، وإن اختلف القالب ، وكلا الشاعرين : الملحمي والتمثيلي ، ملزم بان يواري شخصه في شعره .

وخاصية الشعر الغنائي هي انه وقف على شاعره وعبارة عن صوته الخاص الذي به يعلن انفعالات نفسه وما يخطر له من خواطر ثمرة انفعالاته ...

ولكن مع ذلك فالشعر الغنائي عالق بالشعر الملحمي وبالشعر التمثيلي ، لان الشعر الغنائي هو مجال العاطفة من فرح وحزن ورضى وغضب وحب وكره ، فكلما عرض للشعر الملحمي وللشعر التمثيلي ان ينطق بلسان شخص ، قد طغت عاطفته ، احتاج الشعر الملحمي والشعر التمثيلي الى ان يفتحا بابيها للشعر الغنائي ويُدخلاه عليهما في عقر داريهما : في الملحمة والمسرحية !

[1] الطبعية : نسبة الى الطبيعة . والطبعية ضد التكلف.

خلو الشعر العربي القديم من التمثيل . — وكما خلا الشعر العربي من الملاحم بالمعنى التام، كذلك خلا الشعر العربي القديم (بل الادب العربي القديم كله) من المسرحيات. وكما كثر اجتهاد الباحثين واختلافهم في السبب الذي من اجله خلا الشعر العربي من الملحمة ، كذلك كثر اجتهادهم واختلافهم في السبب الذي من اجله خلا من المسرحية وظل خلواً منها حتى عهد قريب .

والاسباب التي يبسطها الباحثون في تفسير خلو الشعر العربي من الملاحم هي الاسباب نفسها التي يبسطونها في تفسير خلوه قديماً من المسرحيات ، فيذكرون الوزن الواحد والقافية الواحدة ، وقالب القصيدة الذي قُيد به الشعر العربي ، ثم يذكرون اعجاب العرب بادبهم واكتفاءهم به ، ويذكرون صلة المسرحية بالوثنية وتحريم الاسلام لكل ما تشم منه رائحة وثنية ، ويذكرون النزعة الفردية التي غلبت على الشاعر العربي وجعلته لا يحتفل بغير الشعر الغنائي . كل ذلك يذكره الباحثون ويفسرون به خلو الشعر العربي قديماً من المسرحيات .

ولا شك ان في تلك التفسيرات كلها ما يستحق التأمل . ولكن الامر الذي يستصعب العقل قبوله هو أن يكون الشعب العربي والشعوب الكثيرة التي تكلمت العربية لم تعرف كلها تمثيلاً — لا بالشعر ولا بالنثر — في مدى قرون طوال زخرت فيها الحياة زخراً عظيماً في مدن كانت يومئذ اعظم مدن الدنيا .

بعض مظاهر تمثيل في التاريخ العربي القديم. —غير ان من ينظر ولو نظرة سريعة الى مجمل تلك القرون الطوال يجد مظاهر ، ان لم تكن تمثيلاً ادبياً فهي في الواقع بدء لتمثيل ادبي .

من ذلك ما ذكر عن رجل صوفي عاش ببغداد في ايام الخليفة العباسي الثالث المهدي ابن المنصور ، في اواسط القرن الهجري الثاني (القسم الاخير من القرن الثامن الميلادي) . قالوا : كان يركب قصبة يوم الاثنين ويوم الخميس من كل جمعة ، فاذا ركب لم يبق لمعلم حكم ولا طاعة على صبيانه، فتبعوه وتبعه معهم خلق كثير من رجال ونساء . حتى اذا بلغ تلاً وقف فوقه فوقف الناس ينظرون ما يصنع .

وكان اول شيء يصنعه الرجل ان ينادي : ما فعل النبيون والمرسلون ؟ أليسوا في اعلى عليين [١] ؟ فيجيبه الناس : بلى ! ثم يقول : هاتوا ابا بكر (وهو اول الخلفاء

١ اعلى عليين : اعلى الجنة .

الراشدين) . فيأتيه أحدهم بصبي يوقفه بين يديه . فيقول لذلك الصبي :

– جزاك الله خيراً ابا بكر عن الرعية ، عدلت وقمت بالقسط [١] ، وخلفت محمداً ، عليه السلام ، في حسن الخلافة ، ووصلت حبل الدين !

ثم ينظر الى الناس فيقول : اذهبوا به الى اعلى عليين . فيتقدم من ينصرف بالصبي في اكرام وتعظيم .

فيقول الرجل : هاتوا عمر (يريد عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين) . فيأتيه احدهم بصبي . فيخاطبه بمثل ما خاطب به ابا بكر ثم يأمر به الى اعلى عليين .

وعلى هذا النحو يدعو بعثمان ثم علي ، فيلوم عثمان شيئاً ولكنه يصرفه الى اعلى عليين ، ويعظم علياً ويوصي به الى اعلى عليين .

ثم يدعو بمعاوية بن ابي سفيان فيعنفه تعنيفاً شديداً ويأمر به ان يوقف مع الظلمة . ويدعو بعده بابنه يزيد فيغلظ له القول ويوصي به الى اسفل دركات النار . حتى يبلغ الخليفة عمر بن عبد العزيز فيقول للصبي الذي يوقف بين يديه : جزاك الله خيراً عن الاسلام، احييت العدل بعد موته وألنت القلوب القاسية . ثم يأمر به ان يلحق بالصديقين .

وهكذا يمضي في دعوة خلفاء بني أمية واحداً بعد واحد ، وفي كل مرة يقدّم بين يديه صبي ، وفي كل مرة يخاطبه بما يراه مناسباً ، ثم يصرفه الى مكان قسمه له من جنة او نار .

ولكنه يسكت اذ يبلغ دولة بني العباس، وهي الدولة التي يعيش في عهدها . ومع ذلك يتقدم اليه احد الناس بصبي ويصيح الناس : هذا ابو العباس ! هذا ابو العباس ! (وهو اول الخلفاء العباسيين) فينبعث الرجل من حمته ويقول :

– ماذا ؟ افبلغ أمرنا الى بني العباس ؟ ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم الى النار جميعاً [٢] .

وبذلك كان ينتهي هذا الحساب بل الدينونة للخلفاء .

وغني عن البيان ان مصير ذلك الصوفي الذي كان يحاسب الخلفاء على هذا النحو كل اثنين وخميس من كل جمعة لم يكن مصيراً يحسد عليه .

وليس ثمة ريب في ان ذلك الصوفي البغدادي كان شيئاً من ممثل،يتخذ تلك التلة مسرحاً في يومين من ايام الجمعة ، ويجعل ركوبه القصبة نوعاً من اعلان . وليس ثمة ريبٌ في ان

١ القسط : العدل . ٢ تجد أصل هذه الرواية في كتاب العقد ، المعروف بالعقد الفريد ، الجزء الرابع ، ص ١٩٨ . المطبعة الازهرية . الطبعة الثانية . مصر ، سنة ١٩٢٨ . ومؤلف العقد ، ابن عبد ربه ، أديب وشاعر اندلسي شهير .

عمله كان شيئاً من تمثيل ومن رواية تمثيلية يشترك فيهـــا اشخاص كثر ، ولكنه هو الذي يحتكر الكلام فلا يتكلم ممثل سواه الا الجمهور وذلك عند الختام .

فهذا مظهر من مظاهر التمثيل الادبي ، نشأ في الحياة العباسية في صميم البيئات الشعبية.

ولو اتسع علينا المجال لتناولنا مظاهر اخرى في عصور الادب العربي تدخل في باب التمثيل الادبي ، نكتفي هنا بان نذكر منها ما يسمونه **خيال الظل** ، وقد نشأ في القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) ولم تزل منه بقـــايا الى اليوم ، وهو عبارة عن قصّاص يستعين على تمثيل قصته بشخوص من خشب يعلقهـا بخيوط مربوطة الى اصابعه ، ويجعلها تلقاء قماشة يوقد وراءها شمعة ضعيفة في غرفة رقيقة الظلمـة ، ثم يأخذ في تحريك الشخوص الخشبية بينما يروي قصته فترتسم لها ظلال على القماشة تمثل مشاهد القصة واكثر ما تكون ساخرة مضحكة . ثم لا يكتفي القصّاص بان يروي ويحرك الشخوص وانما يردد ما كان واجباً ان يدور من حوار بين الظلال على القماشة .

الا ان الملحوظ ان هذه المظاهر التمثيلية البدائية لم يتح لها ان تتطور فيقترن بها ما يقترن بالتمثيل من تأليف مسرحي ، شعراً كان او نثراً .

ولا شك ان من الاسباب التي حالت دون ذلك التطور قلة الحرية ، ولاسيا حرية الانتقاد السياسي . فلم يكن يُعقل مثلاً ان يأذن الخليفة المهدي لذلك الصوفي البغدادي ان يتابع تمثيل روايته ما شاء . ولم يكن يُعقل ان يأذن الخليفة المهدي او غيره بان ينشأ مسرح وادب تمثيلي يحتملان مثل الافكار التي دارت في رأس ذلك الصوفي البغدادي، ويقبل عليهما الشعب ذلك الاقبال .

نشأة التمثيل والتأليف المسرحي في الادب العربي . — ولبث الشعر العربي، بل الادب العربي كله ، خلواً من التمثيل حتى كان القرن التاسع عشر وهو القرن الذي به ابتداء الانبعاث والعصر الحديث . فاتصلت العربية واهلها بالآداب الغربية ، واتيح لكثير من ابناء العربية ان يجمع بين لغته الام ولغة اجنبية غنية الآداب . وهكذا مُهّد للعربية ان تعرف التمثيل والتأليف المسرحي ، وفُتح الباب في الادب العربي لعمل المسرحيات بعدما لبث ذلك الباب مقفلاً نحو ثلاثة عشر قرناً .

ولكن هنا امر يجب الانتباه له ، وهو ان الادب العربي عرف التأليف المسرحي بالنثر قبل ان يعرفه بالشعر ، فخالف بذلك سير تطور الآداب العالمية ، فالقاعدة هي ان تسبق المسرحيات الشعرية المسرحيات النثرية .

ويجب الاقرار للمثقفين اللبنانيين بانهم اول من ادخل التمثيل والتأليف المسرحي على الادب العربي . وفي رأس الاسباب التي مكنتهم من تلك الخطوة التجديدية انهم يجمعون في العادة بين لغتين : العربية الام ، ولغة اخرى اوروبية، غنية الآداب، هي الفرنسية احياناً، وهي حيناً الايطالية او الانكليزية او غيرها .

وكان المثقف اللبناني ، الذي شقّ طريق التمثيل والتأليف المسرحي في الادب العربي ، رجل اسمه **مارون النقاش كان** يجيد الفرنسية والايطالية والتركية فضلاً عن العربية ، وكان ذا ذوق فني يحسن معه الموسيقى . وكان الى ذلك تاجراً تحمله تجارته على الرحلة الى اوروبا. ففيما هو يشاهد التمثيل ليلة في ايطاليا، خطر له ان يحاول مثله بالعربية . فاقتبس من موليار روايته : البخيل ، وألف فرقة تمثيلية، وأخرج الرواية في منزله ببيروت ودشن بها المسرح العربي ، سنة ١٨٤٨ م.

الا ان هذا الفن الذي وُلد في لبنان ما لبث ان انتقل الى مصر وفيها ازدهر .

وبالطبع كانت اول ثمرة للتأليف المسرحي العربي – نعني رواية البخيل التي اقتبسها مارون النقاش من موليار – رواية نثرية ، فالتأليف المسرحي بالنثر قد جاء – كما ذكرنا – سابقاً للتأليف المسرحي بالشعر ، في الادب العربي .

اول مسرحية شعرية عربية .– ولكن لم يكن على الشعر العربي ان ينتظر طويلاً قبل ان يتصدّى له شاعر يحاول به نظم المسرحيات فيجعل حوار اشخاص التمثيلية كله شعراً . وكان ذلك الشاعر لبنانياً ايضاً هو **الشيخ خليل اليازجي** ، ابن الشيخ ناصيف اليازجي وشقيق الشيخ ابراهيم اليازجي المنشىء اللغوي الشهير . فنظم مسرحية في نحو الف بيت سمّاها المروءة والوفاء ، وهي باكورة المسرحيات الشعرية العربية . والمؤسف حقاً ان هذا الشاعر لم يعش طويلاً ، فقد قضى نحبه في الثالثة والثلاثين من عمره ، سنة ١٨٨٩ م ، مصاباً بداء السل .

واذا ذُكر السابقون الذين عالجوا تزويج الشعر العربي الى التمثيل ، فضروري ذكر **نجيب الحداد** ، وهو ابن اخت الشيخ خليل اليازجي ، وكاتب شاعر ، عُني بالانتاج الكثير للمسرح تأليفاً واقتباساً من الآداب الغربية .

والذي يبدو ان نجيب الحداد كان يذهب غير مذهب خاله في امر الشعر والتأليف المسرحي . فهو يرى ان الشعر يجب ان يُقتصر فيه على مواقف معلومة في المسرحية ، وهي المواقف التي تشتد فيها العاطفة بحيث لا يؤدي النثر ما يمكن ان يؤديه الشعر . وعلى هذا

النحو ادخل نجيب الحداد الشعر في مسرحياته ، فكان ينطق به اشخاص التمثيلية في المواقف العاطفية ، ويختص به الاشخاص البارزين منهم ، ويجعله في افواههم نجوى يناجون بها انفسهم او غزلاً او فخراً او شكوى ، وقلما كان يستعمله للحوار فيجزىء البيت الواحد بين متحاورين او اكثر . وذلك يعني ان نجيب الحداد - وسواء فطن للامر او لم يفطن - كان نازلاً عند حكم الواقع وهو ان الشعر العربي يغلب عليه الغناء ، فاذا ادخل في مسرحية فليقتصر فيه على المواقف الغنائية .

وهذه الطريقة التي اخذ بها نجيب الحداد فيما يخص الشعر العربي وانشاء الروايات التمثيلية ، قد غلبت مدة من زمان على التأليف المسرحي العربي ولم تزل منها آثار باقية الى اليوم ، فجعل المؤلفون المسرحيون يدخلون المقاطع الشعرية في مواقف معينة من مسرحياتهم ، بل كاد يصبح شرطاً ان لا تخلو المسرحية من شعر .

وقليل هم الذين اخذوا بطريقة خليل اليازجي من بعده ، فنظموا المسرحية كلها شعراً ، حتى كان **احمد شوقي** فطُبعت له بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٢ م (وهي السنة التي توفي فيها) طائفة من مسرحيات شعرية هي : «مصرع كليوباترا» و«مجنون ليلى» و « قمبيز » و «علي بك الكبير» و « اميرة الاندلس » و « عنترة » ، وكلها مآس ، وكلها مصنوع بمادة تاريخية وروائيـــة قديمة .

احمد شوقي وصلوح الشعر العربي للحوار . — ويمكن القول ان احمد شوقي هو اول شاعر عربي نجح كما لم ينجح غيره بتطويع الشعر العربي للحوار . **وتوسل شوقي الى ذلك بوسيلتين ، اولاهما : الخروج على الوزن الواحد والقافية الواحدة في النظم** . فهو يترك وزناً الى غيره كلما وجده قد عصاه او اصبح غير صالح لما يريده من معنى ولفظ . ثم يترك قافية الى غيرها اذا ضاقت عليه او عرضت له قافية اوقع منها في مكانها .

واما وسيلته الثانية فهي تجزيء البيت بين شخصين في الحوار او اكثر .

وهاتان الوسيلتان لم يَسبق اليهما شوقي . فالاولى (نعني تغيير القافية والوزن) ملهمة بمثل الفكرة التي الهمت وشاحي الاندلس .

والثانية (نعني تجزيء البيت الواحد في الحوار بين شخصين او اكثر) قد استعملها كثير قبل شوقي .

ولكن مع هذا استطاع شوقي ان يتصرف بهاتين الوسيلتين تصرفــاً طوّع به الشعر العربي للحوار تطويعاً كاد يكون تاماً ، واثبت صلوح هذا الشعر للحوار بما لا يدع مجالاً لجدال .

والحوار وان لم يقم به وحده الادب التمثيلي، فانه ركن رئيسي فيه[١].

ولا شك ان شوقي لم يستطع ان يطوع الشعر العربي للحوار ذلك التطويع بمحض الوسيلتين اللتين ذكرناهما. فالوسيلة وحدها لا تغني. ولكن شوقي شفعها بمقدرة رائعة على النظم، وبتضلع عظيم من اللغة.

اما شوقي من حيث هو مؤلف مسرحي بكل ما تشمله هذه الكلمة سوى الحوار، فخلاصة القول فيه انه يبدو ضعيفاً لانه في حقيقته شاعر غنائي، لا يجيد تمثيل قصة في مسرحياته او تمثيل حوادث، وانما يجيد الحديث بلسان اشخاصه عن عواطف تخالجهم، ويغلب عليها طابع الرقة والحزن.

وفي المنتخبات الملحقة بهذا الفصل تجد مثالاً من شعر شوقي التمثيلي اخترناه من روايته: «مجنون ليلى».

١ يرى بعض الناقدين ان الوزن الواحد ضروري في القصة التمثيلية، وحجته ان الوزن انما كان في الاصل لكي يكتسب به الكلام الموزون ائتلاف نغمة مهما تنوعت طرق القائه، وائتلاف النغمة لا يمكن ان يتم في الكلام اذا تغيرت اوزانه وتباعدت على نحو ما تتغير اوزان شوقي وتتباعد في تمثيلاتـــه ... نكتفي هنا بالايماء الى هذا الرأي، وهو لا يقلل ما صنع شوقي من تطويع الشعر العربي للحوار. لكن حق التقيد بالوزن الواحد لا ينفي صلوح الشعر العربي للتمثيليات. فالشعر العربي الرجز وهو الين الاوزان، كما عرفنا، ثم الخفيف وهو وزن طيع كل الطواعية.

منتخبات

مثال من الشعر التمثيلي

قيس وليلى بعد زواجها [١]

ذكر الرواة انه في اوائل العصر الاموي نشأ في بادية نجد، في قبيلة بني عامر، فتى اسمه قيس وابنة عم له اسمها ليلى. واحب قيس ليلى واحبته عظم الحب. ونظم فيها الشعر يبثها شوقه وحنينه. وكانت العادة ان لا يتغزل شاعر بفتاة يطمع منها بزواج. فاذا هو تغزل بها حرم زواجها ولو كان شعره فيها عذرياً بريئاً. ولذلك غضب والد ليلى حين سمع شعر قيس في ابنته. واشتد غضبه حين رأى هذا الشعر يشيع وتتناقله الافواه في مضارب العرب واحيائها. فحجب ليلى عن قيس وأبى ان يجمع بينهما في زواج، فكان وقع المصيبة عظيماً على الشاعر حتى نفر من الانس [٢] وهام في الفلوات وبدت عليه آثار الضعف وامائر الجنون فلقب بالمجنون. وعبثاً شفع الناس لقيس عند والد ليلى كي ينثني الشيخ عن عزمه، فقد تشبث بالتقاليد واصم اذنيه عن كل شفاعة. وبلغ امر قيس السلطان فهدر دمه [٣] لانه شوه سمعة امرأة حرة. واصبح الشيخ لا هم له الا ان ينفي عنه عاراً — او ما حسبه عاراً — وذلك بان يزوج ابنته فيجعلها في عصمة رجل آخر.

وهنا اقبل خاطب يخطب ليلى: رجل حجازي من قبيلة ثقيف، من مدينة الطائف، اسمه ورد. وكان ورد هذا غنياً سرياً عشق ليلى لما سمع من ذكرها في شعر قيس. فرضي والدها ان يزوجه بها. ووقفت ليلى ممزقة العاطفة بين حبها لقيس وحرصها على ما حسبته شرف والدها. وعزمت آخرَ الامر ان تنزل على مشيئة والدها فقبلت ورداً زوجاً لها ورحلت معه الى الطائف.

وهذا المقطع الذي انتخبناه من مأساة مجنون ليلى لشوقي يمثل زيارة قيس لليلى في

١ من مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقي، الفصل الرابع، المنظر الثاني. ٢ الانس: البشر، وضدها الجن او الجان. ٣ هدر دمه: اباحه لمن سفكه.



مجنون ليلى

منزلها بمدينة الطائف بعد زواجها . وقد لقي قيس ، اول من لقي في تلك الزيارة ، ورداً زوج ليلى ، فمكنه ورد من لقاء ليلى ... وشوقي يصور في هذا المقطع كيف وجد ورد نفسه امام زوجة قد ملك عليها قلبها رجل سواه خلدها بشعره ، فتيبها هو واستنكف من ان يطالبها بحقوق الزوجية ، وحرم بقربها السعادة . وكذلك يصور شوقي شقاء ليلى وشقاء المجنون بهذا الفراق الذي جره عليهما والد مستعبد للتقاليد . ويثور المجنون ، فيقترح على ليلى ان يتحديا كل تقليد فيهربا معاً ويتيها في القفار . ولكن ليلى التي قهرت عاطفتها ونزلت على مشيئة والدها ، دفعاً لما حسبته عاراً ، استنكرت ما اقترحه عليها حبيبها صيانة لكرامة ورد وعرفاناً منها بفضله عليها . ففارقها قيس مغضباً . وكان ذلك آخر لقاء بين الحبيبين لانها لم تلبث ان ماتت فتبعتها روحه .

والعبرة من هذه الرواية واضحة . وقصد شوقي من اخراجها بيّن : فهو يريد ان ينكر على الآباء اكراه بناتهم في امر الزواج . ولكن شوقي مع ذلك لا يشير الى حق البنات ان يخالفن ارادة آبائهن اذا هم قسروهن على الزواج قسراً . فشوقي يطالب للبنات بحقهن في حرية اختيار الازواج . ولكنه يطالب بهذا الحق عن طريق اقناع الآباء بوجوب رعايته . ومن هنا حافظ شوقي على الصورة القديمة لشخصية ليلى ، فجعلها تلزم حدود التقاليد رغم شقائها بالتقاليد وسخطها عليها . اما الشعر في هذا المقطع فواضح فيه قالبه الحواري بين شخص يخاطب وآخر يجيب . وواضح ايضاً ما في هذا الشعر من تنقل بين الاوزان والقوافي ، ومن تقطيع للبيت الواحد بين متحاورين ، ومن مقدرة على سهولة النظم وعلى استدعاء اللفظ المناسب ، حتى تمكننا من القول ان شوقي طوّع الشعر العربي للحوار .

ولكن ما الذي اشتمل عليه هذا الحوار ؟ ما الذي يعمله الاشخاص على المسرح ، وبالتالي في الرواية نفسها ؟ انهم يقتصرون على شرح عواطف وآلام . ولا يكاد يجري تمثيل على المسرح . فليس يحدث شيء يمكن تمثيله . كل ما في الامر ان هنا اشخاصاً يشرحون عواطف وآلاماً كما قلنا ، ونحن اذا اعجبنا وابدينا اهتماماً فما ذلك لاننا نتتبع عملاً في رواية ، بل لاننا نسمع شعراً غنائياً جميلاً . وهكذا نجح شوقي بالحوار في شعره الذي اراده مسرحياً ولكنه لم ينجح بالتمثيل .

المكان : الطائف . الاشخاص : قيس العامري (حبيب ليلى) ، ورد (زوج ليلى) ، ليلى.

قيس: (بِرَبِّكَ هلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَى قُبَيْلَ الصُّبْحِ أَوْ قَبَّلْتَ فَاهَا ؟) [1]
(وهل رَفَّتْ عليكَ قُرونُ ليلى رفيفَ ٱلأُقْحُوَانَةِ في نَدَاهَا ؟) [2]
ورد (بعد فترة) : نَعَمْ وَلَا ! يَا قَيْسُ
قيس: بَلْ لا بُدَّ مِنْ لَا أَوْ نَعَمْ !
ورد: هَبْهَا : نَعَمْ ، يا قَيْسُ ! هَلْ مَعَ الحَلَالِ مِنْ تُهَمْ ؟ [3]
أَلْمَرْءُ لَا يُسْأَلُ : هَلْ قَبَّلَ أَهْلَهُ وَكَمْ ؟ [4]
أَجَلْ ، لَقَدْ قَبَّلْتُهَا من رَأْسِهَا إلى القَدَمْ !!!
قيس (غاضباً) : تِلْكَ لَعَمْرِي قُبْلَةُ ٱلْحُمَّى بَلَاءٌ وَسَقَمْ
أَوْ قُبْلَةُ ٱلذِّئْبِ إذا ٱلذِّئْبُ عَلَى الشَّاةِ جَثَمْ [5]

(يتراجع قليلاً و كأنما يحدّث نفسه) :

١ وضع هذا البيت وتاليه بين اقواس لانهما من الشعر المروي قديماً لمجنون ليلى . فاها : فمها . ٢ القرون ، هنا ، هي قرون الشَّعر . رفيف الاقحوانة في نداها : لمعان زهرة الاقحوان وقد كللها الندى .
٣ « هل مع الحلال من تهم » اي : هل يجوز ان توجه التهمة الى الرجل لمباشرة زوجته التي هي حلاله ؟
٤ أهله ، يقصد بها هنا : الزوجة . ٥ جثم : ربض .

قَلْبي يقولُ : لا ! يا صِدْقَهُ فيما زَعَمْ [١]

ورد : إذاً تَعالَ قَيْسُ واسْمَعْ في أَناةٍ وكَرَمْ
لا تَجْعَلَنَّ الغَضَبَ الـ ـجائِرَ بَيْنَنا الحَكَمْ [٢]
اسمَعْ حَديثي إنَّهُ ما خَطَّ مِثْلَهُ القَلَمْ
وسِرُّهُ لا الأهلُ يَدْ ـ رُونَ بِهِ ولا الخَدَمْ
أنا الذي ظُلِمْتُ ، قَيْـ ـسُ ، ما أنا الذي ظَلَمْ
أَلِيَّةً وما عَلَيَّ لَكَ يا قَيْسُ قَسَمْ [٣]
كَمْ مَرَّتِ اللَّيْلَةُ بي واللَّيْلَتانِ لَمْ أَنَمْ
مُنْذُ حَوَتْ داري لَيْـ ـلَى ما خَلَوْتُ من نَدَمْ
كانت إطافَتي بِها كالوَثَنِيِّ بالصَّنَمْ [٤]
ورُبَّما جِئْتُ فِرا ـ شَها فَخانَتْني القَدَمْ [٥]
كأنَّها لي مَحْرَمٌ وَلَيْسَ بَيْنَنا رَحِمْ [٦]
شِعْرُكَ يا قَيْسُ جَنى عَلَيَّ هذا وَاجْتَرَمْ [٧]
وَهَبْتُها للحُبِّ لا ـ شِعْرِ وَقَيْسَ والأَلَمْ

قيس: تقولُ : لَقِيتَ بِشِعْري الشَّقاءَ وجَرَّ عَلَيْكَ بَياني الوَبالا [٨]
لَقَدْ قُلْتَ قَوْلاً فَأَوْجَزْتَـهُ فَبِاللهِ إلَّا شَرَحْتَ المَقالا

ورد: ذَهَبْتُ بِشِعْرِكَ مُنْذُ الشَّبابِ أُغَنِّي القِصارَ وأَرْوي الطِّوالا [٩]

١ الضمير في «صدقه» عائد الى «قلبي» . ٢ الغضب الجائر : الغضب الذي يحيد بصاحبه عن الطريق القويم . ٣ الالية : القسم . ٤ اطافتي بها : دوراني حولها . ٥ يعني انه لم يمسها . ٦ محرم : شيء محرّم . رحم : قرابة . ٧ اجترم بمعنى : جنى . ٨ بياني : كلامي ، اي : شعري . الوبال : المصيبة والبلاء . ٩ القصار والطوال : يقصد بها قصار القصائد وطوالها .

أرى بَيْنَ أَلْفَاظِهِ ظِلَّ لَيْلَى   وأَلْمَحُ بَيْنَ القَوافي الخَيالا [١]
فَلَمَّا رُدِدْتَ وَقِيلَ القَصَا ـ دُ والعشقُ بَيْنَ المُحِبَّيْنِ حالا [٢]
خَرَجْتُ إلى حَيِّها خاطِباً   ولم أَدَّخِرْ دونَ مَسْعايَ مالا
بَنَيْتُ بِها فتَهَيَّبْتُها   وأيُّ أمرئٍ هابَ قَبْلِي الحَلالا؟ [٣]
فشِعْرُكَ يا قَيْسُ أَصْلُ البَلاءِ   لَقِيتُ بِهِ وَبِلَيْلَى الضَّلالا
كَساها جَمالاً فعلِقْتُها ،   فَلَمَّا الْتَقَيْنا كَساها جَلالا
إذا جِئْتُها لِأَنالَ الحُقوقَ   نَهَتْني قَداسَتُها أَنْ أَنالا !

... أمسِكْ ابا المهدي [٤]

(ويستحيل كلامه همساً اذ تبدو ليلى على باب الخباء) .

انظرْ هـذه   ليلى علينا طَلَعَتْ مِنَ الخِبا [٥]

(ثم ينادي بصوت متهدج) :

ليلى تعالَيْ أَسْرِعي ، قيس أتى !   لَيلى هَناكِ ! مَن تُحِبِّينَ هُنا ! [٦]

(ثم يخاطب قيساً) :

قيسُ أرى الموقِفَ لا يَجْمَعُنا   أنتَ حَبيبُ القَلْبِ والزَّوْجُ أنا
يا لكما مني ! ويا لي مِنكما !   نحنُ الثَلاثَةَ ارْتَطَمْنا بالقَضا ! [٧]

(ينصرف وتقبل ليلى على قيس ... تصافحه بشوق) :

ليلى : أَحَقٌّ حَبيبَ القَلْبِ أنتَ بِجانِبي   أَحُلْمٌ سَرى أم نحنُ مُنْتَبِهانِ ؟

١ الخبال : الشبح ، الطيف . يعني : ان شخص ليلى كان يرتسم له في شعر قيس . ٢ حالا : مشعاً.
٣ بنيت بها : تزوجتها . ٤ ابو المهدي : كنية قيس . ٥ الخبا : مكان المرأة الذي تحتجب فيه . ٦ هناك : يا هناءك . ٧ ارتطمنا : اصطدمنا .

أَبَعْدَ تُرَابِ المَهْدِ من أَرْضِ عَامِرٍ ... بِأَرْضِ ثَقِيفٍ نحنُ مُغْتَرِبَانِ ؟ [١]

قيس: حَنَانَيْكَ لَيْلَى ما لِخِلٍّ وخِلَّةٍ ... من الارضِ إلا حَيْثُ يَجْتَمِعَانِ [٢]

فَكُلُّ بِلادٍ قَرَّبَتْ مِنكِ مَنْزِلي ... وكُلُّ مَكَانٍ أَنتِ فيه مَكَاني !

ليلى: فما لي أَرَى خَدَّيْكَ بالدَّمعِ بُلَّلا ... أَمِنْ فَرَحٍ عَيْنَاكَ تَبْتَدِرَانِ ؟ [٣]

قيس: فِداؤُكِ لَيلى الرُّوحُ مِنْ شَرِّ حَادِثٍ ... رَمَاكِ بِهذا السُّقْمِ والذَّوَبَانِ

ليلى: أَأَدْرَكْتَ أَنَّ السَّهْمَ يا قَيسُ وَاحِدٌ ... وأَنَّا كِلَيْنا للهوى هَدَفَانِ [٤]

كِلَانا قَيسُ مَذْبُوحٌ ... قَتِيلُ الابِ والأُمِّ [٥]

طَعِينَانِ بِسِكِّينٍ ... مِنَ العَادَةِ والوَهْمِ [٦]

لقد زُوِّجْتُ مِمَّنْ لَمْ ... يَكُنْ ذَوْقي ولا طَعْمِي

ومن يَكْبُرُ عن سِنِّي ... ومَنْ يَصْغُرُ عَنْ عِلْمِي

غَرِيبٌ لا من الحَيِّ ... ولا مِنْ وَلَدِ العَمِّ

ولا تَرْوَتُهُ تَرْبي ... عَلَى مَالِ أَبي الجَمِّ [٧]

فنحنُ اليومَ في بَيتٍ ... على ضِدَّيْنِ مُنضَمِّ

هُوَ السِّجْنُ وَقَدْ لا يَنطَوي السِّجْنُ عَلَى ظُلْمِ [٨]

هو القَبْرُ حَوَى مَيْتَيْنِ جَارَيْنِ عَلَى الرَّغْمِ

شَتِيتَيْنِ وإِنْ لَمْ يَبْعُدِ العَظْمُ عَنِ العَظْمِ [٩]

١ تراب المهد : تراب الارض التي ولدنا عليها . ثقيف : اسم قبيلة عربية كانت منازلها الطائف في الحجاز .
٢ حنانيك ليلى: التمس حنانك ورفقك يا ليلى . ومعنى البيت : ان موطن كل حبيبين هو المكان الذي يجتمعان فيه من الارض . ٣ تبتدران : تسرعان في ذرف الدموع . ٤ الهدف : هو الغرض الذي ينصب لرمي السهام . ٥ قتيل الاب والام ، اي : ان حرماننا الزواج بامر الوالدين كالقتل لنا .
٦ تقصد « بالعادة والوهم » ذلك التقليد الذي كان يمنع المتحابين الزواج اذا تغزل الفتى بالفتاة .
٧ تربي : تزيد . الجم : الكثير . ٨ هو السجن ، اي : بيتنا كالسجن . ٩ شتيتين : متفرقين .

فإنَّ القُرْبَ بالرُّوحِ   ولَيسَ القُرْبُ بالجِسْمِ !

قيس: تَعالَيْ نعِشْ يا لَيْلَ في ظِلِّ قَفْرَةٍ   مِنَ البِيدِ لم تُنْقَلْ بِها قَدَمانِ ١
تعالَيْ إلى وَادٍ خَلِيٍّ وجَدْوَلٍ   ورَنَّةِ عُصفُورٍ وأَيْكَةِ بانِ ٢
تَعالَيْ إلى ذِكْرَى الصِّبا وجُنُونِهِ   وأَحلامِ عَيْشٍ من دَدٍ وأَمانِ ٣
فَكَمْ قُبلَةٍ يا لَيْلَ في مَيْعَةِ الصِّبا ،   وَقَبلَ الهوى ، ليسَتْ بذاتِ مَعانِ ٤
مُنَى النَّفْسِ لَيْلى قَرِّبي فاكِ مِنْ فَمي   كَمَا لَفَّ مِنقارَيْهِما غَرِدانِ ٥
نَذُقْ قُبلَةً لا يَعرِفُ البُؤْسَ بَعْدَها ،   ولا السُّقْمَ ، رُوحانا ولا الجَسَدانِ
فَكُلُّ نَعيمٍ في الحَياةِ وغِبْطَةٍ   على شَفَتَيْنا حِينَ تَلْتَقِيانِ
ويَخفِقُ قَلبانا خُفُوقاً كأَنَّما   مَعَ القَلبِ قلبٌ في الجَوانِحِ ثانِ ٦

(تنفر ليلى)

ليلى: وَكَيْفَ ؟ !

قيس: وَلِمْ لا ؟

ليلى: لَسْتَ يا قَيْسُ فاعِلاً   وَلا لي بِمَا تَدْعُو إلَيْهِ يَدانِ ٧

قيس: أَتَعْصِينَني يا لَيْلَ ؟

ليلى: لَمْ أَعْصِ آمِري   وَلٰكِنْ صَوْتاً في الضَّميرِ نَهاني !

(بعد سكوت)

وَوَرْدٌ ؟ يا قَيْسُ ، وَرْدٌ ما حَفَلْتَ بِهِ   لَقَدْ ذَهَلْتَ فَلَمْ تَجعَلْ لَهُ شانا ٨

١ لم تنقل بها قدمان ، اي : لم يمش بها انسان .   ٢ ايكة بان : غابة من شجر البان .
٣ من دد : من لهو .   ٤ ميعة الصبا : اوله .   ٥ منى النفس ليلى ، اي : يا امنية النفس يا ليلى . غردان: طائران.   ٦ الجوانح : جمع جانحة وهي الجانب من الصدر.   ٧ ولا لي بما تدعو اليه يدان : ولا اقدر على فعل ما تدعوني اليه .   ٨ ما حفلت به : ما اكترثت له .

قيس (غاضبا) :

تَعْنِينَ زَوْجَكِ يا لَيْلَى ؟

ليلى (منكسة رأسها) : نَعَمْ .

قيس: وَمَتَى أَحْبَبْتِ وَرْداً ؟ تُرَى أَحْبَبْتِهِ الآنَا ؟

ليلى: فِيمَ انْفِجارُكَ ؟ [1]

قيس: مِنْ كَيْدٍ فُجِئْتُ بِهِ ! [2]

ليلى: إِنِّي أَرَاكَ أَبَا الْمَهْدِيِّ غَيْرَانَا
وَرْدٌ هو الزَّوْجُ فَاعْلَمْ قَيْسُ أَنَّ لَهُ حَقّاً عَلَيَّ أُؤَدِّيهِ وَسُلْطَانَا

قيس: إِذاً تَحابَبْتُما ؟

ليلى: بَلْ أَنْتَ تَظْلِمُنِي فَمَا أُحِبُّ سِوَاكَ الْقَلْبُ إِنْسَانَا
وَلَسْتُ بَارِحَةً مِنْ دَارِهِ أَبَداً حَتَّى يُسَرِّحَنِي فَضْلاً وَإِحْسَانَا [3]
نَحْنُ الْحَرائِرَ إِنْ مَالَ الزَّمَانُ بِنَا لَمْ نَشْكُ إِلَّا إِلى الرَّحْمَانِ بَلْوَانَا [4]

قيس: بَلْ تَذْهَبِينَ مَعِي !

ليلى: لا ! لَا أَخُونُ لَهُ عَهْداً ، فَمَا حَادَ عَنْ عَهْدِي وَلَا خَانَا

قيس (متهكماً) :

أَرَاكِ فِي حُبِّ وَرْدٍ جِدَّ صَادِقَةٍ وَكَانَ حُبُّكِ لِي زُوراً وَبُهْتَانَا [5]

ليلى : قيسُ !

قيس (صارخاً) :

١ فيم انفجارك : علام غضبت هـذا الغضب ؟ ٢ كيد : نكاية . فجئت بـه : فوجئت به .
٣ بارحة : مفـارقة ، تاركة . يسرحني : يطلق لي سبيـلي . ٤ الحرائر : النساء الحرة .
٥ جد صادقة : صادقة جداً .

اتركيني ! بلادُ اللهِ واسعةٌ   غداً أبدِّلُ أحباباً وأوطانا

(يحاول ان يتركها فتمسك به ليلى) .

ليلى: العقلَ يا قيسُ[١] !

قيس: لا ! خلِّي الرِّداءَ دعي !

(ثم يفلت منها ويندفع في سبيله تاركاً اياها باكية في هيئة استعطاف) .

ليلى: وارحمتاهُ لقيسٍ عادَ ما كانا !

حاشية أولى : بحر المتقارب .

قال شوقي بلسان مجنون ليلى في حواره مع ورد :

لقد قلتَ قولاً فاوجزته   فبالله الا شرحت المقالا

استعمل شوقي في نظم هذا البيت، والابيات التي تصحبه ، بحراً يسمى المتقارب ، ووزنه التام :

فَعُولُنْ فعولن فعولن فعولن   فعولن فعولن فعولن فعولن

يجوز في كل من « فعولن » حذف سكونها الاخير ، فتصبح فعولُ . واذا وقع حذف هذا السكون من « فعولن » التي هي ضرب البيت ، وجب على الشاعر ان يبني أواخر الابيات في القصيدة كلها على فعولُ .

كذلك يجوز في فعولن التي هي ضرب البيت تسكين لامها بعد حذف ساكنها الاخير، فتصبح : فعولْ . ثم يجوز حذف لامها فتصبح : فَعُوْ . وعلى الشاعر اذا استعمل احد هذين الضربين ان يلتزمه في القصيدة كلها .

ويجوز في فعولن ، التي هي ختام صدر البيت ، حذف ساكنها الاخير . كذلك يجوز

١ العقل يا قيس : الزم العقل يا قيس .

تسكين لامها ، ويجوز حذف اللام .

وللشاعر الخيار في ان يتنقل ، في القصيدة الواحدة ، بين تلك الصور الثلاث في خاتمة صدر البيت .

قطّع على المتقارب بيت شوقي المذكور آنفاً.

حاشية ثانية : بحر الهزج .

قال شوقي بلسان ليلى في حوارها مع قيس :

كلانا قيس مذبوح   قتيل الاب والام

استعمل شوقي في نظم هذا البيت،وما معه من ابيات، بحراً يسمى الهزج، ووزنه التام:

مَفَاعِيلُن مفاعيلن   مفاعيلن مفاعيلن

يجوز في كل من « مفاعيلن » حذف ساكنها الاخير فتصبح : مفاعيلُ .

قطّع على الهزج بيت شوقي المذكور آنفاً.

تمرين

انظر في المنتخبات التي اخترناها من « مجنون ليلى » وتبين كم تعرف بحراً من الابحر التي نظمت عليها .

١ — اشهر فنون النثر في الأدب

سبق لنا القول : ان الكلام نثر وشعر، وبينهما كلام متوسط هو السجع. واكثر النقاد يعتبر السجع نثراً، ولكنه مقيد بالقافية بين اجزاء الانشاء، على نحو ما رأينا في قول بديع الزمان الهمذاني : « طلبت العلم فوجدته بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام ، ولا يرى في المنام » الخ ...

والذين يعدون السجع نثراً كالنثر، يذهبون في تحديد النثر الى انه شيء ضد الوزن فقط . فأما الذين يحدون النثر بانه ضدّ النظم ، فيعتبرون السجع شيئاً غير النثر ، لأن في السجع قافية والقافية داخلة في النظم .

ومما يُصعب امر الحاق السجع بنثر او بشعر من حيث القالب ، ان السجع كاد يكون ظاهرة تفرد بها الادب العربي لما تفردت به اللغة العربية من غنى في القوافي . فليس في اللغة الفرنسية مثلاً ، او الانكليزية ، ادب مسجوع يقاس بالمقدار الذي نجد في العربية ، وانما هناك عبارات قليلة جداً تأتي مسجوعة بالمصادفة . ولذلك لم يُعن نقاد الغرب بامر السجع وادخاله في شعر او نثر ، من حيث القالب . على ان المستشرقين — وهم علماء وادباء عنوا بدرس الآداب العربية — اذا ذكروا السجع سموه *Prose Rimée* بالفرنسية او *Rhymed Prose* بالانكليزية ، وهكذا يعدون السجع بالنتيجة نثراً .

النثر المرسل والنثر المزدوج . — ونقاد العربية الذين يُدرجون السجع في النثر يسمون كل نثر ، غير مسجوع ، مرسلاً، يريدون بذلك انه حرّ مطلق من الوزن والقافية . **وغني عن البيان ان هذا هو المعنى الاصيل للنثر .**

ومن الالفاظ التي تردد كثيراً في نعت النثر لفظة : مزدوج (او متزاوج). ويكون النثر مزدوجاً اذا تجزأ فيه الكلام اجزاء تتشابه في سجع ، او تتشابه في وزن وان لم يكن الوزن شعرياً . وهذا النثر المزدوج، الذي تتشابه اجزاء كلامه في الوزن، يسمى **المتوازن** ، ومنه قول الجاحظ في الدعاء : « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ... واشعر قلبك عز الحق، وطرد عنك ذل اليأس » الخ ... فأنت ترى كيف تتوازن هذه الجمل في

صيغتها وفي مواقع الحركة والسكون من كلماتها .

النثر الخطابي والنثر الكتابي . — وحتى هذا الحد كنا نقسم النثر باعتبار قالبه ، نعني اننا كنا نقسمه اشكالاً . ولكن النثر ، شأنه شأن الشعر ، لا يُقسم باعتبار القالب وحسب، بل يقسم كذلك فنوناً .

والاصل في تقسيمه فنوناً هو النظر الى آلته التي بها قوامه . وليس من آلة له الا القلم او اللسان . **فما كان نثراً آلته اللسان** ، **سمي الخطابي** ، نسبة الى الخِطاب (والقصد به : كل كلام يُبلغ بالفم) .

وما كان نثراً آلته القلم ، **سمي الكتابي** ... وقد يبدو تقسيم النثر ، على هذا النحو ، الى فنين رئيسيين ، شيئاً سطحياً ، ولكنه عند التأمل ليس من السطحية بمقدار ما نتصور ، فانه يعيننا في تتبع تاريخ النثر في الادب العربي ، ويعيننا في معالجة سائر فنونه واغراضه .

نشأة النثر العربي . — وطبيعي اذا نحن سألنا: متى نشأ النثر العربي ، ان نعود اول شيء الى الجاهلية . على ان ذلك العصر كان عصر شعر . فلسنا نجد فيه من النثر – حتى لو صحت نسبته –إلا مقداراً ضئيلاً جداً ، ولسنا نسمع فيه الا باسماء نفر قليل كانوا يقولون نثراً مع ما فيه السجع .

والنثر الجاهلي عبارة عن خطب وامثال وسجع كهان (والمنسوب من هذا السجع الى الكهان الوثنيين سخيف تافه) . واما قوّالو النثر في الجاهلية فهم اما كهان واما خطباء ، واما بيئات شعبية تصطنع الامثال مما يعرض لها في حياتها . ومعنى هذا ان نشأة النثر العربي غامضة كنشأة الشعر . الا ان الامر الذي لا شك فيه ان **النثر نشأ خطابياً** ، وذلك هو المعقول . فسجع الكهان والخطب والامثال كلها من النثر الذي آلته اللسان .

على ان الذي يتأمل النثر الجاهلي يرى السجع فيه قاعدة عامة . فالخطب اكثر كلامها مسجوع ، والامثال كثير منها مسجوع ، واما سجع الكهان فيكفي اسمه وصفاً له . وهذا يدلنـــا على ان **النثر العربي لم ينشأ خطابياً وحسب ، بل انما نشأ سجعاً كذلك** . واما السجع فأكبر الظن انه نشأ من الشعر بترك الوزن . (انظر في منتخبات هذا الفصل امثلة على النثر المنسوب الى الجاهلية) .

الخصائص الاساسية في النثر الخطابي والنثر الكتابي . — النثر الخطابي نثر ارتجالي .

ومعنى ذلك ان قائله يقوله من غير ان يهيئه، او هو يهيئه وقتَ يقوله . وانما يصنع ذلك لان الموقف احوجه الى اعلان رأي يريد ان يقنع به من يخاطب ، او لان نفسه أحست عاطفة ترغب في نقلها الى سواها من نفوس . وآلة النثر الخطابي هي اللسان – كما قلنا – وعمدته هي البديهة [1] . واللسان اذا امتاز بحسن القول يوصف بالذرابة [2] والفصاحة . والبديهة اذا امتــازت بالقدرة على تلبية اللسان توصف بالسرعة والحضور .

ولأن النثر الخطابي ارتجالي، فهو في العادة لا يطول، وهو يحرص على شيء من رنة تساعده على حسن الوقع في السامعين فيعتمد كثيراً على السجع او التوازن ، ثم هو اكثر ما يكون حار العاطفة مركّزاً على الفكرة التي يتوخاها، لا يحيد عنها، ويرددها فيكثر من ترديدها .

وأما النثر الكتابي فيهيئه صاحبه قبل ان يدفع به الى الناس ينظرون فيه . فعمدة النثر الكتابي ، اذاً ، هي الروية ، وسبيل اتصاله بالناس هي المطالعة .

ومن هنا كان النثر الكتابي يطول فيجري شوطاً أبعد من النثر الخطابي ، ويتبسط في أساليبه ومعانيه، ويتناول من الموضوعات والاغراض ما يدعو الى التبسط من مثل الفصول الادبية والروايات وتواريخ الامم وسِيَر الاعلام والمباحث الفكرية الخ ...

ويغلب على النثر الكتابي الارسال [3] .

اعظم حادثة في تاريخ النثر العربي بعد نشأته . – وليس ثمة ريب في ان اعظم حادثة في تاريخ النثر العربي ، بعد نشأته ، انما هي نزول القرآن الكريم . فالقرآن ، فضلاً عن كونه كتاب دين ، هو سفر أدب معجز في بلاغته .

وكان بدء نزول القرآن على النبي محمد سنة ٦١٠ م ، في غــار حراء ، بقرب مكة . واول ما نزل منه : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم . »

ثم تتابع نزول القرآن على النبي منجماً ، أي : مفرقاً بحسب الاحداث ، واستغرق نزوله ثلاثاً وعشرين سنة ، أقام منها النبي ثلاث عشرة سنة في مكة ثم عشراً في المدينة .

والقرآن مقسم اجزاء كبيرة تسمى سوراً ، كل سورة منهــا مقسمة آيات . والسور والآيات الــتي نزلت منه في مكة تسمى مكيّة ، والسور والآيات التي نزلت في المدينة تسمى مدنيّة .

١ البديهة في الاصل : المفاجــأة وعدم طول التفكــّر . ٢ الذرابة : الحدّة ، المضاء . ٣ الارسال في النثر : ان يكون مرسلاً . وهو غير الترسل الذي يعني انشاء الرسائل .

واثر القرآن في النثر العربي، والادب العربي كله، وأثره في كينونة اللغة العربية نفسها، لا يقدّر. صهر القرآن لهجات العرب كلهم في لهجة قريش فوحّد اللغة العربية. ثم نشرها بانتشاره هو والاسلام، فتعلمها وتكلمها خلق كثير، ثم حفظها من الاندثار في اشد اعصر الانحطاط.

واذا بحثنا نشأة علوم اللغة من صرف ونحو وبيان، ونشأة كثير من العلوم الاخرى، وجدنا القرآن كان اعظم حافز عليها. والى هذا كله، مرّن القرآن اللغة العربية على أساليب واغراض لا عهد لها بها، من جدل واستدلال منطقيّين، وقصص فني رائع، وعرض لنُظم وقوانين، فشق القرآن المسالك للادب العربي، ولاسيما النثر، وان يكن بقي هذا النثر في مستهل الامر خطابياً، الا ما كان من بعض الرسائل، حتى ظهر عبد الحميد الكاتب في اواخر العصر الاموي، وهو رائد النثر الكتابي في الادب العربي، أو هو على لغة القدماء اول من فتق اكمام البلاغة. ثم تلاه ابن المقفع ففتح في النثر الكتابي الفتوح. (انظر في منتخبات هذا الفصل آيات قرآنية جارية مجرى الامثال).

المثل. — ومن حق المثل ان يكون هو اول فن من فنون النثر العربي نذكره[١]. ولعله أسبق مظاهر النثر الادبي الخطابي، وبالتالي اسبق مظاهر النثر الادبي كلها، لانه وليد الحياة الشعبية، يولد ارتجالاً على فم هذا او ذاك من ابناء الشعب ثم يشيع في افواههم جميعاً، ويبقى هو أشيع مظهر من مظاهر القول الادبي عندهم واقربها الى اذهانهم وأعلقها بحوافظهم.

ويُعرّف المثل بانه قول سائر يتداوله الشعب في المناسبات العامة والخاصة لما يشتمل عليه من تجربة وعبرة.

وعلماء البيان يسمون المثل **استعارة تمثيلية**. والاستعارة نوع من انواع المجاز اللغوي، اي: اللفظ الذي استُعمل لغير معناه في اصل اللغة، وقُرن بما يدل على انه استعمل لغير معناه في اصل اللغة، فلا يصح اذاً الا ان يفهم على الوجه المجازي. فاذا قلنا: نطق المتنبي درراً، فالدرر هنا هي الاشعار لا الحجارة الكريمة المعروفة، لأن الحجارة تلك، لا تنطق نطقاً. وهكذا سمي المثل استعارة لأن المقصود منه فهمه على الوجه المجازي، ونعتت الاستعارة بانها تمثيلية لانها تكون، مع المثل، في كلام مركب لا لفظ مفرد. ولنأخذ مثلاً من الامثال الشائعة جداً، قولنا: انك تضرب في حديد بارد، فليس المراد بهذا الكلام الضرب الحقيقي

١ تقدم ذكر المثل مراراً في ما سبق من فصول (انظر الصفحات: ٢١،٩٧،١٦٣) وتخللت منه طائفة كبيرة قصة الزباء وجذيمة وقصير (الصفحات: ٢٠—٢٥) كما سبق معنا مثلان: للنابغة الذبياني (ص: ١١٣)، واحمد شوقي (ص: ١٩٩) ذلك ان المثل يكون شعراً ويكون نثراً.

ولا الحديد الحقيقي ، وانما المراد معالجة شيء او شخص علاجاً لا جدوى فيه . فلو تشبث شخص برأي لا يحيد عنه، فأصر آخرُ على ان يحوله عن رأيه، لقلنا لذلك الآخر : انك تضرب في حديد بارد !

وهكذا يكون المثل مجازاً ينبغي لنا فهمه لا بحسب ما تدل عليه حقيقة لفظه **بل بحسب ما يجرد منه من مغزى .**

والاشكال التي يجيء عليها المثل متعددة ... فيجيء مجرد عبارة موجزة مبنية على امر مشاهد في الحياة او في الطبيعة، كقولنا : « اذا وقعت البقرة كثر سلاخها .» ويجيء مشتملاً على اشارة الى شخص او حادث تاريخي او اسطوري ، كقولنا: «لأمرٍ ما جدع قصير انفه.» ويجيء حكاية عن الحيوانات ويسمى عند ذاك خرافة. ويأتي سجعاً ويأتي مرسلاً ارسالاً .

واشهر مجاميع الامثال النثرية في الادب العربي كتابا الميداني والعسكري . (انظر الصفحة ٢٥) . واشهر الكتب المؤلفة بامثال متسلسلة على ألسنة الحيوان كتاب عبد الله بن المقفع : « كليلة ودمنة » وسننظر فيه وفي حياة صاحبه مطولاً .

ومذ كانت الامثال اقرب ادب الى الشعب ، فقد اكثر منها الانبياء والحكماء ، فضلاً عن الشعراء . وفي احاديث النبي محمد طائفة من اجمل الامثال، وكذلك في كلام الامام علي ابن ابي طالب الخليفة الراشدي الرابع .

والامثال تعدّ ميزة من ميزات الآداب الساميّة عامة والادب العربي خاصة ، فكما امتازت الآداب الغربية بالتمثيل والملاحم ، امتاز الادب العربي بما له من ثروة عظيمة في الامثال على مختلف اشكالها. (انظر في منتخبات هذا الفصل: امثلة على الامثال).

الخطبة . ــ وهي ان لم تكن زاحمت المثل في قدم نشأتها في الادب العربي، فلا شك انها لم تتأخر عنه طويلاً .

ولكن الخطيب في الجاهلية لم يكن يحتلّ مركز الشاعر . ولا كانت الخطابة بمنزلة الشعر .

على ان ظهور الاسلام ونشوء الدولة وقيام حروب الفتح ، ثم قيام الاحزاب السياسية والحروب الاهلية ، كل ذلك ادى الى ازدهار الخطابة وجعل لها شأناً عظيماً. والخطابة انما تزدهر في عهود القتال واشتداد التنافس السياسي . وذلك ما اتفق في اواخر عصر الراشدين وفي العصر الأموي ، فظهر خطباء كبار كالامام علي بن ابي طالب ثم زياد بن ابيه والحجاج .

وحدّ الخطبة انها كلام يلقيه الخطيب في حفل من الناس ، يشرح لهم قضية او يحرضهم

على امر او ينهاهم عنه ، او هو يقتصر على مجرد عاطفة تدعو اليها المناسبة من مثل تهنئة او تعزية .

والخطب الخطيرة الشأن تكون غايتها الاقناع ، كما يقول ارسطوطاليس. فغاية الخطيب هي ان يقنع سامعيه بما يقول ، فلا يفرغ من كلامه الا وقد حملهم على مثل شعوره ورأيه .

وكانت القاعدة في الخطبة ان تُرتجل ، إما في موقف حرب فتدعى حماسية ، او موقف ارشاد فتسمى موعظة ، او موقف دعوة حزبية فتدعى سياسية ، او مناسبة زواج او قدوم فتكون تهنئة ، او مناسبة وفاة فتكون تأبيناً .

وكثير من عبارة الخطب في الادب العربي مسجوع ، وذلك لأن السبيل الرئيسية التي يسلكها الخطيب الى قلب الجمهور وعقله هي الاذن. والسجع اذا اجيد في الكلام يساعد على اطراب الاذن وعلى زيادة استعداد عند السامع للاقتناع .

وقد اتصل بالخطبة في الادب العربي فن يختلف عنها، ولكنه مثلها كلام يلقيه صاحبه على جمهور من الناس . ويسمى هذا الفن **المحاضرة** . وهو لم ينشأ في الادب العربي الا في العصر الاموي ، بعد ان عُمرت المدن الجديدة من مثل البصرة والكوفة وكثرت حلقات الدرس . ثم ازدهر هذا الفن في عصر بني العباس ، وهو اليوم فن متعارف شهير .

والمحاضرة تجاوز الموضوعات الخطابية الصِرْف الى ادب او لغة او تاريخ او علم. فهي اقرب الى ان تكون بحثاً ، غير انه يلقى القاء . والمحاضر لا يتكلف في القائه ما يتكلفه الخطيب من تصرف باشارات يديه او نبرات صوته او ملامح وجهه . وكثيراً ما تكون المحاضرة مكتوبة . والقاعدة في انشائها ان يكون نثراً مرسلاً .

(انظر في منتخبات هذا الفصل : امثلة على الخطب).

المناظرة . — وفن آخر من فنون النثر ، متصل بالخطبة ، هو المناظرة . وحدّها انها جدال بين طرفين يذهب احدهما في قضية مذهباً غير الآخر وكلاهما يحشد البراهين في تأييد دعواه امام ملأ من الناس .

والشرط في المناظرة ان تكون غايتها جلاء الحقيقة، وسلاحها المنطق والمعرفة. فاذا افضى فيها المتناظران الى الذم والقدح عد ذلك عيباً ، ولم يبق للمناظرة قيمة الا بمقدار المتعة التي يجنيها المرء من منظر ديكين يتواثبان .

ولم تكن في الادب العربي ، عصر الجاهلية ، مناظرة وانما كانت هناك مفاخرة او مهاجاة .

ثم قام هذا الفن مع انتشار العلم وظهور كثير من القضايا التي استدعت الجدال الشديد ، في الادب والسياسة والفلسفة والدين ، وذلك في اواخر العصر الاموي وبعده في الاعصر العباسية .

ولم تلبث المناظرة ان تحولت الى فن كتابي . وكان ذلك طبيعياً ، فلم يكن معقولاً ان يسافر أحد اديبين ، او عالمين ، من بلد الى بلد، ويدعو كلاهما الناس لعقد اجتماع ، كلما طلبا المناظرة في موضوع . وهكذا تطورت المناظرة من فن آلته اللسان الى فن آلته القلم .

واسلوب المناظرة وروحها قد خلقا اسلوباً خاصاً في كتابة النثر نلقاه لدى اكثر الكتّاب ، ولاسيما الجاحظ، فانه يكتب وكأنه دائماً يخاطب مناظراً خالفه في الرأي .

وقد اشتق من روح المناظرة واسلوبها ادب طريف بالعربيـــة هو ادب **المناظرات الخيالية** . فيتصور كاتب صنفين من نبات ، او شيئين من جماد يتناظران في فضائلها . فهذا الورد يناظر النرجس ، وهذا السيف يناظر القلم ، وهـــذا الخل يناظر الزيت . وكلا المتناظرين يغضب ويتهكم ويرتبك ثم يكر على خصمه ، حتى ليخيل للقارىء انه يقرأ فصلاً تمثيلياً . والقاعدة في هذا الضرب من المناظرات ان يكون سجعاً .

ومن المناظرات الشهيرة، في تاريخ ادبنا الحديث، ما دار بين احمد فارس الشدياق والشيخ ابراهيم اليازجي من مناظرة لغوية اثبتنا شيئاً منها في منتخبات هذا الفصل ، كما اثبتنا شيئاً من مناظرة خيالية بين السيف والقلم انشأها الشيخ جمال الدين بن نباتة .

الرسالة . — وهي من اقدم فنون النثر الكتابي نشأة ان لم تكن اقدمها .

والرسائل الاولى التي نلقاها في الادب العربي انما تقترن بعصر النبوّة والراشدين .

وبقيت الرسائل قليلة، وقصيرة يسيرة، حتى اواخر العصر الاموي. ومن اسباب ذلك ان الرسائل تحتاج الى علم بالكتابة وتفتقر الى قراطيس . ولم تكن الكتابة منتشرة بـــين العرب ، ولم تكن هناك قراطيس وانما كانوا يكتبون في الرقاق [1] وفي كل شيء يتناولونه وهو يمكن الاستعمال في الكتابة . وفوق ذلك ظلت دواوين الدولة في الاقطار المفتتحة على لغاتها السابقة من فارسية في فارس والعراق ، وقبطية في مصر ، ورومية في سوريا .

فلما كان عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان (وقد تولى الخلافة سنة ٦٧٥ م، ٦٥هـ) احدث انقلاباً عظيماً في هذا الشأن ، فحوّل الدواوين الى اللغـة العربية وحوّر القراطيس

١ الرقاق: جمع رق ، وهو الجلد .

واعتاض بها من الرقاق ، فمكن بذلك اللغة العربية من الانتشار واوجب الكتابة بها ويسّر الظروف لنهضة في انشاء الرسائل .

وبالطبع ، كان بدء تلك النهضة بدواوين الدولة ، ولاسيما الديوان الرئيسي في عاصمة الخلافة ، : دمشق . وكان قمة هذه النهضة في انشاء الرسائل ، في العصر الاموي ، عبد الحميد الكاتب .

واما حد الرسالة في الاصل فهو : انها مخاطبة الغائب بالقلم . وتكون الرسالة اما خاصة واما عامة . والخاصة هي التي تكون بين الاهل والاصدقاء ، والعامة تكون بما يكتب صاحب دعوة الى اتباعه او راعٍ الى ولاته او رعيته .

ثم توسع الادباء في استعمال لفظ الرسالة فجعلوه في معنى البحث واطلقوه على كل ما يوجهه كاتب لقارىء في موضوع ما ، فيقال : رسالة في الموسيقى ، ورسالة في الشعر الخ ...

وقد استعملت في الرسائل انواع النثر كلها من سجع ومتوازن ومرسل .

الوصية . — وهي في الحقيقة فن بين المحاضرة والرسالة ، فاذا قيلت وجاهاً فانها اقرب الى ان تكون محاضرة ولكن سامعها واحد او نفر قليل . واذا كتبت فهي رسالة .

وتكون الوصية في الاغلب حكمة وعلماً يزوّد بها اولو الخبرة بالحياة من عدموا مثل خبرتهم ، واكثر الوصايا في الادب العربي اما بلسان والد ينصح لولده او أمّ تنصح لبنتها او اديب ينصح لاديب في امر صناعته على نحو ما نصح ابو تمام الشاعر العباسي للبحتري الشاعر العباسي في وصية شهيرة تتعلق بنظم الشعر واجادته .

منتخبات

امثلة النثر المنسوب الى الجاهلية

افضل الخطباء اصدقها

أكثم بن صيفي . — علم من اشهر الاعلام في الجاهلية، ينسب الى قبيلة تميم، ولكن المعلوم من امره ضئيل جداً . يقال : انه مات بعد بعثة الرسول في اوائل القرن السابع الميلادي . وابرز ما يذكر من حوادث حياته ان النعمان ملك الحيرة (والمراد : النعمان الثالث ابو قابوس) اختاره عضواً في وفد بعث به الى المدائن ليخطب بين يدي كسرى ابرويز ، وكان كسرى قد عاب العرب ، فاحب النعمان ان يريه فضلهم بنفر من الخطباء الحكماء يوجههم له . ويعزى الى اكثم مقدار من الخطب والاقوال الحكيمة . وتتحدث الاخبار بانه اوتي حظاً عظيماً من صواب الرأي وفصاحة اللسان .

وفيما يلي مختار من الخطبة التي روي انه لفظها عند كسرى ، واودعها الكثير من حكمته ، قال :

أفضل الملوك اعمهم نفعاً ، وخير الازمنة اخصبها ، وافضل الخطباء اصدقها . الصدق منجاة والكذب مهواة [١] . وخير الامور الصبر . وشر الملوك من خافه البريء . وافضل الاولاد البررة . وخير الاعوان من لم يراء بالنصيحة ...

ايها الناس ، اسمعوا وعوا !

قس بن ساعدة . — وهو علم آخر من اشهر الاعلام في الجاهلية . منسوب الى قبيلة اياد . كان ، بحسب الاخبار ، اسقفاً لنجران . وكانت هذه المدينة اليمنية قاعدة للمسيحيين العرب ، وهم الذين حرّقهم الملك التبعي ذو نواس ، سنة ٥٢٣ م ، وذكرهم القرآن الكريم باسم اصحاب الأخدود [٢] ... ويروى عن قس انه كان يقوم

١ مهواة : داعية للسقوط . ٢ الاخدود : الحفرة . وسماهم القرآن اصحاب الاخدود لانهم احرقوا في حفرة .

واعظاً في سوق عكاظ ، وانه كان من افصح الناس وازهدهم في الدنيا ، وانه هو اول من قال في خطبه : اما بعد ، فدرج عليها الخطباء من بعده . وله الخطبة الشهيرة : ايها الناس، اسمعوا وعوا ، ويقال ان النبي سمعه يخطبها في عكاظ . وهي مسجعة . ومنها :

ايها الناس ، اسمعوا وعوا ، واذا سمعتم شيئاً فانتفعوا . انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت . ان في السماء لخبرا ، وان في الارض لعبرا : ليلٌ داج ، وسماء ذات ابراج ، وارض ذات فِجاج [١] ، وبحار ذات امواج . ما لي ارى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فاقاموا ، ام تُركوا هناك فناموا ؟ تباً لارباب الغفلة والامم الخالية والقرون الماضية !

يا معشر إياد ، اين الآباء والاجداد ؟ واين المريض والعوّاد ؟ واين الفراعنة الشداد ؟ اين من بنى وشيّد ، وزخرف ونجّد ؟ اين من بغى وطغى ، وجمع فأوعى ، وقال : انا ربّكم الاعلى ؟ ألم يكونوا اكثر منكم اموالا ، واطول منكم آجالا ؟ طحنهم الثرى بكلكله [٢] ، ومزّقهم بطوله [٣] . فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ، عمرتها الذئاب العاوية ! كلا ، بل هو الله الواحد المعبود ، ليس بوالد ولا مولود .

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها يمضي الاصاغر والاكابرْ
ايقنت اني لا محا لة حيث صار القوم صائرْ !

حاشية : الاستفهام ومعانيه في اللغة .

اذا تتبعت تركيب الجمل في هذه الخطبة المنسوبة الى قس بن ساعدة ، وجدت الخطيب يبلغ منها موضعاً ، يُكثر فيه من سبك عبارته بصيغة استفهام فيقول : اين الآباء والاجداد ؟ واين الفراعنة الشداد ؟ اين من بغى وطغى ؟ الخ ...

وانت تعلم ان الاستفهام هو طلب العلم بشيء لا يعلمه المستفهِم . فاذا سألك صديقك :

١ فجاج : جمع فج ، وهو المسلك الواسع بين جبلين . ٢ الكلكل : الصدر ، والمراد هنا بصدر الثرى : ثقله . ٣ الطول : السطوة .

أين وضعت كتابي ؟ فانما يسألك لأنه يطلب منك جواباً تعيّن له به موضع كتابه لانه يجهله .

أفكان الخطيب ، اذاً ، يجهل اين أمسى الآباء والاجداد والفراعنة الذين بنوا وشيّدوا والذين بغوا وطغوا الخ ؟.. كلا ! بل انه استفهم وهو لا ينتظر جواباً . والدليل انه واصل كلامه فأجاب نفسه بنفسه .

من هذا يتضح ان استفهام الخطيب لم يكن لطلبه العلم بشيء يجهله بل لغرض آخر . كذلك يتضح ان الاستفهام له معانٍ اخرى في اللغة غير معناه الاصلي . ومن اشهر تلك المعاني: النفي والانكار والتقرير والتحقير والتعظيم والتوبيخ والتعجب الخ ...

والخطيب ، هنا ، قد أراد توبيخ سامعيه ، لانهم لا يتفكرون ولا يتعظون . وكان بمستطاعه ان يقول لهم : مات آباؤكم واجدادكم قبلكم ، بل هلك المرضى الذين زاروهم وواسوهم وباد الفراعنة (الخ ...) وانتم لا تعتبرون ... ولكن شدّ ما بين القولين من فرق في البلاغة وقوة الوقع !

فتنبّه لكل استفهام تجده في كلام بليغ ، وتبيّن هل استعمله صاحبه ليطلب العلم بشيء يجهله ام هو رمى به الى معنى آخر ؟ هل مرّت بك في المنتخبات الشعرية ، قصيدة تشتمل على استفهام يشبه الاستفهام في هذه الخطبة ؟ ما هي هذه القصيدة ؟ ولمن هي ؟

آيات قرآنية جارية مجرى الامثال

ان بعض الظن اثم . ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه .

ان اكرمكم عند الله اتقاكم .

ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بانفسهم .

قل هل يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور ؟

فأما الزبد فيذهب جُفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

ان موعدهم الصبح ،اليس الصبح بقريب ؟

ولا يحيق المكر السيء الا بأهله .

ما على الرسول الا البلاغ .

لا يكلف الله نفساً الا وُسْعَها .

قلْ كلٌ يعمل على شاكلته .

هل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟

كل حزب بما لديهم فرحون .

وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

الحق احق ان يتبع .

ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً .

أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ؟

وسيعلم الذين ظلموا اي مُنقلب ينقلبون .

من كلام النبي[1] الجاري مجرى الامثال

حق المجموع عند الفرد

وهو من بديع الامثال التي صوّر بها النبي حقيقة اجتماعية لا قيام الا بها لأيما مجتمع ، وهي : ان الحرية تنتهي حيث يبدأ الضرر بالمجموع ، قال[2] :

ان قوماً ركبوا سفينة في البحر ، فاقتسموا . فصار لكل رجل منهم موضع . فنقر رجل منهم موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟

فقال : هو مكاني اصنع فيه ما شئت .

فان اخذوا على يديه[3] نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا .

ومن كلام النبي : كلكم لآدم وآدم من تراب .

ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى .

ان لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً .

لأن يأخذ احدكم احبله ، ثم يغدو الى الجبل فيأتي بحزمة على ظهره فيبيعها ، فيأكل ويتصدق ، خير له من ان يسأل الناس ، أعطوه او منعوه .

من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان .

كلكم راعٍ ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته .

الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم اليه أنفعهم لعياله .

١ كل ما قاله النبي محمد يسمى الحديث . وقد جمع كله في كتب اشهرها : صحيح البخاري وصحيح مسلم . ويعرف الكتابان بالصحيحين ، لان مؤلفيها (وهما : البخاري ومسلم) كانا عالمين اشتهرا بالتدقيق وتمييز صحيح الاحاديث النبوية من موضوعها . ٢ نقلنا النص عن كتاب : « البيان والتبيين » للجاحظ. ٣ اخذوا على يديه : كفوا يديه عن العمل .

امثلة على الامثال

اكلت يوم اكل الثور الابيض

وهو من امثال الامام علي بن ابي طالب .

ويعد في اجمل الامثال العربية التي جاءت حكاية عن الحيوان .

والذي يُفهم من خاتمة المثل ان الامام علياً قد رواه ليدل على ما فتح مقتل سلفه عثمان بن عفان من باب للفتنة ، وليعلمنا ان المرء اذا قُتل اخوه هان.

والناظر في هذا المثل يستطيع ان يجرد منه مغزى صادقاً عميقاً ، خلاصته : ان باغي الشر انما يتبع سبيل التفرقة فيفتك بالضحايا واحدة واحدة ، كما فعل الاسد بالثيران . فوجب التضامن اذاً على باغي الشر ، وان لا يترك له سبيل لايقاع الشقاق والفتنة .

قال الامام علي (نقلناه عن كتاب مجمع الامثال للميداني) :

اثوارٌ ثلاثةٌ كنّ[١] في أجمة : ابيضُ واسود واحمر ، ومعهنّ فيها أسد، فكان لا يقدرُ منهن على شيء لاجتماعهنّ عليه . فقال للثور الاسودِ والثور الاحمر : لا يدلّ علينا في أجمتِنا[٢] الا الثورُ الابيض ، فان لونه مشهور ، ولوني على لونكما ، فلو تركتماني آكله صفت لنا الاجمة ! فقالا له:دونك فكله . فأكله . فلما مضت ايامٌ ، قال للاحمر : لوني على لونك فدعني آكل الاسود لتصفو لنا الاجمة ! فقال :دونك فكله . فأكله . ثم قال للأحمر : اني آكِلُكَ لا محالة ! فقال : دعني انادي ثلاثاً . فقال : افعل . فنادى : الا اني اكلت يوم اكِلَ الثورُ الابيض ! وكان عليّ بعد ذلك يقول : الا اني هنت[٣] يوم قتل عثمان !

لا تنظر الى دمع عينيه بل انظر الى عمل يديه

وهو من الامثال المحكية على لسان الحيوان . قيل :

نصب صيّاد شركاً للعصافير ، في يوم برد وريح . فكان اذا وقعت في الشرك اخذها

١ يجوز ارجاع نون الاناث لغير العاقل اذا كان جمعاً مكسراً ، فيقال : اثوار ثلاثة كن ، وطيور غردن الخ ... ٢ الاجمة : الغابة التي تنزلها البهائم والوحوش ولاسيا الاسود . ٣ هنت : ضعفت .

فذبحها ، ودمعه يسيل لشدة الريح والبرد . فقال عصفور : انظر الى هـذا الصياد ، ما ارق قلبه ، كيف تدمع عيناه . فقال له آخر : لا تنظر الى دمع عينيه ، بل انظر الى عمل يديه !

مواعيد عرقوب

وهذا المثل مبني على قصة رجل جاهلي ذكر انه كان مقيماً بيثرب (المدينة) ، قيل : كان لعرقوب بستان من شجر النخل ، وله اخ مُعوِز يأتيه فيسأله المعونة . فقال له عرقوب : اذا أطلعت [١] هذه النخلة فلك طلعها .

فلما أطلعت أتاه أخوه كوعده ، فقال عرقوب:

— دعها حتى تصير بلحاً . ثمّ ابلحت فقال له : دعها حتى تصير زهواً . حتى اذا زهت قال له : دعها حتى تصير رُطباً . فلما ارطبت قال له : تتركها حتى تصير تمراً [٢].

فحين اثمرت عمد اليها عرقوب ليلاً فقطع قنوانها ولم يعطِ اخاه شيئاً . فضرب به المثل في المماطلة والتسويف والخلف .

العوسجة والثعلب

ويمتاز هذا المثل في الادب العربي بانه قصة محكية بلسان النبات مع الحيوان . والحكاية بلسان النبات قليلة في الادب العربي ، ولعل ذلك لانه نشأ في بيئة صحراوية قلّ نباتها .

قيل :

اراد ثعلب ان يصعد على حائط ، فتعلق بعوسجة [٣] فعقرت يده ، فأخذ يلومها، فقالت : يا هذا، قد اخطأت حين تعلقت بي ، ومن عادتي ان اتعلق بكل شيء . . .

امثال منثورة

اذا وقعت البقرة كثُر سلّاخها [٤] . عند الامتحان يُكرم المرء او يهان . القافلة تمشي والكلاب تنبح [٥] . حافظ على الصديق ولو في الحريق . ربّ اكلة تمنع أكلات [٦] . آفة العلم

١ اطلعت : انعقد ثمرها. ٢ البلح والزهو والرطب والتمر، كلها اسماء لثمر النخل في تدرجه الى منتهى النضج . ٣ العوسجة : الشجرة الشائكة ، العليقة . ٤ يضرب لمن يرتكب هفوة او يصيبه بلاء فيكثر هاجوه بعد ان كانوا يمدحونه ويرعون جانبه . ٥ يُضرب لمن يحاولون تعويق امر وهم لا يستطيعون.
٦ يُضرب لمن يفرط في شيء من الاشياء فلا يلبث ان يصيبه العجز .

النسيان. كلب جوّال خير من اسد رابض[١]. لو كان في البوم خير ما فات الصياد[٢]. من غشّنا فليس منا. يدك منك وان كانت شلاّء[٣]... اذا تفرقت الغنم قادتها العنز الجرباء. وافق شن طبقة[٤]. أحَشَفاً وسوءَ كيلة[٥]؟

تمرين

تصور مناسبات يمكنك ان تستعمل فيها كلاّ من الامثال التي قرأتها تحت عنوان: «امثال منثورة».

انشاء ادبي

بعد النظر في المنتخبات السابقة كلها، اكتب انشاء عرّف فيه المثل، وبيّن فنونه واساليبه، واختم ذلك بشرح الاسباب التي جعلت الامثال اقرب وسيلة لتعليم الناس.

١ يُضرب للدلالة على قيمة الحركة والسعي. ٢ يُضرب للدلالة على ان الشيء النفيس يكثر طالبوه واخذوه. ٣ شلاء: صيغة التأنيث من أشل، وهو العضو المصاب بالشلل. ويُضرب هذا المثل للدلالة على وجوب تحمل الاقرباء والاصدقاء برغم عيوبهم. ٤ الشن: وعاء. والطبق معروف. ويضرب هذا المثل في تمام الموافقة والمشاكلة. ٥ الحشف هو التمر الرديء. والمعنى: اتعطي تمراً رديئاً ولا تعدل في الكيل؟

امثلة على الخطب

القوي اضعفكم حتى آخذ الحق منه

وهي خطبة ابي بكر الصديق – اول الخلفاء الراشدين – يوم بويع بالخلافة بعد وفاة النبي سنة ٦٣٢م (١٠ هـ) ويلحظ ما فيها من قوة الايجاز. قال ابو بكر بعد التحميد[١]:

ايها الناس، اني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم. فان رأيتموني على حق فأعينوني. وان رأيتموني على باطل فسددوني[٢]. اطيعوني ما[٣] اطعت الله فيكم. فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا ان اقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذ الحق له. واضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

لا يمنع الضيم الذليل ولا يدرك الحق الا بالجد

علي بن ابي طالب. – هو رابع الخلفاء الراشدين، واعظم الخلفاء العظام شهرة ادبية، وأحد الحكام المعدودين في التاريخ الذين حكموا باسم مبادىء عالية لم يزحزحوا عنها وان تنكر لها ولهم العصر.

وولد علي بن ابي طالب سنة ٦٠٣م قبل البعثة النبوية بسبع سنين. وضمه اليه ابن عمه محمد ورباه. ولما بعث الرسول سنة ٦١٠م كان علي اول من آمن به من الجيل الناشىء. وفي الليلة التي هاجر فيها الرسول سنة ٦٢٢م من مكة الى المدينة، كي لا يغتاله مشركو قريش، خلفه علي في مضجعه وتعرض لسيوف المغتالين.

وهكذا كان علي اشد الناس حماسة للدعوة الجديدة. وكان في حياته كلها موصوفاً بما لم يوصف به احد من فروسية وشجاعة وترفع واستقامة.

وبعد مقتل عثمان بن عفان في الثورة التي نشبت سنة ٦٥٦م (٣٥هـ) بويع بالخلافة،

١ التحميد، قول: الحمد لله. وكثير من الخطباء بعد الاسلام درج على افتتاح الخطبة بالتحميد. ٢ سددوني: ارشدوني وقوموا اعوجاجي. ٣ ما، هنا، مصدرية زمانية، اي: اطيعوني ما دمت مطيعاً لله في معاملتكم.

ولكن شق عليه العصا نفر من الوجوه بينهم عائشة زوج النبي وطلحة والزبير ومعاوية بن ابي سفيان. فحارب علي عائشة وطلحة والزبير وانتصر عليهم في الواقعة التي سميت واقعة الجمل لان عائشة كانت تركب فيها جملاً. وفي غمرة المعركة قُتل طلحة والزبير.

واما معاوية —وكان والياً على الشام— فانه أتى بالقميص التي كان يلبسها عثمان ساعة قتل وجعل ينشرها على المنابر وهي ملطخة دماً ويخطب الناس داعياً الى الثأر لعثمان — وعثمان امويّ — ويتهم علياً بانه هو المسؤول عن دم الخليفة المقتول [1].

وطال الاخذ والرد بين علي ومعاوية. والخليفة علي — كما اسلفنا — رجل مبادىء، والوالي معاوية رجل ذرائع، يتوسّل بما يستطيع ان يتوسل به للوصول، وفي خزائنه المال الكثير.

وقد احترب [2] علي ومعاوية في معركة صفين [3]، وهي المعركة التي رفع فيها جنود معاوية المصاحف، باقتراح من عمرو بن العاص، ودعوا جند علي للتحكيم. فوقع ذلك التحكيم الذي اتفق به الحكمان: ابو موسى الاشعري وعمرو بن العاص على ان يخلعا علياً ومعاوية، فخلع ابو موسى علياً وثبّت عمرو معاوية واستؤنف القتال وخرج الخوارج على علي، فقضى آخر شطر من حياته في صراع وحرب حتى قتله ابن ملجم غيلة في مسجد الكوفة سنة ٦٦٠ م (٤٠ هـ).

والامام علي — كما قلنا — هو اعظم الخلفاء شهرة ادبية وآثاره مجموعة في **نهج البلاغة**، الكتاب الذي جمعه الشريف الرضي في العصر العباسي الثالث وشرحه ابن ابي الحديد.

وآثار علي الادبية واسعة الفنون والاغراض، فمن رسائل الى وصايا الى خطب الى امثال، وكلها في الدرجة العليا من قوة البيان وجماله، ذلك بان علياً قد اشرب القرآن فتياً ودعته الظروف التي تمرس بها الى معاناة الخطابة والى إعماق التفكير في جوانب الحياة فكان ان تفجرت حكمته ذلك التفجر من ينابيع بعيدة القرار وتدفقت بلاغته ذلك التدفق الزاخر زخر البحار.

ويمتاز كلام علي بالجزالة في لفظه والمتانة في تركيبه وبالحرارة والحدّة في نَفَسه، وهو الى التسجيع أميَل ولكن في بعد عن الصنعة والتكلف، ويكثر فيه الاقتباس من القرآن كما تكثر فيه العبارة بالصيغة والمعنى اللذين يُجريانها مجرى المثل.

١ وهكذا نشأ في اللغة العربية المثل المضروب بقميص عثمان، وهو مثل كل شيء يُستعمل ذريعة وصول الى غاية. ذلك ان معاوية حين كان ينشر قميص عثمان على الناس لم يكن همه الثأر لنهيبه بمقدار ما كان همه بلوغ مأرب سياسي ظهر من بعد في توليه الخلافة وتأسيس الدولة الاموية. ٢ احترب القوم: اوقدوا فيما بينهم نار الحرب. ٣ صفين: بلدة عند نهر الفرات على الحدود بين سوريا والعراق

ومع هذا فلعل الخطوة الكبرى التي خطاها علي بالنثر العربي، من خطب ووصايا ورسائل، هي **تركيزه الكلام على الموضوع الواحد، لا يحيد عنه، مع الاطالة ومع الحفاظ على مستوى واحد ومع نصوع الحجة في الجدل والبرهان**. وكلها صفات تأثر بها الامام علي القرآن، ولكنها ايضاً من عمل عبقريته.

وفيما يأتي مختار من خطبه يتجلى فيه ما قدمنا من صفات بيانه وحكمته.

قال يؤنب الناس على تخاذلهم في حرب معاوية:

ايها الناس المجتمعة ابدانهم، المختلفة اهواؤهم. كلامكم يوهي الصم الصلاب [١] وفعلكم يُطمعُ فيكم عدوكم. ما عزت دعوةُ مَن دعاكم، ولا استراح قلب مَن واساكم. هيهات لا يمنع الضيمَ الذليلُ، ولا يُدرَك الحق الا بالجدّ. أي دار بعد داركم تمنعون [٢]؟ ام مع اي امام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه! ومن فاز منكم فاز بالسهم [٣] الاخيب. أصبحت والله لا اصدق قولكم، ولا اطمع في نصرتكم. فرّق الله بيني وبينكم، واعقبني بكم من هو خير لي منكم.

لا رأي لمن لا يطاع!

وخطب الامام علي بالناس يوم ثار سفيان بن عوف الاسدي وغزا مدينة الانبار بالعراق. وهي خطبة في مثل معنى الخطبة الاولى. لكنها تجري شوطاً ابعد، وتبعث حرارة اعنف، وتأخذ بالبرهان الجدلي اخذاً اشد إحكاماً. قال:

أما بعد، فانَّ الجهاد باب من ابواب الجنة، فمن تركه البسه الله ثوب الذلّ وشملة البلاء وألزمه الصَّغار [٤]. ألا واني دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وقلتُ لكم: اغزوهم قبل ان يغزوكم فوالله ما غُزي قوم قَط في عقر دارهم الا ذلوا. فتواكلتم وتخاذلتم، وثقُلَ عليكم قولي فاتخذتموهُ وراءكم ظهرياً، حتى شُنت عليكم الغارات. هذا اخو غامد قد بلغت خيلهُ الانبار وازال خيلكم! فواعجبا من جدّ هؤلاء في باطلهم وفشلكم عن حقكم! فقبحاً لكم حين صرتم غرضاً يرمى [٥]: يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزَون ولا تغزون. فاذا امرتكم بالمسير اليهم في ايام الحرّ قلتم: حمارة القيظ، أمهلنا حتى ينسلخَ عنا الحر، واذا امرتكم بالمسير اليهم ضحىً في الشتاء قلتم: أمهلنا حتى ينسلخَ عنا هذا القر.

١ الصم الصلاب: الصخور الصلبة. ٢ تمنعون: تحمون. ٣ السهم، يراد بها، هنا: النصيب والحظ. ٤ الصغار: الهوان، المذلة. ٥ غرضاً يُرمى: هدفاً منصوباً يرميه الناس بالسهام.

يا اشباه الرجال ولا رجال ! ويا احلام الاطفال [١] وددت ان الله أخرجني من بين أظهركم وقبضني الى رحمته من بينكم ، واني لا اعرفكم . والله حرت وَهناً [٢] وورّيتم [٣] والله صدري غيظاً ، وجرّعتموني الموت انفاساً ، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش ان ابن ابي طالب شجاعٌ ولكن لا علم له بالحرب . لله ابوهم ! وهل منهم احدٌ اشد لها مراساً واطول تجربة مني؟ لقد مارستها وانا ابن عشرين، فها أناذا الآن قد نيّفت على الستين [٤]، ولكن لا رأي لمن لا يطاع !

بين الامل والعمل

وهذا نص من خطبة لعليّ في الوعظ ، قال :

أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وان الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع [٥]، وان المضمار [٦] اليوم والسباق غداً . ألا وانكم في ايام امل من ورائه اجل [٧] . فمن اخلص في ايام امله ، قبل حضور اجله ، فقد خسر عمله وضره أمله . ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة . ألا واني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها . الا وانه من لم ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يجذبه الضلال الى الردى . انكم أمرتم بالظعن [٨] ودُللتم على الزاد.وان اخوف ما اخاف عليكم اتباع الهوى وطولُ الامل،فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به انفسكم غداً [٩] .

البحر من ورائكم والعدو امامكم !

طارق بن زياد قائد شهير من قواد الفتوحات العربية الاسلامية في العصر الاموي، وهو الذي على يديه تمّ فتح العرب للاندلس ، غير انه لم يكن عربياً بل بربرياً

١ احلام الاطفال: عقول الاطفال. ٢ الوهن: الضعف. ٣ ورّيتم:أشعلتم.يقال: ورّى النار وأوراها: أشعلها. ٤ اذا صحّ ان علياً كان في السابعة من عمره يوم بعث محمد رسولاً، وذلك سنة ٦١٠م،فلا يكون قد بلغ الستين، بل الثامنة والخمسين في اقصى حد، لانه قتل سنة ٦٦٠ او ٦٦١م. وهكذا يرجح ان في النص هفوة ، وانه قال : « قد شارفت الستين.» او :« اشرفت على الستين. » ٥ أشرفت باطلاع : ارتفعت لتظهر . يقال: اشرف الشيء اذا ارتفع وعلا ، واطلع الشيء اذا ظهر . ٦ المضمار : الغاية في السباق . يقول : نحن في سباق قدمت فيه الغاية على السباق نفسه، وتفسير ذلك قوله في آخر الخطبة: فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به انفسكم غداً ، يعني ان النجاح بسباق الآخرة انما يحرز بالعمل في هذه الدنيا . ٧ الاجل : نهاية العمر. ٨ الظعن :الرحيل . ٩ تحرزون به انفسكم : تقون به انفسكم من الهلاك .

(نسبة الى البربر، سكان افريقيا الشمالية). اتخذه القائد العربي موسى بن نصير مولى له، وولاه اول الامر مدينة طنجة، ثم جهزه بالحملة التي فتح بها الاندلس سنة ٧١٠م (٩٢ هـ) في ايام الخليفة الاموي: الوليد بن عبد الملك. وباسم طارق يسمى المضيق بين افريقيا واسبانيا.

وأما الخطبة التي نثبت نصها فيما يأتي فقد قيل انه القاها في جنوده بعدما بلغ بهم اليابسة الاسبانية واحرق خلفه المراكب. واذا صحت نسبتها اليه، بنصها، فيكون من العجيب ان بربوياً استطاع ان يبلغ ذلك المبلغ من اتقان العربية على قرب عهده بها. ولكن الخطبة على كل حال تعد من ابلغ خطب القواد الحماسية، نقلناها مختصرة عن كتاب «نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب» وهو من اشهر كتب الادب القديمة، صاحبه اديب اندلسي يعرف بالمقّري.

واليك الخطبة:

أيها الناس، اين المفرّ؟ البحرُ من ورائكم والعدو امامكم، وليس لكم والله الا الصدق والصبر. واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيعُ من الايتام في مأدبة اللئام [١]. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، واسلحته واقواته موفورة [٢]، وانتم لا وَزَرَ [٣] لكم الا سيوفكم، ولا اقوات الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم. وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا [٤] لكم امراً ذهب ريحكم [٥]، وتعوضت القلوب عن رُعبها منكم الجرأة عليكم [٦]. فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة [٧] هذا الطاغية [٨]، فقد القت به اليكم مدينته الحصينة. وان انتهاز الفرصة فيه لممكنٌ ان سمحتم لانفسكم بالموت. واني لم احذركم امراً انا عنه بنجوة [٩]، ولا حملتكم على خطة ارخص متاع فيها النفوس [١٠]. ابدأ بنفسي! واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق [١١] قليلاً استمتعتم بالارفه الالذّ طويلاً. فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي [١٢]، فما حظكم فيه باوفر من حظي. وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة.

١ اضيع من الايتام في مأدبة اللئام: كلمة جارية مجرى المثل تطلق على الانسان اذا وجد في حالة صعبة لا يعرف بها حقه ولا تقدر قيمته كالايتام الذين يتولى امرهم اللئام فيجيعونهم. ٢ موفورة: كثيرة. ٣ وزر: قوة، مساعدة. ٤ تنجزوا: تكملوا، تتمموا. ٥ ذهب ريحكم: ضعفتم. ٦ وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم، اي: فقدتم هيبتكم فتجاسرت القلوب على مهاجمتكم بعد ان كانت تخشاكم.
٧ بمناجزة: بمقاتلة. ٨ الطاغية: الملك الظالم. ٩ انا عنه بنجوة: انا ناجٍ منه.
١٠ خطة ارخص متاع فيها النفوس، اي: خطة حرب يكثر فيها الهلاك. ١١ الاشق: الاصعب.
١٢ لا ترغبوا بانفسكم عن نفسي: لا تفضلوا انفسكم عليّ.

وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك[١] امير المؤمنين من الابطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً واختاناً[٢] ، ثقةً منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم[٣] بمجالدة الابطال[٤] والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله[٥] على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة . والله وليّ إنجادكم[٦] على ما يكون لكم ذكراً في الدارين[٧] .

واعلموا اني اول مجيبٍ الى ما دعوتكم اليه . واني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذريق[٨] فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلكتُ بعده فقد كفيتم امره ولم يعوزكم[٩] بطل عاقل تسندون امركم اليه[١٠] ، وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني[١١] في عزيمتي هذه ، واحملوا بانفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ[١٢] من فتح هذه الجزيرة بقتله .

خطبة الحجاج يوم اشيع خبر موته

الحجاج بن يوسف الثقفي . – هو من كبار الولاة في الدولة الاموية ، جمعت له ولايتا الحجاز والعراق في ايام الخليفتين عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وتوفي سنة ٧١٤ موالياً على القطرين ... كان الحجاج اموي العصبية ، شديد البطش بخصوم الامويين ، فقضى على عبد الله بن الزبير في الحجاز ، ثم نشر على العراق – حين وليه – ظل ارهاب اسود ذهب بحسناته في الادارة والعمران .

فاما الخطابة فيضرب فيها بسهم وافر ، وهو يسلك فيها طريق التهديد والوعيد معتمداً على شعور الخوف في النفوس . وله في تعنيف العراقيين خطب خشنة جافية جداً .

وهذه الخطبة التي نثبتها له تعد في ألطف خطبه لهجة . قال يخاطب اهل العراق وقد بلغه ان بعضهم اشاع نبأ موته :

ان طائفة من اهل العراق، أهل الشقاق والنفاق ، نزغ[١٣] الشيطان بينهم فقالوا : مات

١ الوليد بن عبد الملك : خليفة امويّ بالشام . ٢ اختاناً : جمع ختن ، وهو القريب قرابة بسبب زواج . ٣ استماحكم : بذلكم . ٤ مجالدة الابطال : مقاتلة الابطال . ٥ ثواب الله : مكافأة يكافئه بها الله . ٦ ولي انجادكم : كافل مساعدتكم . ٧ في الدارين : في الدنيا والآخرة . ٨ لذريق : معرّب *Roderique* وهو ملك القوط الذين كانوا يحكمون اسبانيا حين افتتحها العرب . ٩ لم يعوزكم : لم ينقصكم . ١٠ تسندون امركم اليه : تجعلونه قائداً لكم او والياً عليكم . ١١ فاخلفوني : فتابعوا ما بدأت به . ١٢ واكتفوا الهم : انتهوا من هذا الهم وافرغوا منه . ١٣ نزغ : أفسد .

الحجاج



والله ما يسرني ان لا اموت ، وان لي الدنيا وما فيها

الحجاج ومات الحجاج . فمه [١] ! وهل يرجو الحجاج الخير الا بعد الموت؟ والله ما يسرني ان لا اموت ، وأن لي الدنيا وما فيها . وما رأيت الله رضي بالتخليد الا لأهون خلقه عليه : ابليس . ولقد دعا اللهَ العبدُ الصالح فقال : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدي. » فأعطاه ذلك الا البقاء ...

فما عسى ان يكون ، ايها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ! كأني والله بكل حي منكم ميتاً، وبكل رطب يابساً، نُقل في ثياب اكفانه الى ثلاثة اذرع طولاً في ذراع عرضاً ، واكلت الارض لحمه ، ومصت صديده [٢] ، وانصرف الحبيب من وُلْده يُقسّم الخبيث من ماله . ان الذين يعقلون يعلمون ما اقول .

انا والله ما خرجنا اشرا ولا بطرا

وتعدّ هذه الخطبة في اقوى الخطب الحزبية التي انتهت الينا من الأدب العربي القديم . اما صاحبها فزعيم من زعماء الخوارج اشتهر بكنيته : ابي حمزة [٣] وبالدعوة الى عصيان الامويين . وقد دخل الحجاز في اواخر العصر الاموي ، واحتل المدينة ولكن بعدما نشبت بينه وبين اهلها معركة شديدة . فخطبهم هذه الخطبة التي وقف فيها موقف المحامي الحزبي البليغ ، فدافع عن الحركة التي يقوم بها اصحابه ثم خلص الى التنديد باهل المدينة والى قرعهم بالحجة لانهم قاوموه على رغم انهم يرون رأيه ورأي اصحابه في الامويين .

قال ابو حمزة [٤]:

١ مه ، اسم فعل ، بمعنى : كفوا . ٢ الصديد : القيح المختلط بالدم. ٣ سماه الجاحظ في «البيان والتبيين» : يحيى بن المختار بن عوف الازدي . ٤ اقتصرنا من هذه الخطبة على ما يفي بغرضنا

ابو حمزة الخارجي



سألناكم عن ولاتكم هؤلاء

إنا والله ما خرجنا اشراً ولا بطراً ، ولا لهواً ولا لعباً ، ولا لدولة مُلكٍ نريد ان نخوض فيها، ولا لثأر قد نيل منا . ولكن لما رأينا الارض قد اظلمت ، ومعالم الجور قد ظهرت ، وكثر الادعاء في الدين ، وعُمل بالهوى ، وعُطلت الاحكام ، وقُتل القائم بالقسط، وعُنّف القائل بالحق ، سمعنا منادياً ينادي الى الحق والى طريق مستقيم ! فأجبنا داعي الله . فأقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين في الارض . فآوانا الله وايدنا بنصره، فاصبحنا بنعمته اخواناً ، وعلى الدين اعواناً . يا أهل المدينة ، اولكم خيرُ اول ، وآخركم شرّ آخر . كان عدد آبائكم قليلاً طيباً وعددكم كثيرٌ خبيث. اتبعتم الهوى فارداكم. واللهوَ فأسهاكم . ومواعظُ القرآن تزجركم فلا تزدجرون . وتُعبركم فلا تعتبرون . سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء ، فقلتم : والله ما فيهم الذي يَعلمُ . اخذوا المال من غير حله فوضعوه في غير حقه ، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما انزل الله ، واستأثروا بفيئنا فجعلوه دولة بين

الاغنياء منهم . وقلنـا لكم : تعالوا الى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما انزل الله . فقلتم : لا نقوى على ذلك ، ووددنا انّا اصبنا من يكفينـا . فقلنا : نحن نكفيكم ، ثم الله راعٍ علينا وعليكم . ان ظفرنا لنعطينّ كل ذي حق حقه . فجئنا فاتقينا الرماح بصدورنا والسيوف بوجوهنا ، فعرضتم لنـا دونهم فقاتلتمونا فأبعدكم الله . فوالله لو قلتم : لا نعرف الذي تقول ولا نعلمه ، لكان اعذر مع انه لا عُذر للجاهل . ولكن ابى الله الا ان ينطق بالحق على ألسنتكم ويأخذكم به في الآخرة .

حاشية وتمرين : اقتباس الالفاظ والعبارات الجميلة .

في كل هذه الخطب التي قرأتها ، لا شك انك وقعت على الفاظ وعبارات تؤدي معاني عادية، ولكن الالفاظ والعبارات نفسها جميلة . قال علي بن ابي طالب في الخطبة التي جعلنا عنوانها « لا رأي لمن لا يطاع » : فاذا امرتكم بالمسير اليهم في ايام الحر قلتم : حمارة القيظ ، امهلنا حتى ينسلخ عنا الحر ، واذا امرتكم بالمسير اليهم ضحى في الشتاء قلتم : امهلنا حتى ينسلخ عنا هذا القر . . .

فانت تعلم ان الحر يكون شديداً في الصيف ولكنك لا تعرف ان تقول: حمارة القيظ . وتعلم ان الحر والقر يذهبان ويخفان في اوقات من السنة ، ولكنك لا تعرف ان تقول : ينسلخ الحر وينسلخ القر .

فانظر ، اذاً ، في هذه الخطب التي قرأتها واجمع ما تراه فيها جميلاً من الالفـاظ والعبارات ، كقول علي : ثقل عليكم قولي فـاتخذتموه وراءكم ظهرياً ، وقوله : جرعتموني الموت انفاساً . وقول خطبة طارق : وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم .

ثم لا شك انك لحظت في هذه الخطب عبارات جميلة بمعانيهـــا ، يصح ان تجري مجرى الامثال ، لما انطوت عليه من حكمة ، كقول علي : ما غزي قوم قط في عقر دارهم الا ذلوا ، وقوله : لا رأي لمن لا يطاع ، وقول خطبة طارق : « اضْيَعُ من الايتام في مأدبة اللئام . فاجمع هذه العبارات كذلك ، واثبت معانيها .

مثلاه في المناظرات

بين المرابض والمرابط



احمد فارس الشدياق [١]

في السنة ١٨٧١ على عهد الاتراك العثمانيين ، توفي في بيروت الشيخ ناصيف اليازجي ، وكان علماً من اعلام النهضة الحديثة : شاعراً وكاتباً ولغوياً،انشأ سِفراً في المقامات سماه: « مجمع البحرين » . فنظم احمد فارس الشدياق ، صاحب جريدة «الجوائب» في الاستانة (اسطنبول) ، قصيدة رثاه بها وقدم لها بفصل تناول فيه ما رأى ان الشيخ ناصيف قد وقع به من هفوات في « مجمع البحرين » . فانبرى الشيخ ابراهيم اليازجي—وهو ابن الشيخ ناصيف— فرد على الشدياق بفصل نشره في مجلة «الجنان» لصاحبها المعلم بطرس البستاني مؤلف: «محيط المحيط» المعجم الشهير . فأدى الامر الى نشوب مناظرة لغوية عنيفة كان لها صداها البعيد

١ أحمد فارس الشدياق (١٢١٩ – ١٣٠٤هـ) (١٨٠٤ – ١٨٨٧م) كاتب لغوي شاعر من أكبر أدباء عصر النهضة . وُلِد في قرية الحدث ، قرب بيروت ، في عائلة مسيحية . وأقام زمناً في مصر حيث أتقن اللغة والادب . ورحل الى جزيرة مالطة ، ثم سافر الى اوروبا ، ومنها الى تونس وفيها اعتنق الاسلام .ثم انتقل الى الاستانة حيث اصدر جريدة « الجوائب » وهي من اقدم الصحف العربية . وللشدياق آثار كثيرة مطبوعة أهمها «الساق على الساق في ما هو الفارياق» و «الواسطة في اخبار مالطة» و « كشف المخبا عن فنون أوروبا» وجميعها من أدب الرحلات . وله أيضاً « الجاسوس على القاموس » و « سر الليال في القلب والابدال » ، وهما ابحاث في موضوع اللغة . وشعره غزير كثير ، الا أنه لم يطبع في ديوان . وكانت وفاته في الآستانة . ومنها نقل رفاته الى بيروت ودفن في احدى ضواحيها : الحازمية ، وقد شيد له فيها ضريح . وعُرف الشدياق بالنكتة اللاذعة واللهجة الحادة والمقدرة اللغوية .

في ذلك الوقت . وللشيخ ابراهيم يومئذ اربع وعشرون سنة ، وللشدياق ست وسبعون .

وفيما يلي شيء من تلك المناظرة يتعلق بلفظتي « المرابض » و « المرابط » . وقد كان ابتداء المناظرة بخلاف في لفظة المرابض : هل تستعمل للخيل كما وردت في شعر للشيخ ناصيف ، ام ان استعمالها مقصور على الغنم ، والخيل لا تستعمل لها الا المرابط .

قال الشدياق : كتب ابراهيم اليازجي مقالة خطأني بها فيما أوردته على لفظة « المرابض » . ثم انتقل منها الى تخطئة بعض ألفاظ وردت في مقدمة « سر الليال » . وحيث كان وصولُ مقالته الي وانا اطوف البلادَ لتبديل الهواء لم يهمني الرد عليه وتخطئته فيما خطأني به ولاسيما ان تخطئته كانت ظاهرة من عين كلامه لانه كله مبني على المغالطة [1] والتمويه [2] ، وهو صفة كثير من أمثاله الذين زببوا قبل ان يحصرموا [3] . الا اني لما استقر بي المقام ورأيت الجوابَ عن سفسطةِ [4] المذكورِ اولى من السكوت ...

قال في لفظة المرابض : « ان تخصيصي لها بالغنم وَهْم ، وان الصحيح انها عامة تتناول جميعَ الدابة ، لانه يقال : ربضت الدابة . » والجواب ان كلامَه كله في هذه اللفظة خلطٌ . فان العرب كثيراً ما تفرد [5] اسم المكان بمعنى مخصوص من معاني الفعل المتعددة ، وذلك لكثرة استعمالها له . فمن ذلك لفظة « المحافل » ، فانها لا تُستعمل عند الاطلاق الا بمعنى المجالس التي يحفل فيها القوم ، أي : يجتمعون . مع انه يقال « حفل الماء » كما يقال « حفل القوم » . ومن هذا القبيل لفظة المرابض . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : صلوا في مرابض الغنم ولا تصلوا في اعطان الابل [6] . وقال صاحبُ « الصحاح » : المرابضُ للغنم كالمعاطن للابل . فانت ترى ان أئِمة [7] اللغة خصوا المرابض بالغنم .

اما اعتراض اليازجي على قولي في مقدمة « سر الليال » : « فلهذا كان أقصى همي ان أغوص في بحر هذه اللغة على دراري اسباب هذه الالفاظ » فان « الدراري » غلط وصوابُها الدرَر . فالجواب : اني ذكرت في آخر « سر الليال » اني سأبين الغلطَ الذي وقع فيه في جدولٍ مخصوص بعد ختام الكتاب بأسره ، اذ لم تكن لي فرصة لجمع ما كان يطبع منه ...

١ المغالطة: هي الاستمرار في التشبث بالخطأ مع وضوح الحقيقة. ٢ التمويه: محاولة اخفاء الحق بالباطل. ٣ زببوا قبل ان يحصرموا : يضرب مثلاً للذين يتجاوزون حدهم مثل حبوب العنب التي تصبح زبيباً (أي: تيبس) قبل ان تصبح حصرماً. ٤ السفسطة : تلفيق الحجج . ٥ تفرد: تعين ، تخصص . ٦ اعطان الابل : زوائبها . ٧ ائمة : جمع امام.

ومن خطأ (اليازجي) قوله (في ختام ردِّه علي) : « إن أبي قد حفظ له ذلك زمناً يُنيفُ عن ستين سنة »، والصواب : « ينيف على ستين سنة » . فمن كان رأس ماله من العربية هذا المقدار فليسكت ...

فكتب الشيخ ابراهيم يرد عليه: قد علم الاكثرون ما وقع بيني وبين أحمد افندي فارس الشدياق بسبب ما أورده في صحيفة « الجوائب » من الاعتراض على ابي رحمه الله . فكأنما اوغر ذلك صدره [١] و كبر عليه أمر تخطئتي له. فأخذ في الوعيد والتنديد[٢]، وعدل الى المسافهة والمهاترة [٣] . ولقد كنت أحسب ان تمادي الايام قد حان له ان يهذب من أخلاقه . وكان الاولى ان اقتصر [٤] عن الاجابة ، ولكن لئلا تتوهم بي ظنة القصور لم اجد بدّاً من ان أجيبه هذه المرة ، فأقول :

واما مسألة المرابض التي لم يزل مُصرّاً على رأيه فيها فغاية في الغرابة . ولعمري لم ارَ احداً من علماء الصرف او اللغة نبّه على ان اسم المكان يُبنى من الفعل في احد معانيه دون سائرها. فان الضرْب مثلاً وضَرَب ويَضْرِب واضْرِبْ والضارِب والمضروب والمِضْرَب وهلمّ جراً ، كلها من معنى واحد . والصحيحُ ان ما توهّمه في لفظة المحافل انما هو في مادة « الحَفْل » بأسرها ، وذلك ان الحفل في الانسان أشهرُ واكثرُ استعمالاً منه في الماء .

واما النصوص التي أوردها دلائلَ على صحة دعواه فلا تُغني عنه شيئاً [٥] بل انما تؤذن [٦] بصحة كلامي . لان عبارة الحديث : « صلوا في مرابض الغنم ولا تصلوا في اعطان الابل » لا تنفي اطلاق المرابض على سائر الدابة . على ان الأعطان ايضاً لا تختص بالابل كما صرحت كتب اللغة . ففي الصحاح: تقول هذا عَطَنُ الغنم ومَعطِنُها لمربضها حول الماء...

السيف والقلم يتناظران

جمال الدين بن نباتة المصري ، صاحب هذه المناظرة الخيالية بين السيف والقلم ، شاعر وكاتب شهير في اعصر الانحطاط : القرن الرابع عشر الميلادي . كان مولده في القاهرة ايام سلطان المماليك، الملك المنصور قلاوون، ثم رحل الى سوريا فمكث

١ اوغر صدره : ملأه غيظاً . ٢ التنديد : التقبيح . ٣ المسافهة : ارسال الكلام السفيه . المهاترة : ارسال الكلام السخيف . ٤ اقتصر عن الشيء : امتنع وكف . ٥ لا تغني عنه شيئاً : لا تفيده . ٦ تؤذن : تشهد.

مدة في دمشق عاد بعدها الى مصر ، ومات شيخاً طاعناً في السن .

قال ابن نباتة بلسان السيف والقلم في هذه المناظرة الطريفة :

... فانحرف « القلم » الى السيف وقال : ايها المعتز بطبعه [١] ، المغتر بلمعه ... اتفاخرني وانا للوصل وانت للقطع ؟ وانا للعطاء وانت للمنع ؟ وانا للصلح وانت للضراب [٢] ؟ وانا للعمارة وانت للخراب ؟... ما اشنع يوماً ترى فيه العيون وجهك !.. فقد تعديت حدك وطلبت ما لم تبلغ به جهدك . هيهات ! انا المنتصب لمصالح الدول [٣] وانت في الغمد طريح . والمتعب في تمهيدها وانت غافلٌ مستريح . والساعي في تدبير حال القوم ، والمفني لنفعهم العمرَ اذا كان نفعك يوماً او بعض يوم ... اين بطشك من حلمي وجهلك من علمي ؟ وكم شكوت الصدأ فسُقيت ولكن بشواظ من نار [٤] ، واخنت عليك الايام [٥] حتى انتعل بابعاضك الحمار [٦] .

فعند ذلك وثب السيف وقال : ايها المتحرش بي فهو كما تقول العامة : ذنبه قشٌّ ويحترش بالنار ! اولست الذي طالما ارعش السيف لهيبة عطفك [٧] . ونكّس للخدمة رأسك وطرفك [٨] . وأمر بعض رعيته وهو السكين فقطع قفاك وشق انفك ... ان عاينت الديوان [٩] وقعت في الحساب والعذاب . او البلاغة سحرت وبالغت فأنت ساحر كذاب . او فخرت بتقييد العلوم فما بك منها سوى لمحة الطرف . وهل انت الا ساعٍ على رأسه فلمّا أجدى [١٠] ؟.. كم خرجت من دواتك لتسطير سيئة فخرجت كما قيل من ظلمة الى ظلمة . فلو جريت خلفي الى ان تُحفى [١١] ، وصحت بصريرك [١٢] الى ان تحفت وتخفى ، لما كنت مني الا بمنزلة المدرة [١٣] من السماك [١٤] ...

١ الطبع ، هنا ، من قولهم : طبع السيف ، اي : اتمّ صنعه . ٢ الضراب ، مصدر ضارب ، هو القتال ٣ المنتصب لمصالح الدول : القائم بها . ٤ شواظ النار : لهبها . ٥ اخنت عليك الايام : جارت وتغيرت عليك فاهانتك . ٦ انتعل بابعاضك الحمار : اشارة الى ان نعال الحمير تصنع من الحديد القديم . ٧ عطفك : جانبك ٨ طرفك : عينك . ٩ عاينت : نظرت ، والديوان يقصد به هنا : ديوان مصالح الدولة . ١٠ ساع على رأسه : اشارة الى ان القلم يمشي في الكتابة على رأسه . واجدى : جمع المال واثرى . ١١ الى ان تحفى : الى ان يزول رأسك من كثرة الكتابة . ١٢ الصرير : صوت القلم على القرطاس . ١٣ المدرة : الطين ، الوحل في الارض . ١٤ السماك : نجم في السماء .

امثلة على الرسائل

اشقى الولاة من شقيت به رعيته

عمر بن الخطاب . — هو ثاني الخلفاء الراشدين ، ولي الحكم سنة ٦٣٤ م (١٣ هـ)، وفي ايامه تمت الفتوحات العظيمة ، التي استولى بها العرب المسلمون على ملك الاكاسرة جملة وانتزعوا سوريا من البيزنطيين واحتلوا فلسطين ومصر وتوغلوا في الشمال الافريقي. فكان ينبغي لعمر ان يحكم دولة جديدة على ضوء من قواعد جديدة مثلها الاسلام، ولم يكن له ولا للعرب سابق عهد بتدبير مثل هذه الاقطار الواسعة. فانصرف الى اقامة دعائم الدولة وكان في رأس الشؤون التي عني بها القضاء . ويلقب عمر بالفاروق، اي : المفرق بين الحق والباطل ، وهو بلا ريب من كبار مؤسسي الدول في التاريخ . كان يتفقد بنفسه ما يستطيع ان يتفقد من شؤون الرعية، كما كان بنفسه يشرف على سلوك الولاة والقضاة الذين يوليهم الامصار، فيعزلهم او يؤنبهم اذا رابه من سيرتهم امر ، وربما بعث اليهم برسائل يسدد بها خطاهم وينتقدهم .

والرسالة التالية قد بعث بها عمر الى ابي موسى الاشعري ، وهي تدخل في نوع الرسائل العامة، ويلحظ انها تبدأ بـ «اما بعد » ، على نحو الخطب ، وتنتهي بالسلام ، ولكنها تختلف عن الخطبة في انها موجهة لفرد ، وفي ان انشاءها على بلاغته بسيط اريد للمطالعة وتأمل معانيه لا للسماع والتأثر بحدته :

اما بعد ، فان للناس نفرة من سلطانهم ، فاحذر ان تدركني واياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة ، واهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة . فأقم الحدود ولو ساعة من النهار . واذا عرض لك امران ، احدهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى .

افتح بابك للرعية وباشر امرهم بنفسك ، فانما انت امرؤ منهم ، غير ان الله جعلك اثقلهم حملا .

وقد بلغ اميرَ المؤمنين انه فشت[١] لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك،

١ فشت : انتشرت ، ظهرت .

ليس للمسلمين مثلها . فاياك يا عبد الله [١] ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرّت بواد خصب ، فلم يكن لها همٌّ الا السِّمَن ، وانما حتفها في السمن . واعلم ان للعامل مردّاً الى الله ، فاذا زاغ زاغت رعيته . وان اشقى الناس من شقيت به رعيته ، والسلام .

تنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب

عبد الحميد بن يحيى (؟ – ١٣٢ هـ) (؟ – ٧٤٩ م) طليعة الكتّاب والمترسلين [٢] باللغة العربية ، وان يكن غير عربي الاصل . تعاطى حرفة التعليم في مدُن الشام وقراها ، ثم اتصل بالامير الاموي مروان بن محمد وهو والي الدولة على ارمينية ، فصحبه وعمل كاتباً له ، حتى اذا صارت الخلافة اليه جعله رئيس الدواوين . وكانت لغة هذه الدواوين قد حُولت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الى العربية بعدما كانت فارسية ورومية وقبطية . فظهر عددٌ من الكتّاب بالعربية يعملون في الدواوين . فكتب عبدُ الحميد رسالته اليهم يوصيهم باتقان علوم لا بد لهم منها في صناعتهم ، ويحثهم على سجايا ينبغي لهم التخلق بها وينهاهم عن عيوب يجب تركها . وابث عبد الحميد وفياً لمروان ودولة بني أمية حين ثار عليها العباسيون . ورافق مروان في هزائمه حتى قُتل مروان في مصر . فلجأ عبد الحميد الى صديقه عبد الله بن المقفع الكاتب الشهير الذي هيّأ كتاب كليلة ودمنة . واختبأ عبد الحميد في دار صديقه ، ولكن شرطة العباسيين طاردته حتى عرفت مقره فأخذته وقتلته في السنة التي سقط فيها الامويون .

وقد ذكرنا ان عبد الحميد يوصف بانه « اول من فتقَ اكمام البلاغة » والمعنى انه اول من اطال الكتابة باللغة العربية مع الاجادة .

قال عبد الحميد :

اما بعدُ ، حفظكم الله يا اهل صناعة الكتابة وحاطكم [٣] ووفقكم وأرشدكم ... بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها . لا يستغني الملِكُ عنكم ولا يوجد كافٍ [٤] الا منكم . فموقعكم [٥] من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون وابصارهم التي بها يُبصرون وألسنتهم التي بها يَنطقون وأيديهم التي بها يبطشون ...

١ عبد الله : اسم ابي موسى الاشعري. ٢ المترسل : كاتب الرسائل . ٣ حاطكم ، بمعنى : حفظكم . ٤ كافٍ : ناهض ينهض بالاعمال والحاجات . ٥ موقعكم : مكانكم .

وليس احدٌ من اهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال[١] الخير المحمودة وخصال الفضل المعدودة منكم ايها الكتّاب... فان الكاتب يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مُهمات اموره[٢] ان يكون مؤثراً[٣] للعفاف والعدل والانصاف ، كتوماً للاسرار ، وفياً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل[٤] ... قد نظر في كل فن من فنون العلم فاحكمه وان لم يحكمه اخذ منه بمقدار ما يكتفي[٥] به بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما[٦] يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ...

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب . وتفقهوا[٧] في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ ، والفرائض[٨] ، ثم العربية[٩] فانها ثقاف[١٠] ألسنتكم . ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام[١١] العرب والعجم واحاديثها وسِيَرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم . ولا تضيّعوا النظر في الحساب فانه قوام كتّاب الخراج.

واربأوا بانفسكم[١٢] عن السعاية[١٣] والنميمة وما فيه اهل الجهالات . واياكم والكِبْر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير إحنة[١٤] . وتحابّوا في الله عزّ وجلّ في صناعتكم ... وان نبا الزمان[١٥] برجل منكم فاعطفوا عليه وآسوه[١٦] حتى يرجع اليه حاله ويثوب[١٧] اليه امره . وان أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظّموه وشاوروه واستظهروا[١٨] بفضل تجربته وقديم معرفته...

واذا وُلي الرجل منكم او صُير اليه من امر خلق الله وعياله امرٌ فليراقب الله[١٩] عزّ وجل وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً، فان الخلق عيال الله ، واحبهم اليه ارفقهم بعياله ...

واذا صحب احدكم رجلًا فليختبر خلائقه . فاذا عرف حُسنها وقبحها اعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة واجمل وسيلة . وقد علمتم ان

١ الخلال : الاخلاق الحسنة . ٢ مهات الامور: هي الامور الخطيرة . ٣ مؤثراً: مفضلاً . ٤ النوازل : المصائب . ٥ يكتفي : يتقي . ٦ ما : اسم موصول وعلها هنا من الاعراب مفعول به من فعل يكتفي ، اي : يتقي . ٧ تفقّهوا : تعلموا . ٨ فرائض الدين : هي واجباته وقواعده . ٩ العربية، أي: اللغة العربية. ١٠ الثقاف: هو المقوّم والمهذّب. ١١ الايام، هنا، بمعنى: المعارك . ١٢ واربأوا بانفسكم: ترفّعوا بانفسكم . ١٣ السعاية: هي السعي بالشر والفساد . ١٤ الاحنة : سبب العداوة . ١٥ نبا الزمان : تغيّر الزمان وقسا وجار . ١٦ آسوه : اسعفوه . ١٧ يثوب : يعود ، يرجع . ١٨ : استظهروا : استعينوا . ١٩ فليراقب الله : فليراع الله وليخفه .

سائس البهيمة — اذا كان بصيراً بسياستها — التمس معرفة اخلاقها ، فان كانت رَموحاً [١] لم يهجها [٢] اذا ركبها ، وان كانت شبوباً [٣] اتقاها من بين يديها ، وان خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها، وان كانت حروناً قمع برفق هواها في طرقها . فان استمرت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها [٤] . وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم .

ولا يُجاوزنّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره قدر حقه ... واحذروا متالف السرف [٥] وسوء عاقبة الترف، فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان اهلها ولاسيما الكتّاب وارباب الآداب.

ولا يقلْ احدٌ منكم انه ابصر بالامور واحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته ، فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب من رمى بالعجب وراء ظهره ، ورأى ان اصحابه اعقل منه واحمدُ في طريقته. وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله، جلّ ثناؤه، من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه [٦]، ولا يكاثر على اخيه [٧] او نظيره وصاحبه وعشيره .

من عاقب فقد اخذ حظه

وهذه رسالة لابي عثمان الجاحظ ، اديب العصر العباسي الثاني ، تصح مثالاً بديعاً على الرسائل الادبية الخاصة ، وهي التي تتعلق بقضية شخصية . كتب الجاحظ الى احدهم معتذراً عن ذنب ، قال :

من عاقب فقد اخذ حظه . وانما الأجر في الآخرة وطيب الذكر في الدنيا على قدر الاحتمال وتجرّع المرائر [٨] . وما اكثر من يعفو عمن صغر ذنبه وعظم حقه . وانما الفضل والثناء :العفو عن عظيم الجرم، وضعيف الحرمة . ولا مَثَلكم [٩] الا كمثل عيسى بن مريم حين كان لا يمرّ بملأٍ من بني اسرائيل الا اسمعوه شراً ، واسمعهم خيراً . فقال :« كل

١ الرموح: من الدواب هي التي ترفس. ٢ لم يهجها : لم يهيّجها . ٣ الشبوب : من الدواب هي التي تعلو بيديها في الهواء . ٤ يسلس له قيادها ، أي : تنقاد له بسهولة . ٥ متالف السرف: هي المهالك التي تذهب بالمال لكثرة النفقة. ٦ تزكية النفس: هي ان يزعم المرء انه دائماً على حق. ٧ ولا يكاثر على اخيه : ولا يفتخر عليه . ٨ تجرع المرائر : شرب الشراب المر ، والكلام هنا كناية عن صبر الانسان على ما لا يعجبه من مسلك اصدقائه . ٩ ولا مثلكم: وما مثلكم ، وليس مثلكم.

امرىء ينفق مما عنده . » وليس عندكم الا الخير ، ولا في اوعيتكم الا الرحمة . وكل اناء بالذي فيه ينضح .

انت ولدي ما دمت مجتهدا

ومن ألطف الرسائل واوجزها ما كتبه اديب العصر العباسي الثالث : بديع الزمان الهمذاني الى ابن اخته وكان صغيراً طالب علم ، قال بديع الزمان :

انت ولدي ما دمت والعلم شانك ، والمدرسة مكانك ، والمحبرة حليفك ، والدفتر اليفك، فان قصرت ، ولا إخالك [1] ، فغيري خالك .

[1] لا اخالك : لا احسك ، والمراد : لا احسبك مقصراً .

امثلة على الوصايا

لا تقوين سلطانك بسفك دم

كان للخليفة علي بن ابي طالب قائد اسمه الاشتر النخعي ، عهـد اليه بالولاية على مصر وزوده وصية شهيرة قال فيها :

إياك والدماء وسفكها بغير حلها . فانه ليس شيء ادعى لنقمة ، ولا اعظم لتبعة ، ولا احرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها . والله سبحانه يتولى الحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة . فلا تقوينّ سلطانك بسفك دم حرام فان ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ...

لا تكن عبداً وقد جعلك الله حرا

ومن وصايا علي بن ابي طالب الشهيرة ، وصيته لابنه الحسن ، قال فيها :

يا بُني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك . فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك . واكره له ما تكره لها . ولا تظلم كما لا تحب ان تُظلم . وأحسن كما تحب ان يُحسَن اليك . واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك . وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك . ولا تقل ما لا تعلم وان قلّ ما تعلم . ولا تقل ما لا تحب ان يقال لك ... ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً ... وحفظ ما في يديك أحب اليّ من طلب ما في يد غيرك ...

ان رأيت من له عقل ومروءة فاستفد منه

ابن سعيد المغربي . — اديب ورحالة اندلسي شهير ، ولد في مدينة غرناطة سنة ١٢١٤ م (٦١٠ هـ) ورحل رحلة بعيدة زار في اثنائها مصر وسوريا والعراق ، وتوفي في دمشق سنة ١٢٧٤ م (٦٧٣ هـ). وكان لابن سعيد ولد عزم يوماً على سفر فأنشأ له والده وصية بلغت في الشهرة مبلغاً عظيماً لما حوت من نضج تفكير .

قال ابن سعيد :

يا بني الذي لا ناصح له مثلي ولا منصوح لي مثله ...

استمع الى ما خلّفه الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الاقوال فانها خلاصة عمرهم وزبدة تجاربهم ، ولا تتكل على عقلك ، فان النظر فيما تعبَ فيه الناس طول اعمارهم ، وابتاعوه غالياً بتجاربهم ، يُرْبحك ويقع عليك رخيصاً . وان رأيت من له عقل ومروءة وتجربة ، فاستفد منه ، ولا تضيّع قوله ولا فعله ، فان فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك وحثاً لك واهتداءً .

وليس كل ما تسمع من اقوال الشعراء يحسن بك ان تتّبعه حتى تتدبره . فان كان موافقاً لعقلك ، مصلحاً لحالك ، فراع ذلك عندك ، والا فانبذه نبذ النواة ، فليس لكل احد يُتبسم ، ولا كل شخص يُكلم ، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يعامل به كل احد .

واياك ان تعطي من نفسك الا بقدر . فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء [1] ، ولا الكفء بمعاملة الاعلى . ولا تضيع عمرك في من يعاملك بالمطامع ويُثيبك [2] على مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة [3] . ولا تجفُ الناس بالجملة [4] .

ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك ان لا تُبيّنه ، فـــان الكلام سلاح السلم ، وبالأنين يُعرف ألم الجرح .

واجعل لكل امر اخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك .

الافكار تجلب الهموم وتضاعف الغموم . وملازمة القطوب عنوان المصائب والخطوب ، يستريب به [5] الصاحب ويشمت به العدو والمجانب ، ولا تضرّ بالوساوس الا نفسك لانك تنصر بها الدهر عليك ... ولقد شهدت بغرناطة شخصاً قد الفته الهموم ، وعشقته الغموم ، ومن صغره الى كبره لا تراه ابداً خلياً من فكرة ، حتى لقب بـ « صدر الهم » . ومن اعجب ما رأيته منه انه يتنكد في الشدة ، ولا يتعلل [6] بان يكون بعدها فرج ، ويتنكد في الرخاء خوفاً من ان لا يدوم ... ومثل هذا عمره محسور يمر ضياعاً .

ولا يُفسد خاطرك من جعل يذم الزمان واهله ، ويقول : ما بقي في الدنيا كريم ، ولا فاضل ، ولا مكان يُرتاح فيه . فان الذين تراهم على هذه الصفة اكثر ما يكونون ممن صحبهم الحرمان ، واستحقت طلعتهم الهوان ، وابرموا على الناس بالسؤال [7] فمقتوهم ، وعجزوا عن طلب الامور من وجوهها فاستراحوا الى الوقوع في النـــاس ، واقاموا الاعذار لانفسهم بقطع اسبابهم .

[1] الكفء : المساوي ، النظير . [2] يثيبك : يكافئك . [3] بغائبة آجلة ، اي : بمصلحة تقضى لك فيما بعد . [4] ولا تجف الناس : ولا تعاملهم بالجفاء . [5] هذا الضمير عائد الى « عنوان » في قوله : عنوان المصائب . [6] لا يتعلل : لا يتعزى . [7] ابرموا على الناس بالسؤال : الحوا عليهم بالسؤال حتى اضجروهم واملوهم .

والامثال تُضرب لذي اللب الحكيم ، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم . والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير . والله سبحانه خليفتي عليك[١] لا رب سواه .

وصية اعرابية لابنتها حين زواجها

وُنقل عن احدى الاعرابيات انها جعلت تقول لابنتها يوم زُوّجت:

أي بُنيّة ، انكِ فارقتِ الجوّ الذي منه خرجتِ ، وخلّفتِ العشّ الذي فيه درجتِ الى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه . فاحملي عني عشر خصالٍ تكن لك ذخراً وذكراً :

الصحبةَ بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة . والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموقع انفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك الا طيبَ ريح ، والماء أطيب الطيب . والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عنه عند منامه . والاحتفاظ ببيته وماله . والارعاء[٢] على نفسه وحشمه وعياله . ولا تفشي له سراً ، ولا تعصي له امراً . ثم اتقي الفرح ان كان ترحاً[٣]، والاكتئاب عنده ان كان فرحاً . وكوني له مُعظّمة يكن لك مكرّماً .

واعلمي انك لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببتِ او كرهتِ . والله يخير لك[٤] .

انشاء ادبي

قال ابن سعيد المغربي في وصيته لابنه : « ليس كل ما تسمع من اقوال الشعراء يحسن بك ان تتبعه حتى تتدبره ... ولا يفسد خاطرك من جعل يذمّ الزمان واهله ويقول : ما بقي في الدنيا كريم ، ولا فاضل ، ولا مكان يرتاح فيه . »

لماذا حذّر ابن سعيد ولده ذلك التحذير من تصديق معاني الشعراء كلها ؟ وهل ترى انه انصفهم ؟ وهل للعبارة المتعلقة بذم الزمان صلة بالشعراء ؟ اكتب انشاء في الموضوع .

١ خليفتي عليك : يقوم مقامي في حفظك. ٢ الارعاء على الشيء : حفظه ووقايته. ٣ ترحاً : حزيناً ، اثيماً . ٤ يخير لك : يجعل الخير في امرك .

٢ ـ اشهر فنون النثر في الأدب

القصة .ـ وقد نشأت نثراً خطابياً ، أي : نثراً آلته اللسان ، وهي من اقدم انتاج باللغة العربية يصح ان نسميه أدباً . فالذي يحتمله العقل ، ولا يحتمل عكسه ، ان العرب ـ شأنهم شأن غيرهم من الشعوب ـ قد عقدوا المجالس في جاهليتهم وقد استمعوا فيها الى محدثين يحدثون بما كان من اخبار قبيلتهم او القبائل الاخرى ، وبما كان من اثر تلك الدول التي انطوت مع عصر الجاهلية الاولى . نعني ان القصة قد اقترنت في نشأتها بحفظ هذه الاخبار التي نسميها تاريخاً . ثم اخذ حفّاظ الاخبار التاريخية يتفننون في روايتها ، ويتفننون كذلك في حوادثها ، أي : يخترعون قصصاً .

ولكن القصّاص لم تكن له منزلة تذكر في جنب ما للشاعر والخطيب . والقصة ـ الا ما كان منها مثلاً ـ تستدعي الطول، وليس يتفق فيها من قوالب الكلام ما يتفق من وزن وقافية في الشعر ، بل ليس يتفق فيها مع ارتجالها ما يتفق في الخطبة المرتجلة من سجع .

ولذلك كانت القصة اذا نقلت باللسان اقرب الى ان يتغير نصها مع كل راوٍ يرويها .

ومن هنا يستحيل القول بان لدينا قصصاً عربية يمكن الاعتماد على صحة نسبتها بنصها الى الجاهلية .

فاذا أردنا اقدم اثر عربي يتمثل فيه الفن القصصي ، فعلينا ان نعود الى القرآن ، الى الكتاب الذي كان نزوله اعظم حادثة في النثر العربي .

اقدم قصة عربية هي القصة الدينية : وهكذا يكون **اقدم نوع من القصص نعرفه في الادب العربي هو القصص الديني** الذي يُقصد به الى العظة والعبرة . وقد اتسع هذا النوع من القصص في عهد الراشدين ، واشتهر به قصّاص يسمى تميم الداري .

ثم ازداد اتساعاً في العصر الاموي ، فظهرت طائفة من القصاصين تروي القصص الديني في المساجد . وبعد ذلك ازدهر هذا النوع ازدهاراً عظيماً على هامش تفسير القرآن الكريم ، وصار فناً كتابياً ، وأصبح المؤلفون يضعون الكتب المخصوصة بقصص الانبياء والصالحين.

القصة التاريخية: على ان نوعاً آخر من القصص ما لبث ان عـاد الى الظهور ، وذلك هو القصص التاريخي الذي لا يتصل بالدين . ونقول : عاد الى الظهور ، لان العقل يقضي بانه

كان معروفاً في الجاهلية ، وكانت القبائل تودعه اخبار وقائعها واخبار الدول الذاهبة وملوكها .

ونحن نسمع في العصر الاموي بقصّاص تاريخي مشهور اسمه عَبيد بن شرية ، صرف عنايته الى القصص المتصلة بعرب الجنوب خاصة .

وفي العصر الاموي، كذلك ، بدأ يظهر الرواة الادبيون وطليعتهم حماد الراوية ، الذي سبق معنا ذكره . وهؤلاء الرواة الادبيون كانوا قصاصين ايضاً يروون القصص من سيَر الشعراء الذين حفظوا شعرهم .

وعلى هذا ، تكون القصة العربية قد نشأت خبراً دينياً وخبراً تاريخياً مما يتصل بقدماء الملوك او بابطال القبائل وشعرائها وخطبائها ، خبراً يؤدى باللسان من وعاء الحافظة .

فأما المرحلة الثانية فكانت تدوين هذه القصة ، اي : نقلها من اللسان الى القلم .

القصة المولـّدة : وأما النوع الآخر من القصة ، ونعني القصة المولـّدة التي يصطنعها صاحبها من مادة اخترع فيها الحوادث والاشخاص اختراعاً ، فلم تزدهر في النثر العربي الا بعد قيام العباسيين . وكان زعيماها اديبين شهيرين هما : ابن المقفع ، في العصر العباسي الاول ، وابو عثمان الجاحظ ، في العصر العباسي الثاني .

واشتهر **ابن المقفع** بنوع القصة التي تسمى مثلاً ، ويكون اشخاصها من بشر حيناً ومن طير وبهائم في اكثر الاحيان تنزل منزلة البشر ، فتنطق مثلهم وتعقل مثلهم ، ويعرض لها في حياتها ما يعرض للبشر من شعور وتفكير . وابن المقفع قد نقل هذا النوع من القصة لان كتابه « كليلة ودمنة » معرّب عن اصل فارسي مترجم عن اصل هندي ، ولكن ابن المقفع قد زاد في كليلة ودمنة فصولاً جارى بها الاصل فكان مبتدعاً كما كان متبعاً .

واشتهر **الجاحظ** بنوع القصة المولـّدة التي يصوّر بها اخلاق فئات من الناس في مجتمعه ولاسيما البخلاء واصحاب الاطوار الغريبة في اسلوب الكلام او في الجبن او في التوقر او في غير ذلك . وكان يتتبع حوادثهم ، وربما عمد الى اختراع تلك الحوادث يصوغها في قصص قصيرة يتظرف فيها ما شاء ، فهو سيد من كتب النادرة والفكاهة في الادب العربي يتوخى بها الضحك والاضحاك ، ويتوخى النقد والتعليم كذلك ، ولكن قلما يُشعرك بانه يقص عليك ليعظك ، وربما كان مذهبه ان الوعظ في النوادر والفكاهات يفسد الفن .

وهذا النوع الذي أجاده الجاحظ من القصص ، نعني **النوادر** ، قد اتبعه فيه كثيرون في كتابة التاريخ الادبي ونجحوا به نجاحاً باهراً ، ورأس هؤلاء هو ابو الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الاغاني ، في العصر العباسي الثالث . ويختلف ابو الفرج عن الجاحظ في انه يكتب

تاريخاً ، وفي انه لا يقتصر على النوادر والفكاهات، ولكن هذه العناية باخراج بعض الوقائع في سِيَر الشعراء والمغنين اخراجاً قصصياً فنياً دقيق الوصف انما هي عناية الجاحظ نفسها. واذا قارنت بين النادرة التي اثبتناها لابي الفرج الاصبهاني في منتخبات هذا الفصل، والنادرة التي اثبتناها للجاحظ ، وجدت ابا الفرج في كتابته سيرة المغني الشهير ، ابراهيم الموصلي ، قد عمد الى التفنن في القصّ على نحو ما عمد الجاحظ في حكاية ذلك الشيخ النهشلي ، الجبان الظريف .

ثلاثة مجارٍ كبيرة للقصة : وبعد الجاحظ يمكن القول : ان القصة العربية سلكت ثلاثة مجارٍ كبيرة : **القصة التي هي بين قصة وتاريخ** ، على نحو ما نجد في « اغاني » ابي الفرج الاصبهاني ، **والقصة التي هي محض وضع واختراع** . وقد انشعب هذا المجرى الاخير مجريين كبيرين ، فمنه **القصص الشعبي** الذي تمثله الف ليلة وليلة ، ومنه قصص **المقامات** التي اخترعها بديع الزمان الهمذاني . وسيتاح لنا ان نتحدث عن الف ليلة وليلة والمقامات في مكان آخر من هذا الكتاب .

ثم ادغمت القصة التي بين قصة وتاريخ ، بالقصص الشعبي ، فصار كل ما في القصة من تاريخ ان عنوانها اسم تاريخي ولكن مادتها ضئيلة الصلة بالتاريخ او لا صلة لها به ولا بالممكن المعقول من الحوادث ، ومثال ذلك ما نلقى في قصة عنترة وقصة الملك سيف بن ذي يزن .

وعلى هذه الحالة بقيت القصة العربية دهراً طويلاً في اعصر الانحطاط ، فكانت اما قصة شعبية من مثل قصص الف ليلة وليلة وعنترة وسيف بن ذي يزن ، واما قصة من قصص المقامات . والقصة الشعبية تتخلل انشاءها لغة عامية سقيمة ، ونثرها مرسل ، الا في بعض المواقف ولاسيما مطالع وصف المبارزات . والقصة المقامية سجع كلها ، وتكلف كلها ، الا ما كان من مقامات بديع الزمان الهمذاني وبعض مقامات الحريري.

القصة الحديثة : ثم كان الانبعاث والعصر الحديث واتصل مثقفو اللغة العربية ، ولاسيما المثقفون اللبنانيون ، بالآداب الغربية فعرفوا فيها انواعاً من القصص تخالف ما يعرفون من القصص الشعبي والمقامات ، فبدأوا يعربون ويقتبسون من الآداب الغربية ، ثم اخذوا هم انفسهم يضعون القصص، وكان اول ما وضعوه في هذا الباب متصلاً بالتاريخ .

وللصحافة يد على نهضة القصة الحديثة في الادب العربي، فان واضعي القصص وجدوا فيها وسيلة لاتصال مستمر بالشعب لا تضمنه وسيلة الكتاب ، كما وجدت الصحافة في القصص وسيلة فعالة لاستهواء القراء .

واغزر الذين عنوا بتعريب القصص في هذا الدور كان طانيوس عبده [1] منشىء مجلة الراوي ، وقد عرب الكثير من روايات الكاتبين الفرنسيين ميشال زيفاكو وبونسون دي تيرايل .

واغزر الذين عنوا بوضع القصص التاريخي كان جرجي زيدان [2] منشىء مجلة الهلال ، وقد ألف، مع ما ألف، سلسلة شهيرة من روايات في تاريخ العرب والاسلام .

ولعل اهم **تطور نال القصة العربية في هذا الدور هو خلوها من المبالغـات الفجة ، وخلوصها من جو الجان والعفاريت الذي كانت تتردد فيه** . يضاف الى ذلك انها سلكت مجراها الطبيعي من نثر مرسل سهل لا يضعف ضعف العامية ولا يختل اختلالها، ولا يتصنع تصنع سجع المقامات .

خلاصة وتذكير.—وبعد، فقد علمنا ان القصة في اصلها انما هي إخبار بحادثة. والحادثة هذه اما ان يستنبطها الكاتب من وقائع تاريخية او سِيَر اشخاص عُرفوا في التاريخ، فتكون عندئذ قصة تاريخية، واما ان يخترعها الكاتب بحوادثها واشخاصها معتمداً على فنـه وخياله، مستمداً من حياة الناس واخلاقهم ، فتكون عندئذ قصة موضوعة .

ولكن القصة لا يراد بها محض الاخبار ، بل انما يراد الاخبار الفني [3] . وكذلك لا يراد محض الاخبار بحادثة ، بل يراد ما يصحب ذلك من تصوير وتحليل للطبائع البشرية ونقدها وتوجيهها .

وتسمى القصة اسطورة اذا اشتملت على حوادث خارقة للعقل لا يصح فهمها الا بتأويلها، كمغامرات السندباد البحري في الف ليلة وليلة .

١ أنشأ طانيوس عبده مجلة : الراوي ، في بيروت سنة ١٩٠٩ ، ثم انتقل بها الى مصر . ثم عـاد الى لبنان ، وتوفي في بيروت سنة ١٩٢٦ . وكان في اسلوب التعريب ، وفي الروايات التي يختارها للتعريب ، يحرص على ارضاء الجمهور. على انه افاد القصة بأن صرف اذواق كثير من الشعراء عن روايات الجان والعفاريت السخيفة وافاد اللغة بما لين من اسلوبها. وافضل ما ترك طانيوس عبده ديوان شعر فيه مقاطع غنائية ممتازة. ٢ ولد جرجي زيدان سنة ١٨٦١ في بيروت ، وتوفي في مصر سنة ١٩١٤ . ورواياته في تاريخ العرب والاسلام مثل : فتاة غسان ، وعذراء قريش ، والعباسة اخت الرشيد الخ ... عملت في انهاض ذوق العـامة في مطالعة القصص.

٣ واقرب مـا تدرك به معنى الاخبار الفني ان تقرأ هـذا الخبر : «وجد كلب في حي من احياء البصرة باباً مفتوحاً فدخل فيه ، فانصفق الباب وراءه . ولم يكن في المنزل احد الا جارية اتفق ان كانت في خارجه ساعة دخل الكلب، ولم يكن في الحي كله سوى شيخ به جبن، ويدّعي الشجاعة ، غير انه ظريف . فصاحت الجارية : اللص ، اللص ! فاندفع الشيخ يهدد ويتوعد ، ثم يرق ويلين في مخاطبة اللص المزعوم . ولكنه لم يجسر ان يقتحم عليه المـنزل، فضجرت الجارية ودفعت الباب فخرج الكلب هارباً .» اقرأ هذا وقارن بينه وبين ما كتبه الجاحظ في رواية الخبر نفسه .

وتسمى القصة نادرة اذا كانت غريبة يندر وقوعها .

وتسمى فكاهة اذا كانت مضحكة .

وتسمى خرافة اذا دارت على ألسنة الحيوانات واريد بها المثل .

والقصة تأتي قصيرة ، او تطول حتى تستغرق كتاباً بجملته ، *Roman* . والمعاصرون يصطلحون على تسمية هذه القصة الطويلة بالرواية .

وللقصة عناصر اساسية تتركب منها . فالعنصر الاول هو الحادثة التي تبنى عليها القصة . والثاني هو الحيّز الذي تقع فيه . ويراد بالحيّز زمان القصة ومكانها . والعنصر الثالث هو الاشخاص الذين يشتركون فيها . والرابع هو الحبك الذي يحكم ربط القصة بعضها ببعض في سياق منسجم ثابت لا يختل ولا يتناقض . والعنصر الخامس هو المغزى الذي تؤديه القصة .

ثم لا بد في القصة من جودة وصف ينقل القارىء الى حيزها الذي تدور فيه ، ومن عمق تحليل يعرّف القارىء بطبيعة الاشخاص الذين يشتركون فيها ، ومن قدرة على الحوار لتمثيل ما يدور بين هؤلاء الاشخاص (انظر في منتخبات هذا الفصل نادرتين للجاحظ وابي الفرج الاصبهاني وقصة قصيرة للكاتب الحديث مصطفى لطفي المنفلوطي) .

المسرحية . — وهي قصة تُكتب لتمثل . وقد تناولنا في فصل الشعر التمثيلي تعريف التمثيل والمسرحية الشعرية . فالذي يصح هناك يصح هنا . الا ان المسرحية الشعرية تنظم نظماً على الاوزان والقوافي ، فيتحاور اشخاصها وابطالها بالشعر ، بينما المسرحية النثرية تنشأ بالنثر والقاعدة فيه ان يكون نثراً مرسلاً لانه اقرب الى واقع الحوار في الحياة .

والحق ان التأليف المسرحي ، نثراً ، باللغة العربية يعاني مشكلة رئيسية هي مشكلة هذا التفاوت بين العامية والفصحى . فالكاتب المسرحي بالنثر العربي الفصيح مطالب اذاً بان يُنطق اشخاص مسرحيته حواراً يجمع بين الطبيعية وصحة اللغة . فاذا استحال عليه ان يصنع ذلك فأجدر به اللجوء الى العبارة العامية .

والادب العربي القديم خالٍ من المسرحية النثرية خلوه من المسرحية الشعرية سواء بسواء . ولم يدخل هذا الفن على الآداب العربية الا مع الانبعاث والعصر الحديث ، ادخله مارون النقاش ، ونجيب الحداد ، وغيرهما من مثل ابي خليل ، احمد القباني ، واديب اسحاق[1] .

[1] اديب اسحاق : شاعر وكاتب من بلغاء الكتاب في العصر الحديث . ولد في دمشق سنة ١٨٥٦ وانتقل الى بيروت نعرب فيها رواية « اندروماك » عن الشاعر الفرنسي راسين ... ثم سافر الى مصر وفيها لمع نجمه صحافياً ومفكراً داعياً الى الحرية والاصلاح . واضطهدته السلطة فقضى عمره القصير بين وادي النيل وباريس ولبنان واصيب بداء السل ، وتوفي في لبنان سنة ١٨٨٥ . وله آثار مجموعة في كتاب بعنوان : « الدرر » .

والقباني هو اول من احيا التمثيل في سوريا ، فأنشأ مسرحاً في دمشق وبدأ يمثل رواياته سنة ١٨٦٥ م .

(تجد في منتخبات هذا الفصل مختاراً من مسرحية نجيب الحداد: صلاح الدين الايوبي).

الرحلات. — وهي فن آخر من فنون النثر ، يسطر به الكاتب مشاهداته وتأملاته وما اتفق له من حوادث في اثناء السفر . ولا بد في ادب الرحلات من دقة لحظ وحسن وصف وسهولة رواية مع تحري الحقيقة .

والنثر المفضل في ادب الرحلات هو النثر المرسل .

وأشهر كتاب الرحلات في الادب العربي القديم اندلسيون ومغاربة كانوا يسافرون للحج ثم يستطردون في اسفارهم وينتهون بان يكتبوا كتاباً يضمّنونه ما رأوه وسمعوه وما عنّ لهم من خاطر وما لقوا من شدة او رخاء .

على ان المشرقيين لم يعدموا رحالين، ومنهم ابو الحسن علي بن الحسين الشهير **بالمسعودي** صاحب « مروج الذهب » وسوف نتناوله بالبحث في غير هذا المكان .

وأشهر اصحاب الرحلات من الاندلسيين والمغاربة : **ابن جبير** ، وهو اندلسي من ادباء القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) رحل من الاندلس فزار مصر والحجـاز والعراق وسوريا ولبنان ، ايام السلطان صلاح الدين الايوبي . وله الكتاب الشهير برحلة ابن جبير .

ويضاهيه او يفوقه في الشهرة رحالة آخر اسمه ابن بطوطة ، وهو مغربي من طنجة ، وله الكتاب المسمى « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار» او « رحلة ابن بطوطة » باختصار . وسيتاح لنا ان نبحثه فيما يأتي من هذا الكتاب .

اما في عصورنا الحديثة فمن اصحاب الرحلات : امين الريحاني ، اديب مفكر ، لبنـاني زار شبه جزيرة العرب وألف في موضوع رحلته كتاباً سماه « ملوك العرب » و كتباً اخرى تجري مجراه .

الرحلات الخيالية . — وتختلف عن مألوف الرحلات في انها تكون من صُنع الخيال ، يخترع الكاتب ما شاء من حوادثها ومواضعها اختراعاً، الا انه يتخذ مادة من اخبار التاريخ يدخلها فيها ، ملتمساً من وراء ذلك كله ان يمتع القارىء ويزوده بحقائق ومعلومات ويقرب اليه افكاراً يود اذاعتها في الناس . فالرحلة الخياليـــة هي اذاً صنع ادبي تمتزج فيه الرواية الموضوعة بالتاريخ وبالتوجيه الذي يتوخاه الكاتب .

واشهر الرحلات الخيالية في الادب العربي « رسالة الغفران » لابي العلاء المعري ، تخيّل فيها الاديب الاعمى رحلة يقوم بها صديقه ابن القارح الحلبي الى الجنة . وقد اتى ابو العلاء في خلال هذه الرحلة على وصف بارع للجنة بحسب ما صوّرها القرآن والآثار الدينية ، وجمع فيها من شاء من الشعراء ، وحمل صديقه ابن القارح على لقائهم وسيّره في الجنة حتى اطلعه على الجحيم فشاهد من فيها من الشعراء ، كل ذلك باسلوب طريف وسخر لطيف اودعه ابو العلاء كثيراً من روحه النقادة . ورسالة الغفران مطبوعة متداولة في ايدي القراء ، اخترنا منها لمنتخبات هذا الفصل ما دار بين ابن القارح وأبينا آدم حين لقيه في الجنة .

ومن الرحلات الخيالية الشهيرة في الادب العربي « رسالة التوابع والزوابع » لابن شُهيد الاندلسي ، اثبتنا منها مع منتخبات هذا الفصل زيارته لابي نواس الشاعر العباسي في دير حنة .

التراجم والسير . — وهي الفن الذي يتناول به الكاتب سِيَر الرجال المبرزين في عصره او العصور السابقة ،فيجمع منهم طائفة في كتاب،او هو يقف كتاباً باسره على رجل واحد منهم. وفي كتابة التراجم والسير ينبغي للمؤلف ان يذكر ما تمرس به الذين يترجم لهم من احداث في حياتهم وما كانوا عليه من طبائع واخلاق ، وما خالج اذهانهم ونفوسهم من فكر وعواطف . هذا ، وربما ترجم الكاتب لنفسه ، أي : كتب قصة حياته كلها ، او مرحلة من مراحلها ، على نحو ما فعل الفيلسوف ابو حامد الغزّالي في كتابه : المنقذ من الضلال .

وفي رأس كتّاب التراجم في الادب العربي ابو الفرج الاصبهاني ، وقد سبق ذكره وذكر كتابه العظيم : « الاغاني » . (انظر في منتخبات هذا الفصل شيئاً مما كتبه ابو الفرج في ترجمته للشاعر جرير) .

التاريخ . — وهو لا يعد ادباً في كل الاحوال . فان الاصل في التاريخ ان يصف الحوادث الجسيمة والتحولات العظيمة واعلام الرجال واحوال الحياة في المجتمع البشري جملة او في امة او امم ، او عصر او عصور ، او وطن او اوطان . فالتاريخ مبني على اثبات الاخبار عن الماضي والحاضر . ورأس واجبات المؤرخ تتبع الحقيقة والتدقيق في الاخبار التي يثبتها لئلا يغلط فيها بما ينقله عن غيره او بما تحمله عليه عصبيته . وفائدة التاريخ في انه يزود الاجيال اللاحقة باختبارات الاجيال السابقة . وليست تتم فائدة التاريخ الا اذا كشف للناس عن قوانين التطور التي تحرك مجتمعهم وعوامل النمو والانحطاط في الامم والدول والاوطان . وهذا ما يعرف بفلسفة التاريخ .

ولم تكن كتابة التاريخ في الماضي تستدعي مثل هـذه السعة وهذا العمق. فكان المؤرخون يكتفون اول امرهم بالاخبار عن الملوك والحكام. ثم ما برحت كتابة التاريخ ترقى حتى وجب اليومَ ان يكون التاريخ مشتملًا يتناول وصفاً لحياة الشعب وبياناً عن احوال المجتمع وشرحاً لقوانين تطوره، ولذلك اصبحت المادة التي تدخل في التاريخ غزيرة جداً متشعبة جداً يستحيل استيعابها كلها على مؤرخ واحد. فتفرع التاريخ فروعاً كما يتاح للمؤرخين ان يتخصصوا بالكتابة في هذا او ذاك من فروعه. فاصبحت لدينا مثلًا تواريخ سياسية وهي التي تعنى بشؤون السياسة في امة او دولة، وتواريخ ادبية وهي التي تعنى بالادب، الخ ...

وهكذا يتضح ان التاريخ اذا لم يكن ادباً في كل الاحوال فهو معدن من المعادن الغنية التي يستمد منها الادب. فالسيَر والتراجم مستحيلة بلا تاريخ. ومثلها الملاحم والروايات التاريخية، كالروايات التي انشأها جرجي زيدان في تاريخ العرب والاسلام. وكذلك الرحلات لا تستغني عن مادة التاريخ.

محمد بن جرير الطبري



كان يكتب في كل يوم اربعين ورقة

فاما الاحوال التي يكون فيها التاريخ ادباً ايضاً فحين تستقيم للمؤرخ جودة في الانشاء وبراعة في الوصف ورواية الاخبار. على ان كتابة التاريخ قد تفسد مع شدة الاهتمام باخراجها مخرجاً ادبياً اذا دفع المؤرخَ حرصه على جمال الانشاء ان يحيد عن الحقيقة ذهاباً مع رونق الكلمات والعبارات.

ومن اشهر المؤرخين في التراث العربي: الطبري محمد بن جرير. لقب بالطبري نسبة الى مسقط رأسه: طبرستان. وكانت حياته في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وادرك تاليه فتوفي سنة ٩٢٣م (٣١٠هـ). رحل الطبري الى بغداد وسوريا ومصر ثم عاد فاستوطن

العاصمة العباسية وفيها مات . واعظم آثاره التاريخية كتاب « اخبار الرسل والملوك» ويسمى باختصار « تاريخ الطبري » ، طُبع في أحد عشر مجلداً. وهو تاريخ عام يبدأ بالخليقة وينتهي الى فاتحة القرن الهجري الرابع . وطريقة الطبري في كتابة التاريخ هي تدوين الاخبار في روايات معنعنة ، أي : منقولة عن فلان ، عن فلان، الى اول من روى الخبر . وليس في القدماء ممن كتبوا التاريخ بالعربية من لم يفد من الطبري ويتأثر طريقته . وكان الطبري جريء الفكر ، جريئاً على الجهر بافكاره ، كما كان عظيم التدقيق ، عظيم الصبر على العمل . قيل انه كان يكتب اربعين ورقة في كل يوم .

ويداني الطبريّ في الشهرة عليّ بن الحسين المسعودي ، وسنعود الى ذكره .

واما عبد الرحمن بن خلدون فهو اشهر من كتبوا بالعربية في اصول علم التاريخ ،ونظروا في قوانين سيره العامة ، أي : فلسفة التاريخ . ويعده كثير من الباحثين[1] مؤسس هذا العلم .

المقالة . — وهي فصل يكتبه الاديب في بيان قضية او في بحث رأي . والغالب على المقالة القِصر والاختصار . وتكون المقالة اجتماعية اذا دارت على شؤون المجتمع البشري ، وسياسية اذا دارت على السياسة خاصة . ثم تكون نقداً ادبياً اذا بحثت في جودة الادب ورداءته ، وتاريخية اذا جالت في جانب من جوانب التاريخ ، وفلسفية اذا تناولت بالبحث قضية من قضايا الفلسفة . وعلى هذا النحو تنعت المقالة بحسب موضوعها ، وفوق ذلك تتأثر في اسلوبها بموضوعها .

وقد راجت المقالة في عصرنا بداع من نشأة الصحف والمجلات . وذلك ان كل صحيفة او مجلة لا بد لها من عقد الفصل او الفصول لمعالجة شتى الموضوعات في مجال محدود وحيز صغير .

ولا بد للمقالة في كتابتها من أقسام يرعاها الكاتب ، فيبدأ عادة بمدخل يلج منه الى موضوعه ، ثم يخوض في الموضوع فيركز كلامه على ما يهمه منه ويشفع آراءه بالحجج والشواهد والبراهين ويسمى ذلك صلب المقالة ، ثم يخرج الى خاتمة يؤكد فيها النتيجة التي انتهى اليها كلامه والتي شاء في الاصل ان يثبتها للقارىء .

ومن اشهر المقالات في الادب العربي القديم فصول ابن خلدون التي أخرجها في كتابه المعروف **بالمقدمة**، والتي دار فيها على بحث اصول التاريخ ودرس شؤون الاجتماع والعوامل الفاعلة فيه . (انظر في منتخبات هذا الفصل : « مثالان على المقالة » احدهما لابن خلدون ، والآخر لسليمان البستاني) .

١ مثل المؤرخ : *Flint* صاحب كتاب « تاريخ فلسفة التاريخ» ، فقد جعل ابن خلدون مؤسس هذا العلم.

التعريب الادبي . — وهو نقل اثر ادبي كتب بلغة اجنبية الى اللغة العربية . والتعريب من أصعب الفنون، لانه يوجب تضلعاً من لغتين: اللغة الاجنبية التي عنها ينقل، واللغة العربية التي اليها ينقل . وأول شرط في التعريب الحفاظ على معنى الاصل. الا ان التعريب الادبي لا يغنيه هذا الشرط ، بل ينبغي للمعنى حين يجرد من حلة العبارة في لغته الاصلية أن يكسى حلة عبارة عربية تساويها جمالاً، ووقعاً في النفس. ومن هنا كانت المشقة في التعريب الادبي، ولاسيما التعريب من شعر الى شعر .

واول المعربين الادباء ، في تاريخ الادب العربي، عبد الله بن المقفع صاحب كليلة ودمنة .

وفي الانبعاث والعصر الحديث طائفة كبيرة من المعربين الادباء اشتغلوا بنقل القصة ، ومن هؤلاء طانيوس عبده . ومنهم مصطفى لطفي المنفلوطي وهو من اصح المعربين لغة الا ان علمه باللغة التي ينقل عنها يسير وحفاظه على الاصل ضعيف .

واكبر الذين عربوا شعراً بشعر في تاريخ الادب العربي هو سليمان البستاني معرب الياذة هوميروس .

وأكبر معربي المسرحيات هو الشاعر المعاصر خليل مطران ، الذي نقل بالنثر طائفة من تمثيلات شكسبير [1] .

[1] بينها المسرحية الشهيرة : هملت .

امثلة على القصص

بطل لا كالابطال ، ولص لا كاللصوص

هذه القصة لابي عثمان الجاحظ نادرة وفكاهة معاً . وما ندري هل اخترع الجاحظ قصته هذه جملة ، فابتدع الشيخ ابا نهشل ، وابتدع الحادثة والصيغة التي انشأها بها ، ام انه اقتصر على ابتداع الحادثة وصيغتها فقط؟ لكننا على كل حال نعلم ان الجاحظ قد تفنن في اخراج هذه الحادثة، وسواء كانت مما اختلقه او مما حدث في واقع الحياة. ولكي تدرك مقدار التفنن في هذه القصة القصيرة ، القديمة ، اسأل نفسك الاسئلة الآتية: ما الصفات التي يتسم بها بطل هذه الحادثة ؟ هل صرح الجاحظ بتلك الصفات؟ اذاً، فكيف أظهرها ؟ وما القصد الذي رمى اليه الجاحظ من كتابة هذه الحادثة؟ اما الجاحظ نفسه – وقد ذكرناه مراراً – فستتعرف فيما بعد .

قال الجاحظ :

كان بالبصرة شيخ من بني نهشل [1] يقال له عُروة بن مَرثَد ، نزل ببني أخت له في سكة [2] بني مازن [3] . وبنو اخته من قريش .

فخرج رجالهم الى ضياعهم وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين في مسجدهم . فلم يبق في الدار الا كلب يعس [4]، فرأى بيتاً فدخل وانصفق الباب [5] ، فسمع الحركة بعض الاماء [6] . فظنوا ان لصاً دخل الدار ، فذهبت احداهن الى ابي الاعز [7] ، وليس في الحي رجل غيره ، فأخبرته .

فقال أبو الاعز : ما يبتغي اللص منا ؟!

ثم اخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال : ايه يا ملأمان [8] ! أما والله انك بي

١ بنو نهشل : اسم قبيلة عربية . ٢ السكة : الطريق . والمقصود هنا : الحي من احياء المدينة .
٣ بنو مازن : اسم قبيلة عربية . ٤ يعس : يدور في الحي ليلاً . ٥ انصفق الباب : انغلق من نفسه بهبة ريح او سبب آخر . ٦ الاماء : جمع أمة وهي الخادمة . ٧ ابو الاعز : كنية الشيخ عروة بن مرثد . ٨ ملأمان على وزن مفعلان ، صيغة مبالغة . ومعنى ملأمان : الكثير اللؤم .

امارف ، واني بك ايضاً لعارف ، فهل انت الا من لصوص بني مازن ، شربت حامضاً خبيثاً [١] ، حتى اذا دارت الاقداح في رأسك منتك نفسك الاماني [٢] ، وقلت دورَ بني عمرو ، والرجال خلوف [٣] ، والنساء يصلين في مسجدهن ، فأسرقهن ! سوءة والله ، ما يفعل هذا الاحرار! لبئس والله ما منتك نفسك ! فاخرج والا دخلت عليك فصرمتك مني العقوبة [٤] ! لأيم الله [٥] لتخرجن او لاهتفن هتفة مشؤومة عليك ، يلتقي فيها الجبان عمرو وحنظلة [٦] ، ويصير امرك الى تباب [٧] ، ويجيء سعد [٨] بعدّدِ الحصى ، ويسيل عليك الرجال من ها هنا وها هنا !! ولئن فعلت لتكونن أشام مولود في بني تميم [٩] !!

فلما رأى انه لا يجيبه أخذ باللين وقال : اخرج يا بني وانت مستور ، اني والله ما أراك تعرفني ، ولو عرفتني لقد قنعتَ بقولي واطمأننت الي ، انا عروة بن مرثد ابو الاعز المرثدي ، وانا خال القوم وجلدة ما بين أعينهم [١٠] لا يعصونني في أمر ، وأنا لك بالذمة كفيل خفير [١١] ، أصيرك بين شحمة أذني وعاتقي [١٢] لا تضارّ ، فاخرج فأنت في ذمتي ، والا فان عندي قوصرّتين [١٣] احداهما الى ابن اختي البار الوَصول ، فخذ احداهما فانتبذها [١٤] حلالاً من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان الكلب اذا سمع الكلام أطرق ، واذا سكت وثب يريغ المخرج [١٥] .

فتهافت الاعرابي اي تساقط ، ثم قال : يا ألأم الناس وأوضعهم ، ألا يأني لك [١٦] انا منذ الليلة في وادٍ وأنت في آخر [١٧] ، اذا قلت لك السوداء والبيضاء [١٨] تسكت وتطرق ، فاذا سكتّ عنك تريغ المخرج ؟! والله لتخرجن بالعفو عنك أو لألجنّ عليك البيت [١٩] بالعقوبة !

فلما طال وقوفه جاءت جارية من إماء الحي فقالت : أعرابي مجنون !! والله ما أرى في البيت شيئاً !!

١ شربت حامضاً خبيثاً ، يقصد : شربت مسكراً . ٢ منتك نفسك الاماني ، اي : أملت آمالاً وهمية طمعت في نيلها . ٣ خلوف ، أي : تأخروا في الرجوع الى الحي . ٤ صرمتك مني العقوبة: عاقبتك عقاباً صارماً أي قاسياً . ٥ لايم الله : قسماً بالله . ٦ عمرو وحنظلة : قبيلتان عربيتان . ٧ التباب : الهلاك . ٨ سعد : اسم قبيلة . ٩ بنو تميم : قبيلة عربية كبيرة . ١٠ جلدة ما بين اعينهم ، أي : عزيز عليهم مكرم عندهم . ١١ خفير : حارس . ١٢ أصيرك بين شحمة اذني وعاتقي ، اي: اجعلك في مكان آمن فلا يقربك أحد . ١٣ القوصرة : وعاء محبوك من قصب يوضع فيه التمر ، وهو اشبه بالسلة عندنا . ١٤ انتبذها : تملكها وانفرد بها . ١٥ يريغ المخرج : يتلمسه ويحتال في طلبه . ١٦ ألا يأني لك : الا يكفيك ؟ ١٧ انا في واد وانت في آخر ، أي : ان تكون مخالفاً لنا هذه المخالفة بعيداً عنا هذا البعد . ١٨ اذا قلت لك السوداء والبيضاء ، أي: اذا قلت لك كلمة التهديد وكلمة الترغيب . ١٩ او لالجن عليك اليت : او لادخلن عليك البيت .

ودفعت الباب فخرج الكلب شداً [١] ، وحاد عنه أبو الاعز مستلقياً ، وقال : الحمدُ لله الذي مسخك كلباً، و كفاني منك حرباً !! ثم قال : تالله ما رأيت كالليلة ! ما أراه الا كلباً ، اما والله لو علمت بحاله لولجت عليه !!!

الشيخ ابليس يغني في بيت ابراهيم الموصلي

وهي من نوادر ابي الفرج الاصبهاني في كتابه الاغاني. تنبهٌ لما فيها من تفنن في القَصّ والوصف ، ولاسيما وصف ظهور الشيخ ابليس واثر غنائه في نفس الموصلي :

(قال ابراهيم بن اسحاق الموصلي) :

سألت الرشيد [٢] ان يهب لي يوماً في الجمعة لا يبعث فيه اليّ بوجه ولا بسبب ، لأخلو فيه بجواريّ واخواني. فأذن لي في يوم السبت، وقال لي : « هو يوم استثقله فالهُ فيه بما شئت. » فأقمت يوم السبت بمنزلي ، وتقدمت في اصلاح طعامي وشرابي بما احتجت اليه ، وامرت بوابي فأغلق الابواب وتقدمت اليه [٣] ألا يأذن علي لاحد .

فبينا انا في مجلسي، والخدم قد حفوا بي، وجواريّ يترددن بين يديّ ، اذا انا بشيخ ذي هيئة وجمال ، عليه قميصان ناعمان وخفان قصيران ، وعلى رأسه قلنسوة لاطئة [٤] ، وبيده عكازة مقمعة بفضة ، وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار . فداخلني بدخوله علي — مع ما تقدمت فيه — غيظ ما تداخلني قط مثله ، وهممت بطرد بوابي ومن حجبني لاجله . فسلم علي احسن سلام فرددت عليه وامرته بالجلوس فجلس . ثم اخذ بي في احاديث الناس وايام العرب واحاديثها واشعارها حتى سلّى ما بي من الغضب، وظننت ان غلماني تحروا مسرتي بادخالهم مثله علي لادبه وظرفه .

فقلت : هل لك في الطعام ؟ فقال : لا حاجة لي فيه . فقلت : هل لك في الشراب ؟ فقال : ذلك اليك . فشربت رطلاً وسقيته مثله . فقال لي : يا ابا اسحاق ، هل لك ان تغني لنا شيئاً من صنعتك وما قد نفقت به [٥] عند الخاص والعام ؟ فغاظني قوله . ثم سهلت على نفسي أمره، فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فغنيت. فقال: احسنت يا ابراهيم ! فازداد غيظي ، وقلت : ما رضي بما فعله من دخوله علي بغير اذن ، واقتراحه ان اغنيه ، حتى

١ خرج الكلب شداً : خرج مندفعاً بقوة . ٢ الرشيد : هارون الرشيد ، خامس الخلفاء العباسيين .
٣ تقدمت اليه : اوصيته ، امرته . ٤ لاطئة : اسم فاعل من لطىء او لطأ بمعنى لصق . القلنسوة اللاطئة هي التي تلصق بالرأس. ٥ نفقت به: اصبحت مطلوباً مرغوباً فيك .

سماني ولم يكنني ولم يجمل مخاطبتي[١] ! ثم قال : هل لك ان تزيدنا ؟ فتذممت[٢] ، فأخذت العود فغنيت ، فقال : اجدت يا ابا اسحاق ! فأتم حتى نكافئك ونغنيك . فأخذت العود وتغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته اياه قياماً تاماً ما تحفظت مثله ، ولا قمت بغناء كما قمت به له بين يدي خليفة قط ولا غيره لقوله لي : أكافئك. فطرب ، وقال : احسنت يا سيدي . ثم قال : أتأذن لعبدك بالغناء ؟ فقلت: شأنك. واستضعفت عقله في ان يغنيني بحضرتي بعد ما سمعه مني. فأخذ العود وجسه ، فوالله لخلته ينطق بلسان عربي لحسن ما سمعته من صوته ، ثم تغنى :

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح ؟
أباها علي الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح ؟ [٣]
أئن من الشوق الذي في جوانحي انين غصيص بالشراب جريح [٤]

(قال ابراهيم) : فوالله لقد ظننت الحيطان والابواب وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه من حسن غنائه ، وبقيت مبهوتاً لا استطيع الكلام ولا الجواب ولا الحركة لما خالط قلبي . ثم غنى :

الا يا حمامات اللوى عدن عودة فاني الى اصواتكن حزين
فعدن فلما عدن كدن يمتنني وكدت باسراري لهن ابين
دعون بترداد الهدير كأنما سقين حمياً او بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حمائماً بكين ولم تدمع لهن عيون

فكاد ، والله اعلم ، عقلي ان يذهب طرباً وارتياحاً لما سمعت . ثم غنى :

الا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد
أأن هتفت ورقاء في رونق الضحا على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الحزين صبابة ، وذبت من الحزن المبرح والجهد
وقد زعموا ان المحب اذا دنا يمل ، وان النأي يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ، على ان قرب الدار خير من البعد !

ثم قال: يا ابراهيم ، هذا الغناء فخذه وانح نحوه في غنائك وعلمه جواريك . فقلت : اعده علي . فقال : لست تحتاج ، قد اخذته وفرغت منه .

١ لم يجمل مخاطبتي : لم يخاطبني بما يليق ويحسن. ٢ تذممت : حرصت على مجانبة الذم. ٣ اباها: ... ٤ الغصيص : الذي تصيبه الغصة .

ثم غاب من بين يديّ ، فارتعت وقمت الى السيف فجردته، وعدوت نحو ابواب الحرم فوجدتها مغلقة . فقلت للجواري : اي شيء سمعتن عندي ؟ فقلن : سمعنا احسن غناء سمع قط. فخرجت متحيراً الى باب الدار ، فوجدته مغلقاً . فسألت البواب عن الشيخ فقال لي: اي شيخ هو ؟ والله ما دخل اليك اليوم أحد. فرجعت لاتأمل امري ، فاذا هو قد هتف بي من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحاق ، انا ابليس ، وأنا كنت جليسك ونديمك اليوم فلا تُرَع [١].

فركبت الى الرشيد وقلت : لا اطرفه [٢] ابداً بطرفة مثل هذه . فدخلت اليه فحدثته بالحديث ، فقال : ويحك ! تأمّل هذه الاصوات، هل اخذتها ؟ فأخذت العود امتحنها ، فاذا هي راسخة في صدري كأنها لم تزل . فطرب الرشيد وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشراب ، وامر لي بصلة وحملان وقال : الشيخ كان اعلم بما قال لك من انك اخذتها وفرغت منها ، فليته امتعنا بنفسه يوماً واحداً كما امتعك !

الهاوية

وهي قصة على نمط القصص العصرية الموضوعة . رمى بها مؤلفها الى غاية الانتقاد والاصلاح الاخلاقي ، بالتخويف من عاقبة السكر والقمار والانقياد للاشرار . فبيّن كيف يستدرج الرؤساء الانذال مرؤوسيهم الى السقوط ، وكيف يتدهور المرء اذا استسلم لعُشَراء [٣] السوء . وصوّر استبداد الخمرة بالانسان اذا هو أدمنها وضرر القمار عليه اذا هو تعاطاه . وبرغم ان حوادث القصة لا تخلو من ابتكار غريب ، فقد أجاد مؤلفها في وصف المشاهد ولاسيما وصف السكران . ووُفق الى اثارة عاطفتنا بما ساق الينا من مراحل هذه الفاجعة المؤلمة .

اما كاتب القصة ، **مصطفى لطفي المنفلوطي** ، فهو أديب مصري توفي سنة ١٩٢٤ م. في العقد [٤] الخامس من عمره . وكان مولده في منفلوط بمصر . تعلم في مدرسة الجامع الازهر في مدينة القاهرة، ولكنه كان اكثر ميلاً الى الادب منه الى العلوم الدينية. ترك جملة من مؤلفات وترجمات ظهرت مطبوعة، أشهرها «النظرات»: مجموعة مقالات، و « مجدولين » : رواية لبرناردان ده سان بيير [٥] نقلت له عن الفرنسية فسبك هو

١ لا ترع : لا تخف. ٢ لا اطرفه : لا اتحفه. ٣ العشراء : جمع عشير وهو الصاحب
٤ العقد: عشر سنين. ٥ *Bernardin de Saint Pierre* اديب فرنسي .

لغتها سبكاً جميلاً ، و « العبرات » : مجموعة قصص ومنها قصة الهاوية التي نثبتها هنا باختصار . وانشاء المنفلوطي نثر مرسل ، غزير اللفظ ، سهل متـــين ، تكثر فيه الاوصاف البارعة . ويُحب المنفلوطي ان يكتب عن مآسي المجتمع وحوادث الحياة المحزنة .

قال :

قضيتُ الشطر الاول من حياتي أفتش عن صديق ينظر الى اصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر الى سلعته[١] والزارع الى ماشيته[٢] . فأعوزني ذلك[٣] حتى عرفت « فلاناً » منذ ثمانية عشر عاماً ، فعرفت امرءاً ما شئتُ ان ارى خَلّة[٤] من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل الا وجدتها فيه ، ولا تخيّلت صورة من صوَر الكمال الانساني الا أضاءت لي في وجهه . فجلّت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها احد من قبله ، وصَفَتْ كأس الود بيني وبينه لا يُكدّرها علينا مُكدر ، حتى عرض لي من حوادث الدهر ما أزعجني عن مُستقرّي[٥] ، فهجرت القاهرة الى مسقط رأسي غير آسف على شيء فيها الا على فراق ذلك الصديق الكريم . فتراسلنا حقبة من الزمن ، ثم فترت عني كتبه ، ثم انقطعت . فحزنت لذلك حزناً شديداً .

ولم أعد الى القاهرة الا بعد عدة اعوام ، فكان أول همي يوم هبطت أرضها ان أراه . فذهبت الى منزله في الساعة الاولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان ، تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقرق وجوه ساكنيه بِشراً وسروراً . ثم زرته اليوم فخيّل اليّ انني امام مقبرة موحشة ساكنة لا ينبس فيها صوت ، ولا يتراءى في جوانبهـــا شبح ، ولا يَلمح[٦] في ارجائها مصباح . فظننت اني أخطأت المنزل[٧] الذي اريده ، او انني بين يدي منزل مهجور ، حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافـــذ نوراً ضعيفاً ، فمشيت الى البــاب فطرقته فلم يجبني احد . فطرقته اخرى فلمحت من خَصاصه[٨] نوراً مقبلاً ، ثم لم يلبث ان انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال[٩] بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلاً . فتأملته على ضوء

١ السلعة : البضاعة للبيع . ٢ الماشية : البهائم . ٣ اعوزني ذلك ، اي : فاتني ولم احصل عليه . ٤ خلّة : صفة جيدة . ٥ ازعجني عن مستقري ، اي : أوجب عليّ الرحيل . ٦ يلمح : يلمع . ٧ أخطأت المنزل : لم اهتد اليه . ٨ خصاص الباب : شقه . ٩ الاسمال : الثياب الخرقة القديمة .

المصباح فرأيت في وجهه صورة ابيه . فعرفت انه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالامس زهرة هذا المنزل . فسألته عن ابيه ، فأشار اليّ بالدخول ومشى امامي بمصباحه حتى وصل بي الى قاعة شعثاء[١] مغبّرة[٢] بالية المقاعد والاستار . ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها ما عرفت انها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثني عشر هلالاً[٣] . ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من انا ، وعرفت ان أباه لم يعد الى المنزل حتى الساعة .

ثم تركني ومضى . وما لبث الا قليلاً حتى عاد يقول لي ان والدته تريد ان تحدثني حديثاً يتعلق بأبيه . فخفق قلبي خفقة الرعب وأحسست بشرّ لا اعرف مأتاه[٤] . ثم التفت فاذا امرأة ملتفتة بردء أسود واقفة على عتبة الباب . فحيّتني فحييتها . ثم قالت لي :

— هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟

قلت : لا ، فهذا اول يوم هبطت فيه هذا البلد بعدما فارقته سبعة اعوام .

قالت : ليتك لم تفارقه ! فما هو ان فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان . وكان فتىً كما تعلمه غريراً[٥] ساذجاً ، فما زالت تغريه بالشر حتى سقط فيه فسقطنا جميعاً في هذا الشقاء الذي تراه .

قلت : وأي شر تريدين يا سيدتي ؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟

قالت : سأقص عليك كل شيء فاستمع ... ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وأصبح من خاصته[٦] الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان ، ولا تزال نعالهم خافقة وراءه[٧] في غدواته[٨] وروحاته[٩] . فاستحال[١٠] من ذلك اليوم امره وتنكرت صورة اخلاقه وأصبح منقطعاً عن اهله واولاده لا يراهم الا في الفينة[١١] بعد الفينة ، وعن منزله لا يزوره الا في اخريات الليالي . ولقد اغتبطت في مبدأ الامر بتلك الحظوة التي نالها عند ذلك الرئيس ، والمنزلة التي نزلها من نفسه ورجوت له من ورائها خيراً كثيراً مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والالم لانقطاعه عني واغفاله امري وأمر اولاده . حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً[١٢] ، فدنوت منه فشممت من

١ شعثاء : مشوشة . ٢ مغبّرة : يعلوها الغبار . ٣ اثني عشر هلالاً : اثني عشر شهراً قمرياً ، على الحساب الهجري . ٤ مأتاه : سببه ومصدره . ٥ الفتى الغرير : الذي لم تعلمه التجارب . ٦ اصبح من خاصته : صار من اصحابه المقربين . ٧ لا تزال نعالهم خافقة وراءه ، اي : لا يزالون دائرين عليه مفتشين عنه . ٨ غدواته : جمع غدوة وهي الخروج في الصباح . ٩ روحاته : جمع روحة وهي الخروج في المساء . ١٠ استحال : تغير وانقلب . ١١ الفينة : الحين . ١٢ جساماً : كباراً .

فمه رائحة الخمر ! فعلمت كل شيء .

علمت ان ذلك الرئيس العظيم الذي هو قدوة مرؤوسيه في الخير ان سلك طريق الخير، والشر ان سلك طريق الشر ، قد قاد زوجي الفتى المسكين الى شر الطريقين ، وانه ما كان يتخذه صديقاً كما زعم بل نديماً على الشراب . فتوسلت اليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع ان تسكبه عينٌ رجاءَ ان يعود الى حياته الاولى ، فما أجديت عليه شيئاً[١] . ثم علمت ان اليد التي ساقته الى الشراب قد ساقته الى اللعب[٢] ! فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف — الذي كان يعف بالامس عن شرب الدواء اذا اشتمّ فيه رائحة النبيذ ويستحيي ان يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون — سكيراً مقامراً لا يحتشم . وأصبح ذلك الاب الرحيم والزوج الكريم — الذي كان يضنّ[٣] باولاده ان يعلق بهم الذر[٤] وبزوجته ان يتجهم[٥] لها وجه السماء — أباً قاسياً وزوجاً سليطاً[٦] يضرب اولاده كلما دنوا منه ويشتم زوجته وينتهرها[٧] كلما رآها . وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه ، لا يبالي ان يعود الى المنزل في بعض الليالي في جمع من عشرائه الاشرار فيصعد بهم الى الطبقة التي انام فيها انا واولادي فيجلسوا في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون ويقصفون[٨] حتى يذهب بعقولهم الشراب فيهتاجوا ويرقصوا ويملأوا الجو صراخاً ثم يتعادَوا[٩] بعضهم وراء بعض في الابهاء[١٠] والحجرات[١١] فأفر بين أيديهم من مكان الى مكان وربما فررت من المنزل جميعه حتى اصل الى بيت جارة من جاراتي اقضي عندهم بقية الليل .

وهنا تغيرت نغمة صوتها فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها . فعلمت انها تبكي . فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ، ثم رفعَت رأسها وعادت الى حديثها :

وما هي الا اعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال . فكان لا بد له ان يستدين ففعل . فأثقله الدين فرَهن . فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه . ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ، لانه لا يملكه الا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين وغنيمة للمقامرين ... هذا ما صَنَعَتْ يد الدهر به . اما ما صنعت بي وبأولادي فقد مرّ على آخر حلية بعتها من حلاي عام كامل ، وها هي حوانيت المرابين[١٢] والمسترهنين ملأى بملابسي وأدوات بيتي

١ فما اجديت عليه شيئاً، اي : ما نفعته بشيء ولا اثرت فيه . ٢ لعب القمار . ٣ يضن : يبخل . ٤ الذر : النمل ، والمقصود هنا التكدير الهين اليسير . ٥ يتجهم : يعبس . ٦ سليطاً : وقحاً بذيء اللسان . ٧ ينتهرها : يصيح بها صياحاً مهيناً . ٨ يقصفون : يلهون ويعربدون . ٩ تعادوا : يتراكضوا . ١٠ الابهاء: جمع بهو وهو القاعة الفسيحة . ١١ الحجرات: جمع حجرة وهي الغرفة . ١٢ المرابي: هو الذي يقرض الناس مالاً لقاء فائض يقبضه .

وأثاثه . ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال[١] يعود عليّ[٢] من حين الى حين بالنزر[٣] القليل مما يستلّه[٤] من اشداق[٥] عياله لهلكت وهلك اولادي جوعاً ... فلعلك تستطيع يا سيدي ان تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه . وأحسب انك تقدر منه — للمنزلة التي تنزلها من نفسه — على ما عجز عنه الناس جميعاً . فان فعلت أحسنت اليه والينا احساناً لا ننسى يدك[٦] فيه حتى الموت !

ثم حيتني ومضت لسبيلها .

فسألت الغلام عن الساعة التي استطيع ان أرى اباه فيها في المنزل . فقال : انك تراه في الصباح قبل ذهابه الى الديوان . فانصرفت لشأني وقد اضمرت بين جنبيّ لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود[٧] عن عيني سِنة الكرى[٨] حتى انقضى الليل .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم ، وفي نفسي ما يكون في نفس الذاهب الى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يملك ، فهو لا يعلم ايكون بعد ساعة اسعد الناس ام أشقاهم ؟

•

الآن عرفت ان الوجوه مرايا[٩] النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها ... لم ارَ امامي ذلك الفتى الجميل الوضاح الذي كان كلّ منبت شعرة في وجهه فماً ضاحكاً تموج فيه ابتسامة لامعة . بل رأيت مكانه رجلاً شقياً منكوباً قد لبس الهرم قبل اوانه وأوفى على الستين[١٠] قبل ان يسلخ الثلاثين[١١]. فاسترخى حاجباه وثقلت اجفانه وجمدت نظراته وتهدل عارضاه[١٢] وتجعد جبينه واستشرف عاتقاه[١٣] وهوى رأسه بينهما هويّه[١٤] بين عاتقي الاحدب .

فكان اول ما قلت له : لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك !

وكأنما ألمّ بما في نفسي[١٥] وعرف اني قد علمت من امره كل شيء. فأطرق برأسه إطراق من يرى ان باطن الارض خيرٌ له من ظهرها ، ولم يقل شيئاً ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له :

— والله ما ادري ماذا اقول لك . أأعظك ؟ ام ارشدك ؟ أم استرحمك لاطفالك

١ رقيق الحال : قريب من الفقر . ٢ يعود علي : يتكرم علي . ٣ النزر: القليل . ٤ يستله : ينتزعه . ٥ اشداق: جمع شدق وهو الفم . ٦ اليد ، هنا ، بمعنى الفضل . ٧ تذود: تمنع . ٨ سِنة الكرى : غفلة النوم . ٩ مرايا : جمع مرآة . ١٠ اوفى على الستين: دنا من الستين . ١١ قبل ان يسلخ الثلاثين: قبل ان يتجاوز عمره ثلاثين سنة. ١٢ تهدل عارضاه: استرخى جانبا وجهه. ١٣ استشرف عاتقاه : انحنت كتفاه . ١٤ هويه : مصدر هوى بمعنى تنكس وطأطأ . ١٥ ألمّ بما في نفسي : شعر بما فيها .

الضعفاء وزوجتك البائسة؟ ان هذه الحياة التي تحياها يا سيدي انما يلجأ اليها الهَمَل[١] العاطلون[٢] الذين لا يصلحون لعمل من الاعمال . انك تمشي يا سيدي في طريق القبر وما انت بناقم على الدنيا ، فما رغبتك في الخروج منها خروج البائس المنتحر ؟ .. حسبنا يا صديقي من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر فلا نضم اليه شقاء جديداً نجلبه بانفسنا لانفسنا . فهات يدك وعاهدني على ان تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالامس ، فقد كنا سعداء قبل ان نفترق ، وها نحن اولاء قد التقينا ، فلنعش في ظل الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .

ثم مددت يدي اليه فراعني[٣] انه لم يحرك يده . فقلت له :

– ما لك لا تمدّ يدك اليّ ؟

فاستعبر[٤] باكياً وقال :

– لاني لا أحب ان أكون كاذباً ولا حانثاً[٥] ، قد زلّت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك[٦] حتى ابلغ قرارتها[٧] . وشربت اول جرعة من جرعات الحياة المريرة فلا بد لي ان اشربها حتى ثمالتها[٨] . ولا شيء يستطيع ان يقف في سبيلي الا شيءٌ واحد فقط ، وهو ان لا اكون قد شربت الكأس الاولى قبل اليوم .

قلت : ليس بينك وبين النزوع[٩] الا عزمة صادقة تعزمها فاذا أنت من الناجين[١٠] .

قال : ان العزيمة اثرٌ من آثار الارادة[١١] ، وقد اصبحت رجلاً مغلوباً على امري[١٢] لا ارادة لي ولا اختيار ... ثم انفجر باكياً بصوت عالٍ وتركني مكاني دون ان يجيبني بكلمة . وخرج هائماً على وجهه لا أعلم اين ذهب .

•

لم يستطع رئيس الديوان ان يحتمل نديمه بالامس زمناً طويلاً . فأقصاه عن مجلسه استثقالاً له . ثم عزله من وظيفته استنكاراً لعمله . ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه .

ولم يستطع مالك البيت الجديد ان يمهل فيه المالك القديم اكثر من بضعة شهور ثم طرده منه . فلجأ هو وزوجته وولداه الى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور . فأصبحت

١ الهمل : البهائم ، والمقصود هنا : البشر الذين لا قيمة لهم . ٢ العاطلون : الذين لا يعملون عملاً . ٣ راعني : ادهشني وخوّفني . ٤ استعبر : اغرورقت عيناه بالدموع . ٥ الحانث : هو الذي ينقض كلامه . ٦ الاستمساك : الوقوف والثبات . ٧ قرارة الوهدة : اسفلها . ٨ الثمالة: اخر القطرات من الشراب . ٩ النزوع : الامتناع والارتداع . ١٠ الناجين، جمع الناجي ، اسم فاعل من : نجا، اي : خلص وانقذ نفسه . ١١ ارادة الانسان: هي عزيمته ونيته الصادقة ان يفعل شيئاً او يسلك مسلكاً . ١٢ المغلوب على امره : هو العاجز المسيّر.

لا أراه بعد ذلك الا ذاهباً الى الحانة [١] او عائداً منها . فان رأيته ذاهباً زويت وجهي [٢] عنه ، او عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب او عن جبينه ما سال منه من الدم ، ثم قدته الى بيته .

وهكذا ما زالت الايام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى اصبح من يراه يرى ظلّاً من الظلال المتنقلة ، او حُلماً من الاحلام السارية ، يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينيه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء اضاعه وليس في يده شيء يضيعه ، او يقلّب نظره في اثوابه وما في اثوابه غيرُ الرقاع والخروق . وينظر الى كل وجه يقابله نظرة شزراء [٣] كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق . وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه [٤] ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه . حتى اذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها [٥] في رأسه انحدر الى الحان فلا يزال يشرب ويَتزيد [٦] حتى يعود الى ما كان عليه .

وعجزت الزوجة المسكينة ان تجد سبيلاً الى القوت ، وأبكاها ان ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانها . فلم ترَ لها بداً من ان تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم ، فارسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها ويُقيتانها . فكانت لا تراهما الا قليلاً . ولا ترى زوجها الا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة وقلما تغفل عنه . فاصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين الا جارة عجوز تختلف اليها [٧] من حين الى حين ...

وكأن الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الاثقال حتى اضاف اليها ثِقلاً جديداً . فقد شعرت في يوم بنسمة [٨] تتحرك في احشائها ، فعلمت انها حاملٌ وانها ستأتي الى دار الشقاء بشقي جديد . فهتفت صارخة : رحمتك اللهم فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة ! وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب ان تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها [٩] فلم يحضرها احد الا جارتها العجوز . فأعانها الله على امرها فوضعت . ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس [١٠] مرضاً شديداً فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها لان البلد

١ الحانة : الخمارة. ٢ زويت وجهي : حولت وجهي. ٣ نظرة شزراء : نظرة غضب وكره.
٤ غير آبه : غير مهتم . ٥ سورتها : حدتها وتأثيرها . ٦ يتزيد : يبالغ ويغالي .
٧ تختلف اليها : تتردد عليها في الزيارة . ٨ نسمة : روح ، نفس . ٩ ساعة الوضع : هي الساعة التي تلد فيها المرأة طفلها . ١٠ حمى النفاس : حمى تصيب النساء الحوامل بعد الوضع .

٦٧

الذي لا يستحيي اطباؤه ان يطالبوا اهل المريض بعــد موته باجرة علاجهم الذي قتله لا يمكن ان يوجد فيه طبيب محسن او متصدق . فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى ادركتها رحمة الله . فوافاها اجلها [١] في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد . فدار بعينيه في انحاء الغرفــة حتى رآها ممددة على حصيرها . ورأى ابنتهـا تبكي بجانبها فظنها نائمة . فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها واخــذ يحركها تحريكاً شديداً . فلم يشعر بحركة . فرابه الامر [٢] واحسّ برعدة تتمشى في اعضائه حتى اصابت قلبه . فبدأ صوابه يعود اليه شيئاً فشيئاً . فأكب عليها [٣] يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ويزحف نحوها رويداً رويداً ، حتى رأى شبح الموت يحدق اليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين ! فتراجع خوفاً وذعراً فوطىء في تراجعه صدر ابنته فأنّت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة . فصرخ صرخة شديدة : واشقاءاه ! واشقاءاه ! وخرج هائماً على وجهــه يعدو في الطريق ويضرب رأسه بالعمد [٤] والجدران ويدفع كل ما يجد في طريقه من انسان او حيوان ، ويصيح : ابنتي ! زوجتي ! هلموا اليّ ! ادركوني ! حتى أعيا [٥] فسقط على الارض واخــذ يفحصُ التراب [٦] برجليه ويئنّ انين الذبيح . والناس من حوله آسفون عليه ، لا لانهم يعرفونه بل لانهم قرأوا في وجهه آيات [٧] شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله .

وما هي الا ساعة او ساعتان حتى اصبح مقيداً مغلولاً [٨] في قاعة من قاعــات البيمارستان [٩] .

١ الاجل : نهاية العمر . ٢ رابه الامر : جعله يشك ويتحير . ٣ اكب عليها : انحنى فوقها .
٤ العمد: جمع عمود . ٥ اعيا : تعب حتى عجز . ٦ يفحص التراب : يثيره ويبشه .
٧ آيات : علامات . ٨ مغلول : بمعنى مقيد . ٩ البيمارستان : مستشفى المجانين ، وهي من الكلام الدخيل على العربية .

مثال على النثر التمثيلي

المكيدة

صلاح الدين الايوبي هو القائد الشهير الذي أسّس الدولة الايوبية في مصر وسوريا سنة ١١٧١م ، بعد انحلال دولة الفاطميين .

ووقعت لصلاح الدين مع الصليبيين معارك عظيمة أهمها معركة حطين سنة ١١٨٧م، تغلب فيها عليهم وأجلاهم عن ارض كثيرة احتلوها في هذه البلاد .

واشتهر صلاح الدين بالفروسية ومراعاة المبادىء الانسانية في الحرب . وهو من أحب الاعلام الشرقية الى الغربيين يحوطون شخصه في ادبهم[١] بهالة من المروءة والعدل والتقوى والعلم .

وفي الادب العربي روايات كثيرة تتصل بصلاح الدين وعصره ، منها رواية جرجي زيدان : « صلاح الدين ومكايد الحشاشين » ، وتمثيلية نجيب الحداد : « صلاح الدين الايوبي » ، وهي التي نثبت لك جزءاً منها مثالاً على النثر المسرحي .

اما قصة هذه التمثيلية التي جعل لها نجيب الحداد اطاراً من التاريخ ،فتلخص بما يأتي: مرض ريكاردوس قلب الاسد ، وهو ملك انكلترا، وقائد من قادة الصليبيين وزعيم عليهم، فهادنه صلاح الدين ، بل زاره متنكراً في زيّ طبيب وداواه حتى برىء من علته . ودبّ الخلاف في صفوف الصليبيين بحيث شاء ملك النمسا ان يتحدى زعامة ريكاردوس وينصب رايته على رابية في جنب الراية الانكليزية . فمنعه ريكاردوس وأنزل علم النمسا فكاد ان ينشب بينهما القتال . وامر ريكاردوس فارساً من فرسانه يدعى وليم ان يحرس العلم الانكليزي في تلك الليلة وتوعده بقطع رأسه اذا امتدت يد الى العلم .

وكان الفارس وليم يحب جوليا شقيقة ريكاردوس وهي تحبه . الا ان الفرق بينهما في الطبقة الاجتماعية كان يحول دون زواجهما . وكان لوليم مزاحم على قلب جوليا اسمه المركيز دي منسرات ، ولكن جوليا لا تحبه. ففاوض المركيز خادماً لجوليا،

١ مثل رواية : الطلسم *Talisman* للكاتب الاسكوتلندي : والترسكوت .

اسمه مرتين ، ووعده بمال اذا هو سرق خاتم الاميرة . ففعل الخادم .
وليلة كان يقوم وليم بحراسة العلم ، أقبل الخادم مرتين ومعه خاتم جوليا وقال لوليم : ان جوليا تريد ان تلقاه وهي في اعظم ضيق وقد بعثت اليه بخاتمها علامة ... فتردد وليم ثم تسلم الخاتم وانصرف وترك العلم في حراسة الخادم . وهنا أقبل المركيز فقتل مرتين بطعنة من خنجره وسرق الراية . وهكذا تعرض وليم لأشدّ سخط من قلب الاسد .
والجزء الذي تقرأه الآن من مسرحية نجيب الحداد يمثل ما دار بين جوليا ووليم بعد اقدامه على مخالفة امر ريكاردوس وترك حراسة العلم .

المكان : منزل جوليا . الاشخاص : جوليا ، وليم . الوقت : في الليل .

جوليا : ما الطف هذه المقابلة ، وما احسن هذه المفاجأة ! كيف هذا ؟ وما هذه السعادة ؟

وليم : ألا تعلمين انني اذا كنت احب الحياة فلاجل هذه الساعة ؟ واذا كان لي في الدنيا امل فهو ان انالها . او كنت احب شيئاً فهو ان اراك .

جوليا : آه ما احلى اللقاء لو كان يدوم !

وليم : بل قولي ما احلى الغرام ، لو كان يتناسب فيه المقام . انني اراك عائلة عظيمة شريفة رفيعة النسب باذخة المجد والاصل . وارى بيني وبينك الآن مهواة بعيدة ، وفرقاً عظيماً وبعداً شاسعاً . ومع ذلك فأنا احبك واهواك واجسر على ان ادنو منك واقبّل يدك وأبسط لك قلبي واضع عندك آمالي ، واقول لك اخيراً : انني احبك . كلمة لم اقلها لفتاة سواك ، واكاد ان لا اتجاسر ان اقولها لك ، لولا امر واحد يهوّن الصعاب ويصغر العظائم وهو الحب ! وامر آخر يقرب البعيد ويرفع الوضيع ويمكن من المستحيل ويزين وجه الدنيا ، وهو الامل ! اذاً فانا بالحب اؤمل بك ، وبالامل احبك واهواك . ولكن لا ، فانت بعيدة عني وخطر الموت اليّ اقرب !

جوليا : آه ما اشقاني !

وليم : ما هذه الكلمة التي لا ازال اسمعها منك ؟ اتركي الشقاء الآن كما تركته انا ، فانني تركت حياتي ايضاً . الم ترسلي في طلبي الا لتقولي لي انك شقية فأزيد حزناً على احزاني؟ اهذا الذي تريدين ان اسمعه منك بعد هذا الطلب ؟

جوليا : انا ارسلت في طلبك ! بالله من قال لك ذلك ؟ فانه قد خدمني من غير ان ادري.

وليم : عجباً يا سيدتي ! الم ترسلي خادمك في طلبي ؟ الم تشددي عليه بحضوري ؟

جوليا : انني لا علم لي بشيء مما تقول . ولكن مهما يكن فان الامر حسن وقد افادني أن ارسلك اليّ .

وليم : ولقد افادني انا ايضاً يا سيدتي ، لانه أسعد فؤادي ونظري ، ولكنه كان خطراً وشؤماً على شرفي وحياتي . وبلاه! قد أدركت الحيلة الآن . أليس هذا الخاتم من يدك؟

جوليا : هذا الخاتم هو خاتمي ، وقد ضاع مني اليوم ، وانا احسب انه سقط من يدي . فمن أوصله اليك ؟ بالله اين وجدته ؟

وليم : لم اجده بل وصل اليّ من طريق الحيــلة وسبيل المكر والخداع . قلتِ انك لم ترسليه ... اذاً فكيف وصل الى الخادم ومن الذي سلمه اياه ؟ ويلاه ! ضاعت الراية وضاع الشرف !

جوليا : بالله ما هذا الكلام الذي لا أفهم منه شيئــاً ! أية راية ، وأي شرف ؟ كيف ضاعت الراية وضاع الشرف ؟ وما هي الحيلة وما هو الخداع ؟ ويلاه! ألا ترد عليّ ؟

وليم : عفواً يا جوليا، فان الامر خطر ، والعقبى شديدة هائلة . فلقد كنت امامكِ الآن باسماً مسروراً احمد الله على لقاك ، وأنسى الدنيا بحسن محيّاك . ولكن كان ينبغي لي ان اكون باكياً حزيناً ، وكان ينبغي لك ان تندبيني وتبكي عليّ فاني خؤون ، والناس غدّارون محتالون . اما الآن فابكي عليّ واندبيني اذا كان لا يزال في قلبك حب ، او كنت تتنازلين بعد الآن الى ان تنظري اليّ ، فاني أصبحت شقيــاً تعيساً محكوماً عليّ بالموت . فلعلي ألقاه بعد ساعة او ألقاه الآن .

جوليا : يا رب ما هذا !.. ويلاه ماذا جرى !

وليم : اندبيني فاني هالك قتيل ... ولكن لا تندبي ولا تبكي . فانا لا استحق دمعة من دموعك ولا اساوي زفرة من زفراتك . قد كنت استحق ذلك امس ، بل اليوم ، بل الساعة ، لانني كنت شريفاً طاهراً لا عار يلحقني ولا ذنب عليّ . اما الآن فانا اثيم خائن ، يتبعني العار وتوقفني الجرائم والذنوب ، وكل ذلك في ساعة ... ويلاه من هذه الساعة !

جوليا: سيدي، ألا تخبرني بامرك ؟ ألا تعلمني بما جرى لك ؟ انك قد مزقت قلبي باقوالك من غير ان افهم ما تريد . أتحب ان اركع على قدميك حتى اعلم ما في صدرك ؟

وليم : انهضي ولا تركعي، فانا الذي يجب ان اركع ، ولكن اركع ركعة الموت لاستقبل سيف السياف .

جوليا : سيدي ، ويلاه ! بالله اخبرني !

وليم : قد بلغك ولا شك ما حدث بين اخيك وملك النمسا لانه رفع علمه الى جانب علمه . وكيف ان اخاك نزع راية النمسا برغم صاحبها وأبقى علم انكلترا وحده . والآن فاعلمي ان اخاك لما انصرف الجيش دعاني اليه وقال لي: يا وليم احرس العلم ، واعلم ان رأسك يسقط اذا سمحت لاحد ان يمسه او يدنو منه . فاقمت احرسه وحدي حتى اظلم الليل وطلع ضوء البدر واذا بخادمك قد اقبل اليّ يدعوني اليك ويقول انك في حاجة اليّ .

جوليا : كذب وبهتان ! ويلاه يا رب ! اتهم بالله !

وليم : اسمعي فليس ذلك الامر . انني لم اصدقه في بدء الحـديث وظننته كاذباً كما ظهر الآن . ولكنه لم يلبث ان اظهر لي خاتمك هـذا ، وانه قـادم به علامة منك لي ، فصدقته واتيت بعد ان اقمته حارساً مكاني . وقد ظهر لي انه كاذب خادع ، فكيف العمل ؟

جوليا : قد فقدتك ايها الحبيب فوا اسفاه ! فان اخي ظالم قاس لا يرق ولا يرحم . وهـو وهو قد توعدك بالقتل اذا فقدت الراية . ولا شك ان الراية قد فقدت . وان في الامر حيلة لا ندريها . فاذهب بالله وانظر . اذهب وعد اليّ .

ولكن الجنود يدهمون وليم وهو يودع جوليا . ويسألونه عن الراية وينبئونه انها مسروقة وفي موضعها جثة قتيل !

ويصبح موت وليم مؤكداً ، لولا ان صلاح الدين وخادمه عماد الدين كانا مطلعين على الحقيقة. فقد شهداها وهما مندسان في معسكر العدو يتنسمان الاخبار .

وكانت خاتمة الرواية فرحاً ، فان صلاح الدين تنكر في زي طبيب ، على نحو ما فعل حين عالج ريكاردوس . وحضر فشهد بالحقيقة ونجا وليم من الموت. ثم قتـل مزاحمه المركيز دي منسرات في مبارزة . ثم اتضح ان وليم هذا لم يكن من طبقة وضيعة بل ابن ملك اسكوتلندة وكفؤ للاميرة جوليـا ، وفوق ذلك كله تمت مصالحة بين ريكاردوس وصلاح الدين .

فهذه التمثيلية لنجيب الحداد ليست من نوع الملهاة ، ولكنهـا ليست مأساة . ولذلك تعدّ بين بين .

والمهم ان تلحظ الفرق بين هذا الجزء التمثيلي الذي قرأته لنجيب الحداد والمقطع الذي قرأته لشوقي . فبينما يقتصر اهتمامك من مقطع شوقي على جودة الشعر الغنائي ،

تحس هنا انك امام حادثة تتطور ، امام امر وقع وامر سيقع ، وتثيرك هذه العقدة التي تراها انعقدت ثم لست تعلم ما يكون بعدها ، او انت في شك شديد مما يكون بعدها . فهذا وليم قد جعل على نفسه سبيلاً ان يقتله ريكاردوس ، ولا حظّ له في النجاة الا ان تتوضح الحقيقة ، والحقيقة لا يعلمها الا صلاح الدين وخادمه ، وصلاح الدين وريكاردوس كل منهما في جانب عدوّ الجانب الآخر . وهكذا تلبث بانتظار ، متتبعاً العمل في المسرحية .



نجيب الحداد

مثال على الرحلات الخيالية

ابن شهيد وشيطانه زهير بن نمير عند ابي نواس في دير حنة

ابن شهيد ٩٩٢ م – ١٠٣٥ م (٣٨٢ هـ – ٤٢٦ هـ) أديب من كبار كتاب الاندلس وشعرائها . عاش في ظل بني عـــامر ، وهم وزراء للامويين في الاندلس استقلوا عنهم بالحكم ونسبوا الدولة الى انفسهم . وكان مولد ابن شُهيد في مدينة قرطبة وفيها توفي بعلة الفالج ... له كتاب طريف تخيل فيه ، على اعتقاد اهل الجاهلية، ان له شيطاناً اسمه زهير بن نُمير حمله على فرسه في رحلة خياليـــة الى عالم الجن ، وجمعه بالشعراء والخطباء الاقدمين وشياطينهم ، فسمع منهم واسمعهم ، وانتقدهم ووازن بينهم ووصف الحالات التي لقيهم فيها اثناء هـــذه الرحلة العجيبة وصفاً يليق بهم ... وسمى ابن شهيد كتابه هذا : « **التوابع والزوابع** ». والتوابع هي الشياطين التي تتبع الشعراء وتوحي اليهم على اعتقاد اهل الجاهلية . والزوابع رؤساء الجن . وهذا الكتاب قد سلمت منه فصول [١] أثبتها أديب أندلسي آخر اسمه ابن بسام في كتاب « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » وعنه نقلنا هذا الفصل لابن شهيد . ويقال ان ابن شهيد تأثر في كتابه : «التوابع والزوابع » بأبي العلاء المعري في رسالة « الغفران » ويقال العكس . ذلـــك ان الرجلين كانا متعاصرين .

قال ابن شهيد :

... كان لي اوائل صبوتي هوى [٢] اشتد به كلفي [٣]، ثم لحقني بعد ُملل في اثناء ذلك الميل . فاتفق أن مات من كنت اهواه مدة ذلك الملل ،فجزعت، وأخذت في رثائه يوماً فأرتج علي [٤] القول وأفحمت [٥] ، فاذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس ادهم [٦] كما بقل وجهه [٧] ، قد اتكا على رمحه ، وصاح بي : أعجزاً يافتى الانس [٨] ؟ قلت : لا وأبيك ، للكلام أحيان [٩] ، وهذا

١ جمعها الاستاذ بطرس البستاني ، واخرجها في طبعة حديثة مشروحة ، وقدم لها بدراسة مفصلة في ادب ابن شهيد وعصره . ٢ هوى معناها ، هنا: حبيب . ٣ كلفي : تعلقي . ٤ أرتج علي : أغلق علي باب القول . ٥ أفحمت : عجزت عن الكلام . ٦ أدهم : أسود . ٧ بقل وجهه: نبت فيه الشعر اول نباته . ٨ الانس : البشر . ٩ للكلام احيان : للكلام اوقات يطاوع فيها المتكلم وأوقات يعصيه .

شأن الانسان !

قلت له : بأبي انت ! من أنت ؟ قال : أنا زهير بن نمير من اشجع الجن . فقلت : وما الذي حداك [١] الى التصور لي ؟ فقال : هوىً فيك ، ورغبة في اصطفائك [٢] . قلت : أهلاً بك أيها الوجه الوضاح ، صادفت قلباً إليك مقلوباً [٣] ، وهوىً نحوك مجنوباً [٤] .

... وتذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء ، وما كان يألفهم من التوابع [٥] والزوابع [٦] ، وقلت : هل حيلة في لقاء من اتفق منهم [٧] ؟ قال : حتى أستأذن شيخنا . وطار عني ثم انصرف كلمح بالبصر ، وقد اذن له ، فقال : حلّ على متن الجواد [٨] . فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر يجتاب [٩] الجو فالجو ، ويقطع الدو [١٠] فالدو ، حتى التمحت ارضاً لا كأرضنا ، وشارفت جواً لا كجوّنا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال لي : حللت ارض الجن أبا عامر [١١] ، فبمن تريد أن نبدأ ؟ قلت : الخطباء أولى بالتقديم ، لكني الى الشعراء أشوق . قال : فمن تريد منهم ؟ قلت : صاحب ابي نواس [١٢] . قال : هو بدير حنة منذ أشهر وقد غلبت عليه الخمر ، ودير حنة في ذلك الجبل . وعرضه علي فاذا بيننا وبينه فراسخ .

وضرب زهير الادهم بالسوط ... وسرنا حتى انتهينا الى اصل جبل دير حنة . فشق سمعي قرع النواقيس [١٣] . فصحت : من منازل ابي نواس ورب الكعبة العلياء . وصرنا نجتاب أدياراً وكنائس وحانات حتى انتهينا الى دير عظيم تعبق روائحه ... فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على اهل دير حنة . فقلت لزهير : أوهل صرنا بذات الاكيراح [١٤] ؟ قال : نعم . وأقبلت نحونا الرهابين مشدودة بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، اذا نظروا الى المرء استحيا ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح . فقالوا : اهلاً بك يا زهير من زائر ، وبصاحبك ابي عامر . ما بغيتك ؟ قال : حسن الدنان [١٥] ! قالوا : انه لفي شرب الخمرة ، منذ ايام عشرة ، وما نراكما منتفعين به . فقال : وعلى ذلك [١٦] ...

١ حداك : دفع بك . ٢ اصطفائك : اختيارك صديقاً لي . ٣ مقلوباً : ميالاً . ٤ مجنوباً : موجهاً نحوك . ٥ التوابع : جمع تابع ، والمقصود به الشيطان الذي يتبع الشاعر ويوحي اليه على اعتقاد اهل الجاهلية. ٦ الزوابع : جمع زوبعة ، والمقصود بها رئيس الجن. ٧ في لقاء من اتفق منهم : في لقاء من امكن لقاؤه. ٨ متن الجواد : ظهره . ٩ يجتاب : يقطع . ١٠ الدو : القفر . ١١ أبو عامر : كنية الكاتب ابن شهيد . ١٢ صاحب ابي نواس : يقصد به شيطانه الذي يلهمه الشعر . ١٣ النواقيس ، جمع ناقوس : نوع من الاجراس . ١٤ ذات الاكيراح : اسم مكان بالعراق ، كثير الكروم ، فيه دير كان يزوره ابو نواس لشرب الخمر من معاصره. ١٥ حسن الدنان : حسن اسم ابي نواس ، واضافه الى الدنان – وهي خوابي الخمر – لكثرة شربه . ١٦ « فقال : وعلى ذلك » ، قصد بها : ومع ذلك نريد ان نلقاه .

ونزلنا . وجاؤوا بنا الى بيت قد اصطفت دنانه ... وفي فرجته [١] شيخ طويل الوجه والسبلة [٢] ، قد افترش اضغاث زهر [٣] واتكأ على زق [٤] خمر ... فصاح به زهير : حياك الله !.. فجاوب بجواب لا يُعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لي زهير : اقرع أذن نشوته [٥] باحدى خمرياتك ، فانه ربما تنبه لبعض ذلك . فصحت أنشد من كلمة لي طويلة :

ولرب حانٍ قد أدرت بديره   خمر الصبا مُزجت بصفو خموره !

فصاح من حبائل نشوته: [٦] أأشجعي [٧] ؟ قلت : أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحاً [٨] فشرب منه وغسل وجهه فأفاق واعتذر الي من حاله . فأخذتني مهابته [٩] وأخذت في اجلاله لمكانه من العلم والشعر . فقال لي : أنشد ، او حتى أنشدك . فقلت : ان ذلك لاشد لتأنيسي [١٠] ، على انه ما بعدك لمحسن احسان . فأنشد :

يا ديرَ حنةَ من ذاتِ الاكيراحِ   مَن يصحُ فيكَ فاني لستُ بالصاحي

واستمر فيها حتى اكملها . ثم قال لي: أنشد . فقلت : وهل أبقيت للانشاد موضعاً ؟ قال : لا بُد لك ... فأنشدته ، فلما سمع قام يرقص ... ثم استدناني فدنوت منه ، فقبّل بين عينيّ ... وانصرفنا عنه وانحدرنا من الجبل ...

آدم يقول لابنائه : كذبتم على ربكم وحواء أمكم وآدم أبيكم وكذب بعضكم على بعض

ابن القارح صديق لابي العلاء المعري ، كتب اليه ابو العلاء « برسالة الغفران » وجعله فيها بطل رحلة خيالية الى الآخرة . وبلغ ابن القارح في رحلته اطراف الجنة فاطلع على الجحيم ومن فيها . ثم عاد أدراجه فاذا به يلقى أبانا آدم في الطريق فيجري بينهما هذا الحديث الذي ننقل نصه من رسالة الغفران :

– يا أبانا ، صلى الله عليك ، قد روي لنا عنك شعر منه قولك :

« نحنُ بنو الارضِ وسكانها   منها خُلقنا ، واليها نعودْ !

والسعدُ لا يبقى لأصحابه ،   والنحسُ تمحوهُ ليالي السعودْ ! »

١ فرجته : ساحته . ٢ السبلة : اللحية . ٣ أضغاث زهر : قطع زهر . ٤ الزق : وعاء تجعل فيه الخمر . ٥ اقرع اذن نشوته ، أي : أسمعه على سكره . ٦ حبائل نشوته : الحبائل هي الحبال . والنشوة : السكر . قصد ان ابا نواس صاح وهو مشدود بحبال السكر لا يستطيع حراكاً . ٧ أأشجعي : يسأله هل انت من «أشجع» وهي قبيلة ابن شهيد . ٨ ماء قراحاً : ماءً عذباً بارداً . ٩ مهابته : احترامه . ١٠ لتأنيسي : لتشجيعي .

فيقول : « ان هذا القول حق ، وما نطقه الا بعض الحكماء ، ولكنني لم أسمع به حتى الساعة . » فيقول : « فلعلك ، يا ابانا، قلته ثم نسيت ! فقد علمت ان النسيان متسرع اليك ، وحسبك شهيداً [١] على ذاك الآية المتلوة في قرآن محمد (صلعم) : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل ، فنسي ولم نجد له عزماً ! » وقد زعم بعض العلماء انك سميت انساناً لنسيانك... وقد روي ان الانسان من النسيان عن ابن عباس [٢] ، وقال الطائي [٣] :

« لا تنسين تلك العهود ، وانما سميت انساناً لانك ناسي ! »

فيقول آدم (صلعم) : « أبيتم إلا عقوقاً [٤] وأذية [٥] ! انما كنت اتكلم العربية ، وانا في الجنة . فلما هبطت الارض ، نُقل لساني الى السريانية ، فلم انطق بغيرها الى ان هلكت . فلما ردني الله ، سبحانه وتعالى ، الى الجنة عادت علي العربية . فاي حين نظمتُ هذا الشعر ؟ في العاجلة ام في الآجلة ؟ والذي قال ذلك يجب ان يكون قاله وهو في الدار الماكرة [٦] ، ألا ترى قوله : « منها خُلقنا واليها نعود » فكيف أقول هذا المقال ولساني سرياني ؟ وأما الجنة ، قبل ان اخرج منها ، فلم اكن ادري بالموت فيها ، وانه مما حُكم على العباد . وأما بعد رجوعي اليها ، فلا معنى لقولي : « واليها [٧] نعود » لانه كذب لا محالة ، ونحن معاشر أهل الجنة خالدون مخلدون ! »

فيقول : « ان بعض اهل السِيَر يزعم ان هذا الشعر وجده يعرب [٨] في متقدم [٩] الصحف السريانية ، فنقله الى لسانه ، وهذا لا يُمنع ان يكون . وكذلك يروون لك ، صلى الله عليك ، لما قتل قابيل هابيل :

« تغيرتِ البلادُ ومن عليها ، فوجهُ الارضِ مغبرٌ قبيحُ !
وأودى رُبع [١٠] أهليها فبانوا ، وغودر في الثرى الوجهُ المليحُ ! »

فيقول آدم (صلعم) : « أعزز علي بكم ، معشر بني ! انكم في الضلالة متهوكون [١١] ! آليت [١٢] ما نطقت هذا النظيم ، ولا نُطق في عصري . وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة الا بالله ! كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء امكم ، وكذب بعضكم على بعض ! »

١ حسبك شهيداً : كفاك شاهداً وبرهاناً . ٢ ابن عباس: هو عبد الله بن عباس عم النبي، كان فقيهاً فصيحاً . ٣ الطائي : هو ابو تمام الطائي الشاعر العباسي. ٤ عقوقاً : انكاراً لفضل الوالدين . ٥ الاذية : الاذى والضرر . ٦ الدار الماكرة، معناها، هنا: الدنيا . ٧ الضمير في « اليها» راجع الى الارض . ٨ يعرب : تقول الرواية انه الجد الاعلى لعرب الجنوب . ٩ متقدم، بمعنى: قديم وعريق . ١٠ كان اهل الارض يومئذ ، بحسب المعتقد الديني ، أربعة : آدم وابنيه وحواء . فلما قتل هابيل مات ربعهم . ١١ متهوكون : متخبطون . ١٢ آليت : أقسمت .

مثال على التراجم والسير

جرير وراعي الابل

اشتدت معركة الهجاء في العصر الاموي بين جرير والفرزدق. وتجادل الناس في أي الشاعرين أفضل، وتباينت آراء الشعراء واهل الادب، فمنهم من قضى للفرزدق على جرير[١]، ومنهم من قضى لجرير على الفرزدق... وكان في العصر الاموي شاعر اسمه عُبيد من قبيلة نُمير يلقبُ براعي الابل لكثرة وصفه الابل في شعره، انحاز الى الفرزدق فحكم له على جرير.

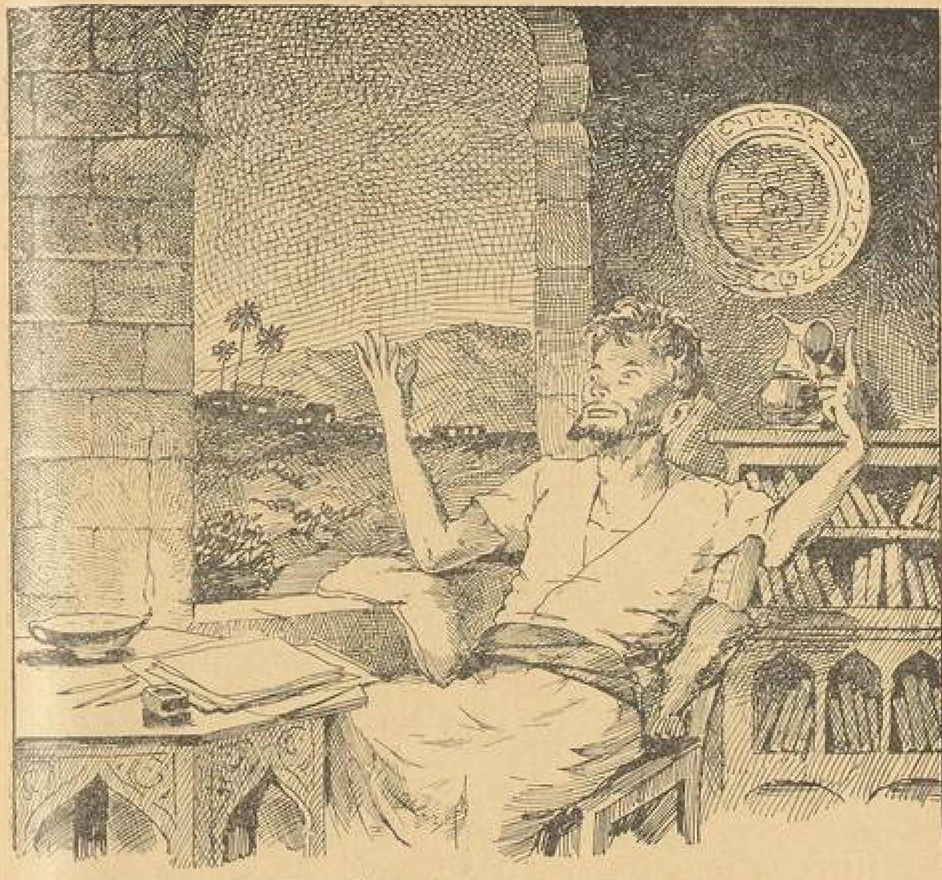
وهذا ابو الفرج الاصبهاني يروي لنا ما استتبعه هذا الحكم من ذيول وكيف انتهى الامر بغضب جرير وهجائه راعيَ الابل وقومه هجاء مراً ألحق بهم المذلة. وتعتبر هذه القطعة داخلة في باب التراجم والسير لان ابا الفرج روى فيها حادثة من حياة جرير وصور جانباً من اخلاقه ومن طريقته في نظم الشعر عند سخطه وهياجه.

كان راعي الابل يقضي للفرزدق على جرير ويفضله. فلما اكثر من ذلك خرج جريرٌ الى رجال من قومه، فقال: هلا تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق عليَّ، وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم!

ثم خرج ذات يوم يمشي ولم يركب دابته. وكان لراعي الابل والفرزدق وجلسائهما حلقةٌ بأعلى المربد[١] بالبصرة يجلسون فيها. قال جرير: فخرجت اتعرض له لألقاه حيث كنت اراه يمر اذا انصرف من مجلسه، وما يسرني ان يعلم احد. حتى اذا مر على بغلة له، وابنه جندل يسير وراءه على مهر له أحوى[٢] محذوف الذنب، فلما استقبلته[٣] قلت: مرحباً بك يا ابا جندل! وضربت بشمالي على معرفة بغلته[٤]، ثم قلت: يا أبا جندل! ان قولك يُستمع، وانك تفضل الفرزدق علي تفضيلاً قبيحاً، وأنا امدح قومك وهو يهجوهم، ويكفيك من ذلك اذا ذُكرنا أن تقول: كلاهما شاعر كريم، ولا تحتمل مني ولا منه لائمةً[٥].

١ المربد: سوق قديمة في مدينة البصرة كان يجتمع فيها الشعراء واهل الادب. ٢ احوى: اخضر شديد الخضرة يميل الى السواد. ٣ استقبلته: صرت امامه وجهاً لوجه. ٤ معرفة بغلته: شعر رأسها او رقبتها. ٥ لائمة: لوم.

جرير بن عطية الخطفي



فغض الطرف انك من نمير ، فلا كعباً بلغت ولا كلابا !

فبينا أنا وهو كذاك وما رد علي شيئاً ، اذ لحق به ابنه جندل ، فرفع كرمانية [١] معه ، فضرب بها عجز بغلته [٢] ، ثم قال : لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب [٣] كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً !

وضرب البغلة ضربة فرمحتني [٤] رمحة وقعت منها قلنسوتي ، فوالله لو عرّج علي [٥] الراعي لقلت : سفيه غوي (يعني جندلاً ابنه). ولكن لا والله ما عاج علي ، فأخذت قلنسوتي فمسحتها ، ثم أعدتها على رأسي ، ثم سمعت الراعي قال لابنه : أما والله لقد طرحت

١ الكرمانية : نوع من السياط . ٢ عجز بغلته: قفاها. ٣ كلب بني كليب: يقصد به جريراً، وكليب اسم قبيلة جرير . ٤ رمحته : رفسته . ٥ عرج علي : التفت الي واكترث لامري .

فقلنسوته طرحة مشؤومة .

فانصرف جرير غضبان حتى صلى العشاء بمنزله في علية [١] له ، ثم قال : ارفعوا الي باطية [٢] من نبيذ وأسرجوا لي [٣] . فأسرجوا له ، وأتوه بباطية من نبيذ . قال : فجعل يهمهم [٤] ، فسمعت صوته عجوز في الدار ، فاطلعت في الدرجة حتى نظرت اليه ، فاذا هو يحبو [٥] على الفراش عرياناً لما هو فيه ، فانحدرت فقالت : ضيفكم مجنون ! رأيت منه كذا وكذا ! فقالوا لها : اذهبي لطيتك [٦] ، نحن أعلم به وبما يمارس . فما زال كذلك حتى كان السحَر ، ثم اذا هو يكبّر [٧] ، قد قالها ثمانين بيتاً في بني نمير ، فلما ختمها بقوله :

فغضَّ الطرفَ انك من نُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا [٨]

كبر ، ثم قال : أخزيته [٩] ورب الكعبة ! ثم أصبح ، حتى اذا عرف ان الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد ، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق ، دعا بدهن فادهن ، وكف [١٠] رأسه — وكان حسن الشعر — ثم قال : يا غلام ، أسرج لي [١١] . فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلسهم ، حتى اذا كان بموضع السلام [١٢] ، قال : يا غلام — ولم يسلم — قل لعَبيد [١٣] : أبعثك نسوتك تكسبهن المال بالعراق ؟ اما والذي نفس جرير بيده لترجعن اليهن بمير [١٤] يسوءهن ولا يسرهن !

ثم اندفع فيها فأنشدها ، فنكس الفرزدق وراعي الابل وأرمّ القوم [١٥] ، حتى اذا فرغ منها سار ، وثبت راعي الابل ساعة ، ثم ركب بغلته بشرّ وعرّ [١٦] ، وخلّى المجلس حتى ترقى الى منزله الذي ينزله ، ثم قال لاصحابه : ركابَكم ركابَكم [١٧] ، فليس لكم ها هنا مقام . فضحكم والله جرير . فقال له بعض القوم : ذاك شؤمك وشؤم ابنك . ثم رحل بنو نمير فوجدوا البيت [١٨] قد سبقهم .

١ علية : غرفة . ٢ الباطية : وعاء للخمر . ٣ اسرجوا لي : اوقدوا لي سراجا . ٤ يهمهم : يردد صوتاً خفياً لا يفهم . ٥ يحبو : يتحرك ويتقلب . ٦ اذهبي لطيتك : انصرفي واهتمي بحاجتك . ٧ يكبر ، يصيح : الله اكبر . ٨ معناه : اخفض بصرك الى الارض ! فمن تكون الا رجلاً من بني نمير ؟ ومن يكون بنو نمير هؤلاء ؟ اتراهم بلغوا بني كعب او بني كلاب ؟ وهكذا حقره ، وحقر قومه وفضل عليهم بني كعب وكلاب وهم اقارب بني نمير ، وكان العرب يتأذون جداً من تفضيل القبيلة الشقيقة على قبائلهم . ٩ أخزيته : اخجلته والبسته العار . ١٠ كف شعره : رده الى وراء وضم اطرافه . ١١ أسرج لي ، هنا ، بمعنى : ضع لي سرجاً على دابة اركبها . ١٢ موضع السلام ، أي : المكان الذي يلقي منه الرجل سلامه على الجالسين . ١٣ عبيد : اسم راعي الابل . ١٤ المير : الكسب والرزق . ١٥ أرم القوم : سكتوا . ١٦ العر : الجرب ، وهو هنا عبارة عن الخزي والعار والفضيحة . ١٧ ركابكم ، اي : اركبوا ولنرحل . ١٨ البيت ، أي : بيت الشعر الذي ورد في قصيدة جرير : فغض الطرف انك من نمير ...

مثالان على المقالة

التعاون ضروري للبشر



عبد الرحمن بن خلدون

عبد الرحمن بن خلدون ١٣٣٢م–١٤٠٦م (٧٣٢هـ–٨٠٨ هـ)هو من اعظم نوابغ القرن الثامن للهجرة ، اي الرابع عشر للميلاد . ولد ونشأ في تونس في شمالي افريقية . وشغل المناصب العالية لدى بلاط غرناطة في الاندلس ، ثم لدى المماليك في القاهرة . وقدم سوريا مع سلطان المماليك لمقابلة الغازي المغولي تيمورلنك ... كان ابن خلدون قاضياً ومؤرخاً كبيراً . لكن عبقريته ظهرت في التمهيد الذي وضعه لكتابه: «العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر». ويعرف ذلك التمهيد بـ « **مقدمة ابن خلدون** » وهي مجلد ضخم (طبع مراراً) ضمّنه مؤلفه فصولاً مبتكرة في علم التاريخ والاجتماع حتى عده كبار الباحثين مؤسّسَ هذا العلم ، كما سبق معنا القول .

ولكن ابن خلدون ليس مفكراً عميقاً وحسب، بل هو من اقدر المنشئين على كتابة المقالة وان كان نثره يخلو من التأنق والزينة .واذا شئت ان تلمس مقدرة ابن خلدون في تركيز المقالة على الموضوع فاسأل نفسك الاسئلة الآتية : ما الفكرة الرئيسية التي شاء ان يثبتها في هذه المقالة ؟ هل اثبتها؟ وبأي البراهين ؟ ثم هل تراه خرج في شيء على موضوعه ؟

وبعد ، فاليك المقالة :

ان الاجتماع الانساني ضروري . ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : الانسان مدني بالطبع ، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران .

وبيانه ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء، وهداه الى التماسه بفطرته [١] وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله . الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه . ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن [٢] والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين [٣] وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. وهب أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حباً [٤] الى اعمال اخرى اكثر من هذه مثل الزراعة والحصاد والدّراس [٥] الذي يخرج الحب من غلاف السنبل . ويحتاج كل واحد من هذه الى آلاتٍ متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى . ويستحيل ان تفي بذلك كله او ببعضه قدرة الواحد . فلا بد من اجتماع القُدَر [٦] الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم .فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف [٧] .

وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه . لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الانسان . فقدرة الفرس مثلاً اعظم بكثير من قدرة الانسان . وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته. ولما كان العدوان [٨] طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته [٩] ما يصل اليه من عادية [١٠] غيره . وجعل للانسانِ عِوضاً من ذلك كله الفكرَ واليد . فاليدُ مُهيأةٌ للصنائعِ بخدمةِ الفكر. والصنائعُ تُحصل له الآلاتِ التي تَنُوب عن الجوارح [١١] المعدة

١ بفطرته : بغريزته. ٢ بعلاج كثير من الطحن: بممارسة كثير من الطحن... ٣ مواعين جمع ماعون ، وهو الشيء او المادة التي تعين ، اي تساعد ، على عمل شيء او مادة اخرى . ٤ في تحصيله حباً : في تحصيله وهو بصورة حب . ٥ الدراس : سحق القش من القمح المحصود بالنورج على البيدر .
٦ القدر: جمع قدرة . ٧ « فيحصل بالتعاون قدرَ الكفاية من الحاجة لأكثر منهم باضعاف»، أي : ان جمعاً من الناس اذا تعاونوا على عمل انتجوا منه مقادير تزيد على حاجتهم باضعاف . ٨ العدوان: الاعتداء والحاق الاذى بالغير واخذ ماله بالغصب . ٩ المدافعة هنا بمعنى الدفع. تقول: دافعته عن نفسي، أي: دفعته عن نفسي ومنعته أن يؤذيني . ١٠ عادية : مصيبة، شر، اذى . ١١ تنوب عن الجوارح : تحل محلها . والجوارح : الاعضاء .

في سائر الحيوانات للدفاع ، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة ، والتراس [١] النائبة عن البشرات [٢] الجاسية [٣] الى غير ذلك مما ذكره جالينوس [٤] في كتاب منافع الاعضاء . فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العُجم [٥] سيما المفترسة . فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة . ولا تفي قدرته ايضاً باستعمال الآلات المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه .

اثر القافية في الشعر

سليمان البستاني ، صاحب هذه المقالة ، أديب من اعلام النهضة الحديثة . ولد في احدى قرى لبنان ، سنة ١٨٥٦ ، وتوفي في نيويورك سنة ١٩٢٥ وكان قد قصد اليها لمداواة عينيه . تولى المناصب في الدولة العثمانية وأصبح وزير التجارة والزراعة فيها . وأجاد عدداً من لغات العصر واللغات القديمة ومنها اليونانية التي عرب عنها الياذة الشاعر هوميروس شعراً ، ووضع لها مقدمة ادبية كبيرة اجتزأنا منها هذه المقالة التي يبحث بها أثر القافية في الشعر .

والناظر في أقسام هذه المقالة يرى ان كاتبها لم يطل وقوفه على المدخل ، بل تقدم فوراً الى صلب الموضوع . فذكر ان اختيار القافية في الشعر أمر مهم . ثم ادرك ان لا بد من تبيان السبب فشبه الشعر بالنغم الموسيقي والقافية بقرار النغم . وفطن الى ان السائل لا بد ان يسأله ، اذاً ، عن القاعدة في اختيار القوافي . فأجابه أن ليس ثمة قواعد بل ارشادات ، منها : أن يتجنب الشاعر القوافي الضيقة ، أي : القوافي التي تخلو اللغة من كلمات كثيرة عليها . وزيادة في الايضاح ، ضرب لنا امثالاً من قصيدة للمتنبي على حرف الذال وقصائد لصفي الدين الحلي على حرف الثاء والخاء والظاء . وانتهى الى القول ان القافية تحوج الشاعر الى أن يكدّ نفسه في نظم البيت كدّاً يمكّنه من الوصول به الى كلمة معينة . وهكذا يصبح البيت حشواً للقافية ، وهذا مكروه . وهنا فرغ الكاتب من صلب موضوعه ، وبات عليه أن يختمه بخاتمة موافقة ، يودع فيها ذهن القارىء زبدة المقالة ، فأوصاه بأن العمدة في اختيار القوافي

١ التراس : جمع ترس. ٢ البشرات : جمع بشرة وهي الجلدة. ٣ الجاسية : السميكة الصلبة.
٤ جالينوس : اسم طبيب يوناني قديم . ٥ العجم : جمع أعجم وهو العاجز عن النطق ، وبه يوصف الحيوان ، فيقال : حيوان أعجم وبهيمة عجماء .

انما هي الذوق ...

قوافي الشعر كبحوره يجود بعضها في موضع ويفضله غيره في موضع آخر . وحسبك دليلًا ان جميع قراء الشعر يطربون لبعض القوافي دون البعض الآخر . واذا نظم شاعر واحد قصيدتين على بحر واحد بمعنى واحد ونفَس واحد ، فلا ريب ان القافية الغنّاء [١] تميل بالسامع الى ايثارها [٢] على اختها . ولا ريب ان اختيار قافية القصيدة ابعدُ منالاً من اختيار بحرها ، وذلك بنسبة ما يربو [٣] عدد القوافي على عدد البحور . والمرجع في ذلك الى سلامة الذوق وغزارة المادة . فالقريحة الجيدة في غنى عن اصول توضع لها بهذا المعنى ، لو فرضنا من الممكن وضع مثل هذه الاصول . ومع هذا فلا بأس من ايراد بعض ملحوظات تتراءى للناظم اثناء النظم والقارىء اثناء المطالعة .

الشعر كالنغم الموسيقي والقافية دسته او قراره [٤] . فحيثما جاد النغم وتناسق الى منتهاه حسن وقعه في الاذن وانشرح له الصدر وطربت له الاذن . فكل نغم اطرب ارباب الصناعة وارباب الاذن السّماعة فهو الحسن . وهكذا الشعر فلا يحسن وقعه في نفوس قرائه وسامعيه ما لم يكن جيداً . وقد يستهان [٥] بالمعنى البليغ لضعف قافية او وقوعها في غير موضعها .

واول ما يجدر بالشاعر اجتناب القوافي الصعبة ، فانه يضطر معها الى استعمال الكلام المنبوذ والوحشي المهمل، ويضيق في وجهه باب التصرف بالمعاني على ما يتصورها . فيعضل عليه النظم [٦] وعلى قارئه الفهم . ولنضرب لذلك مثلًا نابغة من نوابغ الشعراء ابا الطيب المتنبي . فخذ قصيدته التي مطلعها :

أمُساورٌ أم قرنُ شمسٍ هذا ... أم ليثُ غابٍ يقدمُ الاستاذا [٧]

وقابلها بمعظم شعره ، فيبدو لك من استغلاق العبارة والتكلف ما يحملك على الظن انها ليست من نظمه لو لم تكن مثبتة في ديوانه . وان اردت برهاناً اقرب فانظر الى محبوكات صفيّ الدين الحلي [٨] كلها منظومة في باب واحد واقرأ الثائية والخائية والظائية [٩] . وان

١ القافية الغنّاء : القافية الرنانة . ٢ ايثارها : تفضيلها . ٣ يربو : يزيد . ٤ دست النغم او قراره: هو النهاية التي ينتهي اليها . ٥ استهان بالشيء : ازدراه واستقل قيمته . ٦ يعضل عليه النظم : يستعصي عليه . ٧ مساور: اسم الرجل الذي يمدحه المتنبي بهذه القصيدة. ومعنى البيت : اهذه طلعة مساور ، ام طلعة الشمس ، ام طلعة اسد ؟ يريد المتنبي ان يعظم ممدوحه بانه كالشمس اول طلوعها او كالاسد الطالع من الاجمة . ٨ محبوكات صفي الدين الحلي: هي مجموعة قصائد للشاعر صفي الدين الحلي في غرض واحد . ٩ الثائية : قصيدة قافيتها حرف الثاء ، والخائية قافيتها الخاء ، والظائية قافيتها الظاء .

كنت صبوراً جلداً فأتم قراءتها من اولها الى آخرها ، وقل لي بعد ذلك رأيك فيها . ففي مثل هذا المأزق الضيّق يضطرّ الشاعرُ الى اتخاذ جميع البيت تتمة للقافية ، مع ان الغرض من القافية ان تكون تتمة للبيت مندمجة في معناه . فاذا كُره في القافية ، وهي كلمة واحدة ، ان تكون حشواً[1] للبيت فكم يكره ان يكون جميع البيت حشواً للقافية ؟..

وكما ان العرب نظموا جميع المعاني على جميع البحور فقد كان هذا شأنهم في القوافي فلم يقيدوا قافية بباب من الابواب . وخيرٌ للقوافي ان تبقى مطلقة يتخير منها الشاعر ما شاء فتأتيه ارسالاً . فان سلم ذوقه جاءته منقادة طوعاً ، فحلت محلها ، والا فلا يسلم الذوق كرهاً[2] .

انشاء ادبي

هل تعد قصة المنفلوطي : « الهاوية » ممكنة الوقوع في الحياة ؟ الى أي شيء رمى الكاتب بقصته ؟ وأي شعور احدثه لك ؟ قيل : ان وظيفة الكاتب ان يجلو لنا الجميل لا القبيح في الحياة كما فعل المنفلوطي ، فما رأيك ؟

اكتب انشاء في قصة المنفلوطي : « الهاوية » ، ضمّنه الجواب عن هذه الاسئلة .

١ الحشو في الكلام هو الذي يستغنى عنه .   ٢ الكره ، هنا : القسر والاجبار .

الوصف

ما الوصف .—يقول امرؤ القيس الشاعر الجاهلي في معلقته :

وليلٍ كموجِ ٱلبَحرِ ، أرخى سُدولَهُ
عَليَّ بِأنواعِ ٱلهُمومِ لِيَبتَلِي ١

فَقُلْتُ لهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلبِهِ ، وَأَرْدَفَ أَعجازاً ، وناءَ بِكَلْكَلِ : ٢

ألا ايها ٱللَيلُ ٱلطَّويلُ ! ألا ٱنجَلِ
بِصُبْحٍ ، وما ٱلإصباحُ منكَ بِأَمْثَلِ ٣

فيا لكَ مِنْ ليلٍ كأنَّ نُجومَهُ بِكُلِّ مُغارِ ٱلفتلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ ٤

كأنَّ ٱلثُّرَيَّا عُلِّقَتْ في نَصابِها بِأَمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَندلِ ٥

ننثر هذه الابيات فيكون لنا ما يأتي :

ربَّ ليل ممتد ، عريض ، طاغ كموج البحر ، أهبط ستائره عليَّ وأنزل معها انواع الهموم ليمتحن صبري . فلما رأيته يستلقي بذلك الجسم العظيم فيمد ظهره ، ويُتبعه مؤخره ، ويرزح بصدره الثقيل ، قلت له : انجل ايها الليل ، تبدد أمام الصبح ، ولكن

١ سدول: جمع سدل ، والسدل : الستر . وقوله : ليتلي ، اراد به ليبتليني ، أي يمتحن صبري . ٢ تمطّى : تمدد . بصلبه : بظهره . أردف : أتبع ، أتى بالشيء بعد الشيء . الاعجاز : جمع العجز ، والعجز : مؤخر الشيء . عجز الشعر : شطره الاخير . عجز الجسم : مؤخره . ناء : سقط ، او نهض بجهد ومشقة . يقال : ناء بالحمل ، أي : قام به او قعد ، مبهوظاً بثقله . الكلكل : الصدر . ٣ الاصباح : طلوع الصبح . أمثل : أفضل . ٤ يا ، هنا : حرف تنبيه . والجار والمجرور : لك ، متعلق بمحذوف تقديره : عجباً . مغار ، هنا ، بمعنى : محكم ، شديد ، وثيق . وقوله : مغار الفتل ، كناية عن الحبل الذي فتل فتلاً محكماً قوياً . يذبل : جبل في نجد . ٥ الثريا : سبعة كواكب مجتمعة . نصابها ، هنا ، بمعنى : مكانها . ونصاب الشيء : أصله ، قاعدته . امراس كتان : حبال مصنوعة من كتان . صم جندل : صخر صلب .

أيكون الصبح أفضل منك ؟ عجباً لك من ليل طويل لا تتحرك نجومه كأنها مشدودة بالحبال الى جبل يذبل ، ولا تتزحزح ثرياه كأنها معلقة بأمراس الكتان الى صخر صلب .

فما الذي يصنع امرؤ القيس في هذا المقطع الشعري ؟

انه ينعت ليلاً طويلاً ويصور ما عانى فيه من ضيق .

فامرؤ القيس يصف ، هنا ، وجهاً من وجوه الطبيعة ، هو الليل ، ويصف شعوراً أحسه مع ذلك الليل هو الشعور بالضيق .

فهذا المقطع لامرىء القيس هو من شعر الوصف .

ويقول المنفلوطي في قصة « الهاوية » التي اثبتناها له مع منتخبات الفصل السابق ، يقول مصوراً ما آل اليه صديقه بعد ادمانه الخمرة[١] :

« وهكذا ما زالت الايام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله ، حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، او حلماً من الاحلام السارية ، يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينيه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيعه ، او يقلب نظره في اثوابه وما في اثوابه غير الرقاع والخروق . وينظر الى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً ، وليس له عدو ولا صديق . وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ، ولا محتفل ، كأنما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه . حتى اذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها في رأسه انحدر الى الحان فلا يزال يشرب ويتزيد حتى يعود الى ما كان عليه . »

والمنفلوطي ، هنا ، يصف كذلك ، ووصفه بالنثر .

وهكذا **الوصف فن ادبي يدخل في كل فن**، فيكون شعراً كما يكون نثراً . ويتخلل الشعر الغنائي بجميع اغراضه من مدح وهجاء ورثاء وغزل الخ ... كما يتخلل الشعر الملحمي والشعر التمثيلي . ويعرض في فنون النثر جميعها فيدخل في الخطبة والرسالة والقصة ، كما يدخل في الرحلة والتاريخ والسيرة الخ.

وحدّ الوصف انه **تصوير لفرد او جماعة او حادثة ، او بيان عن مشهد من مشاهد الطبيعة والعمران ، او نعت لما يخالج العقول والارواح من افكار وعواطف.**

الوصف نوعان . — والوصف يقع في نوعين رئيسيين . فمنه وصف يؤدي اشكال

[١] انظر الصفحة ٢٨٢

الاشياء وألوانها وملامسها وطعومها وروائحها ، ويصوّر اثرها تصويراً تقع عليه الحواس . ويسمى هذا **الوصف الحسي** .

ولكن من الوصف ما يتناول حركات النفس ، واثر الامور والاشياء في النفس . وهذا الوصف يسمى **المعنوي** .

ومثال الوصف الحسي قول ابن الرومي في العنب الرّازقي :

ورَازِقيّ مُخْطَفِ الخُصُورِ [١]
كأنه مخازنُ البلور
قد ضُمِّنت مِسْكاً إلى الشُّطور [٢]
وفي الأعالي ماءَ وَرْدٍ جُوري
لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحُرورِ [٣]
الأَ ضياءً في ظُروفِ نور
لو أنه يَبْقى عَلى الدُّهورِ
قَرّطَ آذانَ الحِسانِ الحُورِ [٤]

وصف ابن الرومي العنب الرازقي بان حبه ضامر الوسط ، وقشرته شفّافة مشرقة كأنها مخزن للبلور ، النصف الادنى من حبه اسود اللون والنصف الاعلى احمر له لون ماء الورد ، وقد انضجته شدة الحر وصفّته حتى لم يبق منه الا ضياءٌ في اغلفة من نور ، فلو انه كان يبقى على الايام للبسته الحسان حلقاً في آذانها !..

وهذا كله من الوصف الذي تتناوله حاسة النظر ، فهو وصف حسي .

والوصف الحسي هو الغالب على الادب الجاهلي والاموي . ولسنا نغالي اذا قلنا ان الطريقة العربية في الوصف قد نزعت ، في كل العصور ، الى تصوير الموصوفات صوراً حسية ، بل اكثر ما اتخذت الموصوفاتِ الحسية موضوعاً للوصف .

١ مخطف : ضامر . الخصور : جمع خصر ، وخصر الشيء : منتصفه . ٢ الشطور : جمع شطر ، وشطر الشيء : نصفه . ٣ الحرور : جمع حر وهو ضد البرد . ٤ قرط : كان قرطاً ، اي : حلقاً في الاذن .

اما مثال الوصف المعنوي فقول ابي تمام ، من شعراء العصر العباسي الثاني ، يمدح احد القادة ويصف شجاعته في الهجوم على العدو :

رَآهُ ٱلْعِلْجُ مُقْتَحِماً عَلَيْهِ كَمَا ٱقْتَحَمَ ٱلْفَنَاءُ عَلَى ٱلْخُلُودِ

وقول ابن المعتز الشاعر العباسي في الخمرة المعتقة الرائقة :

لَقَدْ خَفِيَتْ من صَفْوِها فَكَأَنَّها بَقَايَا يَقِينٍ كَادَ يُذْرِكُهُ ٱلشَّكُّ

اراد ابو تمام ان يمثل هول ممدوحه في الهجوم على العدو فشبهه بسطوة الفناء على الخلود . وهذا وصف معنوي، لان الفناء والخلود معنويان لا يقع عليهما الحس ولكن يدركان بالعقل. وشاء ابن المعتز ان يمثل تناهي خمرته في الصفاء والرقة فشبهها باليقين الذي كاد يلحقه الشك فيمحوه . وهذا ايضاً وصف معنوي ، لان اليقين والشك معنويان لا حسيان .

والوصف المعنوي لم يظهر في الادب العربي الا مع الاعصر العباسية حين كثر اشتغال اهل العربية بالعقليات ، ودارت في كلامهم الالفاظ العقلية من مثل الشك واليقين ، والفناء والخلود .

هذا ، وكثيراً ما يجمع الكاتب او الشاعر بين نوعي الوصف ، فينتقل في الموضوع الواحد من الحسي الى المعنوي ، ومن المعنوي الى الحسي ، والمخيلة هي واسطة هذا الانتقال كما انها واسطة الوصف كله . فبمقدار ما تكون مخيلة الاديب قوية يقظة تختزن صور الاشياء، وتحسن الانتقال والربط بينها ، وينطبع فيها تأثير الحوادث والامور ، تكون اوصاف الاديب موفقة رائعة .

قال المتنبي :

وَيَومٍ كَلَيْلِ العاشقين كمنتُهُ أُرَاقِبُ فيه الشمسَ أيّانَ تغربُ
وعيني إلى أُذُنَيْ أَغَرَّ كأنَّهُ من ٱللَّيْلِ بَاقٍ بين عَيْنَيْهِ كوكَبُ

وصف المتنبي يوماً موحشاً ثقيل الوطأة عليه ، فشبهه بليل العاشقين لما يكابد هؤلاء في ليلهم من أشجان الذكرى وألم الاشواق . وهذا وصف معنوي. ثم صور لنا نفسه يمتطي في هذا اليوم جواداً فينطلق مراقباً مغرب الشمس خلال المنفرج بين اذني جواده . ثم ذكر ان للجواد غرة في جبينه ، فانتقل به الخيال الى صورة الكواكب السماوية ، فزعم ان

هذه الغرة ليست سوى كوكب علق من الليل في جبين جواده .

وسائل الوصف . — وللوصف وسائل أشهرها في اللغة هذا اللفظ الذي نسميه **صفة** ، وسواء وردت في شكل صفة مشبهة ، أو اسم فاعل ، او اسم مفعول ، أو افعل تفضيل ، وأشهر مواقعهـا في الاعراب ان تكون نعتاً او حالاً ... قال احمد فارس الشدياق: « من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدى ورشـداً ونزاهة نفس ... فمثله كمثل الجوهر الشفاف اذا قابله شعاع الشمس. »

فقوله: «مجبول» — وان يكن خبراً — صفة دخلت في جملة هي حال ممن يتعلم العلم. وقوله: « حميدة » نعت لـ « صفات ». وقوله « الشفاف » نعت للجوهر. والشرط في استعمال الصفات، ولاسيما النعوت، ان تكون مما يزيد في وصف ملامح الصورة او ممـا لا يستغنى عنه في تقويم المعنى ، على نحو ما رأينا في كلام الشدياق ، والا اعتبر النعت حشواً ، والحشو عيب . ومـا اكثر ما يتعرض الكتّاب والشعراء للحشو من باب الاسراف في النعوت خاصة . بل مـا اكثر ما يقعون في التقليد اذ يجدون نعتاً وافق منعوتاً فلا ينفكون يلصقون ذلك النعت بذلك المنعوت كقولهم : فتحٌ مبين . فقلّ اديب اراد وصف « الفتح » الا نعته بـ « المبين » تقليداً للقرآن . ولكن المتنبي تحاشى هذا التقليد فاختار للفتح نعتاً آخر حين قال :

وَمَن طَلَبَ ٱلفَتحَ ٱلجَليلَ فَإِنَّمَا مَفاتيحُهُ البيضُ ٱلخِفافُ ٱلصَّوارِمُ

فحُسِبت له هذه من دلائل استقلاله بفنه وشخصيته .

ومن وسائل الوصف ايضاً **الالفاظ التصويرية** ، وهي التي تدل بمخارج حروفها على ما ترمز اليه من اصوات ، او تدل على معانيها بتركيب مقاطعهـا . فـ « الحفيف » لصوت ورق الشجر اذا حركه النسيم ، و « الخرير » لصوت انسكاب المياه ، و « العجيج » لصوت اضطراب الموج ، كلها الفاظ تمثل بمخارج حروفها الاصوات التي ترمز اليها . واذا نظرنا في قول الشاعر :

أُراعي نجومَ الليلِ وَهيَ كأنَّها قواريرُ فيها زِئْبَقٌ يَتَرَجرَجُ

وجدنا لفظة « يترجرج » بمقطعيهـا « رَجْ ... رَجُ » تدل على مـا يتكرر من حركة ومض النجوم ضعفاً وشدة . ومثل « يترجرج » لفظة « يتلألأ » و « يتذبذب » الخ .

ووسيلة اخرى من وسائل الوصف: **التشبيه** . وهو بيان المشابهة بين شيء وآخر من

ناحية حسية او معنوية،وغرضه توضيح صورة في الذهن او تقريب حقيقة حال من الاحوال او تزيين شيء او تقبيحه . وللتشبيه أربعة أركان : مشبه ومشبه به ووجه شبه وأداة تشبيه . قال امرؤ القيس في معلقته :

وَوادٍ كَجَوفِ العَيرِ قفرٍ قَطَعْتُهُ بهِ ٱلذئبُ يَعْوِي كالخَليعِ ٱلمُعَيَّلِ [1]

ففي هذا البيت تشبيهان في صدره وعجزه. اما التشبيه الاول فتفصيله على النحو الآتي :

وادٍ : مشبه .

الكاف [2] : اداة تشبيه .

جوف العير : مشبه به .

قفر : وجه الشبه .

واما التشبيه الآخر فتفصيله :

الذئب : مشبه.

الكاف : اداة تشبيه .

الخليع المعيّل : مشبّه به .

العواء والصياح : وجه الشبه .

أراد الشاعر انه سمع هذا الذئب الجائع يعوي كما يصيح الفقير الكثير العيال نادباً سوء حاله لانه لا يجد ما يأكله ويقوت به عياله .

والتشبيه اما أن تُذكر فيه اركانه كلها ، واما ان تُحذف منه اداته ، او يُحذف وجه الشبه ، او تُحذف الاداة ووجه الشبه معاً كقولنا : العلمُ نورٌ .ويسمى عندئذ تشبيهاً بليغاً.

وربما كان التشبيه بسيطاً يتضمن مشبهاً ومشبهاً به واحداً . الا ان فحول الكتّاب والشعراء يعددون المشبه والمشبه به في نطاق التشبيه الواحد ، كقول الفرزدق :

والشيبُ يَنهضُ في الشبابِ كأنه ليلٌ يصيحُ بجانبَيهِ نَهارُ

ففيه اثنان مشبهان ، واثنان مشبه بهما... شبه الشيب بالنهار ووجه الشبه بينهما البياض، وشبه الشباب بالليل ووجه الشبه بينهما السواد. ومثّل مسرى الشيب في الشباب بغلبة النهار على الليل . ويسمى هذا النوع تشبيه تمثيل.

١ جوف العير : جوف الحمار . الخليع: الفقير المعدم . المعيل : صاحب العيال الكثيرة . ٢ ومثلها كأن ويُشبه ويحكي ويحاكي ويماثل ويضارع ،كلها تستعمل ادوات تشبيه .

وقد يخلو التشبيه من التصريح بذكر المشبه والمشبه به، على أن يحصلا تحصيلاً من تركيب الكلام، كقول ابي تمام :

وإذا أرادَ اللهُ نَشرَ فَضيلَةٍ طُوِيَت أتاحَ لها لِسانَ حَسُودِ
لولا اشتِعالُ النَّارِ في ما جَاوَرت ما كانَ يُعرَفُ طيبُ عَرْفِ العُودِ

فاذا تأملنا البيتين وجدنا الشاعر فيهما قد شبه ضمناً لسان الحسود باشتعال النار، والفضيلة بعود البخور، ليفضي من ذلك الى اثبات الفكرة الآتية : ان الحساد يتناولون اصحاب الفضائل بألسنتهم اللاذعة ولكنهم لا يزيدون على ان ينشروا جمال فضائل المحسودين كالنار تحرق العود ولكنها في الوقت نفسه تذيع رائحته الطيبة ... ويسمى هذا النوع **تشبيهاً ضمنياً**.

هذا، وقد يأتي المشبه به في بعض التشابيه قصة، على نحو ما صنعت الخنساء حين جعلت حزنها على أخيها صخر كحزن أم من الحيوان مات ولدها، فسلخ وحشي جلده تبنـــاً، فراحت تطيف به وتحن اليه وترتع وترعى في المراعي ولكنها لا تسمن. (انظر ص: ١٥٤).

ويعرف هذا النوع من التشبيه **بالتشبيه القصصي**.

والاصل في التشبيه ان تكون الصفة، التي هي وجه الشبه، أقوى في المشبه به منها في المشبه. قال النابغة الذبياني في اعتذاره الى النعمان :

وأنتَ رَبيعٌ يُنعِشُ النَّاسَ سَيبُهُ وَسَيفٌ أُعيرَتْهُ المَنيَّةُ قَاطِعُ

فاستقام تشبيهه لان صفة الجمال والخير في الربيع، وصفة الهيبة والسطوة في السيف، أقوى منها في الملك النعمان. لكن مع هذا ربما عمد الكاتب او الشاعر الى قلب نظـــام التشبيه فجعل مشبهاً به ما حقه ان يكون مشبهاً، وجعل مشبهاً ما حقه ان يكون مشبهاً به، ويسمى التشبيه عندئذ مقلوباً. قال الشاعر :

البَدْرُ وَجهُكِ في صَافي غُلالَتِهِ وحُمرَةُ الوَرْدِ بين الرَّوضِ خدَّاكِ

فشبه البدر بوجه المحبوبة وحمرة الورد بخديها. وكان المنتظر ان يشبه وجهها بالبدر وخديها بحمرة الورد. غير انه عدل الى هـذا التشبيه المقلوب رغبة في زيادة التأكيد.

وللوصف وسائل أخرى غير التشبيه منها **الاستعارة** وهي في الاصل تشبيه حـذف منه المشبه او المشبه به وادخلت عليه قرينة تدل على ان فيه استعارة. فـاذا كان المشبه هو المحذوف، مع وجود القرينة الدالة على الاستعارة، سميت الاستعارة تصريحية. قال

ابو نواس يصف الجارية جناناً وقد رآها تندب في مأتم :

يا قمراً أخرجه مأتمٌ يندبُ شجواً بين أتراب
يبكي فيُذري الدُّرَّ من نرجسٍ ويلطِمُ الوردَ بعُنّابِ

فانه اراد في الاصل ان يقول : يا جميلاً ظهر في مأتم ، يندب حزناً بين رفاق له... يبكي فيذري دمعاً كالدر من مقلة كالنرجس ويلطم وجنة كالورد بانامل كالعناب ، لكنه حذف « جميلاً » و « دمعاً » و « وجنة » و « انامل » ، وكلها مشبه . وقد استطعنا ان نفهم ان «القمر» و « الدر » و « الورد » و « العناب » ليست هي الاشياء المعلومة في الحقيقة بل هي الفاظ استعملت على وجه الاستعارة ، لان القمر الحقيقيّ لا يندب حزناً ولا يبكي ولا يذري الدمع من النرجس الخ .

واذا كان المشبه به هو المحذوف ، مع وجود القرينة الدالة على الاستعارة ، سميت الاستعارة مكنية . قال الحجاج بن يوسف في خطبة تهديدية القاها على اهل العراق : « اني ارى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها » ... اراد في الاصل ان يقول : « اني ارى رؤوساً كالثار قد أينعت وحان قطافها » فحذف الثار وهي مشبه به . دلنا على هذا الحذف قوله « أينعت » و « حان قطافها » فانها من الالفاظ المخصصة بالثار .

وفي فنون الاستعارة نوع آخر غير التصريحية والمكنية ، وقد سبق ذكرها . (انظر الصفحة : ٢٢٨) .

ومن وسائل الوصف **الكناية** ، وهي لفظ يستلزم معنى آخر يُشتق من معناه الاصلي . والكناية اذا كانت للوصف[١] فانما يستخدمها الكاتب او الشاعر حين لا يريد ان يصرح بالوصف بُغية تشويق السامع واثارة ذهنه الى استنباط المعنى المقصود . قال امرؤ القيس في ابياته التي سبقت :

فيا لكَ من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ بكلِّ مُغارِ الفتلِ شُدَّتْ بيذبلِ[٢]

١ انما اشترطنا هذا الشرط لان الكناية كثيراً ما تكون عن موصوف لا عن صفة كقول المتنبي في المدح :

الضَّاربينَ بكُلِّ أبيضَ مِخذمٍ والطَّاعنينَ مَجامِعَ الأضغانِ !

كنى بـ« مجامع الاضغان » عن الصدور والقلوب التي هي موضع احتشاد الاحقاد . والابيض المخذم هو السيف القاطع . ٢ مغار الفتل : صفة للحبل المفتول فتلاً شديداً . يذبل : اسم جبل .

فقوله : « كأن نجومه بكل مغار الفتل شدّت بيذبل » كناية عن طول الليل وبطء سيره . لان انقضاء الليل رهنٌ بمغيب النجوم . فاذا كانت النجوم ثابتة كأنها مشدودة بحبل وثيق الى جبل يذبل فذلك يستلزم ان يمتد الليل وان يبقى ضارباً بظلمته ووحشته على الارض والآفاق .

هذا ، ووسائل الوصف عند الكاتب والشاعر اوسع من ان يحيط بها حصر ، لكننا نوهنا باشهرها .

خصائص الوصف الجيد . — والخلاصة ان الوصف الجيد ايا كان نوعه حسياً او معنوياً ، وابة كانت وسيلته نعتاً او تشبيها او استعارة او كناية ، هو مـــا طابق الموصوف وادى صورته واحسن تمثيل العواطف والخواطر التي يثيرها الموصوف في الاذهان .

فاذا لم يقترن الوصف بتمثيل هذه العواطف والخواطر التي يثيرها الموصوف في الاذهان لم يكن عملاً فنياً موفقاً مهما بلغت جودته في سائر النواحي . **فالوصف ليس مجرد نقـــل لصورة الموصوف بالالفاظ والعبـــارات على نحو ما ترسم آلة الفوتوغراف الاشباح في الورق . بل لا بد للواصف من ان يعطي موصوفه شيئاً من نفسه** . ولهذا لا نجد موصوفاً تناوله فنان الا زاده الوصف الجيّد جلالاً او حقارة ، فعظمه او مسخه .

فالجواد الذي رسم صورته هذا البيت الخالد من معلقة امرىء القيس :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

انما هو جواد اضاف اليه الشاعر روعةً على روعته .

وصاحب اللحية الطويلة العريضة التي قال فيها ابن الرومي :

إنْ تَطُلْ لِحيَةٌ عَلَيْكَ وَتَعْرُضْ ... فَالْمَخَالي مَعْرُوفَةٌ للحَمِيرِ

عَلَّقَ اللهُ في عِذَارَيْكَ مِخْلَاةً ... وَلَكِنَّها بِغَيْرِ شَعِيرِ [١]

قد زاده الشاعر مسخاً وجعله ادعى الى الضحك والسخرية مما هو في الواقع .

ميزة الوصف بالالفاظ على الرسم بالالوان . — وبعد ، فللوصف بالالفاظ ميزة على الرسم بالالوان ، هي ان الواصف بالالفاظ يستطيع تصوير الحركة بينما الرسام بالالوان لا يستطيع

١ عذاريك : جانبي وجهك .

الا تصوير الاشياء ثابتة على هيئة مـــا . فاذا تأملنـــا بيت امرىء القيس في وصف جواده ، وتبيّنا شدة الحركة فيه ، ايقنا ان الرسام بالالوان يعجز عن تصوير هذا الجواد مكراً مفراً مقبلاً مدبراً معاً كالصخر بدفعه السيل من شاهق . بل لا بد للرسام بالالوان ان يصور الجواد على هيئة واحدة اما مكراً او مفراً ، اما مقبلاً او مدبراً . امـــا تشبيهه بالصخر المندفع من شاهق امام السيل فهذا ما لا يستطيع ان يؤديه الا بان يجعل في الصورة ما يوحي بذلك ايحاءً .

ثم ان المصور بمادة الالفاظ ينقاد له تصوير المعنويات بما لا ينقاد للرسام بالالوان . فلو عدنا الى بيت ابن المعتز في وصف خمرته الرقيقة الصافية :

لقد خفيت من صفوها فكأنها بقايا يَقينٍ كادَ يُدركه الشكُّ

صعب علينا ان نتمثل كيف يستطيع رسام بالالوان ان يصور هذا اليقين الذي كاد يدركه الشك .

منتخبات

امثلة على الوصف

وصف البرق والسيل

قال امرؤ القيس في معلقته :

أَصاحِ ، تَرى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ كَلَمْعِ ٱليَدَيْنِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ ١
يُضِيءُ سَناهُ أَوْ مَصابِيحُ راهِبٍ أَمالَ ٱلسَّلِيطَ بِالذُّبالِ ٱلمُفَتَّلِ ٢
قَعَدْتُ لَهُ ، وَصُحْبَتِي بَيْنَ ضارِجٍ وَبَيْنَ ٱلعُذَيْبِ ، بَعْدَما مُتَأَمَّلِي ٣
عَلَى قَطَنٍ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ ، وَأَيْسَرُهُ عَلَى ٱلسِّتارِ فَيَذْبُلِ ٤
فَأَضْحَى يَسُحُّ ٱلماءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ عَلَى ٱلأَذْقانِ دَوْحَ ٱلكَنَهْبَلِ ٥
وَمَرَّ عَلَى القَنَّانِ مِنْ نَفَيانِهِ فَأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ ٦
وَتَيْماءَ لَمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ وَلا أُطُماً إِلّا مَشِيداً بِجَنْدَلِ ٧

١ الحبيّ : ما زحف بعضه على بعض من السحاب فتراكم . مكلل : مستدير على هيئة الاكليل . شبّه وميض البرق ، اي : لمعانه ، بحركة اليدين حين يلوّح بها الانسان مسرعاً . ٢ سناه : لمعه ، نوره . « أو » قد تكون بمعنى : مثل ، فيجر ما بعدها ، او تكون حرف عطف والتقدير : او تضيء ، فيرفع ما بعدها . السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة ، وهي فتيلة المصباح . المفتل : المفتول كثيراً . يقول : يضيء لمع هذا البرق كما تضيء مصابيح الراهب اذا امالها بذبالها وكان الزيت فيها وافراً . ٣ قعدت له : قعدت ارقب هذا البرق . وضارج والعذيب : موضعان . يقول : قعدت ارقب هذا البرق انا واصحابي بين ضارج والعذيب . وقوله : بعدما متأملي ، يعني : فيا ُبعد الذي كنت اتأمله وارقبه . ٤ قطن والستار ويذبل : اسماء جبال بينها مسافات بعيدة . الشيم : النظر ، وهي مصدر : شامَ ، شيماً ، اي : رأى . الصوب ، صوب المطر : هطلانه . يقول : دلني نظري على ان هذا السحاب يهطل جانبه الايمن على قطن ويهطل جانبه الايسر على الستار ويذبل . ٥ يسح الماء : يصبه . كتيفة : موضع . الدوح : الشجر الكبير . الكنهبل : نوع من الشجر . يكب الدوح على الاذقان : يقتلعها او يطرحها ارضاً . ٦ القنان : اسم جبل . نفيانه : ما تطاير من قطر المطر . العصم : جمع اعصم ، وهو الوعل الذي يعتصم برؤوس الجبال . يقول : وتطاير من قطر مطره على رأس جبل القنان ما جرف كل وعل اعتصم بذلك الجبل . ٧ تيماء : مكان بالجزيرة العربية سبق ذكره . الاطم : البيت الكبير الثابت البناء . مشيداً : مبنياً .

كَأَنَّ ثَبِيراً، في عَرَانِينِ وَبْلِهِ ، كَبِيرُ أُنَاسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ ١
كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ ٱلْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً مِنَ ٱلسَّيْلِ وَٱلْغُثَاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ ٢
وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ ٱلْغَبِيطِ بَعَاعَهُ نُزُولَ ٱلْيَمَانِي ذِي ٱلْعِيَابِ ٱلْمُحَمَّلِ ٣
كَأَنَّ مَكَاكِيَّ ٱلْجِوَاءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلَافاً مِنْ رَحِيقٍ مُفَلْفَلِ ٤
كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى عَشِيَّةً بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصُلِ ٥

فاذا تأملت هذا الوصف للبرق وما تبعه من مطر وسيل ، ثم ما عقب ذلك في صباح اليوم التالي ، وجدته كله وصفاً ينحو منحى الطريقة الحسّية . فليس من مشبه به في هذه الابيات ، على كثرة ما فيها من تشابيه ، الا وهو حسي . بل الموصوفات نفسها كلها حسية . واذا كان امرؤ القيس في المقطع الغنائي الذي وصف به الليل والذي قدّمنا لك نصه ، قد مزج الوصف بشيء من عاطفة ، فهو هنا يقتصر على التصوير المحض فِعلَ الشاعر الملحمي .

ويعد هذا المقطع ، لامرىء القيس ، مثالاً على الطريقة الحسية في الوصف .

وصف الربيع للبحتري

البحتري ، ابو عبادة الوليد ، شاعر كبير من شعراء العصر العباسي الثاني . تميز بوصف آثار العمران من برك وقصور ، كما عني بوصف مباهج الطبيعة ولا سيما الربيع . وله قصيدة

١ ثبير : اسم جبل . عرانين : جمع عرنين ، وهو معظم الانف . والوبل : سقوط المطر . وقوله : عرانين وبله : استعارة ، اراد بها اوائل المطر . البجاد : الثوب المخطط . مزمل : ملفف ، وهي نعت لكبير ولكن جرّت لمجاورة بجاد . ٢ ذرى : جمع ذروة ، وهي الرأس من كل شيء ، ويغلب استعمالها للجبل . المجيمر : اسم جبل . الغثاء : زبد السيل وما يخالطه من ورق الشجر البالي . الفلكة : كل ما ارتفع او نتأ واستدار . شبه رأس جبل المجيمر ، مع ما التف به من غثاء السيل ، بفلكة المغزل . ٣ الغبيط : أكمة انخفض وسطها وارتفع طرفاها . البعاع : ثقل ما في السحاب من المطر . العياب : جمع عيبة ، وهي صندوق الثياب . وأراد باليماني : التاجر اليماني . شبه السحاب حين ألقى ثقل امطاره بالتاجر اليماني الذي يلقي ما يحمل على دوابه من بضائع .
٤ المكاكي : جمع المكاء ، وهو طائر كثير العلو والانخفاض في طيرانه . الجواء : جمع الجو . السلاف : اجود الخمر . وصبحن سلافاً : سقين الخمر صباحاً . والرحيق هو الخمر ايضاً . ومفلفل : التي فيه الفلفل . يقول : وطلع الصباح بعد ليلة السيل فاذا طيور المكاكي مرحة مبتهجة كأنهـا سقيت خمراً . ٥ السباع : الحيوانات المفترسة . غرقى عشية : اصابها الغرق عشيـة امس . ارجاء : انحاء . القصوى : المتناهية بعداً . انابيش : جمع أنبوشة ، وهي اصل النبت . العنصل : البصل البري . شبه الحيوانات المفترسة لما اصابهـا من غرق السيل بالبصل البري الذي نبش عن اصله .

سينية شهيرة وقف فيها على بقايا ايوان كسرى في المدائن بقرب بغداد ، وكان بها سابقاً الى موضوع رثاء الممالك الذاهبة .

نجم البحتري من قبيلة طيء فهو طائي ولد بمنبج في شمالي حلب . وعرف في صباه الشاعر الكبير ابا تمام فأفاد منه علماً بالشعر . ثم انتقل الى بغداد فعاصر فيها المتوكل تاسع الخلفاء العباسيين . وكان لهذا الخليفة شغف ببناء القصور والبرك فعرض البحتري لوصفها في ما مدحه به من قصائد .

والبحتري انيق اللفظ ، طلي العبارة ، موسيقي النظم حتى قيل انه اراد أن يشعر فغنى ، وهو في وصفه يحسن اختيار اللفظ الذي يُحضر في الذهن صورة الموصوف دونما عناء. ووصفه مثال على الطريقة العباسية في هذا الفن ، الا انه قليلاً ما جاوز فيه الحسيات الى المعنويات .

وتوفي البحتري سنة ٨٩٧م (٢٨٤ هـ) .

قال يصف الربيع :

أتاكَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ يَخْتالُ ضاحِكاً ... من الحُسْنِ حتّى كادَ أنْ يَتَكَلَّما ١
وَقدْ نَبَّهَ النَّورُوزُ في غَلَسِ الدُّجى ... أوائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّما ٢
يُفَتِّقُها بَرْدُ النَّدى فَكَأنَّهُ ... يَبُثُّ حَديثاً كانَ أمسِ مُكَتَّما ٣
وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبيعُ لِباسَهُ ... عَلَيهِ كما نَشَّرْتَ وَشْياً مُنَمْنَما ٤
أحَلَّ ، فأبْدَى للعُيونِ بَشاشَةً ... وَكانَ قَذًى لِلعَيْنِ إذْ كانَ مُحْرِما ٥
وَرَقَّ نَسيمُ الرِّيحِ حَتّى حَسِبْتَهُ ... يَجيءُ بأنْفاسِ الأحِبَّةِ نُعَّما ٦

١ حتى كاد ان يتكلما ، اي : لا يعوزه الا النطق . وقد صور الشاعر الربيع صورة فتى جميل ، ممتلىء حياة وجمالاً ، فليس يحتاج الى شيء الا الكلام . ٢ النوروز : عيد رأس السنة الشمسية عند الفرس الساسانيين ، وكان العباسيون يعيدونه . الغلس : ظلمة آخر الليل . ٣ يفتقها : يفتحها . يبث : يذيع . مكتم : مكتوم جداً . ٤ الوشي المنمنم : نقش الثوب الجميل . ٥ احل الحاج : فرغ من مراسيم الحج وهي تقضي بالتستر والحجب . واحرم الحاج : دخل في مراسيم الحج التي تقضي عليه بان يتستر . والمعنى : ان الربيع قد احل ، اي كشف محاسنه ، وكان محرماً ، اي : متستراً محجباً . وقوله بشاشة : اراد به نضارة الربيع واشراقه . ٦ نعما : ناعمة رقيقة ، وهي منصوبة على الحال من انفاس الاحبة . يقول : ان النسيم رق مع مقدم الربيع حتى لتحسبه كأنه نفس الحبيب يهب بوجهك .

انشاء ادبي

قابل بين الطبيعة التي يصفها البحتري والطبيعة التي يصفها امرؤ القيس ، وقارن بين طريقتيهما في الوصف .

الجاحظ يصف معركة له مع الذبان

قال الجاحظ :

... اما الذي أصابني انا من الذبان ، فاني خرجت أمشي في المُبارَك[١] اريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة[٢] . فمررت في عشب أَشِب[٣] ، ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفي ، فطردته . فتحوّل الى عيني ، فطردته . فعاد الى مؤق عيني[٤] ، فزدت في تحريك يدي . فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبّي[٥] عن عيني — وللذبان الكلأ والغياض والرياض وقع لبس لغيرها — ثم عاد اليّ فعدت عليه . ثم عاد اليّ فعدت بأشدّ من ذلك . فلما عاد استعملت كمي فذببت به عن وجهي . ثم عاد وانا في ذلك أحث السير ، اؤمل بسرعتي انقطاعه عني . فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي ، فذببت به عني بدل كمي . فلما عاود ولم اجد له حيلة استعملت العَدْو . فعدوت منه شوطاً تاماً لم اتكلف مثله مذ كنت صبياً . فتلقاني الاندلسي فقال لي : ما لك يا ابا عثمان ! هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، اكبر الحوادث ! اريد ان اخرج من موضع للذبان عليّ فيه سلطان ! فضحك حتى جلس . وانقطع[٦] عني ، وما صدّقت بانقطاعه عني حتى تباعد جداً .

والميزة في هذا الوصف قدرة الجاحظ فيه على تصوير الحركة . فكأنك ترى بأم عينك ما دار في هذه المعركة الطريفة من صراع بين الكاتب والذبان .

ووصف الجاحظ هنا حسي . غير انه استطاع ببراعة رائعة ان يخلع على هذا الوصف الحسي كله معنىً بعيداً ، وذلك حين سأله الاندلسي : هل من حادثة ؟ فأجابه : نعم ، اكبر الحوادث ! اريد ان اخرج من موضع للذبان عليّ فيه سلطان ! ومثل هذه البراعة الرائعة في مباغتة القارىء وتحويل الوصف الحسي الى مقصد معنوي بعيد ، نجده لدى الجاحظ في نادرته التي قصّ بها الحاح الذباب على قاضي

١ المبارك : نهر بالبصرة . ٢ لم اقدر على دابة : لم اتمكن من اكتراء دابة اركبها . ٣ أشب : كثيف ، ملتف . ٤ مؤق العين : زاويتها . ٥ ذبي : دفاعي . ٦ الضمير في « انقطع » عائد الى الذبان .

البصرة عبد الله بن سوّار ، وكان وقوراً عظيم الوقار ، قليل الكلام ، يسكن في جلسته سكون الصخرة المنصوبة وتعجبه نفسه جداً ، فما زال الذباب يغمس خرطومه في مؤق عينه حتى اخرج القاضي من طوره وأكرهه على الحركة وأشعره وجوب التواضع . وضيق المجال يحول دون اثبات هذه النادرة هنا . فاطلبها في كتاب الجاحظ : الحيوان ، الجزء الثالث ، الصفحات : ٣٤٣ – ٣٤٦ [١] .

تمرين

انظر في الاقوال الآتية ، وكلها قد عرفته ، فاذكر من قالها . وفي اي المناسبات ؟ وماذا وصف بها ؟ واذكر ما اشتملت عليه من وسائل الوصف من تشبيه او كناية او استعارة . وعيّن ما تجد فيها من لفظ ترى المؤلف قد وفق الى اختياره ، فزاد به الوصف قوة ووضوحاً . ثم اشرح موضوع الوصف أحسّي هو ام معنوي ، وطريقة الوصف أحسّية هي ام معنوية ؟ وأي وصف يسهل على الرسام اخراجه باللون والريشة ، وأي وصف يصعب عليه اخراجه ، ولماذا ؟

١ جَلْد ، جميل المحيّا ، كامل ورع ... وللحروب غداةَ الروع مسعار
حمّال ألوية ، هبّاط اودية ، ... شهّاد اندية ، للجيش جرّار
لم تره جارة يمشي بساحتها ... لريبة حين يخلي بيته الجار !

٢ – ولقد اراكِ كسيت اجمل منظر ، ... ومع الجمال سكينة ووقار
والريح طيبة اذا استقبلتها ... والعرض لا دنس ولا خوّار

٣ – فازورّ من وقع القنا بلبانه ، ... وشكا اليّ بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ، ... ولكان لو علم الكلام مكلمي !

٤ – اياكِ ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرّت بواد خصب فلم يكن لها همّ الا السمن وانما حتفها في السمن .

١ بتحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، وطبع : مصطفى البابي الحلبي واولاده ، مصر ، سنة ١٩٣٨م .

٥ — قد علمتم ان سائس البهيمة — اذا كان بصيراً بسياستها — التمس معرفة اخلاقها . فان كانت رموحاً لم يهجها اذا ركبها ، وان كانت شبوباً اتقاها من بين يديها ، وان خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها ، وان كانت حروناً قمع برفق هواها في طرقها، فان استمرت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها .

٦ — حتى اذا دارت الاقداح في رأسك منّتك نفسك الاماني .

٧ — اذا انا بشيخ ذي هيئة وجمال عليه قميصان ناعمان وخفان قصيران وعلى رأسه قلنسوة لاطئة وبيده عكازة مقمّعة بفضة وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار .

٨ — وزائرتي كأنّ بها حياء فليس تزور الا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ، فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفَسي وعنها، فتوسعه بانواع السقـام
كأنّ الصبح يطردها فتجري مدامعها باربعة سجام
ويصدق وعدها والصدق شرّ اذا ألقاك في الكرب العظام

٩ — لقد ظننت الحيطان والابواب وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه .

١٠ — فبتّ كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السمّ ناقع

١١ — وما المرء إلاّ كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد اذ هو ساطع

١٢ — قبحاً لكم حين صرتم غرضاً يرمى، يُغار عليكم ولا تغيرون وتُغزون ولا تَغزون.

١٣ — خيّل لي انني امام مقبرة موحشة ساكنة لا ينبس فيها صوت ولا يتراءى في جوانبها شبح ولا يلمح في ارجائها مصباح .

١٤ — نسخ الصبح احاديث الدجى بيد بيضاء ، في لوح النهار
ولكهف المغرب الليل التجا حين نادى الفجر في الشرق : بدار
وجــلا الصبح جبيناً ابلجا فاختفى من نوره النجم ، وغار !

١٥ — فبينا هما عنّت على البعد عانة قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها ، على انه منها الى دمها اظما
فأمهلها حتى تروت عطاشها ، فارسل فيها من كنانته سهما
فخرّت نحوص ذات جحش سمينة قد اكتنزت لحماً ، وقد طبقت شحما
فيا بشره اذ جرها نحو قومه ، ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى !

١٦ — ولا يزالون يشربون ويقصفون حتى يذهب بعقولهم الشراب فيهتاجوا ويرقصو ويملأوا الجو صراخاً ثم يتعادَوا بعضهم وراء بعض في الابهاء والحجرات فافر بين ايديهم من مكان الى مكان .

١٧ — لم يشعر الليث الا وملكه في دمارِ
القرد عند يمين والكلب عند يسار
والقط بين يديه يلهو بعظمة فار

١٨ — لقد ولدت ام الفرزدق فاجراً فجاءت بوزواز قصير القوائم

١٩ — الآن عرفت ان الوجوه مرايا النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها .

٢٠ — وقور فلا الألحان تأسر عزمتي ولا تمكر الصهباء بي حين اشرب
ولا اعرف الفحشاء الا بوصفها ولا انطق العوراء والقلب مغضب

٢١ — ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصَّبا والدبور
يحرّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء

٢٢ — استرخى حاجباه وثقلت اجفانه وجمدت نظراته وتهدل عارضاه وتجعد جبينه ، واستشرف عاتقاه وهوى رأسه بينهما هويه بين عاتقي الاحدب .

٢٣ — رأى شبح الموت يحدق اليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين .

٢٤ — هو السجن وقد لا ينطوي السجن على ظلم
هو القبر حوى ميتين جارين على الرغم
شتيتين وان لم يبعد العظم عن العظم

٢ – ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً .

٢٦ – فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع

٢٧ – وقد نبه النوروز في غلس الدجى اوائل ورد كنّ بالامس نوّما
يفتّقهـــا برد الندى فكأنه ينثّ حديثاً كان امس مكتّما !

٢٨ – اقبلت نحونا الرهابين مشدودة بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، اذا نظروا الى المرء استحيا ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح ...

٢٩ – فجعل يهمهم ... فأطلعت في الدرجة حتى نظرت اليه فاذا هو يحبو على الفراش عرياناً لما هو فيه .

٣٠ – فنكس الفرزدق وراعي الابل وأرمّ القوم .

النقد الأدبي

ننظر في الآثار الادبية التي ابدعها الكتّاب والشعراء فنراها متفاوتة في القيمة . فهذه قصيدة رائعة في موضوعها تهزّ عواطفنا وتبعث فينا التأمل . وتلك قصيدة في الموضوع نفسه الا انها لا تحرك فينا عاطفة ولا توحي بفكر . ومثل هذا يقال في الكتب والمقالات . فمنها ما يستهوينا ويثير فينا الاعجاب ، ومنها ما لا نحس معه جمالاً في العبارة او قوة في العقل والشعور والمخيّلة .

واذاً ، فالادب يأتي جيداً ، ويأتي رديئاً ، شأنه شأن الآثار التي يصنعها البشر .

ولكن متى يكون الادبُ جيداً ، ومتى يكون رديئاً ؟ هذا هو السؤال الذي يجيب عنه النقد الادبي . **فالنقد الادبي درس وتحليل يراد بهما تمييز الآثار الادبيـــة جيدها من رديئها .**

وهذا الفن فروع وأقسام ...

البحث في تعيين الفنون الادبية واشكالها واغراضها . — فمن النقد الادبي جانب، يُعَدّ اساساً لهذا الفن ، يبحث تقسيم الفنون والاشكال والاغراض الادبية ويعيّن خصائصها وفروقها . به نعرف ما الشعر وما النثر . ثم ما الشعر الغنائي والملحمي والتمثيلي ، وما الارجوزة والقصيدة ، وما الهجاء والغزل والشعر الحكمي والخطبة والرسالة الخ ... وقد سبق معنا البحث في ذلك كله .

البحث في فصاحة الالفاظ . — ومن النقد الادبي جانب يبحث **اصول انتقاء الالفاظ** متى تكون مُستعذبة في السمع مأنوسة في الفهم ، ومتى تكون مُستكرهة عويصة ، وهو ما يُسمى بعلم فصاحة[1] الالفاظ . مثال ذلك لفظة « الماء » فانها لطيفة الوقع مُستحبة ، واضحة المعنى . وضدها لفظة « النقاخ » فانها غريبة مرذولة برغم انها من معنى « الماء » . فاذا عدل كاتب او شاعر عن استعمال لفظة الماء الى استعمال النقاخ كان مخلاً باصول فصاحة الالفاظ .

ويشترط في الالفاظ المفردة ان تكون صحيحة حسب القواعد الصرفية . فان الشاعر

[1] الفصاحة ، مصدر فصح ومعناها : ظهر ، وضح ، انجلى ، فالوضوح اهم مدار تدور عليه فصاحة الكلام .

الذي قال : « الحمد لله العلي الأجلل » قد خالف القاعدة حين فكّ ادغام « الاجل » .

البحث في فصاحة المركب . — ومن النقد الادبي جانب يبحث تركيب الكلام هل يوافق قواعد النحو والاعراب ، وهل يطابق الوزن (اذا كان الكلام شعراً) ، وهل يقع في السمع وقعاً موسيقياً سائغاً ، وهل يتناوله الفهم في يسر وسهولة لخلوّه من الغموض والتعقيد ، وهل تنزل ألفاظه في مواضعها ثابتة مستقرة ام قلقة مضطربة — وهو ما يسمى بعلم فصاحة المركّب . مثال ذلك قول زهير بن ابي سلمى الشاعر الجاهلي :

لِسانُ الفَتى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إلّا صورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

فانه كلام سليم التركيب ، قد برىء من الخطأ اللغوي وتنزّه عن التعقيد وتنافُر الالفاظ وطابق الوزن لانه شعر .

وعكسه قول المتنبي :

أنّى يَكونُ أبا البَرِيَّةِ آدَمٌ وأبوكَ والثَّقَلانِ أنْتَ مُحَمَّدُ[1]

فان تركيبه جاء معقداً ، لان الشاعر فصل بين المبتدإ وخبره : « وأبوك محمد » بجملة معترضة : « والثقلان انت » . وكان حقه ان يقول : « وأبوك محمد والثقلان انت » . غير ان ضرورة الوزن والقافية اضطرته لهذا الخروج على فصاحة التركيب .

وقد وضع علماء اللغة قواعد لسلامة تركيب الكلام بيّنوها في علم النحو وعلم البيان . فعيّنوا لكل جزء من الجملة مواضعه التي يأتي فيها . واجزاء الجملة معروفة ، ركناها الرئيسيان هما : المبتدأ والخبر (وتعرف الجملة عندئذ بالاسمية) او : الفعل والفاعل (او نائب الفاعل) (وتعرف الجملة عندئذ بالفعلية) . هذا في علم النحو . فأما في علم البيان فيُسمّى كلا المبتدإ والفاعل (او نائبه) مُسنَداً اليه . ويُسمى كلا الخبر والفعل مُسنَداً . ثم يدخل على الجملة — عدا جزئيها الرئيسيين — اجزاء اخرى تكون مفعولاً من المفاعيل ، او مضافاً اليه ، او نعتاً ، او حالاً ، أو بدلاً ، او عطفاً ومعطوفاً ، او حرف جر ومجروراً ، او اداة استثناء ومُستثنى ، او اداة قصْر ومقصوراً ، او اداة حصْر ومحصوراً ، او نداءً ، او شرطاً ، او تمنياً ، او استفهاماً[2] ، وسائر ما يعرض لنا حين نعرب الكلام اعراباً نحوياً او بيانياً .

وفي ما يأتي نعرب ، على سبيل المثل ، بيت زهير الآنف الذكر .

١ البريّة : الخليقة ، البشر . الثقلان : هما الانس والجن . ٢ ينبغي للطالب ان يكون ملماً بمعاني هذه المصطلحات كلها .

لسانُ : مبتدأ (مسند اليه)
الفتى : مضاف اليه ، وحقه ان لا يفصل بينه وبين المضاف فاصل .
نصفٌ : خبر لسان (مسند اليه)
و : حرف عطف
نصفٌ : خبر فؤاد (مسند)
فؤاد : مبتدأ (مسند اليه)
ه : ضمير ، مضاف اليه .
ف : حرف عطف . وهي هنا لبيان ان ما يأتي بعدها استنتاج مما قبلها .
لم : حرف جزم يدخل على المضارع فيجعل معناه ماضياً .
يَبقَ : فعل مضارع ... وقوله : لم يبق : مسند .
الا : اداة حصر .
صورة : فاعل « لم يبقَ » . وهي هنا المحصور فيه ، لان الشاعر حصر فيها البقاء . وحق المحصور فيه ان يتأخر عن المحصور . وصورة : مسند اليه .
اللحم : مضاف اليه .
و : حرف عطف .
الدم : معطوف على اللحم .

ونحن اذا استعرضنا قواعد النحو والبيان وجدنا زهيراً قد أحسن رعيها ، فلم يفصل بين جزئين من الجملة لا يجوز الفصل بينهما كما صنع المتنبي في بيته السابق حين دس جملة معترضة بين المبتدإ والخبر . ولا قدّم زهيرٌ ما حقه التأخير أو أخر ما حقه التقديم ، فلم يجعل المضاف اليه قبل المضاف . واذا كان قد قدّم الخبر « نصفٌ » على المبتدإ « فؤادُ » فذلك جائز صحيح .

البحث في تجميل الكلام : البديع اللفظي والمعنوي . — ومن النقد الادبي جانب يبحث في تجميل الكلام وزخرفته ويُسمى هذا الفن بديعاً ، ومنه المعنوي واللفظي . فالمعنوي يبحث في طُرُق تجميل المعاني . واللفظي يبحث في طرق زخرفة اللفظ .

قال الشاعر :

عَلى رَأْسِ عَبْدٍ تاجُ عِزٍّ يَزِينُهُ ... وفي رِجلِ حُرٍّ قَيدُ ذُلٍّ يَشِينُهُ

اراد ان يظهر فقدان العدل في نظام الاحوال البشرية اذ تتفاوت مراتب الناس تفاوتاً

عظيماً لا علاقة له بالكفاءة والاستحقاق . فجمع الشاعر بين صورتين متناقضتين : صورة العبد الذليل النفس ، الذي يزينه تاج العز على رأسه ، وصورةِ الحرّ الابيّ النفس الذي يشينه قيد الذل في رجله . فحسّن بهذا التناقض المعنى اذ جلاه جلاء قوّى انطباعه في الذهن . فهذا من البديع المعنوي ، وهو يُسمى « الطباق » . ومثله قول الامام عليّ : يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزون ولا تَغزون .

وقال آخر .

أرَى قَدَمي أرَاقَ دَمِي

اراد ان يقول ان رجله سعت به الى هلاكه . فالتمس ألفاظاً متماثلة الحروف متشابهة الاصوات في النطق ولكنها مختلفة المعنى . فهذا من البديع اللفظي ، وهو يسمى «الجناس» . ومثله قول اديب اسحاق ، من ادباء عصر النهضة ، يصف ألم النفوس في ظل الاستعباد : نفوسٌ تحترق تحت رق[١] . على ان الجناس اصبح اليوم فناً مُهمَلاً لما يستدعي من تكلف . وكانت سوقه قد راجت في عصور الانحطاط يوم صرف الادباء هممهم عن المعاني الى الاشتغال بالقوالب اللفظية .

البحث في صيغة الكلام . — ومن النقد الادبي جانب يبحث في صيغة الكلام . وصيغة الكلام هي كيفية بنائه . وتكون على نوعين : انشائية وخبرية .

وحدّ الكلام الانشائي انه لا يحتمل الصدق والكذب كالاستفهام مثلاً . فاذا سأل أحدهم : متى حكم فخر الدين المعنيّ لبنان؟ او : من هو الاعشى ؟ او : ما هو الشعر الغنائي؟ لم يصحّ ان يكون جوابنا له : انت صادق او انت كاذب .

وحدّ الكلام الخبري انه ، بعكس الانشائي ، يحتمل الصدق والكذب . فاذا قال المتنبي :

المَجْدُ للسَّيفِ لَيسَ المَجْدُ للقَلَمِ

استطعنا ان نقول له : انك مصيب في هذا الرأي او انك مخطىء .

وللكلام الخبري ثلاثة أضرب ، يستعمل الكاتب او الشاعر منها ما يعتقد انه يوافق الحالة الذهنية لدى السامع او القارىء . فالضرب الاول — او الابتدائي — يُوجه الى من هو خالي الذهن من موضوع الكلام . فيقال لمن لا يعلم شيئاً عن عنترة : عنترة شاعر

(١) قصد بـ « تحترق » تتألم . و « تحت رق » تحت نير العبودية .

وفارس جاهلي. **والضرب الثاني – او الطلبي** – يوجه الى من هو متردد في تصديق الكلام. فيقال لمن يرتاب في ان عنترة شاعرٌ وفارس جاهلي: ان عنترة شاعر وفارس جاهلي ... فأما **الضرب الثالث – او الانكاري** – فيوجه الى من يُنكر صدق الكلام. فيقال لمن يأبى ان يصدق ان عنترة شاعرٌ وفارسٌ جاهلي: ان عنترة لشاعر وفارس جاهلي.

وكثير من بلاغة الاديب يتوقف على براعته في تقليب الكلام على الصيغة الانشائية او الخبرية بحسب ما يقدّر الحاجة الى تقوية الكلام وفقاً للحالات الذهنية لدى قرائه او سامعيه، او لدى الذين ينطق بلسانهم في قصة او مسرحية. وانك اذا عدتَ الى الكلام الذي جعله الجاحظ في فم الشيخ ابي الاعز، يخاطب به اللص المزعوم، وجدته قد استعمل صيغة الضرب الانكاري. فجعل ابا الاعز يفتتح خطابه الى اللص بقوله: «اما والله انك بي لعارف، واني بك ايضاً لعارف[1].» وكان باستطاعة الجاحظ ان يجعل ابا الاعز يكتفي بالقول: انت بي عارف وانا بك عارف. لكن الجاحظ اراد ان يبين ان ابا الاعز لم يكن يثق بتصديق اللص له، وسبب ذلك ان ابا الاعز نفسه لم يكن واثقاً بنفسه!

البحث في مقدار الكلام. – ومن النقد الادبي جانب يبحث مقدار الكلام هل هو أوجزُ من المعنى، ام مُساوٍ له، ام زائد عليه. فاذا كان الكلام أوجز من المعنى عُرف ذلك **بالايجاز**. واذا كان مُساوياً له عُرف ذلك **بالمساواة**. واذا كان زائداً عليه عُرف ذلك **بالاطناب**. ولكلٍّ مواضع ومناسبات يتوقف اختيارها على مهارة الاديب وحسن استعداده.

فقول القرآن: «ولكم في القصاص حياة» يشتمل على ايجاز رائع لحشده المعنى الكبير في اللفظ اليسير، ويسمّى كلاماً جامعاً. والمقصود بهذا القول القرآني: ان القصاص لمرتكبي الآثام والجرائم يردعهم ويقي غيرهم شرهم، وفي ذلك حياة، أي: بقاء وراحة وهناء للناس.

وقول المتنبي:

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بالعُلَى
مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوضِعِ النَّدَى

يشتمل على مساواة، لان مقدار المعنى فيه بمقدار اللفظ.

وقول القرآن: «ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي» يشتمل على اطناب، لان ايتاء ذي القربى داخل في الاحسان، ولان

[1] الصفحة: ٢٧٢ – ٢٧٣

الفحشاء من مادة المنكر ، والبغي من مادة الفحشاء . على ان في هذا الاطناب فائدة هي زيادة التقرير في الذهن . فاذا خلا الاطناب من مثل هذه الفائدة سمي **حشواً** ، وهو عيب ، كقول زهير بن ابي سلمى :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ ٱلْيَوْمِ وَٱلْأَمْسِ قَبْلَهُ   وَلٰكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي

فان قوله : « قبله » بعد قوله : « الامس » حشو .

البحث في وجوه تخريج الكلام . — ومن النقد الادبي ما يبحث في وجوه تخريج الكلام . ومعنى هذا ان نستفهم عن المحمل الذي حمل عليه الشاعر ، او الكاتب ، كلامه ، هل أورده على معناه الاصلي في اللغة أم صرفه بأساوب من الاساليب الى معنى آخر . فاذا كان قد اورده على معناه الاصلي في اللغة سمي **حقيقة** . واذا كان قد خرج به مخرجاً آخر غير معناه في اصل اللغة سمي **مجازاً** .

وقد سبق لنا ان تحدثنا عن الاستعارة التصريحية والمكنية والتمثيلية ، فهذه كلها مجاز ، لان الكلام بواسطتها يصير الى معنىً آخر غير معناه الاصلي في اللغة .

ثم ان الكلام ربما انطوى على اغراض مستورة وراء معانيه الظاهرة . مثال ذلك ان احد الطلاب يبطىء في دخول الصف فيسأل الاستاذ : كم الساعة الآن ؟ فلا نفهم من سؤاله انه انما اراد معرفة الساعة بل ندرك انه قصد تنبيه الطالب على تأخره . وقد سبق ان تكلمنا في الصفحة ٢٣٤ على الاستفهام ووجوه المعنى التي يستعمل لها .

البحث في صفات المعاني . — ومن النقد الادبي جانب يبحث صفات المعاني نفسها ، معاني الكاتب او الشاعر ، هل هي مناسبة ام مخالفة للمقام ؟ عميقة ام سطحية ؟ نادرة ام مبتذلة ؟ مترابطة ام مفككة ؟ وهذا ما يعرف **بالبلاغة**[1] . وما دامت المعاني لا تستقيم الا مع اللفظ الجيد والتركيب الصحيح ، كانت الفصاحة داخلة في البلاغة . فلا بد لكل بليغ من ان يكون فصيحاً ، فيجمع في الكلام بين اصابة الموضوع ونفاسة المعنى والقوة والوضوح .

وكذلك يبحث نقد المعاني في صلتها بشخصية الشاعر وعصره ، وهل تثير قضايا لها تعلق بالقيم العليا كالحرية والعدل وشرف الاخلاق ، ام انها تبث الانحلال والخِطة والجمود .

يحكى ان اعرابياً نظم قصيدة في مدح امير ، ثم قصده على دابته من مكان بعيد في البادية . فاستكثر الامير القصيدة على الاعرابي لما سمعها منه ، فلم يأمر له الا بمد شعير لدابته . فخرج الاعرابي فلقيَ الحاجب بالباب فقال له : مد شعير ! هذا ما امر لي به اميركم ! فضحك

[1] البلاغة : مصدر بلغ ، ويراد بها بلوغ المعنى ذهن السامع او القارىء واستقراره فيه .

الحاجب وأجابه : شدّ ما أرخصتَ شعرك . أتراك قلت في ذلك شيئاً ؟ فأجاب الاعرابي : أيْ وربي . وأنشد على الفور :

يقولون لي : أرخصتَ شعرَكَ في الورى فقلتُ لهم : من فَقْدِ أهل المكارمِ
أجزْتُ على شعري الشعيرَ وإنّه كثيرٌ اذا حصّلتَهُ من بهائمِ !

فهذا معنى بليغ وفق الشاعر في توليده من مناسبة ينطبق عليها مثل هذا المعنى انطباقاً محكماً . وتركيب البيتين صحيح سهل ، وان يكن البيت الاول منها تضمّن حشواً ، لان قوله « في الورى » لا يزيد في المعنى ولا قيمة له الا تتميم الوزن ... لكن مع ذلك يبقى هذا المعنى البليغ في درجة هابطة من البلاغة لانه معنى طريف وحسب ، لا يثير قضية لها تعلّق بالقيم العليا كما يثير ، مثلاً ، قول بشار بن برد وهو شاعر من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية :

خيرُ إخوانِكَ المشارِكُ في المُرِّ ، وأينَ الشريكُ في المُرِّ أينا
الذي ان شهِدْتَ سرَّكَ في الحيِّ ، وإنْ غِبْتَ كانَ أذْنًا وعَيْنا
مِثْلُ حُرِّ الياقوتِ إنْ مسّهُ النارُ ، جَلاهُ البلاءُ فازْدادَ زَيْنا !

عرّف بشار الصديق الحقيقي فقال : انه هو الذي يشاركك في مُرّ الحياة وينوب عنك اذا غبت فيكون اذنك التي بها تسمع ما يقال فيك وعينك التي بها ترى ما يُبيت لك، ثم يزداد لك وده في الشدائد كما يزداد الياقوت الحرّ جمالاً واشراقاً في لهب النار . ومذ كانت قضية الصداقة الوفيّة قضية تهم الناس ، ومذ كانت هذه الابيات لبشار تدعو الى الوفاء في الصداقة ، وبالتالي الى خُلق بشري فاضل ، صح اعتبارها من بليغ الشعر لانها جلت معنى نفيساً في عبارة حسنة . وخلافها قول ابي نواس، الشاعر العباسي ، في احدى خمرياته :

إسقِني حتّى تَراني أحسَبُ الدِيكَ حِمارا

فان فيه دعوة الى العبث والانحلال .

البحث في الاسلوب والميزة . — ويبحث النقد الادبي — آخر الامر — الاسلوب وقوته وضعفه وروعته وتفاهته . والمراد بالاسلوب : طريقة الشاعر او الكاتب في تأليف كلامه ، وخصائصه في الشعور والتفكير ، ومبلغ توفيقه في ايصال عواطفه واداء آرائه .

... كيف يختار الشاعر او الكاتب الفاظه ؟ وكيف يسبكها في الجمل ؟ وما الموضوعات التي ينزع الى النظم والكتابة فيها ؟ وكيف يصور آراءه وعواطفه ؟ وما هي تلك الآراء والعواطف التي يذهب اليها في الحياة والعلائق الشخصية والاجتماعية ؟ فهذه وامثالها هي الاسئلة التي تدخل في بحث اسلوب الكاتب او الشاعر .

ولكل كاتب ولكل شاعر اسلوب . فعدد الاساليب يبلغ اذاً عدد الشعراء والكتّاب المبدعين . الا ان علماء النقد قد استطاعوا تصنيف الاساليب في نوعين رئيسيين : الاسلوب العلمي والاسلوب الادبي .

فالاسلوب العلمي هو ما توخى شرح الحقائق وتقريرها في الاذهان . والغالب على الفاظه ان تكون وضعية . والمقصود بالوضعية : الالفاظ التي تدل على مدلولات محددة لا مجال للذهن ان يذهب في تأويلها مع العواطف والاحتمالات ... قال الشيخ ابراهيم اليازجي ، من اعلام الانبعاث والعصر الحديث ، في موضوع البن :

البُن هو ثمرُ شجر باليمن يُغرس حبه في آذار وينمو ويقطف في آب . وهو شجر دائم الخضرة ، يبلغ طوله من خمسة الى سبعة امتار . واغصانه واوراقه متقابلة ، ولون ورقه اخضر لماع ، وزهره ابيض الى الصفرة ، ينبت في آباط[1] الورق ، وله رائحة طيبة ، ولذلك يسمى بالياسمين العربي . وينعقد عنه ثمر يكون اولاً اخضر ثم يحمر اذا ادرك[2] . وهو ينقسم الى فلقتين في باطن كل منهما حزّ طولي ، وقشرته مبطنة بغشاء صُلب الخ ...

فهذا انشاء نهج فيه اليازجي نهج الاسلوب العلمي ، اذ توخى فيه وصف شجر البن وثمره على حقيقة الواقع في عالم النبات . واختار لذلك الالفاظ الوضعية المضبوطة المعنى ضبطاً محكماً بحيث لو قرأها عدد من القراء لهم مسكة من اللغة لم يختلف تأثيرها فيهم ولا اختلف ما يحصلونه من معانيها باختلاف اذواقهم وحالاتهم العاطفية .

والاسلوب العلمي ، بعد هذا ، يجتهد في اتباع قاعدة المساواة . اي : يعمد الى المعادلة بين مقدار اللفظ ومقدار المعنى فيه ، فلا يتفنن في اطناب ولا ايجاز . وهو اسلوب مولد في اللغة العربية لم تعرفه قبل العصر العباسي الا في لمحات من القرآن حيث يقرر بعض الانظمة الاسلامية ، وسنرى ان الجاحظ كان في طليعة من وضعوا اسس هذا الاسلوب .

فاما الاسلوب الادبي فانه يخوض في الموضوعات التي ينفسح معها المجال للرأي

١ آباط : جمع ابط ، والمقصود بابط الورقة موضع اتصالها بالقصبة التي تنبت منها .
٢ ادرك : نضج وصلح للقطاف .

الخاص والشعور الخاص. البن مثلاً تتصل به حقائق علمية معينة لا يستطيع الباحث ان يجاوزها الا الى حقائق علمية جديدة يكتشفها عن البن وهي غير مكتشفة من قبل . لكن البطولة صفة تتعدّد الآراء في ماهيتها ، وربما اختلف كاتبان او شاعران في رجل ما ، هل هو بطل أم لا ؟ ومن هنا كنا نصدف بين اعلام التاريخ من يَلقون الذم والمدح معاً. ومن هنا كان الكاتب او الشاعر انما يستهدف التأثير ودفع قارئه او سامعه الى مشاركته الشعور والرأي . وعلى هذا كان لا بد للأديب من ان يطلب لغرضه لفظاً وتركيباً فصيحاً ، وتصويراً وتمثيلاً جميلاً ومعنى ومغزى جميلاً . وتلك خصائص الاسلوب الادبي .

على ان ما يُقصد للمطالعة من الاسلوب الادبي يختلف بعض الشيء عما يقصد للالقاء . وما يراد للنثر يختلف عما يراد للشعر . ومن هنا تفرع الاسلوب الادبي فروعاً رئيسية عامة ، فمنه **الاسلوب الشعري** ، ومنه **الاسلوب الخطابي** ، ومنه **الاسلوب الكتابي** . والاسلوبان : الشعري والخطابي اقدم في اللغة العربية من شقيقهما الثالث . ذلك بان الادب العربي ظهر اول امره ، في الجاهلية ، بمظهر الشعر ، يرافقه شيء من الخطابة . ثم راجت الخطابة في عصر النبوة والراشدين ، وانتشرت انتشاراً واسعاً في عصر الامويين .

ويعتمد الاسلوب الشعري – كما أسلفنا – على الرنة الموسيقية ، يساعده عليها الوزن والقافية ، كما يكثر الاعتماد على التصوير ويميل الى الايجاز في اداء المعاني .

ويعتمد الاسلوب الخطابي ، شأن الاسلوب الشعري ، على الرنة الموسيقية . وكثيراً ما يستعين عليها بالسجع . وربما ذهب الاسلوب الخطابي مذهب الشعر في كثرة التصوير والميل الى الايجاز . الا ان الخطب تكون في العادة اوسع مجالاً من الشعر للتأكيد على معاني الخطيب واغراضه .

اما الاسلوب الكتابي – ومنه سجع الا ان الغالب عليه ان يكون نثراً مرسلاً – فالشرط فيه ان يكون اوفر حظاً من الاشعار والخطب في التحليل وتوضيح صور الكاتب ومعانيه . فحظه من الرنة الموسيقية اقل من حظ شقيقيه . الا ان الشرط فيه ان يكون – كما قلنا – اوفر حظاً في التحليل وتوضيح صور الكاتب ومعانيه ، ولذلك يحتمل هذا الاسلوب اكثر مما يحتمل الاسلوب الشعري والاسلوب الخطابي .

هذا ، ولما قلنا ان لكل كاتب اسلوباً ولكل شاعر اسلوباً لم نقصد بذلك ان ننفي ان كل كاتب وشاعر انما هو شريك كل كاتب وشاعر آخر في الصفات العامة التي يتصف بها الاسلوب الادبي سواءٌ أكان شعرياً ام خطابياً ام كتابياً . ولكن اردنا ان نثبت وجود صفات اخرى خاصة يستقل بها هذا الشاعر عن نظيره ، وينفرد بها هذا الكاتب عن شبيهه .

فهذه **الصفات الخاصة في الشاعر او الكاتب تسمى ميزته** . مثال ذلك ان المتنبي شريك سائر الشعراء في لوزانه وقوافيه واكثر الفاظه وكثير من معانيه ، الا انه يتميز بوصف المعارك ومدح البطولة في الحرب وصياغة الحكم وارسالها امثالاً، ويتميز باللفظ الفخم، فهذه اذاً هي ميزته الشعرية .

وخلاصة هذا كله ان النقد الادبي باب واسع يبحث شروط تأليف الكلام بحسب قوانين الفصاحة والبلاغة ، ويعتمد على سِيَر الكتّاب والشعراء وعلى العلم بحوادث التاريخ لربط الآثار الادبية بها ، كما يعتمد على درس المجتمع واثره في الانتاج الادبي ، وعلى النظر في العواطف والآراء التي يؤديها الادب لمعرفة قيمتها في ميزان الفكر والاخلاق .

النقد الادبي القديم والنقد الحديث . — وقد عني الاقدمون بفن النقد الادبي عناية فائقة لكونه المعين الذي يساعد على تفهم الادب الجيد وتذوقه ، ولكونه المرشد الذي يهدي الشاعر او الكاتب الى صنع الادب الجيد اذا اوتي قريحة جيدة .

واول من كتب في بعض قواعد هذا الفن من الاقدمين ابو عثمان الجاحظ ، اديب العصر العباسي الثاني . فعل ذلك في كتابه الشهير « البيان والتبيين » . ثم تلاه نفر من النقاد وسعوا البحث في هذا الفن وبوبوه ، منهم ابن قتيبة الدينوري صاحب كتابي : « الشعر والشعراء »، و « ادب الكاتب »، وكلاهما مطبوع . وكان ابن قتيبة في نحو عصر الجاحظ . ومنهم قدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر ، وهو مطبوع . وكانت وفاة قدامة في اوائل القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)[1] . ومنهم عبد القاهر الجرجاني صاحب « اسرار البلاغة[2] » وكتب اخرى في النقد ، وسنعرض لذكره فيما بعد . ومنهم ابن الاثير صاحب « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » وقد سبقت اليه الاشارة في فصل الملاحم والشعر العربي[3] .

ولكن غلب على الاقدمين في فن النقد حصر النظر في الكلام نفسه ، هل هو فصيح بليغ ، وهل معانيه مستقيمة ام ملتوية ، مبتكرة ام تقليد ، وهل صاحبه اديب مصنوع ام مطبوع ، يعنون بالمصنوع من اصبح اديباً بكده واجتهاده وطول ممارسته ، ويعنون بالمطبوع من اوتي مواهب اغنته عن تكلف الكد والاجتهاد .

فلما اقبل عصر النهضة الحديثة صرف النقاد اهتمامهم الى آفاق اخرى فبحثوا حقيقة الدور الذي يمثله الادب في الحياة ، وعنوا بالترجمة للاديب ودرس شخصيته واثر البيئة والعصر فيه

١ وينسب لقدامة كتاب آخر اسمه : « نقد النثر » طبع . ٢ مطبوع . ٣ الصفحة ١٠٣ .

وفي ادبه ، والتفتوا الى حظه من عمق الفكرة والعاطفة ، واشتغلوا بشيء من مقارنة الادب العربي بغيره من آداب الامم على نحو ما فعل سليمان البستاني حين قارن جاهلية العرب بجاهلية اليونان في مقدمة تعريبه لالياذة هوميروس .

تقسيم المذاهب الادبية . — وبحث نقادنا العصريين في حقيقة الدور الذي يمثله الادب ساقهم الى النظر في المذاهب او المدارس الادبية على نحو ما قسمها الغربيون من كلاسيكية *Classicisme* ورومنطيقية *Romantisme* وواقعية *Réalisme* وطبيعية *Naturalisme* ورمزية *Symbolisme* ومذهب الفن للفن .

والكلاسيكية — بوجه عام — تشمل كل اثر ادبي بقي حياً على الاجيال لجودته ونفاسته ، فهو يصح مادة لتعليم اللغة والتثقيف والتهذيب ، ومثاله في ادبنا شعر زهير بن ابي سلمى . فاما بوجه خاص ، فالكلاسيكية تعني كل ادب يتبع[1] اصولاً وقواعد قديمة (وفي اوروبا هي الاصول والقواعد اليونانية واللاتينية) ويعتمد على عمل العقل وعلى الافكار الرفيعة يؤديها بعبارة بسيطة صريحة كقول زهير :

لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

والرومنطيقية ، عكس الكلاسيكية ، اي : انها تنزع الى الخروج على الاصول والقواعد المتبعة وتلتمس ابتداع[2] الجديد ، كما تلتمس ضروب التعبير التي تشفع المعنى بجو يستهوي الالباب ، وتعتمد على العاطفة ولاسيما العاطفة التي تتولد من تفاعل نفس الاديب والطبيعة حوله ، وكثيراً ما ترتدي هذه العاطفة وشاح الحزن وتجد لذة وغبطة في تشوق المجهول وما لا يُنال .

والنزعة الرومنطيقية هي التي غلبت في اواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر على الشعر الفرنسي والانكليزي والالماني .

وبعض الشعر المولد في العصر العباسي الاول كان شيئاً من رومنطيقية في الادب العربي بالنسبة الى الادب العربي القديم . ولكن ما ينبغي لنا الاغراق في هذه المقايسات ، لان الاصرار على تاريخ ادب ، كالادب العربي ، كي يخضع لمثل تقسيم تاريخ الادب الفرنسي او

١ ومن هنا سمى بعضهم الادب الكلاسيكي : الادب الاتباعي . ٢ وهكذا سماها بعضهم : الطريقة الابتداعية في الادب تمييزاً لها من الطريقة الاتباعية .

الانكليزي ، طريقة عظيمة العقم .

على ان الشعر العربي الحديث قد ظهرت فيه مظاهر رومنطيقية ، بمعنى الكلمة ، وذلك نتيجة التأثر برومنطيقيي فرنسا خاصة مثل ميسه وهيغو ولامرتين ودي فيني ...

فاما **الواقعية** فهي في الادب نزعة الى تمثيل ما هو واقع في الحياة دونما ايثار للجميل واغفال للقبيح . ولكن كثيراً ما تتحول الواقعية الى تتبع للقبيح والمؤلم واتخاذه موضوعاً دون الجميل . ومن اشهر ممثلي الواقعية في الآداب العالمية بلزاك الفرنسي وغوغول الروسي .

وفي بعض كتاب القصة في الادب العربي الحديث نزعة الى هذا المذهب .

وفائدة الواقعية انها تحطم ما يقام من واجهات مثالية لستر النقائص والعيوب . ولكن علة الواقعية انها تعمى عن كل حسن وكل جديد فتثمر التشاؤم .

والمدرسة **الطبيعية** ليست بالحقيقة سوى امتداد للواقعية . فهي تقول ان الواقع يقضي بان الانسان كائن عضوي تسوده الغرائز والحاجات البدنية . واشهر ممثلي المدرسة الطبيعية الكاتب الفرنسي اميل زولا .

والرمزية – والمراد بها مذهب الشاعرين الفرنسيين مللارمه وفرلين – مذهب يقوم معه الادب، ولاسيما الشعر، على عنصرين رئيسيين : الايقاع المناسب والايحاء بالمعنى دونما افصاح . فالرمزية تصرف همها الاول الى الكلمات لتؤلف من اصواتها ايقاعاً موسيقياً لعله يوحي بما اراد الشاعر من معنى او، على الاحرى، بما اراد الشاعر ان يشيع من جو في نفس السامع .

واما **مدرسة الفن للفن** فتستند الى ان الادب فن جميل ، وانه غاية بنفسه ، اي : بما يكون فيه من حلاوة كلام ورونق صور وتخيلات . ونقص هذه المدرسة انها لا تعي الصفة التي لا انفكاك للادب منها، وهي انه قوة اجتماعية فاعلة، فافضله ما ثقف وانار واصلح وحرر . ومع ذلك فمذهب الفن للفن له قيمة باصراره على ان الادب فن جميل . وقديماً قال ابو العتاهية ، الشاعر العباسي ، للخليفة الرشيد يتقاضاه رخص الاسعار :

إِنِّي أَرَى ٱلأَسْعَارَ أَسْعَارَ ٱلرَّعِيَّةِ غَالِيَةْ !

ولكن هذا الكلام ليس بشعر رغم ان ابا العتاهية شاء فيه ان يكون لسان شعب . ولماذا ؟ لانه عدم مقوماً من مقومات الفن، هو ترك العبارة المبتذلة .

الأعصر العباسيّة ونهضة النثر الكتابي
ابن المقفّع، الجاحظ

الانقلاب العباسي والعوامل الجديدة في الأدب العربي . — سقط الامويون سنة ٧٥٠م (١٣٢ هـ) [١] فورث عنهم العباسيون دولة غنية واسعة الاقطار، قد استكملت فتوحها، وتوحدت في نوع الحكم والادارة، وانتشرت فيها لغة رسمية عامة هي العربية، ودين رسمي عام هو الاسلام.

وهكذا كان قد انتهى طور النشأة والتكوين في حياة الدولة، ومُهد لها سبيل تستأنف معه سيرتها بحسب طبيعة احوالها ومنطق ظروفها.

ومعلوم ان دولة الامويين كانت عربية العصبية تختص العرب بالتقديم على عناصر رعيتها، منهم تعبىء اكثر جيوشها ومنهم تختار الرجال لارفع المناصب.

فلما شرع العباسيون والطالبيون في بث دعوتهم، جعلوا ركناً من اركانها ان يسووا بين مسلمي الرعية كلهم من عرب وغير عرب. ثم لما وقع الانقلاب اوفى العباسيون بوعدهم، وكان الفرس في طليعة من تجند للانقلاب، فعظمت مكانتهم وساووا العرب في الدولة، بل غلب نفوذهم فيها كل نفوذ.

الشعوبية . — واشتدت بين اولئك الفرس الحركة التي تُعرف بالشعوبية، وهي — كما اسلفنا — حركة معارضة للعرب الا انها تتشكل اشكالاً وتتلون الواناً، فمنها الشعوبية السياسية التي ترمي الى بعث الملك الفارسي القديم، وقد اتهم بها ابو مسلم الخراساني الذي قتله ابو جعفر المنصور، وكذلك اتهم بها البرامكة الذين نكبهم هارون الرشيد. ومنها الشعوبية الدينية التي ترمي الى نقض الاسلام واحياء المجوسية، وقد اتهم بها عدد من الشعراء والكتّاب اطلق عليهم اسم الزنادقة. ومنها الشعوبية الادبية التي تستنكر افتخار العرب بأدبهم، وتسخر من اسلوب الشعر العربي القديم في مناجاة الاطلال ووصف الفلوات والتغني بعيشة البداوة،

١ وكان سقوطهم بموقعة حاسمة بين جيوش مروان الثاني آخر خلفاء بني امية، وجيوش ابي مسلم الخراساني. وتسمى تلك الموقعة : موقعة الزاب، اضافة الى فرع الدجلة الذي نشب عنده القتال.

وتجتهد ان تثبت ان للفرس ادباً افضل من أدب العرب .

وليس يمكن فهم الاعصر العباسية الا بفهم الشعوبية وما مثلته تلك الحركة من تنافس وصراع في مجال السياسة والعقيدة والذوق الادبي .

الصراع بين حزبي الطالبيين والعباسيين. — لكن بجانب الصراع العنصري الذي تجلى في الشعوبية وما قابلها من رد فعل ، نشب صراع آخر بين الحزبين اللذين تعاونا على اسقاط الامويين وهما : الحزب العباسي والحزب الطالبي او الشيعي . وكان الشيعة يطلبون الخلافة لابناء علي من فاطمة ، وهم اسباط الرسول ، بينما العباسيون يرون انفسهم احق بالخلافة ويقولون : ان بني البنات (يعنون ابناء فاطمة) ليست لهم وراثة الاعمام (يعنون العباس عم النبي) .

وكما اريقت الدماء في الصراع بين الطالبيين والامويين بالامس، أريقت الدماء في الاعصر العباسية بين الطالبيين والعباسيين ، وكان لذلك اثره في الادب العربي .

ازدهار العمران : بناء بغداد . — ومن العوامل الجديدة التي يجب ذكرها في الاعصر العباسية ما صحب الدولة من ازدهار العمران ولا سيما بناء بغداد ، وهي المدينة التي اصبحت عاصمة الادب العربي طوال خمسة قرون. أسسها ابو جعفر المنصور سنة ٧٦٢ م (١٤٥ هـ) على شاطىء الدجلة الغربي ، واختار لها موقعها في مكان يتوسط اقطار الدولة ، بين سوريا قاعدة الامويين وخراسان مهد الدعوة العباسية، مكان يجتمع فيه العرب والفرس ويبعد من الحدود البيزنطية ويكون له اتصال بالبحر ولو من طريق نهري .

وحسب من يريد ان يتناول صورة سريعة عن مقدار اثر بغداد في الادب العربي ان يلقي نظرة على مجلدات الكتاب الضخم الذي ألفه الخطيب البغدادي وجعل عنوانه « تاريخ بغداد » وترجم فيه لاشهر الرجال الذين اقاموا بالمدينة منذ تأسيسها حتى الشطر الاخير من القرن الحادي عشر الميلادي حين توفي المؤلف [١] .

وفور حلقات العلم والكتاتيب ودكاكين الوراقين — وعامل آخر من العوامل الجديدة التي يجب ذكرها في الاعصر العباسية انتشار حلقات العلم، ولاسيما في المساجد . وكانت هذه الحلقات قد بدأت تنهض في اواخر العصر الاموي في مدينتي البصرة والكوفة ، واكثر اشتغالها كان باللغة والقرآن والحديث. ودعا الاشتغال باللغة الى العناية بالادب. وقد اسلفنا لك القول ان مستنبط علم العروض العربي هو الخليل بن احمد ، والخليل كان بصرياً ، ظهر في

١ توفي الخطيب البغدادي سنة ١٠٧١ م .

عصر بني امية وادرك العباسيين . كذلك ذكرنا ان واضع علم النحو كان بصرياً اسمه ابو الاسود الدؤلي ، ظهر في عصر الراشدين وأدرك الامويين .

وتكونت في البصرة والكوفة مدرستان لغويتان عظمت بينهما المنافسة والمناظرة، فافاد الادب من ذلك الخلاف ، لان المدرستين اضطرتا الى العناية بالشعر القديم تعززان به الرأي ، وتقويان به الحجة ، واضطرتا كذلك الى توليد نثر تتجادلان به وتبحثان الابحاث اللغوية .

ويمكن القول ان مدرستي البصرة والكوفة قامتا بقسط وافر في تحويل النثر العربي نثراً كتابياً . وليس من قبيل المصادفة ان يكون رائد النثر العربي الكتابي ، عبد الحميد ابن يحيى ، قد تخرج في دواوين الدولة الاموية ، ثم يكون الذي خطا الخطوة التالية الكبرى بالنثر العربي هو عبد الله بن المقفع ، البصري العباسي النشأة .

وفي الوقت نفسه حرك درس القرآن والحديث الافكار في هذه الحلقات ، وأدى الى إثارة قضايا عقلية كثر فيها الجدل ، كقضية الانسان أمسير هو ام مخير . فكانت اثارة هذه القضية في حلقة حسن البصري وهو فقيه من فقهاء الدولة الاموية منشأ لمذهب المعتزلة[1] .

ومع هذه الحلقات العلمية في المساجد توافرت ايامَ العباسيين الكتاتيب ، او المدارس ، ولا سيما في احياء العاصمة العباسية ، وتكونت بجانب طبقة المعلمين التي تعنى بتثقيف ابناء الخلفاء وكبار اصحاب المناصب ، طبقة من المعلمين الشعبيين ألف فيهم الجاحظ كتاباً طريفاً جمع به نوادرهم ولكن ضاع فلم يبق منه الا نتف اثبتتها الكتب الاخرى .

ونشطت في العصور العباسية صناعة الورق للكتابة ، وظهرت طائفة من النساخ وطائفة من الوراقين تستنسخ الكتب وتبيعها في الدكاكين على نحو المكاتب العامة اليوم. ويحكى

١ المعتزلة : كان منشأ المعتزلة ان فقيهاً اسمه واصل بن عطاء الملقب بالغزال ، لزم زماناً في مدينة البصرة ، في اواخر العصر الاموي ، حلقة الفقيه الحسن البصري . وكثيراً ما كانت تطرح في تلك الحلقة قضايا نظرية دينية اشبه بالقضايا التي يتعرض لها الفلاسفة ولا سيما الفلاسفة اللاهوتيون . ومن تلك القضايا قضية الكبيرة (أي : الخطيئة المميتة) هل يخرج مرتكبها من دينه فيكفر ام لا ؟ وكان واصل يقول : كلا ، ان مرتكب الكبيرة يصبح في منزلة بين المنزلتين . ولذلك اعتزل واصل حلقة الحسن البصري فعرف اصحابه بالمعتزلة . ومن القضايا الاخرى التي كانت تبحث في تلك الحلقة قضية حرية الارادة البشرية ، هل الانسان مخيّر ام مسيّر في اعماله من خير وشر . وكان الحسن البصري نفسه يميل الى الاخذ بحرية الارادة البشرية ، كما كانت مدرسة فكرية في العصر الاموي تذهب هذا المذهب فتعتقد حرية ارادة الانسان . وسميت تلك المدرسة : القدرية ، من قولهم : الانسان مستطيع قادر على افعاله ، وهي تخالف المدرسة الجبرية التي تقول بتسيير الانسان . وقد تبنى المعتزلة مذهب القدرية ايضاً ، ثم تبنوا مذهباً آخر يقول عكس ما تقول المدرسة الصفاتية من ان صفات الله كالعلم والبصر والسمع الخ ... قائمة برأسها موجودة مع الله وجوداً مستقلاً . وكان المعتزلة يقولون ان هذا اشراك بالله ، والتوحيد يقضي بان صفات الله لا قيام لها برأسها وليس لها وجود مستقل . وهكذا سميت المعتزلة : اهل القدر والتوحيد .

عن الجاحظ انه كان يكتري بعض هذه الدكاكين فيبيت فيها للمطالعة .

انتشار الترف والفقر . — وثمة عامل ظهر في الاعصر العباسية بمقدار لم يُعرف من قبل ، ذلك هو الترف العظيم في البيئات الحاكمة والمتصلين بالبيئات الحاكمة . فافتتن رجال السلطة واصحابهم والاغنياء جميعاً في لذائذ العيش افتناناً قبسوا بعضه من اكاسرة الفرس الذاهبين ومن ارستوقراطية الفرس ، وبعضه ابتكروه بوحي من وسائل الحضارة التي اجتمعت لهم. وهكذا كثرت الجواري وكثر النخاسون المتاجرون بهن ، وشاعت عادة اقتناء الغلمان ، وتعددت الحانات والمواخير لشرب الخمر والغناء ، وصحب ذلك كله شذوذ في اخلاق الارستوقراطية امتد الى الشعب وترك اثراً بليغاً في الادب العباسي ولا سيما الشعر.

ومعلوم ان الترف اذا شاع في جانب من مجتمع ، والثروة اذا احتكرت في جانب ، كان معنى ذلك ان البؤس والفقر طاغيان على الجانب الآخر . وبالفعل كان في الاعصر العباسية بؤس شديد وفقر شديد بجانب الترف العظيم والثروة الهائلة . وقد ترك ذلك البؤس والفقر شيئاً من اثر في الادب العباسي برغم ان هذا الادب حضنت اكثره الدولة وجعلت معظمه أشبه بزهرة نابتة في حوضها .

نشاط حركة الترجمة . — وعامل آخر من العوامل الجديدة في الادب العربي ايام العباسيين : نشاط حركة الترجمة ، ولم يكن لها من اثر يذكر في عصر بني امية ... وهنا ينبغي لنا القول ان الشرق الادنى منذ فتوح الاسكندر ، في اواخر القرن الرابع بعد الميلاد ، انطبعت فيه الروح اليونانية انطباعاً عميقاً . وفي القرن الرابع بعد الميلاد كان كثير من آثار الفلاسفة والاطباء والفلكيين اليونان قد نُقل الى اللغة السريانية — شقيقة اللغة العربية — وأصبح يُعلم في سوريا ، ولاسيما مدينتي الرها وانطاكية ، وفي العراق . بل كانت في العراق مدرسة للطب تُعرف بمدرسة جنديسابور ، ويقال ان طبيباً عربياً جاهلياً اسمه الحارث ابن كلدة الثقفي قد تخرج فيها . وكذلك كانت في العراق ، في مدينة حرّان ، طائفة الصابئة وهم متصلون باليونانية ومعارفها . وفي الاسكندرية ايضاً كانت مدارس للطب والفلك والفلسفة اليونانية ...

وهكذا استطاعت العربية ان تجد بينها وبين الارث اليوناني العقلي العظيم ، رهطاً من تراجمة يقومون بدور النقل والاقتباس اما من اللغة السريانية واما من اللغة اليونانية نفسها . وفي طليعة هؤلاء جرجيس بن بختيشوع الطبيب رئيس مدرسة جنديسابور وقد عمل في خدمة الخليفة العباسي الثاني : ابي جعفر المنصور . وكان ابو جعفر اول من شجع على الترجمة ، ومن تراجمته غير جرجيس بن بختيشوع ، يوحنا بن البطريق مترجم جالينوس

وابوقراط الطبيبين . واقتفى الرشيد طريق جده المنصور ، واقتفى طريق الرشيد ولده المأمون . وفي عهد المأمون سنة ٨٣٠م ، أسس **بيت الحكمة** في بغداد وفيه فرع كبير للترجمة . وبلغت الترجمة في عهد المأمون حداً عظيماً ولمع اسم شيخ التراجمة : حنين بن اسحاق العبادي .

على ان الترجمة لم تقتصر على اليونانية وان كان اكثرها من اليونانية مباشرة او بواسطة السريانية . وقد سبق لنا القول ان اول مترجم ادبي في تاريخ الادب العربي نقل كليلة ودمنة في عهد المنصور عن اللغة الفارسية الفهلويّة ، وكان الكتاب قد نقل من قبل عن الهندية السنسكريتية . ومما تُرجم عن الهندية ايضاً في عهد المنصور كتاب السند هند ، ترجمه محمد بن ابراهيم الفزاري اول فلكي عربي .

وبرغم ان حركة الترجمة لم تكن ادبية الا بقدر زهيد ، ومن طريق الفارسية التي كانت يومئذ فقيرة جداً في الآداب ، فاننا نذكر الترجمة في تاريخ للأدب العربي لانها تركت فيه اثرين كبيرين : أثراً فكرياً وأثراً لغوياً .

فأما **في الفكر** فقد كان بعض هذا الذي نُقل الى العربية منطقاً يعلم اثبات الاشياء بالادلة العقلية ، وكان بعضه نظراً وبحثاً يثيران قضايا لا عهد للعرب والمسلمين بها . فنشأ بفعل ذلك علم **الكلام** ، وبين اصحاب هذا العلم ادباء عظام كالجاحظ احد اقطاب المعتزلة الذين أسلفنا ذكرهم .

واما في اللغة فان حركة الترجمة زوّدت العربية ألفاظاً جديدة من مثل الفلسفة والموسيقى والاسطرلاب (آلة لرصد النجوم) ، كما أعانت بوجه عام على توليد النثر الكتابي العربي المرسل ، وساعدت — بوجه خاص — على توليد النثر العلمي . ذلك ان النقل من لغة الى لغة يمرّن اللغة المنقول اليها ويوسع قوالب عبارتها لاستيعاب مادة جديدة .

نهضة النثر الكتابي : اعظم حادث ادبي في عهد العباسيين . — وليس ثمة ريب في ان نهضة النثر الكتابي كانت اعظم حادث تمّ للغة العربية والادب العربي في تلك الاعصر . ذلك الحادث هو الاشتقاق الجديد حقاً في اللغة والآداب يومذاك . بل ان طريقة النثر الكتابي التي استقامت في ذلك العهد على يد ابن المقفع ، ثم رقّاها وقوّاها الجاحظ ، هي في الاساس طريقة النثر الكتابي التي نستعملها اليوم في تأليف الكتب ووضع المحاضرات والمقالات معتمدين فيها على ارسال الانشاء ارسالاً .

التجديد في الشعر . — واما التجديد الذي تمّ في الشعر فلم يكن بالغاً عمق التجديد

الذي تمّ في النثر . ولقد بولغ جداً في هذه الثورة التي قيل أحدثها ابو نواس وابو العتاهية كل في غرضه الذي انصرف اليه من وصف خمر وزهد . فالواقع ان الشعر العربي مع ابي نواس وابي العتاهية ظل هو الشعر العربي القديم: غنائياً يتبع الاوزان نفسها والمجزوءات نفسها الا في القليل الذي لا يُذكر.

ولكن حصل في بعض اللفظ والتركيب والاسلوب والموضوعات تجديد يصح ان نبطىء قليلاً للنظر فيه قبل ان نشرع في بحث ممثلي نهضة النثر الكتابي : عبد الله بن المقفع وابي عثمان الجاحظ. ولكن نظرنا في التجديد الذي اتفق للشعر في ذلك العهد من خلال الشاعرين ابي نواس وابي العتاهية .

ابو نواس . – واسمه الحسن بن هاني ، ويرجح انه فارسي الاصل ، وُلد بالاهواز سنة ٧٦٢ م (١٤٥ هـ) ويبدو انه نشأ يتيماً في رعاية أم فقيرة حملته في صباه الى البصرة وجعلته عند عطار من عطاريها برّاءً يبري عود البخور. ولكن اتيح له في البصرة ان يحصّل ثقافة واسعة في اللغة والادب ، وان يتعرف كثيراً من القضايا التي يجادل فيها اهل عصره . وفي الوقت نفسه سقط على بعض عشراء السوء في البصرة والكوفة ممن افسدهم جو الترف العباسي افساداً شديداً ، واخص هؤلاء شاعر اسمه والبة بن الحباب الاسدي. ورحل ابو نواس الى البادية فزاد تضلعاً من اللغة ، على انه حمل اسوأ صورة عن الاعراب وعيشتهم . وانتقل الى بغداد ، ثم سافر الى مصر ، ثم عاد الى العاصمة العباسية ولبث بها مقيماً حتى مات سنة ٨١٤م (١٩٩ هـ) . واما الذين عاصرهم من الخلفاء فهما الرشيد والامين ، وكانت له عند الامين حظوة عظيمة. وتنقسم حياة ابي نواس دورين كبيرين: دور العبث والاباحة ودور التوبة. وفي الدور الاول كان اشهر ما قال من شعر : خمرياته . وفي الدور الثاني كان الزهد اشهر شعره . ولا ريب ان حياة المجون التي اسرف فيها مدة الدور الاول من حياته تركت سآمة ومللاً في روحه وهدمت جسمه هدماً فزهد زهد عاجز وزهد طالب عزاء .

ومن جيد شعره قوله :

دَعْ عَنْكَ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ

وَٱشْرَبْ عَلَى ٱلْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءَ كَٱلْوَرْدِ

كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها
أجدته حمرتها في العين والخد [1]
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة   في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها   خمراً فما لك من سكرين من بد !

ابو نواس الحسن بن هاني



عاج الشقي على رسم يسائله   وعجت اسأل عن خمارة البلد

فاذا تأملنا هذه الابيات وجدنا وزنها هو البسيط لم يتغير . لكن اذا تأملنا اللفظ وجدنا فيه تجديداً هو اثر لتلك الحضارة العباسية التي اكتنفت الشاعر . هنا اللفظ كله رقيق مأنوس وذلك بخلاف ما نلقى عليه اكثر الشعر الجاهلي ، بل الكثير من الشعر الاموي ايضاً . ولم يكن ابو نواس يعدل عن هذا النهج في انتقاء اللفظ الرقيق الانيس الا ساعة يشاء ان يثبت قدرته على مجاراة القدماء رداً على فقهاء اللغة الذين كان همهم من الشعر عويص اللفظ ووحشي التركيب وغرائب العبارة التي تحتاج الى تأويل صرفي او تخريج نحوي .

ومن تجديد ابي نواس في اللفظ انه فتح باب النظم لمفردات من العبارة الفلسفية ، وقد بدأت اللغة في عصره تحتك ، كما اسلفنا ، بموضوعات من الفلسفة . ويجري في هذا السياق قوله في الانسان :

أتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر ؟ [2]

١ اجدته حمرتها : اكسبته حمرتها .   ٢ الجرم : الجسم من الحيوان وغيره .

وقوله في جمال حسناء :

فَبعضُهُ يَتَفانَى وَبَعْضُهُ يَتَوَلَّدُ !

فالجرم والعالم الاكبر والتفاني والتولد كلها من الفاظ الفلسفة .

اما تجديده في التركيب فهو اقل بروزاً وأيسر اثراً من تجديده في المفردات . لكنه على كل حال ظاهر في شواهد من نظمه مثل قوله :

كأنَّ صُغرى وكبرى مِن فَواقِعِها حصباءُ درٍّ على أرضٍ من الذهبِ

اتى بصيغة افعل التفضيل نكرة ، وحقها ان تعرّف وفقاً للاصول اللغوية فلا يقال : صغرى و كبرى ، بل : الصغرى والكبرى . وطبيعي ان يكون علماء اللغة قد اخذوا عليه هذا « الاخلال » بالاصول ، غير ان خبراء الذوق الشعري لا يرون في هذا التركيب سوى لمعة تجديد من لمعات ابي نواس .

لكن يجب القول ان حظه من التجديد في ناحية الاسلوب والمعنى كان اوفر جداً من حظه من التجديد في مجرد اللفظ والتركيب ، وأخذاً بهذه الحقيقة قال القدماء : « كانت المعاني مدفونة حتى اثارها ابو نواس ... »

لقد أفاق صاحبنا على الشعراء وهم يتعاطون المعاني الموروثة من وقوف على الاطلال وبكاء على الاحباب الراحلين وركوب للمطايا وقطع للفلوات وراء الاحباب . فطفق يسخر بهذا الاسلوب وتلك المعاني التي ان لاءمت شاعراً جاهلياً يضرب في البادية ، فانها لا تلائم شاعراً حضرياً يعيش على ضفاف الدجلة والفرات في بقعة من اعظم بقاع الدنيا عمراناً يومذاك .

عاجَ الشقيُّ عَلى رَسمٍ يُسائِلُهُ وَعُجتُ أسألُ عن خَمَّارةِ البَلَدِ

وكانت لشعوبية ابي نواس يد في السخر بهذه « المعاني العربية » ولكن شعوبيته تلك لم تكن سياسية ، بل ادبية . وبرهاننا انه كان منحازاً الى الامين في الخلاف الذي نشب بينه وبين اخيه المأمون ، برغم ان المأمون قد تحزب له الفرس .

وبالطبع ، كان لموضوع الخمرة الحظ الاوفر من هذا الاسلوب الذي جدده ابو نواس ومن تلك المعاني التي كانت مدفونة فأثارها . ويمكننا القول في غير مغالاة ان فن صاحبنا الشعري يتجلى اروع ما يتجلى في موضوع الخمرة ، وتبرز فيه توليداته المعنوية كما لا تبرز في سواه من الابواب التي طرقها . فأبو نواس البارع في سرد القصة (قصة الخروج الى الحانة ليلاً) ، وابو نواس الماهر في سوق الحوار (الحوار بينه وبين الخمّار او الخمرة نفسها) ،

وابو نواس المبدع في التصوير (تصوير ألوان الشراب والكؤوس ووجوه الندمان والسقاة) – ابو نواس هذا كله نلقاه في خمرياته بارز التقاسيم قويّ الملامح، ونلقى معه اداته العبارية على افضل ما تكون انتقاء لفظ وحسن تركيب وعذوبة جرْس. وفي الخمريات كذلك ظهر ابو نواس المفكّر الذي لا يفوته حظ من سعة ادراك وعمق. فلقد استعمل الشعر الخمري منبراً يرد منه على الذين يصوّرون الله بصورة منتقم من البشر، لا يعفو عنهم اذا أذنبوا.

وفي ذلك يقول:

يَا كَبِيرَ ٱلذَّنْبِ عَفْوُ ٱللهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرْ

ولقد استعمل الشعر الخمري منبراً يسخر فيه من كثرة الجدل، ومن دعاوى المتفلسفين، ومن اختلاف الآراء في الدين، وفي ذلك يقول:

تَقَسَّمَتْهَا ظُنُونُ ٱلْفِكْرِ إِذْ خَفِيَتْ كَمَا تَقَسَّمَتِ ٱلْأَدْيَانَ آرَاءُ[1]

ويقول:

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي ٱلْعِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

لكن بعد ان يُستنفد البحث في التجديد الذي احدثه ابو نواس في الشعر يبقى صحيحاً ان ذلك التجديد كله كان ضئيلاً لم يتناول الا اشياء جزئية مع المحافظة على الشكل القديم الذي هو القصيدة، وعلى النوع الغنـــائي القديم. ذلك فضلاً عن ان ابا نواس قد علق التجديد الذي احدثه في الشعر بمذهب مستهتر في الحيـــاة لم يعبر به الا عن روحية ارستوقراطية عباسية (عربية فارسية) اغرقت في الترف واسرفت في التبذل.

ابو العتاهية. – واسمه اسماعيل بن القاسم. وبعض الباحثين يرى انه من اصل فارسي ولكن يرى فريق آخر ان اصله عربي. كان مولده سنة ٧٤٨ م (١٣٠ هـ) في قرية عراقية يقال لها عين التمر. وكان اهله يبيعون الجرار. غير انه آثر الشعر لما وجد في نفسه من قدرة عليه. ومجن مدة من زمان في الكوفة ثم في بغداد. واتصل بالخليفة المهدي ومدحه وشغف بجاريته عتبة، ولكن الجارية لم تبادله عاطفة بعاطفة. وقيل ان اخفاقه في حبها كان من

١ الضمير في «تقسّمتها» عائد الى الخمرة، يقول انها خفيت لشدة رقتها وصفائها، فاختلفت الآراء في خلقها كما اختلفت آراء المتجادلين في قضايا الدين.

دواعي انصرافه الى الزهد . وفي ذكر ابي العتاهية وعتبة يقول المعري :

أَللهُ يَنْقُلُ من شاء رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةْ
أَبدى العتاهيُّ نسكاً وتابَ عن حُبِّ عُتْبَةْ

واتصل ابو العتاهية بالرشيد ، وفي خلافته لبس الصوف ، وهو في الخمسين من عمره ، وامسك عن قول الشعر الا في الزهد .

ابو العتاهية



كل حي عند ميتته حظه من ماله الكفن

وطالت ايامه حتى زمن المأمون فتوفي سنة ٨٢٨ م (٢١٢ هـ) .

وشعر ابي العتاهية عظيم السهولة .

وكان يقول : «لو شئت ان اجعل كلامي كله شعراً لفعلت .» ولكن الجديد في شعره ، أي : السهولة ووقف القول على الزهد ، هو كالجديد في شعر ابي نواس لم يتناول الا اشياء جزئية مع المحافظة على الشكل القديم وعلى النوع الغنائي القديم . وكما علق ابو نواس افضل شعره بمذهب كان عبارة عن روحية ارستوقراطية عباسية ،اغرقت في الترف واسرفت في التبذل ، كذلك علق ابو العتاهية شعره الزهدي بمذهب كان عبارة عن روحية شعب بائس فقير يرى في الموت سلطاناً يساوي بين الناس جميعاً .

ومن شعره الذي يمثله قوله :

نحن في دار فانية

سكَنٌ يَبقى لَهُ سكَنُ ما بِهذا يُؤْذِنُ الزمنُ [1]

١ السكن : الاليف ، الصاحب . يؤذن : يسمح .

نحنُ في دارٍ يُخبّرُنا　　عن بلاها ناطقٌ لَسِنُ [١]
دارُ سُوءٍ لم يدُمْ فرحٌ　　لامرئٍ فيها ولا حَزَنُ
ما نرى من أهلها احداً　　لم تَغُلْ فيها به الفِتَنُ [٢]
عجباً مِن مَعشَرٍ سَلفوا　　أيَّ غَبنٍ بَيِّنٍ غُبنوا
وفّروا الدنيا لغيرهمِ ،　　وابتنوا فيها ، وما سَكَنوا
تركوها بعدما اشتبكت　　بَينَهم في حبِّها الإحَنُ [٣]
كلُّ حيٍ عندَ ميتتِهِ　　حظُّهُ منْ مالِهِ الكفنُ
إنَّ مالَ المرء ليسَ لهُ　　منهُ الاّ ذِكرُهُ الحَسَنُ
في سبيلِ اللهِ أنفُسُنا　　كلُّنا بالموتِ مُرتَهَنُ

فهذه هي طريقة ابي العتاهية ومعانيه توشك ان تجتمع كلها في هذه القصيدة . والسهولة المتناهية ظاهرة في قوله :

كل حي عند ميتته　　حظه من ماله الكفن
ان مال المرء ليس له　　منه الا ذكره الحسن

على ان الذين عاصروا ابا العتاهية كانوا في شك من انه يأخذ نفسه بما يدعو اليه من زهد في المال . فلقد كان بخيلاً عظيم الحرص .

ابن المقفع (٧٢٤ – ٧٥٩ م) (١٠٦ – ١٤٢ ﻫ)

مصرعه : في يوم من السنة ١٤٢ ﻫ (٧٥٩ م) شوهد رجل لا يجاوز الخامسة والثلاثين من عمره او هو يجاوزها قليلاً ، تلوح عليه امارات الذكاء المتقد ، يدخل منزل والي البصرة في عهد الخليفة المنصور .

كان ذلك الرجل هو : عبد الله بن المقفع الكاتب العربي ، الفارسي الاصل . وكان الوالي الذي دخل ابن المقفع منزله هو : سفيان بن معاوية المهلبي . دخل منزله وكان ذلك آخر

١ دارٍ : يعني بها الدنيا . عن بلاها : عن فنائها . لسن : فصيح . ٢ لم تغل : لم تهلك . ٣ الاحن : الاحقاد .

العهد به ... فكأنما غاص غوصاً بين سمع الارض وبصرها . فماذا حلّ به ؟ لقد بطش به الوالي !

هل أحرقه بالنار ؟ ام دفع به الى بئر وردم عليه الحجارة ؟ ام زجه في حمام حبس دخانه وحقن حرارته فضاق عليه نفَسه حتى اختنق ؟ ام انه قطّع جسده عضواً عضواً ، ثم قذف به في تنور وغطى عليه ؟ كل هذا مما يقصه اخباريو الادب ثم لا يتفقون منه على شيء واحد . ولكنهم يتفقون على انه صرعه صرعة وحشية منكرة .

ولماذا ؟

لا شك ان الوالي كان شديد السخط على ابن المقفع يريد التخلص منه ، لان ابن المقفع لم يكن ينظر اليه نظرة رفيعة .

عبد الله بن المقفع



من اخذ كلاماً حسناً من غيره ، فتكلم به في موضعه على وجهه، فلا يُرين في ذلك عليه ضؤولة .

كان كثير الاستخفاف به لا يزال يوجه اليه قوارص النكت . فاذا دخل عليه قال له في التحية : « السلام عليكما ! » ولا نستغرب التثنية هنا ، فقد كان للوالي انف ضخم هو ابرز ما فيه ، وكان ابن المقفع يرى واجباً ان لا يسلم على صاحب الانف وحسب ، بل على الانف ايضاً ، فيثني تلك التثنية الساخرة الباعثة على الضحك . واذا تنحنح الوالي فقال : « ما ندمت على سكوتي قط » ظناً منه بانه قد استنبط حكمة عميقة ، عاجله ابن المقفع بجوابه المتهكم القاسي : « الخرس زين لك ، فكيف تندم عليه ؟ »

وفوق ذلك كان ابن المقفع داخلاً في كنف اعمام المنصور ، وكان هؤلاء يكرهون سفيان والي البصرة لانه انما وليها بعد عزل احدهم عنها واسمه سليمان .

فلما شاع نبأ اختفاء ابن المقفع على اثر دخوله دار الوالي هاج عما المنصور : سليمان ،

واخوه عيسى ، ورفعا الشكوى على الوالي الى الخليفة في بغداد . ثم اعتقلا الوالي فكبلاه بالقيود وحملاه فوضعاه بين يدي المنصور . وتقدم ناس شهدوا ان ابن المقفع دخـل دار سفيان ثم لم يخرج فكأن الدار ابتلعته ابتلاعاً .

فتفرس المنصور في الشهود وقال لهم : « اذا قتلت سفيان ، ثم طلع ابن المقفع من هذ الباب خلفي ، فكلمكم ، فماذا اصنع بكم ؟ أأقتلكم بسفيان ؟ » فوقعت الرهبة في قلب الشهود ورجعوا عن شهادتهم .

فأما اعمام المنصور فتغاضوا عن الضحية وتركوا المطالبة بدم صاحبهم ، لانهم انسوا ان المنصور نفسه ذو ضلع في سفك هذا الدم .

وانسدل الستار وغسل الوالي يده من الجريمة وتنصل المنصور !

حياته : وهكذا طويت في امد وجيز حياة عبد الله بن المقفع . وكان اسمه في مجوسيته روزبة ، واسم ابيه دازويه . فاما لقب ابيه المقفع[1] فأتاه من تشنج اصابه في يده لما ضربه امير العراق لاتهامه اياه باختلاس مال الدولة . وذُكر ان الامير الذي ضربه هو الحجاج بن يوسف ، وقيل غيره .

وعلى هذا كان دازويه المجوسي ، والد ابن المقفع ، موظفـاً في الدولة الاموية ، وكانت وظيفته على وجه التعيين هي جباية خراج فارس .

وكان مولد ابن المقفع في العصر الاموي ، في مدينة البصرة ، وبالبصرة النهضة العلميـة التي سبقت اليها الاشارة . فنشأ ابن المقفع ثنائي اللغة ، يجيد الفارسية الفهلوية ويجيد العربية . وقد لبث اول امره على المجوسية شأن ابيه . وعمل كاتبـاً عند ولدي ليزيد بن هبيرة آخر ولاة الامويين على العراق .

حتى اذا وقع الانقلاب العباسي ، اتصل عبد الله بن المقفع باعمام المنصور . فكان كاتباً لاحدهم عيسى ، في اثناء ولايته بكرمان . وعلى يد عيسى هذا اسلم ابن المقفع . ثم اتخذه احدهم اسماعيل مؤدباً لولده . ثم اصبح كاتباً لاحدهم سليمان ، ايام وليَ البصرة . وفي الوقت نفسه ترجم كتباً للمنصور ، منها كتاب كليلة ودمنة .

ولكن واحداً من اعمام المنصور ، اسمه عبد الله ، كان قد خرج على ابن اخيه سنة ٧٥٤ م (١٣٧ هـ) عقب وفاة السفاح اول الخلفاء العباسيين ، وادعى عبد الله ، عم المنصور ، الخلافة لنفسه ، وهو يومذاك والي الشام ، قد اعد حملة لغزو الروم ، فرأى ان يستعملهـا

[1] ومن الرواة من قال ان اللقب هو المقفِّع اي : صانع القفاع وهي الزنابيل .

لغايته في نيل الخلافة . فزحف عليه ابو مسلم الخراساني (قبل ان يقتله المنصور بقليل) ، فقهره وقمع عصيانه واضطر عبد الله ان يفر الى شقيقه سليمان والي البصرة فيقيم عنده متخفياً . فعزل المنصور سليمان عن ولاية البصرة وولى مكانه سفيان بن معاوية المهلبي الذي قتل ابن المقفع . وطلب عمه المتخفي من شقيقيه سليمان وعيسى بعدما طال تخفيه خمسة اعوام ، فأبى الشقيقان تسليمه شقيقهما الا بامان مكتوب يضعان هما شروطه خوف الانتقاض والغدر . فأذعن المنصور للأمر . وكلف سليمان وعيسى ابنَ المقفع ان يكتب نص امان وثيق لا يجد معه المنصور سبيلاً الى التملص والاخلاف . فاطلق ابن المقفع العنان لقلمه، وكان مما كتب: « ومتى غدر امير المؤمنين بعمه عبد الله ، فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده احرار والمسلمون في حل من بيعته . »

وكان المنصور يتشبث بحق الملوك المطلق ، ويرى لنفسه حرية التصرف بالامان ، فهو اذا شاء ان ينقضه نقضه واذا شاء ان يحفظه حفظه . ولذلك استنكر تلك الجرأة من ابن المقفع .

لكن لم يكن بوسعه الا ان يمضي الامان بنصه،فامضاه وصدره مشحون غيظاً على كاتبه. فاوحى الى سفيان واليه على البصرة ان ينفذ الجريمة التي وصفناها في مطلع الكلام. وكان سفيان متهيء النفس لتلبية المنصور ، اذ كانت في صدره نقمة على ابن المقفع لسخره به وبأنفه .

«زندقته» : وبالطبع ، اشيع عن ابن المقفع بعد مقتله انه زنديق . فكان الخليفة المهدي يقول :

« ما وجدت كتاب زندقة الا واصله ابن المقفع. » وظاهر انه اراد بذلك ان قتل ابن المقفع انما كان امراً شرعياً ، بل عملاً من اعمال التقوى يستحق الثواب . لكننا لا نستطيع البتة قبول تلك التهمة تلصق بالكاتب ، لان منشاها هو المهدي – كما رأينا – وهو ولد المنصور ، ويُحتمل، بل يرجح انه لم يرد بها الا تبرير موقف ابيه من الفعلة التي اقترفها واليه. ولو ان تلك التهمة كانت حقاً لما استنكف والي البصرة ، او المنصور نفسه ، من قتل ابن المقفع على رؤوس الاشهاد بدل قتله على تلك الصورة السرية التي ارتدت طابع المؤامرة والاغتيال .

ذلك فضلاً عن اننا نتلمس زندقة في آثار ابن المقفع ، فلا نجد عليها دليلاً. والاخبار التي يوردها رواة الادب تثبيتاً لزندقته ينقلها بعضهم عن بعض نقل تقليد ، وهي ضعيفة لا يصح التعويل عليها ، فكيف مع احتمال كونها محض تلفيق للتشنيع . يذكرون ان ابن المقفع

عارض القرآن ، وانه قبل اسلامه بليلة كان يزمزم على اسلوب المجوسية – عقيدته الاولى – فلما سئل عن ذلك اجاب : كرهت ان ابيت على غير دين . ويذكرون انه بعد اسلامه مرّ ببيت نار للمجوس فانشد شعراً يدل على انه بقي تواق القلب الى عقيدته الاولى ولكنه كان يتكتم حذراً واحتراساً . ثم يعلقون كبير اهمية على مخالطته جماعة من مجان زمانه ، اصحاب النزعة الاستهتارية ، وعلى مشاركتهم مجالس الشراب واللهو ، وكلهم ممن تحوم حولهم الشبهة في دينهم وتلبسهم الزندقة . الا ان اصحاب هذا « البرهان » على زندقة ابن المقفع ينسون ان النزعة الاستهتارية ومجالس الشراب واللهو – السرية منها والعلنية سواء بسواء – كانت ملء العصر ايام العباسيين .

وما نريد من وراء هذا ان ندافع عن ابن المقفع دفاعاً دينياً . لكن نريد ان نثبت ان الدين لم يكن الا ستاراً سدل على عيون الناس كيا يحجب الباعث الحقيقي على قتل الكاتب ، وهو باعث سياسي ... فلقد حاول ابن المقفع في نص الامان الذي كتبه لعم المنصور ، ان يحرج المنصور وان يحد من سلطته المطلقة ، وكتاب كليلة ودمنة الذي اختاره ابن المقفع للتعريب ، وألحق به ابواباً انشأها بنفسه ، يحمل كثيراً من التعريض بالمنصور وطريقته في الحكم ، بل يحمل كثيراً من التحريض على المنصور وسلطته .

اثاره : كليلة ودمنة . – ولا جدال في ان اشهر الآثار ، وانفس الآثار التي خلفها ابن المقفع ، كتاب « كليلة ودمنة » . ويسميه الغربيون كذلك : « خرافات بيدبا » ، نسبة الى الفيلسوف الهندي الذي وضعه في صورة احاديث تتسلسل بينه وبين الملك الهندي دبشليم . ودبشليم هذا ، بحسب الكتاب ، قد ملك الهند بعد فتح الاسكندر لها ، وكان الشعب الهندي هو الذي رفعه على العرش وطرد الوالي الذي اقامه الاسكندر . ولكن دبشليم « طغى وبغى وتجبر وتكبر » ، كما تقول كليلة ودمنة ، فمضى اليه بيدبا يعظه فدفع به الى السجن ، ثم ندم على فعلته فأخرجه مكرماً معظماً ، وقلده الوزارة ، فجلس بيدبا « مجلس العدل والانصاف يأخذ للدنيء من الشريف ويساوي بين القوي والضعيف » . وكذلك كلفه دبشليم ان يضع هذا الكتاب النفيس ، فجعله عبارة عن خلوات يلقى فيها بيدبا دبشليم فيقص عليه الامثال الحكيمة ، والملك يسمع ويعي .

وهكذا يكون الكتاب قد انشىء في الاصل باللغة السنسكريتية . ثم ترجم الى الفارسية الفهلوية في عهد كسرى انوشروان ، في القرن السادس الميلادي وهو القرن الذي وافق جاهلية العرب . ثم عربه ابن المقفع عن الفهلوية بعد قرنين ، في زمن المنصور .

وقد فُقدت الترجمة الفارسية التي عرب عنها ابن المقفع ، كما فُقد الاصل السنسكريتي ،

وكل ترجمة اخرى الا ترجمة ابن المقفع . فترجمة ابن المقفع هي اليوم الاصل الوحيد لهذا الكتاب ، وان كانت توجد منه قصص في كتاب الباشتنترا الهندي *Pachatantra* . وعن ترجمة ابن المقفع نُقل هذا الكتاب الى معظم لغات العالم حتى الايسلندية والملاوية [١] . فهو من كتب الادب العربي التي تُعد كتباً عالمية .

ولم يكتف ابن المقفع بتعريب هذا الكتاب وما زيد فيه من أبواب مع الترجمة الفارسية الفهلوية ، بل ضم اليه ابواباً من عمله ، واشهرها : « باب عرض الكتاب » و « باب الفحص عن امر دمنة » . وفي باب الفحص عن أمر دمنة، اثبت ابن المقفع قدرته على مجاراة اصل الكتاب وأسلوبه . بل ان الصورة التي رسمها لدمنة في دفاعه عن نفسه صورة رائعة لمحام سفسطائي [٢] مبدع .

ودمنة هذا واخوه كليلة ثعلبان يظهران في « باب الاسد والثور » وهو اكبر ابواب الكتاب . والشقيقان كليلة ودمنة طرفا نقيض في الاخلاق والمزاج . فدمنة طموح ، يستبيح الوصول الى غايته بأي الوسائل ، ولاسيما النميمة والمكر ، وهو فيهما قادر قدرته على السفسطة والتذرع بالاقوال الحكيمة . وأما كليلة فمثال القناعة والطيبة . ولم يزل دمنة ينفث سمه بين الاسد والثور حتى افسد بينهما وحمل الاسد على قتل صديقه ظلماً وعدواناً .

مغازي كليلة ودمنة : وغني عن البيان ان وراء هذا الكتاب الذي يحفل بالامثال مغازي عميقة ومرامي بعيدة قصد اليها واضعه في الاصل ، وقصد اليها ابن المقفع نفسه حين اختار هذا الكتاب فعربه وخص به المنصور .

وشاهدنا المحسوس ما ادخله ابن المقفع في باب الاسد والثور ، اذ اضاف فصل الفحص عن امر دمنة ، وهو فصل لقي فيه المفسد النمام: دمنة ، عقوبة الحكم عليه بالقتل جزاء سعايته التي افسد بها المودة بين الاسد والثور واهلك ضحية بريئة . وظاهر بالبداهة ان ابن المقفع انما رمى الى شجب سوق الوشايات الرائجة وتحذير اولي الامر من الاخذ بها . وكره ابن المقفع ان ينجو دمنة من عواقب فعلته ، فجعله يلقى الموت في النهاية ، عبرة للنمامين المفسدين ، لكنه حرص على ان يعقد له محكمة تحاكمه ، لان المتهم ، بريئاً كان او مذنباً ،

١ الملاوية: لغة اهل الملايو ، الجزر في المحيط الهادئ . ٢ السفسطائي : المنسوب الى السفسطة، وهي كلمة يونانية تعني في الاصل البراعة في الجدل وتولي الدفاع عن أي قضية يدعى المتكلم للدفاع عنها . ثم اصبحت السفسطة تعني تلبيس الحق لباس الباطل وتلبيس الباطل لباس الحق .

يحق له المثول امام القانون ويحق له الدفاع عن نفسه . وأكبر الظن ان ابن المقفع انما اراد بذلك ان يعرّض بطريقة القصاص دونما محاكمة علنية عادلة . وكأن قلبه كان دليله على ان يد السلطة ستناله في يوم ، فتقتله سراً ، بل تغتاله اغتيالاً ، وقد حُرم حق الدفاع عن نفسه .

واذا انعمنا النظر في الباب المسمى « عرض الكتاب » — وهو انشاء ابن المقفع نفسه — نجده المرة بعد المرة ينبه القارىء « ان لا تكون غايته التصفح لتزاويقه » و « ان لا يظن ان نتيجته انما هي الاخبار عن حيلة بهيمتين او محاورة سبع لثور » . بل نجده يطالب القارىء « بان يعرف الوجوه التي وُضعت للكتاب والرموز التي رُمزت فيه » حتى اذا « بلغ نهاية علمه فيه ينبغي له ان يعمل بما علم منه » .

وضروري جداً ان نلتفت الى ما صرح به ابن المقفع عن علاقة الكتاب بالملوك اذ قال ان غرضه « اظهار خيالات الحيوانات بصنوف الاصباغ والالوان ليكون انساً لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه ادعى للنزهة في تلك الصور[١] » . ضروري ان نلتفت الى هذا الكلام فلا نأخذه على ظاهر معناه . فانه مناقض كلامه السابق فيما يتعلق بغايته من الكتاب عامة . وليس ثمة ريب ان غاية ابن المقفع من الكتاب ، فيما يتعلق بالملوك خاصة ، لم تكن تقتصر على الرغبة في ايناس قلوبهم وتنزيههم . ولكنه قال هذا القول لما كان يحس حوله من ضغط على الحرية ، ولما كان يريد في الظاهر من تعمية قصده .

ولعل ابن المقفع شاء اغراء الملوك بمطالعته ، فاذا طالعوه فعل فعله في نفوسهم دون ان يكون الكاتب صرح بغرضه وتعرض للخطر .

ولن يفوتنا ، كما لم يفت المنصور ، ان ابن المقفع كان لا يريد سوى المنصور نفسه بدبشليم الذي «طغى وبغى وتجبر وتكبر» ، وكان لا يريد سوى ابن المقفع نفسه ببيدبا الذي أنف ان يقال عنه فيما بعد انه « كان في زمان دبشليم الطاغي فلم يردّه عما كان عليه » . ثم لن يفوتنا ان ابن المقفع كان يأمل ان يعتدل المنصور كما اعتدل دبشليم ، وان تستقيم الامور كما استقامت بتقليد دبشليم الوزارة لبيدبا فيكون من مجلس « مجلس العدل والانصاف يأخذ للدنيء من الشريف ويساوي بين القوي والضعيف » .

وكذلك لن يفوتنا ، كما لم يفت المنصور ، ان تقديم العبرة القاسية له ، وان الايحاء الى الضعفاء بامكان الثأر من ظالمهم المستبد ، هو المقصود بحكاية كحكاية الفيل والقبرة ، وسنعقد حولها فصلاً نجعله مثالاً على النقد الادبي .

١ يظهر ان الكتاب كان قديماً محلى بالصور.

بل ما كان يمكن المنصور حتى لو تعمّد الغباوة ان لا يدرك ان ابن المقفع انما يسدد اليه سهماً قوياً نافذاً صريحاً او كالصريح في حكاية كحكاية الملك والطائر فنزة . وسنثبتها في المنتخبات آخرَ هذا الفصل .

الادبان : الكبير والصغير . — ومن الآثار الباقية لابن المقفع سفران صغيران : « الادب الكبير » و « الادب الصغير » ، وكلاهما نصائح في المعاش والسلوك قبسها من اصول فارسية او هندية ، وربما كرر شيئاً فيها من كليلة ودمنة حاشا الامثال القصصية . لكن لا شك ان بعض مادة الكتابين وضعه ابن المقفع وضعاً . وقد رأينا كيف زاد في كليلة ودمنة باب الفحص عن امر دمنة ، وكيف جارى فيه الاصل واسلوبه . فابن المقفع لم يكن مجرد ناقل بل كان يتخلل نقله توليد وابداع .

ومهما اجتهدنا في ان نصف مادة الادبين : الكبير والصغير ، فلن نوفق لأفضل مما اثبت ابن المقفع نفسه من قول في الادب الصغير يصح كذلك على الادب الكبير ، « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها احياءٌ للتفكير واقامة للتدبير » . وسنثبت في المنتخبات ، آخرَ هذا الفصل ، فِقراً من الكتابين .

اسلوب ابن المقفع : واما اسلوبه فانه سلك به مسلكاً يوافق رأيه في البلاغة ، وكان يحددها بانها « هي التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها » لما يبدو له من سهولتها وبساطتها . فابن المقفع يذهب ، اذاً ، مذهب السهولة في الانشاء ، فيرسل نثره ارسالاً ولا يسجع الا ما كان عفو الخاطر . ومن هنا سُمي انشاؤه السهل الممتنع . وأقرب الادلة على سهولة انشائه اننا نقرأه اليوم بعد اثني عشر قرناً فلا نعثر بكلمة عويصة .

وفي الوقت نفسه يرتفع ابن المقفع في انشائه عن الابتذال ، فمذهبه الى السهولة لا يعني انه كان يقبل كل ما يهجم على خاطره ويعرض لقلمه على القرطاس . فالمعروف انه كان كثيراً ما يمسك عن الكتابة ليتأمل . فاذا سأله سائل : « ولمَ تمسك ؟ » أجابه : تزدحم في صدري الالفاظ والمعاني فيقف قلمي ليتخيّر .

ويظهر في اسلوب ابن المقفع أثر ثقافته المنطقية . فهو كثيراً ما يُجمل قضية ثم يشرع في تفصيلها مستهلاً كل جملة بـ « أمّا » . وكثيراً ما يبدأ بمقدمة ينتهي منها بفكرة ، ثم يتخذ تلك الفكرة مقدمة ثانية لفكرة ثانية ، وهكذا ، على التسلسل ، حتى يبلغ الغاية التي توصله اليها طريقته في القياس . ومثال ذلك قوله : « ومن نزل به الفقر لم يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره مقت نفسه ، ومن مقت نفسه كثر حزنه ، ومن كثر حزنه قلّ عقله وارتبك في أمره الخ ... » وتسمى هذه الجملة وأشباهها

مدرجات ، لأنها كالدرج الذي يُبنى بعضه على بعض ويتصل أعلاه بأدناه .

وتكثر في اسلوب ابن المقفع الصور البيانيـة ، ولاسيما التشابيه وبعضها بديع عظيم الدقة ، كقوله في باب عرض الكتاب ، في كليلة ودمنة :« ومن صرف همتـه الى النظر في ابواب الهزل منه (اي : الكتاب) فهو كرجل اصاب ارضاً طيبة حرّة ، وحباً صحيحاً ، فزرعها وسقاها ، حتى اذا قرب خيرها ، تشاغل عنها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك ، فاهلك بتشاغله ما كان احسن فائدة واجمل عائدة . »

فقـد شبه الذي يتلهى بما في كتاب كليلة ودمنة من هزل بالرجل الذي يتشاغل بجمع الزهر وقطع الشوك عن حصاد موسم الحب الصحيح، وهو تشبيه يشتمل على دقة وابداع .

الجاحظ .— هو احد افذاذ البلغاء والمفكرين في اللغة العربية، اسمه عمرو بن بحر، ولكنه اشتهر بكنيته ابي عثمان ، وسار صيته بلقب الجاحظ لما كان في عينيه من جحوظ عظيم .

ابو عثمان الجاحظ



لا تذهب الى ما تريك العين واذهب الى ما يريك العقل

ولد ابو عثمان حول سنة ٧٧٥ م (١٥٩ هـ) في مدينة البصرة. ولم يكن لعائلته شأن يذكر ، فقد روي ان جده كان جمالاً عند رجل من بني كنانة ، واختُلف في اصله هـل هو عربي ام مولى .

قيل : ورؤي الجاحظ في صباه يبيع الخبز والسمك بسيحان ، وسيحان نهر صغير بالبصرة . الا ان حلقات العلم التي كانت تحفل بها مساجد البصرة اعانت ذلك الصبي الجاحظ العينين — الذي جمع مع جحوظ العينين سواد البشرة وقصر القامة والذكاء العجيب — ان يحصل ثقافـة كانت نقطة انطلاق لعبقريته الوسيعة الآفاق .

وتعرف الجاحظ بامام من أئمة المعتزلة يقال له : ابراهيم بن سيّار النظام ، فدان بمذهب المعتزلة، وأتقن علم الكلام ليستطيع الجدال عن ذلك المذهب، وآل به الامر الى انشاء فرقة اعتزال جديدة سُميت الجاحظية .

ودرس الجاحظ ما ورث عصره من بلاغة الاقدمين شعراً ونثراً ، وقرأ ما نُقل من كتب الامم ، وحذق اسلوب ابن المقفع في النثر الكتابي ، وظهر – اول ما ظهر – مؤلفاً في زمن المأمون. وقيل ان المأمون جعله على ديوان الرسائل فلم يتحمل الوظيفة اكثر من ثلاثة ايام ثم استعفى. حتى اذا كان زمن المعتصم، وصارت الوزارة الى عبد الملك بن الزيات، لمع نجم الجاحظ لصلته بالوزير وألف له كتاب **الحيوان** ، وهو اول كتاب في موضوعه باللغة العربية .

ثم كان زمن المتوكل ، فأحب هذا الخليفة ان يجعل من الجاحظ مؤدب اولاده لكنه كره منظره وابى ان يخلط العلم لاولاده بمثل ذلك الوجه البشع ، فصرفه .

وبطش المتوكل بالوزير ابن الزيات ، ورفع من منزلة خصم ابن الزيات : القاضي ابن ابي دؤاد . وكان القاضي حاقداً على الجاحظ لصدوده عنه وانقطاعه الى عبد الملك، فطلبه ليقتص منه، فهرب ابو عثمان ، فجدّ القاضي في طلبه حتى اعتقله واحضره مجلسه مقيّد الرجلين وفي عنقه غلّ وعليه قميص مخرق . ثم رضي عنه ، فألف له الجاحظ كتاب **البيان والتبيين** وهو باكورة الكتب العربية التي تشتمل على لمع في تقويم الذوق الادبي وتعليم نقد الكلام.

وامتدت الايام بالجاحظ ، بعد الخليفة المتوكل ، وقيل كان عمره ستاً وتسعين سنة حين توفي بالبصرة عام ٨٦٨ م (٢٥٥ هـ) . وفي اواخر ايامه اشتدت عليه وطأة المرض ، وربما كان الفالج او النقرس[١] او الحصاة في المثانة .

وكان حب الجاحظ للعلم والكتب عظيماً . وله قطعة رائعة في وصف الكتاب وفضائله ، يشبه فيها الكتاب بالصديق الذي لا يتملق ولا يمل ... وبلغ من حبّه للكتب انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للمطالعة . وادرك رواة الاخبار مقدار شغفه بالكتب واقتنائها وتأليفها، فرووا ان مجلدات ضخمة منها سقطت عليه في منزله فقتلته !

سعة آفاق الجاحظ واسلوبه العلمي: وليس في العربية اغزر انتاجاً من ابي عثمان الجاحظ، ولا اكثر تنويعاً في الموضوعات التي عالجها ، ولا اقدر على ضروب الاساليب . فقد عُدت مؤلفاته بالمئات ، الا ان معظمها اندثر او هو مخبوء في مواضع لم يُهتد اليها بعد .

ألف الجاحظ في الادب والنقد ، ومثال ذلك كتابه : البيان والتبيين . وألف في موضوعات فقهية وفلسفية تتصل بعلم الكلام وبمذهب الاعتزال الذي كان ابو عثمان إماماً من أئمته . وكذلك ألف في ابواب تطورت حتى اصبحت علوماً فكان هو السابق الى

١ النقرس : علة تحدث ورماً في مفاصل القدم .

التأليف فيها ، كموضوع الحيوان ، وله فيه كتابه الشهير : « الحيوان » في سبعة أجزاء ، وهو اضخم آثاره الباقية . وأنشأ الجاحظ طائفة من الرسائل، وكثيراً من النوادر. وأشهر نوادره مجموعة في كتابه : البخلاء . وهو السفر الشائق الذي تناول به بخلاء البصرة وبخلاء مرو عاصمة خراسان[١] وحدثنا بأحاديثهم الطريفة .

واصطنع الجاحظ في التأليف اسلوباً خاصاً ، ذهب فيه مذهب الاستطراد في كتبه الضخمة ، ولاسيما الحيوان . ومعنى الاستطراد ان يُدخل الكاتب في تأليفه اشياء لا علاقة لها بالموضوع ، او هي ضعيفة العلاقة بالموضوع ، اما لاضطراب المؤلف ، واما لرغبته في الترفيه عن القارىء . وبالطبع لم يكن استطراد الجاحظ اضطراباً منه بل بغية امتاع القارىء وترغيبه في المواظبة على القراءة . والجاحظ لا يمل من ترديد القول انه انما يستطرد لعلمه بقلة القراء الصابرين على جد البحث وكد الفهم . وهكذا نراه في كتاب الحيوان خاصة يكثر من الطرائف التي لا علاقة لها البتة بالموضوع ، حتى اذا قدّر انه قد بعث في قارئه نشاطاً جديداً، عاد الى اصل موضوعه ومهد لذلك بقوله : « رجع بنا الكلام » او « رجع بنا القول » . ومن هنا كان كتاب الحيوان ، الذي اكثر فيه الاستطراد ، جملةً من كتب في الحقيقة ، لا كتاباً واحداً .

ولكن اذا كان الجاحظ قد اتبع اسلوب الاستطراد في تأليف الضخم من كتبه كالحيوان ، فانه في الوقت نفسه يُظهر قدرة عجيبة في تركيز الانشاء على فكرة يتناولها. وذلك اثرٌ فيه من آثار المنطق الذي اتخذه علماء الكلام آلتهم في المحاجّة والجدال .

ومعلوم ان تركيز الانشاء على الفكرة المطلوبة يُعد رأس صفات الاسلوب العلمي . والجاحظ رائد من رواد هذا الاسلوب في اللغة العربية في كتاب الحيوان نفسه. فان له فيه مباحث علمية يقيد فيها الكلام تقييداً شديداً بالفكرة والموضوع ، ويكثر من استعمال الالفاظ الوضعية او التي تحتمل ان تكون وضعية . ولا شك ان طائفة من الالفاظ التي اكتسبت المعاني الوضعية ، واصبحت عُدة للكتابة في علم الحيوان بالعربية ، انما تحولت هذا التحول الى الفاظ علمية في كتاب الحيوان للجاحظ .

على ان أبا عثمان في اسلوبه العلمي يذهب الى اعمق من تركيز الكلام على الموضوع والى أبعد

١ كان الجاحظ ينعى على الشعوبيين رأيهم في العرب ويتتبع في كتبه ما يشتهر به الشعوبيون من معايب كالبخل الذي عرف به اهل مرو ، والذي فشا في اهلها حتى اتصل بديوكها فاذا الديك في الدنيا كلها يطعم الدجاجة الحبة ولكنه في مرو ينتزعها منها !

من استعمال الالفاظ الوضعية. فهو محقق يتتبع معرفة الصحيح واليقين بالوسائل التي يستطيعها، فتراه يجمع الاخبار ويقارن بينها ويقيسها بالمعقول اذا لم يمكنه العيان والتجربة، وتراه يعتمد على العيان والتجربة، لا يعدل بهما شيئاً، اذا استطاع ان يعاين ويجرب، وتراه كثير الشك جريئاً على نفي ما لا يصح حتى ولو نسب الخبر الى اساطين العلم والفهم كأرسطوطاليس او غيره.

وغني عن البيان ان الجاحظ لم يؤد لنا باسلوبه العلمي في كتاب الحيوان الا حقائق تُعد اليوم بدائية بسيطة. بل ليس يخلو كتابه من هفوات علمية. وفوق ذلك كله، ربما كان الجاحظ لم يقصد الى مجرد الحقائق العلمية يؤديها، بل الى غاية من غايات علم الكلام، وهي اثبات وجود الخالق وحكمة الخالق بدرس مخلوقاته.

لكن برغم هذا تبقى له قيمة علمية عظيمة تنحصر في محض الاسلوب العلمي الذي كان هو اول ممثل له في اللغة العربية، فضلاً عن ابداعه الادبي.

(تجد في المنتخبات، آخر هذا الفصل، مختارات من كتاب « الحيوان » تـدل على اسلوب الجاحظ العلمي).

منتخبات

الملك والطائر فنزة

هو الباب الثاني عشر من «كليلة ودمنة». يبدأ كما تبدأ سائر ابواب الكتاب بقول دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل «كذا»، فيشرع بيدبا في رواية المثل الذي يوافق ما اراد دبشليم.

وباب الملك والطائر فنزة من اقصر ابواب الكتاب، لا يشتمل كالابواب الطويلة على امثال فرعية وانما يقتصر على مَثل رئيسي واحد. وفي هذا المثل خطاب الى الملوك بلسان الطائر فنزة. واكبر الظن ان ابن المقفع قد وضع هذا الخطاب، او هو في الاقل تصرف به ليطابق شأن المنصور مطابقة صريحة او كالصريحة، وذلك حيث يقول فنزة: «ومنهم (اي: الملوك) هذا الكفور الذي لا رحمة له، الغادر بالفه واخيه.» ويرجح ان في الكلام اشارة الى قتل المنصور ابا مسلم الخراساني.

وهذا هو القسم الاول من باب الملك والطائر فنزة:

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل اهل التِرات[1] الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض.

قال بيدبا: زعموا ان ملكاً من ملوك الهند كان يقال له بَريدون، وكان له طائر يقال له فنزةُ وكان له فرخٌ. وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان باحسن منطق. وكان الملك بهما معجباً. فأمر بهما ان يُجعلا عند امرأته وامرها بالمحافظة عليهما. واتفق ان امرأة الملك كانت حاملًا فولدت غلاماً. فألف الفرخ الغلام وكلاهما طفلان يلعبان جميعاً. وكان فنزة يذهب كل يوم الى الجبل فيأتي بفاكهة لا تُعرف، فيطعم ابن الملك شطرهـــا ويطعم فرخه شطرها. فأسرع ذلك في نشأتهما وشبابهما وبان عليهما اثره عند الملك، فازداد لفنزة اكراماً وتعظيماً ومحبة.

حتى اذا كان يوم من الايام، وفنزة غائب في اجتناء الثمرة وفرخه في حِجر الغلام[2]،

---

١ التِرات: جمع التِرة، اي: الثأر. ٢ حجر الغلام: حضنه.

حدث من الفرخ ما اغضب الغلام فاخذه فضرب به الارض فمات !

ثم ان فنزة اقبل فوجد فرخه مقتولاً ... فصاح وحزن وقال : قُبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ! وبلٌ لمن ابتلي بصحبة الملوك الذين لا ذمة لهم ولا حرمة ، ولا يحبون احداً ولا يكرم عليهم الا اذا طمعوا فيما عنده من غَناء[1] واحتاجوا الى ما عنـده من علم فيكرمونه لذلك . فاذا ظفروا بحاجتهم منه ، فلا ودّ ولا اخاء ولا احسان ولا غفران ذنب ولا معرفـة حق . هم الذين امرهم مبنيّ على الرياء والفجور ! وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب ويستعظمون اليسير اذا خولفت فيه اهواؤهم . ومنهم هـذا الكفور الذي لا رحمة له ، الغادر بالفه واخيه . ثم وثب في شدة حنقه على وجه الغلام ففقأ عينيه . ثم طار فوقف على شجرة عالية .

فقر من الادب الصغير

لا تعدّ غنياً من لم يشارك في ماله .

من استصغر الصغير اوشك ان يجمع اليه صغيراً وصغيراً ، فاذا الصغير كبير !

اشدّ الفاقة عدم العقل .

الرجل الكامل

يصف ابن المقفع في هذه القطعة من « الادب الكبير » صديقـاً له ، كان معجباً به اعظم اعجاب[2] . وهكـذا اخرج لنا صورة الرجل الكامل على نحو ما يرى الكمال في الرجولة .. . وقال :

كان لي اخٌ من اعظم الناس في عيني . وكان رأس ما عظّمه في عيني صغرُ الدنيـا في عينيه ...

كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر اذا وجـد . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم ما لا يعلم ، ولا يماري[3] فيما علم . وكان خارجاً من

١ غناء : نفع . ٢ كان ابن المقفع يقدس الصداقة ويعد الصديق من انفس متاع الدنيـا ، ويقول : ابذل لصديقك دمك ومالك. ولما سقط الامويون لجأ اليه في البحرين صديقه عبد الحميـد الكاتب ، فتوارى عنده زماناً عن العباسيين ، ثم ادركته شرطة السفاح ، فقال ابن المقفع للشرطة : انا عبد الحميد ، يريدهم ان يقبضوا عليه في مكان صديقه. ولكن عبد الحميد اثبت لهم نفسه فاخذوه فقتلوه . ٣ يماري مراء : يجادل جدالاً .

سلطان الجهالة[١]، فلا يتقدم ابداً الا على ثقة بمنفعة . وكان لا يبطر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة .

وكان اكثرَ دهره صامتاً ، فاذا قال بذّ[٢] القائلين . وكان يُرى ضعيفاً مستضعَفاً ، فاذا جدّ الجدّ فهو الليث عادياً[٣] . وكان لا يدخل في مراء ، ولا يُدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً ، وشهوداً عدولاً[٤] . وكان لا يلوم احداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عذره . وكان لا يشكو وجعه الا عند من يرجو عنده البرء[٥] ، ولا يستشير صاحباً الا ان يرجو منه النصيحة .

وكان لا يتبرم[٦] ولا يتسخّط ولا يتشكّى ولا يتشهّى ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الولي[٧] ، ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته[٨] وقوته .

فعليك بهذه الاخلاق ان اطقتها ، ولن تطيق. ولكن اخذْ القليل خير من ترك الجميع .

تقسيم الجاحظ للكائنات

اخترنا هذا المقطع من مقدمة كتاب الحيوان للدلالة على اسلوب الجاحظ العلمي . وفيه يتجلى تركيز الجاحظ للكلام على الفكرة وتقيده بالموضوع ، وتتجلى كذلك الالفاظ الوضعية التي يُكثر من استعمالها في هذا المجال ، كقوله : النامي ، والجماد ، والبهائم ، والسباع ، والحشرات، والجوارح الخ ... وكقوله : « السُبعية » وهو اشتقاق جديد بناه نسبة الى السبُع ، وألحق به تاء التأنيث ، ثم جعله دلالة على اسم علمي يعني كون الحيوان داخلاً في صنف السباع مطبوعاً بطابعها .

قال الجاحظ :

ان العالم بما فيه من الاجسام على ثلاثة انحاء : متفق ، ومختلف ، ومتضادّ ، وكلها في جملة القول جمادٌ ونامٍ . وكانَ حقيقةُ القول في الاجسام من هذه القسمة ، ان يقال : نامٍ وغيرُ نامٍ . ولو ان الحكماء وضعوا لكلّ ما ليس بنامٍ اسماً ، كما وضعوا للنامي اسماً ، لاتّبعنا اثرهم ، وانما ننتهي الى حيث انتهوا . وما اكثر ما تكون دلالة قولهم جماد ،

١ الجهالة والجهل : النزق والطيش . ٢ بذّ : تفوق ، غلب . ٣ عادياً : وثاباً .
٤ الشهود العدول : الشهود الذين تُقبل شهادتهم لفضلهم . ٥ البرء : الشفاء . ٦ يتبرم : يتضجر ، يضيق صدراً . ٧ الوليّ : الصديق . ٨ حيلته ، هنا ، بمعنى : استطاعته وحسن تصرفه في الامور .

كدلالة قولهم موات . وقد يفترقان في مواضع بعض الافتراق .

ثم النامي على قسمين : حيوان ونبات .

والحيوان على اربعة اقسام : شيءٌ يمشي ، وشيء يطير ، وشيء يسبح ، وشيء ينساح[1]. الا ان كل طائرٍ يمشي ، وليس الذي يمشي ولا يطير يسمى طائراً .

والنوع الذي يمشي على اربعة اقسام : ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات . على ان الحشرات راجعة في المعنى الى مشاكلة طباع البهائم والسباع . الا اننا في هذا كله نتتبع الاسماء القائمة المعروفة ، البائنات بانفسها ، المتميزات عند سامعيها ، من اهل هذه اللغة واصحاب هذا اللسان ، وانما نُفرد ما افردوا ، ونجمع ما جمعوا .

(ثم يشرع في تقسيم الطير فيقول :)

اقسام الطير : والطير كلٌّ سبع وبهيمة وهمج . والسباع من الطير على ضربين : فمنها العتاق والاحرارُ والجوارحُ ، ومنها البغاث وهو كل ما عظم من الطير : سبعاً كان او بهيمة ، اذا لم يكن من ذوات السلاح والمخالب المعقفة ، كالنسور والرّخم والغربان ، وما اشبهها من لئام السباع .

ثم الخشاش ، وهو ما لطف جِرمه وصغر شخصه ، وكان عديم السلاح لا كالزُّرّق[2] واليُؤيُؤ[3] .

فامـا الهمج فليس من الطير ، ولكنـه مما يطير . والهمج فيما يطير ، كالحشرات فيما يمشي .

والحيّات من الحشرات ، واي سبعٍ ادخَلُ في معنى السبُعيّة من الافاعي والثعابين ؟ ولكن ليس ذلك من اسمائها ، وان كانت من ذوات الانياب واكّالة اللحوم واعداء الانس وجميع البهائم ، ولذلك تأكلها الاوعال والخنازير والقنافذ والعقبان والشاهمرك[4] والسنانير ، وغير ذلك من البهائم والسباع . فمن جعل الحيّات سباعاً ، وسماها بذلك عند بعض القول والسبب فقد اصاب ، ومن جعل ذلك لها كالاسم الذي هو العلامة كالكلب والذئب والاسد فقد اخطأ .

ومن سباع الطير شكل يكون سلاحه المخالب كالعقاب وما اشبهها ، وشيء يكون سلاحه المناقير كالنسور والرّخم والغربان ، وانما جعلناها سباعاً لانها اكّالة لحوم .

١ ينساح : يمشي على بطنه . ٢ الزرق : طائر يصاد به كالبازي والباشق . ٣ اليؤيؤ : يـ[illegible] الباشق . ٤ الشاهمرك : الدجاج الفتي قبل ان يبيض بايام قلائل ، وهو معرّب شاهمرغ ، ومعناه ملك الطير .

ومن بهائم الطير ما يكون سلاحه المناقير كالكراكيّ وما أشبهها ، ومنه ما يكون سلاحه الاسنان كالبوم والوطواط وما اشبهها، ومنه ما يكون سلاحه الصياصي[١] كالدّيكة، ومنه ما يكون سلاحه السّلح[٢] كالحبارى والثعلب .

والسبع من الطير ما أكل اللحم خالصاً ، والبهيمة ما اكلت الحبّ خالصاً . وفي الفن الذي يجمعها من الخلق المركب والطبع المشترك ، كلامٌ سنأتي عليه في موضعه ان شاء الله تعالى ...

الجاحظ يحقق صفة من صفات
ذكر النعام بالتجربة

واليك قطعة اخرى تدل على اسلوب الجاحظ العلمي ، وفيها شاهد من اعتقاده بوجوب تحقيق الاشياء بالتجربة والاختبار وهما اساس الروح العلمي .

قال الجاحظ في كتابه « الحيوان » :

« باب آخر ، وهو عندي اعجب من الاول ، وهو ابتلاعه[٣] الجمر ، حتى ينفذ الى جوفه ، فيكون جوفه هو العامل في اطفائه ، ولا يكون الجمر هو العامل في احراقه .

واخبرني ابو اسحق ابراهيم بن سيار النظام[٤] — وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع او عيان — : انه شهد محمد بن عبد الله يلقي الحجر في النار ، فاذا عاد كالجمر قذف به قدّامه[٥]، فاذا هو يبتلعه ، كما يبتلع الجمر . وكنت قلت له[٦] : ان الجمر سخيف[٧] ، سريع الانطفاء اذا لقي الرطوبات ، ومتى اطبق عليه شيء يحول بينه وبين النسيم خمد[٨] ، والحجر أشد إمساكاً لما يتداخله من الحرارة ، وأثقل ثقلاً ، وألزق[٩] لزوقاً ، وابطأ انطفاء ، فلو أحميت الحجارة !

فأحماها ، ثم قذف بها اليه فابتلع الاولى ، فارتبت به ، فلما ثنّى وثلّث اشتد تعجبي له ، فقلت له : لو احميت اواقي الحديد[١٠] ، ما كان منها ربع رطل ونصف رطل؟ ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجب من الاول والثاني!وقد بقيت علينا واحدة، وهو ان ننظر: أيستمرئه[١١]

١ الصيصية ، في الاصل : الصنارة ، وهي في الديك شوكته . ٢ السلح: هو قذر الطائر الذي يقذفه من جوفه . ٣ الضمير في « ابتلاعه » عائد الى الظليم، والظليم: ذكر النعام . ٤ هو استاذ الجاحظ . ٥ قدامه ، يريد : قدام الظليم . ٦ يعني استاذه النظـــام . ٧ سخيف : قليل الثبات ، سريع الزوال . ٨ خمد : انطفأ . ٩ الزق : الصق . ١٠ اواقي الحديد، يعني : قطع الحديد التي تتخذ عيـــاراً للوزن . ١١ يستمرىء : يسيغ ، يهضم .

الحديد كما يستمرىء الحجارة ؟

ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخُرق ان نتعرف ذلك على الايام . وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته ، فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً . فعمد بعض ندمائه [١] الى سكين فأحماه ، ثم القاه اليه فابتلعه ، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه [٢] ، ثم خر ميتاً . فمنعنا بخرقه من استقصاء ما اردنا . »

الجاحظ يخرج الخرافات من العلم

وهذه قطعة اخرى من كتاب الحيوان ، يتناول بها الجاحظ العالِم ، خرافة شائعة في زمانه فينفيها .

قال :

« وزعم بعض المفسرين ان السنور خُلق من عطسة الاسد ، وان الخنزير خلق من سلح الفيل ، لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفأر وشكوا ذلك الى نوح ، سأل ربه الفرج ، فأمره ان يأمر الاسد فيعطس . فلما عطس ، خرج من منخريه زوج سنانير ، ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الايمن ، والانثى من المنخر الايسر ، فكفياهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهما [٣] ، شكوا ذلك الى نوح ، وشكا ذلك الى ربه ، فامره ان يأمر الفيل فيسلح [٤] ، فسلح زوج خنازير ، فكفياهم مؤونة رائحة النجو .

وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القُصّاص ، وقد أنكرنا ان يكون الفأر تخلق الا في أرحام اناثها من اصلاب ذكورها . »

الجاحظ لا يصدق غير المعقول ولو اتاه عن ارسطوطاليس

وفي هذه القطعة يعالج الجاحظ خبراً غريباً منسوباً الى ارسطوطاليس فيقول :

« وقد زعم صاحب المنطق [٥] : انه قد ظهرت حية لها رأسان . فسألت اعرابياً عن ذلك ،

١ الضمير في « ندمائه » راجع الى النظام استاذ الجاحظ . ٢ مذبحه : المكان الذي يذبح منه .
٣ نجوهما : قذرهما الذي يخرجانه من الجوف . ٤ يسلح : يخرج شيئاً من جوفه . ٥ صاحب المنطق : لقب غلب على ارسطوطاليس عند العرب .

فزعم ان ذلك حق . فقلت له : فمن أي جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال : فأما السعي فلا تسعى ، ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل . وأما الاكل فانها تتعشى بفم ، وتتغدى بفم . واما العض فانها تعض برأسيها معاً ... فاذا به اكذب البرية ! وهذه الاحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها ، وفي تهويل أمرها ... »

انشاء ادبي

• كان يقال في ابن المقفع : انه ينحط في التأليف ويسمو في الترجمة ، لان له في الاول عقله ، وله في الثانية كل العقول .

ومعنى ذلك ان ابن المقفع لم يكن مبدعاً فيما ترك من آثار وانما كان ناقلاً . فهل توافق على هذا الرأي ؟ وما براهينك في اثباته او نقضه ؟

• قال ابن العميد : كتب الجاحظ تعلم العقل اولاً والادب ثانياً . فما معنى هذا القول ، وهل توافق عليه بعد الذي قرأته في المنتخبات من آثار الجاحظ ؟

مثال من نقد أدبي

تحليل مثل القبرة والفيل لابن المقفع

نص المثل . — (جاء في كتاب كليلة ودمنة هذا المثل) :

« ... إن قبرة اتخذت ادحيّة [1] وباضت فيها على طريق الفيل . وكان للفيل مشرب يتردد اليه . فمر ذات يوم على عادته ليرد مورده فوطىء عش القبرة وهشّم بيضها وقتل فراخها .

« فلما نظرت ما ساءها ، علمت ان الذي نالها [2] من الفيل لا من غيره . فطارت فوقعت على رأسه باكيةً ، ثم قالت : « **أيها الملك ! لم هشمت بيضي وقتلت فراخي ، وانا في جوارك؟ أفعلت هذا استصغاراً منك لامري ، واحتقارا لشأني ؟** » قال : « **هو الذي حملني على ذلك .** »

« فتركته وانصرفت الى جماعة الطير فشكت اليهن ما نالها من الفيل . فقلن لها : « وما عسى ان نبلغ منه ونحن طيور ؟ » فقالت للعقاعق [3] والغربان : « احب منكن ان تصرن معي اليه فتفقأن عينيه ، فاني أحتال له بعد ذلك بحيلة اخرى . » فأجبنها الى ذلك وذهبن الى الفيل ، **فلم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما ، وبقي لا يهتدي الى طريق مطعمه ومشربه الا ما يقمه [4] من موضعه .**

« فلما علمت ذلك منه جاءت الى غدير فيه ضفادع كثيرة فشكت اليهن ما نالها من الفيل. قالت الضفادع : « ما حيلتنا نحن في عظم الفيل وأين نبلغ منه ؟ » قالت : « احب منكن ان تصرن معي الى وهدة قريبة منه فتنقفن فيها وتضججن ، فانه اذا سمع اصواتكن لم يشكّ في الماء فيهوي فيها . » فاجبنها الى ذلك واجتمعن في الهاوية . فسمع الفيل نقيق الضفادع وقد أجهده العطش ، فاقبل حتى وقع في الوهدة فاعتطم فيها [5] .

[1] مكاناً في الارض تضع فيه القبرة بيضها . [2] نالها : اصابها . [3] العقعق : جمع عقعق وهو طائر أشبه بالغراب . [4] يقمه : يلتقمه من على وجه الارض . [5] سقط فيها واشرف على الهلاك .

« وجاءت القبرة ترفرف على رأسه وقالت : « **ايها الطاغي المغتر بقوته ، المحتقر لامري! كيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جثتي عند عظم جثتك وصغر همتك ؟** »

تعيين نوع القطعة . — ما ان نقرأ هذه القطعة الادبية ، التي صاغها قلم ابن المقفع نثراً مرسلاً ، حتى نتبين انها قصة قصيرة ، او أقصوصة ، او حكاية ، جعلها منشئها على ألسنة الحيوانات. فالقبرة والفيل والضفادع والطيور كلها تنطق فيها نطق البشر العاقلين . فهي اذاً خرافة . ومذ كانت تشتمل على مغزى — سنعينه فيما بعد — فانها تُعتبر مثلاً ...

هل هي قطعة ادبية جيدة ؟ النظر في الفاظها . — لكن هل يُعتبر هذا المثل قطعة ادبية جيدة ؟

لا بد في سبيل ذلك من ان ننظر في الالفاظ التي اختارها الكاتب لغرضه . وان نظرة واحدة لكافية للدلالة على انها ألفاظ فصيحة صحيحة ، مأنوسة في الفهم ، حسنة الوقع في السمع ، لم يسلك فيها ابن المقفع مسلك خطأ او تصنّع ليحشد بينها ما يخل بقواعد الصرف او يستغلق على الفهم او يمجه الذوق او يخدش حس السمع الموسيقي . وربما كانت الالفاظ الوحيدة ، التي لم يسبق لناشىء إن عرفها ، لا تجاوز الاربعة عداً في المثل كله . وهي : أدحية (معناها : العش يتخذه بعض الطيور في حفرة من الارض)، والعقاعق (مفردها عقعق ، صنف من الطير أشبه بالغراب) ، وبقمّ (معناها : يلتقم من على وجه الارض) ، واعتطم (معناها : سقط سقطة مهلكة) . وكلها ألفاظ لا يلبث ان يتعرف بها جميع من تعمقوا أدنى تعمق في اللغة والمطالعة .

يضاف الى ذلك ان ابن المقفع قد ركّز ألفاظه تركيزاً متيناً في مواضع استعمالها . فلو شئنا ان نستبدل لفظة بغيرها بما يرادفها ، أي : يساويها في المعنى ، لما وُفقنا الى افضل منها في مواقعها . وماذا عسانا ان نقول في موضع «وطيء» للعش، و « هشم» للبيض، و « فقأ » للعين، و « قمّ » للشيء يلتقمه الفيل الاعمى بخرطومه من على وجه الارض، و« نقّ » لصوت الضفدع ، فهذه كلها ألفاظ مخصوصة بالمعاني التي سخّرها لها الكاتب .

النظر في تركيب كلامها . — على ان تركيب الكلام ايضاً جاء على حظ كبير من الفصاحة والبلاغة . وربما اتفق لكاتب ان يجيد ألفاظه ولا يجيد تركيب الكلام . فانظر في عبارات هذا المثل هل تجد فيها حروف لفظ تتنافر مع حروف لفظ ؟ وهل ترى جملة معقدة السبك بحيث يلتبس عليك فهمها ؟ هل تلقى معنى الا وهو واضح جلي قريب المتناول ؟

تفنن هذه القطعة في التعبير والتصوير . — غير ان ابن المقفع وان توخى الوضوح والبساطة في انشاء مَثَلِه ، فقد استطاع ان يكون قوي التصوير والتعبير حين استدعى الموقف قوة تصوير وتعبير .

فلننظر الى القبّرة بعد ان وطىء الفيل عشها وهشم بيضها وقتل فراخها كيف وقعت على رأسه باكية تسأله : « ايها الملك ، لمَ هشمت بيضي وقتلت فراخي ، وانا في جوارك ؟ أفعلت هذا استصغاراً منك لامري ، واحتقاراً لشأني ؟ » وفي هذه الاسئلة ما فيها من تفجع القبرة ، وحرصها على توبيخ الفيل ، وتعذيبه باثارة الندم في نفسه ، وتهديده بقدرتها على الانتقام رغم ضعفها ! ثم فلنسمع الفيل يجيبها باقتضاب وقلة مبالاة : « نعم ، هو الذي حملني على ذلك ! » وفي هذا الجواب المقتضب ما فيه من بلاغة تصوير للقوي المغــتر بقوته ، المستخف بالضعفاء .

ثم فلنعد فننظر الى القبرة ، بعد ان ثأرت لنفسها من الفيل ، كيف اتته فلم « تقع » هذه المرة على رأسه وقوعاً ، لان في الوقوع معنى الاسترخاء والضعف ، بل « رفرفت » فوق رأسه رفرفة ، وفي الرفرفة معنى الارتياح والغبطة بالظفر ، ونادته بهذا النداء الذي ظاهره التعظيم وباطنه الازدراء : « ايها الطاغي المغتر بقوته المحتقر لأمري ! » ثم سألتــه هذا السؤال المفعم تحدياً وتشفياً وتقريعاً : « كيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جثتي عند عظم جثتك وصغر همتك ؟ » وقد لزم الفيل الصمت المطبق . او هو ابن المقفع يختم الكلام عند هذا الحد بعد ان ساق حكايته هذا المساق الحسن الترتيب فلم يقدم تقديماً ولم يؤخر تأخيراً يحدث اضطراباً وبلبلة في المثل .

خاتمة تثير التفكير . — وانها لخاتمة رائعة هذه الخاتمة التي وقف عندها ابن المقفع . ذلك ان القبرة لم تلق على الفيل سؤالها لتسمع منه جواباً بل لتتركه يتأمل فيما بينه وبين نفسه مصيره الذي افضى اليه حين سلك طريق الظلم واستهتر بالحق . وابن المقفع لم يتدرج هذا التدرج بقارئه ليزيده شرحاً بل ليتركه يتأمل مصير الطغاة وعاقبة الطغيان.

غاية هذه القطعة . — ولكن هنا يعرض سؤال : علام اختار ابن المقفع ان يضرب هذا المثل الذي يُعلمنا ان الظالمين ينتهي بهم ظلمهم الى التلف اذا عرف المظلومون ، وان كانوا ضعفاء ، ان يتشاوروا ويتعاونوا ويرسموا الخطط ؟

ان الثابت عن ابن المقفّع انه عرّب كليلة ودمنة تعريباً عن اللغة الفارسية الفهلوية بعدما كان الكتاب قد نُقل اليها عن الهندية . والمعروف ايضاً عن ابن المقفع انه نضج في العصر

العباسي عهد الخليفة المنصور في القرن الثاني للهجرة اي الثامن للميلاد . فماذا عسى ان يكون اراد من تعريب مثل هذا الكتاب القديم سوى انه استحسنه فرأى ان يتحف به خزانة الآداب العربية ؟

وبالفعل يذكر ابن المقفع في المقدمة التي وضعها لهذا التعريب انه انما نقل هذا الكتاب واذاعه على الناس يتناسخونه لجودته وطرافته ولما اشتمل عليه من طرائف القصص وعجائب الحيل والنوادر ولطائف الصور . غير انه يومىء الى غرض آخر دعاه الى تعريبه ، وهو الغرض الاقصى المخصوص بالفيلسوف خاصة .

واذاً فقد كانت لابن المقفع غاية فكرية من تعريب هذا الكتاب ، ولسنا نلمح جانباً من هذه الغاية الا اذا نظرنا الى وجه من سيرة الخليفة المنصور وفهمنا شيئاً من نزعات ابن المقفع ، فنرى ان المنصور كان حريصاً على قمع كل حركة معارضة بالسيف وغير السيف . ونجد ان الحياة السياسية في ذلك العهد كانت تفيض بالنزاع والمنافسة بين زعماء حزبين كبيرين هما الحزب العباسي والحزب الشيعي . ذلك ان العباسيين والشيعة بعدما خلعوا بني اميّة عن الخلافة عادوا فتصادموا تصادماً عنيفاً وسالت بينهم الدماء .

وكان ابن المقفع شيعي الميل يعمل كاتباً لبعض زعماء الشيعة في مدينة البصرة ، وكان يكره المنصور لتضييقه على العقول ولحرصه ان ينفرد بالحكم انفراداً مطلقاً .

من هنا يشع لنا ضوء جديد ندرك به ما وراء مغزى هذا المثل : مثل الفيل والقبّرة ، وكثير غيره من الامثال في هذا الكتاب الهندي القديم الذي نُقل الى الفارسية قبل ابن المقفع بقرنين فارتأى هذا الاديب العباسي نقله الى العربية في عهد المنصور .

من هنا ندرك ان ابن المقفع كانت له غاية سياسية معينة هي : ١ — انتقاد الخليفة المنصور وبطشه ، ٢ — اظهار فائدة المشاورة والتعاون وتشجيع ابناء الرعية المستضعفين على تدبير الثأر من ظالميهم .

اسلوبها . — بقي ان ننظر في هذا الاسلوب الذي اختاره ابن المقفع لاداء غايته . اسلوب غريب حقاً عمد فيه الى حكاية فيل وقبّرة خبأ تحتها هذه الافكار التي استطعنا الكشف عنها . فعلام كان ذلك ؟ علام التمس هذا الاسلوب الرمزي المداور الذي يومىء الى الغاية من بُعدٍ ايماء غير مباشر ؟

الجواب سهل يسير . **ان ابن المقفع لم يشأ ان ينتقد المنصور انتقاداً صريحاً وهو يرى ما يرى من شدة تضييقه على حرية القول وبطشه بالخصوم . ويشهد تاريخ الآداب في العالم قاطبة ان مثل هذا الاسلوب الرمزي في الانتقاد يروج جداً في عهود الاضطهاد والتنكيل ،**

فيكثر الشعراء والكتّاب من تأليف الخرافات وضرب الامثال على ألسنة الحيوانات. ومع هذا قد عرفنا ان ابن المقفع لم ينج آخر الامر من عقوبة المنصور. فذهب ضحية شجاعة الرأي.

سمو مغزاها . — وغني عن البيان ان هذه الافكار التي اعتنقها ابن المقفع وطوع لها ادبه وبثها في ظل سلطة شديدة الوطأة انما هي آراء تنتمي في حدود عصرها الى الحرية والعدل انتماء وثيقاً . فلقد ناهض فكرة السلطان المطلق الذي يستأثر بالاحكام ويستضعف الرعية ، ودعا الى الشورى والتعاون . واشار الى ان مقاومة الحاكم الجائر فرض واجب ، وان هذه المقاومة لا بد من ان تفوز اذا احكم تدبيرها مهما بدا الحاكم ذا هيبة وسلطان .

وكفى ابن المقفع قوةَ شخصيةٍ وسمو اخلاق ان يكون ذهب ضحية هذه الافكار الحرة .

ان مثل الفيل والقبّرة لقطعة ادبية نفيسة تثبت لمحك النقد وتظهر على هذا المحك جودة جوهرها .

العصر العباسي الثاني

ابن الرّومي المغرّد خارج سربه

العصر العباسي الثاني . — هو الذي يبتدىء — كما ذكرنا في تقسيم عصور الادب العربي — بموت المأمون وقيام خليفته المعتصم . وميزة هذا العصر السياسية هي ما طغى عليه من نفوذ الاتراك الذين استقدمهم المعتصم من وراء نهر جيحون ليغلب بهم نفوذ الفرس ، فشرعوا يؤذون الناس حتى اضطر المعتصم ان يبعدهم عن بغداد الى مدينة احدثها فكانت سامرا .

اما في الادب فيعد هذا العصر استمراراً لما سبقه . ولئن كانت له من ميزة ادبية فهي ظهور النثر العلمي على قلم الجاحظ في كتاب الحيوان الذي ألفه لعبد الملك بن الزيات وزير المعتصم . وهي ايضاً ما كثر في شعر الشعراء من شكوى للزمان تتلاءم وذلك العهد الذي اشتد فيه التضييق ايام المتوكل على ما كان للفكر من قليل حرية ، ثم تتلاءم وذلك العهد الذي اضطرب فيه حبل المجتمع ونشبت الانتفاضات الاجتماعية من مثل ثورة الزنج ايام المعتمد ، وبالغ جند الاتراك في اضطهاد الاهلين والتنكيل بالخلفاء انفسهم .

ومن اشهر شعراء هـــذا العصر ، بل احب من يمثله : علي بن العباس المعروف بابن الرومي .

ابن الرومي ٨٣٥ — ٨٩٦م (٢٢١ — ٢٨٣ هـ)

صفته : تصوّر نفسك قد رجعت القهقرى في الزمان ، حتى بلغت الشطر الثـــاني من القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، وانك زرت بغداد فعرجت على حانة تستمتع بصوت سمعت صداه في خارج الحانة فاعجبك ما وراء الصوت من نفَس مديد ، ومن طواعية ولين ، فهو ينخفض حتى تخاله قد مات ، ثم يحيا وينطلق من حلق المغنية مفعماً بالشجو كيفما تموج ، ممتلئاً بالغنج والدلال .

انك لا شك ملاقٍ ، هناك ، قينة اسمها وحيد ، تغني وكأنها لا تغني لقدرتها على بعث

علي بن العباس الرومي في حانة وحيد المغنية



ويح القوافي ما لها سفسفت حظي كأني كنت سفسفتها !

الصوت مع سكون اوصالها، فلا عينها تجحظ ولا وريدها يدر[1] ولا جسمها يتحرك بما يدل على جهد او عناء .

ثم انك لا شك ملاق، اذا ادرت عينيك في الحانة، رجلاً نحيلاً تبدو عليه عصبية المزاج، صغير الرأس تحت عمة لا يفارقها لما يحب من ستر صلعته وتظليل صدغيه الاشيبين، وفي وجهه بياض يتشح الشحوب، وفي سيمائه ونظراته حيرة ووهن ووجوم . انه ليستغرق استغراقاً بسمعه الضعيف في تلقي صوت هذه القينة التي اعجب بها واحبها حباً شديداً،

١ الوريد : عرق في العنق . ودر الوريد : انتفخ .

ولعله الساعة يستدعي الالفاظ والصور والمعاني التي يريد ان يصف بها القينة وجمالها وحسن صوتها وحبه لها في قصيدة من قصائده الخالدات .

ولكن صوت المغنية ينقطع لانها قد فرغت من الغناء ، واذا بالمعجبين يندفعون نحو القينة ، واذا بالرجل النحيل العصبي المزاج ينهض بقامته الطويلة المهزولة وكأنه اقتُلع اقتلاعاً من موضعه ، ويندفع على وهنه مع المندفعين ثم يعدل عن عزمه فجأة فينتقل الى باب الحانة يغربل غربلة في مشيته ويحمل منكبيه المنحنيين تحت عبء غير منظور .

ذلك هو علي بن العباس ، الشهير بابن الرومي الشاعر . لقد عرفتَه وجهاً لوجه ، او نحن استطعنا ان نعرّفك به بعد اكثر من الف سنة انقضت على وفاته .

وانما استطعنا ان نعرفك به هذا التعريف، برغم ان المؤرخين لم يعنوا بامره كما عنوا بغيره من الشعراء[١]، لان ابن الرومي قد كان اصدق مؤرخ لنفسه ، فاذا كان الشعر العربي غنائياً الا في ما شذّ عن القاعدة، واذا كان الشعراء العرب غنائيين بالطبع، فالشاعر، ابن الرومي، هو أطبعهم على الغنائية وشعره أقرب شيء ان يكون مفكرة حملها في جيبه لنفسه .

ولو انك خرجت من الحانة ، فتبعت ابن الرومي لتزداد به معرفة ، او لو انك تناولت مجموعة من شعره تقرأها—ولا فرق بين ان تخاطبه او تقرأ شعره—لوجدت هذا الرجل النحيل العصبي المزاج يأوي الى بيت يعشش فيه البؤس ، ولعلمت ان الموت قد اكثر من زيارة البيت فتخطّف منه صغاراً وكباراً بانتظار ان يتخطف الباقين منهم ، ثم لأدركت من امر الرجل انه برغم ثقافته الواسعة ، وأخذه بمذهب الاعتزال ، يؤمن بخرافة الطِيرة ، فيخاف أشياء يعلق عليها نتائج لا صلة لها بها . فاذا كان من مهرجان حضره بعض الحول والعور ، ثم سقطت بنت صاحب المهرجان عن السطح فقضت نحبها، جعل الحول والعور هم السبب. والناس يعرفون منه تشبثه بتلك الخرافة فيعبثون به عبثاً منكراً ويحبسونه في بيته بمجرد ان يقرع عليه الباب واحد منهم يعلن ان اسمه حسن ، او اقبال ، فيذهب ذهنه مع حسن الى النحس ، ومع اقبال الى لا بقاء ، فلا يتخطى العتبة في ذلك اليوم .

ثم لادركت فوق ذلك من امر هذا الرجل النحيل ، العصبي المزاج ، انه مخفق في صحبة الناس ، ولاسيما الوجهاء والامراء، اخفاقاً ذريعاً ، وانه قريب الغضب ينتقل من مدح الى هجو بين يوم ويوم،ويحقد ويصفح بين ساعة وساعة، ولسانه ترجمان قلبه يسرع اسراعاً في التعبير عما يخالجه بشعر يلبيه وزنه وقافيته كتلبية النثر المرسل ، ويسهب فيه كاسهاب

١ حتى كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني يخلو من ترجمة لابن الرومي .

النثر المرسل . ولذلك اجتنبه الناس ، وشاع له بينهم صيت ان لسانه طويل وعقله قصير ، فمن الصعب سياسته دون التعرض للأذى من قِبَله . ومقَت هو النـــاس ، وشكا الدهر شكوى مرة ، وأحس نفسه ضحية الغبن الفاحش ، وفي اثناء ذلك سدّد انتقادات وجيهة الى مجتمع كالمجتمع العباسي عظُم ترفه في جانب واشتدّ فقره وحرمانه في جانب ، فبات فيه مثقف شاعر فنان، كابن الرومي، عرضة للاهانة وعرضة للجوع لا لشيء الا لأنه لما أتقن الفن الشعري لم يستطع ان يتقن معه فن المصانعة .

وبعد ، فلا شك انك لو تبعت هذا الرجل النحيـــل العصبي المزاج لتزداد به معرفة ، لاطلعت على انه يحب الحياة حباً مادياً نهماً ، يحبها امرأة و كأساً من خمر ودجاجة مطبوخة ، او أكلة من حلوى ، ويحبها حتى فاكهة من موز !

حياته : واما مولد هذا الشاعر الغريب الذي قيل: انه غرد خارج سربه من الشعراء، والذي شذّ في معظم طبيعته عن مألوف الناس جميعاً ، فكان سنة ٨٣٧ م (٢٢١ هـ) في مدينة بغداد . والمؤرخون على مثل اليقين انه رومي الاصل وان اسم جده جريج ، اي : جورجيوس ، وان جده هذا كان مولى لاحد اولاد المنصور .

وقليل جداً هو المعروف من الحوادث التي اشتملت عليها حيـــاة ابن الرومي ، لان الحوادث في حياته كانت قليلة جداً . فقد توفي والده وهو صغير ، وتركه لاخ اكبر منه يعول عليه ، ولكن ما لبث الموت ان وقع باخيه ايضاً . وتزوج ابن الرومي ورزق ثلاثة اولاد فذهب بهم الموت جميعاً ، ثم ذهب بزوجته ، فكان الشاعر لا يفرغ من جنازة في بيته حتى يعود الى جنازة !

وفوق ذاك بدد كل ما ورث من مال ، وفي وقت تصدت له امرأة فغصبته بيته على ما يذكر في شعره . ولم تكن له حظوة عند الخلفاء وقد عاصر تسعة منهم ، آخرهم المعتضد ، لكنه لم يتصل بواحد منهم وان كان له في المعتضد بعض المـــدح . وكذلك لم تكن له حظوة عند باقي الممدوحين ، لانه جهل ، كما قلنا ، فن المصانعة برغم ما حذق من فن الشعر . ولعل رحلته التي خرج فيها من بغداد واقام وقتـــاً في مدينة سامرا — وتلك هي الرحلة الوحيدة التي تُذكر عنه — انما كانت محاولة اتصال بالبلاط الجديد في المدينة الجديدة . على انها محاولة لم تثمر ، فيما نعلم ، الا اشعاراً يتشوق بها بغداد .

وحين اتيح لابن الرومي ان يتصل برجل قريب جداً من البلاط هو وزير المعتضد ، القاسم بن عبيد الله ، كانت تلك هي القاضية عليه . فان القاسم بن عبيد الله أطعمه خشكنانة مسمومة ، فقتله سنة ٨٩٦م (٢٨٣ هـ) .

شعره : ولابن الرومي شعر كثير يؤلف ديواناً ضخماً في ثلاثة اجزاء . غير ان المطبوع منه جزء واحد[١] ، والمتداول منه مختارات جمعها احد الادباء المصريين[٢] .

وليس غرض من اغراض الشعر الغنائي لم يقل فيه ابن الرومي . فله مدح وهجاء وفخر وغزل وعتاب وخمريات وشكوى للزمان ووصف للطبيعة وحكمة وزهد . الا ان اجود اغراض شعره ما كان رثاء او هجاء او شكوى للزمان او وصفاً للطبيعة او وصفاً مطلقاً يستدعيه الشعر عامة .

والنقاد كلهم مجمع على ان ابن الرومي شاعرٌ معنى اكثر منه شاعر مبنى . بل هو في احيانٍ يستخف استخفافاً عجيباً ببلاغة التركيب كقوله :

وإخالُ الإيوانَ لو كانَ يَسْعَى جَاءَ سَعْياً إِلَيْكَ قَبْلَ ٱلأَذَانِ
وَلوافاكَ كَيْ تُمَهْرِجَ فيهِ غيرَ أَنْ لَيْسَ ذاكَ في ٱلإِمْكانِ[٣]

فالشطر الاخير من البيت الثاني : « غير ان ليس ذاك في الامكان » ضعيف جداً ، وهو بالنثر أشبه ، ولو حُسب نثراً لكان كذلك ضعيفاً ركيكاً .

على ان معاني ابن الرومي ملأى بالغرائب ، كقوله في المغنية وحيد وصوتها :

ظَبْيَةٌ تَسْكُنُ ٱلقلوبَ ، وتَرعاها وَقُمْرِيَّةٌ لها تَغْرِيدُ[٤]
تَتَغَنَّى كأَنَّها لا تُغَنِّي مِنْ سُكُونِ ٱلأَوْصالِ وَهْيَ تُجِيدُ
لا تَرَاهَا هُنَاكَ تَجْحَظُ عَيْنٌ لَكَ مِنْهَا وَلَا يَدُرُّ وَرِيدُ
مِنْ هُدُوٍّ وَلَيْسَ فِيهِ ٱنْقِطَاعٌ وَسُجُوٍّ وما بِهِ تَبْلِيدُ[٥]
مَدَّ في شَأْوِ صَوْتِهَا نَفَسٌ كافٍ كَأَنْفَاسِ عَاشِقِيهَا مَدِيدُ[٦]
وَأَرَقَّ ٱلدَّلالُ والغنجُ منه وَبَرَاهُ ٱلشَّجَا فَكَادَ يَبِيدُ[٧]
فتراه يَمُوتُ طوراً ويحيا ، مُسْتَلَذٌّ بَسِيطُهُ وَٱلنَّشِيدُ[٨]
فِيهِ وَشْيٌ وَفِيهِ حَلْيٌ من ٱلنَّغْمِ ، مَصُوغٌ ، يُخْتَالُ فِيهِ القَصِيدُ[٩]

١ ديوان ابن الرومي جزء ١، طبع محمد شريف سليم . ٢ ديوان ابن الرومي، اختيار وتصنيف كامل كيلاني. ٣ تمهرج: تقيم مهرجاناً. ٤ قمرية: حمامة. ٥ السجو: مدّ الصوت في رقة وحنين. تبليد: ترديد، اضطراب. ٦ الشأو : المدى . ٧ براه: رققه . ٨ البسيط من الصوت: هو المستوي العادي . والنشيد : هو الصوت المرتفع . ٩ الوشي : نقش الثوب النفيس . النغم : النغم . يريد ان صوتها كثير الافانين ، لا يجري على وتيرة واحدة .

فتأمل ما في هذه الابيات من تفنن في وصف هذا الصوت الذي يمتد بعيداً ويسجو ويرتفع وينخفض وهو في حالاته كلها مستلذ يخيّل لمن يسمعه ان نغماته وشي وحلي، ثم تأمل البراعة في تشبيه النفَس الكافي، الذي يُمدّ صوت المغنية، بأنفاس عشاقها الملهوفين.

ومع اغراب ابن الرومي في المعاني تراه يستقصيها ويستوفيها استيفاءً دقيقاً. فيقول فيه ابن رشيق القيرواني[1] : « يأخذ المعنى الواحد ويولّده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ويصرّفه في كل وجه والى كل ناحية حتى يميته ويعلم انه لا مطمع فيه لأحد . »

ومثال ذلك قول ابن الرومي في الصداقة والصديق :

عَدوُّكَ مِنْ صَديقِكَ مُستَفادُ ... فلا تَستَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحابِ[2]
فانّ الدّاءَ أَكثَرَ ما تَراهُ ... يَحُولُ من الطَّعامِ أَوِ الشَّرابِ[3]
اذا انْقَلَبَ الصَّديقُ غَدا عَدُوًّا ... مُبينًا ، وَالأُمورُ الى انْقِلابِ
ولو كانَ الكَثيرُ يَطِيبُ كانَتْ ... مُصاحَبَةُ الكَثيرِ مِنَ الصَّوابِ
ولٰكِنْ قَلَّما اسْتَكْثَرْتَ إلّا ... سَقَطْتَ عَلى ذِئابٍ في ثِيابِ[4]
فدع عَنْكَ الكَثيرَ ، فَكَمْ كَثيرٍ ... يُعافُ ، وكَمْ قَليلٍ مُستَطابِ
وما اللُّجَجُ المِلاحُ بِمَرْوِيّاتٍ ، ... وتَلْقى الرِّيَّ في النُّطَفِ العِذابِ[5]

فاذا تأملت هذه الابيات وجدت الشاعر يستهلها بفكرة اوحت بها اليه تجاربه المرة في الحياة ، وهي : ان الانسان لا يكتسب الاعداء الا من الاصدقاء ، فعليه ان لا يستكثر من الاصحاب . ثم يجعل باقي الابيات شرحاً وبسطاً لهذه الفكرة ، وقياسات يضربها لنا براهين على صواب رأيه . وهكذا « يقلّب المعنى ظهراً لبطن » ، كما يقول ابن رشيق . ولا شك ان ثقافة ابن الرومي في المنطق والجدل هي التي حملته على هذا الاسلوب ، وساعده عليه طول نفسه ومرونة الوزن والقافية واللغة في يديه. وثمرةَ هذا الاستيفاء والاستقصاء للمعاني، تميز

١ ابن رشيق القيرواني اديب من كبار ادباء العربية في المغرب . وهو منسوب الى القيروان : مدينة في تونس ، أقام بها زمناً ، ثم انتقل الى صقلية . وله كتاب شهير في النقد الادبي يسمى العمدة. عاش ابن رشيق في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري). ٢ عدوك من صديقك مستفاد ، اي : ان عدوك ينشأ من صديقك . ٣ يحول : يتحوّل . ٤ سقطت على ذئاب في ثياب : سقطت على بشر هم عبارة عن ذئاب ترتدي ثياباً . ٥ الملاح : المالحة . مرويات : نافعات للعطش . النطف : المياه القليلة . العذاب : العذبة .

شعر ابن الرومي بانه اكثر وحدة واتصالاً بين اجزائه من باقي الشعر العربي . غير انه لم يسلم من التكرير ومن ادخال كثير من العبارات النثرية على شعره، وربما كانت احياناً ركيكة جداً كما سبق لنا القول .

ومما تميز به شعر ابن الرومي دقة تصوير الشكل واللون والحركة . وهو القائل في وصف الاحدب :

قَصُرَتْ أَخادِعُهُ وغَارَ قَذالُهُ فَكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يُصْفَعَا [1]
وَكَأَنَّمَا صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحَسَّ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

وهو مشبه البنفسج في بدء تفتحه بـ « أوائل النار في اطراف كبريت ». ثم هو القائل في الخباز الذي يرقق العجين ارغفة :

مَا بَيْنَ رُؤْيَتِهَا فِي كَفِّهِ كُرَةً وبين رُؤْيَتِهَا قَوْرَاءَ كَالْقَمَرِ [2]
إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ فِي صَفْحَةِ الماءِ يُرْمَى فيه بِالْحَجَرِ [3]

وكلها من التصوير الدقيق الغريب في دقته. ولشدّ ما يبدع ابن الرومي في التصوير الممسوخ الذي يخرج به اشكال مهجوّيه . من ذلك قوله في صاحب اللحية الطويلة :

إِنْ تَطُلْ لِحْيَةٌ عَلَيْكَ وَتَعْرُضْ فَالْمَخَالِي مَعْرُوفَةٌ لِلْحَمِيرِ
عَلَّقَ اللهُ فِي عِذَارَيْكَ مِخْلَاةً وَلَكِنَّهَا بِغَيْرِ شَعِيرِ [4]

وذكروا ميزة اخرى لشعر ابن الرومي انه ينسب الى الجماد وغير العاقل ما يختص به الاحياء والعقلاء . من ذلك قوله في الارض ابان الربيع :

تَبَرَّجَتْ بَعْدَ حَيَاءٍ وَخَفَرْ تَبَرُّجَ الْأُنْثَى تَصَدَّتْ لِلذَّكَرْ [5]

وردوا هذا « التشخيص »[6] الى اصل الشاعر اليوناني . ولكنها مسألة تحتمل الجدال . فهذا

١ الاخدعان: عرقان في صفحتي العنق. القذال: مؤخر الرأس. متربص ان يصفع: ساكن بانتظار ان يصفع.
٢ الضمير في رؤيتها عائد الى قطعة العجين . ٣ تنداح : تتسع على قياس ونظام . ٤ عذاريك : منبت الشعر من الخدين . ٥ تبرجت : تزينت . خفر : حياء . ٦ التشخيص : يقصد به في هذا المجال ، انزال الاشياء منزلة الاشخاص (البشر) .

التشخيص في الواقع هو مجاز ، والشعراء العرب كلهم قد جاؤوا بمجاز قليل او كثير ولا سيما في الاعصر العباسية .

اشهر قصائد ابن الرومي : أوسع قصائد ابن الرومي شهرة ، مرثاته في ولده الاوسط محمد ، وقد مات بالنزف . وهي مثبتة في المنتخبات آخرَ هذا الفصل . وتضارعها شهرة قصيدته في وحيد المغنية ، وهي التي أثبتنا منها الابيات البارعة في وصف الصوت .

ومن قصائده الشهيرة « بكاء الشباب » وفيها يقول :

أأُفجَعُ بالشَّبابِ وَلا أُعزَّى   لَقَدْ غَفَل المُعَزِّي عن مُصَابي

وقصيدته في رثاء البصرة حين ثار الزنج[1] فأخربوها ، ومطلعها :

ذادَ عَنْ مُقْلَتي لَذيذَ المَنامِ   شُغْلُها عَنْهُ بالدُّموعِ السِّجامِ[2]

ثم قصيدته في رثاء يحيى بن علي الشهيد الشيعي ويحسب مطلعها في المطالع الشعرية الرائعة :

أَمامَكَ ـ فانْظُرْ أيَّ نَهجَيْكَ تَنْهَجُ ـ   طَرِيقانِ شَتّى : مُسْتَقيمٌ وَأَعْوَجُ

وقصيدته في وصف النساء :

أَجنتْ لكَ الوَجْدَ أَغصَانٌ وَكُثْبانُ   فِيهِنَّ نَوعانِ تُفّاحٌ وَرُمّانُ[3]

وقد سُميت دار البطيخ لكثرة ما جاء فيها من ذكر الفاكهة.

ولابن الرومي قصيدة شهيرة في شكوى الغبن الاجتماعي ، يقول فيها :

أَتَراني دُونَ الأُولى بَلَغُوا   الآمالَ مِنْ شُرَطِةٍ ، ومِنْ كُتّابِ ؟[4]

١ كان في نواحي الفرات الادنى معادن لملح البارود يعمل فيها رقيق من الزنج مجتلب من افريقيا الشرقية . وكانت حالتهم على اشد ما يمكن تصوّره من بؤس وشقاء . فتصدى لقيادتهم رجل اسمه علي بن محمد احدث بهم ثورة سيطرت على البصرة وواسط والاهواز ، وامتدت ثلاث عشرة سنة بين ٨٧٠ و ٨٨٣ م أيام الخليفة المعتمد ، وكثر فيها السفك والتخريب نتيجة انفجار الاحقاد المكبوتة . وهذه الثورة تدخل في عداد الثورات القديمة التي لم يكن لها من ثمرة ايجابية في ذاتها سوى انها دفعت الى الانحلال بالمجتمعات القديمة القائمة على الرق .   ٢ ذاد : نفى ، صد . السجام : المنسكبة .   ٣ اجنت الوجد : احدثت لك الشوق والهم . اغصان وكثبان : عبارة عن القدود والارداف . والتفاح والرمان : عبارة عن الخدود والنهود.   ٤ دون : أحط ، أقل قيمة .

كيف غرّد ابن الرومي خارج سربه : وهكذا يتوضح لنا ان هذا الشاعر النحيل العصبي المزاج قد تفرّد من باقي الشعراء العرب بكثير من الصفات . ولئن يكن صحيحاً انه بقي محض شاعر غنائي ، شأنه شأن غيره من أقرانه ، فصحيح كذلك ان ابن الرومي ، بعد قيام الدولة – منذ العصر الاموي حتى بدء النهضة الحديثة – يوشك ان يكون الشاعر الكبير الوحيد الذي تجلت غنائيته على أجملها ، لا في معارض المدح والتكسب ، بل في موضوعات حرة طليقة ، موقوفة وقفاً تاماً على رغبة الشاعر وحافزه الفني الى القول . ومثال ذلك شعره في رثاء اهل بيته ، ووصف النساء ، والغزل بالقينة وحيد وصوتها ، وشعره في بكاء الشباب وشكوى الزمان والغبن الواقع به ، وشعره في الهجاء والحكم ووصف الطبيعة والمآكل . فان هذا الشعر كله طليق حر وموقوف وقفاً تاماً على رغبة الشاعر وحافزه الفني الى النظم .

تضاف الى ذلك صفات في اسلوب ابن الرومي ميزته من غيره من الشعراء ، فمكنتنا كذلك ان نقول انه غرّد خارج سربه . ورأس هذه الصفات في اسلوبه : حرصه على استقصاء المعاني واستيفائها . ومعلوم ان الشعر العربي ، بوجه عام ، يذهب الى الايجاز . وهكذا لتاز منه شعر ابن الرومي حين ذهب فيه الى بسط المعاني والاسهاب في التعليل والقياس ، واستقام لكثير من شعر ابن الرومي ضرب من الوحدة والتحام الاجزاء قلّ نظيره في الشعر العربي .

منتخبات

دالية ابن الرومي في رثاء ولده الاوسط

يستهل الشاعر المتفجع قصيدته هذه التي تعد مثالاً رائعاً على الرثاء الخاص ، بمخاطبة عينيه ، فيقول :

بُكاؤكما يَشفي ، وإن كان لا يُجدي ، فَجُودا فقد أودى نظيرُكما عِندي ! [1]
ألا قاتَلَ اللهُ المنايا ورَمْيَها مِنَ القَوْمِ حبَّاتِ القلوبِ على عَمْدِ

ثم يصف لنا كيف تقصّد الحمام أوسط صبيته ، وكيف قضى الصغير نحبه بنزف شديد ألحّ عليه حتى أحاله من حمرة الورد الى صفرة الزعفران . وان أوقعَ ما تحسه النفس في هذا المقطع صورة الصبي يضطرب تحت وطأة الموت :

توخّى حِمامُ الموتِ أوسطَ صِبْيتي ، فللهِ كيف اختارَ واسطةَ العِقْدِ !
على حينَ شِمْتُ الخيرَ من لمحاتِهِ ، وآنستُ من أفعالِه آيةَ الرُّشْدِ [2]
طواه الرّدى عنّي ! فأضحى مزارُه بعيداً على قُرْبٍ ، قريباً على بُعْدِ
لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدَها ، وأخلفتِ الآمالُ ما كان مِنْ وَعْدِ [3]
لقد قلَّ بين المهدِ واللّحدِ لُبْثُهُ ، فلم يَنْسَ عهدَ المهدِ إذ ضُمَّ في اللحدِ [4]
ألحَّ عليه النّزفُ حتى أحالهُ الى صُفْرَةِ الجاديِّ عن حُمرةِ الوَرْدِ [5]
وظلَّ على الأيدي تَساقطُ نَفْسُه وَيذوي كما يذوي القضيبُ من الرَّنْدِ [6]
فيا لكِ من نفسٍ تَساقطُ أنفساً تساقُطَ دُرٍّ من نِظامٍ بلا عِقْدِ [7]

١ أودى : مات . ٢ شمت : رأيت . لمحاته : ملامحه . آية : علامة . ٣ أنجزت : أتمت . وعيدها : تهديدها . أخلفت : غيّرت ، نقضت . ٤ لبثه : مقامه . ٥ الجادي : الزعفران . ٦ الرند : نبات طيب الرائحة . ٧ نفس تساقط أنفساً : نفس تموت شيئاً بعد شيء فكأنها انفس كثيرة .

وهنا يقبل ابن الرومي على معنى في الرثاء يرتدي طابع الابتكار، فهو يأبى عزاء من يعزونه بان ولده أصبح في جنة الخلد، وبأن له في ولديه الباقيين متعة يستغني بها عن الذاهب منهم، فيقول :

عجبتُ لِقلبي كيفَ لَم يَنفطِر له ... ولو أنه أقسى من الحَجَرِ الصَّلْدِ ١
وما سَرّني أن بعتُه بِثوابه ... ولو أنه التّخليدُ في جَنّةِ الخُلْدِ ٢
ولا بِعتُه طَوعاً، ولكن غُصِبتُه ... وليس على ظُلمِ الحَوادثِ من مُعْدِ ٣
وإني، وإن مُتِّعتُ بابنيَّ بَعْدَه، ... لذاكِرُه ما حنّتِ النِّيبُ في نَجْدِ ٤
وأولادُنا مِثلُ الجَوارِحِ، أيُّها ... فقدْناه، كانَ الفاجِعَ البَيِّنَ الفَقْدِ ٥
لِكُلٍّ مَكانٌ لا يَسُدُّ اخْتِلالَه. ... مكانُ أَخيهِ مِنْ جَزُوعٍ وَلَا جَلْدِ ٦
هَلِ العَيْنُ، بَعْدَ السَّمْعِ، تَكفي مَكانَهُ
أمِ السَّمْعُ، بعد العين، يَهْدي كما تَهْدي؟
لعمري! لقد حالت بِيَ الحالُ بَعْدَه،
فيا لَيْتَ شعري، كيف حالت به بَعْدي؟ ٧
ثَكِلْتُ سروري كُلَّهُ، إذْ ثَكِلْتُه،
وأَصْبَحْتُ في لَذّاتِ عيشي أخا زُهْدِ

ثم يعود الى مناجاة ولده وحثّ عينيه على سكب الدمع:

أرَيْحانةَ العَيْنَيْنِ والأَنفِ والحَشَا،
ألا لَيْتَ شِعْري هَلْ تَغَيّرْتَ عَنْ عَهْدِي؟

١ ينفطر: ينشق. الصلد: الصلب الشديد. ٢ يقول: ما سرّني ان بعته بأجره ولو كان تخليداً في جنة الخلد. ٣ مُعد: نصير، مساعد. ٤ النيب: النياق. «لذاكره ما حنّت النيب في نجد» يريد: انه سيذكره ابد الدهر، لان النياق لن تنقطع عن الحنين. ٥ الجوارح: اعضاء الجسم. ٦ الجزوع: الكثير الجزع. الجلد: الصبور، المطيق للمصائب. ٧ حالت بي الحال: تغيّرت الى شر وسوء.

سأسقيكَ ماءَ العينِ ، ما أسعدتْ بهِ ،
وإنْ كانت السُّقيا مِنَ الدَّمعِ لا تُجدي

أعينيَّ جُودا لي ، فقد جُدْتُ للثرى بأنفسَ مما تُسألانِ من الرِّفدِ[1]
كأنّيَ ما استمتعتُ منكَ بضمَّةٍ ، ولا شمَّةٍ ، في ملعبٍ لكَ او مَهْدِ
ألامُ لما أبدي عليكَ مِنَ الأسى ، وإنّي لأُخفي منكَ أضعافَ ما أُبدي

ويروعنا الشاعر ، آخر شيء ، باعتراف من تلك الاعترافات الصادقة الجريئة التي يعرّي بها الانسان دخيلة نفسه ، فيقول لنا : ان ولديه الباقيين ينغّصان عليه ولا يعزّيانه ، فهو يتألم ويتحرّق كلما رآهما يلعبان في ملعب اخيهما المفقود .

محمدُ ما شيءٌ تُوُهِّمَ سلوةً لِقَلبيَ ، إلّا زادَ قلبي من الوَجْدِ
أرى أخويكَ الباقيينِ كليهما يكونانِ للأحزانِ أوْرى من الزَّنْدِ[2]
اذا لعبا في ملعبٍ لكَ لذّعا فؤادي بِمثلِ النّارِ ، عَنْ غيرِ ما قَصْدِ[3]
فما فيهما لي سلوةٌ بلْ حرارةٌ يَهيجانِها دُوني ، وأشقى بِها وَحدي
وأنتَ وإنْ أُفردتَ في دارِ وَحشةٍ فإني بدارِ الأُنسِ في وَحشةِ الفَرْدِ
عليكَ سلامُ اللهِ مني تحيّةً ، ومِنْ كلِّ غيثٍ صادقِ البَرقِ والرَّعْدِ

تمرين

انظر في هذا الشعر لابن الرومي ، فاضبط بالشكل واشرح ما ليس مضبوطاً ولا مشروحاً ، وبيّن ما عسى ان يكون فيه من صفات الشاعر من مثل الاغراب

١ الرفد : العطاء . يقول لعينيه : اسكبا الدموع فاني أعطيت التراب حبيباً أنفس جداً من هذه الدموع التي أطلبها منكما . ٢ أورى : اشد ايقاداً للنار . الزند : اداة لقدح النار . ٣ « ما » في هذا البيت زائدة .

في المعنى، والحرص على استيفائه، والتشخيص، والدقة في التصوير، وادخال العبارات النثرية على النظم، الخ ...

قال في بكاء الشباب:

لا تَلْحِ من يبكي شبيبته، الا اذا لم يبكها بدمِ[١]
لسنا نراها حقّ قيمتها الا اوان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الارض بالظلم
ولرب شيء لا يبيّنه وجدانه الا مع العدم[٢]

وقال يصف نهر دجلة وكيف يهيج فجأة:

لدجلة خبّ ليس للّيم مثلها تراءى بحلمٍ تحته جهل واثب
تطامن حتى تطمئن نفوسنا، وتغضب من مزح الرياح اللواعب[٣]

وقال في مرثاته لولده الاوسط:

واولادنا مثل الجوارح، ايها فقدناه، كان الفاجع البيّن الفقد
لكل مكان لا يسدّ اختلاله مكان اخيه من جزوع ولا جلد
هل العين، بعد السمع، تكفي مكانه ام السمع، بعد العين، يهدي كما تهدي؟

وقال يصف قدحاً صغيراً من بلّور:

كفم الحبّ في الملاحة بل أحلى وان كان لا يناغي بحرف
كهواء، بلا هباء، مشوب بضياء، أرِقْ بذاك وأصف[٤]

وقال في شكوى الزمان والغبن:

دهر علا قدر الوضيع به وترى الشريف يحطّه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سُفلاً، وتطفو فوقه جيفه

١ لا تلح: لا تلم. ٢ لا يبينه وجدانه: لا تعرف قيمة وجوده. ٣ تطامن: أصلها تتطامن، اي: تتظاهر بالطمأنينة والسكينة. ٤ الهباء: الغبار الدقيق.

العصران العباسيان الثالث والرابع

التاريخ، القصة، النقد

في الفصل الذي قسمنا فيه عصور الادب العربي، ذكرنا ان **العصر العباسي الثالث** يبتدىء بالسنة التي دخل فيها البويهيون بغداد، اي: سنة ٩٤٥م (٣٣٤هـ). ثم ذكرنا ان هذا العصر ظهرت فيه طائفة من الدول المستقلة الى شرق العراق وغربه من مثل الدولة البويهية والسامانيّة والغزنوية والحمدانية والاخشيدية والفاطمية.

فقد كان هذا العصر، اذاً، عهد ضعف سياسي وعهد تنافس وصراع في الدولة بلغ بين الامراء وغير الامراء مبلغاً لم يُعرف من قبل.

ولكن هذا العصر كان في الناحية الادبية عهد ازدهار في الشعر والنثر، ولاسيما النثر.

ومردّ ذلك الى اسباب، منها تنافس الامراء وصراعهم. فقد اتسعت دائرة هذا التنافس والصراع حتى تناولت الادب في جملة الاشياء، فأصبح الشعراء والكتّاب يجدون مدىً اوسع لتشجيع ينالونه، وأصبحت لهم مندوحة عن بغداد مع ما في بغداد من شدة التزاحم ومن خلفاء تقلصت سلطتهم فشرعوا منذ عهد المتوكل يحاولون حفظ البناء المتصدع بزيادة التضييق على الافكار.

لكن لا شك ان أقوى سبب ازدهر به الادب في هذا العصر هو ان جهود العهود التي تقدمته كان لا بد لها من ان تثمر. فلقد نشطت حركة الترجمة، ونُقل الى العربية كثير من الآثار الفلسفية والعلمية، كما نُقل شيء من الآثار الادبية. ولقد استقام للعربية نثر يصلح اداة للبحث والتأليف، هو النثر المرسل، واتسعت آفاق الاهتمام العقلي، فكان طبيعياً جداً ان يكون لذلك كله ثمرة في نهضة التأليف وفي نهضة الشعر، وان تكن نهضة الشعر اختلفت شيئاً عن نهضة التأليف، فكانت نهضة في النوع فقط تمثلت في شاعرين عبقريين هما المتنبي والمعري، بينما كانت نهضة التأليف في النوع والمقدار، وفي فنون كثيرة كالتاريخ والفلسفة والتراجم والسيَر والقصة والنقد... فلمع في هذا العصر عدد من كبار المؤلفين امثال

ابي الفرج الاصبهاني ، وقد ذكرناه مراراً ، والمسعودي الرحالة المؤرخ ، وابي منصور الثعالبي[١] صاحب « يتيمة الدهر » ، وابي هلال العسكري[٢] صاحب « كتاب الصناعتين » ، وابن رشيق القيرواني الذي أسلفنا ذكره في بحث ابن الرومي ، والعالم ابي الريحان البيروني[٣] ، وجماعة الفلاسفة المعروفين باخوان الصفاء[٤] ، وعشرات مع هؤلاء من الاعلام الافذاذ .

وعظم في هذا العصر حجم المؤلفات ، واكتسبت صفة الموسوعات وهي المؤلفات التي تزخر بمادة تحيط بعلم، او بجملة من علوم، فيكون كل مؤلف منها في الحقيقة عدداً من كتب مجموعاً تحت اسم كتاب واحد ، كالأغاني لابي الفرج الاصبهاني ، فانه موسوعة في الشعراء والمغنين وفيما يتفرع عن بحثهم .

وفي هذا العصر اخترع في القصة الفن المعروف بالمقامة ، اخترعه بديع الزمان الهمذاني، وقيّده بالانشاء المسجّع . وكذلك نسمع في هذا العصر بظهور القصص الشعبية من مثل الف ليلة وليلة وقصة عنترة .

وأما **العصر العباسي الرابع** فالحادثة التي تعيّنه هي احتلال الاتراك السلجوقيين بغداد سنة ١٠٥٥م (٤٤٥ هـ) ، واتساع سيطرتهم من تخوم الصين الى اطراف الشام . وازدادت الحالة السياسية سوءاً في هذا العصر ، وأخذت تذوي النهضة الادبية التي ازدهرت في العصر السابق ، لان السلجوقيين قليلاً ما كانت تهمهم العربية ، وقليلاً ما عنوا بالآداب . ذلك فضلاً عن الحروب التي ملأت هذا العصر مع زحف الصليبيين على ابواب القرن الثاني عشر الميلادي .

١ الثعالبي: اديب لغوي من مدينة نيسابور في خراسان. قيل : لقب بالثعالبي لانه كان يخيط جلود الثعالب ويعمل منها الفراء . وكتابه : « يتيمة الدهر » ترجمات لشعراء زمانه ومختارات من شعرهم . وله عدا يتيمة الدهر كتب اخرى شهيرة منها : « فقه اللغة » . وكانت وفاة الثعالبي سنة ١٠٣٨ م (٤٢٩ هـ) . ٢ انظر الصفحة ٢٦ . واما كتاب العسكري المعروف بالصناعتين فهو كتاب في النقد والبيان . والمراد بالصناعتين: الشعر والنثر . ٣ البيروني : احد عباقرة زمانه، كان فيلسوفاً جمع الطب والرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ، وكان الى ذلك يجيد طائفة من اللغات كالسريانية والسنسكريتية الخ... ولد في خوارزم ، وزار الهند واقام بها، وله كتاب الصيدنة في الطب ، وكتاب تاريخ الهند ، الخ ... توفي سنة ١٠٤٨ م (٤٤٠ هـ) وعاصر محمود ابن سبكتكين ، سلطان غزنة . ٤ اخوان الصفاء : جمعية فلسفية ظهر امرها بالبصرة في اواخر القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) وكتم اصحابها اسماءهم ، وقد الفوا احدى وخمسين رسالة ، بين ايدينا خمسون منها، تسمى رسائل اخوان الصفاء، اودعوها مذهبهم وكانوا ينشرونها سراً في الناس . وبناء مذهبهم على ان اجتماع الفلسفة اليونانية والشريعة العربية (أي : الاسلام) هو التدبير الذي به يصلح امر الناس.

وهذا العصر هو عصر ظهور الشعر الصوفي والروح المنصرفة الى الغيب عن عالم اشتد فيه سوء الحال .

ولكن يمكن القول ان فن النقد الادبي بلغ في هـذا العصر أوجه مع عبد القاهر الجرجاني صاحب اسرار البلاغة ، وان يكن عبد القاهر مخضرماً بين العصرين العباسيين الثالث والرابع .

علي بن الحسين المسعودي (توفي سنة ٩٥٦م) (٣٤٥هـ) . — يُعدّ المسعودي في أشهر الكتّاب الذين أنشأوا باللغة العربية مؤلفات ترتدي طابع الموسوعات . ولكن ما يؤسف له حقاً ان موسوعته التي ألفها في ثلاثين مجلداً ، وسماها **اخبار الزمان** ، قد فُقدت . وكذلك فُقد الملخص الاول الذي اختصر به هذه الموسوعة ، وسماه « الكتاب الاوسط » ، فلم يسلم على الدهر الا ملخص الملخص ، اي : السفر الذي اختصر به الكتاب الاوسط ، وسماه « **مروج الذهب ومعادن الجوهر** » ، وهو مطبوع متداول .

ولد المسعودي في بغداد ، في العصر التركي ، فهو من مخضرمي العصرين العباسيين : الثاني والثالث . ولقب بالمسعوديّ نسبة الى جده الصحابي الشهير : عبد الله بن مسعود .

نشأ المسعودي على ثقافة معتزليّة، مفتوحة الآفاق ، تدين بالعقل، كالثقافة التي أثرت عن الجاحظ . وصحيح ان المسعودي قد انتقد الجاحظ لانه ألف كتاباً في البلدان والامصار[1] دون ان يسافر اسفاراً بعيدة ، لكن ليس ثمة ريب في ان الرجل مدين لأبي عثمان بما توجه له من عناية تتصل بدرس احوال البشر وأقاليمهم .

ولما بلغ المسعودي نحو العشرين من عمره غادر بغداد في رحلة تُحسب حتى في عصرنا هذا، مع توفر وسائل النقل ، رحلة عظيمة . فجاب معظم اقطار آسيا الشرقية من فارس الى الهند ، ثم جاب سوريا ومصر وبلغ السودان . وجمع في اسفاره بين البر والبحر . لكن يقدّر بعض الباحثين انه ادعى لنفسه زيارة اقاليم لم يصل اليها كالصين وكمبالو ، اي : مدغشقر[2] .

وقضى الشطر الاخير من حياته يتنقل بين مصر وسوريا ، عاكفاً على التأليف وتدوين ما شهد وسمع في اثناء رحلته ، او جمع في اثناء المطالعة .

وألف ، وهو بالفسطاط ، قبيل وفاته كتاباً سماه « **التنبيه والاشراف** » ، وجعله اشبه

١ هذا الكتاب من كتب الجاحظ ضائع. ٢ هي مدكسكر.

علي بن الحسين المسعودي



صاحب : « مروج الذهب ومعادن الجوهر »

بدليل مختصر لمؤلفاته الاخرى . وقد سلم هذا الاثر الآخر من آثاره الضخمة ، وفيه قسّم المسعودي الكائنات تقسيماً يتصل بعضه ببعض ودرّجها من معادن الى نبات الى حيوان.

اما انشاؤه فيذهب فيه مذهب النثر المرسل السهل ، ومنه ما يجود ويقوى حتى يكون نثراً ادبياً جميلاً ولاسيما في رواية النوادر التاريخية والحوادث المؤثرة ، ومنه ما يكون مجرد نثر علمي يخلو من الزينة لكنه يؤدي المعنى في دقة وضبط .

وانما اختلف اسلوب المسعودي هذا الاختلاف لان الرجل لم تكن له صفة واحدة ، فهو مؤرخ ، ورحالة ، وجغرافي ، واديب ، وشيء من فيلسوف في الوقت نفسه . وانك لتجد ذلك كله في كتابيه : « **مروج الذهب** » و « **التنبيه والاشراف** » .

ومما يتميز به المسعودي ، ولاسيا في اسلوب كتابة التاريخ[1] ، انه يخرج على طريقة الطبري فلا يجعل مدار التأليف على سنة سنة يروي حوادثها ، وانما يبني على الموضوع ، فيربط الحوادث وتعليقاته عليها بالسلالات والملوك والشعوب بدل ربطها بالسنين المتعاقبة .

ويبدي المسعودي تفطناً لعامل المحيط الجغرافي واثره في التاريخ .

وتجد له في المنتخبات ، آخرَ هذا الفصل ، قطعة في وصف بحر الروم اثبتناها شاهداً على اسلوبه العلمي . ثم تجد قطعة اخرى في وصف مصرع الخليفة الامين ، وهي شاهد على نثره الذي يجمع بين التاريخ والادب . والقطعتان كلتاهما من مروج الذهب .

الف ليلة وليلة . — جاء في بعض الاساطير ان ملكاً من ملوك الفرس القدماء ، يسمى شهريار ، تعود ان يتزوج كل ليلة صبيّة يقتلها في الصباح ، حتى اوشك ان يهلك فتيات المملكة جميعاً ، ثم تزوج شهرزاد ، بنت وزيره ، وكانت جميلة حلوة الحديث تحفظ الكثير من عجائب الاخبار وطرائف الحكايات . فاحتالت على الملك بحيلة لطيفة كي تنجو من القتل وتنقذ البقية الباقية من بنات المملكة . وجعلت حيلتها ان التمست من اختها الصغيرة ، دينارزاد ، ان تنتقل معها الى قصر الملك ، واوصتها ان تطلب منها في الليلة الاولى قصة ترويها في حضور الملك . فنزلت دينارزاد على رغبة اختهـــا ... فأنشأت شهرزاد تقص حكاية سحرت لبّ الملك . ولكن الصباح انبلج نوره قبل ان انتهت الحكاية . فقالت لها اختها : ما اعذب حديثك ! الا تتابعين قصتك ؟ فاجابت شهرزاد : هذا ما افعله في الليلة المقبلة ، اذا عشت وابقـــاني الملك . فاجل الملك قتلها ذلك اليوم ليسمع بقيـة القصة . على ان شهرزاد ظلت تفرغ من حكاية وتدخل في حكاية ، وهي حريصة على ان تقطع حديثها في الصبـــاح عند عقدة تشوق السامع الى معرفة ما بعدها . وهكذا استطاعت ان تحمل الملك على تأجيل قتلها حتى انقضت الف ليلة وليلة رزقت بعدها غلامـاً . فرجع الملك عن قتلهـا واقلع عن عـــادته الوحشية . واجتمع من تلك الحكايات التي روتها شهرزاد على مسامع الملك واختها دينارزاد ، كتاب نفيس سمي : **الف ليلة وليلة** .

وهو كتاب فارسي الاصل، نقل الفرس بعض قصصه عن الهندية، ويرجح انه هو « هزار افسانه» الذي ذكره المسعودي في مروج الذهب. ومعنى«هزار افسانه» الف قصة وقصة. كان

[1] يصل المسعودي في كتابة التاريخ ، في « مروج الذهب » ، حتى سنة ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) قبل وفاته بتسعة اعوام .

اول من اخرج منه نسخة بالعربية اديب عباسي يدعى الجهشياري، عاش في العراق في القرن العاشر الميلادي. ثم اخذ الرواة يزيدون فيه القصص الجديدة، يستمدونها من اصول هندية ويونانية ومصرية وعبرانية، ويجعلونها بلسان شهرزاد، حتى تم الكتاب على الشكل الذي نعرفه به اليوم في اواخر زمن دولة المماليك في مصر (اوائل القرن السادس عشر الميلادي).

وكتاب الف ليلة وليلة أشهر كتاب عربي في العالم. ويسمونه في اوروبا «الليالي العربية». وقد ترجم الى اكثر اللغات الحية، وطبع مراراً في البلدان العربية في اربعة مجلدات، واختصر وهذب ليصح كتاب مطالعة للاحداث.

وانشاؤه متفاوت، فمن قصصه ما هو نثر مرسل صحيح العبارة، ومن قصصه ما هو سقيم العبارة اميل الى العامية منه الى الفصحى. وقد اثبتنا منه في **المنتخبات، آخرَ هذا الفصل**، حكاية من حكايات السندباد البحري الشهيرة.

قصة عنترة. — من عرف القرى اللبنانية في الشتاء، حين تكثف ظلمة الليل ويشتد هطل المطر وعصف الريح، وحين يتحلق القرويون حول مواقدهم، عرف — ولا شك — «قصة عنتر»، او «سيرة عنتر عبس». كذلك من زار المقاهي الشعبية في المدن العربية، مثل بيروت ودمشق والقاهرة وبغداد، لم يفته هنا ايضاً، ان يتعرف قصة البطل عنترة بن شداد العبسي: احب الاعلام الجاهليين الى ابناء الشعب في القرية والمدينة، عاش في اذهانهم ولامس قلوبهم وملأ خيالهم شاعراً وعاشقاً وفارساً مغواراً.

ويقع هذا الكتاب الضخم: «قصة عنتر» او «سيرة عنتر»، في نحو ثلاثة آلاف صفحة، يحرص على اقتنائه القرويون والمدنيون من ابناء الشعوب العربية على السواء، ويتفننون في قراءته، ويحفظون منه طوال القطع، ومنهم من يتخذ تلاوته في المقاهي الشعبية وسيلة كسب وارتزاق.

ومن هذا الكتاب نسختان: مطوّلة تعرف **بالحجازية**، ومختصرة تعرف **بالشامية**، وهو يُنسب الى الاصمعيّ الراوية العباسي الشهير. لكن الارجح ان الاصمعي انما نقل بعض مادة هذا الكتاب من افواه الذين سبقوه من القصّاص، فألف بذلك نواة تزايدت على مر الايام بما اضيف اليها، حتى كان القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، فاتفق ان حصلت ريبة في بلاط احد الخلفاء الفاطميين في مصر، فلغط بها الناس، فكلّف الخليفة رجلاً عالماً

بالاخبار يدعى الشيخ يوسف بن اسماعيل[١] ان يبتدع شيئاً يلهي به الجمهور ، فوقع اختياره على « قصة عنتر » ، فدونها وبوبها على النحو الذي جاءتنا فيـــه ، ونسبها كلها الى الاصمعي ، ودفع بها اقساماً الى الجمهور فشغله بغرائبها وطرائفها وصرف العامة عن اللغط بما حصـل في قصر الخلافة من ريبة .

ويبدو ان الشيخ يوسف بن اسماعيل هذا كان مؤلفاً ممتعاً . فجزأ السيرة الى اثنـين وسبعين قسماً ، كان يختم كل واحد منها بموقف حرج يشتاق القارىء معرفة ما يأتي بعده .

قصة خيالية : ويقيناً ، لا نستطيع ان نعتبر كل ما ورد في هذه القصة حقائق تاريخية . بل ان القسم الاوفر من مادتها ابتدعه الرواة مع من فيهم الشيخ يوسف بن اسماعيل نفسه . فهذا عنترة يهزم الانس من عرب وفرس وروم وهنود وصينيين ، ثم يجاوزهم الى هزيمة الجن . ويقول الشعر فيبذ اصحاب المعلقات . ويعشق فلا يترك مجالاً لعاشق في صدق العاطفة والعفة ونبل الغيرة والصبر والوفاء والتضحية . ويناضل عن قومه فيبلغ الذروة في الشجاعة والمهارة وانجاز اعمال الفروسية الخارقة وكسب الانتصارات الباهرة .

فواضح لمن يقرأ قصة عنترة ان كل هذا الذي يُنسب اليه يستحيل ان يكون صحيحاً من جهة الواقع التاريخي ، بل هو تخيل اسطوري . وواضح فوق ذلك ان شخصية عنترة ، على ما يبدو في هذه السيرة ، يستحيل ان تكون حقيقية في حدود الطاقة البشرية ، فكيف في حدود العصر الجاهلي . وهذا يعني ان هذه السيرة انما هي في كثير من مادتها اختراعات اسطورية تشكو في احيان كثيرة عيب المبالغات الفجة .

لكن مع ذلك تبقى في هذه السيرة قِيَمٌ ومعان رفيعة سامية .

معانيها السامية : فمن المعاني السامية التي حوتها القصة انها تسفيه للتعصب العنصري[٢] . فان عنترة الاسود اللون ، ابن السبية السوداء زبيبة ، قد رفعته هذه القصة ، التي شغف بها العرب ، الى مرتبة البطولة ، وزوّجته — برغم التقاليد — الى امرأة بيضاء حرة النسب هي ابنة عمه عبلة .

ومن القيم والمعاني السامية ، التي حوتها هذه القصة ، انها لم تنهض ذلك النهوض بمرتبة عنترة الا نتيجةَ ما بذل البطل من نضال شديد عنيد وما تحلى به من حميد السجايا . فعنترة لم يتحرر ولم يتزوج عبلة لشفقة من احد عليه او لاحسان من انسان ، ولكنه ادرك امانيه بالسعي والكفاح .

١ وكذلك تنسب سيرة عنترة الى طبيب عراقي في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) ، اسمه ابن الصائغ ، ولقبه العنتري . ٢ تسفيه للتعصب العنصري : اظهار ما فيه من الجهل .

ومن القيم والمعاني السامية التي حوتها هذه القصة ان عنترة لا يظهر فيها بمظهر الجاهلي المقدام الذي يتعصب لقبيلته وحسب، على سائر القبائل، او يطمع في الغنيمة مكتفياً بها، بل هو يتجلى في كثير من المواقف تجلي بطل عربي يحارب ليوجب احترام العرب على دولتي الفرس والروم وهما يومئذ دولتان تعاملان العرب معاملة شعوب مستضعفة محتقرة.

هل هي ملحمة ؟ : وبعض الباحثين ينعت هذه القصة بانها ملحمة العرب، او إلياذة العرب، ولا انكار ان بينها وبين الملحمة وجوه شبه. فالملحمة قصة بطولية، وسيرة عنترة قصة بطولية. والملحمة تصور شعباً ومُثله ومطامحه وعصراً وعقليته، وسيرة عنترة ترسم صورة من العرب في جاهليتهم، وابطالها يشبهون ابطال الملاحم في اتيان الخوارق وفي كثير من نواحي الخلق والمزاج... ولكن سيرة عنترة يعوزها التأليف الملحمي، ففيها كثير من استطراد، وكثير من حشو، اي: مادة ضعيفة الرابط بصميم القصة، ثم هي قصة غرامية الى كونها قصة بطولية، وأداتها النثر. واما الشعر الذي يتخللها فغنائي كله. ولذلك كانت هذه السيرة رواية خيالية، حماسية غرامية، تدخل في النوع المسمى *Romance*.

انشاؤها : فاما انشاؤها فمتفاوت كانشاء الف ليلة وليلة، غير انه مسجّع. ويفصح ويستقيم حيناً، لكنه يضطرب وتشيع فيه الاغلاط ويقارب العامية في احيان. والوصف، ولاسيا وصف مواقف القتال، في القصة عام لا تفصيل فيه ولا دقة، يوشك ان يجري على وتيرة واحدة شبيهة بما يأتي: «وكانت تتطاير الجماجم وتتدحرج، وتتخضب الدروع بالدماء وتشتد نار الحرب وتتأجج، وتضطرب الابطال وتنزعج، وتدور ملائكة الموت على الارواح، ويطوق عنترة الاعناق بالدماء، ويقيم الحرب على قدم وساق، ويظهر العجائب والاهوال، ويندثر الفرسان والابطال، ولا يفقد من قومه اكثر من سبعة رجال.»

اروع موقف فيها : ولعل اروع موقف في السيرة كلها هو موت عنترة. فان عدوه الاعمى، الملقب بالاسد الرهيص، رماه بسهم حاد مسموم فاصابه ولكن البطل لم يمت، بل اجاب سهم الرامي بابيات من شعر خر لها الاعمى ميتاً لشدة هلعه وجزعه. ثم ركز البطل رمحه واستعان به على ركوب حصانه «الابجر»، واستحث قومه على الرحيل فجاوزوا وادياً يقال له وادي الظبا، والعدو في اثرهم. ومكث عنترة فوق جواده جريحاً منزوف الدم متكئاً على رمحه في فم الوادي. وفاضت روحه وهو على حالته تلك، والاعداء يرونه فلا يجسرون ان يتقدموا لظنهم انه حي ينتظرهم للقتال. وهكذا كانت جثة البطل مهيبة رائعة كما كان البطل نفسه مهيباً رائعاً في الحياة.

(انظر في منتخبات هذا الفصل، وصف موت عنترة كما ورد في أصل السيرة).

مصدر الهام للادباء : ولقد كانت قصة عنترة مصدر الهام لانتاج ادبي قيم . فالف فيها شكري غانم الاديب اللبناني مسرحية بالفرنسية ، ونظم فيها احمد شوقي مسرحية اخرى بالعربية .

بديع الزمان الهمذاني والمقامات . — ابو الفضل ، احمد بن الحسين ، الشهير ببديع الزمان الهمذاني ، ولد في مدينة همذان من بلاد فارس سنة ٩٦٩ م (٣٥٩ ﻫ) ومات في مدينة هراة (وهي اليوم من مدن افغانستان) سنة ١٠٠٨ م (٣٩٩ ﻫ) . وكان اول استاذيه في همذان اللغوي الطائر الصيت احمد بن فارس . ثم غادر بديع الزمان مسقط رأسه وهو في نحو الحادية عشرة من عمره ، فاتصل بأحد وزراء بني بويه : الصاحب بن عبّاد وكان اديباً متضلعاً ، فازداد بديع الزمان ثقافة بصحبته . وخالط الاسماعيلية ، وهم فرقة من المسلمين كانوا اهل رغبة في الفلسفة ورأي في السياسة ، فلقن منهم شيئاً كثيراً ، ولاسيما في باب النقد الاجتماعي واظهار نفاق اولياء الامر وجهلهم وغباوة الجمهور . وعاشر طائفة من الشحاذين الذين جعلوا من الشحاذة فناً يكسبون به المعاش ، ولا ريب انه استوحى منهم بطل مقاماته : ابا الفتح الاسكندري .

واكثر بديع الزمان التطواف في فارس والاقاليم ، في شرقي فارس ، فزار فيما زار مدينة نيسابور وفيها الف مقاماته الشهيرة وناظر العالم ابا بكر الخوارزمي وادعى التغلب عليه ، و تصل بالسلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي ، وكتب الى وزيره بعض رسائل اشهرها الرسالة التي وصف بها الهند بعدما فتحها السلطان محمود ، واستقر بديع الزمان آخر الامر في مدينة هراة ، وابتسم له الحظ بعد عبوس وايسر بعد فقر ، ولكن ما لبث ان قضى نحبه ، وقيل انه سُمّ ففقد وعيه فدفن ، فافاق في القبر ثم اختنق فيه . واشتهر بديع الزمان بقوة الحافظة ، وحدّة الذكاء ، والقدرة على السجع غير المتكلف . وكان يوجب ان تكون الكتابة سجعاً ، ولذلك نعى على الجاحظ ، بلسان ابي الفتح الاسكندري ، في المقامة الجاحظية سهولة كلام ابي عثمان وانشاءه الذي يرسله ارسالاً في غير تكلف للصناعة .

واما فن المقامات ، فيقال ان بديع الزمان لقنه من استاذه ابن فارس ، لكن لم تصل الينا من ابن فارس مقامات . ومهما يكن من شيء ، فلا ريب ان بديع الزمان هو الذي جعل هذا اللون من القصص فناً ادبياً جميلاً ، قلده فيه من جاء بعده كالحريري [١] وغيره ،

١ ابو القاسم الحريري ، من ادباء العصر العباسي الرابع ، صاحب المقامات المعروفة باسمه. ولد في قرية قرب البصرة سنة ١٠٥٥ م (٤٤٦ ﻫ) وتوفي حوالى سنة ١١٢٢ م(٥١٦ ﻫ) وبطل مقاماته: ابو زيد السروجي، وراويتها : الحارث بن همام . والسجع في مقاماته ادنى الى الصنعة منه الى الطبع. ويكثر فيها اللفظ الحوشي. لكن يتخللها شعر جيد اجود من الشعر الذي يتخلل مقامات البديع.

واعترفوا له بالسبق ، ولم يبلغوا شأوه في طبقة السجع ولا في طرافة القصة المخترعة . وممن انشأ المقامات ، مقلداً فيها البديع والحريري ، اللغويّ الشاعر الشيخ ناصيف اليازجي ، في عصر الانبعاث ، وتعرف مجموعة مقاماته بـ « مجمع البحرين » .

هذا ، ومقامات بديع الزمان التي تناهت الينا يبلغ عددها اثنتين وخمسين مقامة مطبوعة متداولة في ايدي القراء . واسم بطلها: ابو الفتح الاسكندري، وراويتها: عيسى بن هشام . واشهرها المقامة المضيرية[١]، وفيها يرسم بديع الزمان صورة موفقة لتاجر بغدادي اثرى بانتهاز الفرص،فهو معجب بنفسه،مبهوج بكل شيء استطاعت ان تحوزه يده من امرأته حتى الكنيف في داره ، وهو لا يفتأ يثرثر في شرح فضائل امرأته وداره واتفه الاشياء في داره ، حتى يملّ ضيفه ابو الفتح فينبعث هارباً الى الهواء الطلق والتاجر يناديه : يا ابا الفتح ، المضيرة ، يريد تذكيره باكلة المضيرة التي اعدها له ، فيظن الصبيان ان المضيرة هذه لقب لابي الفتح ، فاذا بهم يتبعونه صائحين به : المضيرة ، المضيرة ، الى ان يشج رأس واحد منهم بحجر فيزج به في السجن ويقسم بعد ذلك اليوم ان لا يأكل مضيرة ...

لكن في مقامات البديع ما يوشك ان يضاهي « المضيرية » جودة وطرافة ، كالمقامة الموصلية، التي اثبتنا منها جزءاً في المنتخبات آخرَ هذا الفصل .

معنى المقامة : ومعنى المقامة ، القصة التي تروى في مقام ، أي : مجلس . وكتابتها مسجعة . ويغلب على كاتبها ان يتخذ راوية واحداً وبطلاً واحداً ينسب اليهما مقاماته كلها وحوادثها كلها. والقاعدة في هذه الحوادث ان تكون مغامرات، يأتيها بطل متشرد في سبيل الكدية، أي : الكسب بالحيلة والشحاذة . ويعرف بطل المقامات ، مثل ابي الفتح الاسكندري ، بصاحب النشأة .

عبد القاهر الجرجاني. – وهو يُعدّ إمام الاقدمين الذين كتبوا في النقد الادبي بالعربية، منذ عصر الجاحظ . وليس المعروف عن هذا المؤلف الاستاطيقي[٢] بالشيء الكثير . فنحن نعلم انه من اهل جرجان ، كما يدل اسمه . وجرجان بلاد بين طبرستان واقليم خراسان الفارسي . ونعلم انه توفي سنة ١٠٧٨م (٤٧١ هـ) ، وانه ألف كتابين شهيرين سلما لنا على الدهر، هما «اسرار البلاغة» و « دلائل الاعجاز » (اي : إعجاز القرآن) . وكان مما ابتدعه الجرجاني في كتابه الاول ، تفصيل انواع المجاز ، أي : اللفظ الذي استعمل على غير وجه

[١] المضيرة : لحم يطبخ باللبن المضير ، أي : الحامض . [٢] الاستاطيقي : معرب *Esthétique* ، وهو لفظ يوناني الاشتقاق ، معناه : علم الجمال واصول تذوقه في الفنون الجميلة .

عبد القاهر الجرجاني



صاحب « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز »

الحقيقة. وكان مما ابتدعه في الكتاب الآخر مذهبه: ان سر الجمال في الكلام انما هو في نظمه، اي: اسلوبه. وهكذا خالف قول من سبقه في ان جمال الكلام يكون في اللفظ وحده ، او في المعنى وحده. أثبت الجرجاني ان المعنى النفيس مقوّم لجمال الكلام، ثم لم يبخس اللفظ حقه، ولكنه أضاف الى هذين العنصرين عنصراً ثالثاً هو معرفة النظم، يريد: معرفةَ التوفيق بينهما.

وتجد في المنتخبات ، آخرَ هذا الفصل ، قطعة من كتابه « اسرار البلاغة » علّق بها على معنى بيت المتنبي الشهير :

لَا يَسْلَمُ ٱلشَّرَفُ ٱلرَّفِيعُ مِنَ ٱلأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ ٱلدَّمُ

منتخبات

مثالاد من نثر المسعودى

ذكر بحر الروم

يبدو جلياً ان المسعودي لا غرض له في هذا الفصل الذي اخترناه من الجزء الاول من « مروج الذهب » الا ان يثبت حقائق يعلمها عن بحر الروم ، ولاسيما عند موضع اتصال هذا البحر بالمحيط الذي نسميه اليوم : الاطلسي او الاطلنطي . فاسلوب المسعودي ، هنا ، علمي صرف يبرأ من كل تأنق وترويق .

قال :

اما بحر الروم وطرسوس وأدرنة والمصيصة وانطاكية واللاذقية وطرابلس وصيداء وصور ، وغير ذلك من ساحل الشام ومصر والاسكندرية وساحل المغرب ، فذكر جماعة من اصحاب الزيجات[١] في كتبهم ، منهم محمد بن جابر النسائي وغيره ، ان طوله خمسة آلاف ميل ، وعرضه مختلف ، فمنه ثمانمائة ميل ، ومنه سبعمائة ميل ، ومنه ستمائة ميل واقل من ذلك ، على حسب مضايقة البر للبحر والبحر للبر .

ومبدأ هذا البحر من خليج يخرج جارياً من بحر اقيانوس[٢] . واضيق موضع من هذا الخليج بين ساحل طنجة من بلاد المغرب وبين ساحل الاندلس . وهذا الموضع المعروف بنيطاء ، عرضه فيما بين الساحلين نحو من عشرة اميال . وهذا الموضع هو المعبر لمن اراد العبور من الغرب الى الاندلس ومن الاندلس الى الغرب .

وعلى الحد بين البحرين ، اعني بحر الروم وبحر اقيانوس ، المنارة النحاس ، والحجارة التي بناها هرقل الجبار على اعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بايديها : ان لا طريق ورائي ، لجميع الداخلين الى ذلك البحر ، بحر الروم[٣] ، اذ كان بحراً[٤] لا تجري فيه جارية ولا عمارة

١ الزيجات ، جمع الزيج : كتاب عند الفلكيين تعرف به احوال الكواكب،وهو معرب زيك الفارسية.
٢ بحر اقيانوس : المحيط الاطلنطي . ٣ المراد بهذه الجملة : ان الكتابة والتماثيل المشيرة بايديها تقول للذين يمخرون بحر الروم : لا طريق ورائي ، اي: لا تدخلوا المحيط الاطلسي . ٤ المراد: المحيط الاطلسي.

فيه ولا حيوان ناطق يسكنه ، ولا يحاط بمقداره ، ولا تدرى غـايته ، ولا يُعلم منتهـاه ، وهو بحر الظلمات والاخضر المحيط[١] . وقد ذهب قوم ان هذا البحر اصل ماء البحار . وله اخبار عجيبة قـد اتينا على ذكرها في كتابنا اخبار الزمان ، في اخبـار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه ، ومن نجا منهم ومن تلف ، وما شاهدوا منه وما رأوا .

وبين هذه المنارة المنصوبة وبين موضع الاحجار مسافة في طول مصب هـــذا الخليج وجريانه ...

وعلى هذا الخليج ، من جانب المغرب ، قرية يقال لها سبتة ، وهي وطنجة من ساحل واحد . ويقابل سبتة ، هذه ، من ناحية الاندلس الجبل المعروف بجبل طارق : مولى موسى ابن نصير . ويعبر النـاس من سبتة الى ساحل الاندلس من غدوة الى الظهر . وفي هـذا الخليج موج عظيم . والمـاء من هناك يخرج من بحر اقيانوس ويصب الى البحر الرومي . وفي هذا الخليج مواضع تعلو امواجها ويعلو الماء من غير ريح . وهذا الخليج تسميه اهل المغرب ، واهل الاندلس ، الزقاق اذ كان على هيئة ذلك .

وفي بحر الروم جزائر كثيرة ، منها جزيرة قبرص بين ساحل الشام والروم . وجزيرة رودس في مقابلة الاسكندرية . وجزيرة اقريطش[٢] . وجزيرة صقلية . وسنذكر صقلية بعد هـذا الموضوع عند ذكرنا الجبل البركان الذي تظهر منه النار فيها اجسام وجثث عظام .

مصرع الخليفة الامين

في هذا الفصل الذي اخترناه من الجزء الثاني من « مروج الذهب » ، يصف المسعودي مصرع الخليفة الامين بن الرشيد ، في الفتنة التي نشبت بينه وبين اخيه المأمون ، فزحفت جيوش المأمون من خراسان وحاصرت بغداد حصاراً شديداً انتهى باستسلام العاصمة العباسية ووقوع الانقلاب الدامي الذي أوصل المأمون الى العرش .

واذا قارنت نثر المسعودي في هذا الفصل بنـــثره في الفصل السابق من هذه المنتخبات لمست كيف يكتسب اسلوبه صفة ادبية في التأريخ للحوادث المؤثرة بعد ان كان محض اسلوب علمي لا يخلو من جفاف .

١ بحر الظلمات والاخضر المحيط : من اسماء الاطلنطي قديماً عند العرب . ٢ اقريطش : هي جزيرة كريت .

قال محمد[١] : وكيف لنا بالخلاص الى هرثمة[٢] ولات حين مناص ؟

وراسل هرثمة ومال الى جنبته ، فوعده هرثمة بكل ما احب ، وانه يمنعه ممن يريد قتله . وبلغ ذلك طاهراً ، فاشتد عليه وزاد غيظه وحنقه ، ووعده[٣] هرثمة ان يأتيه في حراقة[٤] الى مشرعة[٥] باب خراسان فيصير به الى عسكره ومن احب. فلما هم محمد بالخروج في تلك الليلة، وهي ليلة الخميس لخمس ليال بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، دخل اليه الصعاليك من اصحابه وهم فتيان الابناء والجند ، فقالوا له : يا امير المؤمنين، ليس معك من ينصحك . ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة. وفي اصطبلك سبعة آلاف فرس . ونفتح بعض ابواب المدينة ونخرج في هذه الليلة ، فما يقدم علينا احد الى ان نصير الى بلد الجزيرة وديار ربيعة . فنجبي الاموال ونجمع الرجال ونتوسط الشام وندخل مصر ، ويكثر الجيش والمال وتعود الدولة مقبلة جديدة .

فقال : هذا والله الرأي ! فعزم على ذلك وهمّ به وجنح اليه .

وكان لطاهر[٦] في جوف دار الامين غلمان وخدم من خاصة الامين، يبعثون اليه بالاخبار ساعة فساعة. فخرج الخبر الى طاهر من وقته، فخاف طاهر وعلم انه الرأي ان فعله[٧]. فبعث الى سليمان بن ابي جعفر، والى ابن نهيك، والسندي بن شاهك ، وكانوا مع الامين : ان لم تزيلوه عن هذا الرأي لاخربن ضياعكم، وازيل نعمكم ، واتلف نفوسكم . فدخلوا على الامين في ليلتهم فازالوه عن ذلك الرأي .

وأتاه هرثمة في الحراقة الى باب خراسان . ودعا الامين بفرس يقال له الزهيري ، أغر محجل [٨] ادهم محذوف [٩] . ودعا الامين بابنيه موسى وعبد الله فعانقهما وشمهما وبكى . وقال: الله خليفتي عليكم ، فلست ادري التقي معكما بعدها او لا . وعليه ثياب بيض وطيلسان اسود وقدامه شمعة حتى اتى باب خراسان الى المشرعة ، والحراقة قائمة . فنزل ودخل الحراقة، فقبّل هرثمة بين عينيه .

وقد كان طاهر نمى اليه خروجه [١٠] فبعث بالرجال من الهروية وغيرهم والملاحين في الزوارق وعلى الشط . فدفعت الحراقة . ولم يكن مع هرثمة عدة من رجاله . فاتى اصحاب

---

١ المراد : الخليفة محمد الامين . ٢ هو هرثمة بن اعين ، من قواد المأمون الذين اشتركوا في محاصرة بغداد لخلع الخليفة الامين . ٣ الضمير في « وعده» عائد الى الخليفة الامين. ٤ حراقة : مركب . ٥ المشرعة : مكان الاستقاء من النهر . ٦ طاهر : هو طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون في الفتنة بينه وبين اخيه . ٧ المعنى : ان طاهراً خاف ان يعمل الامين بذلك الرأي . ٨ فرس محجل : فرس في قوائمه بياض . ٩ فرس محذوف : فرس حذف من صنعه كل ما يعيبه. ١٠ نمى اليه خروجه : بلغه خبر خروجه .

طاهر عراة فغاصوا تحت الحراقة فانقلبت بمن فيها . فلم يكن لهرثمة شاغل الا بحشاشة نفسه، فتعلق بزورق وصعد اليه من الماء ومضى الى عسكره الى الجانب الشرقي . وشق محمد ثيابه عن نفسه وسبح فوقع نحو العراة الى عسكر قرين الديراني ، غلام طاهر . فأخذه بعض السوّاس حين شم منه رائحة المسك والطيب. فاستأذن فيه طاهراً فاتاه الاذن في الطريق ، وقد حمل الى طاهر فقتل في الطريق وهو يصيح: انا لله وانا اليه راجعون. انا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخو المأمون ، والسيوف تأخذه حتى برد[1]، واخذوا رأسه ، وكانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

وذكر احمد بن سلاّم، وقد كان مع الامين في الحراقة حين اصيب ، فسبح فقبض عليه بعض اصحاب طاهر واراد قتله فارغبه في عشرة آلاف درهم ، وانه يحملها اليه في صبيحة تلك الليلة ، قال : فأدخلت بيتاً مظلماً . فبينا انا كذلك اذ دخل علي رجل عريان عليه سراويل وعمامة متلثماً بها وعلى كتفه خرقة، فجعلوه معي وتقدموا الى من في حفظنا[2]. فلما استقر في البيت حسر العمامة عن وجهه، فاذا هو محمد ، فاستعبرت[3] واسترجعت فيما بيني وبين نفسي ، وجعل ينظر الي ، ثم قال: ايهم انت؟ قلت : انا مولاك يا سيدي. فقال : واي الموالي انت؟ قلت : احمد بن سلام. قال : واعرفك بغير هذا، كنت تأتيني بالرقة[4]. قلت: نعم . ثم قال : يا احمد. قلت: لبيك يا سيدي . قال : ادن مني وضمني اليك فاني اجد وحشة شديدة . قال : فضممته الي فاذا قلبه يخفق خفقاناً شديداً .

ثم قال: اخبرني عن اخي المأمون احي هو؟ قلت له: فهذا القتال عمن اذاً؟ قال: قبحهم الله! ذكروا انه مات. قلت: قبح الله وزراءك فهم اوردوك هذا المورد. فقال لي: يا احمد ليس هذا موضع عتاب فلا تقل في وزرائي الا خيراً فما لهم ذنب، ولست باول من طلب امراً فلم يقدر عليه. قلت: البس ازارك هذا وارم بهذه الخرقة التي عليك. فقال : يا احمد من كان حاله مثل حالي فهذه له كثير. ثم قال لي : يا احمد ما اشك انهم سيحملونني الى اخي، افترى اخي قاتلي؟ قلت: كلا، ان الرحم[5] ستعطفه عليك. فقال لي: هيهات ! الملك عقيم لا رحم له. فقلت له: ان امان هرثمة امان اخيك. ولقنته الاستغفار وذكر الله.

فبينا نحن كذلك اذ فتح باب البيت فدخل علينا رجل عليه سلاح ، فاطلع في وجه محمد مستثبتاً له . فلما اثبته معرفةً خرج واغلق الباب واذا هو محمد الطاهري ، فعلمت ان الرجل

١ برد : مات . ٢ الى من في حفظنا : الى موكلين وكلوهم بحراستنا . ٣ استعبرت : ملأت العبرات ، اي : الدموع ، عيني . ٤ الرقة : مدينة في سوريا مما يلي العراق ، اتخذها الرشيد عاصمة ثانية للعباسيين . ٥ الرحم : القرابة .

مقتول،وقد كان بقي علي من صلاتي الوتر [١]،فخفت ان اقتل معه ولم اوتر. فقمت لاوتر فقال لي:يا احمد لا تبعد مني وصلّ بقربي فاني اجد وحشة شديدة . فدنوت منه فقلّ ما لبثنا حتى سمعنا حركة الخيل ودق باب الدار ، ففُتح الباب فـاذا قوم من العجم بايديهم السيوف مصلتة [٢]، فلما أحس بهم محمد قام قائماً وقال : انا لله وانا اليه راجعون . ذهبت والله نفسي في سبيل الله.أما من حيلة ، اما من مغيث؟وجاؤوا حتى قاموا على باب البيت الذي نحن فيه وجعل بعضهم يقول: تقدم،ويدفع بعضهم بعضاً . فأخذ محمد بيده وسادة وجعل يقول: انا ابن عم رسول الله،انا ابن هارون الرشيد، انا اخو المأمون،الله الله في دمي . فدخل عليه رجل منهم مولى لطاهر فضربه ضربة في مقدم رأسه وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده فصاح بالفارسية:قتلني الرجل. فدخل منهم جماعة فنخسه احدهم بسيفه في خاصرته و كبوه فذبحوه من قفاه واخذوا رأسه ومضوا به الى طاهر . وقد قيل في كيفية قتله غير هذا . وقد اتينا على التنازع في ذلك في الكتاب الاوسط.

ولما وضع رأس الامين بين يدي طاهر قال:اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير، انك على كل شيء قدير.وحمل الرأس الى خراسان الى المأمون في منديل والقطن عليه والاطلية [٣]،فاسترجع المأمون وبكى واشتد تأسفه عليه . فقال له الفضل بن سهل : الحمد لله يا امير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة، فان محمداً كان يتمنى ان يراك بحيث رأيته . فأمر المأمون بنصب الرأس في صحن الدار على خشبة ، وأعطى الجند ، وأمر كل من قبض رزقه ان يلعنه . فكان الرجل يقبض ويلعن الرأس . فقبض بعض العجم عطاءه فقيل له : العن هذا الرأس . فقال : لعن الله هذا ولعن والديه ... فقيل له:لعنت امير المؤمنين . وذلك بحيث يسمعه المأمون منه . وتغافل [٤] وأمر بحطّ الرأس ... وطيّب الرأس وجعله في سفط [٥] ورده الى العراق مع جثته .

١ الوتر في الصلاة:الركعة الواحدة. ٢ سيوف مصلتة : مسلولة من اغمادها. ٣ الاطلية: جمع طلاء، ويراد به هنا المرهم. ٤ الضمير في «تغافل» عائد الى المأمون. ٥ سفط : وعاء ، واكثر ما يستعمل لحفظ الطيب.

مثال من الف ليلة وليلة

السندباد البحري والشيخ الذي اعتلى كتفيه

السندباد البحري شخصية اسطورية تمثل تاجراً مغامراً سافر سبع سفرات في طلب الرزق وكابد أشد الاهوال والمشقات، ولكن الحيلة تسعفه والحظ يخدمه فيظفر بالمال والجاه. وحكايات سفراته السبع مجموعة في كتاب الف ليلة وليلة الشهير. والحادثة التي يقصها في هذه الاسطورة وقعت له في سفرته الخامسة وقد كُسر المركب الذي سافر فيه وغرق في البحر عند جزيرة لجأ اليها السندباد.

ومعلوم ان مثل هذه الحادثة يستحيل ان تحدث لانسان في حقيقة الواقع. فهي اذاً من الخوارق الخيالية التي لا يُحصّل لها معنى الا بفهم الرمز الذي ترمز اليه. والمرجح ان الشيخ المذكور في هذه الاسطورة انما يرمز الى البشر الذين يعيشون بتسخير غيرهم، بينما يرمز السندباد الى الرجل الصابر الذكي الذي يتخلص من السخرة ببارع حيلته ... قال السندباد:

« قمت وانا مثل القتيل مما حصل لي من التعب والخوف. ولم أسمع في تلك الجزيرة صوتاً ولم أر فيها أحداً. ومشيت بين تلك الاشجار فرأيت ساقية على عين ماء جارية. وعند تلك الساقية شيخ جالس، ملتحٍ، مؤزر بازار من ورق الاشجار. فقلت في نفسي: لعلّ هذا الشيخ طلع الى هذه الجزيرة وهو من الغرقى الذين كُسر بهم المركب... ثم دنوت منه وسلمت عليه. فردّ عليّ السلام بالاشارة ولم يتكلم...

قلت له: يا شيخ، ما سبب جلوسك في هذا المكان؟ فحرّك رأسه وتأسف وأشار لي بيده، يعني: احملني على رقبتك، وانقلني من هذا المكان الى جانب الساقية الثاني.

فقلت في نفسي: أعمل مع هذا معروفاً... وتقدمت اليه وحملته على اكتافي. وجئت المكان الذي أشار اليه، وقلت له: انزل على مهل. فلم ينزل عن اكتافي. وقد لفّ رجليه على رقبتي. فنظرت الى رجليه فرأيتها مثل جلد الجاموس في السواد والخشونة. فخفت منه وأردت ان أرميه من فوق اكتافي فشدّ على رقبتي برجليه وخنقني بهما حتى اسودّت الدنيا في وجهي، وغبت عن وجودي ووقعت في الارض مغشياً عليّ مثل الميت. فرفع ساقيه وضربني على ظهري وعلى اكتافي. وأشار لي بيده ان ادخل بين الاشجار الى أطيب الفواكه!

وكنت اذا خالفته يضربني برجليه ضرباً أشد من ضرب السياط . ولم يزل يشير لي بيده الى كل مكان اراده ، وانا أمشي به اليه شبه الاسير . وهو لا ينزل عن اكتافي ليلاً ولا نهاراً . اذا اراد النوم يلف رجليه على رقبتي وينام قليلاً ، ثم يقوم فيضربني ، فأقوم به مسرعاً ، لا استطيع مخالفته من شدة ما اقاسي منه ...

ولم ازل على هذه الحال مدة من الزمان الى ان جئت به يوماً مكاناً في الجزيرة وجدت فيه يقطيناً كثيراً ، ومنه شيء كثير يابس . فأخذت واحدة كبيرة يابسة ، وفتحت رأسها وصفّيتها ، ومشيت بها الى شجرة العنب فملأتها وسددت رأسها ووضعتها في الشمس ، وتركتها مدة ايام حتى صارت خمراً صرفاً . وصرت في كل يوم اشرب منها لأستعين بها على تعبي من ذلك الشيطان المريد .

فنظرني يوماً وانا أشرب فأشار لي بيده : ما هذا ؟ فقلت له : هذا شيء يقوّي القلب ويشرح الخاطر ... ثم اني جريت به ورقصت بين الاشجار وحصلت لي نشوة من السكر فصفقت وغنيت ! فلما رآني على هذه الحالة أشار لي ان اناوله اليقطينة ليشرب منها ، فخفت منه وأعطيته اياها فشرب ما كان باقياً فيها ورماها على الارض . وقد حصل له طرب ، وغرق في السكر وارتخت جميع اعضائه ومفاصله ، وصار يتمايل فوق اكتافي ...

فلما علمت بسكره ، وانه غاب عن الوجود ، مددت يدي الى رجليه وفككتها عن رقبتي . ثم ملت به الى الارض فقعدت وألقيته عليها ... ثم اني خفت منه ان يقوم من سكره ويؤذيني فأخذت صخرة عظيمة من بين الاشجار فضربته على رأسه وهو نائم فاختلط لحمه بدمه ، فلا رحمه الله .

مثال من سيرة عنترة

موت عنترة

كان عنترة قد اصيب بسهم الاسد الرهيص ، وشعر بدنو الاجل ، لكنه خشي على قومه ان تعتدي عليهم بقية القبائل اذا شاع خبر موته. فاراد ان يوصلهم ، ويوصل عبلة ، الى مأمن قبل ان يسلم الروح . وهكذا رحل بنو عبس ، وبينهم عبلة قد ركبت الابجر جواد عنترة ، وجعلت عنترة في هودجها يستريح فيه من آلامه المبرحة ،واذا بهم يجاوزون حياً يدرك اهله ان الفارس المتزيي بزي عنترة ، ليس هو ابا الفوارس نفسه ، فيطمعون في سلب بني عبس . ولكن عنترة ازاح عنه ستر الهودج وصاح بهم صيحة انخلعت لهـا قلوبهم وولوا منهزمين . وتابع بنو عبس مسيرهم . وهنا ، فلنترك الكلام لقصة عنترة:

واما ما كان من ابي الفوارس عنتر ، فانه بعد هزيمة القوم نزل من الهودج ، وافرغ عليه سلاحه ، وتقلد سيفه واعتقل برمحه وركب جواده الابجر ، وودع عبلة وهو يتكرب[1] ويتوهج[2] ، ثم امرها ان تركب الهودج ، وقال لها : سيري بين يديّ في هذا البر الاقفر ، واعلمي يا ابنة العم ان هذا اليوم من الايام التي تُذكر ، وفيها تذكرين عنتر وتعلمين اني حميتك في حياتي ومماتي ، وها انا وراءك بسيفي وقناتي .

فعند ذلك طلعت عبلة الى هودجها،وهي تتحسر على عنترة،ودموعها على خديها منحدرة.

اما عنترة فلما شعر بدنو الاجل، وقطع من حياته الامل ، أركز[3] رمحه واستند عليه وصارت دموعه تنحدر من عينيه . ثم قال لاعمامه : سيروا اجمعين ، فعسى ان تصلوا الى حيكم سالمين ، فأنا هالك لا محالة ، فدعوا عنكم الاطالة . فقال له مالك : يا ابا الفوارس ، ابق راكباً في الهودج ونحن نبذل أرواحنا دونك ، فيا طالما حميتنا بسيفك ورمحك .

قال الراوي : فلما سمع عنترة كلام عمه مالك ، قال له : يا عم ، ان كل ما تقوله صحيح ، وما انتم الا فرسان الحرب والجلاد ، ولكن ما اسمكم عند العرب عنتر بن شداد ، فسيروا في سبيلكم عسى ان تبلغوا اوطانكم سالمين ، وتدخلوا دياركم واطلالكم آمنين ،

١ يتكرّب : يجد الكرب ، أي : الضيق . ٢ يتوهج : يتحرق ألماً . ٣ أركز ، يراد بها : ركز.

فتعلموا اني حميتكم في حياتي ومماتي ، ورددت الاعداء عنكم . فسيروا بالسلامة لا أوحش الله اوطانكم منكم !

فعندها ساروا ، وتركوا عنترة سائراً وراءهم على الاثر ، ودموعه لاجل فراق عبلة مثل المطر .

قال الراوي : هذا ما كان من هؤلاء . واما ما كان من العرب الذين هربوا عند سماع صوت عنتر ، وفروا لما رأوا وجهه الاغبر ، فان اكثرهم رجع الى الديار ، ولم يبق منهم الا اربعين فارساً مغوار[1] ، ظلوا سائرين وراء عنتر ، يقتفون خلفه الاثر ، الى ان وصلوا الى وادي الظبا . وكان قد عبر الظعن[2] فيه ، وعنترة على ظهر جواده مستند على رمحه في بعض نواحيه ، تارة يسير واخرى يقف ، الى ان وصل الى فم الوادي والمضيق ، وهو رأس الطريق . فهناك زاد الوجع عليه ، فوقف وأركز رمحه واستند عليه ، فخرجت روحه من بين جنبيه . وكانت العرب من بعيد واقفة تنظر اليه ، ولم يجسر احد ان يقدم عليه ، لانهم ظنوه في قيد الحياة ، وانه واقف يطلب قتال من قصده وأتاه .

قال الراوي : وقد طال وقوف العرب ونظرهم اليه ، وكل واحد من بعيد يرمقه بعينيه . فقال بعضهم لبعض : ويلكم ارجعوا على اعقابكم ، والا عدمتم اهلكم واحبابكم ! فقال واحد منهم : يا بني عمي ، وحق ذمة العرب ، لقد تحيرت في امر عنتر ، ولا شك انه هلك واندثر . والا فما كانت هذه الحالة حالته ، ولا هذه الوقفة وقفته ، لانه مـا هو رعديد ولا جبان ، ولا يخاف من لقاء الاقران .

وكان القوم واقفين لا يعلمون شانه ، وجواده الابجر واقفاً لا يتجاوز مكانه . وما زالوا في حيرة واندهال ، الى ان آذنت الشمس بالزوال . فقال واحد منهم : احملوا عليه واطلبوا لقاه ، فوالله لو انه في قيد الحياة لما احتمل كل هذا الاحتمال ، ولا دام على هذه الحال . وان كنتم لا تحملون عليه ولا تقدرون ان تصلوا اليه ، فقدّموا الى جواده الابجر حجرة[3] ، فاذا رآها طلبها ، فاذا كان عنتر نائماً يستفيق ، ونعلم خبره على التحقيق ، فنقدم اليه ، ونسلم عليه ، ونقول له : أتينا اليك ، وفي قصدنا ان نسلم عليك ، ونقبل يديك . وان كان ميتاً يقع عن ظهر الجواد .

فلما سمعوا مقال المقدّم عليهم رأوه عين الصواب . ثم نزل احدهم عن حجرته فأطلقها نحو الابجر فطلبته وصهلت ، والى نحوه أقبلت . فلما رآها الابجر تقدمت اليه ، طلبها ، فوقع

١ فيها هفوة نحوية ، نشير اليها على سبيل المثل . ٢ الظعن : ركب القوم الراحلين . ٣ حجرة ، يراد بها : انثى الخيل .

عنتر على الارض كأنه برج مشيد ، او اسد من حديد !

فعند ذلك ساقت الخيل اليه ، واقبلوا بجموعهم عليه ، وقد تعجبوا من امره وقالوا له : يا لك من بطل عظيم ! فقد ذدت عن قومك سالماً وعديم ١ ، ورددت عنهم وانت في قيد الحياة ، وحميتهم بعد الوفاة .

ثم انهم تركوه في الفلاة بلبسه وسلاحه ، وآلة حربه وكفاحه . وارادوا مسك جواده الابجر فلم يقدروا ان يلحقوه لانه اختفى واخترق البراري والقفار، والسهول والاوعار. ولم يعد يألف واحداً من البشر ، بعد فارسه الامير عنتر !

١ عديم : يراد بها : فاقد الحياة.

مثال على المقامة

أبو الفتح الاسكندري يحيي الميت

والقطعة هذه هي القسم الاول من المقامة الموصلية لبديع الزمان الهمذاني. تأملْ فيها شخصية البطل ابي زيد وكيف يستغل سذاجة الناس في سبيل الكسب. ثم تأملْ طبيعة السجع في انشاء الهمذاني بحيث لو شئت ان تعدل في كثير من عباراته عن التقفية لترسل الكلام ارسالاً، لما أمكنك. وما عساك ان تقول في موضع قوله: «وُدفعنا الى دار قد مات صاحبها، وقامت نوادبها.» او قوله: «شاع الخبر وانتشر، بان الميت قد نُشر.» الخ ...

قال الهمذاني:

حدثنا عيسى بن هشام [١] قال: لما قفلنا [٢] من الموصل. وهممنا بالمنزل. ومُلكت علينا القافلة [٣]. وأخذ منا الرحل والراحلة [٤]. جرت بي الحشاشة [٥] الى بعض قراهـا ومعي الاسكندري ابو الفتح [٦]. فقلت: أين نحنُ من الحيلةِ؟ فقـال: يكفي الله!

ودُفعنا الى دارٍ قد مات صاحبها. وقامت نوادبها [٧]. واحتفلت بقوم قد كوى الجزع قلوبهم. وشققتِ الفجيعة جيوبهم [٨]. وبنساء قـد نشرن شعورهنّ. يضربن صدورهنّ. وجددن عقودهنّ [٩]. يلطمن خدودهنّ. فقال الاسكندري: لنا في هذا السواد نخلة [١٠]. وفي هذا القطيع سخلة [١١]. ودخل الدار ينظر الى الميتِ وقد شدتْ عصابته لينقل. وسُخّن ماؤه ليغسلَ. وهيّء تابوته ليحمل. وخيطت أثوابه ليكفن. وحفرت حفرته ليـدفن. فلما رآهُ الاسكندري أخذ حلقه. فجسّ عرقه. فقـالِ: يا قومُ! اتقوا الله، لا تدفنوه،

١ عيسى بن هشام: اسم شخص اخترعه الهمذاني كاتب المقامة، وجعله راوية لمقاماته. ٢ قفلنا: رجعنا. ٣ ملكت علينا القافلة: اخذت منا القافلة، اخذها قطاع الطرق. ٤ الرحل: مـا يوضع على ظهر الدابة للركوب او لوضع الحمل فوقه، وهو اشبه بما تسميه اليوم الجل. الراحلة: الناقة او الدابة التي يرحل عليها. ٥ جرت بي الحشاشة: مالت بي النفس. ٦ ابو الفتح الاسكندري: اسم شخص اخترعه الهمذاني ونسب اليه حوادث المغامرة في مقاماته. ٧ النوادب: جمع نادبة، وهي المرأة التي تبكي في المآتم. ٨ شقت الفجيعة جيوبهم: حملتهم المصيبة على تمزيق ثيابهم حزناً. ٩ جددن عقودهن: قطعنها. ١٠ لنا في هذا السواد نخلة: لنا في هذا البستان شجرة نخل ... اراد ان يقول: لنا في هذا الموضع كسب نكسبه. ١١ سخلة: شاة صغيرة. واراد بقوله «لنا في هذا القطيع سخلة» ان لهم هنا ايضاً غنيمة يغنمونها.

فهو حيّ وإنما عرته [١] بهتة [٢] . وعلته سكتة . وأنا أسلمه مفتوح العينين . بعد يومين . فقالوا : من أين لك ذلك ؟ فقال : إن الرجل إذا مات برد إبطه . وهذا الرجل قد لمسته فعلمتُ أنه حيّ . فجعلوا أيديهم في ابطه . فقالوا : الامرُ على ما ذكر . فافعلوا كما أمر .

وقام الاسكندري إلى الميت . فنزع ثيابه ثم شد له العمائم . وعلق عليه تمائم [٣] . وألعقه الزيت . واخلى له البيت . وقال دعوه . ولا تردعوه . وإن سمعتم له أنيناً فلا تجيبوه . وخرج من عنده ، وقد شاع الخبر وانتشر . بأن الميت قد نُشر [٤] . وأخذتنا المبار [٥] من كل دار . وانثالت [٦] علينا الهدايا من كل جار . حتى ورم كيسنا [٧] فضة وتبراً [٨] . وامتلأ رحلنا أقطاً [٩] وتمراً . وجهدنا أن ننتهز فرصة في الهرب فلم نجدها حتى حلّ الاجل المضروب . واستُنجز الوعد المكذوب [١٠] . فقال الاسكندري : هل سمعتم لهذا العليل رِكزاً [١١] ؟ أو رأيتم منه رمزاً ؟ فقالوا : لا . فقال : إن لم يكن صوّت [١٢] مذ فارقته . فلم يجئ بعد وقته . دعوه الى غد فانكم إذا سمعتم صوته . أمنتم موته . ثم عرّفوني لأحتال في علاجه . وإصلاح ما فسد من مزاجه . فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غد . قال : لا .

فلما ابتسم ثغر الصبح وانتشر جناح الضو . في أفق الجو . جاءه الرجال أفواجاً . والنساء أزواجاً . وقالوا : نحب أن تشفي العليل . وتدع القال والقيل . فقال الاسكندري : قوموا بنا اليه . ثم حدّر التمائم عن يده . وحل العمائم عن جسده . وقال : أنيموه على وجهه فأنيم . ثم قال : أقيموه على رجليه فأقيم . ثم قال : خلّوا عن يديه . فسقط راسياً [١٣] . وطنّ الاسكندري بفيه . وقال : هو ميت كيف أحييه ؟ فأخذه الجُفّ [١٤] . وملكته الأكف [١٥] . وصار إذا رُفعت عنه يد وقعت عليه أخرى . ثم تشاغلوا بتجهيز الميت فانسللنا هاربين ...

١ عرته : اصابته . ٢ بهتة : جمود . ٣ تمائم : جمع تميمه ، وهي شيء يعلقونه على المريض وغيره لاعتقادهم انه يقيه الضرر . ٤ نشر الميت : بعث حياً . ٥ المبار : جمع مبرة ، وهي عطية اهل الاحسان . ٦ انثالت : تتابعت . ٧ ورم كيسنا : انتفخ كيسنا من كثرة ما وضعنا فيه . ٨ تبراً : ذهباً . ٩ اقطاً : لبناً . ١٠ واستنجز الوعد المكذوب : طلب منا الوفاء بالوعد . ١١ ركزاً : صوتاً خفيفاً . ١٢ صوّت : اطلق صوتاً . ١٣ راسياً : ثابتاً لا حراك به . ١٤ الجف : الجمهور . والمقصود هنا ان الجمهور اخذوا يضربونه . ١٥ ملكته الاكف : تحكمت فيه الاكف صفعاً .

مثال من نقد عبد القاهر الجرجاني

بيت المتنبي : «لا يسلم الشرف الرفيع ...»

لَا يَسْلَمُ ٱلشَّرَفُ ٱلرَّفِيعُ مِنَ ٱلأَذَى   حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ ٱلدَّمُ

معنى معقول ، لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الاخذ بسنّته . وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الاحكام الشرعية والسنن النبوية . وبه استقام لاهل الدين دينهم، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم ، إذ كان موضوع الجبلة[1] على ألا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والغواة المعاندين، الذين لا يعون الحكمة فتردعهم، ولا يتصورون الرشد فيكفّهم النصح ويمنعهم ، ولا يحسّون بنقائص الغي والضلال ، وما في الجور والظلم من الضعة والخبال[2]، فيجدوا لذلك مسّ ألم يحبسهم على الامر ، ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجعهم الا ما يخرّق الابشار[3] من حدّ الحديد وسطو البأس الشديد . فلو لم تطبع لامثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الحتوف ، لما استقام دين ولا دنيا ، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتب العليا ، فلا يطيب الشرب من منهل لم تنفَ عنه الاقذاء ، ولا تقرّ الروح في بدن لم تدفع عنه الادواء[4] .

انشاء ادبي

المقامة قصة . فهل ترى ان هذا التعريف ينطبق على مقامة الهمذاني ؟ وكيف ؟ اكتب انشاءً في هذا الموضوع ، تجيب فيه عن الاسئلة الآتية : ما نوع النثر الذي يستعمله الهمذاني في مقامته ؟ ما الصفة التي يصح ان ينعت بها بطل المقامة : ابو الفتح الاسكندري ؟ اي مشهد في المقامة ترى ان الهمذاني وفق في وصفه احسن توفيق ؟

١ الجبلة : الخلقة . ٢ الخبال : الفساد ، اضطراب العقل . ٣ الابشار : الجلود . ٤ الادواء : الامراض .

الشاعر العصيّ الدمع

أبو فراس الحمداني

طفل يتيم وامه . — هي الموصل . وهو يوم من ايام السنة ٣٣٣ ﻫ (٩٢٩ م) . في ذلك اليوم، أقبل انسان ممتقع الوجه، منقبض الصدر ، يحمل الى سيدة من زوجات امراء الحمدانيين نبأ مشؤوماً ، ان زوجها ابا العلاء ، سعيد بن حمدان ، قد لقي مصرعه — قتله غيلة ابن اخيه ناصر الدولة لانه خشي ان ينازعه الامارة على الموصل .

يا للملك ! ان رحمه عقيم .

وذرفت المرأة دموعاً حراراً ، ولكن ما عسى ان تجدي الدموع ؟ فليكن للارملة اذن عزاء في بنيها ، ولاسيما هذا الصبي الذي دفعت به الى الدنيا منذ سنتين او ثلاث، ولتقسم ان لا تتزوج ، ولتعقد نيتها على ان تصرف حبها وحنانها كله الى هذا الصبي الذي يؤنس من وحشتها ويلطف من حرقتها ببسماته . وان لهذا اليتيم لابن عم جديراً ان يحوطه بالرعاية ، ذلك هو سيف الدولة وقد احتل حلب وجعل منها قاعدة لامارته .

سيف الدولة يحضنه ويثقفه . — وكان سيف الدولة حقاً شديد الحفاوة بهذا اليتيم الصغير، عظيم الرقة والحدب عليه، لا لمحض انه يتيم، ولا لمحض انه وثيق القرابة به، بل لان سيف الدولة كان يشيد دولة يحتاج فيها الى الرجال ، دولة تمسك على العرب كرامتهم في هذا المحيط المائج المضطرب الذي آلت اليه الامبراطورية العباسية المندفعة في طريق الانحلال . فاولئك الاخشيديون قد انفردوا بمصر وشطر من سوريا مع ما فيه دمشق . وهؤلاء البيزنطيون ما برحوا يتطلعون من القسطنطينية والاناضول الى سوريا يريدون استرجاعها . وهؤلاء هم الاعراب يتململون في بواديهم ، وينتهزون الفرص للانقضاض على الحواضر . وهـا بعض الجماهير تتحرك بمذاهب اجتماعية دينية كالاسماعيلية .

حقاً انه لمحيط مائج مضطرب بالاجناس البشرية، والمطامع السياسية، والنزعات الفكرية، والعصبيات الدينية ، والفروق الاجتماعية . ولن يكون سهلاً على سيف الدولة ان ينشىء هذه الدولة العربية ، ويسيّر سفينتها بسلامة في عباب هذا المحيط وغمرته . ولئن كان في

ابو فراس الحمداني يجرح ويؤسر



حاجة الى اشياء كثيرة ، فهو في حاجة الى الرجال قبل كل شيء ، فبالرجال يسوس النظام ، ويقمع الفتن ، ويحارب الاعداء . وبالرجال يزيد في ثروة هذا التراث العلمي والادبي الذي ما ازدهرت بدونه دولة ، ولا ثبت لها ذكر على عواصف التاريخ .

وهذا الصبي اليتيم في السنتين او الثلاث من عمره حريّ ، اذا هو رعاه وأحسن تربيته ، ان يكون رجلاً فذاً من رجال الدولة . لقد سُمي الحارث ، ولُقب بأبي فراس ، وكلاهما من الالفاظ الدالة على الاسد . ولمَ لا يكون أسداً في خدمة هذه الدولة بكل ما تهيء له مواهبه وبكل ما تقضي به الواجبات ؟ وعلى هذا تسلمه ابن عمه فكان له بمثابة الاب الا انه لم يلده . وفي ذلك يقول ابو فراس عن نفسه :

فَمِنْ سَعيدِ بْنِ حَمْدَانٍ وِلَادَتُهُ وَمِنْ عَلِيِّ بْنِ عبدِ ٱللهِ سَاثِرُهُ !

ثقّفه سيف الدولة في علوم عصره وفنونه ثقافة واسعة متينة . أمر بتعليمه اللغة وآدابها ، والتاريخ ولاسيما اخبار الحمدانيين منذ ان كانوا ، عصرَ الجاهلية ، في قبيلة تغلب بالبحرين ، الى ان نزلوا مشارف الشام وشاركوا العرب المسلمين فتوحهم وانتهى بهم الامر الى تأسيس دولتيهم بالموصل وحلب . ثم ألحقه سيف الدولة بجيشه فأذكى فيه روح الفروسية والشجاعة ولقّنه اساليب القتال . فشبّ ابو فراس فتى يرضي الآمال التي عقدت عليه من معرفة بالحرب ، وقيادة للجيوش ، وحذق في اللغة والادب ، ووفاء وكرم في الاخلاق . وكان طبيعياً في عصره ان يضيف الى ذلك كله شعور زهو عميق بعشيرته الحمدانية ومناقبها .

على ان نبوغه شاعراً كبيراً جاء ميزة فوق ميزاته الاخرى ، جعلته درة نفيسة لا في تاريخ الحمدانيين وحدهم ، بل كذلك في تاريخ اللغة العربية وأدبها .

وتزوج سيف الدولة اخته فتوثقت اواصر القرابة بينه وبين بيت ابن عمه ، وقد أصبح بيتاً له . فنشأ في ظله ، وفي ظل هذه الام التي فرغت له بجميع قلبها وجميع عنايتها ، فأحبته بما ندر ان تحب ام ولدها ، وتعلقها بما ندر ان يتعلق ولد امه . وكانت هذه العاطفة بينهما من أغزر الينابيع التي تفجر منها شعر أبي فراس في اسره .

صورة من ابي فراس . — فتى فارس شجاع القلب مزهو النفس بمنبته الحمداني ، جرّاه القريحة بالشعر ، رغيب في لهو الحياة رغبته في جدها ، يشرب ويعشق ويرتاض بالصيد ، هذا هو ابو فراس على ما نتصوّره في مطلع شبابه في حلب او في بلدة منبج حيث استقرت امه .

رجل من رجال الدولة تملأ الحروب حياته . — وما ندري في أي يوم تولى ، لأول مرة ، وظيفة مدنية من وظائف الدولة ، او وظيفة عسكرية في جيشها . لكننا نعلم انه على عتبة العشرين

ربيعاً خرج مع ابن عمه في حملة الى ارض الروم ، وشارك في فتح بعض هذه القلاع التي بناها الروم في تخوم مملكتهم لمقابلة القلاع التي بناها سيف الدولة عدة للهجوم والدفاع . وكذلك نعلم ان ابا فراس أشرف بنفسه على بناء بعض هذه القلاع كقلعة رعبان بين حلب وسميساط على الفرات .

أفكانت تلك الحملة ، في عتبة العشرين من عمره ، فاتحة خوضه هذه المعامع والمعارك التي كثرت بين الدولة الحمدانية والبيزنطيين والاخشيديين والمتمردين من البدو والاعراب ؟ حسبنا ان نعلم ان الحرب أوشكت ان تملأ على ابي فراس تلك السنين السبع والثلاثين التي كانت عمره القصير :

فَلا تَصِفَنَّ ٱلْحَرْبَ عِنْدي، فَإِنَّهَا طَعامِيَ ، مُذْ ذُقْتُ ٱلصِّبى ، وَشَرابي
وَقد عَرفتُ وَقْعَ ٱلْمَسامِيرِ مُهْجَتي وَشُقِّقَ عَنْ زُرْقِ ٱلنُّصُولِ إهَابي [1]
وَلَجَجْتُ في حُلو الزَّمانِ وَمُرِّهِ ، وأَنفقتُ من عمري بغيرِ حِسَابِ [2]

فأما الوظائف المدنية — وكانت الى ذلك عسكرية — فنعلم انه ولي منها بلدة منبج وملحقاتها .

ابرز حوادث حياته : اسره. — ولكن ابرز حوادث حياته كانت وقوعه في الاسر بين ايدي الروم . اسر سنة ٣٤٨ ﻫ (٩٥٩ م)، وقيل : في موضع يدعى مغارة الكحل، وحمل الى قلعة خرشنة في حدود الروم على الفرات . ويزعم بعض الرواة انه سرعان ما فرّ من هذا الاسر بان ركب جواده فقفز به من اعلى القلعة الى النهر . غير انها رواية ان دلت على شيء ، فعلى ما كان يعتقده الناس في ابي فراس من شدة اقدام وجرأة جنان . وسواء أنجا من خرشنة ام لم ينجُ على الوجه الذي وصفه لنا الرواة ، فاننا ما نلبث ان نراه اسيراً في القسطنطينية . ذلك ان الروم كانوا قد انقلبوا منذ سنة ٣٤٦ ﻫ الى هجوم واسع عنيف على الدولة الحمدانية ، فاستولوا على قلعة الحدث الحمراء وسميساط ورعبان ، التي اشرف على بنائها ابو فراس ، واستمر هجومهم ، لا ينحسر موجه الا قليلاً ، حتى تمكنوا سنة ٣٥١ ﻫ من دخول حلب نفسها . وكثر لديهم الاسرى وبينهم ابو فراس . اخذوه في معركة وقد اصابه نصل في فخذه . واكبر الظن انه كان يقاتل دفاعاً عن منبج وليس معه من اصحابه

١ المسامير : يراد بها الأسنة الحادة من الرماح والنبال . مهجتي : نفسي . النصول : جمع نصل، وهي كل حد قاطع . ٢ لججت : خضت اللجة وغصت عميقاً .

الا عدد يسير يقابل به العدو الكثير . ولقد حارب حرب الفرسان الابطال ، ولكن السهم اوقعه عن جواده وشتت نظام جنده ، والقاه جريحاً في ساحة المعركة تحت رحمة العدو .

ويوم انشد ابو فراس :

وَقالَ أُصيحابي: الفِرارُ أو الرَّدى! فقلتُ : هما أمْرانِ أحلاهُما مُرُّ!

فالى هذه المعركة اوما ، والى التفاوت العظيم بين قواه وقوى العــدو ، والى المأزق الحرج الذي زج فيه .

وهكذا حُمل الى القسطنطينية جريحاً قد ثقل عليه الجرح ، ومتعباً قد اشتد عليه التعب. فعالجه الروم حتى برىء ووجد الراحة . والامبراطور البيزنطي يطمع في ان يقبض فدية هذا الامير مالاً وفيراً ، او هو يطمع في ان يستميله اليه ويحرّك فيه طموحاً الى تولي امارة الحمدانيين ، فيحارب به ابن عمه .

ومن هنــا نستطيع ان نفهم السبب السياسي الذي من اجله عامل الامبراطور البيزنطي اسيره معاملة خاصة . فقد انزله في وقتٍ ، داراً على حدة ، وألحق به الخدم ، واذن لسائر الاسرى ان يزوروه ، واوجب على اكابر دولته ان يقابلوه بالتحية والتعظيم . ثم بلغ به التساهل ان عرض عليه اطلاقه من الاسر بمفرده على ان يدفع الفداء فيما بعد .

غير ان ابا فراس لم يغترّ بشيء من ذلك . ابى الا ان يوسع لابن عمه سبيلاً فيدفع عنه الفداء قبل ترك القسطنطينية . وابى ان يترك عاصمة الروم الا وفي صحبته بقية الاسرى من جنود بني حمدان . وهذا ما يفسر لنا ما كان يلقاه ابو فراس من تضييق الروم احياناً ومن حرص بعضهم على اهانته وسحق نفسه . وبين هؤلاء قائد رومي قال يوماً للامير الاسير : « انما انتم كتّاب ولا تعرفون الحرب . » فاجابه ابو فراس : « نحن نطأ ارضك منذ ستين سنة ، بالسيوف ام بالاقلام ؟ » وفي وصف تضييق الروم عليه يقول ابو فراس مخاطباً سيف الدولة :

يَا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُهَا وَنَحْنُ في صَخْرَةٍ نُزَلْزِلُهَا؟

وهو بيت يحتمل معناه ان الروم كانوا يرهقونهم بالاعمــال الشاقة كنقل الحجارة وتكسيرها ...

ابطاء سيف الدولة في دفع الفداء.—ولكن سيف الدولة ابطأ في بذل الفداء. وألح الاسير في طلبه لنفسه ولرفاقه . وكثيرة هي القصائد والكتب التي ارسلها في هذا الموضوع الى ابن عمه ، او الى اخوانه يسأل شفاعتهم . وفي يومٍ قدمت امه « العجوز بمنبج » من بلدها الى

حلب ، فدخلت على سيف الدولة تسأله تعجيل الفداء . الا ان الامير الحمداني لبث على ابطائه . ويقدّر بعضهم انه انما صنع ذلك حرصاً على تنحية ابي فراس لخوفه منه ان يزاحم ولي عهده على الامارة. غير ان الواقع ان الدولة الحمدانية كانت عهدئذ تلزم جانب التقهقر او جانب الدفاع عن نفسها امام زحف الروم . فانهم دخلوا حلب، على ما ذكرنا، سنة ٣٥١هـ. ولولا ان مات الامبراطور البيزنطي رومان الثاني، لصعب ان يرأب الحمدانيون صدعهم ، ويستأنفوا النضال بعد فترة قصيرة . كل هذا يدلنا على ان اسرى الحمدانيين لدى الروم كانوا كثيراً ، ولم يكن لدى سيف الدولة اسرى يستبدلهم منهم . فأما المال فكان ضرورياً لمتابعة الحرب .

حتى كانت السنة ٣٥٥هـ (٩٦٦ م) . وكان قد اجتمع لدى سيف الدولة عدد من اسرى البيزنطيين ، فتم التبادل بينه وبين القسطنطينية . وزاد سيف الدولة بان بذل خمسمائة الف دينار في شراء من لم يكن عنده اسرى في مقابلهم . ثم وزع أموالاً على اولئك المنكوبين واضطر في سبيل ذلك ان يبيع ما يقتنيه من جواهر خاصة .

اثر الاسر في شعره. — تلك السنوات السبع التي قضاها ابو فراس في الاسر كانت اروع ايام عمره خصب قريحة وجودة شعر . ذلك انها فجرت في جوانب نفسه اغزر الينابيع من حنين الى الأم ، وشوق الى الوطن ، والم لابطاء ابن عمه عن افتدائه . وتُعرف قصائده التي نظمها في هذه المدة بـ «**الروميات**» .

رجوعه الى حلب ومقتله. — ويوم رجع الامير من اسره الى حلب ، كان في حدود الخامسة والثلاثين من عمره . كان تواقاً الى ملعب صباه ومدرج شبابه ومطاف احلامه. فاما «العجوز بمنبج» ، امه التي اولع بها واولعت به ، فقد كان التراب طواها ، وقد كان الاسير بكاها ورثاها . وتصوّرَ في رثائه لها شدة الحرقة في تلك الساعة التي ينطلق فيها من الاسر فلا تكون بمنبج عجوزه تتلقى من البشير نبأ البشرى فتغشى عينيها دموع الفرح وتعلم انها لم تنتظر عبثاً ! (انظر رثاء ابي فراس لامه في الصفحة : ١٣١) .

ولكن يا للقسوة ! فكأن ابا فراس لم ينعتق من الاسر ، وقد فقد أعزّ مخلوق عليه ، الا ليفقد مخلوقاً آخر عزيزاً غالياً ، ذلك هو ابن عمه سيف الدولة ، أدركته منيته سنة ٣٥٦هـ ، فمشى اسير الامس في جنازته كالماشي في جنازة ابيه، وشارك الناس في توسيد الامير الحمداني تلك المخدة التي جمعها من غبار وقائعه وأوصى بان يراح عليها رأسه في الضجعة الاخيرة .

ثم ماذا ؟

دبت عقارب الخلاف بينه وبين ابي المعالي (ابن سيف الدولة). وكان ابو المعالي قد تولى

الامارة بعد ابيه ، والدولة الحمدانية تنحدر سريعا عن أوجها الذي بلغته ايام سيف الدولة . فلقد استنزفتها الحروب وثقل عليها الضغط من الروم .

قالوا : ووقعت وحشة بين ابي فراس وابن اخته ابي المعالي . ولسنا نعلم السبب في هذه الوحشة . اكبر الظن انــه الطمع الشخصي الذي يستسر في صدور الامراء وقد أذكاه يومئذ ضعف الحمدانيين في وجه الروم . فطلب ابو فراس مدينة حمص لنفسه وتولاها واستأثر بها . فهاجمه ابن أخته ابو المعالي ، او هو وجّه اليه جنداً يقودهم فرغويه غلام سيف الدولة.فخرج ابوفراس من المدينة منحازاً الى قرية يقال لها صدد، وكأن قلبه كان دليله على مصيره في ذلك اليوم ، فأنشد ابنته عند الصباح ابياته الشهيرة :

أَبُنَيَّتِي لا تَجْزَعِي كُلُّ ٱلأَنامِ إِلى ذهابِ
نُوحي عَـلَيَّ بِحَسْرَةٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِكِ وٱلْحِجَابِ
قولي اذا نَادَيْتِـني وَعَيِيتُ عن رَدِّ الجوابِ :
زَيْنُ ٱلشَّبابِ ، أَبو فِراسٍ ، لَمْ يُمَتَّعْ بالشبابِ

وأدركه الجند الساعون في مطاردته . فقتلوه قتلة مهينة . فصلوا رأسه عن جسده . وبقيت الجثة حتى عثر بها احد الاعراب فغسلها و كفنها وواراها التراب في ظاهر حمص .

وابو فراس يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره .

ميزته الشعرية . — وهكذا هلك شاعر من أحب شعراء العربية الى النفس.وفي النقاد[١] من يجعله خاتمة الشعر فيقول: بدىء الشعر بملك (امرىء القيس) وختم بملك (ابي فراس) . وفي النقاد من يذهب الى انه شاعر نسيج وحده .

فأما ان الشعر بدىء بملك وختم بملك فكلام لا يصح ان يستوقف . واما ان ابا فراس نسيج وحده ، ففيه ما يدعو الى التأمل .

وبالطبع ليس ابو فراس نسيج وحده في اثر شعري اخترعه من لفظ او وزن او معنى او فن جديد . ولكنه نسيج وحده في انه قال القصيد غير مدفوع الى الكسب ، قاله شعراً غنائياً صرفاً ، في اغراض نفسه وملابسات حياته . قاله لا لشيء الا لانه كان في حاجة الى القول كالمصدور لا بد له من ان ينفث . وقد كان يُنتظر منه وهو الفارس ، الخوّاض

١ هو ابو منصور الثعالبي صاحب « يتيمة الدهر » .

الحرب ، ان يصور المعارك فيجيد تصويرها شأنه شأن معاصره وخصمه المتنبي . ولكنه لم يفعل ... كان المتنبي أقوى نفساً وأروع صورة وأسيَرَ حكمة وأشد دوياً في موسيقاه . وكان ابو فراس أعذب روحاً وأشجى وأرق لحناً . افتخر ولكن ليس في فخره صلف المتنبي . وعاتب فكان رقيقاً حيناً وقاسياً حيناً ، محافظاً ابداً على رجولة لا تعرف الجلافة ولا الذل ، مدفوعاً ابداً بألم لا يعرف التحجر ولا التميع ... وما دارت الأم على لسان شاعر عربي بأعذب مما دارت على لسان ابي فراس !

وبعد ، فأبو فراس يوشك ان يكون شاعر النداء والاستفهام في العربية ، الى اكثار من الطباق لا يقل عن اكثار الشاعر أبي تمام . والطباق ، كما قلنا ، هو الجمع بين المتضادات في اوضاع الحياة الاجتماعية والطبيعية . وما أشد ما عرف ابو فراس من متضادات في حياته . كان شجاعاً كريماً يبذل دمه في خدمة قومه ، وفي وقتٍ (نعني ايام اسره) لاح له ان ابن عمه يبخل عليه بمال يبذله في فدائه. وكان وفياً غيوراً على الاخوان والخلان، فبدا له في وقتٍ (نعني أيام اسره) ان اخوانه وخلانه أهملوه وعقّوه . وكان في مدة من اسره يلبس الخشن من الثياب ويعاني الضيق والشحوب بينما ابن عمه في حلب يسكن الديار الواسعة ويلبس الحرير ويستمتع بحريته .

فكيف يكون ذلك ؟ وعلامَ ؟

ومن هنا كان ابو فراس لا ينفك ينادي ويستفهم . ينادي الحمامة اذا سمع هديلها فيستفهم عن سرّ شجنها وكآبتها وهي الطليقـــة المرفرفة بجناحيها وهو الاسير المكبّل الذي يربأ بدمعه الغالي ان يبتذل :

ولٰكنْ دمعي في الحوادِث غال [1]

شد ما وقع أبو فراس في حيرة تلقاء هذه المتضادات في الحياة :

« يضحك مأسور ، وتبكي طليقة » ، و « يفرح محزون ، ويندب سال » ، و « بوسع الدار امير ، وجنوده في الاسر يزلزلون الصخر » الخ ... يخيل لنا ان أقوى معضلة شابكها شاعرنا انما هي هذه الحيرة تلقاء المتضادات . وانّا لنتصوّره ابداً مفتّحَ العينين دهشة امام هذا الواقع الذي لا يحب ولا يعقل . فهو لا يفتأ ينادي متحسراً ، ملحاً في ندائه ، مستفهماً حيناً في عتاب إنكاريّ واخز ناعم ، وحيناً في عتاب توبيخي يجرح ويدمي ...

(انظر في المنتخبات التي تلي قصيدة ابي فراس ، اللامية الشهيرة ، في عتاب ابن عمه) .

[1] انظر نص القصيدة . في الصفحتين : ١٣٠ و ١٣١ .

منتخبات

هذه القصيدة هي في مقدمة روميات ابي فراس جودةً وحرارةَ عاطفة. نظمها أسيراً بقلعة خرشنة، كما يدل قوله فيها بلسان امه:

يا من رأى لي بحصن خرشنةٍ   اسد شرى في القيود أرجلها

وكانت امه قد قصدت سيف الدولة تسأله بذل الفداء لابنها فردها خائبة. فكان وقع النبأ عظيماً في نفس ابي فراس لانه ادرك اي ألم نهش قلب امه ساعة رفض سيف الدولة سؤلها. وهكذا استهل قصيدته بوصف امه الوالهة ومناجاتها وتعزيتها. قال:

يَا حَسْرَةً مَا أَكادُ أَحْمِلُهَا   آخِرُها مُزْعِجٌ وَأَوَّلُها
عَليلَةٌ بالشَّامِ مفرَدَةٌ   باتَ بأيدي العِدى مُعَلِّلُهَا [١]
تُمسِكُ أحشاءَها على حُرَقٍ   تُطفِئُها، وَالهمومُ تُشعِلُها [٢]
إذا اطمأنَّتْ ـ وأَيْنَ؟ ـ او هَدَأَتْ   عنَّت لها ذِكْرَةٌ تُقَلْقِلُها [٣]
تَسْأَلُ عَنَّا الرُّكْبانَ جاهِدَةً   بِأَدْمُعٍ مَا تَكادُ تُمْهِلُها: [٤]
«يَا مَنْ رَأى لي بِحِصْنِ خَرْشَنَةٍ   أُسْدَ شَرًى في القيودِ أَرْجُلُها؟» [٥]
«يا مَنْ رَأَى لي الدروبَ شامِخَةً   دُونَ لِقاءِ الحبيبِ أَطْوَلُها؟»
«يا من رأى لي القُيودَ مُوثَقَةً   على حَبيبِ الفُؤادِ أَثْقَلُها؟»
يا أيُّها الرَّاكِبانِ! هلْ لَكُما   في حَمْلِ نَجْوَى يَخِفُّ مَحْمِلُها؟ [٦]

١ عليلة: مريضة، والمراد: امه العجوز. معللها: مسليها، معزيها عن الهموم. ٢ حرق: جمع حرقة، وهي الحسرة والالم في النفس. ٣ قوله: وأين، استفهام معترض، يعني به ان الشيء مستبعد الوقوع. ذكرة: ذكرى. تقلقلها: تضطرب لها وتحزن. ٤ بأدمع ما تكاد تمهلها: بأدمع تلح عليها فلا تترك لها فسحة من وقت. ٥ خرشنة: هي المدينة التي حبس ابو فراس في قلعتها في الاناضول قبل ان يحبس في القسطنطينية. الشرى: موضع بالجزيرة العربية تكثر فيه الاسود. ٦ النجوى: الحديث الرقيق. محملها: حملها.

قولا لها ، إنْ وَعَتْ كلامَكُما ، وإنَّ ذِكْري لها لَيُذهِلُها : [1]
«يا أُمَّنا ، هذهِ منازِلُنا نَترُكُها تارةً ونَنزِلُها !»
«يا أُمَّنا ، هذه مواردُنا نَعُلُّها تارةً ونَنهَلُها» [2]
«أَسلَمَنا قومُنا إلى نُوَبٍ أَيسَرُها في القُلوبِ أَقتَلُها» [3]
«واستَبدَلوا بَعدَنا رِجالَ وَغىً يَوَدُّ أَدنى عُلايَ أَمثَلُها» [4]

ثم انتقل الى مخاطبة سيف الدولة ومعاتبته ذلك العتاب الرجولي الرائع الذي لم يخرج فيه ابو فراس الى حدود الغلظة ولا لان حتى ذل ، طلب حقاً وجب له ولم يخش ان يوبخ ابن عمه ، قبل ان يعمد في آخر القصيدة الى مدحه واستثارة مروءته ، قال :

يا سَيِّداً ، لا تُعَدُّ مَكرُمَةٌ إلا وفي راحَتَيكَ أَكمَلُها : [5]
لَيسَتْ تَنالُ القيودُ من قَدَمي وفي اتِّباعي رِضاكَ أَحمَلُها
أَنتَ سَماءٌ ونَحنُ أَنجُمُها ! أَنتَ بلادٌ ونحنُ أَجبُلُها [6]
أَنت سحابٌ ونحن وابلُه ، أَنت يمينٌ ونحن أَنمُلُها [7]
جاءَتكَ تَمتاحُ رَدَّ واحِدِها يَنتَظِرُ النَّاسُ كَيفَ تُقفِلُها [8]
بأيِّ عُذرٍ رَدَدتَ والِهَةً عليكَ ، دُونَ الوَرى ، مُعَوَّلُها ؟ [9]
سمحتُ مِني بِمُهجَةٍ كَرُمَتْ أَنتَ ، على يَأسِها ، مُؤَمَّلُها [10]
إنْ كُنتَ لم تَبذُلِ الفِداءَ لها ، فلم أَزَلْ في رِضاكَ أَبذُلُها [11]

١ ان وعت كلامكما : ان سمعت كلامكما وفهمته . يذهلها : يفقدها الوعي . ٢ نعلها : نشربها شرباً مقطعاً . ننهلها : نشربها شرباً مستمراً . ٣ نوب : مصائب . ايسرها : اخفها . أقتلها : صيغة تفضيل من قتل . ٤ امثلها : افضلها . يقول : ان هؤلاء الرجال الذين اصطنعوهم بعدنا يود افضلهم لو كان له اقل شيء من مجدي . ٥ راحتيك: يديك. والمراد بالسيد ، هنا ، سيف الدولة . اكملها: اتمها. ٦ اجبل: جمع جبل . ٧ وابله : غيثه ، مطره . انملها : اصابعها . ٨ تمتاح : تسأل . تقفلها : تردها . ٩ والهة : حزينة ، متلهفة ، والمراد : امه . دون الورى : من بين الخلق كلهم . عليك معولها : عليك اعتمادها ، وفيك املها . ١٠ مهجة : نفس . كرمت : شرفت . على يأسها : برغم يأسها . مؤملها : موضع املها . ١١ الضمير في قوله : لها ، عائد الى : مهجة ، في البيت السابق .

تلكَ ٱلمودّاتُ كيفَ تُهمِلُها ؟ تلكَ ٱلمواعيدُ كيفَ تُغفِلُها ؟
أرحامُنا منكَ ، لِمْ تُقَطِّعُها ؟ ولم نزلْ دائماً نُوَصِّلُها ! [1]
يا واسعَ الدّارِ كيفَ تُوسِعُها ونحنُ في صخرةٍ نُزَلْزِلُها ؟
يا ناعم الثوب كيف تُبدِلُهُ ؟ ثيابُنا الصّوفُ ما نُبَدِّلُها !
يا راكبَ الخيلِ لو بَصُرْتَ بنا نَحمِلُ أقيادَنا وَننقُلُها
رأيتَ في الضُّرِّ أوْجُهاً كَرُمَتْ فارقَ فيها الجمالَ أجملُها ! [2]
قدْ أثّرَ ٱلدّهرُ في محاسِنِها تعرفُها تارَةً وَتجهَلُها
لم يبقَ في الأرضِ أمّةٌ عُرِفَتْ إلا وفضلُ الأميرِ يَشمَلُها
نحنُ أحقُّ الورى برأفتِهِ فأينَ عنّا ؟ وكيفَ مَعدِلُها ؟ [3]
يا مُنفِقَ المالِ لا يُريدُ بِهِ إلا ٱلمَعالي التي يُؤثِّلُها [4]
أصبحتَ تشري مَكارِماً فُضُلاً ، فِداؤُنا ، قد علمتَ ، أفضَلُها [5]

حاشية : بحر هذه القصيدة .

نظم ابو فراس لاميته هذه على **المنسرح**، ووزنه التام :

مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولاتُ مُفْتَعِلُنْ مستفعلن مفعولاتُ مفتعلن

يجوز في مستفعلن حذف سكونها الاول، فتصبح: مفاعلن. ويجوز حذف سكونها الثاني، فتصبح: مفتعلن. ويجوز بل يستحسن، في مفعولاتُ، حذف سكونها الثاني، فتصبح: مَفْعُلاتُ.

ومفتعلن الاخيرة، أي: ضرب البيت، يجوز فيها تسكين العين، فتصبح: مفعولن. واذا استعملها الشاعر، وجب عليه التزامها في القصيدة كلها.

١ ارحامنا : قرابتنا . ٢ الضر : البلاء ، النكبة . ٣ فاين عنا ، يريد : فاين ذهبت عنا رأفته . وكيف معدلها : وكيف عدلت ، اي : انصرفت عنا . ٤ يؤثلها : يثبت دعائمها ويزيدها يوماً بعد يوم . ٥ المكارم الفضل: المكارم العظيمة. يقول لسيف الدولة: انك تحرز مكارم عظيمة باعمالك، ولكن بذل الفداء هو اعظم هذه المكارم .

اختر بيتاً من قصيدة ابي فراس قطّعه على المسرح .

تمرين ١

بيّن ما في لامية ابي فراس من نداء ، او استفهام، او طباق، واذكر المعنى الذي اراده به الشاعر .

تمرين ٢

اقرأ هذا الشعر لابي فراس ، واضبط بالشكل ما ليس مضبوطاً ، واشرح ما ليس مشروحاً ، واذكر بأي غرض من اغراض الشعر الغنائي يلحق كل مقطع من هذه المقاطع، وعلى ماذا يدلك من ُخلق ابي فراس وطريقته الشعرية.

قال :

اراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... اما للهوى نهي عليك ولا أمر ؟
بلى ، انا مشتاق، وعندي لوعة ، ... ولكن مثلي لا يذاع له سر
اذا الليل اضواني بسطت يد الهوى ... واذللت دمعاً من خلائقه الكبر [١]
تكاد تضيء النار بين جوانحي ... اذا هي اذكتها الصبابة والفكر
ُمعلِّلتي بالوعد والموت دونه ... اذا مت ظمآناً فلا نزل القطر !
وقالت: لقد ازرى بك الدهر بعدنا ... فقلت : معاذ الله، بل انت والدهر !

وقال :

ان زرت خرشنة اسيرا ، ... فلقد حللت بها مغيرا
ولقد رأيت النار تنتهب المنازل والقصورا
من كان مثلي لم يبت الا اميراً او اسيرا

وقال :

يقولون لي : اقدمت في غير ُمقدَم ... وانت امرؤ ما حنكته التجارب [٢]

١ اضواني : جعلني ضاوياً، اي: ضعيفاً . ٢ مقدم : موضع اقدام وهجوم .

فقلت لهم : لو لم الاق صدورهـا تناولني بالذم منهم عصـائب [١]
تكاثر لوّامي على ما اصـابني كأن لم تنب الا بأسري النوائب [٢]
يقـولون : لم ينظر عواقب امره ومن لم يُعَنْ تجري عليه العواقب

وقال :

يجني الخليل فأستحلي جنايتـه حتى ادل على عفوي واحساني
اذا خليـليَ لم تكثر اساءته فاين موضع احساني وغفراني ؟
يجني علي واحنو دائمـاً ابداً لا شيء احسن من حان على جان!

وقال :

يمنون ان خلوا ثيابي وانمـا علي ثياب من دمـائهم حمر
وقائم سيف فيهم دق صلبـه واعقاب رمح فيهم حطم الصدر
سيذكرني قومي اذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
ونحن اناس لا توسط بيننـا لنا الصدر دون العالمـين او القبر

وقال :

ان الغني هو الغـني بنفسه ولو انه عاري المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافياً فاذا قنعت فكل شيء كاف

وقال :

ولما ثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آساداً غضابا
دعـانا والأسنة مشرعات فكنا عنـد دعوته الجوابا
ولما اشتدت الهيجاء كنـا اشد مخالبـاً وأحد نابا
وأمنع جانباً وأعز جاراً وأوفى ذمة وأقل عـابا

١ صدورها ، المراد بها : صدور خيل العدو ورماحه . ٢ لم تنب : لم تقع ، لم تحدث .

أ عصر الانحطاط

القزويني ، ابن الوردي ، ابن بطوطه

كانت الخلافة العباسية قد انقضى عليها دور نزع طويل حين دخل هولاكو التتاري بغداد سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ ه) . فالواقع ان الخلفاء العباسيين ، منذ مقتل المتوكل بسيوف جنوده الاتراك سنة ٨٦١ م ، اصبحوا طوال عصر النفوذ التركي ، ثم البويهي ، ثم السلجوقي آلات ليس لها من الامر شيء .

ولكن بغداد كانت قائمة بعظمتها ، والحركة الادبية العلمية لا ينقطع لها مجرى وان اشتدت حيناً وضعفت احياناً ، واللغة العربية هي المسيطرة وان عني بها الحكام بعض الشيء او اهملوها ، والزمان يضطرب اضطراباً عنيفاً ولكنه لا يخلو من وقت يميل فيه الى الهدوء والاستقرار .

فلما احتل هولاكو بغداد تغيرت الحال من شر الى شر منها ، فقد قضى الفاتح المغولي حتى على ذلك المظهر الشكلي الذي بقي للخلافة العباسية وأوقع بعاصمة الادب العربي وآثارها الادبية والعلمية دماراً فاحشاً ، وفوق ذلك اوشك المغول ان لا يكترثوا حتى لتعلم اللغة العربية نفسها .

فاذا جمعنا الى هذا كله حروباً لم تخمد لها نار ، لا جهة الشرق ولا جهة الغرب ، ادركنا اي جو مهلك احاط بالعربية وآدابها [١]، وأي جمود نزل بالقرائح والعقول . فان موجة الفتح المولاكي المنبعثة من الشرق وقعت في اعقاب الزحوف الصليبية المنبعثة من الغرب ، ثم اقبلت في اعتاب القرن الخامس عشر غزوات تيمورلنك (تيمور الاعرج) فاحدثت خراباً على خراب .

غير ان قطرين من الاقطار الناطقة بالعربية استطاعا بعد سقوط بغداد ان يكونا للادب العربي ملجأ او شبه ملجأ يلوذ به ، هما مصر وسوريا . فان مصر خصوصاً بقيت بمنجى

١ ذلك فضلاً عمن فقدت اللغة العربية من قوم كانوا يكتبون بها ، مثل الفرس ، فان هؤلاء جعلوا ينشئون ادبهم بلغتهم القومية .

من احتلال الصليبيين ، في زمن الايوبيين ، ثم من احتلال المغول مع من فيهم تيمورلنك ، في زمن المماليك . وكان الايوبيون قد تركوا في مصر وسوريا تقاليد في تشجيع الادب العربي اخذ بها المماليك من بعدهم .

والى هذا العهد ، عهد المماليك ، يرجع تأليف عدد من كتب الادب الشهيرة التي ترتدي طابع الموسوعات ، ومنها **نهاية الارب في فنون الادب** للنويري[١] ، **وصبح الاعشى في صناعة الانشا** للقلقشندي[٢] . كذلك يرجع الى هذا العهد اشهر معجم في اللغة العربية ، هو **لسان العرب** لجمال الدين بن منظور [٣] .

ولكن غلب على التأليف في هذا العهد تقليد القدماء والاخذ من آثارهم ، كما غلب على الانشاء طرفان متباعدان ، طرف هو التصنع والاسراف في التكلف ، وطرف هو الركاكة والاسفاف الى العامية ، فضلاً عن ضؤولة المادة الفكرية وهزالها .

وممن يتصل بهذا العهد من الشعراء شرف الدين البوصيري ، صاحب القصيدتين الشهيرتين في مدح النبي ، ومنها الميمية المعروفة بنهج البردة[٤] . والشاعر صفي الدين الحلي . وقد اصيب الشعر بما اصيب به النثر من تصنع وتكلف شديد في طرف ، وركاكة واسفاف في الطرف الآخر ، مع هزال الفكر والعاطفة .

وراج في هذا العهد فن الازجال ، وهي موشحات باللغة العامية ، استحدثت اول شيء في الاندلس ، ونهض بها زجال اندلسي في القرن الثاني عشر الميلادي يعرف بابن قزمان .

وابرز الاغراض التي تعاطاها الشعر في هذا العهد الزهد والمجون .

على ان هذا العهد يتفرد بقمة شامخة من قمم الفكر في الآداب العربيـــة ، ذلك هو عبد الرحمن بن خلدون ، صاحب المقدمة الشهيرة في علم التاريخ وقوانين التطور التاريخي ، وقد سبق ذكره ...

١ شهاب الدين النويري ، ولد في نويرة من صعيد مصر ، وتوفي سنة ١٣٣١ م (٧٣٢ هـ) ، وفي وقت ولاه الملك الناصر ، محمد بن قلاوون ، نظارة الجيش في طرابلس . اما كتابه : نهاية الارب ، فيقع في ثلاثين مجلداً ، مقسماً خمسة فنون ، الاول : في السماء والارض ، والثاني : في الانسان ، والثالث : في الحيوان ، والرابع : في النبات والطب ، والخامس : في التاريخ . ٢ شهاب الدين القلقشندي ، ولد في قلقشندة من قرى مصر ، وتوفي سنة ١٤١٨ م (٨٢١ هـ) . وكتابه صبح الاعشى اشبه بموسوعة الفها لكتاب ديوان الانشاء في دولة المماليك .
٣ ابن منظور ، ولد بالمغرب ، ثم انتقل الى مصر ، وفيها وظف بديوان الانشاء ، وكانت وفاته سنة ١٣١١ م (٧١١ هـ) . ٤ ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم ؟

وقد اصبحت هذه القصيدة ببحرها وقافيتها مثالاً يحتذيه ناظمو القصائد التي يضمنونها انواع علم البديع .

وفيما يأتي ثلاثة من اعلام اعصر الانحطاط ، احدهم كاتب علمي، والثاني صاحب شعر في الحكمة ، والثالث رحالة ساذج .

القزويني ، ابو يحيى ، زكريا بن محمد ، الجغرافي العالم بوصف الكائنات ، أبصر النور قبل سقوط بغداد بخمس وخمسين سنة ، عام ١٢٠٣م (٦٠٠ هـ) ، في قزوين بقرب البحر المعروف بهذا الاسم . على ان أصله عربي يتصل بالامام مالك بن أنس ، ولكن اسرته استوطنت قزوين منذ زمن بعيد ، فنشأ بها، حتى اذا بلغ طور الشباب غادر مسقط رأسه في رحلة شطر الغرب ، فزار دمشق سنة ١٢٣٣ م (٦٣٠ هـ) وبها لقي ابن عربي ، الصوفي الشهير ، ثم استقرّ بالعراق ، في ظل المعتصم آخر الخلفاء العباسيين ، وتولى منصب القضاء بمدينتي واسط والحلة .

هذا ما نعلمه من حياته ، ونعلم انه توفي سنة ١٢٨٣ م (٦٨٢ هـ) بعد سقوط بغداد بخمسة وعشرين عاماً ، وانه كان متضلعاً من الجغرافيا وعلم وصف الكائنات ، قد استوعب ما كتبه اسلافه في هذين العلمين ، وتمكن من اسلوب بالعربية يسّر له بسط معارفه بحيث يفهمها ويستمتع بها القارىء العادي .

كتابا القزويني : اما ارث القزويني في هذين العلمين : تقويم البلدان (الجغرافيا) ، ووصف الكائنات *Cosmographie* ، فعبارة عن كتابين هما: **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات،** و **آثار البلاد واخبار العباد** ويعرف كذلك بعجائب البلدان . والكتابان كلاهما مطبوع ، ولكن اشهرهما : عجائب المخلوقات . والذي يبدو انه كان منتشراً جداً بين قراء العربية ، بدليل كثرة نسخه المخطوطة ، كما كان منتشراً بين قراء الفارسية والتركية بدليل ترجمته الى هاتين اللغتين . وبعض مخطوطاته كان مشفوعاً برسوم تشرح نصوصه .

نظرة في عجائب المخلوقات: وربما كان هذا الكتاب خير خلاصة في علم وصف الكائنات بقيت لنا من آثار العرب في القرون الوسطى . وقد قسم القزويني مجموعته هذه قسمين كبيرين : قسماً يتعلق بالكائنات العلوية ، او علم الهيئة ، او علم الفلك ، وفيه يتناول وصف الشمس والقمر والنجوم والكواكب الخ ... وقسماً يتعلق بالكائنات الارضية وهو يرتبها ، بحسب المألوف ، في ثلاثة عوالم : المعادن ، والنبات ، والحيوان وأرفع درجاته الانسان.

وجعل القزويني لكتابه اربع مقدمات، الاولى: في شرح معنى العجب، والثانية: في تقسيم المخلوقات، والثالثة: في شرح معنى الغريب وأراد به « كل امر قليل الوقوع، مخالف للعادات المعهودة ، والمشاهدة المألوفة ». وجعل المقدمة الاخيرة في تقسيم الموجودات، وأراد بها كل

القزويني



ان الانسان اذا رأى خلية النحل كثر تحيره في ذلك الحيوان الضعيف كيف احدث هذه المسدسات المتساوية الاضلاع الخ ...

موجود سوى الله مما نستطيع معرفته ومما لا نستطيع .

والبحث العلمي عند القزويني لا يستقل عن الغرض الديني ، فهو دائماً يقرن بحثه بالدلالة على حكمة الصانع وقدرته . وهكذا يقيم القزويني علمه على فلسفة مؤمنة بان للكون خالقاً وبان للكائنات غاية . على انه مع ذلك يحرص في الموضوعات التي تتحمل البحث العلمي، على ان يتتبع الحقائق العلمية الصرف، بالمعنى الذي نفهمه اليوم، برغم انه يتقبل بعض الخرافات، وبرغم ان آفاق العلم في عصر كعصره كانت أضيق جداً من آفاقه في عصر كعصرنا.

نظرة في آثار البلاد واخبار العباد : وقد بنى القزويني هذا الكتاب على تقسيم الارض سبعة

اقاليم . ثم جعل يصف البلدان في كل اقليم مع ما في كل بلد من المدن والجبال والبحيرات والانهار والجزر الخ ... وألمّ بالعظماء الذين اتصلوا بكل بقعة فترجم لهم ترجمات مفيدة .

هذا ، وفي كتاب « آثار البلاد » كثير من المادة الجغرافية التي نجدها في كتاب « عجائب المخلوقات » .

انشاء القزويني واسلوبه في التأليف : اما انشاء القزويني فنثر مرسل ، تشيع فيه الالفاظ الوضعية المخصوصة بالموضوعات التي يبحثها ، وتغلب عليه السهولة ، بل البساطة ، وقد تتداخله ركاكة في أحيان الا انه لا ينقلب الى العامية .

وعلى الجملة فهمّ القزويني من الانشاء انما هو اداء الحقائق او ما يعدّه حقائق ، ولا همّ له في شيء من اناقة العبارة او بلاغتها . وستلمس ذلك في المنتخبات التي نثبتها له في آخر هذا الفصل .

وليس يختلف اسلوبه في التأليف عن انشائه من حيث هو علمي محض . فالقزويني يتتبّع موضوعه لا يحيد عنه ، ولا يستطرد قليلاً ولا كثيراً . فشأنه غير شأن الجاحظ في كتابه « الحيوان » .

(اقرأ للقزويني في منتخبات هذا الفصل مختارات من « عجائب المخلوقات ») .

ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفّر ، اللغوي ، والفقيه ، والشاعر التعليمي ، الذي اشتهر بقصيدة واحدة ، أبصر النور تحت السماء نفسها التي لم يبصر نورها ابو العلاء المعري الا اربع سنوات . وكان مولد ابن الوردي في عام ١٢٩٠م (٦٨٩ هـ) . وتلقى علومه الاولى في معرة النعمان ، ثم طاف في حماة ودمشق وحلب يواصل الدرس ، حتى تضلّع من الفقه على المذهب المالكي ، وتمكن من نحو اللغة ، ومن النظم والنثر والتاريخ . وفي وقتٍ اشترك في ولاية قضاء حلب ، غير انه اعتزل المنصب وانصرف الى التأليف .

ووقع الطاعون بحلب فمات به ابن الوردي سنة ١٣٤٩م (٧٤٩ هـ) .

وآثاره كثيرة ، منها : ديوان شعر ، وخطب ورسائل ومقامات . وله مناظرة بين السيف والقلم تشبه في كثير من عبارتها مناظرة ابن نباتة في الموضوع نفسه ، وهي التي أثبتنا بعضها في الصفحتين : ٢٥٢ و ٢٥٣ من هذا الكتاب . وكان ابن الوردي وابن نباتة متعاصرين .

ولابن الوردي « تتمة المختصر في تاريخ البشر » ، أكمل به كتاب أبي الفداء ، ملك حماة الايوبي ، وكان معاصره .

ومن آثاره « الشهاب الثاقب » في التصوف ، ورجز كثير نظم به قواعد فقهية ونحوية

ابن الوردي



انما الورد من الشوك ولا   ينبت النرجس الا من بصل

وشيئاً من تفسير الاسلام . وكان شديد الشغف بالرجز ، قادراً عليه ، كما كان شغفاً بتسمية آثاره اسماء جميلة تنتهي بالنسبة الى الوردي . واليك بعض تلك الاسماء : « التحفة الورديّة » و « البهجة الورديّة » و « الالفية الورديّة » .

ولا جدال في ان أشهر آثاره وأنفسها اللامية الورديّة ، او « نصيحة الاخوان ومرشدة الخلان » . وهي قصيدة حكمية يعرض فيها لقواعد السلوك ، ويدعو الى الاخلاق الفاضلة دعوة تنزع الى الزهد . وانما اشتهرت هذه القصيدة وقامت عليها شهرة ابن الوردي لانه استرسل فيها الى طبعه وسجيّته ، فلم يتكلف فيها من صناعة البديع ما كان يتكلفه في

شعره . ان لامية ابن الوردي تعد في افضل الشعر الحكمي التعليمي الذي تناهى الينا من أعصر الانحطاط .

(تجد نصها مع المنتخبات في آخر هذا الفصل) .

ابن بطوطة، محمد المرّاكشي الطنجي، أوسع الرّحالين جَوْباً للآفاق في القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) ، ومورّث أطرف كتاب عربي في الرحلات، وصاحب شخصية من أغرب الشخصيات أطواراً ، وُلد سنة ١٣٠٤م(٧٠٣ هـ) بمدينة طنجة في طرف الشمال الافريقي ، فما ان بلغ الحادية والعشرين من عمره حتى خرج سنة ١٣٢٥م (٧٢٥ هـ) حاجاً الى مكة ، فجاوز شمال افريقيا ومصر العليا الى البحر الاحمر . فلما لم يجد سبيلًا لعبوره ، سلك طريق سوريا وفلسطين الى الحجاز فقضى حجه لأول مرة .

ثم انصرف الى العراق ففارس . ثم عاد فعرّج على الموصل وديار بكر . ثم زار مكة ثانية ، ومنها مال الى جنوب الجزيرة العربية ، فعَبَرَ الى افريقيا الشرقية . ثم عاد الى خليج فارس وطلب مكة للمرة الثالثة .

وواصل بعدها رحلاته ، فعاد الى مصر ثم سوريا ، ومنها زار آسيا الصغرى والاستانة والقرم . واخترق بلاد خوارزم وبخارى وأفغانستان الى الهند وسيلان ثم الى الصين . ثم قفل راجعاً، فكرر التطواف في فارس والعراق وسوريا، وحجّ الى مكة للمرة الرابعة . ثم عبر الى افريقيا فبلغ فاس سنة ٧٥٠ هـ ، وقام بزيارة الى غرناطة في الاندلس ، ثم برحلة الى تمبكتو في القارة الافريقية .

وكان سفره الى تمبكتو آخر رحلاته ، فقد استقر بعد ذلك في مراكش وجعل يملي اخبار أسفاره على أديب اسمه ابن جُزَيّ ، وانما أملى تلك الاخبارَ املاءً ، لانه فقد مذكراته في المحيط الهندي ، في اثناء غارة شنها القرصان على المركب الذي كان يُقلّه. وقد زاد ابن جزي كثيراً من ابيات الشعر في كتاب الرحلة كما تناول لغته بشيء من التهذيب .

وطال عمر ابن بطوطة خمسة وسبعين عاماً فتوفي بمراكش سنة ١٣٧٧ م (٧٧٩ هـ) . ويُعرف الكتاب الذي أملاه بـ « **رحلة ابن بطوطة** » . اما اسمه الاصلي فهو « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » .

وهو كتاب سلس الانشاء، وربما لانت عبارته حتى ركّت . وفيه رواية حوادث نادرة، فكهة ، وتقاليد شاذة، وخرافات تكاد ان لا تصدق . وكان لابن بطوطة ميل الى تتبع الشذوذ في التقاليد والمعتقدات الخرافية . وكان هو نفسه ساذجاً عظيم السذاجة ، سريع

ابن بطوطة



ومشهد الارامل الهنديات اللواتي أحرقن أنفسهن بالنار

التصديق ، مما حمل كثيرين على الشك في صحة كلامه ولاسيا في ما يتعلق بزيارته شواطىء نهر الفولغا .

لكن ليس ثمة ريب في ان رحلته صورة صادقة من ذهنيات الاقوام الذين خالطهم ، وفيها طرافة ومتعة شائقتان .

اما كيف كان ابن بطوطة ينفق في اسفاره الواسعة ، فانه كان يستعين على ذلك بعطايا الملوك والسلاطين الذين يلقاهم ، وبما يكسبه من تولي بعض الوظائف .

(اقرأ له في المنتخبات في آخر هذا الفصل مختاراً من رحلته) .

منتخبات

امثلة على نثر القزويني[1]

قال القزويني في مقدمة كتابه : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات :

كنت مستغرقاً بالنظر في عجائب صنع الله تعالى في مصنوعاته وغرائب ابداعه في مبتدعاته ، كما ارشد الله سبحانه اليه حيث قال تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج .»

وليس المراد من النظر تقليب الحدقة نحوها ، فان البهائم تشارك الانسان فيه . ومن لم يرَ من السماء الا زرقتها ومن الارض الا غبرتها فهو مشارك للبهائم في ذلك ، وأدنى حالاً منها وأشد غفلة .

(بل) المراد من هذا النظر التفكر في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها ليظهر له[2] حقائقها . فانها سبب اللذات الدنيوية والسعادات الأخروية .

وسميته (يريد : كتابه) « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » . ولا بد من ذكر مقدمات اربع في شرح هذه الالفاظ ليتبين منها مقصود الكتاب والله الموفق للصواب .

(وهنا يشرع القزويني في شرح معنى العجب الذي وصفه الفيلسوف اليوناني افلاطون بانه بدء الفلسفة ، فيقول القزويني :)

العجب حيرة تعرض للانسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء ، او عن معرفة كيفية تأثيره فيه . مثاله ان الانسان اذا رأى خلية النحل ولم يكن شاهده[3] قبل لكثر تحيّره لعدم معرفة فاعله . فلو علم انه من عمل النحل لتحيّر ايضاً من حيث ان ذلك الحيوان الضعيف[4] كيف احدث هذه المسدسات المتساوية الاضلاع التي عجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة ؟ ومن اين لها هذا الشمع الذي اتخذت منه بيوتها المتساوية التي لا يخالف بعضها بعضاً كأنها افرغت في قالب واحد ؟ ومن اين لها هذا العسل الذي أودعته فيها ذخيرة للشتاء ؟ وكيف عرفت ان الشتاء يأتيها وانها تفقد فيه الغذاء ؟ وكيف اهتدت الى تغطية

---

١ كلها من كتاب «عجائب المخلوقات». ٢ المراد : للانسان . ٣ يفهم من سياق الكلام ان الضمير عائد الى الخليّة ، ولهذا كان الواجب ان يكون ضميراً مؤنثاً . ومثل هذا الخطأ كثير عند القزويني .

٤ هذه العبارة تصح شاهداً على الركاكة التي لم يخل منها انشاء القزويني .

خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الغبار ويبقى كالبرنية[١] المنضمة الرأس ؟ فهذا معنى العجب، وكل ما في العالم بهذه المثابة[٢] .

القول في حيوان الماء

انتبه لما حاول القزويني في هذا الفصل من تقسيم حيوان الماء قسمين على طريقة علمية . ثم انتبه لانشائه كيف خلا من كل زخرف . وكيف تقيّد بالموضوع لا يحيد عنه . وكذلك تأمل كيف يقرن العلم باظهار حكمة خالق ابدع الخلق .

قال القزويني :

حيوان الماء على قسمين : منه ما ليس له رئة كأنواع السمك ، فانه لا يعيش الا في الماء ، ومنه ما له رئة كالضفدع ، فانه يجمع بين الماء والهواء .

فأما التي لا تعيش الا في الماء ، فلا حاجة لها الى استنشاق الهواء . لان الباري تعالى لما خلقها في الماء جعل حياتها منه ، وجعلها على طبيعة الماء ، وركب ابدانها تركيباً ، بحيث يصل اليها برد الماء وروح الحرارة الغريزية التي في بدنها وينوب عن استنشاق الهواء . فلذلك تراها لا صوت لها لفقد الرئة التي لا حاجة لها اليها .

والحكمة الالهية اقتضت ان يكون لكل حيوان أعضاء كثيرة مختلفة . وكل حيوان يكون أنقص ، فهو أقلّ حاجة . ثم اقتضت ان لكل حيوان اعضاء مشاكلة لبدنه ، ومفاصل مناسبة لحركاته ، وجلوداً صالحة لوقايته . فجعل ابدان حيوان الماء اما صدفيّة صلبة لا يعمل فيها الشيء الحاد ، او فلوسية[٣] ، او ما شاكلها غطاء ووقاية من العاهات العارضة . وجعل لبعضها اجنحة وأذن بان تسبح بها في الماء كما يطير الطير في الهواء . وجعل بعضها آكلاً وبعضها مأكولاً . وجعل نسل المأكول اكثر لبقاء أشخاصها . فسبحانه ما اعظم شأنه .

ولنذكر بعض حيوان الماء وعجائبه وخواصه على ترتيب حروف المعجم ، والله اعلم بالصواب ...

(ثم يبدأ بذكر حيوان يقال له « ارنب البحر » ، ولا يزال ينتقل من حيوان مائي الى آخر، بحسب ترتيب حروف المعجم ، حتى يبلغ الضفدع ، واليك ما يقول فيها :)

١ البرنية : اناء من خزف . ٢ « وكل ما في العالم بهذه المثابة » ، يريد بها : ان الكائنات كلها مدعاة للعجب. ٣ فلوسيّة : نسبة الى فلوس وهي ما يكون على جلد السمك من قشر .

ضفدع

حيوان بَرّي وبحري ، له عينان بارزتان غاية البروز. وحاسة سمعه وبصره حادة جداً . . .
عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « لا تقتلوا الضفدع فانها مرّت بنار ابرهيم عليه السلام ، فحملت بأفواهها الماء وكانت ترشه على النار . »
وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « لا تقتلوا الضفادع فان نقيقهن تسبيح . »

وأول نشأة الضفادع ان تظهر في الماء شبه معىّ رقيق ، وتُرى في الماء شبه حَبّ اسود كالدُخْن[1] . فاذا امتلأ ذلك المعاء[2] من ذلك الحبّ خرجت منه كالدعموص[3] . ثم بعد ايام تنبت منه اليدان والرجلان . قال الشيخ الرئيس[4] : اذا كثرت الضفادع في شيء من السنين، على خلاف العادة ، وقع الوباء عقيبه .

الضفدع كثير النقيق بالليل ، فاذا رأى النهار ترك النقيق . وقال بعضهم : اذا القي في النبيذ يموت ، واذا القي في الماء عادت حياته . قال الجاحظ : الضفدع لا يمكنه النقيق الا اذا كان حنكه الاسفل في الماء ، فاذا صار الماء في فمه صاح . ولهذا لا تصيح الخارجات[5] من الماء . وضفدع البر اخضر ، وهو سم ، من سُقي منه فسد مزاجه ، وينتفخ بطنه ويعرض له الاستسقاء . واذا وُضع على الثآليل[6] قلعها . واذا شق بطنه ووضع على لسعة الحية نفع نفعاً بيّناً . وقال الشيخ الرئيس : الضفادع الآجامية الخَضِرَة[7] ، والبحرية ، تورث من شربها كمودة اللون وظلمة البصر ونتن الفم والدوار ايضاً ، ويعرض له[8] اختلاط عقل . ومن سُمّ منها تسقط اسنانه . قال الجاحظ : ان الاسد في مناقع المياه والآجام تأكلها اشد أكل . قال بليناس[9] : ان جعلت ضفدعاً فوق قدر تغلي ، زال غليانها . وان عُلق على صاحب حُمّى الربع[10] برئ .

واما خواص اجزائه ، فان لسانه اذا جُعل في الخبز ، ويطعم من اتهم بالسرقة ، اقر بها . وان وضعته على امرأة نائمة تكلمت بما عملت في اليقظة وهي نائمة . وأطرافه تحرق بنار

١ الدخن : نبات املس الحب صغيره . ٢ المعى والمعاء : مصران البطن . ٣ الدعموص : هو ما تسميه بالعامية : البلعط . ٤ الشيخ الرئيس : هو ابن سينا الطبيب الفيلسوف الشهير ، ولد في بلاد فارس سنة ٩٧٩ م وتوفي سنة ١٠٣٧ م . ٥ الخارجات ، اي : الضفادع الخارجات . ٦ الثآليل : جمع ثؤلول ، وهو نتوء صلب يخرج في لحم الجلد . ٧ الخضرة : الخضراء . ٨ له ، يريد : لمن شربها . ٩ بليناس : هو بلينيوس الاكبر ، العالم الطبيعي الذي ولد سنة ٢٣ م ، ايام طيباريوس قيصر روما ، وتوفي سنة ٧٩ م ، ايام طيطش (تيتوس) . واسم بلينيوس : بلاين بالفرنسية ، وبليني بالانكليزية . وله مؤلف ضخم دعاه « التاريخ الطبيعي » وجعله في سبعة وثلاثين جزءاً . ١٠ حُمّى الربع : هي التي تنتاب المريض كل اربعة ايام .

القصب ويطلى برمادها الموضع الذي ينبت عليه الشعر ، فان الشعر لا ينبت عليه . ودمه يطلى به على الموضع الذي نتف شعره فانه لا ينبت . وقال بليناس : من لطخ به وجهه احبّه كل من يراه . وشحمه يوضع على اللثة فيسقط السن بلا وجع .

ولنختم خواص الضفدع بحكاية عجيبة ، وهي اني كنت بالموصل وبنى صاحب الموصل في بستان مجلساً وبركة . وتوالدت الضفادع فيها . وكان نقيقها يؤذي سكان المجلس طول الليل . فقال الامير : دبّروا دفع هذا النقيق . فما افاد شيء . حتى جاء رجل وقال : اجعلوا طشتاً على وجه الماء مكبوباً . ففعلوا . فلم يُسمع بعد ذلك شيء من النقيق أصلاً .

فانتبهْ للقزويني كيف يكثر في هذه القطعة من سرد اقوال الذين تقدموه من علماء، وكيف يشفع وصفه للحيوان برواية بعض النوادر التي خبرها ، وبذكر بعض منافع الحيوان الطبية وان كان لا يتكلف دفع الخرافات على نحو ما يفعل الجاحظ مثلاً . فقول القزويني ان تعليق الضفدع على المصاب بحمى الربع يشفيه من الحمى ، انما هو خرافة بيّنة .

مثال على شعر ابن الوردي

اللامية : « نصيحة الاخوان ومرشدة الخلان »

تتميز هذه القصيدة بكثرة ابياتها وشطورها التي جرت مجرى المثل ، وذلك لبساطة اللفظ وسهولة التركيب وقرب المعنى ، فضلاً عن رشاقة الوزن الذي هو الرمل . فدوّن ، وانت تقرأ هذه القصيدة ، كل بيت او شطر فيها تراه جارياً مجرى المثل . يفتتح ابن الوردي كلامه بالدعوة الى ترك الغزل والخمرة واتباع تقوى الله ، لانها هي البطولة في رأيه ، فيقول :

إعتزِلْ ذِكْرَ ٱلأَغاني وٱلغَزَلْ ، وَقُلِ ٱلفَصْلَ وَجانِبْ مَنْ هَزَلْ [1]
وَدَعِ ٱلذِكْرى لِأَيّامِ ٱلصِّبا فَلِأَيّامِ ٱلصِّبا نَجْمٌ أَفَلْ [2]
وَٱتْرُكِ ٱلغادَةَ لا تَحْفِلْ بِها تُمْسِ في عِزٍّ وَتُرْفَعْ وَتُجَلْ
وَٱفْتَكِرْ في مُنْتَهى حُسْنِ ٱلَّذي أَنْتَ تَهْواهُ تَجِدْ أَمْراً جَلَلْ [3]
وَٱهْجُرِ ٱلخَمْرَةَ ، إِنْ كُنْتَ فَتًى ، كَيْفَ يَسْعَى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ ؟
وَٱتَّقِ ٱللهَ ، فَتَقْوى ٱللهِ ما جاوَرَتْ قَلْبَ ٱمْرِئٍ إِلّا وَصَلْ [4]
لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرْقاً بَطَلًا ، إِنَّما مَنْ يَتَّقي ٱللهَ ٱلبَطَلْ

ثم يذكر سلطان الموت وكيف ذهب بالملوك الجبابرة وبالعلماء ، وكيف يردون بعد ذلك الى يوم دينونة يُجزون فيه بحسب ما قدموا من اعمال ، فيقول :(تنبّه لصيغة الاستفهام التي يستعملها الشاعر في كثير من هذه الابيات .)

كُتِبَ ٱلمَوْتُ عَلى ٱلخَلْقِ فَكَمْ فَلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنى مِنْ دُوَلْ !
أَيْنَ نُمْرودُ وَكَنْعانُ وَمَنْ مَلَكَ ٱلأَرْضَ وَوَلّى وَعَزَلْ ؟

١ القول الفصل : القول الذي يفصل بين الحق والباطل . ٢ افل : غاب . ٣ الامر الجلل : الامر العظيم . ٤ وصل : بلغ امنيته .

أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوا ، هَلَكَ ٱلْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ ٱلْقُلَلْ[١] !
أَيْنَ أَرْبَابُ ٱلْحِجَى ، أَهْلُ ٱلنُّهَى ، أَيْنَ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ وَٱلْقَوْمُ ٱلْأُوَلْ ؟
سَيُعِيدُ ٱللهُ كُلًّا مِنْهُمُ ، وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ

ويتابع الشاعر نصائحه ، فيوصي بطلب العلم والتفقه في الدين واتقان النحو ، ونظم الشعر ، ويحذر من ابتذاله بالمدح الكاذب والتكسب ، فيقول :

يَا بُنَيَّ ٱسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ حِكَمًا خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ ٱلْمِلَلْ :
أُطْلُبِ ٱلْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ ، فَمَا أَبْعَدَ ٱلْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ ٱلْكَسَلْ
وَٱحْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي ٱلدِّينِ وَلَا تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ[٢]
وَٱهْجُرِ ٱلنَّوْمَ وَحَصِّلْهُ ، فَمَنْ يَعْرِفِ ٱلْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ[٣]
لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ ، كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى ٱلدَّرْبِ وَصَلْ !
فِي ٱزْدِيَادِ ٱلْعِلْمِ إِرْغَامُ ٱلْعِدَى ، وَجَمَالُ ٱلْعِلْمِ إِصْلَاحُ ٱلْعَمَلْ
جَمِّلِ ٱلْمَنْطِقَ بِٱلنَّحْوِ فَمَنْ يُحْرَمِ ٱلْإِعْرَابَ بِٱلنُّطْقِ ٱخْتَبَلْ[٤]
إِنْظِمِ ٱلشِّعْرَ ، وَلَازِمْ مَذْهَبِي فِي ٱطِّرَاحِ ٱلرِّفْدِ لَا تَبْغِ ٱلنِّحَلْ[٥]
فَهْوَ عُنْوَانٌ عَلَى ٱلْفَضْلِ وَمَا أَحْسَنَ ٱلشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ !
أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ ٱلْقُبَلْ

وحديث المدح الكاذب والتكسب بالشعر ينقله الى حديث الغنى والفقر ، فيوصي بالقناعة من الدنيا لان « ملك كسرى تغني عنه كسرة خبز » ولأن الحيلة في الدنيا لا تجدي . ولكن اذا صحّت الموافقة على دعوة ابن الوردي الى العفّة والانفة ، فلا تصح الموافقة على دعوته الى هذه الاتكالية المطلقة . يقول :

١ القلل : جمع قلة ، وهي أعلى كل شيء ، والمراد بها ، هنا ، المعتصمات التي كانوا يعتصمون بها . ٢ الخول : الخدم والحشم . ٣ الضمير في « حصله » عائد الى الفقه والعلم ... ٤ اختبل : فسد ، والمراد فسد كلامه . ٥ الرفد : طلب العطاء والتكسب بالمدح . النحل ، معناها هنا : الهبات والعطايا .

مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةٌ ... وَعَنِ ٱلْبَحْرِ ٱجْتِزَاءٌ بِٱلْوَشَلْ[١]
إِطْرَحِ ٱلدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا ... تَخْفِضُ ٱلعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلْ
عِيشَةُ ٱلرَّاغِبِ فِي تَحْصِيلِهَا ... عِيشَةُ ٱلْجَاهِلِ فِيهَا أَوْ أَقَلّْ[٢]
كَمْ جَهُولٍ بَاتَ فِيهَا مُكْثِراً ... وَعَلِيمٍ بَاتَ مِنْهَا فِي عِلَلْ
كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنَلْ مِنْهَا ٱلْمُنَى ... وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ ٱلْأَمَلْ
فَٱتْرُكِ ٱلْحِيلَةَ فِيهَا وَٱتَّكِلْ ... إِنَّمَا ٱلْحِيلَةُ فِي تَرْكِ ٱلْحِيَلْ!

على ان الابيات التي تلي تشتمل على توجيه اخلاقي جميل ، فالشاعر يدعو الى ترك المباهاة بالاصل والى اتخاذ العمل الذي يحسنه الانسان اساساً لقيمته والى اتباع مذهب الاعتدال بين الاسراف والتقتير ، فيقول :

لا تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَداً ... إِنَّمَا أَصْلُ ٱلْفَتَى مَا قَدْ حَصَلْ
قَدْ يَسُودُ ٱلْمَرْءُ مِنْ دُونِ أَبٍ ... وَبِحُسْنِ ٱلسَّبْكِ قَدْ يُنْفَى ٱلدَّغَلْ[٣]
إِنَّمَا ٱلْوَرْدُ مِنَ ٱلشَّوْكِ ، وَمَا ... يَنْبُتُ ٱلنَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلْ
قِيمَةُ ٱلْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ ، ... أَكْثَرَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْهُ أَوْ أَقَلّْ
بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلٍ رُتْبَةٌ ، ... وَكِلَا هٰذَيْنِ إِنْ زَادَ قَتَلْ

ثم ينتقل الى وصايا تشفّ عما ساد عصره من الاضطهاد السياسي ، فينصح بالمداراة وبمجانبة السلطان وترك الوظائف . ثم يعيد الكرة فيوصي بالزهد وبالاقتصاد في معاشرة الناس وفي حب الوطن فيقول :

لَيْسَ يَخْلُو ٱلْمَرْءُ مِنْ ضِدٍّ وَلَوْ ... حَاوَلَ ٱلْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ ٱلْجَبَلْ
دَارِ جَارَ ٱلسُّوءِ بِٱلصَّبْرِ وَإِنْ ... لَمْ تَجِدْ صَبْراً فَمَا أَحْلَى ٱلنُّقَلْ[٤]

١ الوشل : الماء القليل . واجتزاء بالوشل : اكتفاء به . وكسرة ، يراد بها : كسرة خبز . ٢ يقول : ان عيشة الراغب في تحصيلها تساوي بالنتيجة عيشة الجاهل او اقل منها ، فلا داعي الى التكالب عليها . ٣ الدغل : الريبة والفساد . ٤ النقل : جمع نقلة ، وهي الانتقال وتبديل المكان .

جَانِبِ ٱلسُّلْطَانَ وَٱحْذَرْ بَطْشَهُ ،   لَا تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ
لَا تَلِ ٱلْأَحْكَامَ إِنْ هُمْ سَأَلُوا   رَغْبَةً فِيكَ ، وَخَالِفْ مَنْ عَذَلْ [١]
إِنَّ نِصْفَ ٱلنَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ   وَلِيَ ٱلْأَحْكَامَ ، هٰذَا إِنْ عَدَلْ !
قَصِّرِ ٱلْآمَالَ فِي ٱلدُّنْيَا تَفُزْ ،   فَدَلِيلُ ٱلْعَقْلِ تَقْصِيرُ ٱلْأَمَلْ
غِبْ وَزُرْ غِبًّا تَزِدْ حُبًّا فَمَنْ   أَكْثَرَ ٱلتَّرْدَادَ أَقْصَاهُ ٱلْمَلَلْ [٢]
لَا يَضُرُّ ٱلْفَضْلَ إِقْلَالٌ ، كَمَا   لَا يَضُرُّ ٱلشَّمْسَ إِطْبَاقُ ٱلطَّفَلْ [٣]
خُذْ بِنَصْلِ ٱلسَّيْفِ وَٱتْرُكْ غِمْدَهُ ،   وَٱعْتَبِرْ فَضْلَ ٱلْفَتَى دُونَ ٱلْحُلَلْ [٤]
حُبُّكَ ٱلْأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ ،   فَٱغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ ٱلْأَهْلِ بَدَلْ
فَبِمُكْثِ ٱلْمَاءِ يَبْقَى آسِنًا ،   وَسُرَى ٱلْبَدْرِ بِهِ ٱلْبَدْرُ ٱكْتَمَلْ [٥]

انشاء ادبي

اعرض قواعد السلوك التي يوصينا بها ابن الوردي في « لاميته » وبيّن ما توافقه عليه وما تخالفه فيه .

١ من عذل : من لام . ٢ زر غباً : زر مرة بعد مرة ، دون اكثار . ٣ الطفل : الوقت قبيل غروب الشمس . واطباق الطفل وقوعه . ٤ يقول : لا تزن قيمة الانسان بما يلبس من حلل ، اي : اثواب جميلة . والمراد : لا تغتر بالظاهر . ٥ الماء الاسن : الماء الذي فسد لركوده . وقوله « سرى البدر به البدر اكتمل » يعني : ان انتقال القمر هو الذي يكمله فيصبح بدراً .

مثال من رحلة ابن بطوطة

الارامل الهنديات اللواتي احرقن انفسهن بالنار

يصف ابن بطوطة ، في هذا الفصل ، مشهداً حضره في الهند . ويعتبر هذا الفصل ، من حيث الحادثة التي يرويها ، ومن حيث اسلوبه السهل ، « نموذجاً » لما تجلى في رحلة ابن بطوطة ، من ميل الى تتبع الطريف والغريب والشاذ ، بحيث جاءت تسمية كتابه : « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » تسمية مناسبة كل المناسبة . قال ابن بطوطة :

اتفق اني كنت بمدينة اكثر سكانها من الكفار تعرف بامجرى ، واميرها مسلم من سامرة السند ، وعلى مقربة منها الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الامير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار فوقع بينهم قتل شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة .

وكان لثلاثة منهم زوجات ، فاتفقن على احراق انفسهن . واحراق المرأة بعد زوجها عندهم امر مندوب اليه[1] غير واجب ، لكن من احرقت نفسها بعد زوجها ، احرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونسبوا الى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، واقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على احراق نفسها .

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على احراق أنفسهن ، اقمن قبل ذلك ثلاثة ايام في غناء وطرب واكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ويأتي اليهن النساء من كل جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته ، وهي متزينة متعطرة ، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها وبين يديها الاطبال والابواق والانفار[2] . وكل انسان من الكفار يقول لها : ابلغي السلام الى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي . وهي تقول : نعم ، وتضحك اليهم .

ركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال . وانتهينا الى موضع مظلم كثير المياه والاشجار ، ومتكاثف الظلال . وبين أشجاره أربع قباب ، في كل قبة صنم من الحجارة . وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال

[1] « امر مندوب اليه » يراد بها : أمر يميلون اليه ميلاً ، لكنه غير مفروض عليهم . [2] انفار ، يريد بها : جمع نفير .

وتزاحمت الاشجار فلا تتخللها الشمس ، فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم ، أعـاذنا الله منها . ولما وصلن الى تلك القباب نزلن الى الصهريج وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن من ثياب [1] وحلى فتصدقن به . وأتيت كل واحـدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فرُبط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها . والنيران قـد أضرمت عـلى قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض، وصب عليها «روغن كنجت»(كنجد)، وهو زيت الجلجلان[2]، فزاد في اشتعالها . وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزَم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خُشُب كبار. وأهل الاطبال والابواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة وقد حُجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر اليها .

فرأيت احداهن، لما وصلت الى تلك الملحفة، نزعتها من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم: « مارا ميترساني ازاطش (آتش) من ميدانم أو أطش است رها كني مارا »[3] وهي تضحك. ومعنى هذا الكلام : « أبالنار تخوّفونني ؟ أنا أعلم انها نار محرقة .» ثم جمعت يديها على رأسها ورمت بنفسها فيها. وعند ذلك ضربت الاطبال والانفار والابواق ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها . وجعـل الآخرون تلك الخشب من فوقهـا لئـلا تتحرك . وارتفعت الاصوات وكثر الضجيج .

ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي، لولا ان أصحابي تداركوني بالماء فغسلوا وجهي، وانصرفت .

١ وجردن ما عليهن من ثياب ، يريد : وتجردن مما عليهن من ثيـاب . ٢ الجلجلان : حب السمسم ، او ثمر الكزبرة . ٣ لا يعقل ان يكون ابن بطوطة قد استطاع حفظ هذا الكلام .

الآداب الأندلسيّة

شاعرٌ وملكٌ منكوب : المعتمد بن عبّاد

خلاصة تاريخية . — علمنا ان الاندلس استقلت عن دولة الشرق العباسية في سنة ٧٥٦ م (١٣٨ هـ) بعد خلع الامويين بنحو ستة اعوام ميلادية . ولكن هـذا الاستقلال كان في الواقع سياسياً ، فأما في الادب فقد لبث الاندلسيون حقبة من الدهر وليس لهم ادب خاص . ولذلك اسباب ، منها : ان الادب العربي في الشرق كان اقرب الى المهـد الذي نشأ فيـه ، وهو جزيرة العرب . ثم ان الشعوب التي دخلت في حكم العرب في الشرق ، كانت ذات حضارات اعانت الادب العربي على النمو والازدهار بمن هيأت له من شعراء وتراجمة و كتّاب مبدعين ، بينما القوط *Goths* الذين انتزع منهم العرب الاندلس لم تكن لهم حضارة تذكر .

الا ان طبيعة الاقليم الاندلسي ، واللقاح الدائم بادب المشارقة ، وطول المدة التي استقر فيها العرب في الاندلس ، ونشأة جيل اندلسي جديد يتكلم العربية ، مع ما بذلتـه الدولة الاموية في قرطبة من تشجيع للآداب تشبهاً بالمشارقة ومنافسة لبغداد ، كل ذلك ما لبث ان ادى ، مرحلة بعـد مرحلة ، الى تكوّن ادب اندلسي خاص ، ليس بمحض تقليد لادب المشارقة .

فما كان عهد الامير عبد الله بن محمد المرواني (اواخر القرن التاسع الميلادي واوائل العاشر) حتى انبثق ابرز مظهر للتجديد في الادب الاندلسي ، نعني الموشحات ، وقد قدّمنا ذكرها[1] ، واثبتنا عليها مثالاً[2] .

واشهر من عزز الادب في العصر الاموي في الاندلس: الخليفة عبد الرحمن الثالث، الملقب بالناصر ، باني مدينة الزهراء ، ثم الحكم الثاني الملقب بالمستنصر وكان اشبه بالمأمون العباسي ، في شغفه بالكتب وتعلقه بالعلم . ويروى عنه انه بعث في طلب كتاب الاغاني من مؤلفه ابي الفرج الاصبهاني، وانفذ اليه الف دينار ذهباً . فصيّر اليه ابو الفرج نسخة من الكتاب قبل

١ انظر الصفحتين : ٨٦ و ٨٧ . ٢ انظر الصفحتين : ٩٥ و ٩٦ .

اخراجه في العراق .

واشهر ادباء الاندلس في هذا العصر هو احمد بن عبد ربه المتوفى سنة ٩٤٠ م (٣٢٧ هـ)، وهو صاحب كتاب **العقد** المعروف بالعقد الفريد ، اتخذ مؤلفه مادته من ادب المشارقة.

ثم كان عهد ملوك الطوائف بعد انحلال الخلافة الاموية الاندلسية في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) . فازدهر الشعر والنثر الاندلسيان . وفي هذا العهد لمع الاديب المفكر ابن حزم الظاهري المتوفى سنة ١٠٦٤م (٤٥٦ هـ) ، وسطع نجم الشاعر الناثر **ابن زيدون** ، المتوفى سنة ١٠٧١ م (٤٦٣ هـ) .

ثم دخل المرابطون الاندلس من شمالي افريقيا ، في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) على ما سوف نذكر في حديثنا عن الشاعر الملك المعتمد بن عبّاد الاشبيلي . وكان عصر المرابطين عصر ذبول في الادب والفكر لاستبدادهم السياسي وما يصحب الاستبداد السياسي من تعصب ديني . وقد قام المرابطون في الاندلس بما يشبه الدور نفسه الذي قام به الترك والمغول في الشرق .

وعقب المرابطين الموحدون في اواسط القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) فكانوا اخف وطأة على النشاط العقلي ، غير ان هذا النشاط اتخذ سبيل الفلسفة فكان من اشهر من الفلاسفة : ابن طفيل المتوفى سنة ١١٨٥م (٥٨١ هـ) وهو صاحب كتاب حي بن يقظان ، ثم ابن رشد المتوفى سنة ١١٩٨ م (٥٩٥ هـ) .

على ان العربية في الاندلس كانت تتقهقر من ضعف الى ضعف . فلم تأت السنة ١٢٣٠ م (٦٢٨ هـ) حتى كان الملك الاسباني فرديناند الثالث قد قوض دولة الموحدين في الاندلس ، فلم يبقَ للعربية الا دولة بني الاحمر[1] التي انبعثت في غرناطة من انقاض دولة الموحدين ، وشادت قصر الحمراء الشهير .

وابرز رجال الفكر والادب في عهد بني الاحمر هو لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ١٣٧٤ م (٧٧٩ هـ) . وهو صاحب الموشح الشهير الذي يقول في مطلعه :

جادَكَ ٱلْغَيْثُ إذا ٱلْغَيْثُ هَمى[2] ، يَا زَمانَ ٱلْوَصْلِ بِالْأَنْدُلُسِ
لم يكنْ وَصْلُكَ إلّا حُلُما في الكَرَى أَوْ خِلْسَةَ[3] ٱلْمُخْتَلِسِ

ولبثت دولة بني الاحمر قائمة في غرناطة حتى سقطت سنة ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ) ،

١ تعرف كذلك بدولة بني نصر . ٢ همى : انسكب . ٣ الخلسة : مصدر مرة من خلس، اي: انتهز الفرصة للاخذ في خفية واسراع .

وبسقوطها انهار آخر ملاذ للعربية في الاندلس .

خصائص الآداب الاندلسية : والصفات الخاصة في الآداب الاندلسية تتجلى في الشعر اكثر منها في النثر . فبرغم ان الشعر العربي الاندلسي شعر غنائي كله ، شأنه شأن باقي الشعر العربي ، فانه يتميز كما اسلفنا بابتداع الموشحات ، وبحسن التغزل بالطبيعة المونقة ، وبالاكثار من ذكر الوطن والحنين الى ربوعه ، وبالبكاء على الممالك الزائلة لتعدد الدول التي اندثرت في الاندلس . واشهر قصيدة اندلسية في هذا الغرض الاخير ، قصيدة ابي البقاء صالح الرندي التي يرثي بها الاندلس ، ومطلعها :

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ ، فَلا يُغَرَّ بِطِيبِ ٱلْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ ٱلْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ ، مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

الى ان يقول :

(يَا) رَاتِعِينَ وَرَاءَ البَحْرِ فِي دعةٍ لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ [١]
أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ عَنْ أَهْلِ أَنْدُلُسٍ ؟ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ ٱلْقَوْمِ رُكْبَانُ !

الاندلس ونهضة اوروبا : هذا ، وقد كان لنهضة الاندلس ، في عهد العرب ، اثر كبير في تنبيه اوروبا وفي الآداب والفنون الاوروبية ، وهو موضوع لم يفرغ منه الباحثون بعد ، لكنهم يعتقدون ان الموشحات والازجال قد افاد منها الشعر الاوروبي ، كما يعتقدون ان تقاليد الفروسية الاوروبية في القرون الوسطى افادت من تقاليد الفروسية العربية ولاسيما فيما يتصل بمذهب الحب العذري ، كذلك يقرر الباحثون ان صناعة الورق في اوروبا اندلسية النشأة ، ويقررون ان الجغرافيين العرب نفعوا العلم بما حفظوا من ذكر الرأي القديم القائل بكروية الارض ، فضلاً عن المنافع التي اثرتها جهودهم الخاصة في الفلك والطب والفلسفة او الجهود التي قام بها غيرهم فكانوا هم واسطة نقلها الى اوروبا من الشرق العباسي او من القديم اليوناني ، قبل ان تعرف اوروبا التراث اليوناني معرفة مباشرة .

للمعتمد على الله ، ابي القاسم ، محمد بن عباد ، شخصية فذة في تاريخ الادب العربي . فلسنا نجد في آداب العربية شاعراً مثله استطاع ان يجمع بين ممارسة الملك والابداع في الشعر .

١ الدعة : العيش الآمن الرغيد .

فان قيل ان الشعر بدىء بملك (والمراد: امرؤ القيس) وختم بملك (والمراد : ابو فراس) ، فان هذين لم يمارسا ملكاً ، ولكن كان امرؤ القيس مطالباً بملك ورثه فلم ينجح برده ، وابو فراس لم يزد على ان انتسب الى اسرة مالكة . فاما المعتمد بن عباد فقد تصرف حقاً بملك واسع في الاندلس نحواً من ثلاث وعشرين سنة ، وكان الى ذلك متأخراً عن ابي فراس باكثر من قرن . فابن عباد هو بحق اول ملك وآخر ملك في تاريخ الادب العربي برّز بالشعر ، وترك لنا قصائد ومقطعات تمتع الذوق وتبهجه بما فيها من جمال الفن ، وتحزن وتؤلم بما فيها من ارقّ معاني الحزن والالم ، وتهذب النفس بما اتصلت به من مأساة تدعو الى التأمل والعبرة .

المعتمد بن عباد



فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا فجاءك العيد في اغمات مأسورا

مقارنته بابي فراس : وعلى ذكر ابي فراس في مجال التعريف بالمعتمد بن عباد ، لا بد من القول ان بين الملك الاندلسي والامير الحمداني وجوهاً من الشبه تسترعي النظر بقوة . فكل من ابي فراس والمعتمد صفا له العيش في شطر من حياته وظفر بالعز والرغد ، وكل منهما صار فيما بعد الى بلاء بالاسر والسجن ، وكل منهما كان فارساً اجتمع له خلق من الشجاعة والسماحة والشغف بالادب وحب الاهل ، وكل منهما تفجر قلبه في الاسر والسجن بشعر رائق يثير اللوعة ، وكل منهما كان غنائياً في شعره اخلصه لاغراضه النفسية ...

حياته ، عصر ملوك الطوائف : ولد المعتمد بن عباد في مدينة باجة ، من مدن الاندلس ، في اسرة عربية كانت ترد نسبها الى المناذرة — ملوك الحيرة في الجاهلية — . وكان اولَ جد لهذه الاسرة في الاندلس جندي، قدم البلاد بعد فتحها بمدة قصيرة في فرقة حمصية من فرق الجيش الاموي ، ثم لمع نجم الاسرة حتى تولت منصب القضاء ثم الملك في أشبيلية .

وكان مولد المعتمد سنة ١٠٤١ م (٤٣١ هـ) في العصر الذي ظهر فيه ملوك الطوائف

على مسرح السياسة في الاندلس ، بعد سقوط الخلافة الاموية في قرطبة ، وبعدما خلت البلاد من كل ظل لسلطة مركزية ، فأصبح يقوم في كل مدينة ونواحيها ملك يتغلب على الحكم ، ولا يكفّ عن الكيد لجيرانه وعن شن الغارة عليهم طمعاً في ملكهم ، حتى باتت الاندلس في ذلك العصر مسرحاً لفتن وحروب لا تخمد .

وكان والد المعتمد واحداً من ملوك الطوائف ، ولقبه المعتضد ، وقاعدة ملكه مدينة أشبيلية على نهر الوادي الكبير . واستطاع ان يضم اليه قرطبة ، وان يجعل من دولة بني عباد – بالحيلة والسيف – أقوى دول الطوائف ، ومن بلاطه اعظم بلاط أبهة وبذخاً في الاندلس . وكان الى ذلك يحب الشعر ويحسن قوله ، ويبذل للشعراء العطاء .

فنشأ المعتمد متخلقاً باخلاق ابيه ، الا انه – فيما يبدو – كان أقل قسوة منه وأقلّ دهاءً ، وكان مزاج الفنانين أغلب عليه .

فلما مات المعتضد سنة ١٠٦٨م (٤٦١ هـ) تولى المعتمد عرش بني عباد في اشبيلية وورث أبهة بلاط ابيه وبذخه ،وورث عداوات ابيه لسواه من ملوك الطوائف ولاسيما بني ذي النون في طليطلة .

وشغل المعتمد بحرب بني ذي النون وغيرهم ، وفي وقتٍ انتهز بنو ذي النون فرصة انصرافه الى قتال سواهم ، فهجموا على أشبيلية ونهبوا قصوره . الا ان المعتمد ما لبث ان كر عليهم فاقتلعهم من كل شبر احتلوه من ارضه .

ولكن ذلك الصراع الدائم بينه وبين ملوك الطوائف استدرجه الى ارتكاب هفوة سياسية ألجأته الى ارتكاب هفوة اخرى نكبته وذهبت بملكه وجعلت من حياته مأساة مشجية .

المعتمد والاذفونش : لم يكن عصر ملوك الطوائف في الاندلس عصر نزاع اقتصر على اولئك الملوك ، ولكنه كان الى ذلك عصر نزاع بين العرب والمسلمين في ناحية ، وأهل البلاد الاصليين وملوكهم في ناحية اخرى (وهؤلاء تسميهم كتب التاريخ العربي الفرنجة). وقد توصل هؤلاء الى اقامة مملكة قوية في شمالي اسبانيا . ووافق زمن المعتمد ان حكم هذه المملكة ألفونسو السادس وهو الذي تسميه كتب التاريخ العربي الأذفونش . وكانت بينه وبين المعتمد علاقات طيبة في مبدإ الامر ، وتم بينهما تعاقد على ان يمد ألفونسو المعتمد بالجند المرتزقة يساعدونه على اعدائه من ملوك الطوائف ، شرط ان يدفع المعتمد في مقابل ذلك ضريبة للاذفونش ولا يعارضه اذا فتح طليطلة .

ويقال ان المعتمد انما قبل هذا التعاقد ليتسنى له ان يعيد وحدة العرب والمسلمين في

الاندلس بالقضاء على ملوك الطوائف .

ولكن مهما يكن من امر فان عمله قوّى ألفونسو وسهّل عليه فتح طليطلة ، ولم يمكن المعتمد من ان يعيد للعرب والمسلمين وحدتهم .

فلما استولى الفونسو على طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، بعث الى المعتمد يطلب منه تسليم قلاع كانت بأيدي بني عباد في ولاية طليطلة ، وقال له : لا يكون لك بعد اليوم ملك في الجبل بل حدك السهل . فغضب المعتمد وضرب رسول الفونسو وقتل اصحابه . فأعلن الفونسو الحرب على المعتمد ، وعلى ملوك الطوائف ، فقر رأيهم ان يستنجدوا بيوسف ابن تاشفين ملك المرابطين من البربر في شمالي افريقيا .

معركة الزلاقة ، المرابطون في الاندلس : فلبى ابن تاشفين النجدة ، وعبر البحر الى اسبانيا ، واتحدت جيوشه وجيوش المعتمد وملوك الطوائف ، ولاقت جيوش الفونسو على مقربة من مدينة بطليوس *Badajoz* ، وانتصرت عليها انتصاراً باهراً في معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) .

وابلى المعتمد في تلك المعركة بلاءً رائعاً . وقد اسلفنا انه كان فارساً عظيم الشجاعة . قيل : وكان يلبس في الحرب درعاً من اللازورد الازرق يزينها هلال من ذهب في اطار من النجوم الذهبية . وجرح المعتمد في تلك المعركة جراحاً بليغة في وجهه وبدنه .

وعاد المرابطون وأميرهم يوسف بن تاشفين الى الشمال الافريقي .

ولكن ابن تاشفين والمرابطين ما لبثوا ان عادوا الى الاندلس وقد خلبهم سحر الطبيعة فيها ، وفتنهم غناها وخصب عيشها ، واطمعهم ما بين امرائها من تحاسد وشقاق . واستطاع ابن تاشفين ان يستولي على مدن القطر واحدة بعد اخرى لا يكاد يلقى مقاومة . ثم اقبل يريد أشبيلية ، فقاومه المعتمد بن عباد مقاومة تشهد بفروسيته واستهانته بالموت . وفي هذه الاثناء قتل للمعتمد ولدان فجع بموتهما فجيعة قاسية . وكانت جيوش ابن تاشفين اقوى من ان يستطيع المعتمد صد تيارها . فسقطت اشبيلية ، واخذ ملكها الشاعر اسيراً سنة ١٠٩١ م (٤٨٤هـ). فنقل الى افريقيا وسجن في بلدة اغمات ، ولم يبرح بها سجيناً حتى قضى نحبه منكوباً مغلوباً على امره سنة ١٠٩٥ م (٤٨٨ هـ) . قد تجرع كأس الشقاء بعد النعيم ، والشقاء بعد النعيم اشد مرارة ، وحمل الذل بعد العز ، والذل بعد العز اشد سحقاً للنفس .

المعتمد يقضي نحبه في الاسر : ولم يبق للمعتمد بن عباد في ايام محنته شيء من كل ما كان يملك ايام سعده الا الشعر يبث به آلامه . وكان حب المعتمد للشعر عظيماً ، وبذلك احب الشعراء وآثرهم ، فاكبر ابن زيدون شاعر الاندلس الشهير واكرم مقامه .

ثم لما ولي المعتمد الملك اختار وزيراً له شاعراً اسمه ابن عمار. وبلغ من دالة الشعراء والحافهم عليه وثقتهم منه بالتشجيع ان تعرضوا له يسألونه العطاء يوم مر بطنجة وهو محمول اسيراً الى افريقيا ، والمعتمد يومئذٍ احق منهم بالعطاء كما قال عن نفسه . ولكنه مع ذلك خجل من الحاف شاعر اعمى يسمى الحصري فاعطاه كل ما حواه من ذهب ، ثم لم يمدحه ذلك الشاعر اللئيم . على ان الشعراء بوجه عام قد وفوا للمعتمد وفاءً رائعاً وطافوا بقبره ورثوه بقصائد خالدات ، لا يبالون بما يمكن ان يتعرضوا له من سخط وهم يعظمون رجلا منقوماً عليه . فقال ابن اللبّانة في قصيدته الشهيرة :

تَبْكي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِ   عَلَى البَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ [1]

وقال ابو بكر بن عبد الصمد :

مَلِكَ ٱلْمُلُوكِ ، أَسَامِعٌ فَأُنَادِي ،   أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ ٱلسَّمَاعِ عَوَادِ ؟ [2]
لَمَّا خَلَتْ مِنْكَ ٱلْقُصُورُ ، وَلَمْ تَكُنْ   فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي ٱلْأَعْيَادِ
أَقْبَلْتُ فِي هٰذَا ٱلثَّرَى لَكَ خَاضِعاً ،   وَتَخِذْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ ٱلإِنْشَادِ .

وللمعتمد اخبار لطاف مع الرميكية ، او اعتماد ، التي احبها حباً عظيماً حياته كلها . ومن لطيف اخباره معها انها فُتنت يوماً بمنظر الثلج يسقط في قرطبة ، فارادت ان ترى مثل ذلك المنظر في اشبيلية ، والثلج في اشبيلية لا يقع . فغرس لها المعتمد بساتين من اللوز اذا ازهرت كان لاوراق زهرها الناصع البياض منظر الثلج .

وكانت للمعتمد بنت اسمها بثينة ، شاعرة رقيقة .

وهذه منتخبات تمثل شعر المعتمد ، واكثرها متصل بأيام محنته ، وهي الايام التي اطلق فيها اجمل شعره مصداقاً لقول الشاعر الفرنسي فكتور هوغو : بورك في هذا الشقاء الذي ينبعث من اعماقنا هذا الهتاف !

١ البهاليل : السادة الكرام . ٢ عدتك : منعتك

منتخبات

امثلة من شعر المعتمد بن عباد

الأسير وطفله وقيده

قَيْدِي ، أَمَا تَعْلَمُنِي مُسْلِمَا ؟ أَبَيْتَ أَنْ تُشْفِقَ أَوْ تَرْحَمَا ! [١]
دَمِي شَرَابٌ لَكَ ، وَاللَّحْمُ قَدْ أَكَلْتَهُ ، لا تَهْشِمِ الأَعْظُمَا . [٢]
يُبْصِرُنِي فِيكَ أَبُو هَاشِمٍ ، فَيَنْثَنِي القَلْبُ وَقَدْ هُشِّمَا . [٣]
إِرْحَمْ طُفَيْلاً طَائِشاً لُبُّهُ ، لَمْ يَخْشَ أَنْ يَأْتِيكَ مُسْتَرْحِمَا . [٤]
وَارْحَمْ أُخَيَّاتٍ لَهُ مِثْلَهُ جَرَّعْتَهُنَّ السُّمَّ وَالعَلْقَمَا .
مِنْهُنَّ مَنْ يَفْهَمُ شَيْئاً فَقَدْ خِفْنَا عَلَيْهِ لِلْبُكَاءِ العَمَى .
وَالغَيْرُ لا يَفْهَمُ شَيْئاً ، فَمَا يَفْتَحُ إِلَّا لِرَضَاعٍ فَمَا .

عيد الأسير في اغمات

فِي مَا مَضَى كُنْتَ بِالأَعْيَادِ مَسْرُورَا ، فَجَاءَكَ العِيدُ فِي أَغْمَاتَ مَأْسُورَا [٥]
تَرَى بَنَاتِكَ فِي الأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ ، مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرَا [٦]
بَرَزْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُنَّ ، حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيرَا [٧]

١ قيدي : منادى ، واداة النداء محذوفة . ٢ لا تهشم : لا تكسر . ٣ ابو هاشم : كنية ولد صغير كان للمعتمد . فينثني : فيرجع . ٤ طائشاً لبه : لا عقل له لصغر سنه . ٥ اغمات : البلدة التي سجن فيها المعتمد ، في شمالي افريقيا . ٦ الاطمار ، جمع الطمرة : الثياب المخرقة البالية . القطمير : القشرة الرقيقة بين التمرة ونواتها، والمراد: لا يملكن شيئاً. ٧ حسيرات: متحسرات، ومكاسير: منكسرات القلب .

يطأْنَ في الطِّينِ ، وَالأقدامُ حافِيَةٌ ، كأنها لَمْ تطأْ مِسكاً و كافُورا

لا خَدَّ إلّا تَشكّى الجدبَ ظاهِرُهُ ، وليس إلّا مَعَ الأنفاسِ ممطُورا [١]

أفطَرْتَ في العيدِ ، لا عادتْ إساءَتُهُ ، وكان فِطرُكَ للأكبادِ تفطيرا [٢]

قد كانَ دَهرُكَ إن تأمُرْهُ ممتثلا ، فَرَدّكَ الدهرُ منهياً ومأمُورا [٣]

مَنْ باتَ بَعدَكَ في مُلكٍ يُسَرُّ بِهِ ، فإنّما باتَ بالأحلامِ مغرُورا !

الاسير وسرب القطا

بكَيتُ إلى سِربِ القَطا إذْ مَرَرْنَ بي سَوارِحَ ، لا سِجْنٌ يَعُوقُ ولا كَبلُ [٤]

ولم يَكُ ، واللهِ المُعيدِ ، حَسادَةً ولكِن حنيناً أنْ شكلي لها شكلُ [٥]

فأسرَحُ ، لا شملي صديعٌ ولا الحَشا وَجيعٌ ، ولا عيناي يُبكيهما ثُكلُ [٦]

هَنيئاً لها أنْ لم يُفرَّقْ جميعُها ، ولا ذاقَ منها البُعدَ عن أهلِها أهلُ ! [٧]

وأن لَم تَبِتْ مِثلي تَطيرُ قُلوبُها إذا اهتَزّ بابُ السِّجنِ أوْ صَلصَلَ القِفلُ [٨]

لِنَفسِي إلى لُقيا الحِمامِ تَشوُّقٌ ، سِواي يُحِبُّ العَيشَ في ساقِهِ حِجلُ [٩]

ألا عصَمَ اللهُ القَطا في فِراخِها فَإنّ فِراخي خانَها الماءُ والظِّلُّ !

١ لا خد الا تشكى الجدب : يريد بها ما ذهب عن وجوهن من النضارة . وقوله : ممطوراً ، اراد به : مغسولاً بالدمع . ٢ تفطيراً : تقطيعاً ، تمزيقاً . ٣ ممتثلاً : طائعاً . ٤ كبل : قيد . ٥ والله المعيد : اي معيد الحياة . حسادة : حسداً . وقوله : « ان شكلي لها شكل » فتحت فيه همزة أن ، اذ المراد : لان شكلي لها شكل . ٦ الشمل الصديع : الشمل المفرق . ولا الحشا وجيع : ولا القلب موجع . الثكل : فقد الولد ، وفيه اشارة الى ولديه المقتولين في الحرب . ٧ قوله « ان لم يفرق جميعها » فتحت فيه همزة أن لانها مؤولة هي وما بعدها بمصدر في محل نصب مفعول لاجله . ٨ صلصل القفل : ارتفع صوته اذ يفتح . وصلصلة الحديد : صوته اذا حرك وقرع بعضه بعضاً . ٩ حجل : قيد .

وفيما يلي بضعة مقاطع من شعر المعتمد قبل محنته ، اضبطها بالشكل واشرح معانيها .

قال :

كتبت وعندي من فراقكِ ما عندي — وفي كبدي ما فيه من لوعة الجد
ولولا طلاب المجد زرتك طيـــه — عميداً كما زار الندى ورق الورد

وقال :

وشمعة تنفي ظلام الدجى — نفي يدي العُدْمَ عن الناس
ساهرتها والكأس يسعى بها — مَنْ ريقه اشهى من الكاس
ضياؤها لا شك من وجهه ، — وحرّها من حرّ انفـــاسي

وقال :

انا في عذاب من فراقك — نشوان من خمر اشتياقك
صب الفؤاد الى لقـــا — ئك وارتشافك واعتناقك
هـــذي جفوني أقسمت — لا تلتقي ما لم تـــلاقك
فَصِلِي جميـــل الظن بي — وثقي فقلبي في وثاقك

انشاء ادبي

بأي قصيدة لأبي فراس الحمداني ، تذكّرك قصيدة المعتمد بن عباد التي جعلنا عنوانها : « الاسير ودرب القطا » في هذه المنتخبات ؟ أي القصيدتين أسمى روحاً ؟ اكتب انشاء قارن فيه بين القصيدتين ،وتطرق فيه الى المقارنة بين« اسير القسطنطينية» و « اسير اغمات ».

القرن التاسع عشر
والإحياء الأدبي الحديث

تفاقم في عصر العثمانيين ما حاق باللغة والادب من عوامل الانحطاط بعد الذي اصاب بغداد في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم بعد خروج العرب من الاندلس في اواخر القرن الخامس عشر ، ثم بعد سقوط دولة المماليك في مطلع القرن السادس عشر .

واذا باللغة تلقى اهمالاً شنيعاً إلا ما كان من عناية بعض الافراد الذين شُغفوا بها ، والا ما كان من تعهد بعض المراكز لها ، ولاسيما **الجامع الازهر**[1] في مصر ، لاسباب تتصل بالدين.

فأما الانتاج الادبي نفسه فتضاءل مقداره جداً ، فضلاً عما اصابه من هزال في معناه بحيث يعجز الباحث ان يعثر على نظم يلمح فيه بريقاً من شعر ، او على نثر يرى فيه لمحة من بلاغة. وفشت الأمية في الرعايا العثمانيين ، ولاسيما قراء العربية ، وبارت صناعة الوراقين الذين كانو يخطون الكتب القديمة فاصبح اقتناء الكتاب امراً شاقاً باهظ النفقة ، واقتصر الناس من حاجتهم الى الكتب على المخطوطات الدينية كما اقتصروا من حاجتهم الى الادب على القصاصين يروون لهم القصص الشعبية باللغة العامية .

لكن كان مستحيلاً ان ينطوي تراث ادبي ضخم غني ، كالتراث المكتوب باللغة العربية ، ما بقي قوم يتكلمون العربية حتى ولو جهل اكثرهم قواعد فصحاها . ولقد بقي قوم يتكلمون العربية بفضل القرآن وبفضل عوامل اخرى كثيرة ، منها ان اللغة التركية التي شاء اهلها في وقت ان تحل محل العربية هي نفسها مدينة لهذه اللغة ، ومنها ان العربية ، مع فقدها فارس والاندلس ، استطاعت ان تكتسب - برغم عهد الانحطاط العثماني - شعباً اتخذها جميعه لغة اماً ، ذلك هو الشعب اللبناني . وانه لشعب قليل من حيث العدد ، على ان الاشياء ليست بالكم كما يقول الفلاسفة ، ولكنها بالكيف ايضاً . فقام الشعب اللبناني ، او بعض افراده على الاصح ، بخدمات لهذه اللغة جاءت عظيمة في عمق اثرها وبعد مداه .

١ الجامع الازهر : بناه الفاطميون في سنة ٩٧١ م (٣٦١ هـ) بعد فتحهم مصر .

ادخال الطباعة على اللغة العربية : ولعل اول ما يذكر في هذا الباب ما صنعه الرهبان اللبنانيون في اوائل القرن السابع عشر حين انشأوا **مطبعة دير قزحيا** . فبرغم ان الكتب التي طبعت فيها كانت دينية ، وبرغم ان الحروف التي استعملت فيها للطباعة كانت من الحرف السرياني المعروف بالكرشوني ، فان العمل كان كبيراً ، لان كلاماً عربياً قد ظهر مطبوعاً لاول مرة ، في قطر اتخذ اللغة العربية اماً[١] .

واذا بهذه السابقة اللبنانية تستتبع خطوة اخرى تمت في حلب في اوائل القرن الثامن عشر على يد احد الاساقفة ، فظهرت المطبوعات العربية بحرف عربي لاول مرة في ارض عربية . وقطعت مدينة حلب شوطاً مرموقاً في مضمار الطباعة .

واذا بهذه النهضة الحلبية تعود فتنفح لبنان بمطبعة باللغة العربية اوجدها شماس اسمه عبد الله زاخر ، وهي تعرف بمطبعة دير مار يوحنا الصابغ في الشوير .

قيام محمد علي الكبير والنهضة المصرية : وهكذا كان القرن الثامن عشر دور مظاهر بدائية تمثلت في تجربة وسيلة جديدة عظيمة هي المطبعة ، حتى وقعت في نهاية هذا القرن حملة بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) وفي ركابها مطبعة يوسف مرسال . فكانت حملة بونابرت تمهيداً لقيام محمد علي الكبير ، كما كانت مطبعة مرسال شبه توطئة **لمطبعة بولاق الكبيرة** التي انشأها محمد علي سنة ١٨٢٢م ، ذلك فضلاً عما اشتد من تماس الشرق العربي واوروبا بعد تلك الحملة التي قضى التاريخ بان تكون لها نتائج ايجابية عجيبة ، وسواء أكانت مقصودة او غير مقصودة .

وشرعت مطبعة بولاق تطبع الكتب العربية القديمة مع ما فيها الكتب الادبية ومنها كتاب الاغاني للاصبهاني . وارسل محمد علي بعوث الطلاب يزيدون علماً في اوروبا ويجمعون بين ثقافة شرقية عربية وثقافة غربية . فنشأ من هؤلاء ادباء يكتبون بلغة مرنة صحيحة ، ويفكرون تفكيراً فيه تعطش الى الجديد ، وفيه حرية وتسامح . ورأس هؤلاء هو رفاعة رافع الطهطاوي المتوفى سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) ، وهو صاحب كتاب : « تخليص الابريز في تلخيص باريز ، أو الديوان النفيس بايوان باريس » أودعه تأملاته في اثناء تحصيله العلوم في باريس .

واستمرت النهضة الادبية المصرية في عهد الخديوي اسماعيل ، فبنى دار العلوم العالية لتدريس العلوم العربية ، وانشأ الاوبرا ، اي : دار التمثيل ، فنفع اللغة والادب نفعاً

[١] سبقت أوروبا البلدان العربية الى الطباعة باللغة والحرف العربيين ، وذلك في القرن السادس عشر .

عظيماً ، وان يكن اساء الى وطنه من الجهة السياسية بما حمل على مصر من ديون اجنبية مهدت للاحتلال الاجنبي .

النهضة اللبنانية : وفي الوقت نفسه كانت النهضة اللبنانية تتابع خطاها ، وقام بلاط الامير بشير الشهابي الكبير بقسط في تشجيعها. وفي الدور الذي عرفت فيه مصر امثال الطهطاوي، عرف لبنان امثال الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ ابراهيم الاحدب المتوفى سنة ١٨٩١ م (١٣٠٩ هـ)[١] وكثيرين سواهما .

وتضافرت في احداث النهضة اللبنانية عوامل عدة تمثلت في **مطابع وجمعيات ومدارس ومكتبات** ، منها الوطني ومنها الاجنبي . وتمثلت كذلك في جهود بعض الافراد اللبنانيين، والفرد اللبناني خليق بجهود رائعة. ثم لم يقتصر نشاط اللبنانيين على وطنهم بل حملوه الى غيره ولا سيما مصر حين اكثروا من الهجرة اليها لما آنسوا فيها من مدى أرحب ولما خافوه من اضطهاد السلطان عبد الحميد الذي ولي الحكم من سنة ١٨٧٦ م الى ١٩٠٩ م .

ومن ميزات النهضة اللبنانية انها طمحت منذ بدئها الى التجديد .

وقد استطاع اللبنانيون ان يكونوا السابقين في خدمة الادب العربي الى جملة امور . منها انهم **عرّفوه التمثيل** ، كما سبق لنا القول ، وكان رائد هذا الفن مارون النقاش في سنة ١٨٤٨م . **وعرّفوه الموسوعات** على ما يشبه النسق الحديث ، فاصدر المعلم بطرس البستاني المتوفى سنة ١٨٨٣م اجزاء من «دائرة المعارف» وما زالت محاولته التي بدأ بها ولم يستطع ان يتمها ، هي المحاولة الجدية الوحيدة لانشاء موسوعة عصرية بالعربية . وكذلك **عرّفوه الملحمة** فعرب سليمان البستاني الياذة هوميروس شعراً . **وعرّفوه الصحافة** ولا سيما صحافة المجلات العلمية والادبية ، فانشأ الدكتور يعقوب صروف[٢] مجلة المقتطف في بيروت سنة ١٨٧٦ م ، ثم انتقل بها الى مصر ، وانشأ جرجي زيدان مجلة الهلال في مصر سنة ١٨٩٢ م ، وانشأ الشيخ ابراهيم اليازجي مجلة الضياء سنة ١٨٩٦م في مصر ايضاً، وكلها مجلات كان لها اثر كبير في جعل اللغة العربية الفصحى والنثر العربي المرسل اداة صالحة لموضوعات علمية وادبية بعد انقطاع طويل .

١ الشيخ ابراهيم الاحدب : لبناني من اعلام الادب العربي الحديث . اشهر آثاره : فرائد اللآل في مجمع الامثال ، نظم فيه امثال الميداني وشرحها شرحاً مستفيضاً .

٢ انشأ الدكتور صروف مجلة المقتطف بالاشتراك مع الدكتور فارس نمر .

وكذلك عرّف اللبنانيون الادب العربي فن القصة مترجمـة وموضوعة، وتاريخية ومخترعة، وطويلة وقصيرة.

وكان اللبنانيون اول من فتح المجاري بين الادب العربي والآداب الاوروبية، ومنهم نشأ اكبر الادباء الكتّاب بلغتين: عربية واجنبية من مثل جبران خليل جبران (١٨٨٣–١٩٣١ م) (١٣٠١–١٣٥٠ ﻫ) وامين الريحاني، وسنعود الى ذكره.

ولكن هذه النهضة اللبنانية المشرقة التي انتشرت في كل افق عربي، ووجدت لها بقاعاً من سماء الغرب اضاءت فيها، قد تعرضت للضعف، لأن اعظم جانب منها انمـا اعتمد على جهود الافراد او المؤسسات الخاصة وأبرزها اجنبي، وقد اصبحت جهود الافراد اقل من ان تغني في عصر كعصرها. ومثلها جهود المؤسسات الخاصة. وبرغم ان المعارف اللبنانية قد ادخلت مادة الادب العربي، والفكر العربي، على منهج التعليم، فما زال لبنان يخلو من جامعة مع ما يجب ان تشتمل عليه الجامعة من فرع للادب والفكر العربيين، وكذلك ما زال يخلو من مجمع علمي، ومن دار للتمثيل يحيا بحياتها الادب المسرحي.

الشعر والنثر في النهضة الحديثة : وقد كان طبيعياً جداً ان يكون اول طور مرّ به الأدب العربي في نهضته الحديثة هو طور التقليد، فيسلك الشعراء والكتّاب مسالك من تقدموهم. وهكذا بدأت النهضة الحديثة شعراً ينسج فيه، او يحاول النسج فيه، على منوال من بقي ذكرهم حياً من القدماء وبقي شعرهم محفوظاً، كالمتنبي وصفي الدين الحلّي وابن الوردي الخ... وليس فيهم شاعر كبير إلا المتنبي وبدأت النهضة الحديثة نثراً في مقامات ورسائل يضرب فيها على غرار[١] الحريري ويلتمس فيها السجع وكثيراً ما يلتمس التقعّر[٢].

واشهر ممثلين لهذا الطور التقليدي، في النهضة الادبية الحديثة، هما: **سامي باشا البارودي والشيخ ناصيف اليازجي**، والبـارودي مصري توفي سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٢ ﻫ) في مطلع القرن العشرين. وكان مشرّباً روح الشعر القديم، كلفاً بمعارضة شعرائه، يؤثر باب الحماسة والفخر، ولعل من اسباب ذلك انه كان جندياً قائداً[٣] حتى لقبه بعضهم صاحب السيف والقلم، وخاتمة الشعراء الفرسان.

واما الشيخ ناصيف اليازجي فسوف نعود الى ذكره...

على ان هذا الطور – طور التقليد – لم يستطع ان يستمر مسيطراً على النهضة الادبية

١ فلان يضرب على غرار فلان: يحاكيه ويتشبه به. ٢ التقعر، هنا: طلب اللفظ الغريب. ٣ شهد البارودي المعارك بين الدولة العثمانية وروسيا، ورقي فيها الى رتبة لواء، كما اشترك في الثورة العرابية التي نهض بها احمد عرابي باشا في عهد الخديوي توفيق حين كان البارودي وزيراً، وقد نفي بعد الثورة الى سيلان. ولا شك ان للبارودي من التضلع من الشعر ما يشفع بكثرة تقليده للاقدمين.

الحديثة . فتوثق الصلة باوروبا ، وانتشار اللغات الاجنبية بين الناطقين بالعربية ، ودرس الآداب الاوروبية ، واشتداد الحركات الوطنية العربية في سبيل التحرر من اغلال الاستعمار، وقيام حركات الاصلاح الاجتماعي ، كل ذلك أثار في طريق الشعر والنثر مشاكل وموضوعات دعت الى الانطلاق من بعض القوالب القديمة ، كما دعت الى اشتقاق قوالب وألفاظ جديدة ، واوجبت تجديداً في معاني كثير من الاغراض القديمة التي بقيت دائرة في الاستعمال .

وهكذا اهمل السجع لانه يضيّق على الكاتب مذاهبه في تتبع فكرته وتوسيعها، واصبح الشعراء لا يرون بأساً من تنويع القوافي في الشعر ولاسيما ما كان قصة او مسرحية ، لان التزام القافية الواحدة يقصر على الشاعر الشوط الذي يجري فيه ، وغلب النثر المرسل على الانشاء ، لانه النثر الذي يلبي غرض التأليف ومقالات المجلات والصحف ، ودخلت على اللغة ألفاظ اجنبية ولاسيما في ابواب العلوم ، واكتسب كثير من الالفاظ القديمة معاني لم تكن من قبل .

الا ان اللغة العربية الفصحى بقيت على خاصيتها الاساسية القديمة لغة اعراب ، وبقيت على قواعدها القديمة في الاعراب والتركيب ، كما بقي الشعر العربي قائماً على قوانينه القديمة في الحركة والسكون ، ومعنى ذلك ان الكتّاب والشعراء لا ندحة لهم عن استعمال هذه الاداة العربية الموروثة ليؤدوا بها ، شعراً او نثراً ، اغراضهم ومعانيهم المستحدثة ، فلا بدّ لهم اذاً من اتقانها ، ذلك افضل لهم من اضاعة الوقت بالتحدث عن صعوبتها . واتقانها لا يكون الا بدرس آثار فصحائها وبلغائها من الشعراء والكتاب القدماء . وقد اصبح درس هذه الآثار متاحاً على وجه يدعو الى الرضى، لان كثيراً من هذه الآثار قد نشر مطبوعاً ، وضبطت نصوصه ، وربط بالتعليقات التاريخية الضرورية لفهمه . وهنا لا بد من التنويه بفضل كبار المستشرقين لما قاموا به في هذا السبيل[١] .

١ المستشرقون طائفة من علماء الغرب عنوا بتاريخ العرب والحضارة والآداب العربية . ومهما اختلفت بواعثهم على هذه العناية، ومهما قصروا عن ادراك جمال العبارة في الآثار الادبية العربية، لانهم اجنبيون، فلا شك انهم قد اسدوا خدمة كبيرة بما ادخلوه على الدراسات العربية من أسلوب البحث العلمي . ومن شيوخ المستشرقين : البارون سيلفستر دي ساسي الفرنسي ، المتوفى سنة ١٨٣٨ ، ودوزي الهولندي صاحب تاريخ العرب في اسبانيا (توفي سنة ١٨٨٣) ، ولويس ماسينيون الفرنسي ، الشهير بدراسة التصوف والمتصوفين، وهولا يزال حياً ، وتيودور نولدكي الالماني المتوفى سنة ١٩٣١ ، وبروكلمان الالماني وهو صاحب تاريخ علمي جامع للادب العربي ، ورينولد نيكولسون الانكليزي وهو صاحب تاريخ ادبي موفق للعرب ، وانطوان كراتشكوفسكي الروسي، الخ...

اشهر فنون الادب المستجدة في النهضة الحديثة : اما الفنون التي استجدها الادب العربي مع نهضته الحديثة فقد سبق لنا ان ذكرنا اشهرها في مواضع مختلفة من الكتاب . لكن نحسن اعادة ذكرها مجموعة في هـــذا المكان ، واولها التأليف المسرحي نثراً ثم شعراً . ويلي التأليف المسرحي ظهور القصة الحديثـــة الموضوعة . ثم ظهور المقالة التي تصلح للمجلات والصحف اليومية ، ونريد بالدرجة الاولى نوع المقالة السياسية او السياسية الاجتماعية ، فانه نوع يعد جديداً في الادب العربي .

ومما يعد جديداً كذلك نظم القصائد القصصية الطوال، مثل الجنين الشهيد لخليل مطران[1] ونظم القصائد الوصفية الاخبارية الطويلة ، مثل « كبار الحوادث في وادي النيل » لاحمد شوقي ، و« نيرون » لخليل مطران . ففي الاولى يحاول شوقي ان يؤرخ لمصر في قصيدة واحدة ، وفي الثانية يعرض مطران لعهد الطاغية نيرون ويصور احراقه روما .

ومما يعد جديداً ، كذلك ، تجربة الشعر المنثور ، وكان السابق اليه امين الريحاني . وبناء هذا الفن على اطّراح الوزن وابقاء القافية التي تتنوع وتختلف . وبكلمة اخرى انه شعر في سجع . ولكن لم يوفّق هذا الفن الى ازدهار ولا الى ابداع .

وفيما يأتي درس موجز لكل من خمسة اعلام لمعت اسماؤهم في النهضة الحديثة ، وتجلى فيهم كثير من جوانب هذه النهضة في طوريها : التقليدي والتجديدي .

الشيخ ناصيف بن عبد الله اليازجي[2] . — اعظم اولئك اللبنانيين الذين مثلوا النهضة الادبية الحديثة في طورها التقليدي المحض ، ومن اعظم من مثلوا النهضة في الاقطار العربية في ذلك الطور الاول من اطوارها ، وُلد في قرية كفرشيما على الساحل اللبناني سنة ١٨٠٠م (١٢١٤ هـ). وكان والده طبيباً على المذهب القديم يتعاطى الشعر ويحب الادب، فعلّم ابنه علمه بالطب وأشربه ذوقه الادبي ، فنبغ ناصيف طبيباً في جملة الاشياء ، ولكنه مال الى اللغة والكتابة والنظم واشتغل بالتدريس . وبين الذين اشتركوا في تخريجه وتوجيهه احد

١ خليل مطران ، الملقب بشاعر القطرين، ولد في بعلبك سنة ١٨٧٠ ، وتوفي في القاهرة سنة ١٩٤٩. تخرج على الشيخ ابراهيم اليازجي وتضلع من الفرنسية وآدابها . اشتهر بنظم القصص ودقة الوصف وبناء القصيدة على موضوع . ومن خير شعره الذي وفق فيه قصائد قصصية صور بها الطغاة وعواقب مظالمهم وسفه بها خنوع الشعوب لهم وحض على الحرية . وقد جمعت هذه القصـــائد في سفر خاص عنوانه : الطغـــاة ، صدر عن دار المكشوف في بيروت . وخدم مطران الأدب التمثيلي العربي بما عرب من مآسي شكسبير كهملت وغيرها .

٢ اليازجي : لفظ تركي معناه الكاتب ، واصله لقب اطلق على الاسرة اليازجية لان واحداً منها كان كاتباً لاحد ولاة الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر .

الرهبان اللبنانيين ، الا ان الواقع ان نبوغ الشيخ ناصيف لم يكن بتعليم، بل برغبة منه في العلم وبذكاء حاد وحافظة قوية ، فهو بالنتيجة كان أفضل استاذ لنفسه. ولقلة الكتب في زمانه كان يطلبها حيث وجدها، ولاسيما في الاديرة، وبعضها كان ينسخه بخطه الجميل . ومن المؤسف حقاً ان يكون ذلك الدأب الذي تحلى به الشيخ ناصيف وأمثاله قد فقد بين محصلي العلم اليوم .

الشيخ ناصيف اليازجي



مغنى ذكر الملوك بكل عصر
وذكر السوقة الفقهاء باقٍ !

وتلخص سيرة الشيخ ناصيف في انه كتب مدة للامير بشير الشهابي الكبير،ثم لما خرج الامير من لبنان سنة ١٨٤٠ م استقر الشيخ في بيروت يتعاطى التدريس ويؤلف وينظم . فكان له اثران كبيران : اثر ملموس في هذه الكتب والدواوين التي خلفها لنا ، واثر في اولئك الطلاب الذين اشربهم حب العربية .

ولم تكن للشيخ ناصيف معرفة بلغة اجنبية ، فكان طبيعياً ان تقتصر آفاقه على آفاق الادب العربي القديم ولاسيما ما كان ماثلاً يومئذ في الأذهان والادب العربي لم يدرس بعد على نحو ما ندرسه اليوم .

وهكذا عرف الشيخ ناصيف المتنبي والحريري وابن الوردي وصفي الدين الحلي، كما عرف معاجم اللغة وكثيراً من الكتب التي تختصر قواعدها . ويمكن القول انه طمح الى ان يجمع ذلك جميعاً في شخصه فيكون متنبئاً وحريرياً وابن ورديٍّ ، ومؤلفاً لغوياً . فأنشأ مجموعة مقامات سماها **مجمع البحرين** حاكى فيها الحريري ، ونظم قصائد في المدح حاول فيها ان يكون على قوله : « كأنه قاعد في قلب المتنبي » ، كما نظم قصائد في الحِكَم ذهب فيها مذهب ابن الوردي في لاميته الى تعظيم العلم وترك التكالب على المال والى التخلق بالزهد ، واخرج اسفاراً في الصرف والنحو والبيان ، اشهرها **عقد الجمان** وهو كتاب مدرسي اختصر به علم المعاني والبيان والبديع والعروض .

ولسنا نحتاج الى القول ان الشيخ ناصيف لم يؤتَ شيئاً من روعة المتنبي في الشعر ،

كما ان مقاماته الستين التي اودعها « مجمع البحرين » هي مجرد شكل اصطنعه ليحشد فيه، مع هذا السجع الذي لا يخلو من تكلف ، شواردَ الفاظ ونوادرَ تراكيب ، والغازاً واحاجي ، واشارات الى حوادث تاريخية لم يشتهر امرها ، وعادات عربية قديمة . فليس في الكتاب صورة من الحياة اللبنانية ، ويوشك ان لا تكون فيه قصة ولا تصوير ، فشخص الخزامي ، بطل مجمع البحرين، شخص ممحو، وهو عبارة عن حافظ مجيد تسميع ما حفظ، وفي احيان هو عبارة عن لاعب رياضة بالكلام ينظم منه ما يقرأ طرداً وعكساً[1] ، وذلك بخلاف شخص ابي زيد السروجي بطل مقامات الحريري ، وابي الفتح الاسكندري بطل مقامات الهمذاني فان البطلين ، ولاسيا الاسكندري ، يفيضان بالحياة . وعلى الجملة ، فمجمع البحرين مؤلف تعليمي في اللغة والنصوص الادبية ، وليس بمؤلف فني .

والصفة التعليمية هي الغالبة على آثار اليازجي كلها ، فهو تعليمي حتى في افضل آثاره ، نعني قصائده الحكمية ، على أنه يرتفع فيها ، شأنه شأن ابن الوردي ، الى مستوى الشاعر ، لانه لا يتكلف فيها الا ما انقاد له من لفظ وتركيب يتناولهما من غيره ولكنه يحسن استعمالها ، والا ما انساق له من معانٍ طرقها سواه ولكنها اصبحت معانيه لانه احسها في حياته التي وقفها على العلم ، ولا بد في كل حياة توقف على العلم من عنصر زهد ، ومن ألم يشجي العلماء كلما تأملوا تحكم المال ، وتأملوا المداراة التي يوجبها عليهم السلطان السياسي ، فينشدون مع الشيخ ناصيف :

مَتَى تَرَ الكَلْبَ في أيّامِ دَوْلَتِهِ ، فَالبَسْ لِرِجلَيْكَ أطواقاً مِنَ الزَّرَدِ[2]
وَاعْلَمْ بأَنَّ عَلَيْكَ ٱلعَارَ تَلْبَسُهُ ، مِن عَضَّةِ الكَلْبِ لا مِنْ عَضَّةِ ٱلأَسَدِ
لاَ تَأمُلِ ٱلخَيْرَ مِن ذي نِعْمَةٍ حَدَثَتْ
فَهُوَ ٱلحَرِيصُ على أثْوابِهِ ٱلجُدُدِ[3]

هذا ، وكانت وفاة الشيخ ناصيف سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ ه) ، مصاباً بالسكتة الدماغية .

وتجد في المنتخبات ، آخرَ هذا الفصل ، مختاراً من شعر الشيخ ناصيف الحكمي ولاسيا قافيته الشهيرة .

١ كقوله : قيل افتح باب جار تلقه قلت راج باب حتف اليق فانك لو بدأت قراءة البيت من آخره لاستقام كما لو انك قرأته من اوله . ٢ اطواقاً من الزرد : اطواقاً منسوجة من الحلق المعدني ، لكي لا تنفذ عضة الكلب الى رجليك . ٣ من ذي نعمة حدثت : من صاحب النعمة الحديثة الذي كان فقيراً فأثرى .

الشيخ ابراهيم بن ناصيف اليازجي ، حلقة الوصل في النهضة الحديثة بين طورها التقليدي المحض وطور التجديد، ابصر النور في سنة ١٨٤٧ م (١٢٦٤هـ) في بيروت ، ووالده الشيخ ناصيف في السابعة والاربعين من عمره قد طارت له شهرة في الآفاق شاعراً وكاتباً وعالماً لغوياً. فما ادرك الصغير سنّ الوعي حتى تولى ابوه تثقيفه ، وكان هو عظيم الاستعداد لقبول العلم، وكان ابوه عظيم العناية به ، فاتيح له تخريج في اللغة قلما اتيح لغيره، واجتمع له من دروس ابيه اساس متين بنى عليه باجتهاده وقوة ابتكاره بناءً متقناً عالياً .

الشيخ ابراهيم اليازجي



النثر هو القالب الطبيعي للكلام الموضوع للابانة عن المعاني ... فوجب ان يكون بحيث يعبر به عن المقاصد بأبين الصور واوضحها.

خلاصة سيرته : اما سيرة الشيخ ابراهيم، في تلك السنين التسع والخمسين التي قضاها، فتلخص باسطر يسيرة اللفظ كبيرة الدلالة... استهل الشيخ حياته بالعمل الصحفي، وفي هذا المستهل من حياته نشبت المناظرة بينه وبين احمد فارس الشدياق[1]، ولم تكن سن الشيخ ابراهيم الا اربعاً وعشرين سنة في مقابل ست وسبعين كانت سن الشدياق. فابدى اللغوي الناشىء تضلعاً يدعو الى الاعجاب وان لم يدع الى الموافقة . ثم اشتغل بتصحيح ترجمة اليسوعيين للكتاب المقدس فاجاد اجادة رائعة، ولاسيا تصحيحَ عبارة « العهد العتيق » . ثم اشتغل بالتدريس ، فنشّأ اعلاماً في الادب كالشاعر خليل مطران . غير انه نزع ثانية الى الصحافة ، ثم ما لبث ان انتقل الى مصر حيث انتهى باخراج مجلة الضياء ، فاصبحت مثال سلامة اللغة بين مجلات العربية . وواصل عمله فيها حتى ادركته المنية سنة ١٩٠٦ م (١٣٢٤ هـ).

وظفر الشيخ ابراهيم في حياته بتكريم طائفة من الجمعيات العلمية في الغرب ، واشهرها الجمعية الفلكية في باريس ، وفي انفرس مرفأ بلجيكا .

وبعد موته بسبعة اعوام نقل رفاته الى بيروت ، وتبرع ابنانيو البرازيل – كما ذكرنا –

١ انظر الصفحات : ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٥٢ .

باقامة نصب له ، سنة ١٩٢٤ ، في العاصمة اللبنانية .

ميزته واشهر آثاره : وميزة الشيخ ابراهيم انه كان حلقة الوصل في النهضة الحديثة بين طورها التقليدي المحض وطور التجديد . وافصح تعبير عن ميزته نجده في مقالاته العلمية والادبية ، وسواء منها ما اتصل بموضوعات العلم ، ولاسيما الفلك ، او بموضوع اللغة والنقد .

لقد افاق الشيخ ابراهيم على عصر ترقّت فيه العلوم ، وكان في طبعه ميل شديد اليها ، يقترن بحرص عظيم على اللغة العربية التي عاشرها صغيراً يحفظ منها دروس ابيه ، فخالط حبها دمه . ولقد أحس الشيخ ابراهيم حاجة ملحة الى معالجة امر هذه اللغة بحيث تتسع للاغراض الحديثة ولاسيما الاغراض العلمية . فبدأ بترك السجع إلا فيما لا يضير فيه السجع من مثل الرسائل ومطالع المقالات . ثم عمد الى اللفظ ، فاستغنى فيه عن الاكثار من الكلمات المطلقة وحرص على الكلمات المقيدة للمعاني الدقيقة ، كما استنبط الفاظاً وضعية قيّدها بمعانٍ علمية [١] ، ثم لم يتردد في ان يدخل على الانشاء الفاظاً اعجمية [٢] حين اعياه استنباط المرادف لها بالعربية . وفوق ذلك رد على حظيرة اللغة كل لفظ او تعبير اشتهر بانه عامي وهو فصيح [٣] .

وذهب الشيخ ابراهيم في ذلك كله الى ان اللغة ينبغي لها ان تواكب العصر ، كما يثبت في مقالته : « **اللغة والعصر** » ، وذهب كذلك الى : «ان النثر هو القالب الطبيعي للكلام الموضوع للابانة عن المعاني التي تتمثل في النفس ، يتخاطب به العالم والجاهل والذكي والبليد والكاتب والامي ، فوجب ان يكون بحيث تتفاهمه هذه الطبقات كلها ، ويُعبر به عن المقاصد بأبين الصور وأوضحها . وذلك يقضي ، ولا جرَم ، بان يُستعمل لكل معنىً اللفظُ الموضوع له ، بحيث يُنتقل من اللفظ الى المعنى من غير واسطة .»

وهكذا كان افضل انشاء الشيخ ابراهيم – على نحو ما نرى في هذه القطعة التي سبقت من كلامه – انشاءً لا يحتال على سجع ولا يفسح مجالاً في كلمة او تركيب ، لغموض او تعقيد ، حتى ولو تعرض في احيان للجفاف . وأنت اذا تأملت هذه القطعة السابقة من كلامه ثم اجتهدت ان تجد فيها لفظة او جملة تتيحان لك تأويلاً او حيدة عن المعنى المقصود اقررتَ بعجزك .

ومع ذلك ، فهذا المنشىء الذي اراد تليين اللغة وتوسيعها على هذا النحو ، كان متشدداً جداً في امر افساد اللغة بالركاكة والمخالفة لقواعدها ، فتتبعَ الصحف ونقدها في رسالته

١ وهذه الالفاظ اصبحت اليوم دائرة في استعمالنا نطقاً وكتابة . ومنها : السيارة والدراجة والمنطاد والطراد والهاتف واللاسلكي والموسوعة ... ٢ مثل قوله : الدكسترين والبنكرياس في مقالته : « كلام في الطعام » وهي مثبتة في المنتخبات آخر هذا الفصل . ٣ مثل قوله في مقالة له في الرياضة : «وبذلك نعرف الدم عن اعضاء الهضم فتتابك في عملها ... » فقد كان المظنون ان تتابك عامية .

« لغة الجرائد » و « مغالط الكتّاب »، ذلك انه كان يريد ان تتقدم اللغة من طريق التضلع منها واستنفاد وسائلها وتحميلها كل ما تتحمل مع الابقاء على صحتها . وكان يؤمن بأن اللغة قادرةٌ آخرَ الامر على النهوض بالعبء وعلى تلبية الدواعي التي يوجبها التقدم .

أما اشهر آثار الشيخ ابراهيم مما ظهر مطبوعاً، فكتاب **«نجعة الرائد في المترادف والمتوارد»** وهو عبارة عن مفردات وتعابير تزود المنشىء عُدّة يحتاج اليها في الانشاء، ولم يتم منه الشيخ الا جزئين. وله مقالات متفرقة في المجلات والجرائد ولاسيا الطيب[1] والبيان[2] والضياء، وهي افضل آثاره من حيث الابداع في الانشاء، وعليها بنينا بحث ميزته . وله ايضاً مجموعة رسائل، وشعر قليل . وهو الذي اتم كتاب « العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب» وكان والده قد شرع فيه فانجزه الشيخ ابراهيم وذيّله بذيل في شعر المتنبي، وابقى نسبة الكتاب الى والده اكباراً له واعترافاً بفضله .

(تجد للشيخ ابراهيم، في منتخبات هذا الفصل، امثلة على نثره العلمي) .

يعقوب بن نقولا صروف . — الدعامة الكبرى في بناء اقدم مجلة، واشهر مجلة عربية وجهت همّها لموضوعات العلم، تكتبها بلغة تقرّبها من الاذهان. هو لبناني متمصر، ولد في بلدة الحدث في جوار بيروت، سنة ١٨٥٢ م (١٢٦٩ هـ) . وبعدما اتم دروسه الجامعية سنة ١٨٧٠ م، فبرع في العربية والانكليزية واصاب حظاً من الفرنسية واليونانية، عدا ما تعرّفه من العلوم الطبيعية والفلسفية، اشتغل مدة بالتعليم. غير انه ما لبث ان انشأ مع صديقه الدكتور فارس نمر **مجلة المقتطف** لبحث المسائل العلمية والزراعية والصناعية في جنب المسائل الادبية. وكان ذلك في سنة ١٨٧٦ م.

ومن ثم تصبح حياة الدكتور صروف حياةَ مجلة. فقد كان هو القيم على إعداد مادة المقتطف واخراجها في السنين الاثنتي عشرة التي صدرت فيها المجلة عن بيروت. ثم كان هو القيم على اعداد مادتها واخراجها طوال الاعوام التي عاشها في مصر بعدما انتقل اليها سنة ١٨٨٨م. وهكذا لبث يتولى امر المقتطف، منذ نشأتها حتى وفاته سنة ١٩٢٧ م (١٣٤٦ هـ)، مدةً نيفت على خمسين عاماً .

وكثير من المادة التي اشتمل عليها المقتطف في تلك الاعوام الخمسين كان وضعَ الدكتور

١ الطيب: مجلة تولى اخراجها في بيروت سنة ١٨٨٤ مع صديقيه الدكتور بشاره زلزل وخليل سعاده. ولم تعش الا سنة واحدة . ٢ البيان : مجلة انشأها مع الدكتور زلزل في القاهرة قبل ان ينشىء الضياء .

الدكتور يعقوب صروف



ان في النـــاس فئة تنسب الى الخليقة الكمال في كل شيء فتقول ، مثلاً ، ان جسم الانسان تام سوي في نظامه وتركيبه. ولكن سل الاطباء يخبروك ان ذلك ليس كذلك، وان فيه من العيوب ما لو ازيل لعمر اكثر مما يعمر الآن ...

صروف او تعريبه . ومع ان للدكتور صروف آثاراً سوى مقالاته في المقتطف ، معربة او موضوعة[1] ، فان مقالات المقتطف هي افضل آثاره وعليها تقوم منزلته وفيها تتجلى ميزته .

ومن هذه المقالات طائفة اتخذ موضوعها: **نوابغ العرب والانكليز** ، عمد فيها الى المقابلة بين بعض الاعلام كالمعري وملتون[2] وابن خلدون وسبنسر[3] وصلاح الدين وريكاردوس قلب الاسد .

ومن مقالاته طائفة في الآثار التاريخية المصرية، وكان يعتمد في وصفها على مشاهدتها من كثب وعلى مطالعة ما كتب العلماء فيها .

لكن لا شيء مما خطه قلمه ، في باب العلم ، يضارع **مقالاته في الفلك والنبات والحيوان والكيمياء والطبيعيات** . وكان يجمع لها المادة مما يطالعه في المجلات والكتب الاجنبية ولاسيما الانكليزية . وكثيراً ما كان يرجع الى اعلام القدماء ممن كتبوا بالعربية في تلك الموضوعات كالجاحظ والقزويني والدميري[4]. ونراه في احيان، يصف لنا مشاهداته الخاصة او ما يستنبطه بالنظر العقلي .

مقابلته بالشيخ ابراهيم اليازجي : وعلى الجملة فالمادة العلمية في مقالات الدكتور صروف اوفر مما هي في مقالات الشيخ ابراهيم اليازجي. وسبب ذلك ان الشيخ ابراهيم لم يكن صاحب ثقافة جامعية في العلوم كما كان الدكتور صروف ، فضلاً عن ان حظ الشيخ ابراهيم من اللغات الاجنبية

١ من اثاره المعربة : كتاب «سر النجاح» وهو ارشادات في الاخلاق والسلوك، نقله عن الدكتور سميلز، ومن اثاره الموضوعة: فتاة مصر(رواية)وفتاة الفيوم(رواية). ٢ جون ملتون *Milton* شاعر انكليزي أعمى، من شعراء القرن السابع عشر ، صاحب ملحمة : « الفردوس المفقود » . ٣ هربرت سبنسر *Spencer* ، من فلاسفة انكلترا في القرن الثامن عشر . اشتهر بفلسفة بناها على نظرية التطور . ومن كتبه : « مبادىء في علم الاجتماع » ... ٤ الدميري ، كمال الدين ، محمد بن موسى ، هو صاحب كتاب : « حياة الحيوان الكبرى » ذكر فيه الف نوع من الحيوان ورتبها على حروف المعجم . توفي سنة ١٤٠٥م (٨٠٨ ه) في مصر ، وكان فقيهاً مقرئاً بالجامع الازهر.

الحية كان عبارة عن مبادىء في الفرنسية لا تذكر. يزاد على ذلك ان الشيخ ابراهيم كان يتوخى في الكتابة العلمية ان يزيّن عليها العبارة العربية الصحيحة، بينما كان الدكتور صروف يعالج موضوعات العلم وليس له ادنى غاية لغوية، بل غايته كلها عرض الحقائق والمعلومات التي اتصلت به. ومن هنا كانت مقالات الدكتور صروف اوفر مادة علمية، كما قلنا، بينما كانت مقالات الشيخ ابراهيم اصح لغة واجمل عبارة.

انشاء الدكتور صروف واسلوبه: وخير صفة يُنعت بها انشاء الدكتور صروف انه بسيط. الا ان عدة الكاتب من الالفاظ، ولاسيما الالفاظ الوضعية، وقدرته على صياغة الجمل، وافتتان عما يشترط في الكتابة العلمية من شرط رئيسي هو دقة الاداء للمعنى. وتشيع في الالفاظ الوضعية التي يستعملها الدكتور صروف الفاظ أجنبية لانه يطرق موضوعات علمية حديثة تستدعي مثل هذه الالفاظ التي لا توجد في العربية، والتي لا يكلف الدكتور صروف نفسه عناء استحداث مرادفات لها لانه لم يكن لغوياً.

على انه اذا لم يكن لغوياً فهو في احيان كثيرة يبدي صفات الاديب الذي يتوخى الطرافة في الموضوع والاسلوب، فيؤدي ما يريد تأديته من مادة علمية بطريقة الحكايات، كما يسوق الشواهد من الشعر اللطيف يحلّي به انشاءه. فاذا اجرى الحديث عن بروج الفلك مثلاً، ذكر لك رجزاً للشيخ ناصيف اليازجي بدأه بقوله:

من البروج في السماء الحمل   تنزل فيه الشمس اذ تعتدل

واذا تحدث عن الببغاء استهل كلامه برجز لاديب عربي قديم اسمه ابو اسحاق الصابي، عاصر الشريف الرضي ووصف الببغاء فقال:

الفتها صبيحة مليحه   ناطقة باللغة الفصيحه
عُدّت من الاطيار واللسانُ   يوهمني بانها انسانُ

الدكتور صروف المفكر: والدكتور صروف بعد هذا كله مفكر. وكثيراً ما يمهد لمقالاته بتأملات ينزع فيها الى الفلسفة، بل كثيراً ما يوقفك في منتصف المقالة ليسمعك مثل تلك التأملات. فهو يلحظ، على حد قوله مثلاً: «ان اظهر ما في الكون من الآيات بين الاحياء آية سطرت في اديم الارض ورحاب الفضاء — وهي ان القوي يأكل الضعيف.» لكنه يلحظ كذلك ان هناك وجهاً آخر: «وهو وجه التعاون والتعاضد لدفع الضراء والوئام والسلام في اقتسام السراء.» ثم يأتيك بالبرهان من تعاون النحل وتناصر النمل. ويعرض كذلك للميزة التي تسمو بالنوع الانساني فوق باقي الكائنات، وهي مسألة كثر فيها الجدال،

فيقرر : ان لا ميزة للانسان الا النفس الخالدة ، فينتهي من مطافه في العلوم الطبيعية ملاقاة أصحاب النظرية اللاهوتية، وان كان لا يؤمن بان الخليقة اتت كاملة في كل شيء كما تدل كلمته المثبتة تحت رسمه .

هذا، وقد ُجمع من مقالات الدكتور صروف العلمية، في المقتطف، كتابان هما: « بسائط علم الفلك وصور السماء » و « فصول في التاريخ الطبيعي من مملكتي النبات والحيوان ». والاول جمعه في حياته وقدم له مقدمة وجيزة، والثاني ُجمع بعد وفاته وقدمت له مي زيادة[1].

(تجد في المنتخبات، آخرَ هذا الفصل ، أمثلة على النثر العلمي في آثار الدكتور صروف ، اخترناها من هاتين المجموعتين) .

احمد شوقي . ـ أغزر شعراء العربية انتاجاً ، وأجمعهم لاغراض الشعر العربي القديم واشكاله، ورائد الشعر التمثيلي في اللغة العربية،فضلاً عن بعض حظ اصابه في السجع ـ ذلك هو احمد شوقي . مدح ورثى، وتغزل ووصف، ونظم الحكم والقصص، وقال في الموضوعات الوطنية والاجتماعية والسياسية ، وانشأ المسرحيات ، واستعمل القصيدة والموشح والرجز ، وفي ذلك كله اتيح له ان يجيد،وان يكن تفاوت حظه من الاجادة. فاذا كانت العظمة الأدبية تقاس بالسعة ، فشوقي اعظم شعراء العربية. ولكن للعظمة الادبية ، ولاسيا الشعرية،مقاييس اخرى ، منها الاوج الذي يرتفع اليه الشاعر ولو في غرض واحد، والروعة التي يُختص بها ، وهنا يظهر لشوقي مزاحمون يبذونه في اكثر اغراضه، فلا تبقى له الا منزلة السابق الى الشعر التمثيلي . ولا شك ان شوقي قد قدم بجهوده في هذا الفن (اي : الشعر التمثيلي) افضل ما استطاع تقديمه للنهضة الحديثة في طورها التجديدي .

شوقي والامثال : والاحاطة بشوقي ، من نواحيه جميعها، تجاوز بنا حدود هذا الكتاب . ذلك اننا ُمطالَبون بان نتعرف ناحية منه هي نظمه الامثال القصصية الخرافية .

وفي آثار شوقي طائفة كبيرة من هذه الامثال القصصية الخرافية ، نظمها في مطلع حياته الشعرية ، واودعها ديوانه الاول ، ثم ُنشرت في الجزء الرابع من شوقياته مع ما زاده عليها الشاعر ، وهي من اكثر شعره انتشاراً في كتب القراءة للأحداث .

ومعلوم ان الادب العربي غني منذ نشأته بالامثال . لكن اكثرها حكمٌ افرغت في ُجمَل قصار او ابيات شعر . فاما الامثال التي هي قصص خرافية فقد غنيَ بها الادب العربي

١. ميّ زيادة : اديبة ولدت في الناصرة من مدن فلسطين ، وانتقلت صغيرة الى لبنان ثم الى مصر . ولها من الكتب : «سوانح فتاة » و «ظلمات وأشعة»،وطبعها اقرب الى طبع الشاعرة الغنائية . توفيت سنة ١٩٤١.

بطريق النقل على الاغلب ، حتى اصبحت خزائنه تحوي منها روائعَ كأمثال « لقمان الحكيم[1] » و « كليلة ودمنة » و « الصادح والباغم » لابن الهبارية[2] و « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » لابن عربشاه[3] و « الف ليلة وليلة » في كثير من صفحاتها .

الا ان النثر كان الاداة الرئيسية في اخراج هذه الامثال . وما نُظم منها شعراً فقد نظم على الرجز ، وكثير منه فُقد[4] حتى كاد ان لا يسلم لنا إلا كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية .

احمد شوقي



والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفةً
وحكمــة ، فهو تقطيع واوزان

يضاف الى ذلك ان الامثـــال القصصية الخرافية التي اشتملت عليهـا خزائن الادب العربي يدور معظمها في مملكة الحيوان ، لا يتعداها الى كائنات اخرى في الطبيعـة من نبات او جماد .

وليس ثمة ريب في ان شوقي قد اطلع على هذا التراث الضخم الذي حواه الادب العربي من الامثال القصصية الخرافية ، فكان هذا التراث اغزر ينبوع استمدّ منه وضرب على غراره .

لكن شوقي اتيح له في الوقت نفسه ان يستمد من ينبوع آخر وان يحاول الضرب على غراره . ذلك هو الينبوع الغربي ، فقد كان شوقي ملماً بالفرنسية وادبها ، وبالتالي كان على علم

١ لقمان الحكيم : هو الذي سميت باسمه احدى سور القرآن الكريم . ولسنا نعلم من امره شيئاً الا ما جاء عنه في هذه السورة . وقد نُسبت اليه في الادب العربي مجموعة من الامثال تذكر بإيزوب اليوناني *Esope* الذي يقال انه عاش في القرنين السابع والسادس قبل المسيح . ٢ ابن الهبارية ، الشريف ابو يعلى ، محمد ، شاعر من شعراء العصر العباسي الرابع . كان سيال القريحة بمقدار عجيب كما يشهد كتابه : « الصادح والباغم » توفي سنة ١١١٠ م (٥٠٤ هـ) . ٣ ابن عربشاه : اديب دمشقي له من الكتب ، عدا فاكهة الخلفاء ، كتاب « عجائب المقدور في اخبار تيمور » ، توفي سنة ١٤٥٠ م (٨٥٤ هـ) . ٤ نظم ابان بن عبد الحميد اللاحقي امثال « كليلة ودمنة » رجزاً ، في القرن الثامن الميلادي ، فضاع نظمه الذي سماه ثعلة وعفرة . وكذلك ضاع كتاب « نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة » الذي صنعه ابن الهبارية .

بالشاعر لافونتين وخرافاته[١] . واثر لافونتين في شوقي بيّن في خرافة : « النملة الزاهدة » التي اثبتناها في منتخبات هذا الفصل ، فانها شبيهة جداً بخرافة لافونتين : « النملة والصرصور » الا ان شوقي جعل صورة الكسل في خرافته احدى النمال . ثم جعلها تقعد عن العمل بدعوى الزهد ، بينما جعل لافونتين صرصوره يضيع الصيف بالغناء . ولكن كما قالت النملة للصرصور في خرافة لافونتين : قضيت صيفك بالغناء فارقص الآن ، قالت النمال للنملة الزاهدة في خرافة شوقي :

فامضي ، فانا ، يا عجوز الشوم ، نرى كمال الزهد ان تصومي !

وكان قد سبق شوقي الى الامثال القصصية الخرافية ، نفرٌ من ادباء النهضة الحديثة كرزق الله حسون[٢] في كتابه « النفثات » ، ومحمد عثمان جلال المصري في كتابه « الامثال والمواعظ » ، فكان لذلك اثره في توجيه شوقي فضلاً عما كان من اثر لصديقه خليل مطران ، فان شوقي معترف له بالمساعدة في مقدمة ديوانه الاول .

وهكذا نظم شوقي امثاله الواحد والخمسين . وهي امثال اذا نظرنا فيها من جهة القصص التي بنيت عليها وجدنا لدى الشاعر ضعفاً في الاختراع ، فاكثر قصصه كخرافة النملة الزاهدة ، يذكّر بخرافات اشتملت عليها كليلة ودمنة او عرض لها لافونتين . وكذلك هي خرافات تقتصر على مملكة الحيوان ، لا تكاد تجاوزها الى مملكة اخرى الا في امثال قليلة كالمثل التالي الذي يُنطق فيه الشاعر موجة البحر ، فيقول :

سَقَطَ الحِمارُ من السَّفِينَةِ في الدُّجى ، فَبَكَى الرِّفاقُ لِفَقْدِهِ وَتَرَحَّموا
حتى إذا طَلَعَ النَّهارُ أَتَتْ به نَحْوَ السَّفِينَةِ مَوجَةٌ تَتَقَدَّمُ
قالَت : خُذُوهُ كَما أَتاني سالِماً لم أَبْتَلِعْهُ لِأَنَّهُ لا يُهْضَمُ !

وضعف شوقي في اختراع القصص لأمثاله ظاهر كذلك في مغـازيه وفي تصويره للحيوانات التي يتخذها ابطال قصصه . فاذا استثنينا بضع خرافات له ، كخرافة « الاسد

١ يقال ان لافونتين قد اتيح له ان يتأثر بامثال كليلة ودمنة . فاذا صح ذلك كان من عجائب انتقال الفكر ان شاعراً فرنسياً في القرن السابع عشر ، قد تأثر بكتاب نقل الى العربية في القرن الثامن الميلادي ثم ظهر شاعر عربي في القرنين التاسع عشر والعشرين تأثر بالشاعر الفرنسي. ٢ توفي رزق الله حسون سنة ١٨٨٠ م (١٢٩٧ ﻫ).

ووزيره الحمار »[١] و « الثعلب الزاهد »[٢] و « الملك الذي لم يبصر ما تحته »[٣] ، وجدنا مغازيه عادية جداً . واذا تأملنا الصور التي يخرج بها « حيواناته » في امثاله وجدنا انها هي الصور العادية المألوفة . فبينما نرى لافونتين في خرافته : « الحيوانات المريضة بالطاعون »[٤] ، يصور الحمار صورة جديدة يمثل بها حالة الشعب في زمانه وينتقد الحكام ، نرى شوقي في تصوير الحمار في خرافاته كلها لا يخرج عن الصورة المبتذلة المعروفة لهذا الحيوان.

ولكن لشوقي مع ذلك ميزة في امثاله القصصية الخرافية ، فهي اقرب الى ان تكون شعراً من كل ما نُظم بالعربية في بابها ، فانها سهلة النظم رشيقة طلية، لا تخلو في احيان من رونق نكتة كما نلمس في خرافته : « الاسد ووزيره الحمار ».

وبعد ، فشوقي قد خرج في نظم الامثال عن الرجز الذي اوشك ان يقيدها به الشعر العربي القديم ، فنظم الامثال على مختلف الابحر ولا سيما المجزوءات .

والطريقة الغالبة على شوقي ان يصرح بمغزى المثل ، وهي الطريقة الكلاسيكية . وهو يصوغ هذا المغزى في بيت يجعله في الختام ، وكثيراً ما يوفق فيه الى الاجادة فيكون اروع بيت في المثل كله .

خلاصة سيرة شوقي : اما سيرة شوقي فخلاصتها انه ابصر النور في مدينة القاهرة سنة ١٨٦٨ م (١٢٨٥ هـ) في زمن الخديوي اسماعيل. واتيح له ان يحصّل من العلوم في مصر كل ما كان ميسراً تحصيله في تلك الايام ؛ فتخرّج في جميع المدارس المصرية مع ما فيها الحقوق والترجمة. ثم بعث به الخديوي توفيق ليتم درس الحقوق في كلية مونبليه في فرنسا. وبعدما تخرج فيها، وتنقل في بعض اوروبا ، وتعرّف جوانب من الحضارة الاوروبية وآدابها ، رجع الى مصر، فكان في معية الخديوي عباس حلمي الذي خلف اسماعيل. وفي هذا الدور نظم شوقي امثاله.

ثم نشبت الحرب الكونية الاولى سنة ١٩١٤، فأمر الانكليز بخلع الخديوي عباس حلمي سنة ١٩١٥ واخراجه من البلاد . وقرروا كذلك نفي شوقي ، ولكنهم اذنوا له بعد الشفاعة ان يقيم في البلاد التي يؤثرها ، فاختار الاندلس .

وفي هذه الفترة تضلع شوقي من اللغة والنظم، وانشأ كثيراً من روائع قصائده، واجاد في موضوع الحنين الى الوطن ، وهو القائل في هذا المعنى :

١ تجد نصها في الصفحة : ١٩٩ . ٢ اثبتناها في التمرين الذي الحقناه بالامثال المنتخبة لشوقي في آخر الفصل . ٣ تجدها في المنتخبات في آخر الفصل . ٤ في هذه الخرافة للافونتين ، تصاب الحيوانات بالطاعون فتجتمع لتعترف بخطاياها وتعاقب المسؤول عن الكارثة . فتقرر ان الحمار هو المسؤول لانه اختلس قضمة عشب .

وَطَني لَوْ شُغِلْتُ بالخُلْدِ عنهُ نازَعَتْني اليهِ في الخُلْدِ نَفْسِي [١]

ثم أبيحت له العودة الى مصر حين وضعت الحرب اوزارها سنة ١٩١٩ . فرجع الى بلاده وهو محطّ الاكرام والتعظيم . ولبث شوقي في هذا الدور الاخير من حياته خارج البلاط ،فكان فيه اقرب الى الشعب والى روح الكفاح الوطني للتحرر من نير الاستعمار. وفي هذا الدور أيضاً ذاع له لقب « امير الشعراء » ، وفيه اخرج مسرحياته . وله سوى المسرحيات، ديوان في اربعة اجزاء يعرف **بالشوقيات**،وسفر من نثر مسجوع سماه « اسواق الذهب » .

وتوفي شوقي سنة ١٩٣٢ م (١٣٥١ ھ) .

امين الريحاني . — الاديب باللغتين : العربية والانكليزية، ذو اللمحات المشرقة من روح شعرية متوقدة، والمفكر الجريء الذي خدم حق العقل في مناقشة الآراء التقليدية الموروثة ، ودعا الى التساهل الديني والحرية الوطنية ، وحمل نفيساً من فكر الشرق الى الغرب ومن فكر الغرب الى الشرق ، وكان اشهر كتّاب الرحلات في الادب العربي الحديث ، ابصر النور سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ ھ) في قرية الفريكة اللبنانية التي لقب بفيلسوفها .

وتعلم الريحاني مبادىء العربية والفرنسية في احدى المدارس القروية. ثم حمله اهله الى الولايات المتحدة الاميركية وهو صبيّ في الثانية عشرة من عمره . وكان يراد لامين الريحاني ان يشتغل بالتجارة،ولكنه ما كاد يتناول جرعة من منهل المعرفة في احدى مدارس نيويورك ، حتى اشتد به ظمأه الى المزيد ، فكان قارئاً عظيم الشراهة الى الكتب .

وبعدما انضم الى جوقة تمثيلة ، ثم الى مدرسة ليلية ، لحق بجامعة نيويورك للحقوق . ثم عاد الى لبنان فانصرف الى دراسة اللغة العربية . وعرف في هذه المدة ابا العلاء المعري ولزومياته ، وعكف على اختيار رباعيات منها ينقلها الى الانكليزية شعراً بشعر . فلما عاد الى الولايات المتحدة طبعت له احدى دور النشر مجموعة : « **لزوميات ابي العلاء** » سنة ١٩٠٣ ، فذاعت له شهرة كبيرة .

ومن افضل آثاره في هذا الدور من حياته كتابه : « **المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين الحصان والبغل والحمار** » .

ولبث الريحاني بعد ذلك يكتب ويخطب بالانكليزية والعربية ، وهو يحمل مشعل

[١] نازعتني : جاذبتني . والخلد : الجنة .

افكار اصلاحية تجديدية حرة ، حتى كانت سنة ١٩٢٢ م، فقام فيها برحلته الشهيرة في الجزيرة العربية . فزار الحجاز ، ثم اليمن فعسير فنجد فمسقط فالكويت فالبصرة ، وامتدت رحلته عاماً وشهرين صحبه في اثنائها صديقه السيد قسطنطين يني .

ووصف الريحاني رحلته هذه في مجلدين سماهما **ملوك العرب** ، وكتب **تاريخ نجد الحديث** ، كما ألف في الرحلة نفسها كتاباً بالانكليزية سماه : « **حول شواطئ الجزيرة العربية**[1] » .

امين الريحاني



يا سُقاة العالم ... ان ماءكم عكر يلزمه تقطير. ان فيه كثيراً من الحشرات... وعلى من يحتزون ان يصفّوه قبل الشرب . والعقل هو المصفاة...— في ريحانياته—.

وبرع الريحاني في انشاء كتب الرحلات فألف **قلب العراق** بعدما زار القطر العراقي اكثر من مرة، ثم ألف « **قلب لبنان** » وضمنه وصفاً للوطن الذي احبه ، ولكن لم يستطع ان يتمه فقد دهمته المنية سنة ١٩٤٠ (١٣٥٩ ﻫ) في بيروت ، نتيجة سقطة عن الدراجة وهو يرتاض . ونشر كتاب « **قلب لبنان** » بعد وفاته. والمعروف انه كان قد جمع مادة لكتاب يصف فيه رحلته الى اقطار الشمال الافريقي .

اما مقالات الريحاني وخطبه فقسم كبير منها مجموع في كتابه **الريحانيات في** اربعة مجلدات . ومن اروع ما فيه « وادي الفريكة »[2] وهي مقالة يدعو بها الى معاشرة الطبيعة و « الجوع »[3] وهي مقالة يصف بها يوماً جاعه ودعا فيه الى الصوم وجمع المال للجائعين في سوريا ولبنان ابان الحرب الكونية بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ . ومن رائع ما في الريحانيات ايضاً بعض قصائد الشعر المنثور، ولاسيما قصيدة « نيويورك »[4] وقد اسلفنا ان الريحاني هو رائد هذا الفن ، فن الشعر المنثور ، الذي لم يتح له الازدهار في العربية .

هذا وللريحاني بعض الروايات **كزنبقة الغور وخارج الحريم** . وله كتيبان اشتهرا بما

١ *Around the Coasts of Arabia* . ٢ الريحانيات: الجزء الاول. ٣ الريحانيات: الجزء الرابع . ٤ الريحانيات : الجزء الرابع .

أثارا من ضجة وتضمّنا من توجيه ، وهما : « **النكبات** » – سفر دعا فيه الى تقليل الفخر بالاجداد والامجاد الماضية ، و « **أنتم الشعراء** » – سفر حمل فيه على ادب الشكوى والبكاء والدموع والزفرات .

اسلوب الريحاني : اما اسلوبه فيتفاوت جداً من اسلوب اخباري صحافي بسيط ، لا يخلو في احيـــان من الهفوات اللغوية والانشائية ، الى اسلوب رائق طلي فيه الفكاهة والسخر ، الى اسلوب خطابي قوي يبلغ درجة العنف ، او اسلوب يومض بالعواطف والصور الشعرية الرائعة ولاسيا في معارض الوصف .

ويحب الريحاني السجع ، فهو لا يملك في كل مـا يكتب ان يسجع بضع سجعات في كل صفحة من صفحات نثره المرسل . ولعل ذلك اثرٌ فيه من آثار الشاعر الشغِف بالجرْس الموسيقي على نحو والت ويتمان *Whitman* شاعر اميركا الذي استوحى منه الريحاني تجربة الشعر المنثور .

والريحاني في ادبه باذر افكار . ومن هنا سمى فِقراً من كلماته « بذوراً للزارعــين » . وهكذا كان في كل مـا يكتبه ، مع ما في ذلك رحلاته ، يستوقفك ابداً ليبثك آراءه . فرحلاته اخبار ووصف مشوقان ، وتأمل وتفكير مثيران .

(تجد في المنتخبات الملحقة بهذا الفصل صفحات مختارة للريحاني . اقرأها وطبّق عليها ما ذكرنا لك من اسلوبه) .

منتخبات

امثلة على شعر الشيخ ناصيف اليازجي في الحكم

لعمرك ليس فوق الأرض باقٍ

لَعَمْرُكَ، لَيْسَ فَوْقَ ٱلْأَرْضِ بَاقٍ، وَلَا مِمَّا قَضَاهُ ٱللهُ وَاقِ
وَمَا لِلْمَرْءِ حَظٌّ غَيْرُ قُوتٍ وَثَوْبٍ فَوْقَهُ عَقْدُ ٱلنِّطَاقِ [1]
وَمَا لِلْمَيْتِ إِلَّا قَيْدُ بَاعٍ، وَلَوْ كَانَتْ لَهُ أَرْضُ ٱلْعِرَاقِ
وَكَمْ يَمْضِي ٱلْفِرَاقُ بِلَا لِقَاءٍ، وَلٰكِنْ لَا لِقَاءَ بِلَا فِرَاقِ!
وَأَخْسَرُ مَا يُضِيعُ ٱلْعُمْرُ فِيهِ فُضُولُ ٱلْمَالِ تُجْمَعُ لِلرِّفَاقِ [2]
وَأَفْضَلُ مَا ٱشْتَغَلْتَ بِهِ كِتَابٌ جَلِيلٌ نَفْعُهُ، حُلْوُ ٱلْمَذَاقِ
وَعِشْرَةُ حَاذِقٍ فَطِنٍ لَبِيبٍ يُفِيدُكَ مِنْ مَعَانِيهِ ٱلدِّقَاقِ [3]
مَضَى ذِكْرُ ٱلْمُلُوكِ بِكُلِّ عَصْرٍ، وَذِكْرُ ٱلسُّوقَةِ ٱلْعُلَمَاءِ بَاقِ [4]
وَكَمْ عِلْمٍ جَنَى مَالًا وَجَاهًا، وَكَمْ مَالٍ جَنَى حَرْبَ ٱلسِّبَاقِ [5]
وَمَا نَفْعُ ٱلدَّرَاهِمِ مَعْ جَهُولٍ يُبَاعُ بِدِرْهَمٍ وَقْتَ ٱلنَّفَاقِ؟ [6]
إِذَا حَمَلَ ٱلنُّضَارُ عَلَى نِيَاقٍ فَأَيُّ ٱلْفَخْرِ يُحْسَبُ لِلنِّيَاقِ؟
أَلَا يَا جَامِعَ ٱلْأَمْوَالِ هَلَّا جَمَعْتَ لَهَا زَمَانًا لِٱفْتِرَاقِ [7]

١ النطاق : ما يشد به الوسط . ٢ فضول المال : المال الزائد على الحاجة. ٣ المعاني الدقاق: المعاني الدقيقة العميقة . ٤ السوقة : الرعية . ٥ حرب السباق : حرب داحس والغبراء في الجاهلية بين قبيلتي عبس وذبيان . ٦ وقت النفاق : عندما تنفق سوقه ويكثر طالبه . والنفاق : ضد الكساد .
٧ يقول : يا جامع الاموال، اجمع، ان كنت تستطيع، زماناً لا بد من ان ينفد ويفترق فيه الشمل.

رَأَيْتُكَ تَطْلُبُ ٱلْأَنْجَارَ جهلًا وَأَنتَ تَكَادُ تَغْرَقُ فِي ٱلسَّوَاقِي !
أَتَأْكُلُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ كَبْشٍ وَتَلْبَسُ أَلْفَ طَاقٍ فَوْقَ طَاقِ ؟
فُضُولُ ٱلْمَالِ ذَاهِبَةٌ جُزَافاً كَمَاءٍ صُبَّ فِي كَأْسٍ دِهَاقِ [1]

مَضَتْ دُوَلُ ٱلْعُلُومِ ٱلزُّهْرِ قِدْماً ، وَقَامَتْ دَوْلَةُ ٱلصُّفْرِ ٱلرِّقَاقِ [2]
وَأَبْرَزَتِ ٱلْخَلَاعَةُ مِعْصَمَيْهَا ، وَبَاتَ ٱلْجَهْلُ مَمْدُودَ ٱلرِّوَاقِ [3]

تمرين

اضبط بالشكل واشرح ما لبس مضبوطاً ولا مشروحاً من هذه المقصورة التي وردت للشيخ ناصيف اليازجي في مقامته الحكمية في مجمع البحرين :

اني لقد جربت اخلاق الورى حتى عرفت ما بدا وما اختفى
كلٌّ يعد نفسه نعم الفتى ، فمن هو اللئيم منا يا ترى ؟
لو عرف الانسان عيبه لما رأيت عيباً فيه ما طال المدى
وكل عيب كان من طي الحشى في المرء ، ينمو فيه كلما نشا : [4]
لا يشعر الجاهل بالجهل ، كما لا يشعر السكران الا ان صحا
لا يعرف الصحيح قيمة لما كان من الصحة حتى يُبتلى
لا يحمد القوم الفتى الا متى مات ، فيعطى حقه تحت البلى
لو كان كل يعرف الحق سوى ، لكان كل الناس اهلاً للقضا [5]
من قال لا أغلط في امر جرى ، فانها اول غلطة تُرى
وقلما ابصرت نعمة على شخص ، ولا تقول قد ضاعت هنا!

١ جزافاً : بلا نفع . كأس دهاق : كأس ممتلئة حتى لا تسع قطرة . ٢ الصفر الرقاق : النقود الذهبية ، يعني : دولة المال والثروة . ٣ ممدود الرواق : مخيماً مسيطراً . ٤ من طي الحشى : من اصل الفطرة ، من صميم النفس . نشأ : كبر . ٥ سوى ، بضم السين وكسرها : العدل . القضا ، مخفف القضاء ، ومعناها هنا : القيام بالحكم في امور الناس .

امثلة على النثر العلمي في آثار ابراهيم اليازجي

الرد على القائلين باختلاف النوع البشري

يذهب بعض الناس، وبينهم نفر من المشتغلين بالعلم، الى ان البشر مخلوقون انواعاً وليسوا هم بنوع واحد. فيرد الشيخ ابراهيم اليازجي على هذا المذهب مثبتاً أن ما يبدو من اختلاف في البشر ليس اختلافاً في النوع ولكنه نتيجة فعل البيئة، مع بقاء البشر نوعاً واحداً في الحقيقة.

تأمل اسلوب الكاتب كيف بدأ بذكر الدليل الذي يعتمد عليه القائلون باختلاف النوع البشري، ألا وهو دليل اللون، ثم كيف أبطله بحجج علمية قائمة على العقل والتجربة، كل ذلك بانشاء مرسل، مرن العبارة، قليل الصور البيانية والمجازات، دقيق معاني اللفظ، على نحو ما ينبغي للكتابة العلمية.

قال الشيخ ابراهيم:

... لا يخفى ان اعظم اختلافٍ بين افراد الانسان يوهم انه متعدد الانواع، هو امر اللون، اذ يبعد على البديهة ان تعتقد ان الزنجي والابيض هما أخوان من أب واحد. غير انا اذا رجعنا الى بعض انواع الحيوان، وجدنا بين افرادها من اختلاف اللون ما لا يقلّ عما بين الانسان والانسان، وذلك كما يُرى في الخيل والكلاب والحمام وغيرها. ولا تجد مع ذلك من يذهب الى ان اختلاف اللون فيها يعتبر فصلاً[1] يتميز به بعض افراد النوع، حتى يكون نوعاً قائماً بنفسه.

على انه من المعلوم اليوم ان جلد الزنجي لا يختلف في التركيب عن جلد الابيض، فان كليهما يشتملان على الطبقات الجلدية بعينها من الأدَمة[2] والغشاء المُخاطي[3] والبَشرة[4]، وكلها ذات بناء واحد، خلا انها في الزنجي اثخن مما هي في الابيض، وفي كلتا السلالتين[5] مقرّ المادة الملوّنة في الغشاء المخاطي المتوسط بين الطبقتين المذكورتين، وهو مؤلف من

١ فصلاً: حداً. ٢ الادمة: قفا الجلد الذي يلاصق اللحم. ٣ الغشاء المخاطي: الغشاء الرقيق الذي له صفة المخاط. ٤ البشرة: ظاهر الجلد. ٥ السلالة: العائلة، الاسرة، استعملت هنا بمعنى الفرع، من فروع النوع.

خـــلايا[1] هي في الابيض تبنيّة اللون ، وفي الاسمر صفراء مظلمة ، وفي الزنجي سمراء الى السواد ، وهي في الكل واحدة ، وانما يختلف مُفرَزها[2] الملوّن بسبب ما يتسلط عليها من العوامل الخارجية .

وذلك ان كلّ احد يعلم ان النور يلوّن الجلد بالسواد ، كما يُتحقق من المقابلة بـــين المكشوف من الجسم ، كالوجه والكفين ، والمستور ، كالذراعين والصدر . واذا تعرّض احدنا للشمس مدة طويلة ، اثّرت فيه سواداً ظاهراً . وهذا السواد ناشئ عن نفس المـــادة التي تسوّد جلد الزنجي ، إلاّ انه في الزنجي اشدّ واظهر بسبب حرارة الاقليم . ثم انه لاستمرار سببه ، رسخ في بِنْيته ، وانتقل بالارث الى أعقابه . ومثل ذلـــك ما يُرى في الشَعر من اختلاف اللون ، بين ان يكون أسود ، او أشقر ، او بينهما ، وهو مسبّبٌ عن مثل ما تقدم ، وكذا ما يُرى فيه من اختلاف القَوام ، بين ان يكون دقيقاً ليّنـــاً ، او غليظاً قاسياً ، او سَبِطاً[3] ، او جعداً ، وهو في جميع ذلك لا يخرج عن حد الشَعر . ولكن اذا تفقدنا بعض اصناف الحيوان ، وجدنا ان الصوف احياناً ينقلب الى شَعر كما في بعض اصناف الغنم الافريقي ، وقد ينقلب الشَعر الى صوف كما يُذكر عن الخنزير البري في اعالي جبال الاندس من اميركا الجنوبية . بل ربما تعرّى بعض الحيوان من الشَعر اصلاً ، كما يُرى احياناً في بعض اصناف الخيل والكلاب ، وكما يُروى عن بعض اصناف البقر في اميركا مع انها بأسرها مجلوبة في الاصل من اوروبا .

ومما يجدر ذكره هنا ، ما طالما لهج به اصحاب مذهب التعدّد وجزموا بانه لا يكون الا من الخصائص النوعيـة ، وهو ما يُرى في نساء البوشيمان من قبائل الهوتنتوت بجنوبي افريقيا ، فانه ينشأ لهنّ عند مُنقطع الصُلب[4] غُدّة شحمية ، قد تبلغ حجماً فاحشاً ، حتى يُذكر ان المرأة الهوتنتية التي جيء بها الى باريز في اوائل القرن الماضي ، وهي التي اشتهرت عندهم باسم فينوس (الزُهرة) ، كان لها ولدان يتبعانها ، فكانا يتسلقان عليها ويجلسان على تلك الغدّة .

على ان بعض السيّاح ذكر انه رأى مثل هـذه الغدّة في قبائل أُخر من الزنج من سكان تلك النواحي . بل اثبت ليفنجستون ، احـد مشاهير السيّاح المرسلين في اواسط القرن الماضي ، ان نساء البوير ، وهم هولنديو الاصل بلا مُشاحة[5] ، قد بدأت تنشأ لهنّ

١ الخلايا : هنا: اصغر جزء حي في تركيب الكائن العضوي . ٢ مفرزها : عصيرها الذي تفرزه .
٣ السبط من الشعر : نقيض الجعد . ٤ الصلب: الظهر . ومنقطع الصلب: آخره . ٥ بلا مشاحة : بلا جدال .

هذه الغدد في الموضع نفسه . وهو مما يقطع بانها من الخصائص السلالية دون النوعية .

على ان هذا غير خاصٍ بتلك النسوة ، بل هو يوجد في بعض انواع الحيوان ايضاً كالغنم . فان الآسيوية منها تكون ذات ألية شحمية ، تربو على جانبي العُصْعُص[١] ، ويبلغ وزنها من ١٥ الى ٢٠ كيلوغراماً ، ولا يقال ان هذه الغنم نوعٌ قائمٌ بنفسه . فقد ذكر ان حكومة روسيا نقلت بعضها من بلاد آسيا التي هي بيئتها الاصلية الى بلاد اخرى ، فزالت الألية منها في عدة أعقاب[٢] ، وعادت كغيرها من سائر الغنم .

وهناك اختلافات أُخر ، لا نطيل باستقرائها ، يُرى مثلها في غير الانسان ، مما لا ريب في كونه من تغييرات البيئة ، وكثيراً ما تكون في العَجماوات اظهر مما هي في الانسان ...

لماذا اختلف مراى القمر من الارض ؟

وقال الشيخ ابراهيم في مقالة له ، فلكية ، وصف فيها القمر :

... لما كان القمر يدور حول الارض ، ويدور معها حول الشمس ، لزم بالضرورة ان يكون القمر تارة بيننا وبين الشمس — وهو اوان المحاق — فلا تتأتى لنا فيه رؤيته ، اذ يكون الوجه المستنير منه الى الشمس ، والوجه المظلم الى الارض . وتكون الارض تارة بينه وبين الشمس — وهو اوان البدر — وحينئذ نرى كل سطحه المستنير لوقوعه في استقبال الشمس . وتارة تكون الارض والقمر متحاذيين على بعد واحد من الشمس — وهو اوان التربيع — فنرى نصف السطح الموجه منه الينا لوقوع النصف الآخر في جهة الفضاء .

وكما اننا نرى القمر متشكلاً بهذه الاشكال ، فلو وقف ناظر على سطح القمر المواجه لنا رأى الارض كذلك ، اي يراها بدراً عندما يكون القمر في المحاق ، ويراها في المحاق عندما يكون هو بدراً . واما في التربيع فالمنظر بينهما واحد حتى يجاوزاه ، فيعود الى الاختلاف شيئاً فشيئاً ، الى ان يصير احدهما بدراً والآخر في المحاق .

كلام في الطعام

وفي هذا الفصل من « وصايا صحية » كتبها الشيخ ابراهيم ، نرى كيف تَشبّه بالقدماء ففتح باب اللغة العربية في النثر العلمي لمصطلحات اجنبية لا يكون لها مرادف في لغتنا . قال :

١ العصعص : آخر فقار الظهر في الغنم . ٢ الاعقاب ، يراد بها : الاجيال من الغنم .

متى دخل الطعام الفم ، وطحنته الاسنان ، استحال الى كتلة يرطّبها اللعاب فيسهل ابتلاعها ، وتحلل[١] اجزاءَها فحوّل اكثر ما فيها من النشاء الى مادة يسهل امتصاصها تسمى بالدكسترين . ومتى بلغ المعدة والامعاء درّت عليها مفرزاتها مع مفرزات الغدد المتعلقة بها كالكبد والبنكرياس[٢] ، فتقع عليه افعال كيماوية مختلفة تُعدّه للدخول في دورة الدم ، فيصير صالحاً للقيام بتغذية الانسجة وتعويض ما هلك منها بالاعمال الحيوية .

ولا يخفى انه متى كان الطعام جامداً شقّ على المفرزات الهاضمة ان تخترق اجزاءه في اثناء الهضم ، فيكون فعلها مقصوراً على الاجزاء الظاهرية منه . ولذلك كان من اول شروط الغذاء جودة المضغ لتجزئة الطعام وتليين قوامه ، حتى يسهل امتزاجه بعد ذلك بالعصارات الهاضمة ، فضلاً عن انه اذا وصل الى المعدة صلباً فقد يقتضي تناول مقدار كثير من الماء ليسهل امتزاج العصارات به ، فيفضي الافراط من الماء الى تخفيف تلك العصارات الى حدٍّ لا تقوى من بعده على الهضم .

اما عمل اوقات الطعام وكميته ، فلا سبيل الى وضع قياس مطّرد لها لاختلاف الاشخاص من حيث العادات والسن والمزاج والاقاليم والحرف . فبعضهم يقتصر على وجبة واحدة في اليوم ، وبعضهم لا يكتفون باقل من خمس. لكن المعدل الشائع ثلاثٌ على ما هو جارٍ بين اكثر الامم .

ومما يجب الحرص عليه من هذا القبيل ان يتناول المرء شيئاً من الطعام حال النهوض من النوم ولاسيما اذا كان مزمعاً على الاشتغال بشيء من الاعمال العقلية او الجسدية ، لان الجسم يكون بُعيد الاستيقاظ مسترخياً، ولاسيما اذا كان النهوض باكراً عند الفجر . فقد عُلم ان الجسم من نصف الليل الى الساعة الخامسة صباحاً يكون في اشد الانحطاط الصحي كما يُستدل على ذلك من قلة الحامض الكربونيك[٣] المبرز من الرئتين وتثاقل الدورة الدموية . فاذا تناول المرء شيئاً من الطعام وقتئذ نشط وتنبه . ويؤثر ان يكون طعام الصباح مغذياً سهل الهضم قليل المقدار ، كاللبن الصرف واشباهه ، وان يؤخذ معه شيء من المواد المنبهة البسيطة كالقهوة او الشاي بحيث يُتمكنُ بعده من تعاطي الاعمال دون ان يتشوش الهضم . فيجب على طلبة العلم والمتفرغين للمباحث العلمية ان يتنبهوا الى ما تقدم على وجه الخصوص ، لان الدرس وإعمال الذهن صباحاً قبل تناول شيء من الطعام مضر رديء العواقب .

١ تحلل : الضمير فيها عائد الى اللعاب . ٢ البنكرياس : تسمية افرنجية لغدة كبيرة تفرز عصارتها في الامعاء وتدعوها « الحلوات » . ٣ الحامض الكربونيك : مصطلح كيمي يراد به غاز مركب من عنصري الكربون والاوكسيجين .

امثلة على النثر العلمي في آثار يعقوب صروف

الرايان : القديم والجديد في الفلك

قال يعقوب صروف في كتابه : « بسائط علم الفلك وصور السماء » :

ان علماء الفلك من الروم والعرب ، اخذوا بالظاهر وسلموا برأي بطليموس[١] الذي مداره على ان الارض قائمة في مركز الكون ، وان الشمس والقمر والنجوم السيارة ، وغير السيارة ، تدور حولها كل يوم من الشرق الى الغرب دورة كاملة كما ترى العين . مع انهم عرفوا بالرصد[٢] والحساب ان بعضها اكبر من الارض جداً ، وانها بعيدة عنها ملايين كثيرة من الاميال .

ولا ندري كيف سلّمت عقولهم بما نعدّه الآن بعيداً عن المعقول ، وفيهم مثل عبد الرحمن بن يونس المصري الذي رصد كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة حوالى سنة ٩٧٨ للميلاد ، واثبت منها تزايد حركة القمر ، وحسَب ميل دائرة البروج ، فجاء حسابه اقرب ما عُرف الى ان اتقنت آلات الرصد الحديثة .

... فلما نشأ (كوبرنكس[٣]) درس علم الطب واولع بالعلوم الرياضية واطلع على ما عُرف من علم الفلك الى عهده . فقال : ان ما يظهر من حركة الشمس والقمر والنجوم اليومية حول الارض ، من الشرق الى الغرب ، يمكن تعليله بحركة الارض على محورها من الغرب الى الشرق . وبذلك ينتفي القول الذي لا يُعقل ، وهو : كون النجوم الثوابت على ابعادها الشاسعة ، واقدارها العظيمة ، تدور حول الارض دورة كاملة كل يوم على مرّ الايام والسنين . ثم اتصل من ذلك الى القول بان الارض والسيارات تدور حول الشمس .

١ بطليموس ، واسمه بالفرنسية : *Ptolémée* ، وبالانكليزية : *Ptolemy* ، فلكي وجغرافي يوناني ، في القرن الثاني الميلادي ، ولد في مصر العليا وفيها قضى حياته . وله كتاب المجسطي الشهير في علم وصف الكائنات *Cosmographie* . ٢ الرصد ، هنا ، رصد الافلاك اي : مراقبة نجومها بالمراصد : *Télescopes* .

٣ كوبرنكس : *Copernicus* ، أو : كوبرنيك : *Copernic* بحسب الصيغة الفرنسية ، فلكي بولوني ولد سنة ١٤٧٣ وتوفي سنة ١٥٤٣ . وكان اكتشافه : ان الشمس ، لا الارض ، هي محور الكون ، بمثابة ثورة هزّت الفكر العالمي .

... ثم قام كبلر[١] ، وهو الواضع الحقيقي للنظام الجديد . فانه اطلع اولاً على مذهب كوبرنكس فاستصوبه واتبعه . ولما كان قد اتبع مذهب الاصلاح الديني[٢] اضطر ان يترك مقامه في غراتس : *Gratz* ، وينضم الى تيخو[٣] في براغ ، ويقف على كل ارصاده . وطلب منه حينئذ ان يصنع منها زيجاً ، فقاده البحث فيها الى اكتشاف حقيقة الافلاك التي تدور فيها السيارات حول الشمس ، وهي انها ليست دوائر كما ظن كوبرنكس ، بل هي اشكال إهليلجية[٤] .

ثم توالت الاكتشافات الفلكية والطبيعية الى يومنا هذا ، وخلاصتها : ان الشمس اهم الاجرام السموية ، بالنسبة الينا ، وهي في مركز الكواكب المسماة بالنظام الشمسي ، وهذه الكواكب تدور حولها على الترتيب من الاقرب الى الابعد ...

الرعاد او السمك الكهربائي

وقال يعقوب صروف في كتابه : « فصول في التاريخ الطبيعي من مملكتي النبات والحيوان » :

كنا نقلب كتاب « عجائب المخلوقات » للقزويني فرأينا فيه وصف الرعّاد . قال : « هو سمكة صغيرة مخدِّرة جداً ، اذا وقعت في الشبكة والصياد ماسك حبل الشبكة يرتعد من برودة هذه السمكة . والصيادون يعرفون ذلك . فاذا احسّوا بالرعاد شدوا حبل الشبكة في وتد او شجرة حتى يموت ، فاذا مات بطلت خاصيته . واطباء الهند يستعملونه في الامراض الشديدة الحرّ ، واما في غير بلاد الهند فلا يمكن استعماله . وقال ابن سينا : الرعاد اذا قُرّب من رأس المصروع وهو حي اخدره عن الحس . » وقد لخص ذلك الدميري في « حياة الحيوان الكبرى » .

وخلاصة ذلك ان علماء العرب كانوا يعرفون السمك الكهربائي ، ولو لم يعرفوا حقيقة القوة التي يخدّر بها الحيوان ، بل زعموا انها البرد . ولا غرابة في معرفتهم له ، فانه كثير في

١ كبلر : *Kepeler* ، فلكي الماني ولد سنة ١٥٧١ ، وتوفي سنة ١٦٣٠ . وهو يوصف بانه مؤسس علم الفلك الحديث . ٢ الاصلاح الديني : عبارة عن الحركة الدينية التي نشأت في اوروبا ، في اوائل القرن السادس عشر ، وقادها لوثر وكالفان وزونقلي ، ومنها انبثقت الكنائس البروتستانتية . ٣ تيخو : هو تيخو براهه : *Tycho Brahé* ، عالم فلكي دانيمركي ولد سنة ١٥٤٦ وتوفي سنة ١٦٠١ . وكان من مؤيدي كوبرنكس ، ثم من مؤازري كبلر . ٤ اهليلجية : مستديرة في طول ، بشكل البيضة.

النيل ، ويُرى فيه الى يومنا هذا .

وانواع السمك الكهربائي قليلة ، منها : الرعاد المسمى عند الافرنج بالتربيدو ... واذا كان طوله قدمين او ثلاثاً ، صرع الانسان بقوته الكهربائية . وهو كثير في بحر الروم والاوقيانوس الهندي والاتلنتيكي ، وقد يكون عين الرعاد الذي ذكره كتّاب العرب...

ومنها سمك القط الكهربائي ، وهو الموجود في النيل ، ولعله الرعاد الذي ذكره كتّاب العرب . وهو طويل ، يبلغ طوله اربع اقدام ، ورأسه عريض مفلطح ، وجلده املس ، وزعانفه صغيرة ، ويكثر في بحيرات افريقية .

والكهربائية المتولدة من السمك الكهربائي حقيقية ولها خواص الكهربائية ، فتصيّر الحديد مغنطيساً ، وتحل المركّبات الكيماوية ، وتظهر منها الشرارة الكهربائية . اما الاعضاء التي تتولد منها هـذه الكهربائية فصفائح عضلية موشورية الشكل كأنها خلايا النحل ، او اقلام الرصاص المسدسة الاضلاع ، مضمومة بعضهـا الى بعض ، بينها نسيج ليفي موصل ، واوعية دموية ، واعصاب ثخينة الغلاف ، ولكنها كثيرة التفرع ، وفروعها تُمزج بالصفائح الكهربائية وتضيع فيها ، وقد يكون في هذه الصفائح سائل او مادة غروية ... والسمك الكهربائي اول آلة كهربائية استُعملت في صناعة العلاج ، وهو صقيل لا حراشف له .

النبات آكل اللحوم

وكتب الدكتور صروف في كتابه « فصول في التاريخ الطبيعي » :

ومنه[1] النبات الذي سماه لينيوس[2]، النباتي الشهير ، « اعجوبة الطبيعة » . في كل ورقة من اوراقه مصراعان ينطبق احدهما على الآخر ، وعلى وجه كل مصراع منهما غدد كثيرة يفرز منها سائل قرمزي اللون ، والياف منتظمة في شكل مثلث . فاذا لمستها حشرة ما ، انطبق المصراعان عليها كما ينطبق لوحا الكتاب . وللحال تأخذ الغدد تفرز سائلاً حامضاً فيه مادة هاضمة ، كالببسين الذي في المعدة . ويستمر ذلك الى ان تهضم ما يمكنهـا هضمه من الحشرة ، ثم ينفتح مصراعا الورقة ، ويطرحان ما بقي فيهـا من القشور والفضول . واذا وضعت عليها حصاة او قطعة من الزجاج ، انخدعت بها اولاً وحسبتها حشرة وقعت عليهـا ، فتنطبق، ولكنها تكتشف خطأها حالاً وتنفتح وتطرح الحصاة او الزجاج . وتكون حينئذ على تمام الاستعداد للانطباق على ما يقع فيها من الحشرات . واما اذا انطبقت على حشرة فلا تنفتح حتى تهضمها . واذا انفتحت حينئذ لا تعود تنطبق سريعاً لانها تكون قد شبعت من الغذاء . وقد اطعم بعضهم اوراق هذا النبات طعاماً كثيراً رغماً عنها، فماتت من سوء الهضم .

[1] ومنه، اي : النبات المفترس. [2] المراد: لنّه *Linné*، طبيب وعالم نباتي اسوجي في القرن التاسع عشر.

امثلة على امثال احمد شوقي

الملك الذي لم يبصر ما تحته

كانَ لِلغِربانِ في العصرِ مَليكْ ، وَلَهُ في النَّخلَةِ الكُبرى أَرِيكْ [١]

فيهِ كُرْسيٌّ وَخِدْرٌ وَمُهودْ لِصِغارِ المُلْكِ ، أَصحابِ العهودْ [٢]

جاءَهُ يَوماً نَدُورُ الخادِمُ ، وهو في البابِ الأَمينُ الحازِمُ

قال : « يا فرعَ الملوكِ الصَّالحينْ ، أَنتَ ما زِلتَ تُحِبُّ الناصِحينْ »

« سُوسَةٌ كانَتْ عَلى القَصرِ تَدُورْ جازَتِ القَصْرَ وَدَبَّتْ في الجذورْ [٣] »

« فَابْعَثِ الغِربانَ في إِهْلاكِهـا ، قَبلَ أَن نَهلَكَ في أَشراكِها ! »

ضَحِكَ السلطانُ من هذا المقالْ ، ثم أَدنى خادِمَ الخيرِ ، وقالْ : [٤]

« أَنا رَبُّ الشَّوْكَةِ ، الضَّافي الجَناحْ ! أَنا ذو المِنقارِ ، غَلَّابُ الرِّياحْ ! » [٥]

« أَنا لا أَنظرُ في هذي الأُمورْ ؛ أَنا لا أُبصرُ تحتي يا نَدورْ ! »

ثم لمَّا كانَ عامٌ بعد عـامْ ، قامَ بَينَ الرِّيحِ وَالنَّخلِ خِصامْ ،

وإذا النخلةُ أَقوى جِذعُهـا ، فبدا للريحِ سَهلاً قَلعُها [٦]

فَهَوَت للأرضِ كالتَّلِّ الكبيرْ ، وَهوى الديوانُ ، وانقضَّ السَّريرْ !

فَدَهى السلطانَ ذا الخطبُ المهولْ ، ودعا خـادِمَهُ الغالي يقولْ : [٧]

١ مليك : ملك . اريك ، اصل معناها : سرير ، واريد بها هنا : الموضع العالي . ٢ الخدر : الستر ، وما يفرد من البيت للنساء . الملك : الملك . اصحاب العهود : ولاة العهد . ٣ اراد بالقصر : شجرة النخل التي يقيم فيها ملك الغربان . دبت في الجـذور : شرعت تقرضها . ٤ ادنى : قرب . ٥ الشوكة ، يراد بها هنا : القوة . ورب الشوكة : صاحبها . الضافي : العظيم . غلاب الرياح : قاهرها . ٦ اقوى جذعها : فرغ جذعها ، وذلك لطول ما قرضته السوسة . ٧ دهى ، من معنى : اصاب . الخطب : المصيبة . المهول : المخوف .

«يا ندورَ الخيرِ أسمِعْ بالصِّياحْ ! ما ترى ما فَعلَتْ فينا الرياحْ ؟»
قال : «يا مولايَ لا تسأل ندورْ، أنا لا أنظرُ في هذي الأمورْ !»

النملة الزاهدة

كانت بأرضٍ نملةٌ تِنبالَهْ لم تَسلُ يوماً لذةَ البَطالَهْ [١]
واشتهرت في النملِ بالتقشُّفِ، واتَّصفتْ بالزهدِ والتصوُّفِ [٢]
لكنْ يقومُ الليلَ مَنْ يقتاتُ، فالبطنُ لا تملأُهُ الصَّلاةُ [٣]
والنملُ لا يسعى إليه الحَبُّ ونملتي شَقَّ عليها الدأبُ [٤]
فَخَرَجتْ إلى التماسِ القُوتِ وجعلتْ تطوفُ بالبيوتِ
تقول : «هل من نملةٍ تقيَّهْ، تُنعِمُ بالقُوتِ لذي الوَلِيَّهْ ؟» [٥]
«لقد عَيِيتُ بالطَّوى المُبَرِّحِ، ومنذُ ليلتين لم أُسَبِّحِ» [٦]
فصاحت الجاراتُ : «يا لَلعارِ ! لم تَتْرُكِ النملةُ لِلصَّرصارِ !» [٧]
متى رضينا مثلَ هذي الحالِ ؟ متى مددنا الكفَّ للسؤالِ ؟»
«ونحن في عينِ الوجودِ أُمَّةْ ذاتُ اشتهارٍ بِعُلُوِّ الهِمَّةْ»
«نحمِلُ ما لا تصبِرُ الجمالُ عن بعضه لو أنها نِمالُ !»
«فامضي، فإنّا، يا عجوزَ الشُّومِ، نرى كمالَ الزهدِ أنْ تصومي !» [٨]

١ تنبالة : بليدة متكاسلة . البطالة: القعود عن العمل . ٢ التقشف : الاقتصار في العيش على ايسر الحاجات . ٣ يقتات : يطلب القوت . ٤ شق عليها : صعب عليها . الدأب : المواظبة على السعي . ٥ الولية : القريبة . ٦ عييت : عجزت ، ضقت ذرعاً . الطوى : الجوع . المبرح : المؤلم المضني . لم اسبح ، يراد بها : لم اقم بواجب العبادة . ٧ الصرصار والصرار والصرصور : حشرة شهيرة باضاعة الصيف في التصويت الممل الذي يجري على وتيرة واحدة . وقوله :«لم تترك النملة للصرصار» عنى به : لم تدع النملة كسلاً يذكر به الصرصار . ٨ عجوز الشوم : عجوز النحس .

تمرين

اضبط بالشكل هذين المثلين من امثال شوقي ، واشرح المعنى وضع عنواناً لكل منهما .

وقف الهدهد في با ب سليمان بذله
قال: يا مولاي كن لي، عيشتي صارت مُمله
متّ من حبة بر احدثت في الصدر غله
لا مياه النيل ترويها ، ولا امواه دجله
فأشار السيد العا لي الى من كان حوله :
قد جنى الهدهد ذنباً ، وأتى في اللؤم فعله
تلك نار الاثم في الصدر وذي الشكوى تعله
ما ارى الحبة الا سرقت من بيت نمله
ان للظالم صدراً يشتكي من غير عله

•

برز الثعلب يوماً في شعار الواعظينا
ومشى في الارض يهدي ويسبّ الماكرينا
ويقول : « الحمد لله إله العالمينا ! »
« يا عباد الله توبوا ، فهو كهف التائبينا »
« وازهدوا في الطير ان العيش عيش الزاهدينا »
« واطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا ! »
فأتى الديك رسول من امام الناسكينا
عرض الامر عليه ، وهو يرجو ان يلينا
فاجاب الديك: «عذراً، يا اضل المهتدينا »
« بلغ الثعلب عني ، عن جدودي الصالحينا »
« عن ذوي التيجان ممن نزلوا البطن اللعينا »
« انهم قالوا ، وخير القول قولُ العارفينا : »
« مخطىء من ظن يوماً ان للثعلب دينا ! »

امثلة على نثر امين الريحاني في الرحلات

جرة تكسر وقلوب تذعر

غادر امين الريحاني ، ورفيقه في رحلته السيد قسطنطين يني ، مدينة عدن – وهي المرفأ الشهير في جنوبي الجزيرة العربية على المحيط الهندي – فسافرا شمالاً يريدان صنعاء عاصمة اليمن . فمرا في الطريق ببلدة تدعى المسيمير ، يتولى امرها سلطان اسمه علي بن مانع رئيس قبيلة الحواشب . ونزلا عليه ضيفين . ثم ودعاه ليلة وقالا له انهما غاديان على السفر . ولكن ما كادت تتحرك ركابهما في صباح اليوم التالي حتى وقعت لهما هذه الحادثة الطريفة التي قصها الريحاني باسلوبه المشوق في كتابه: «ملوك العرب»، قال :

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة، واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانياً . وفهمنا منه انه قبل بذلك . الا اننا في صباح اليوم التالي ، بينما كان المكارون والخدم يحمّلون ، دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة ان اناءً من الفخار تكسّر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن اناء آخر تبعه ، رأيناه يرمى من النافذة ولم نرَ الرامي ، فأصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً ، ثم جفنة[1] ثم قطعة اخرى من الفخّار تحطمت بين اقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون: هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا ، اقول : قلبي ولا اتهم رفيقي ، يختلج حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر ، وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبي ، عندما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فأطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هو ذا الخطر الذي نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا ، فاذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الاطباق ومعهم

[1] الجفنة : اناء من الخزف .

بضعة عساكر . جاؤونا بالفطور ! إي بالله . كيف نسافر قبل ان نُفطر ؟ وكيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخّار الذي رمونا به ، فأخبرونا ان السلطانة ، وهي في خدرها، رأتنا من على السطح في أهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من اجلنا. فأرادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان تُسمعنا صوتها ، او تُرينا، من النافذة، وجهها، فرمتهم بالفخّار تستفيقهم لينهضوا ، ويهيئوا لنا الطعام : الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون.

اكثر الله ، ايتها السلطانة ، من فخّارك ، وجعلنا ألسنة فخّارك. انك ، في الضيافة، شاعرة الأقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . كيف لا ، وانت السيف في اكرام الضيف ، تضربين من اجلنا الكسل ، وتُلحقيننا بالعسل .

تروّعين ، ايتها الحوشبية الألمعية ، ولا تُجوّعين . قد كنت حديثنا وموضوع اعجابنا حتى في بلاد الزيود[1] ، التي تنسي المرء الحبيب والمعبود .

سؤال كالصاعقة ! وجوابه: أنا عربي ، يا حضرة الامير ...

ثم وصل الريحاني ورفيقه الى ماويّة ، وهي اول بلد من بلدان الزيود، شمالي عدن ، فلقي فيها « السيد الامجد علي بن الوزير » ، امير جيش الامام في لواء تعز . واليك ما وقع له في مجلس الامير، قال الريحاني (وفي هذه القطعة يبدو لنا ما ذكرنا من اسلوب المؤلف كيف يبثّ آراءه في اثناء كتابة الرحلات):

بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبد الله العرشي وفيه يعرّفه، إما خطأً وإما تلطفاً ، الى « السيد »[2] امين الريحاني ، فظنني حضرته مسلماً من اشراف المسلمين، واراد ان يعرف الى اي الفرعين أنتسب ، فسألني قائلاً : هل انت حسني او حسيني ؟

وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صوَر كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ أفلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم

١ الزيود : فرقة من المسلمين تنتسب الى زيد بن علي بن الحسين ولد الامام علي بن ابي طالب . والزيود هم اهل اليمن اليوم . ٢ وضع الريحاني هذه الكلمة بين اهلة لان « السيد» لا تستعمل في اليمن الا لمن كان من السلالة النبوية .

وعلمائهم، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن او اشد، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل احدّ ، ولا نزال والحمد لله في بداية الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

- جاوب يا فتى ! هل تكذب على الامير فتنتسب ؟ وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذكر اني في خمس لحظات غيّرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى دروين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذ حقيقة دينك ! اصدقه الخبر يا رجل ، ولكن ولكن - هل تعلن امام هذا الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك او مسيحيتك او دروينيتك ؟ قد يوقفونك فيأسرونك ، ويرجعونك الى حيث جئت . هذا اخف ما في البلية ومن جهة اخرى اشدها -

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي . جرت مجرى الكهرباء . وانا اثناء ذلك اسير خوفٍ اشد من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي - من الفشل ، من الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً . ولكنه سبحانه ، بعد ان غيّرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح عليّ فقلت مجيباً : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكلّ رَبعٍ من ربوعك حرمةٌ   وهوىً تغلغل في صميم فؤادي

اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة . وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بشّ لقدومنا بشاشة الصديق ، فلمسنا القلب منه في سلامه وتبادلنا واياه الثقة والولاء . فقال يعقّب على جوابي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنان .

سهرة لبنانية : رقصة الدبكة[1]

واليك مثالاً آخر على ادب الريحاني في الرحلات ، اخترناه من كتابه « قلب لبنان » المطبوع بعد وفاته ، وفيه تتجلى قدرته على الوصف ويظهر الريحاني الناقد الفني... قال :

وجاء شباب القرية بما وُهبوا واكتسبوا من علم وفن ومعرفة ، فكان بينهم القوّال والرقّاص والنافخ بالقصب . وجاءت البنات ذوات الجمال القروي الوديع ، يساعدن ربة البيت ، فكانت احداهن تقدم الشراب ، والاخرى القهوة ، وتجيء الثالثة بالماء من العين

١ المشهد الذي يصفه الريحاني في هذا الفصل حضره في « جاج » احدى قرى جبيل اللبنانية .

الى المطبخ ، والرابعة تهيء الأراكيل ، وكلهن يعملن فرحات جذلات ، كأنهن في عرس اخ لهن . هي المروءة يتغذى القروي والقروية صغيرين بلبنها !

وكنا كأننا في عرس . وعندما جلسنا الى المائدة ، شاء رب البيت ان يكون العشاء مصحوباً بشيء من الموسيقى والغناء ، كما لو كنا في لوكندة باريسية ، فأرسلت شقيقته صوتها الشجي ببيت من « العتابا » ، ونفخ القصّاب بقصبه مرافقاً لها . وكان احد الشبان يباريها فيبدأ حيثما تقف ، دون ان يبعد عن النغم والمعنى .

اني ممن يُعجبون بهذا العربي البدوي ، الذي تصفو فيه عواطف الحب وتشتد لواعجه . واني ممن يُطربهم صوت القصب ، ذلك الصوت العريض الأجش ، الذي تتمثل فيه خشونة البادية ونغمها الوحيد ، نغم الوحشة والقسوة والأمل. اما الرقصة البدوية الشهيرة التي تدعى الدبكة ، فهي من الفن العالي بمكان . ان في خطواتها همسَ المرأة ، ونبرة الرجل . وان فيها الحركات الهادئة المترددة ، تقطعها وتصِلها الحركات الآمرة المهدّدة .

يا حلوه بحياة قدّك

والحلوة تميل بقدّها ، وتغنج برجلها ، فيضرب الشاب الارضَ برجله ويكمل البيت :

بَدْنا بوسه من خدك

وُعقدت السلسلة تلك الليلة من الشباب والبنات . وكانت على رأسها ربة البيت وهي تلوّح بالمنديل . فنفخ القصّاب بقصبه وصفّق احد اخوانه بيديه هاتفاً : « زقفة » يا شباب ! فلعب الطرب في النفوس ، وخفّت الايدي والرؤوس. فكنا كلنا مسوقين بالنغم الوحيد، والنظم الفريد: نغم القصب العميق، ونظم الارجُل الرشيق. وكان القصّاب وهو في وسط السلسلة المستديرة التي تكاد تصير حلقة ، يحنو[١] رأسه حيناً وحيناً يرفعه فيذوب هياماً ، ويزيد بنار الدبكة إضراماً .

يا حلوه بحياة قدّك
بدنا بوسه من خدك

حَيّهلا — حيّهلا !

وبعد الدبكة اخليت الساحة لاحدى البنات اللواتي يُحسنّ الرقص وحيدات . فغيّر النافخ بالقصب نغمه ، فوقفت صاحبة القدّ الاهيف ، والوجه المليح ، وقد غضّت من

١ يحنو ويحني : يلوي .

طرفها ، ومالت الى الكتف برأسها ، ثم بسطت يديها ، وطفقت تقدّم الرجل اليمنى ، وتجرّ رأس اليسرى وراءَها ، فتمدّ الخطوات وتدوّرها ، كأنها تكتب برجليها احرف الحب . ثم تثني[1] منها الزند ، وتهزّ الكتف هزّة لطيفة ، فيغار العنق مما انثنى الى جنبيه فيعطف ويميل ...

هنيهة[2] ، في ذلك الاوج من سذاجة فنها ، ثم تدرج واليد على خصرها ، والاخرى امامها ، فتثني منها العطفين ، وتعيد الكتابة برجليها لرسالة الحب ، مسرعة حيناً وحيناً متمهلة . ثم تقف فجأة وتنحني للسلام ، كتلميذة مدرسة مثلت دورها .

وما عاب رقصها هذا غير المفاجأة في الختام . فلو انها عندما تتمهل في خطواتها تستمر متمهلة ، وهي تبعد من وسط الساحة ، فتتوارى كالطيف ، لكملت فنها بالذوبان ، عكس الراقصة الاوروبية التي تختمه بالعنف والهياج . وعندي ان الحالة الاولى هي اقرب الى الحقيقة واشد وقعاً في النفوس المهذبة .

انشاء ادبي

١ – قيل : كانت الطفولة محرومة[3] الشعر حتى ظهر شوقي . فماذا يراد بهذا القول ؟ وهل توافق عليه ؟

٢ – لو كان للشيخ ابراهيم اليازجي علم الدكتور يعقوب صروف ، او كان للدكتور صروف علم الشيخ ابراهيم ، لظفرت اللغة بكاتب عالم من الطبقة الأولى . اشرح هذا القول وتوسع في تأييده او دحضه بالبراهين من آثار الرجلين .

٣ – صف نزعات امين الريحاني وأسلوبه ، معتمداً على ما طالعت له في المنتخبات .

١ تثني : تعطف . ٢ هنيهة ، يريد : قضت هنيهة .

فهرست

تصحيح

الصفحة	خطأ	صواب
٧	عمّان	عمان
٣١	أُرْشُدِ	أَرْشُدِ
٤٨	المستعصم	المعتصم
٤٨	وفي اثناء هذا العصر بدأ على الشرق هجوم آخر غير الزحف المغولي الخ ...	وفي اثناء هـذا العصر قامت دولة الايوبيين في مصر وسوريا على انقاض الدولة الفاطميّة ، وبطلها هو القائد المشهور صلاح الدين الايوبي كذلك في اثناء هـذا العصر بدأ على الشرق هجوم آخر غير الزحف المغولي الخ ...
٤٩	دولة الايوبيين في مصر وسوريا قامت على انقاض الدولة الفاطمية وبطلهـا هو القائد المشهور صلاح الدين الايوبي	(تحذف الجملة كلها من مكانها)
٤٩	دولة المماليك في مصر وسوريا أيضاً	دولة المماليك في مصر وسوريا .
٥١	أعصر الانحطاط { مدتها اكثر من خمسة قرون مع مـا فيها غزوات المغول والحملات الصليبية وحكم الايوبيين	(يحذف من آخر العبـارة : « وحكم الايوبيين »)
١٠٣	عاش في اعصر الانحطاط زمن الدولة الايوبية	عاش في زمن الدولة الايوبية .
١٦٣	لابي العتاهية في العصر الاول	لابي العتاهية في العصر العباسي الاول.
٢٣٧	حق المجموع عند الفرد	حق المجموع على الفرد .

الصفحة	خطأ	صواب
٢٤٤	فمن اخلص في ايام امله قبل حضور اجله فقد خسر عمله وضره امله	فمن اخلص في ايام امله قبل حضور اجله فقد نفعه عمله ولم يضره امله. ومن قصّر في ايام امله قبل حضور اجله فقد خسر عمله وضرّه امله .
٢٨٧	وهو وهو قد توعّدك	وهو قد توعّدك .
٣١٣	المتوكل تاسع الخلفاء العباسيين	المتوكل عاشر الخلفاء العباسيين .
٤١٦	ومنها الميمية المعروفة بنهج البردة	ومنها الميميّة المعروفة بالبردة .
٤٤٦	في عصر كعصرها	في عصر كعصرنا .
٤٤٧	كما بقي الشعر العربي قائماً على قوانينه القديمة	كما بقي الوزن العربي قائماً على قوانينه القديمة .

مطبعة الاتحاد – شارع الامير بشير ، بيروت (لبنان).